الرابطة الأدبية

مجلة رابطة الكُتاب السوريين

صدر هذا العدد بدعم ورعاية من

المهندس وليد الزعبي

الرابطة الأدبية

مجلة رابطة الكتاب السوريين

تاسست بدمشق سنة 1921 منبرا لـ«الرابطة الادبية»
وأعيد تأسيسها في المنفى اللندني سنة 2012
منبرا لـ«**رابطة الكتاب السوريين**»

موقع المجلة والرابطة
SYRIANSWA.COM

للمراسلة
editor@syrianswa.com

العدد صفر
15أيلول-سبتمبر **2012**

حرر العدد
نوري الجراح

شارك في التحرير
مفيد نجم، حسام الدين محمد، عبد الناصر العايد

المدير المسؤول
ابرهيم الجبين

الإخراج
ناصر بخيت

أعمال النحت
الفنان جمال الجراح

تصميم شعار «الرابطة الأدبية»
الفنان منير شعراني

فهرس المحتويات

- دراسات
- مقالات
- شهادات ويوميات
- شهادات السجن والاعتقال
- المثقفون والثورة
- شعر
- وثائق الرابطة

هذا هو العدد صفر من مجلة «الرابطة الأدبية»، وهو عدد وثائقي وتوثيقي، جل ما فيه يعبر عن قلق الفكر والثقافة في سوريا ومن حولها وتفاعلهما الخلاق مع الثورة السورية على نحو حر وقيم ومبدع.

«الرابطة» ومجلتها اسمان على مسميين، الأول يعود إلى خمسينيات القرن العشرين حيث تفتحت، وللمرة الأولى، أزهار الحرية في سوريا الخارجة من عهود الاستعمار والانتداب، وقامت جماعة من الكتاب السوريين سنة 1951 وفي ظل عهد ديمقراطي وليد، بتأسيس ما سمي بـ«رابطة الكتاب السوريين» إطارا حراً لأصوات أدبية ذات ميول واتجاهات مدنية ويسارية لعبت دورا في تطوير مختلف الاجناس الادبية في سوريا.

لكن هذه التجربة وما قام بعدها على انقاضها عشية الوحدة السورية المصرية 1958 من كيان ثقافي تحت مسمى «جمعية الأدباء العرب» ضم أيضا لفيفا قوميا وديمقراطيا، وما تبع ذلك من تطورات أدت بعد فشل الوحدة إلى ظهور «اتحاد الكتاب العرب» سنة 1966. كل هذه التطورات المتلاحقة من الحراك الثقافي القلق في إطار مجتمع مدني سرعان ما جرت تصفيته مع وصول دبابات العسكر الناصري والبعثي لتسحق الديمقراطية الوليدة وجعلت كل شيء في سوريا ينتمي إلى لون واحد، فانتهت التجارب الديمقراطية في الثقافة لصالح اتحاد عبر بالضرورة عن التسلط الديماغوجي المبكر للحزب الواحد، وقد أسفر عن نفسه في ما بعد، بصورة بالغة الشناعة والوحشية، محققا ذلك التطابق بين ديكتاتور على رأس البلاد لم يتزحزح حتى مات، وبين ظلٍّ له في الثقافة، يرزح على رأس «اتحادها المفرد» أداة تكمم المثقف وتصادر الثقافة وتخضعهما لعقود في مملكة الصمت والجريمة، منفذة سياسات الديكتاتور العسكري، «ثقافة» تتسلط على المجتمع وثقافته، ساعية طوال عقود إلى تجميل الوجه البشع لحكم استبدادي عائلي مافيوي عسكري بذيء تقنع بشتى أقنعة الثورة وشعاراتها في الحرية والاشتراكية وبقية الاسطوانة الكاذبة والمشروخة فيما يحيل الشعب الى عبيد والبلاد الى مزرعة عائلية متجها بالجميع إلى خراب كامل.

أما الاسم الثاني، ونعني به «الرابطة الأدبية» اسم المجلة فيعود بنا عقودا إلى الوراء، عندما استجابت سنة 1921 جماعة من الكتاب السوريين إلى نداء جبران خليل جبران وجماعة «الرابطة القلمية» في نيويورك وقامت بتأسيس أول رابطة أدبية في بلاد الشام، ومقرها دمشق، وجعلت لها منبراً دوريا رصينا حمل اسم «الرابطة الأدبية»، وعرف من بين مؤسسي الرابطة ومجلتها كل من: ماري عجمي، خليل مردم بك، أحمد شاكر الكرمي، المطران ابيفانيوس زائد، محمد الشريقي. لكن المجلة ورابطتها لم تعمرا طويلا، وسرعان ما داستهما عربات العسكر الفرنسي.

وبهذا التطابق بين فعل الاستعمار في المجتمع المستعمَر، وبين فعل المستبِد بالمجتمع المستبد به يقع التطابق بين الأفعال وتكتمل الدائرة والدلالة لنكتشف بعد نحو 70 عاما على احتلال فلسطين أن الاستبداد هو الحاضنة الكبرى للاستعمار ولننطلق من هذه المسلّمة في فهم وقراءة ما يجري في سوريا والمنطقة اليوم.

على هذه الخلفية، وفي ظل الثورة السورية العظيمة وقد اندلعت بطاقة سلمية جبارة تحدت صنوف الموت والعذابات، وتفاعلا من الكتاب السوريين مع ثورة شعبهم، تنادى عدد منهم إلى «تأسيس رابطة الكتاب السوريين» منبرا ديمقراطيا للكتاب ومنصة للجهر بالرأي والمشاركة الفعالة في الحراك الثوري. وبذلك اعتبرت الرابطة أول مولود ديمقراطي للثورة السورية في ألفيتنا الثالثة وقد تنادى إلى تاسيسها كل من: صادق جلال العظم، ياسين الحاج صالح، فرج بيرقدار، مفيد نجم، خلدون الشمعة، حسام الدين محمد ونوري الجراح (كاتب هذه السطور).

الروابط والاتحادات الأدبية المبكرة عبرت من جملة ما عبرت عنه عن الحاجة إلى تطوير الأدب من خلال بحث اجتماعي

ذي تطلعات مدنية، ولم يقف على رأسها مؤسس، ولكن لجان تأسيسية جماعية.

ورابطة اليوم تشترك مع التجارب السابقة بمكوناتها وببعض تطلعاتها، وتذهب لتعبر عن أصوات الثقافة السورية وقد توشّت سجادتها واغتنت بخيوط شتى، وتطلعات تتقاطع وتتلاقى، وكلها تؤمن بحرية التفكير والتعبير والتطلع والحوار بين أصوات المجتمع على اختلاف مرجعياتها ومشاربها الفكرية والجمالية.

وبالتالي فهي حسب بيانها التأسيسي المنشور «رابطة ثقافية حرة، عضويتها متاحة لكل الكتاب السوريين من مختلف التيارات الأدبية والفكرية الراغبين في أن يكونوا أعضاء فيها. والرابطة مفتوحة لكتاب عرب وغير عرب مساندين للشعب السوري كأعضاء شرف، أو كاملي العضوية إذا كانوا يقيمون في سوريا بصفة دائمة، كما هو الحال بالنسبة إلى الكتاب الفلسطينيين ممن يقيمون في سوريا فهم «يتمتعون بالعضوية الكاملة في الرابطة، وينطبق عليهم ما ينطبق على إخوتهم من الكتاب السوريين».

ومن بين أهم مبادئ الرابطة، وهو ما جعلها تصر على اسمها رابطة سورية اعترافها بالتعددية الثقافية التي ينهض عليها المجتمع السوري، وقد وضعت نصب عينيها «إزالة الأسباب التي غيبت لأجيال المكونات الثقافية المختلفة وفتح المجال امام هذه المكونات للتعبير عن ذواتها المبدعة بلغاتها الخاصة، وفي المقدمة منها اللغتان الكردية والآشورية السريانية».

وعليه فالرابطة تتطلع إلى أن تكون «حاضنا لتفاعل التيارات الأدبية والفكرية المختلفة التي تزخر بها الحياة السورية، وإلى أن تكون إطارا عمليا لنقد وتفكيك ثقافة اللون الواحد التي كرسها استئثار حزب البعث الحاكم بالسلطات المادية والرمزية وسلوكه الشمولي الإقصائي الذي تجسد في «اتحاد الكتاب العرب» على مدار عقود من حكم التعسف الأمني».

وفي ما سلف، وهو ما يكفل للثقافة السورية أن «تستعيد دورها التغييري والنقدي الريادي والمحرر، ويستعيد المثقفون استقلالهم وقدرتهم على المبادرة والتجديد الفكري والجمالي والأخلاقي، وأن نضع أنفسنا في صف شعبنا للدفاع عن حريات مواطنينا وحقوقهم ووحدتهم».

هذا العدد تشكل مواده تحية لحملة الأقلام المنخرطين في الثورة والمساندين لها، وهو لم يضم، بداهة، كل ما كتب خلال الثورة من قبل الاقلام السورية والعربية المساندة لها، فهو كثير جدا، وبالتأكيد فإن بعض ما فاتنا نشره هنا لابد أن يكون ذا قيمة.

أخيرا، إن قراءة هذا المطبوع ونقده، من شأنهما أن يفضيا بنا إلى نشرة الرابطة التي نروم معاً أن تعبر عنها مستقبلا أحسن تعبير.

عاشت ثورة شعبنا السوري العظيم

عاشت الثقافة السورية الحرة

المحرر

■ *إشارة: كل ما لم يكتب خصيصا لهذا العدد نشر في دوريات ونشريات ورقية وإلكترونية أو حصلت عليه المجلة مباشرة من أصحابه، فاقتضى التنويه.*

دراسات

- جورج صبرة
- حسام الدين محمد
- برهان غليون
- صبحي حديدي
- سلامة كيلة
- ماجد كيالي
- ياسين الحاج صالح

الثورة السورية والأحزاب

جورج صبرة

استهلال: ولادة جديدة

قبل نصف قرن ونتيجة لانقلاب عسكري ، حصل في بلادنا حكم الحزب الواحد ، الذي أسس نظاماً شمولياً ودولة أمنية تعتمد التسلط والقمع . وبقوة القهر وحدها أبعدت الشعب عن مركز القرار ، وحرمته من حقه الطبيعي في تقرير شؤونه بنفسه ، وسلطت عليه أذرعها الحزبية والأمنية وزمرها الطائفية ، فأعاثت فساداً وإفساداً في كل من الدولة والمجتمع . وخربت الدولة ومؤسساتها ، وضعضعت بنية المجتمع وصدَّعت وحدته الوطنية .

ومنذ أكثر من أربعين عاما تنفرد عائلة واحدة بالسلطة السياسية في سورية ، مثلما تستأثر بمقدات البلاد . هذا الشكل من الحكم الاستبدادي التعسفي حوَّل البلاد إلى ما يشبه الإقطاعية الوراثية ، وجعل مؤسسات الحكم الرسمية في سورية تذبل وتعفن . وتحديداً فإن المزيج من الحكم المتقلب من قبل زمرة خاصة ومتحولة وعدم فعالية المؤسسات التي تعطلت وتشوه عملها ، لأنها تحولت لخدمة فئوية وصارت مجبرة على خدمة " العائلة المالكة " بدلا من الشعب ، قد أثار مطلب التغيير الجذري في سورية منذ زمن طويل من أجل إعادة السلطة للشعب والدولة للخدمة العامة ، وإعادة بناء الوطنية السورية على قاعدة المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات وإحياء قيم الحرية والعدل والعمل من إجل بناء الدولة المدنية الديمقراطية التعددية .

لا أحد في سورية، يخشى ولادة سورية الجديدة ، غير عائلة الأسد بامتداداتها ومصاهراتها وشراكاتها والمنتفعين من حولها ، وكذلك من سهل أعمال القتل والتعذيب والترهيب والفساد الذي تطبقه . ومن الواضح أن العائلة وزبانيتها . ودفاعاً عن مصالحها الخاصة . تسعى إلى التخويف من التغيير ، لتحول دون هذه الولادة التي تريدها الثورة وتعمل من أجلها . إن السلطة تنشر بشكل تضليلي ومخجل دعاية في أوساط إخوتنا وأخواتنا من أبناء الطائفة العلوية بأنهم سوف يعاقبون على خطايا العائلة ، وسيخضعون لأعمال انتقام بسبب انتمائهم الطائفي ، وإن استمرار العائلة في الحكم ضمان وحيد لحمايتهم . كما تكذب على إخوتنا وأخواتنا المسيحيين بقولها : إنها وحدها تقف مع النظام المدني ، وأنها وحدها من يكفل حقوقهم وحرياتهم الدينية والثقافية ، وأنه إذا ذهب النظام الحالي سيأتي نظام دولة دينية إسلامية ، يعتمد الأصولية والتعصب والتطرف ، أو تحدث فوضى أمنية واجتماعية تشكل خطراً على وجودهم . وبينما تدمر أحياء كاملة بالمدفعية الثقيلة ، وتقتل الرجال والنساء والأطفال دون تفرقة ، وترتكب المجازر دون رحمة ، فإنها تقول للشعب السوري بأن البديل عن إجرامها هو الفوضى والإرهاب وانعدام الأمن . بينما الحقيقة إن استمرار النظام وحكمه الفئوي العائلي المجرم هو الذي يجسد المجهول وعدم الاستقرار والفوضى ، ويمكن أن يحمل البلاد إلى مطارح الخطر التي لا تريدها سورية ولا السوريون .

إن الثورة السورية تقف مع الاستقرار وسيادة القانون ونبذ العنف والسلم الأهلي ، وتعمل من أجل ذلك بقوة التضافر الشعبي والوئام الاجتماعي والوعي الوطني الذي ميز حياة السوريين المشتركة طوال أكثر من ستين عاماً من عمر دولتهم المستقلة . فهي ليست حركة متطرفة في صميمها ولا عنفية ولا فئوية . إنها ثورة كل السوريين منهم ولهم . تهدف ببساطة إلى إعادة الحياة الدستورية إلى البلاد ونظام الحقوق المتساوية والحريات العامة ، الذي اقيم عند ولادة الجمهورية

السورية ، وتعمل على تحديثه وحمايته وضمان استقراره . وسوف تتخذ كافة الإجراءات التي تحول دون سيطرة أي فرد أو عائلة أو جماعة على السلطة وعودة الديكتاتورية ونظام التسلط من جديد تحت أي غطاء أو عبر أي مبررات ايديولوجية أو سياسية .فالثورة السورية قائمة كلياً على المواطنة ، وترفض تماماً أي امتياز أو إجحاف يقوم على أساس طائفي أو عرقي أو جنسي . إن هدف الثورة تصحيح الاختلالات الكبيرة التي حصلت في الحياة العامة للشعب السوري ، وأدت إلى تراجع البلاد وتخلفها في مختلف الميادين ، وإعادة بناء وطن جديد لكل أبنائه على أسس الحرية والعدل ، لتستعيد سورية وجودها الحقيقي ودورها المفقودين . وتسعى الثورة السورية باختصار إلى استبدال نظام الحكم المطلق القائم على عدم الاستقرار وعدم المحاسبة والعشوائية والتهور والتمييز ، الذي تديره وتحتكره أيد معدودة ، بنظام يقوم الحكم فيه على إرادة المحكومين، يرعى وجودهم ويحقق مصالحهم . نظام قائم على مؤسسات وطنية قوية ونزيهة وفعالة ومكرسة كليا لخدمة الشعب بدلا من مصلحة عائلة واحدة أو زمرة بعينها ، نظام يستحق اسم " نظام وطني " .

2012 / 5 / 31

محطة الشام للربيع العربي :

عندما قامت الثورة السورية بانطلاق أول مظاهرة من الجامع الأموي بدمشق في الخامس عشر من آذار 2011 ، ظن الناس أنها مجرد محاولة تقليد صغيرة لما جرى في تونس ومصر. وعندما سقط أول شهيد من شهداء الثورة في درعا بعد ثلاثة أيام ، اعتقدوا أنها حماقة نظام يمكن أن تعالج بسرعة. غير أن امتداد التظاهرات خلال أيام قليلة إلى ريف دمشق وحمص وبانياس واللاذقية بتصميم واضح ، وضع الرأي العام أمام الحقيقة الناصعة : نعم إنها الثورة .

لم يكونوا كثراً - في الداخل والخارج - أولئك الذين آمنوا منذ البداية بأن الثورة الديمقراطية قدر لا يمكن تجنبه ، وأن التغيير في بلادنا حاجة إنقاذية طال انتظارها ، وقد وُضع على جدول أعمال الشعب السوري. كانوا قلة من النخبة السياسية المعارضة التي أمضت عمرها في مقارعة نظام الاستبداد، وتنقلت طويلاً بين السجون والمعتقلات وحالات التخفي والعيش في المنافي . عبر عنهم رياض الترك ••• في رسالته المشهورة إلى الشعب بتاريخ 2011/03/12 عندما تحدث عن « طيف اسمه الحرية يهيمن على كل أرجاء الوطن « وأن « التغيير آت لا محالة ، وسورية لم ولن تكون أبداً الاستثناء « . قلة من الفاعلين والمراقبين - في الداخل والخارج - كانت تصغي جيداً إلى هدير الغضب المكبوت في صفوف الشعب ، وكانت ترى تصميماً غير قابل للارتداد في عيون الشباب السوري الذي انطلق في الشوارع هاتفاً « للحرية والكرامة «.

ومثلما حدث مع المواقع الأخرى للربيع العربي كانت استجابة المحيط الإقليمي والمجتمع الدولي في البداية بطيئة وباردة . تتركز على الاهتمام الإعلامي فقط ، دون أن تثير أي استجابة سياسية ذات شأن. وعندما توسعت شرارة الثورة لتصبح لهيباً في العديد من المحافظات السورية ، بدأت ردود الفعل السياسية الدولية بداية متواضعة . تمثلت بتوجيه نصائح للنظام الحاكم بضرورة إجراء إصلاحات تتلاقى مع شعارات المتظاهرين، وتلبي ولو جزئياً مطالب الشعب. فعلت ذلك الدول العربية ومعظم دول العالم .

جهل النظام أو تجاهله لحقيقة ما يجري في البلاد ودلالاته ومؤشراته من جهة ، وتصاعد الفعاليات المتنوعة للثورة من جهة أخرى ، دفعا المراقبين في العالم من استراتيجيين وسياسيين وإعلاميين إلى الانتقال خطوة إلى الأمام في تقييم الوضع في سوريا، بعد ما اتضح للجميع أن ما يجري ليس شيئاً عابراً ، ولن تجدي معه الحلول الأمنية. فتقدم المجتمع الدولي نحو النظام بأكثر من النصائح . وجاءته الرسائل السياسية الواضحة مباشرة عبر الزيارات واللقاءات ، وغير

مباشرة عبر التصريحات ، التي تحثه على المعالجات السياسية . وأن الإيغال في أعمال القتل والسجن والتنكيل الأخرى لن تجدي نفعاً. لابد من وقفها والشروع بإجراءات سريعة وإصلاحات سياسية مطلوبة.

أصم النظام أذنيه عن كل ما يسمع من القريب والبعيد. فانتشر لهيب الثورة وإيقاع تقدمها في المدن والقرى ، وبدأت أعمال القمع الوحشي على بشاعتها تنعكس إيجابياً على مسار الثورة ، لتزداد عمقاً واتساعاً. مما دفع الدول المعنية إلى رفع وتيرة خطابها السياسي نحو النظام باتجاه مزيد من الانتقادات لأعمال العنف التي يواجه بها التظاهرات السلمية بالحديث عن «عنف غير مبرر» . وتصاعدت هذه الموجة من الانتقادات ، لتصل إلى بيانات الشجب والاستنكار والرفض لما يفعله النظام بشعبه، والرفض لتقييمه للأمر على أنه « مؤامرة خارجية « ينفذها « مندسون ومسلحون «.

بقيت ردود الفعل الدولية تجاه الربيع السوري بطيئة وبسيطة ، تداري النظام ، وتريد بقاءه ، مكتفية بالتعبير عن مخاطر سلوكه . ثم بدأت تتحول في تصاعد متدرج ، تحكمه إيقاعات الأحداث والوقائع . وعندما رفع السوريون الثائرون شعار « الشعب يريد إسقاط النظام « بدأت أصوات من المحيط العربي والمجتمع الدولي بالارتقاء إلى فضاءات جديدة ، تمثلت بالحديث عن « أن ما يجري في سوريا أمر لا يمكن السكوت عنه «. وبدأت توجه رسائل واضحة لدعم الحراك الثوري الديمقراطي للشعب السوري. والتحدث عن « مجازر بشعة وأعمال عنف لا يمكن القبول بها «. وهنا استحكمت مشكلة النظام مع المحيط العربي والمجتمع الدولي التي وصلت حد القطيعة. إذ فقد الجميع أي أمل بمفعول النصائح ، وكذلك بانعدام رغبة النظام وقدرته على ولوج طريق الإصلاح والتغيير.

اكتسب السوريون نتيجة تصميمهم على الثورة وقدرتهم العالية على التضحية من أجلها احترام وتعاطف العرب والعالم (خاصة دول الخليج العربي) وانتقل المجتمع الدولي للاهتمام بأمر السوريين ومقاربة الوضع من جهة الشعب السوري ومعاناته المتصاعدة . وانتقل الحديث إلى دعم طموح السوريين إلى الديمقراطية وبناء الدولة المدنية ونظام الحريات والحياة الدستورية والقانونية . وكذلك التصريح بأن النظام لم يعد قادراً على حكم البلاد بل على احتلالها فقط . وأن على بشار الأسد أن يسلم السلطة ويرحل.

تراكمات في العمق / نار تحت الرماد:

تشهد الوقائع والتاريخ المعاصر للسياسة السورية أن معارضة نظام حافظ الأسد الذي جاء إلى السلطة بانقلاب عسكري في 1970/11/16 ، بدأت منذ اليوم الأول لاستلامه الحكم ، حين زج بالسجن رفاقه البعثيين الذين انقلب عليهم ، وأبقاهم قيد الاعتقال التعسفي خمسة وعشرين عاماً. أما الخروج الرسمي والمعلن للمعارضة فقد شقه حزب الاتحاد الاشتراكي الديمقراطي العربي ، الذي كان يقوده الدكتور جمال الأتاسي بخروجه من «الجبهة الوطنية التقدمية» احتجاجاً على الدستور الذي فصَّله نظام الاستبداد على مقاس الحزب الواحد والحاكم الفرد عام 1972. وفي حزيران عام 1976 أعلن عن خروج حزب جديد إلى صفوف المعارضة هو «الحزب الشيوعي- المكتب السياسي» احتجاجاً على دخول الجيش السوري إلى لبنان.

انتظمت هذه الأحزاب الثلاث مع حزبين آخرين هما «حزب العمال الثوري» و «حركة الاشتراكيين العرب» بتحالف وطني معارض سمي «التجمع الوطني الديمقراطي» عام 1979، أعلن عن نفسه وعن مواقفه المعارضة لما يجري في سورية ببيان علني في آذار 1980. ومنذ ذلك الوقت ظهر «التجمع» تجمعاً للمعارضة القومية اليسارية الديمقراطية إلى جانب أحزاب أخرى معارضة، كحزب العمل الشيوعي والأحزاب الإسلامية كجماعة الأخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي.

خاضت أحزاب المعارضة السورية بمختلف اتجاهاتها معركة الوجود والاستمرار تحت شعار التغيير الوطني الديمقراطي بمواجهة نظام قمعي تسلطي فاسد مصمم على إنهاء المعارضة وإلغاء السياسة في المجتمع. واستمرت تجربتها المرة طوال عقدي الثمانينات والتسعينات ، وصولاً إلى موت الديكتاتور واستمرار النظام الديكتاتوري عام 2000 . اتسمت الفترة

2000-2005 باسترخاء أمني ، شجع نشاطاً ملحوظاً للأحزاب المعارضة باتجاه النضال الديمقراطي ، على صعيد القوى السياسية ومنظات المجتمع المدني ولجان حقوق الإنسان . سمي هذا النشاط بمجمله «ربيع دمشق» . فأنشئت الجمعيات والمنتديات للحوار الثقافي والفكري والسياسي ، كان أبرزها منتدى جمال الأتاسي للحوار الديمقراطي . وأسست جمعيات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني الأخرى. وكانت معظم النشاطات والفعاليات تدار من قبل نشطاء الأحزاب وبمشاركتها ورعايتها . وأبرز تلك الفعاليات تمت بتنظيم وإشراف « لجنة التنسيق الوطنية « التي ضمت معظم الأحزاب والمنظمات المعارضة . فدعت للاعتصامات والمظاهرات ، وأقامت الاحتفالات ، وأحيت المناسبات الوطنية وأصدرت البيانات والمواقف التي تطرح قضية الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان ومحاربة الفساد في واجهة الأحداث بسورية.

شهد العام 2005 ولادة «إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي» وهو أوسع ائتلاف وطني عريض شهدته البلاد منذ عام 1970. حيث ضم أحزاب التجمع الوطني الديمقراطي وحزب العمل الشيوعي والإخوان المسلمين إلى جانب قوى وتجمعات ليبرالية وشخصيات مستقلة. وكان الهدف إعداد البلاد للتغيير الديمقراطي وقيادتها نحو ذلك . قدمت الأحزاب السياسية السورية خلال هذه الفترة شيئاً كثيراً من خبرتها وكفاحية أعضائها لوضع الحقوق الدستورية للشعب موضع التطبيق، ورفع شأن الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان إلى مصاف الاهتمام كالقضايا الاجتماعية والاقتصادية للمواطن السوري. وبدأت شوارع دمشق وحلب تشهد ظاهرات جديدة ، بدت غريبة في البداية ، مثل الاعتصامات والتجمعات المعارضة واللافتات التي تنتقد وتطالب، لا تبارك وتؤيد . وبالتالي بدأت سورية تخرج ببطء وبشكل متدرج وحذر من وضعها السابق ك«مملكة للصمت» إلى الحلم بها كجمهورية للكلام المباح . وبدأ يجري على ألسنة الناس كلام جديد ، يستعيده السوريون من ذاكرتهم التاريخية ومن ثقافة العصر ومن قيم الإنسان الدينية والفكرية والحضارية. وصاروا يتداولون كلمات ومفاهيم حديثة مثل النظام الديمقراطي - الحريات العامة - الحقوق الدستورية - حقوق الإنسان - السجن السياسي - المواطن والمواطنة ، إلى آخر القائمة من تعابير لطموحات وآمال وأحلام مخبوءة. توجت هذه المرحلة عام 2007 بنجاح «إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي» بعقد مجلسه الوطني في قلب دمشق بشكل سري . شكل ذلك مفاجأة للنظام كحركة جديدة وجادة لنهوض وطني وبالاتجاه الصحيح ، تتوجه نحو التوحيد الوطني والحداثة والديمقراطية. فأطلق حملة اعتقالات واسعة ، طالت قيادات الإعلان . فتعرض بعض رموزه القيادية للمحاكمة والسجن لمدة ثلاث سنوات من أجل وقف هذه الحركة وكبح هذا التوجه ، وقد حصل ذلك فعلاً. إذ دخلت البلاد فيما يشبه السبات السياسي والإحباط من جديد . بينما عادت الأحزاب إلى نشاطها السري ، وبدا كأن حلم الحرية يبتعد من جديد عن متناول يد السوريين.

بقيت الكتل الشعبية والشابة عموماً بعيدة عن هذا المسار ، مما أضفى ظلالاً من اليأس والقنوط على مشهد العمل العام في سورية ، والسياسي منه بشكل خاص ، أربكت النخب المشاركة والحالمة ، وأثرت سلبياً على وجود التنظيمات ونشاطاتها .

إرهاصات الثورة / بداية البداية :

عندما أحرق محمد البوعزيزي نفسه ، وأعطى شرارة الانطلاق للربيع العربي، اعتقدنا في سورية أن الثورة التونسية ومجرياتها شيء يخص التونسيين وظروفهم . غير أنه أثار اهتمامنا كحدث مشتهى. لكن عندما انتقلت الشرارة إلى مصر ، وازدحم ميدان التحرير بالشباب الغاضب ، تأكدنا بأنها الثورة ، وأنها تقترب رويداً رويداً من أبواب دمشق.

من هنا صار الإصغاء عميقاً لظاهرات بدت بسيطة ومتفرقة في البداية مثل أولى قطرات الغيث ، رغم ما يحكمها من سياق واحد هو التمرد وكسر حاجز الخوف . إلى أن انطلقت أولى المظاهرات الشعبية من الجامع العمري بدرعا ، فأيقن

الناس أن الريّ قادم ، وأن أوان المطر قد اكتمل. وجاء دور العطاء الذي اختمر داخل المجتمع لأكثر من أربعة عقود. فكانت مظاهرة الحريقة والكتابات على جدران دمشق وقلعتها والعديد من المدن الأخرى ، وكذلك الاعتصام أمام وزارة الداخلية والعنف في تفريقه والاعتقالات المرافقة بعضاً من دخان البركان القادم. وهنا في هذه المرحلة التاريخية ، حصلت المزاوجة واللقاء بين الفعاليات الشعبية والتفجرات ذات الطابع العفوي والتلقائي وبين النشاطات المنظمة لقوى المجتمع المقموعة والمقيدة منذ زمن في معظم محاولاتها الدؤوبة.

غير أن زمام المبادرة أخذه أطفال درعا بأيديهم التي خطت أولى شعارات الثورة المنقولة من مصر إلى جدران مدارسهم «الشعب يريد إسقاط النظام» . أخذ الأطفال المبادرة بأيديهم الغضة ، لتنتقل بعدها إلى يد الشعب القديرة والثابتة والقمينة بكتابة تاريخ جديد للبلاد.

من هذه النقلة بالذات التي حصلت في 2011/03/18 حين سقط أول شهداء الثورة ، بدأت السياسة السورية بأحزابها ومنظماتها وتجمعاتها تجري وراء حركة الشعب ، حركة الثورة التي يقودها شباب قلما فكروا في لعب دور مشابه ، أو صنع حدث جليل وخطير من هذا الوزن .

اتجاه إلزامي / خيارات محدودة:

مثلما حصل في إطار الربيع العربي في كل من مصر وتونس، كذلك حصل في سورية . إذ قامت الثورة بمعزل عن الجهود المباشرة للأحزاب السياسية ، ودون مشاركة ذات شأن بمجرياتها. وقد تفهمت القوى السياسية السورية هذه الحقيقة وفهمتها جيداً ، واستجابت لندائها . فما ادعت أي دور مميز، ولا حاولت التسلق وركوب الموجة، ولم تقم بأي استعراض يشير إلى التزاحم . لأن الوقائع كانت صارخة ، وحقيقة ما يجري لا يمكن تحريفها. بل أولت الحراك الثوري في الشارع اهتماماً غير مسبوق ، بعد أن نجح في كسر حاجز الخوف والنيل من هيبة السلطة ، فانتزع من الجميع الثقة والاهتمام والاحترام . ومن الأدبيات السياسية لـ «إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي» أوسع الائتلافات السياسية المعارضة وأكبرها ، يمكن ملاحظة تلخيص مركز لرؤية الأحزاب السورية للثورة ومواقفها منها وتفاعلها معها.

جاء في بيان الإعلان بتاريخ 2011/01/17 وقبل شهرين من بداية الثورة السورية في سياق رصده للثورة التونسية «إن انتفاضة الشعب التونسي التي كانت عفوية وغائبة عنها الأحزاب والمعارضات السياسية إلى حد كبير بحكم القمع الذي أنهكها، أثبتت أن المعارضة الواسعة والقادرة في المواقف الحاسمة هي معارضة الشعوب ، وشعوبنا العربية معارضة بشكل جذري». وبعد أن يُذكِّر البيان باللحظة التاريخية التي ولدَّتها انتفاضة تونس ، من حيث أنها تتيح للشعوب المثقلة بالاستبداد استعادة الحضور المفقود والإمساك بزمام المبادرة في إدارة شؤونها وتقرير مصيرها ، يشير إلى أنها «مناسبة كي تتأمل قوى المعارضات العربية الدرس التونسي، وأن تتحلى بالصبر وروح التضحية، لأن الديكتاتوريات أصبحت استثناء ثقيلاً في هذا العالم، ورحيلها بات مسألة وقت».

وكي يصل إلى مربط الفرس ، يشير البيان إلى اتجاه الطريق وأهمية القدوة التونسية فيقول: «إن الشعب السوري بكل مكوناته وشرائحه الاجتماعية جدير بالحرية كما الشعب التونسي، وكلنا ثقة بأنه لا بد وأن يمضي في الطريق نحو الحرية والديمقراطية والكرامة».

وعندما انطلقت الثورة المصرية أكدت أحزاب الإعلان رأيها في الحدث ورؤيتها لانعكاساته على المنطقة بدقة أكبر. ففي بيانها بتاريخ 2011/01/31 دخلت بتفصيل أعمق لرصد دور الأحزاب في الثورات العربية وكأنها تتحدث عن نفسها «المعارضات العربية التي عانت الحصار والتهميش والسجون على مدى عقود، ما أحالها إلى قوى رمزية بسبب من خنق الحقل السياسي وقطع تواصلها مع المجتمع وأجياله الصاعدة، وحدَّ من حركيتها الغرق في الحسابات السياسية . . هذه المعارضات لن تتمكن من استعادة دورها الفعال إلا إذا أعادت النظر بطرائقها وبرامجها وآليات عملها في المجتمع، وعملت على التواصل والتفاعل مع الأجيال الشابة . . إن إعلان دمشق وهو يتابع انتفاضة الشعب المصري عن كثب، ويثق بانتصارها، يدعو الشعب السوري إلى متابعة ما يجري من حولنا، وأن يثق بأجياله الشابة وبقدرته على إنجاز التغيير الذي يريد».

إنه اعتراف صادق وصريح بأن الثورة في مكان آخر ، ويقودها جيل جديد ومختلف .

وعشية الثورة السورية في 2011/02/25 وبعد أن اتضح أن رياح التغيير هبت في المنطقة، وبدأت دولها تتحول وفق أجندات داخلية وبيد أبنائها، وتفتح عصراً جديداً هو عصر حضور الشعب بقواه الشابة في المعادلة الوطنية، يحدد الإعلان موقفه كما يلي : «نتوجه إلى جميع السوريين، وخاصة الطاقات الشابة الواعدة منهم . . وندعو إلى الالتزام بالتحرك السلمي والهدف المشترك الذي يحوز على الإجماع الوطني، ألا وهو بناء الدولة المدنية الديمقراطية . . وعدم الانجرار لأي مظهر من مظاهر التطرف أو العنف أو الانتقام».

ودعا إلى توحيد المعارضة والعمل على أوسع تنسيق بين صفوفها «نتوجه إلى جميع قوى المعارضة أحزاباً ومنظمات وشخصيات وطنية وطاقات شابة، على أمل اللقاء في لجنة وطنية للتنسيق من أجل التغيير. تنسق المواقف، وتخطط للنشاطات وتديرها . . إنها ساعة الحقيقة، فمستقبل سورية ينادي شعبها، فتحية لمن يبادر في تلبية النداء». غير أن أحزاب المعارضة وقواها المختلفة بقيت عاجزةً عن تنفيذ هذا التوجه.

عكست عناوين البيانات التالية التي أصدرها إعلان دمشق ويستمر، مدى حرض السياسة السورية على الاندماج بحركة الثورة والجري خلف شعاراتها وأولوياتها ومحاولة اللحاق بها وبإيقاعاتها المتسارعة «العنف والاعتقال السياسي ليس حلاً ، إياكم والمغامرة بدماء السوريين ، قرارات ليست في مستوى الحدث ، ويزداد عدد الشهداء ، لا للخيارات الأمنية . . نعم للحلول السياسية ، الخطاب الثالث تكريس للأزمة ، الحوار على إيقاع الرصاص الحي ، الثورة مستمرة ، الشعب يطالب بحظر جوي».

اشتركت جميع الأحزاب السورية في تقييم الوضع الثوري في البلاد وجهوزية الشعب للاندفاع في مسيرة الربيع العربي ونفي أي خصوصية سورية تضع البلاد في خانة الاستثناء أو الاختلاف عن الوضع العربي ، كما أشار خطاب السلطة السياسي والإعلامي. فقد أفاد بيان التجمع الوطني الديمقراطي في 2011/02/08 بأن «الوضع السوري لا يختلف عن الأوضاع العربية الأخرى المأزومة، بل يتضمن أزمات مركبة وإضافية، تزيد من تعقيداته، ولا يفيد كلام المسؤولين السوريين بنفي هذه الحقيقة».

غير أن استجابة هذه الأحزاب لنداء الثورة كان متفاوتاً . وقد أظهرت الوقائع تباينات في الرؤى بين نهج ثوري مندمج كلياً في مسار الثورة وملبياً لندائها بشكل كامل ، وبين مستجيب لضرورتها وفق رؤية إصلاحية، تعبر عن عدم اطمئنان كامل لنتائج الحراك الذي تقوده وترسم مساره وأهدافه تحركات الشباب في الشوارع والساحات. فأعلن التجمع الوطني الديمقراطي أن « الانتقال من الواقع الحالي المأزوم إلى نظام ديمقراطي يتطلب إقدام السلطات للقيام بحملة من الإصلاحات الشاملة يكون مدخلها الإصلاح السياسي والحوار الوطني لبلورة وصياغة عقد اجتماعي جديد في ضوء المتغيرات الدولية والإقليمية والأحداث الجارية في البلدان العربية «.

وكمثال عن الأحزاب السياسية التي رمت نفسها في لجة الثورة ، واندمجت في حراكها إلى حد التماهي دون حسابات أمنية أو اشتراطات سياسية أو محددات تنظيمية، يمكن تقديم حزب الشعب الديمقراطي السوري نموذجاً. ففي رسالة سياسية تعود إلى أوائل آذار 2011 قبل اندلاع الثورة ، أعلنت اللجنة المركزية للحزب «الانخراط في التحركات والنشاطات الشعبية والشبابية التي يمكن أن تحصل. لا نريد إلا ما يريده الشعب. ندعم توجهاته، ونساند قراراته ونلبي نداء شبابه» . ثم تقرر الرسالة أن «الأداة الأساسية في الثورة الديمقراطية في الوطن العربي هي الشعب والأوساط الشابة منه على وجه

الخصوص ، البعيدة عن الولاءات الحزبية والانتماءات التنظيمية. وقد فرضت على القوى الأخرى من منظمات وتيارات وأحزاب التناغم معها والالتفاف حولها».

وعندما انطلقت الثورة وبدأ إعلام النظام باتهامها بالعنف والطائفية وتنفيذ أجندات خارجية ، قالت منظمة الحزب في اللاذقية في بيانها بتاريخ 2011/03/27 :«إننا نوضح للسوريين ولغيرهم أن ما جرى في محافظة اللاذقية كان حراكاً اجتماعياً سلمياً في يوم الجمعة 25 آذار، رفعت فيه شعارات / سلمية . . سلمية ، سورية حرة ، واحد واحد واحد علوي وسني واحد/».

ومن خلال بيانات متلاحقة جرى الدفاع عن مواقف الثورة وتبني رؤيتها وإرادتها وشعاراتها «إنه لمن المؤسف حقاً بأن يتم زج الجيش السوري في معركة ليست معركته، بل تسيء إليه وإلى دوره الوطني . . وما الحديث عن المؤامرة والاستهداف الخارجي وعن وجود سلفيين وعصابات مسلحة إلا محاولة يائسة مفضوحة لطمس حقيقة الانتفاضة العارمة».

وفي تلخيص مُركَّز لمواقف الحزب قامت اللجنة المركزية أواسط آب 2011 بحثّ «الرفاق والمتعاطفين والأصدقاء على العمل في الأوساط المحيطة بهم من أجل المزيد من الدعم والمشاركة في نشاطات الثورة التي نرى فيها ثورة لا تخص فرداً أو حزباً أو جماعة بعينها، إنما هي ثورة لكل السوريين من أجل غد أفضل».

ورغم أن جماعة الإخوان المسلمين كانت وما زالت منخرطة كلياً في صفوف الثورة ، إلا أن تلكؤها في مواكبة الثورة في البداية ، بقي موقفاً غير مفهوم ولا مبرر . فقد تأخرت الجماعة حتى الأول من أيار 2011 أي بعد انقضاء شهر ونصف على بداية الثورة ، حتى أنهت العمل بقرار سابق ، أوقف نشاطاتها المعارضة للنظام ، كانت قد أعلنته والتزمت به بعد العدوان الإسرائيلي على غزة 2008.

إن الثورة السورية نموذج فذ لثورات الربيع العربي التي انطلقت من الشعب وتواصلت بتضحياته . رفعت شعاراته وطالبت بتحقيق إرادته . تحمل كل عظمة الفعل الشعبي وبساطته وعفويته، كل مناقبه وعيوبه، بعيداً عن النخب السياسية والثقافية والاجتماعية، وعن الحسابات والرؤى الأكاديمية. هي مباشرةٌ وواضحة، صلبة وعنيدة، عظيمة العطاء بطاقات تضحية لا توصف، وتصعد إلى النصر باتجاه الحرية دون لجلجة ، مفتتحة لعصر جديد هو عصر إرادة الشعوب ، من خلال هتافها الشهير الذي عبر القارات والمحيطات واللغات ، وأصبح على كل شفة ولسان : « الشعب يريد . .

كاتب من سوريا

الثورة وإشكاليات المثقف السوري

■
حسام الدين محمد

وصف حزب البعث نفسه، في دستوره، بانه "حركة قومية انقلابية" وكان مقصود ميشيل عفل وصلاح البيطار بهذا التعريف انه حزب ثوري، وقد قضى حسني الزعيم قائد اول حركة عسكرية اطاحت بالحكم المدني الوليد في سورية بعد الاستقلال دون ان يدري على المعنى المقصود من هذا الاصطلاح، حين استعار ترجمة البعثيين للمصطلح وسمّى حركته (انقلابا) قاصداً انها ثورة (وقد دامت "ثورة" حسني الزعيم 5 اشهر وبضعة ايام لكنها افتتحت كارثة الانقلابات في سورية والتي ستنتهي بها الى تغوّل الاستبداد العسكري مع حقبة حافظ الأسد).

الثورة، في تعريف مختصر: حركة تغيير كبيرة لقلب حكومة او نظام اجتماعي بالقوة لاحلال نظام جديد، ولعسكريي سورية، اذن، الفضل في الحطّ من مكانة مصطلح الانقلاب، فقد جرى العرف بعد ذلك على نعت كل حركة عسكرية تنقض على السلطة انقلاباً، مما اضطر المثقفين المترجمين الى الانكباب مجدداً على تمييز حلمهم الطوباوي الأثير بنحت كلمة (ثورة) بدلاً عن (انقلاب.

مصطلح الثقافة (والمثقفين) ايضا هو نتاج لتطور تاريخي فقد بدأ استخدامه مع بداية الثلاثينات من القرن العشرين، والأرجح ان أول من استخدمه هو الكاتب المصري سلامة موسى، في استجابة للحاجة لترجمة وضع مستجد، يحتاج كلمات أخرى صارت قاصرة عن استيعاب المعنى العام لكلمة ثقافة، بدل المصطلح السابق: الأدب، والأمر نفسه حصل مع كلمات تغيّر معناها مثل كلمة العالم، التي كانت تعني فيما تعنيه الفقيه والمحدّث والعارف بالشريعة، فصارت مختصّة بحرف جديدة، كما صار لكلمة العلم نفسها معنى جديداً، والمثقفون بتعريف بسيط ايضا: شريحة اجتماعية من المتعلمين على مستوى عال، لديهم قدرة متطورة على التفكير المنطقي وفهم الأشياء.

المصطلحان اذن حديثان في اللغة العربية. بدأ تداول الأول في الاربعينات من القرن الماضي ليحلّ كما ذكرنا محل مصطلح انقلاب الذي كان ترجمة أدق للكلمة اللاتينية revolution بمعنى "قلب" نظام او حكومة.

من بدأ الثورة؟

مثل تساؤل البيزنطيين عن جنس الملائكة ربما سيتساءل مؤرخو الثورة السورية لاحقاً عن من بدأ الثورة السورية، هل هم المثقفون الذين بدأوا تظاهراتهم في دمشق قرب القصر العدلي وفي المرجة وباب توما وامام وزارة الداخلية، وتعرّضوا للضرب والاعتقال والتحويل على القضاء والمحاكمة، ام كانوا أهل درعا وبانياس الذين قاموا بالتظاهر في الشوارع والساحات والاعتصام في الجوامع فقمعوا بوحشية وقتل منهم المئات؟

ربّما يقول قائل ان السوريين (من أهل درعا وبانياس واللاذقية وحمص وحماه ودير الزور والقامشلي والحسكة وحلب وطرطوس وجبلة والبوكمال والميادين والسويداء والسلمية وعشرات غيرها من المدن والبلدات) لم يندفعوا للتظاهر تأثراً بالمثقفين السوريين الشجعان اولئك، فقد كان هناك في سورية دائما نوع من "خط برلين" غير مرئي بين المثقفين وما يسمى بأدبيات السياسة (جماهير الشعب)، لكن هذا السور الوهمي كان منصوباً بقوة الطغيان المهووسة دائما بمنع اي بادرة للتوحد او التجمع او اللقاء او التفكير حتى ضدها ليس بين المثقفين وغير المثقفين فحسب بل بي كل من يرغب

في مناوأة السلطة او تحديها فرداً كان ام مجموعةٍ
واذا فكرنا ان تظاهرات الناشطين والمثقفين الاولى والتي تبعتها تظاهرات الجمهور السوري العام كانت تأييداً لثورات الشعوب العربية في مصر وتونس وليبيا واليمن، استطعنا اعادة تركيب المعادلة، اما اذا اردنا المساجلة المنطقية، فسنعاود السؤال الاول الذي سألناه نفسه: هل كان اشتعال الثورة في تونس ومصر ليتمّ لولا دور المثقفين... الخ.
ليس هناك في المجتمعات "الطبيعية" وغير المعاقة بالاستبداد موانع لا يمكن عبورها بين البشر، اجتماعية، سياسية او ثقافية، لكن المجتمع الذي عمل النظام السوري على اصطناعه، قام على خنق المبادرة والبديهة البشرية الطبيعية، مانعاً حتى الاطفال من التعبير والبريء والاحتجاج ضده، وخلق حواجز بين طبقات وشرائح المجتمع، بل فتت البشر الى طوائف ومذاهب واعراق واثنيات فصارت الثورة ضرورة وجودية لاعادة بناء الشعب السوري واستعادة لحمته وهويته المفقودة.
مع اول اطلاق للنار على المتظاهرين وانهيار حاجز الخوف استعاد السوريون وحدتهم من خلال تنوعهم، فحضر الكردي والعربي وحضر العلمانيون والمؤمنون، وحضرت مدن وبلدات لم يسمع بوجودها العالم من قبل، وبحث الناس عن مثقفيهم الحقيقيين، واحتمى المثقفون الفاعلون في الحراك من بطش السلطة بالناس، ثم ما لبث ان خرج من أحشاء المجتمع مثقفون ومغنّون ورسامو كاريكاتير ومخرجو افلام وثائقية ومراسلون صحافيون، بل وكتّاب ومثقفون، جدد ليلبّوا حاجة الثورة الى الابداع والتجديد.
التحام المثقفين بجمهور واسع يحميهم ويذبّ عنهم الأذى هو احد الانجازات الكبيرة للثورة السورية، وفي المناطق التي قام النظام، رغبة بتحييدها طائفيا، بالامتناع عن ممارسة غرائزه الوحشية بالبطش والقتل، ولم يندرج الجمهور العريض بالثورة، بقيت النخبة المثقفة تقاتل وحدها بانتظار استفاقة المارد النائم.

رضا الله وقيصر

بسبب طبيعة السلطة الشمولية واستيلائها على اركان الحياة العامة في سورية لم يكن هناك للمثقفين مجال حقيقي مفتوح للعمل خارج فضائها، وحتى من يعملون في مجالات خاصة من أطباء او ناشرين او مهندسين او رجال اعمال او صحافيين، ظلوا تحت وطأة هذه السلطة الغاشمة وكان بامكانها دائما تجريدهم ليس من ما يملكون فحسب بل من حرياتهم وحيواتهم ايضا.
غير ان ربط وتكبيل المثقفين السوريين بالتفاصيل الاخطبوطية للسلطة واجهزتها لم ينتج، كما يفترض الطغاة، كلاباً للنباح وأحصنة للجرّ وابواقا للصياح.
صحيح ان مكانا ما، في نظام السلطة كان محفوظا دائما للمثقف السلطوي، يشغله بحيّزه الفيزيائي وبأدوات تسلطه على المعرفة والرقابة وشؤون نقابية ومالية وشخصية، اكان رئيسا لاتحاد الكتاب مثل علي عقلة عرسان وحسين جمعة، او كان رئيسا لتحرير صحيفة مثل احمد الحاج علي وتركي صقر وعميد خولي، لكن هؤلاء كانوا يدركون جرمهم الصغير ووزنهم الضئيل، ويعرفون انهم كانوا محتقرين من النخبة المثقفة، التي لا تعتدّ بجهدهم الكتابي مهما كبرت احجام كتبهم ومهما حملوا من القاب وشهادات دكتوراه طنانة ومهما زادت ارصدتهم في البنوك ولمعت سيارات الوازنين منهم عند الرصيف.
لم يكن مثقفو السلطة السورية دائماً بهذا الانحطاط، فالمجتمع السوري بعد ما يسمى (ثورة 1963) لم يكن قد ابتعد كثيرا عن اجواء الحكم المدني المتقطعة، وكان المثقفون، بمن فيهم بعثيون، مثل صدقي اسماعيل وحافظ الجمالي واحمد سليمان الأحمد(7) يغنون الحركة الثقافية في سوريا بابداعاتهم واسئلتهم الاشكالية.

كانت هناك ايضا، منزلة بين المنزلتين، لبعض الكتّاب المهمين، الذين تحصّنوا بكونهم من خارج حزب السلطة، وكان لأعمالهم وكتبهم تأثير حقيقي في الثقافة السورية، فاستفادوا بذلك من مزايا السلطة و"رعايتها" ل"احتياجاتهم الخاصة"، دون ان يتراجع رأسمالهم الرمزي امام جمهورهم، فنالوا بذلك رضا الله وقيصر معا.
على رأس هؤلاء يمكن ان نسمّي الروائي السوري حنا مينه والى ميامنه ومياسره سنجد بعضا ممن استفادوا بطريقة او اخرى من آليات الاستبداد ومؤسساته وطقوسه ووسائل اعلامه، وراق لهم لذيذ العيش على سمعة الثوري وبطر الموظف البيروقراطي.
هؤلاء لم يلبثوا ان وقعوا في ورطة شنيعة حين بدأت الثورة وكشّرت السلطة عن انيابها ولم تعد تقبل الصامتين او الحياديين، وبدأت بتكسير عظام الجميع، مثقفين كانوا ام عمالا وفلاحين وكسبة صغارا (على ما كان دارجاً في ادبيات حزب البعث وخزاناته الايديولوجية من قصّ ولصق لفئات المجتمع) فصار عليهم تدبير شأن الفواتير التي آن دفعها من دماء الناس وارواحهم.
الأبأس من هؤلاء آخرون على هامشهم، يقدمون حالات غريبة لثوريين سابقين نكّلت بهم الدولة حتى بشموا، ثم فجأة امنتهم من خوف وأطعمتهم من جوع وأعطتهم في اواخر ايامهم بعض عطاياها الرمزية، مثل جائزة الدولة التقديرية، او أخذت بتلميعهم في وسائل اعلامها مستعيدة اياهم من "نفتلين" ايامهم البائسة.
استفاق بعض هؤلاء وقد استشاطوا هؤلاء غضباً على الثورة والثوار مزاودين في غضبتهم على اجهزة البطش والقمع، ومرددين مقولات السلطة نفسها عن اعطاء الفرصة للحوار والاصلاح، ونافين عن ثورة "الحثالة" هذه كونها ثورة، وأنّى لها ان تكون ثورة مقارنة بثورات "حقيقية" مثل ثورة البلاشفة، رغم ان تلك الثورات، على ما يبدو، كانت خاتمة الثورات لا تتنزّل ثورات بعدها، رغم ان الثورة اندثرت وتحوّل قادة مخابراتها الى رؤساء عصابات ومافيات.
لا يمكن تفسير آراء نزيه ابو عفش، على سبيل المثال، الذي وقع بياناً ضد نظام القذافي وندد بقمعه للمتظاهرين المدنيين، ثم، حين وصلت موسى الحلاقة الى ذقن النظام السوري، أخذ بالتهجم على الليبيين الذين "تذكروا ان يثوروا بعد اربعين عاما"، وعلى السوريين الذين لم يتدارسوا الثورة على ادبيات لينين، وخرجوا من الجوامع بدلاً من الثكنات والمعامل.
اهان مثقفونا الشهداء والمعتقلين والاطفال والنساء وابناءهم الذين تيتموا او اباءهم وامهاتهم الذين ثكلوا والعائلات التي دمرت بيوتها، ببلاغة وحداثة ورطانات لا يتقنهما عناصر المخابرات وضباط الأمن لكنها تفيد المعاني نفسها وتصيب المقاتل ذاتها وتهدد بالمدافع والسجون ذاتها.
كما لا يمكن تفسير آراء الشاعر فايز خضور يصف عمله الشعري بانه "اهم منعطف في تطور القصيدة الحديث على مستوى الشكل وكذلك على مستوى المضمون" لكنه اكتفى من المجد بمنصب صغير في اتحاد الكتاب العرب، ثم فشل في اول امتحان اخلاقي بعد ان نال "جائزة الدولة التقديرية"، والذي صرّح فجأة انه "نصح" رئيسا بالقول: "لا تعط الحرية للكلاب فانهم اذا لم يعضوك فسوف ينبحون عليك".

المثقف الدكتاتور

في احدى مقالاتي علقت على برنامج تلفزيوني بريطاني يتحدث عن "الشر والخير" بشكل علمي. اشار ذلك البرنامج الى احصائيات موثقة ثبت فيها ان السايكوباثيين في عالم "البزنس" هم اربعة اضعاف الناس العاديين، وان لديهم كاريزما كبيرة ويتحدثون احاديث جميلة، وقدرة الناس على التمييز بينهم وبين الناس الطبيعيين صعبة جداً.
وقد تساءلت يومها كم عدد السايكوباثيين، المضطربين نفسيا، والمؤهلين للاجرام دون حدود، بين الزعماء العرب؟
واتذكر هنا دراسات جورج طرابيشي المهمة التي قامت بتحليل الاضطرابات النفسية لدى عدد من الادباء العرب من خلال

اعمالهم الادبية، وهو ما يستدرجنا الى التساؤل عن مدى فداحة الاضطرابات النفسية لدى الشعراء والكتاب السوريين الذين يساندون اجرام العصابة السايكوباثية التي تحكم سورية اليوم.
جورج طرابيشي نفسه قال مرة في مجلة "الناقد" ما معناه ان أخطر الطغاة واكثرهم دموية هم المثقفون، ونظرة الى "انجازات" ماوتسي تونغ وستالين، اضافة الى الفنان التشكيلي والكاتب ادولف هتلر طبعا، التي أزهقت عشرات الملايين من الأرواح تؤكد هذه الفكرة.
هل يعود ذلك الى ان الطاغية المثقف هو من طبيعة سايكوباثية، ام أن للأمر علاقة بالأيديولوجيا الشاهقة التي لا ترى في البشر والعالم سوى أدوات لاثبات مقولاتها وتطبيقها عليهم؟
في رواية "الشاعر" للامريكي مايكل كونولي يكون القاتل مهووساً بأشعار ادغار الان بو ويختار لكل ضحية من ضحاياه بيتاً من الشعر يؤبنها به؛ اما في قصة "موت القبيلة" للقاص الايرلندي جيم كلارك فيقود الشاعر الموتور بسبب اهانة تعرض لها جيش الاعداء الى المخبأ السري لقبيلته حيث يتم افناؤها عن آخرها.
وفي التاريخ الاسلامي ما يذكر عن نصير الدين الطوسي الذي خدم في ركاب المغول ويقال انه افتى بقتل خليفة المسلمين.
هناك جانب معتم في دواخل بعض المثقفين يجعلهم قادرين ليس على ارتكاب ابشع الجرائم واحقرها فحسب بل تبريرها ايديولوجيا وسياسيا واعطائها، وهذا الأفظع، وجهاً انسانياً، بحيث تغدو دفاعاً عن التقدم او العلمانية او الاشتراكية، او، درءا لكوارث ستطال المجتمع مثل "الفاشية الاسلامية"، وهو مصطلح استخدمه الشاعر ادونيس في وصف ما يحصل في العالم العربي وسورية[8].

الدكتاتور ضد المثقف

بسبب طبيعة الدكتاتورية المعادية للمنطق البسيط للاشياء، والتي تتطلب من اتباعها الخضوع الكلي، وتفتّش عنه كما يفتش الضباط نظافة الحذاء العسكري يوميا، يخضع المثقف لقيد لا يحتمل، مما يجعله مضاداً بالضرورة للطغيان.
لا يمكن التصور ان يكون المثقف موالياً لنظام دكتاتوري، فحتى القاتل الذي يقتل باوامر قادته العسكريين يصل به الأمر ان يشمئز من قتله لأرواح بريئة، ولا يستطيع ذلك سوى ذاك النوع من المجرمين المضطربين نفسيا الذي لا يؤثر بهم اغتصاب امرأة اكثر مما يؤثر قطف وردة او شرب فنجان قهوة.
النظام الدكتاتوري في الأس الذي يقوم عليه هو عدوّ للمثقف وللثقافة. يشك الدكتاتور في اي ابداع لأن الابداع هو فكرة ناقدة ومتأملة ومفكرة.
هناك كره لدى الطاغية للمثقف المبدع اشبه بالكره الغريزي القائم في مملكة الحيوان.
كل مثقف هو تهديد للدكتاتور.
لا يمكن للمثقف - بالتعريف - ان لا يتلمس او لا يحس او يشعر، ان لم يكن بمنطقه الحسّاس للواقع، فبغريزته الطبيعية، ان النظام الدكتاتوري، ضده، وانه لذلك ضد النظام.

الصنم العالي

باستثناء "عشيرة" من المنتفعين والمخبرين واصحاب المناصب، لم يكن الجسم الثقافي السوري يوماً مؤيداً للنظام. وحتى في حقبة الثمانينات الدموية التي سعى فيها حافظ الأسد الى تهشيم جهاز مناعة الشعب السوري وقتل عشرات الآلاف وزجّ بآلاف الناشطين والمثقفين في السجون، لم يكفّ المثقفون السوريون عن التأكيد على شجاعتهم في مواجهة الآلة القمعية للنظام.

هذه الممانعة الثقافية - السياسية، صمدت امام القمع والبطش، اداة النظام الاولى للتعاطي مع الشعب، واخترقت شيفرات التجزيء القومية والدينية والطائفية، وهي ‹اضافة الى ايديولوجيا حلف المقاومة والممانعة العتيدة› احدى اهم خطوط الحماية الاجتماعية التي مأسسها النظام لتكون خزانه الاحتياطي في مواجهة أي تمرد ضده ولخلق خنادق أهلية له ضمن كل بيئة تساهم بالاجهاز على لحمة ووحدة الشعب السوري.
مع استلام بشار الأسد لمنصبه بدأ النظام باستخدام آليات جديدة لافساد المثقف واستتباعه، بدل الاكتفاء بالوسائل التي كانت مفضلة لدى حافظ الأسد، بارهابه وقمعه والتنكيل به.
مع ظهور وسائل اعلام وصحف جديدة وازدهار قطاع الدراما وظهور مئات الفضائيات العربية ومشاريع الشراكة مع حلفائه القدامى والمستجدين في المنطقة من ايران مرورا بالخليج العربي ولبنان وصولا الى تركيا، استفادت شرائح جديدة من المثقفين، في الوقت نفسه الذي كانت البلد تتعرض لعملية افقار رهيبة دفعت بمئات الآلاف لهجر اراضيهم والنزوح الى هوامش المدن، موفّرة بذلك الخزان البشري الناقم الذي سيردف الثورة السورية بالمناضلين.
بعد اكثر من اربعين عاماً من حكم عائلة الأسد تكرست بنى اقتصادية وسياسية ارتبطت مصالحها بمصالح النظام. هذه البنى تنوّعت بين شرائح اقتصادية واسعة ومروحة سياسية ايديولوجية اوسع، تضم يافطات متنافرة ضمن تحالف اقليمي جمع ما لا يجتمع تحت سطح واحد: اسرائيل الصامتة برضا عن حدودها الهادئة... وعدوّها المقاوم حزب الله، دول الخليج التي فتحت المشاريع الاقتصادية العديدة مع السلطات السورية او مع وكيلها الأوحد رامي مخلوف... وشيطانها الرجيم ايران، الأحزاب الشيوعية في المنطقة العربية والعالم... والأحزاب الفاشية في اوروبا، حركة حماس التي هي الفرع الفلسطيني من الاخوان المسلمين... في ظل قانون يحكم بالاعدام على اي عضو في الاخوان المسلمين السوريين، تنظيم "القاعدة" والحركات السلفية الجهادية التي تم استخدامها في العراق... والأحزاب المتطرفة في علمانيتها كالحزب السوري القومي... الخ.
رغم ان هذه المروحة الفضفاضة من الحلقاء بدأت بالتقلّص تدريجياً مع اندلاع الثورة السورية، فان الكثير من اطرافها المتناقضين ما زالوا مصطفين للدفاع عن مصالحهم الثابتة مع النظام.
لم يجعل هذا الأمر الثورة السورية أصعب الثورات العربية، فحسب ولكنه خلق امام المثقف العامّ ايضا معضلات نظرية عميقة يتوجب عليه حلّها في مواجهة جحفل لجب من الكتّاب والمحللين والصحافيين والمنظرين المساهمين في دعم النظام السوري، من اليسار الامريكي اللاتيني الى عتاولة القومية العربية مروراً باسلاميين مختلفي المشارب، وصولا الى بابل من الاحزاب الشيوعية والفاشية الغربية!
لم يسبق، الى هذه اللحظة برأيي، ان كان هناك نظام استبدادي بهذه الوحشية والقبح، ووجد في ركابه، في الوقت نفسه، كرنفالاً متنافراً ايديولوجيا من المتبرعين بالدفاع عنه، يصطف فيه الفاشي مع الشيوعي، والاسلامي الجهادي مع العلماني المتطرّف، والشيعيّ المكفّر للسنة والسنّي المكفّر للشيعة، ليصلّوا كلهم لصنم واحد يدعى بشار الأسد.
في فكّ وتركيب هذا الاصطفاف ومعناه، تترتب مهامّ نظرية عويصة امام المثقفين، سوريين كانوا ام غير سوريين.

الأقلية والأكترية

لا يمكن فهم المآلات التي آل اليها المجتمع السوري ‹والمثقف السوري استتباعا› وصولاً الى حالة الدكتاتورية التي تعيشها البلاد منذ اكثر من نصف قرن دون تحليل الآثار التي تركها الاستعمار الفرنسي على سورية.
قام الاحتلال الفرنسي بتقسيم سورية الى اربعة دول، دولة العلويين ودولة الدروز ودولة حلب ودولة دمشق، واخضع شمال شرق سوريا لحكم فرنسي مباشر مع تشجيع لمجموعات مسلحة من السريان والاشوريين وتقوية للنزعة الكردية،

كما قام بتجنيد عدد كبير من ابناء الأقليات ضمن الجيش الذي بناه.
مفاعيل هذه السياسة لم تقتصر على تقسيم البلاد بل كرّست بشكل مباشر النزعات الطائفية، وجعلت منها احدى ركائز العمل السياسي، ووجهت باتجاه استخدام الجيش للسيطرة على السلطة السياسية، وتفعيل الاتجاهات الطائفية المتصارعة داخله.
أسس الفرنسيون ايضاً ما يسمى بالمكتب الثاني وهو جهاز المخابرات، والذي قامت الجماعات والافراد المتصارعون على السلطة في سورية لاحقا بتثبيت اركانه وتوسيع دوائر تدخله في الحياة الى ان وصل الأمر الى ما وصل عليه في حقبة سيطرة حافظ الأسد وابنه على شؤون السياسة السورية.
هذان العاملان، اضافة الى العنف الشديد ضد الجماعة البشرية، ومن ذلك القصف العشوائي الذي خضعت له دمشق يوم 25 تشرين الأول 1925، كانا الإرث الذي وهبته فرنسا للسوريين المستقلين عنها، والذي أدى لاحقاً الى التهام الدولة السورية وتكييف مؤسساتها وأطرها لتكون استتباعاً للدكتاتور وعائلته والمركّب الأمني الاقتصادي الذي يستفيد منه، والنموذج الذي ستصاغ عليه سورية لاحقاً.
عقب استيلاء مجموعة من الضباط العسكريين على السلطة عام 1963، وبعد تبخّر دعاوى انهم قاموا بانقلابهم ردا على حكم الانفصال ولاعادة الوحدة مع مصر، احتاج هؤلاء "تغطية" ايديولوجية وثقافية تعطيهم الشرعية الثورية وتبرر استيلاءهم على السلطة.
هذه التغطية تنطعت لها نخبة ثقافية، قامت، كما فعل الضباط، بالاستيلاء على "وسائل انتاج" السلطة الثقافية والاعلامية السورية وانكبت على مهاجمة "أعداء الثورة" الثقافيين وبناء "دولة الثورة".
طرد الضباط، الذين تغطّوا بدثار حزب "البعث" مؤسسيه، بدعوى انهم "رجعيون" بل وطاردوهم ما وراء البحار، وبعد ان داسوا ببساطيرهم العسكرية على أهداف الحزب الذي حكموا باسمه، محوّلين "الحرية" الى معتقلات و"الوحدة" الى عداء لعبد الناصر، و"الاشتراكية" الى اجراءات مصادرة املاك انتقامية ضد رأسمالية ناشئة ضعيفة وبلد ليست فيه طبقة عمال حقيقية وعدد قليل جدا من المصانع، مستكملين بذلك سيطرة عسكر الريف على "بورجوازيي" المدن، وتمكين الأقلية من الأكثرية، وفرض جوّ من البطش والقمع لارهاب المجتمع، وكل ذلك تحت شعارات مكافحة الرجعية والاقطاع والبورجوازية.
وفيما اشتغل مثقفو حزب البعث بادارة المؤسسات الاعلامية والثقافية، كان بعض المثقفين من اتجاهات سياسية يسارية يبادرون الى اعطاء الطوبى الثورية للضباط، من خلال هجومهم على ادباء الرجعية والاقطاع والبرجوازية امثال عبد السلام العجيلي ونزار قباني وعمر ابو ريشة، وشارك في هذه المعمعة الايديولوجية نقاد وكتاب ماركسيون و"حداثيون".
لو نظرنا نظرة عامة لما جرى على المستوى الثقافي في البلدان العربية عموما، وبلدان المشرق العربي وسورية خصوصا، لشاهدنا اتجاهاً عاماً للثقافة العربية قامت به مجموعة من الشبان المتحمسين للحداثة والثورة على الماضي وتكريس تاريخ ثقافي جديد للمنطقة العربية، مدفوعين بأفكار الثورة على "الرجعية" و"الاقطاع" و"البرجوازية"، او بأفكار "الحداثة" والليبرالية التي كانت أقل رواجاً، قامت مجموعات ثقافية مشابهة لمجموعات العسكريين بمحاولات مشابهة لاستلام السلطة الثقافية واقصاء ادباء الماضي "الرجعيين"، مثل عبد السلام العجيلي وبدوي الجبل في سوريا، وتوفيق الحكيم ومحمد حسين هيكل واحسان عبد القدوس في مصر.
على المستوى الايديولوجي تمظهر هذا "الانقلاب" الثقافي بالهجوم على اشكال الماضي ومضامينه: اللغة العربية والدين الاسلامي والشعر العربي التقليدي، وتركّز رواد هذه الاتجاهات في مجلات مثل "شعر" و"حوار"، وكان لأبناء الأقليات الدينية حجم وازن فيها، بحيث بدا الأمر، بعد انقشاع غبار المعارك، كأنه هجوم على ركائز الثقافة العربية والاسلامية

لصالح هذه الأقليات ضد الأكثرية.

مثقفو الثورة

مقابل مثقفي السلطة، وهم "كثرة" قليلة، وقف المثقفون السوريون العضويون، المثقفون الشجعان، الذين حملوا راية مكافحة الاستبداد من زمن طويل. مثقفو "ربيع دمشق" ومثقفو "اعلان دمشق"، المثقفون الذين دخلوا السجون دفاعا عن مبادئهم، الذين تعرّضوا للضرب والتعذيب ولم يهنوا ولم يحزنوا. مئات المثقفين السوريين المعروفين وغير المعروفين ممن اتخذوا من اجسادهم واقلامهم دريعة لحماية اهلهم وناسهم.
هؤلاء المثقفون يقودون الثورة حاليا، وقد دفع المئات منهم حياتهم ثمناً لتأسيسها وترسيخها وجعلها طاقة شعبية عارمة لا يمكن هزيمتها.
وفي سبيل ذلك تنادى كثيرون منهم، الى تأسيس روابط لهم، مما ادى لرد فعل عظيم، فتقدم لعضوية رابطة الكتاب السوريين اكثر من ثلاثمائة كاتب ومثقف لعضوية رابطة الكتاب (كما قام اكثر من ثلاثمائة كاتب عربي بالانتساب الرمزي للرابطة كنوع من التضامن مع الشعب السوري) وحصل امر مشابه مع رابطة الصحافيين السوريين التي ضمت قرابة مئة وعشرين صحافيا، كما انتشر تشكيل روابط أخرى للفنانين والتشكيليين والنساء.
لم يكن للثورة السورية ان تستمر لولا المساهمة الهائلة للمثقفين السوريين كل في مجاله وقد تناول الكاتب اللبناني زياد ماجد وجها من وجوه مساهمات المثقفين السوريين وهو الوجه الفني من خلال مقالته "فن في غمار الثورة السورية"(13) حيث اشار الى الافلام العديدة والاعمال التوثيقية التي ظهرت حتى ذلك الحين ومنها افلام ابو نضارة التي تجاوزت الاربعين عملا ابطالها اناس عاديون "يروون تجاربهم الانسانية ويومياتهم"، وكذلك المبادرة التي سماها الناشطون "المهرجان الاول للسينما السورية المستقلة" وبينها فيلم "الوعر" الذي انتجه "مجهولون" في مدينة حمص، وكذلك فيلم "ازادي" الذي صور مظاهرات في مناطق كردية في سوريا.
وفي مجال الرسم والنحت اشار ماجد لأعمال علي فرزات وغيره من رسامي الكاريكاتير، وكذلك اعمال مجموعة كبيرة من الفنانين التشكيليين الذين افتتحوا صفحة على فيسبوك سموها "الفن والحرية"، وكذلك صفحة "فن الثورة السورية" التي حوت العديد من الاعمال الفنية التصويرية، وكذلك الرسوم المتحركة ومنها افلام "الثورة"، و "الدعوة الى الاضراب"، و"الربيع".
اشار ماجد ايضا الى الملصقات ودور صفحة "الشعب السوري عارف طريقه" المهم بتصميمها ونشرها، كما اشار الى الاعمال الموسيقية الغنائية، بدءا من اعمال سميح شقير التي كان مطلعها اغنية "يا حيف" الشهيرة، واعمال فرقة "الدب السوري"، وفرقة "القاظان السوري"، وفرقة "جين"، واعمال موسيقى الراب التي ظهرت من خلال سوريين مقيمين في فرنسا وبريطانيا.
كما اشار ماجد الى اعمال وصفي المعصراني، وابراهيم القاشوش ونوّه بشركة "خرابيش" التي انتجت فيلم "تحية الى ابراهيم القاشوش".
وقامت المخرجة والناشطة السورية زينة ارحيم بمتابعات مستمرة للأعمال الفنية الشعبية التي خلقتها الثورة، فتحدثت مثلا عن فناني قرية كفرنبل باللافتات والكاريكاتورات العظيمة التي يقومان برسمها والتي يوقعانها دائما بكلمة "كفرنبل المحتلة" الذين اجابا على سؤالها لهما عن كيفية معيشتهما في العراء والبرد فقال احدهما: "ولا يهمك، انتهى خوفنا من الموت ومن النظام، معنوياتنا في السماء".
وكتبت عن المواطنين الذين حولتهم الثورة الى مراسلين حربيين، وكتبت عن "رائد" الصورة والبث المباشر في بابا

عمرو، رامي احمد السيد، الذي استشهد بعد حديث لها معه، وعن الأعمال الفنية الساخرة التي بثها الفنانون السوريون على يوتيوب مثل "عنزة ولو طارت"، وعن "تريو خوري" الفرقة الفلسطينية التي تضامنت مع السوريين في حفل لها في لندن، وعن وصفي المعصراني الذي استحضر ارواح الشهداء والمعتقلين في حفلات له في بريطانيا، وعن معرض لعلي فرزات الخ...

زينة ارحيم نفسها مثل مواضيعها، ومثل المئات من الناشطين والكتاب غيرها، دليل على هذه الطاقات الجديدة الهائلة التي انطلقت مع هذه الثورة والتي غيّرت حيوات السوريين(14).

الكثير من الكتاب السوريين قاموا بتدوين يومياتهم عن الثورة، ومنهم سمر يزبك التي قامت بنشرها في كتاب، وخولة دنيا وزينة ارحيم اللتين نشرتا عددا من يومياتهم في مناطق الثورة السورية في عدد من الصحف والمواقع الالكترونية، واضافة الى مشاركاتهم العضوية في الثورة السورية تنظيما وفعاليات، فقد تنكّب الكثيرون منهم مهام التنظير للثورة السورية وتحليلها، وكتب الكثير من المبدعين قصصا وقصائد ورسم الفنانون التشكيليون لوحات للتعبير عنها.

•ناقد أدبي وصحافي من سوريا مقيم في لندن.

رؤية للمرحلة الانتقالية بعد الأسد

برهان غليون

في منطق الثورة والمعارضة

-1 ليست المصطلحات التي استخدمت ولا تزال تستخدم للتعبير عن الثورة السورية بريئة ولا عفوية، ولكنها تعكس المصالح العميقة، واحيانا غير الواعية، لمستخدميها، ولا اريد ان اشير هنا الى مصطلح الحرب الاهلية او الطائفية التي تتردد منذ بداية الثورة، ولا عن العصابات ثم المجموعات الارهابية التي يستخدمها النظام، والتي تعكس نكران الواقع وارادة الحرب المعلنة ضد الثورة، والسعي الى مواجهتها بكل الوسائل، فهذا امر بديهي اليوم ومعروف.

لكنني اريد ان اشير الى استخدام مصطلح المعارضة بوصفها الطرف المناقض للسلطة الذي درجت عليه الدبلوماسية الدولية عموما ووسائل الاعلام الاجنبية والكثير من الاعلام العربي، والذي يغيب تماما مفهوم الثورة ومنطقها ومفرداتها. وقد أوقع هذا الخلط بين الواقع والصورة الخاطئة المشكلة عنه اطرافا عديدة في الخطا، وادخل مقارباتها او سياساتها في طريق مسدود، وحكم على خططها جميعا بالفشل، وفي مقدمها ما سمي بمبادرات الحوار بين السلطة والمعارضة من أجل انتقال سلمي للسلطة. فالأطراف الدولية التي اختصرت كل ما يحصل في سورية اليوم من احتجاج شعبي واسع النطاق بنشاط المعارضة بالمعنى السياسي والحزبي للكلمة، وجعلت من التفكير فيها وتحليل مواقفها والتشديد على عيوبها محور اهتمامها، انتهت الى تجاهل ديناميكيات الثورة التي تسيطر على الارض وتتحكم بالتحولات والاحداث، وجعلت من توحيد المعارضة القليلة التأثير في الوقت الراهن لازمة يومية، فاخطات في فهم آليات التحول الجارية، ووجدت نفسها تدور في حلقة مفرغة.

وهي لم تدرك أن انقسام المعارضة ذاته لا ينبع من الاختلاف السياسي أو الايديولوجي وإنما من علاقتها بقوى الثورة واحداثها ومن التنافس في ما بينها على اعطاء معنى لحدث الثورة الكبير أو أحيانا كثيرة من استخدامها لتأمين مواقع في حركة التغيير تضمن لها في المستقبل الحصول على مناصب قيادية.اما النظام الذي راهن على الانكار المطلق للثورة ومنطقها ورفض الاعتراف حتى بوجود المعارضة السياسية الكلاسيكية فقد تمسك بفكرة المؤامرة الارهابية ولم يبق له من افكار لمواجهة الوضع سوى فكرة الاستئصال بالقوة والعنف، كما حصل في الثمانينات من القرن الماضي في حماة، لكل ما يمت للثورة بصلة من تظاهرات أو احتجاجات مدنية أو مقاومات شعبية.والنتيجة مزيدا من الانفجار وتوسيع قاعدة الثورة وانتشارها في كل مكان بموزاة التصعيد الجنوني في العنف والممارسات الوحشية.

٢. هناك بالتأكيد معارضة سياسية في سورية مرتبطة اليوم اكثر فاكثر بالثورة، لكنها لا تشكل القوة المحركة فيها، ولا يمكن ان تشكل مثل هذه القوة.إنها بالاحرى تابعة للثورة، ولا يمكن إلا ان تكون كذلك، بما تمثله من ديناميكية تاريخية فاعلة مرتبطة بزخم كتلة شعبية متفجرة تحركها روح لا تخمد من إرادة التحرر والتضحية والفداء، وهي وحدها من يملك زمام المبادرة على الارض.والفرق بين الثورة والمعارضة هو الفرق بين منطقين وديناميكيتين اجتماعيتين مختلفتين تماما.فلا تعمل المعارضة إلا بمنطق السياسة القائم هو نفسه على الحوار والتفاوض للوصول إلى تسويات أو حلول وسط ترضي جزئيا على الأقل الاطراف المتنازعة.ومن دون هذا الحوار والتفاوض ليس للمعارضة اي امل في تحقيق شيء.

ولذلك يرتبط نجاح المعارضة بالخبرة السياسية العملية وبمقدرة القادة السياسيين ومهاراتهم في فن الحوار والمفاوضة والمناورة السياسية والتكتيكية بشكل خاص، ولا يمكن لها ان تتقدم من دون خطط واضحة وبرامج مبلورة واهداف معروفة للجميع. فالسياسة هي فن الوصول إلى أهداف ممكنة بوسائل قانونية وشرعية اي سلمية.وهذا يعني انها ممارسة واعية ومنظمة وعقلانية تتحقق ضمن نظام مستقر على مباديء وقواعد واضحة ومعلومة.

وبالعكس، تشكل الثورة ظاهرة من نوع الظواهر الطبيعية التي لا تخضع لمعايير العقلانية السياسية العادية، ولكنها تستمد هويتها من منطق اخر تماما هو منطق الانفجار.فهي ظاهرة موضوعية لا ترتبط بأي وعي نظري صوري أو إعداد

مسبق أو مسار مخطط له، ولا يتحكم بها أي إدراك سياسي او غير سياسي، هي تعبير عن حالة استثنائية بكل المعاني، استثنائية في مضمونها وفي شكلها معا، ولذلك لا توجد ثورة شبيهة بثورة اخرى، وليس هناك نموذج واحد للثورات. وما يسيرها هو منطق داخلي عميق يستمد قوته ومعناه من منطق الانفعال العميق المرتبط بكتلة من العواطف والمشاعر والإدراكات المتناغمة والمتباينة، المتراكمة عبر التاريخ الاجتماعي لحقبة طويلة من الزمن، وهو منطق البركان الذي يتفجر فجأة وعندما يتفجر لا يستطيع احد ان يقوده او يتحكم به.وتزداد روح الثورة اشتعالا بمقدار ما تواجه من مقاومة أو عوائق وليس العكس.ويقودها منطق التحدي الذي تدفعه المصاعب الى المزيد من التجذر والمغالاة والنزوع الى القضاء على كل من يقف في طريقها او تعتقد انه يفعل ذلك، حتى لو كان داخل صفوفها.فليس في الثورة مساومة ولا مهادنة ولا ترشيد للجهد أو اختصار للمسار.ليس للثورة اهداف مستقلة عنها وإنما هي نفسها الوسيلة والهدف من حيث هي تعبير عن التغيير والتحول الاعمق وتجسيد لانهيار الوضع القائم والانقلاب الشامل عليه.هي غاية ذاتها، وتحققها هو تحقق لهدفها في الوقت نفسه.

في منطق الثورة ترمي الشعوب نفسها بكليتها وتضع مصيرها بأكمله في الرهان فإما النصر أو الموت. فالثورة من الظواهر الحدية التي تعني ان الاطراف ترمي بنفسها فيها بشكل كلي وشامل لا توسط فيه ولا مساومة، ومن دون حساب او حتى من دون تفكير في العواقب او النتائج وفي الربح والخسارة. وهذا يعني ايضا انه لا مجال ولا مكان للهزيمة، للتراجع او للاستسلام والعودة إلى قانون العبودية والمهانة والإذلال. فالتضحية تقود في الثورة إلى مزيد من التضحية ومن دون حساب، والقتل الذي يستهدف الثوار لردعهم عن الاستمرار يجر إلى المزيد من القتل بمقدار ما يصبح فاقد الطاقة الردعية والمعنى. وما شهدته الثورة السورية هو التصعيد المتبادل:في التضحية والتفاني من قبل الثوار من أجل الخلاص والتحرر من العبودية من جانب اول، وفي القتل المنظم الهادف لكسر ارادة التحرر والانعتاق من جانب آخر.

من هنا لا تنبثق الثورة من التأمل المسبق وإنما بالعكس من حالة تفقد فيها كل التنظيرات والحسابات السياسية معناها سوى حساب كسر الطوق والخروج من الاسر والانتصار. ولو تأمل الثوار في عواقب ثورتهم ومآلاتها ما كانوا رموا بانفسهم فيها.هناك قيمة واحدة تحرك كل الثورات هي الحرية، ومنطق الثورة هو دائما التطلع الى الحرية التي تعني ايضا الخلاص من القهر، أو الموت.

بين الثورة ودولة ما بعد الأسد

٣ . لم يبرز الاختلاف بقوة في البداية بين منطق الثورة السورية ومنطق المعارضة، فقد كانت المعارضة في طريق مسدود وجاءت الثورة لتفتح امامها جميع الآفاق، وكما نظرت القوى الثائرة إلى المعارضة بوصفها امتدادا لها في الداخل الاجتماعي والخارج الدولي، رأت المعارضة في الثورة بساط الريح الذي سيحملها إلى تحقيق برنامجها السياسي وأهدافها.لكن مع الوقت، وبموازاة تحول الثورة من ثورة سلمية إلى ثورة مسلحة، بدأ التميز يظهر بشكل اكبر بين منطق الثورة ومنطق المعارضة السياسية.

وقد اخذ هذا التمايز يعبر عن نفسه في البداية في المقابلة بين معارضة الداخل والخارج ثم في التباعد بين مواقف المعارضة نفسها، واستقلال طرف من المعارضة بالتمسك بالسلمية وتوجه اطراف اخرى نحو تبني خيار تسليح الثورة لمواجهة عدوانية النظام المتزايدة وهمجية سياساته.وهذا ما يفسر انهيار مواقع هيئة التنسيق التي لم تنجح في مواكبة التحول الداخلي للثورة وتعلقت بحلم السلمية الدائمة مهما كان الوضع.

لكن في ما بعد سوف يؤثر هذا التعارض بين منطق الثورة ومنطق السياسة على مكانة المجلس الوطني نفسه الذي اعلنته الثورة ممثلا لها في الفترة الاولى، وقد باءت محاولتي، كأول رئيس للمجلس، لرسم طريق وسط يؤلف بين منطق

الثورة الذي لا يساوم ومنطق السياسة الذي يطمح إلى بناء معادلات وتوازنات داخلية، تخفف من احتمالات المواجهة الشاملة والتصعيد اللامحدود بإبقائها على هامش من المناورة السياسية ورفض القطيعة مع اطراف المجتمع المترددة ومع المجتمع الدولي معا، بالفشل بسبب سد النظام الطريق امام اي حل سياسي واعتماده سياسة الاستئصال المطلق للثورة.وبهذا الفشل تم أيضا القضاء على اي امل في تحول المعارضة السياسية إلى قيادة سياسية للثورة وبالتالي الى المواءمة بين الثورة والسياسة التي من دونها لا يمكن وجود اي افق للخروج من المواجهة والتصعيد المستمرين من دون قاتل أو مقتول.فأمام استمرار النظام في نهج الحرب الشاملة الاستئصالية من الصعب للسياسة ان تؤمن لها مكانا في دائرة الثورة التي تنزع هي ايضا إلى جعل التصعيد في العنف تجاه النظام خيارها الأول وترى في اي مسعى لفتح طريق اخر غير المواجهة اضعافا لها امام آلة حرب نظامية لا تعرف إلا صناعة الموت والدمار.

تحدي السياسة والانتصار

٤. يقود هذا الوضع الذي يجمع بين اقتراب النصر على النظام وفي الوقت نفسه الخوف من الفوضى بسبب غياب القيادة السياسية . والقيادة ليست مجرد رؤية لسورية المستقبل، وانما مركز القرار الذي يقود تطبيق هذه الرؤية ويضمن تحقيقها ويحظى في الوقت نفسه بثقة الثوار اولا لكن بقية اطياف الشعب ايضا . اقول يقود هذا الوضع إلى نوع من القلق على مصير الثورة من جهة من قبل الشعب والثوار، في الداخل، كما يقود هذا الفراغ السياسي إلى مخاوف كبيرة على مستقبل الاستقرار في سورية والمنطقة ايضا، في الخارج الدولي.

فالشعب والثوار الذين يريدون من الثورة أن تحقق لهم اهدافهم في التحرر وبناء سورية جديدة ديمقراطية مدنية تعددية تساوي بين جميع مواطنيها وتضمن حقوقهم وفي مقدمتها حقهم في الحياة أي في الأمن والأمان، يخشون أن يؤدي غياب مثل هذه القيادة التي تضبط وقع الثورة وتوجه خطاها وتحظى بثقة الثوار وتأييدهم وبالتالي وحدة التوجه والقرار، إلى وضعية تسود فيها الفوضى وتتصارع فيها القوى الثورية على اقتسام النفوذ أو المواقع أو يسود فيها الانتقام بعد السقوط الحتمي القريب للنظام، ويتضاعف هذا القلق وذاك الخوف أضعافا عندما يتعلق الأمر بثورة مسلحة وبجيش تحرير مكون من كتائب لا تحصى ولا تخضع في تنظيم صفوفها لأي هيكلية عسكرية نظامية او سياسية.وبالمثل، لا يطمئن غياب قيادة سياسية واضحة تحظى بثقة الثوار والشعب ولها الحد المطلوب من المصداقي المجتمع الدولي، بما في ذلك اصدقاء سورية، انتشار السلاح على نطاق واسع في بلد يحتل موقعا استراتيجيا وجيوسياسيا خطيرا في منطقة ذات خطورة استثنائية، وترى في ذلك مؤشرا كبيرا على الفوضى العارمة التي سوف تعم بعد سقوط الاسد عندما لن تجد البلاد اي مركز قرار واضح يجمع الناس ويضمن احترام الكتائب المسلحة للقانون وتعاونها والتزامها.

يشكل هذا الوضع في نظري التحدي الاكبر للثورة السورية التي توشك على الانتصار.وهو يخلق حالة من عدم الثقة وعدم اليقين لدى الجميع ويزيد بسببه الشعور بالقلق والخوف كلما اقتربت ساعة الحسم وبموازاة اقتراب سقوط النظام، ويولد هذا الوضع شعورا خطيرا بأن مرحلة مابعد السقوط يمكن أن تكون اقسى وتطرح مشاكل على البلاد اكبر مما هو الحال اليوم حيث لم يعد للنظام اي نفوذ في اي ميدان لكن وجوده الشكلي يساعد على توحيد قوى الثورة والمقاومة المسلحة ضده ويضمن القليل من الاستقرار وضبط النفس.

بالتأكيد لم تساهم الضغوط العنيفة التي مارسها النظام على المعارضة في دفع الاخيرة إلى التعاون والتواصل مع قوى الثورة بما يمكنها من مد جسور الثقة المتبادلة والعمل المشترك والتفكير المشتركين.كما ان حرمان الدول الصديقة المعارضة من الموارد الضرورية لبناء الثقة مع الثوار لعب ايضا دورا كبيرا في استمرار القطيعة وتفريغ المعارضة السياسية من صدقيتها امام الثوار والشعب.

لكن من جهة اخرى لا يستطيع احد ان يخلق قيادة سياسية حسب إرادته، وما تقوم به الدول الصديقة لسورية أو التي تطلق على نفسها هذا الاسم من من مناورات ومساعي كاريكاتورية لتوحيد المعارضة او ابراز وحدتها الشكلية لتزويدها ببعض الصدقية والمشروعية في مواجهة الرأي العام السوري والعالمي لن يفضي إلى شيء.وما تقوم به بعض كتائب الثورة في الداخل من انشاء غطاءات سياسية بديلا لما تسميه المعارضة الخارجية لا قيمة له أيضا ولن يقود إلى ملء فراغ القيادة السياسية الذي تعاني منه الثورة السورية في الداخل والخارج.

جسور الثقة وخطوات عملية

٥. بغياب قيادة سياسية تملك رؤية نظرية وعملية واضحة وتحظى باجماع الناس وقبولهم، وبالتالي تملك نفوذا كبيرا عليهم لتوجيه خطاهم ونيل تعاونهم وضمان وحدتهم، مما لم تسمح لها الظروف بالنشوء، وتجنبا للرغبة في تركيب قيادة اصطناعية لن تحظى بأي من محددات القيادة، لا أجد بديلا عن تنفيذ مجموعة من الاجراءات العملية والتنظيمية الممكنة والتي تضمن تطمين الرأي العام السوري والدولي وتقليل مخاطر ما بعد السقوط إلى ابعد حد بانتظار ان تنبثق عن ذلك، وهذا ليس مستبعدا، فرصة لولادة الثقة الدافعة هي نفسها لبلورة ولاء ونشوء روح قيادية ايضا عند الشعب والنخبة السياسية معا.من أهم هذه الإجراءات التنظيمية:

1- العمل على بناء هيكلية ولو مبسطة لكتائب الجيش الحر نتجاوز فيها التشتت والانقسام، وذلك من خلال دفع الكتائب المتواجدة في كل محافظة إلى الانضواء تحت راية قيادة واحدة في مجلس عسكري، يضم ممثلين عنها ويجري فيه التشاور في كل ما يتعلق بالتخطيط للعمليات في المحافظة وتوزيع الموارد المالية وغير المالية.وفي خطوة لاحقة يمكن تشكيل قيادة موحدة من ممثلي جميع المجالس العسكرية في المحافظات، وهو ما سعينا إلى أطلاق حركته في الاسابيع الماضية.لكن من المهم ان يتحقق هذا الهدف تحت اشراف قيادة سياسية سورية حتى يكون له الأثر الذي نريده في ما يتعلق بتعزيز شروط بروز مثل هذه القيادة للثورة.وقد اكتشفنا ان الدول الصديقة بدأت العمل على المشروع ذاته بموازاتن وبعيدا عنا.ويشكل هذا إجهاضا لفرص نشوء قيادة سياسية سورية، ويحتاج إلى معالجة سريعة حتى لا تخرج قوة الثورة السورية المسلحة الرئيسية عن اشراف السوريين انفسهم ونفوذهم.

2- العمل بنشاط على توحيد المصادر التي تغذي كتائب الجيش الحر والمقاومة، وتوحيد معايير التمويل والتسليح.من دون ذلك سنجد انفسنا امام تشكيل ميليشيات خاصة سوف تخضع شئنا ام ابينا في القريب لإرادة مموليها، وفي وضع تزداد فيه شروط الحياة قساوة سيزيد احتمال تحول الميليشيات إلى مشاريع تحقيق مصالح واهداف خاصة. وهذا يتطلب ان تتوجه جميع التبرعات المالية والعينية الى قيادة سياسية سورية هي التي تتكفل بتوزيعها على الكتائب.

3- الاستفادة من القوة العسكرية النظامية المنشقة سواء بإلحاقها بالمجالس العسكرية المشكلة في المحافظات أو من خلال تشكيل ألوية نظامية وطنية خاصة تتحول إلى قطب موحد أو مركز استقطاب الكتائب الأخرى والمقاومين بما تتمتع به من تنظيم ومزايا ميدانية، ويكون من السهل توجيهها ودمجها في المستقبل في الجيش الوطني وتحويلها إلى نواة للقوات المسلحة الوطنية الباقية المعاد تشكيلها.

4- السعي إلى انبثاق لجنة مبادرة وطنية تضم اهم الرموز الوطنية المشهود لها بالنزاهة والعدالة والاستقلال والتي تحظى بحد كبير من التوافق، على ان تقبل هذه الرموز التي لن تتجاوز ربما اصابع اليد بالالتزام بعدم التقدم لاي منصب سياسي، على الاقل خلال المرحلة من الان إلى ساعة تنظيم اول انتخابات رسمية قانونية، وبالعمل سوية في كل الظروف ومهما كان الحال كمجموعة متحدة ومتضامنة وضامنة لمصالح الوطن والشعب العليا، والتجرد عن اي مصلحة خاصة أو شخصية، بما في ذلك دعم طرف سياسي أو اجتماعي أو مذهبي ضد آخر أو شخص مقابل شخص آخر.وأن تتعهد

بتطبيق العهد الوطني الذي قبلت به جميع اطياف المعارضة، وباحترام حقوق السوريين المتساوية جميعا والدفاع عنها في كل الظروف.

وستشكل هذه اللجنة نوعا من المرجعية الوطنية التي تسهر على وحدة الوطن والشعب واستقلال القرار الوطني وعلى ضمان الاستقرار وخلق الثقة بترفعها على التنافس السياسي ووضعها نفسها على مسافة واحدة من جميع الأطراف الشعبية وتمسكها الوحيد بالاجندة الوطنية العامة وصياغتها لها مقابل الاجندات الخاصة التي ستفرزها القوى السياسية والاجتماعية المختلفة والمتعددة.

تعمل هذه اللجنة كلجنة حكماء او عقلاء وتقوم بالمصالحة بين الأطراف الشعبية والثورية والتوسط بينها لتجنب التوترات والانقسامات أو تجاوزها، كما تقوم بالمشاورات الضرورية لاستصدار توافق شعبي عام حول أي قرار خطير يتعلق بالمصير العام.

. تشكيل حكومة مؤقتة، بعد مشاورات تقوم بها لجنة المبادرة الوطنية، تأخذ مكانها كحكومة ظل تضمن وجود سلطة جاهزة لاستلام مؤسسات الدولة وتسييرها حال سقوط النظام، وتقضي على مخاوف انتشار الفوضى في الساعات الأولى من انهيار الوضع الراهن، وتساهم في تطمين المجتمع الدولي على مرحلة مابعد السقوط، وتؤمن الغطاء السياسي الضروري على الصعيد الدولي لاقصاء ممثلي النظام في الدول والمنظمات الدولية والحلول محله، وتمثل منذ الآن الدولة السورية الجديدة وسياسدتها ووحدتها واستقلالها.

لن تحل هذه الإجراءات التي هي في متناول اليد مسألة غياب القيادة السياسية التي جعلت البعض من الثوار انفسهم يصفون ثورتنا باليتيمة لكنها، بالإضافة إلى تعبئة الحراك الثوري والرأي العام عموما حول شعارات الثورة التي لا تعني اسقاط النظام فحسب إنما في الوقت نفسه بناء الدولة الجديدة، وتأهيل القوى الثورية والشعب أيضا للدخول في مناخ وسياق هذه الدولة الديمقراطية المدنية التعددية القادمة، سوف تلعب بالتأكيد دورا كبير في تخفيف الاحتقانات والتوترات وتطمين السوريين، من ثوار واهالي، على مستقبلهم، وتزيل قسما كبيرا من المخاوف التي تنتابهم اليوم بسبب حالة التشتت وغياب التأطير وغياب القيادة الموحدة التي تحظى بالثقة وبسبب سياسات الدول الصديقة التي تثير الريبة أيضا وتزيد من التوتر بسبب تأكيدها هي نفسها على المخاوف من المستقبل بعد سقوط النظام أو تصوير هذا السقوط كما لو كان مصدرا للقلق ولتفجر مشاكل لا قبل لأحد في ضبطها بما في ذلك احتمال تفتت البلاد وانتشار معمم للفوضى والعنف.وآمل ان يكون بيننا من العقلاء ما يكفي لتجنب دفع الناس إلى الإحباط والشعور بالخوف في الوقت ذاته الذي بدأت فيه معالم الانتصار تلوح في الأفق واصبح النصر قاب قوسيين أو أدنى.

خاتمة

وفي النهاية، مهما كان الحال، إنني على يقين من أن الشعب السوري سيظهر، في الوقت المناسب واللحظة الحاسمة، كما أظهر خلال الأشهر السبعة عشر السابقة، أنه شعب عظيم وخلاق، قادر على تجاوز نفسه والارتفاع إلى مستوى المسؤولية الوطنية والأخلاقية والانسانية، ووضع كل الخلافات والحزازات والمخاوف والاحقاد جانبا من أجل بناء الوطن الذي حلم به لعقود، وطن الحرية وكرامة الانسان والفرد ووطن العدالة والأخوة والمساواة، وسوف ينتصر- لا محالة- كل ما هو نقيض لنظام الموت والخراب الهالك، العقل على الجنون، والوعي على الجهل، والمحبة على البغضاء، والتضامن على الانانية، والتسامح على الانتقام.هذا هو الشعب السوري وهذه هي ثقافة سورية التاريخية.وهي أيضا وسوف تبقى ثقافة سورية المستقبل ومضمون هويتها الواحدة المتعددة معا.

مفكر وأكاديمي من سوريا مقيم في باريس

سورية الإنتفاضة: من «جيل الأسد» إلى أمثولة درعا»

صبحي حديدي

I

مئات الأشرطة التي سجّلها شبان مشاركون في الإنتفاضة السورية، وجرى تحميلها على مواقع التواصل الاجتماعي مثل «تويتر» و«فيسبوك» و«يوتيوب»، كانت العامل الأكبر في أنّ النظام خسر معركة الصورة رغم استمراره في إبعاد وسائل الإعلام العربية والأجنبية عن موقع التظاهر والإعتصام. ثمة، بينها، ثلاثة أشرطة تحمل دلالات عميقة حول مآلات ما سُمّي «التربية البعثية»، في أوساط الشباب بصفة خاصة.

شريط الفيديو الأوّل صُوّر في ظاهر مدينة إدلب، شمال غربي سورية، ويلتقط أحد مخيّمات «طلائع البعث»، وهو اسم المنظمة التابعة للحزب الحاكم، والتي تشرف على التربية السياسية للأطفال بين 6 إلى 11 سنة. لكنّ المخيّم، المخصّص أصلاً لأنشطة ثقافية وموسيقية ورياضية للأطفال خلال العطلة المدرسية الصيفية، تحوّل إلى معسكر اعتقال جماعي، بالنظر إلى أنّ السجون وعشرات المعتقلات التابعة لأجهزة الأمن السورية المختلفة، ضاقت بعدد المعتقلين (أكثر من 12 ألف معتقل، حتى ساعة كتابة هذه السطور)، وتوجّب البحث عن بدائل. الشريط الثاني يصوّر مجموعة من الشباب، يتظاهرون في مدينة القنيطرة (عاصمة الجولان، وثمة مغزى إضافي هنا)، أمام مقرّ «إتحاد شبيبة الثورة»، المنظمة التابعة للحزب الحاكم، وتعمل في أوساط الشباب بين 12 إلى 19 سنة. أمّا اللافتة الأبرز في التظاهرة فقد كانت التالية: «قالوا عنّا مندسّين، قالو عنّا مسلّحين، قالوا عنّا مخرّبين، قالوا عنّا سلفيين، ونسيوا يقولوا... سوريين!» الشريط الثالث يظهر فيه عدد من طلاب جامعة البعث، في مدينة حمص، يحرقون بطاقات عضويتهم في «حزب البعث»، وفي «الإتحاد الوطني لطلبة سورية»، المنظمة التابعة للحزب في مستوى التعليم الجامعي.

والحال أنّ هذه الأشرطة تحيل المشهد السوري الراهن إلى ما قبل 1970/10/16، حين نفّذ حافظ الأسد انقلابه العسكري على رفاقه في الحزب، ودشّن ثلاثة عقود من حكم «الحركة التصحيحية»، كما سارت تسمية الإنقلاب الرسمية، و11 سنة من توريث نجله بشار الأسد، بعد تعديل الدستور (ذاته الذي فصّله الأسد الأب على قياس نظامه) خلال دقائق، بحيث تبدو عملية التوريث «دستورية» تماماً. سياسات «التصحيح»، التي انخرط فيها الأسد الأب بعد مرور أشهر قليلة على استلامه السلطة، استهدفت تدعيم أركان حكمه بالطبع، ليس على نحو وقائي مرحلي كما خُيّل للبعض آنذاك، بل على نحو منهجي طويل كانت سيرورة التوريث مظهره الأوضح، وتبدو خيارات قمع الإنتفاضة اليوم، ومجمل خطوط الدفاع التي اعتمدها النظام ويواصل اعتمادها، بمثابة تتويج أقصى لسياسات «التصحيح» تلك. بعض تلك التصحيحات شمل إعادة بناء الأجهزة الأمنية و تبديل بنية الجيش السوري القيادية وتأسيس وحدات عسكرية مستقلة أشبه بجيوش داخل الجيوش (مثل «سرايا الدفاع»، «الوحدات الخاصة»، «الحرس الجمهوري»، «سرايا الصراع»...)؛ و بعضها الآخر شمل الحياة السياسية، وموقع حزب البعث في المجتمع، وإنشاء «منظمات شعبية» تكفل بناء شبكات الهيمنة والولاء.

أبرز «تصحيحات» الأسد السياسية كانت مقاربته الجديدة لتركيبة حزب البعث، ودوره في الحياة السورية، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكيف . وهذا كان الاعتبار الأهمّ . يمكن تحويله إلى أداة لإدامة النظام، وخدمة أواليات السيطرة والرقابة الأمنية والتغطية الدعاوية. ذلك لأنّ هذا الحزب لم يكن جماهيرياً في أي يوم، ليس بمعنى افتقاره الى التأييد الشعبي فحسب، بل أيضاً بمعنى بنيته النخبوية ونظامه الداخلي الذي يجعل التنسيب والإنتساب عملية معقدة أقرب الى

اختبار السحرة. وفي عهد «المجموعة القومية»، أيام ميشيل عفلق وصلاح البيطار وأمين الحافظ؛ كما في عهد «المجموعة القطرية»، بعد «حركة 23 شباط» 1966 وصعود مجموعة صلاح جديد ونور الدين الأتاسي ويوسف زعين وحافظ الأسد؛ ساد اليقين بأنّ التنسيب الواسع للأعضاء الجدد يؤذي جسم الحزب ويتسبب في تمييع خطه السياسي وتركيبته الطبقية. ولهذا كان التركيز شديداً على ما عُرف آنذاك بـ«المنبت الطبقي» للمرشّح، و جرى تفضيل أبناء الطبقات الكادحة على أبناء الأغنياء من الإقطاعيين والبرجوازيين.

تصحيح الأسد تمثّل في فتح باب الحزب على مصراعيه أمام المنتسبين الجدد أياً كان منبتهم الطبقي، بل وجعل الإنتساب الى الحزب أمراً لا غنى عنه من أجل ضمان دخول المعاهد والجامعات، وتأمين «الواسطة» الأولى للحصول على وظيفة. و كان الغرض الضمني هو، بالضبط، ما سعى «القوميون» و«القطريون» الى تفاديه: تمييع الخطّ السياسي والتركيب الطبقي. وبالفعل، لم يمضِ وقت طويل حتى انقلب الحزب إلى مؤسسة إنتهازية نفعية خاضعة للأجهزة الأمنية، وسرعان ما انخرط أعضاء الحزب في تعامل مباشر أو غير مباشر مع تلك الأجهزة، و أخذوا يعتبرون كتابة التقارير الأمنية واجباً تنظيمياً، فدانوا بالطاعة الى رئيس هذا أو ذاك من فروع المخابرات المختلفة، أكثر بكثير من طاعتهم لأمين فرع الحزب في المحافظة.

التصحيح الثاني، المتمم لهذا التصحيح الحزبي، تمثّل في تضخيم دور «المنظمات الشعبية»، ومنحها ميزانيات و صلاحيات وإطارات عمل كفيلة بضمان استقلالها عن الحزب، من جهة؛ و سهولة خضوعها تالياً لتوجيه الأجهزة الأمنية و العسكرية، من جهة ثانية. و هذه المنظمات أخذت تعمل في قطاع العمال والفلاحين والحرفيين والمعلمين والطلبة والشبيبة والرياضة، الى جانب الإتحادات المهنية التي تضمّ المحامين والأطباء والمهندسين والأدباء والفنانين. و كان من الطبيعي تماماً أن تشرف الأجهزة الأمنية على انتخابات هذه المنظمات، وأن يكون «التقييم الأمني» هو المعيار الأساسي في اختيار المرشحين لقيادة العمل.

في موازاة ذاك تمّت عمليات «عسكرة» مباشرة لبعض هذه المنظمات، مثلما جرى في مطلع الثمانينيات حين تولى رفعت الأسد ومفارز «سرايا الدفاع»، تدريب الشبيبة على القفز المظلي مقابل إعفائهم من معدّل الدرجات المطلوبة للإنتساب الى كليات الطب والهندسة. كذلك حرت عسكرة اتحاد الطلبة عن طريق إلزام الطلاب الجامعيين بأداء التدريب العسكري المستمر .

التصحيح الثالث كان الأكثر ذكاءاً ربما، و تمثل في استحداث منظمة شعبية جديدة باسم «طلائع البعث»، تشرف على التربية السياسية للأطفال في سن 6-11 سنة. ولأنّ الإنتساب الى هذه المنظمة كان إجبارياً وجزءاً لا يتجزأ من مناهج التعليم في المرحلة الابتدائية، فقد شبّت أجيال كاملة على العبارة/الكليشيه: «بالروح! بالدم! نفديك يا حافظ!» وكان الأطفال يكبرون وهم يستدخلون سلوك عبادة الفرد وكأنه مبدأ وطني وتربوي طبيعي تماماً، يستكمل صورة الأسد بوصفه «الأب القائد»، والوحيد القادر على حكم الأهل والمجتمع و الوطن.

ولأنّ 49% من سكان سورية كانوا فتياناً أقلّ من 15 سنة، فإنّ منظمة «طلائع البعث» لعبت دوراً حاسماً في تنشئة الأجيال الجديدة على قائد واحد وسياسة واحدة، و زرعت في نفوس الصغار حسّ الطاعة العسكرية والولاء الأعمى للقائد، و جهدت لكي تكون هذه التربية بمثابة لقاح مبكر يحول بينهم وبين التقاط «عدوى» السياسة حين ينتقلون من مرحلة الى أخرى في الدراسة والعمر والوعي. و بهذا المعنى يمكن فهم الرأي القائل بأنّ شرائح عديدة شابة في المجتمع السوري أصيبت بصدمة حقيقية حين رحل الأسد، لا لشيء إلا لأنها لم تعرف رئيساً سواه، و لم تمتلك فرصة معرفة . فكيف بممارسة . أية سياسة أخرى سوى «السياسة» التي أجبرهم على الإنخراط فيها.

II

هذه التصحيحات ساهمت في توطيد ثقافة الطاعة، وتشكيل شبكات الولاء الفردي، فصارت جاذبية فروع الحزب الحاكم والمنظمات الشعبية تعتمد على مقدار ما تستطيع تأمينه من منافع ومزايا للأعضاء ـ الزبائن. و حين يهتز المعيار بين الولاء والفائدة، فإنّ العضو ـ الزبون سيختار واحداً من اثنين: إمّا البقاء في المنظمة مع فقدان الثقة بها، أو الإنصراف عنها الى ولاء آخر يستجيب لنزوعات أخرى. وفي أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات، في ضروة الصراع المسلّح مع جماعة «الإخوان المسلمين»، وحين أخذت ممارسات السلطة ترتدي تمييزاً صريحاً بين المواطنين، على أسس طائفية أو عشائرية أو مناطقية؛ اكتشفت السلطة أنّ أعداداً كبيرة من المشاركين في تظاهرات الاحتجاج الشعبي في حماه واللاذقية وحلب ودير الزور، كانوا أعضاء في منظمة «اتحاد شبيبة الثورة». كذلك اكتشفت أن الكثير من أفراد «الطليعة المقاتلة»، التنظيم المستقلّ الذي أسسه الشيخ مروان حديد سنة 1964 واعتُبر في واقع الحال بمثابة الجناح العسكري للجماعة، كانوا أعضاء في اتحاد الطلبة، أو في حزب البعث الحاكم.

المفارقة أنّ حزب البعث ذاته لم يعد مركز الثقل في التمثيل السياسي للسلطة، فتوزّعت شبكات الولاء على «المنظمات الشعبية»، وخاصة «الإتحاد الوطني لطلبة سورية» و«إتحاد شبيبة الثورة» و«طلائع البعث»، وكانت الذريعة أنّ هذه تتبع الحزب في كلّ حال ‹بينما كانت تتبع الأجهزة الأمنية وحدها، عملياً›. متى، إذاً، وكيف، ولماذا انتهت هذه «التربية البعثية» إلى فشل متعاقب، أعلى مظاهره انطلاق الإنتفاضة السورية من القطاعات الشبابية في المقام الأوّل؟ هل تبدّت، في أطوار سابقة من سيرورات الإحتواء السياسي، أعراض واضحة كانت تنبيء بأزمة هوية بين الشباب والسلطة التي ظنّت أنها احتوتهم؟ لماذا نجح الإسلام السياسي، والمنظمات السرّية لجماعة «الإخوان المسلمين» بصفة خاصة، في اختراق بعض صفوف الشباب، لكنّ الجذوة خبت سريعاً، ولأسباب محلية صرفة لا ترتبط كثيراً بالأسباب العامة لانحسار الإسلام السياسي على الصعيد العربي والإقليمي؟

جلي، إذاً، أنّ «جيل الأسد» لم يكن محصّناً تماماً ضد سلسلة من «الشروخات التربوية»، خصوصاً تلك التي تتفاقم خلال المنعطفات الحاسمة ‹التدخل العسكري في لبنان، الانفراد عن الصف العربي في تأييد إيران ضدّ العراق، مجزرة حماة سنة 1982، المشاركة في عمليات «عاصفة الصحراء»، وما إلى ذلك›؛ حيث كانت بعض الشرائح في هذا الجيل تغرّد خارج السرب. وخلال عقد الثمانينيات كانت الأوضاع الاقتصادية والمعاشية المتردية قد مارست أقصى الضغوط على أبناء هذا الجيل، إذْ كان المواطن السوري يضطر الى الوقوف في الطابور ساعات معدودة من أجل الحصول على علبة واحدة من المناديل الصحية «الكلينيكس»، أو علبة واحدة من السمن النباتي الرديء، أو كيلوغرام واحد من البطاطا أو البندورة أو الخيار. و كان عضو الحزب أو المنظمة الشعبية جزءاً من هذا الشعب الذي يعاني، و كان في الآن ذاته مطالَباً بالدفاع عن النظام على نحو ببغائي بليد.

في قلب عناصر هذا المشهد، المعقّد لتوّه، كانت الطبيعة المركبة للمجتمع السوري، تفرض معطيات متشابكة ومتقاطعة تزيد التعقيد، وتجعل الموزاييك الإثني والديني والطائفي والمذهبي واللغوي... قابلاً، على الدوام لإنتاج عدد كبير من الولاءات الكامنة، والإنحيازات الخافية أو الغائرة عميقاً تحت سطح تلك «التربية البعثية». بذلك فإنّ السياسة لم تكن هي المنتج الأبرز لاحتقانات الداخل السوري، على صعيد الهوية الوطنية للبلد بأسره، أو في مستوى المصالح الأضيق أو أنساق التضامن التي تستولد الروابط الأخرى داخل ذلك الموزاييك.

وفي ظلّ غياب الحياة الحزبية والتنظيمية الفعلية، وتغييب السياسة عن المجتمع، بالترهيب غالباً وبالترغيب أحياناً، أخذ «جيل الأسد» يتراخى أكثر فأكثر، خاصة حين وُضع، قسراً في الحالات الأعمّ، أمام أنماط من الحداثات المبتسرة أو الناقصة أو الزائفة، أبرزها ثلاث: تلك التي تصنعها الدولة، وتعيد اجترار أفكار جوفاء حول «التقدّم» و«التنمية» و«التطوير التكنولوجي»؛ وحداثة الإستهلاك، التي تنطلق من محاكاة الصرعات الأوروبية أو اللامبالاة أو السلوك العدمي والبوهيمي؛

وحداثة ثالثة مزجية، على نحو ما، تجمع بين فكرة التقدم والإستهلاك، وبين الإنتماء الى المجتمع والإنعزال عنه في آن.

مشكلة هذه الحداثات الثلاث أنها كانت ترتطم دائماً بآلة القمع، وبالمركزة الشديدة للسلطات، وبالهوّة الشاسعة بين النظام والمجتمع. في عبارة أخرى، كان «جيل الأسد» ينتمي الى السياسة بالمعنى السطحي ـ القسري فقط، وليس بمعنى الإشتراك الديناميكي المباشر الذي يمكن الاعتداد به عند الملمات أو الأزمات. وكان جيلاً أشبه بالقطيع الهائم على غير هدى تارة، الذي قد يضلّ الدرب في أي منعطف تارة أخرى. وهو، استطراداً، لم يكن الجيل القادر على حمل «أمانة القائد»، لأنّ تربيته لم تنهض في الأساس على حسّ الإلتزام الإرادي والطوعي، بقدر ما نهضت على الإلزام والقسر.

وكان منطقياً أن يقع ارتطام شديد مع حداثات أخرى اقترحتها مواقع التواصل الاجتماعي، خاصة وأنها خضعت لاعتبارين متناقضين: الأوّل يقول إنّ سيرورات إعداد بشار الأسد لوراثة أبيه نهضت، في قسط كبير من دعاوتها الأبكر، على أنه شاب عصري لم يكن له أي منصب آخر سوى رئاسة «الجمعية المعلوماتية السورية»، راعية شبكة الإنترنت؛ والإعتبار الثاني يشهد أنّ السلطات الأمنية كانت تحجب مواقع الـ«تويتر» والـ«فيسبوك» والـ«يوتيوب»، وأنّ الشباب يدخلون إلى هذه المواقع عن طريق الإلتفاف على الحجب واستخدام تقنية الـ«بروكسي».

غير أن الجانب الآخر من حال التأزم تلك كان يكمن في حقيقة أنّ «التصحيحات» التي أدخلها الأسد على الحياة السياسية في سورية منذ عام 1970 كانت تستهدف عزل المجتمع عن السياسة، من جانب أوّل؛ والعهدة بادراة سياسة النظام الى حلقة ضيقة للغاية، من جانب ثانٍ. تلك الحلقة الضيقة صارت، موضوعياً، في موقع «الحرس القديم» بعد توريث الأسد الابن، فطُرحت بقوّة معضلة تحقيق المعادلة الصعبة بين إبعاد واستبعاد القديم الذي كان وحده سيّد المشهد، و إيقاظ الجديد الذي كان وليداً أو غائباً أو مغيّباً عن المشهد. كذاك طُرح السؤال الرهيب: كيف يمكن التطهّر من تمثيلات العهد البائد، إذا كان صنّاع العهد الجديد ليسوا سوى ورثة البائدين، وأيتامهم؟

III

ذات يوم نُسب إلى الأسد الابن قوله، في اجتماع مشترك للقيادة القطرية لحزب البعث وقادة الأجهزة الأمنية، إنّ «حافظ الأسد يحكم سورية من قبره»، ولم تكن العبارة مزيجاً من الوعيد والتهديد والتمنّي، فحسب؛ بل انطوت على مقدار كبير من الصحة، عملياً، لجهة إدامة الإستبداد والفساد، والحفاظ على بنية النظام وتوازناته الداخلية الأساسية، ومحاصصة القوّة وأنساق النفوذ وحُسن توزيعها على الأطراف. وهكذا، لم يتوقف الابن عند تذكير الناس بكلّ ما انطوت عليه عقود «الحركة التصحيحية» من قمع وفساد ونهب، وتخريب للسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والنسيج الوطني والسلم الأهلي؛ بل ذهب أبعد وأسوأ، واختار من ألوان الإستبداد ما هو أشدّ فظاظة تجاه كرامة المواطن، من جهة أولى؛ وأكثر خفّة، واستهتاراً، بحاضر سورية العربي والإقليمي والدولي، من جهة ثانية.

وطيلة السنوات الثلاثين من حكم الأسد الأب، أُريقت دماء السوريين مراراً، بدم بارد، في صيغة مجازر جماعية واسعة النطاق ‹مدينة حماة، شباط/ فبراير 1982: 30 إلى 40 ألف قتيل›، أو مجازر أضيق نطاقاً وأقلّ ضحايا خلال الفترة ذاتها ‹جبل الزاوية: 14 ضحية؛ سرمدا: 11 ضحية؛ سوق الأحد، حلب: 43 ضحية؛ ساحة العباسيين، دمشق: 60 ضحية؛ حيّ المشارقة، حلب: 100 ضحية...›. يُضاف إلى هؤلاء مئات القتلى في السجون، سواء بسبب التصفيات الجماعية المباشرة ‹مجزرة سجن تدمر: 500 ضحية على الأقل›، أو تحت أفانين تعذيب كانت تتجاوز النزوعات السادية إلى الحقد الهمجي الصرف؛ وآلاف المفقودين ‹17 ألف، في إحصاء منظمات حقوق الإنسان المستقلة›.

ليس جديداً، إذاً، أن يستأنف الأسد الابن هذا الإرث الدامي، بطرائق ليست البتة أقلّ همجية، وإنْ كانت تنهض على مقاربة تختلف بهذا المقدار النسبي أو ذاك، بسبب من متغيرات شتى تخصّ الشارع الشعبي، والمحيط الإقليمي، وأنساق

التواصل، ومناقلة المعلومات، وسطوة الصورة؛ فضلاً، بالطبع، عن صفات تخصّ شخصية الوريث ذاته، بينها الطيش وقلّة الخبرة والغطرسة وقصر النظر والفذلكة العقلية واستيهام الشعبية. وليس بمنأى عن المنطق البسيط، استطراداً، أنّ تكون 11 سنة من توريث الابن هي محض إضافة حسابية إلى سنوات حكم الأب، وانتقال من «درس حماة» إلى «درس درعا».

لكنّ الأسد الابن، حين أعطى أوامره لأجهزة الأمن باستخدام الرصاص الحيّ ضدّ المتظاهرين في درعا، واختار وحدات خاصة في الجيش لاقتحام مسجد المدينة العريق وسفك المزيد من الدماء في باحته وداخل جدرانه، كان قد جعل الدم هو الفاصل مع الشعب، وهو الفيصل. ولقد دقّ، بذلك، ثلاثة مسامير كبرى في نعش نظامه، الآيل إلى سقوط، بَعُدت اللحظة أم دنت، وتعددت طرائق الخداع والتضليل والكذب أم اقتصرت دفاعات السلطة على إراقة الدماء هنا وهناك.

المسمار الأوّل هو الإطمئنان، الناجم بالضرورة عن اختلاطات الطيش والغطرسة والنرجسية، إلى أنّ هذا الحراك الشعبي لا يمثّل إلا فئة من «المندسين» و«العملاء»، لأنّ الشعب بأسره يحبّ الرئيس، بدلالة هذا الشعار الذي تغصّ به شوارع سورية: «منحبّك»! وكان أمراً تلقائياً، أو بالأحرى غريزياً، أن يفضي ذلك الإطمئنان إلى يقين الدكتاتور، وناصحيه من شركاء النهب والحكم العائلي، بأنّ علاج هذه «الفرقة الضالة» يحتاج إلى خيار الأرض المحروقة، والبتر المبكر، على الفور، دون أي ترجيح حتى لاحتمال العلاج بالكيّ.

المسمار الثاني اتخذ صفة المفارقة السوداء، لأنّ تباشير الإنتفاضة انطلقت من مواقع التواصل الاجتماعي ذاتها التي حجبتها أجهزة النظام، وعلى يد أبناء «التربية البعثية» دون سواها، فانقلب السحر على الساحر: في معسكرات «طلائع البعث»، وفروع «إتحاد شبيبة الثورة»، و«الإتحاد الوطني لطلبة سورية»، والحزب الحاكم. وظلّ صواب ضباط الأمن يطيش كلّ اسبوع وهم يتخبطون في معرفة طرائق الاتفاق، عبر مواقع التواصل الاجتماعي، على تسميات أيام الجُمَع: الصمود، القيامة، الشهداء، الحرائر، آزادي، حماة الديار... كان هؤلاء الضباط مطمئنين تماماً إلى مجتمع أحكموا رقابته واختراقه عبر «منظمات شعبية» يتجنّد في عدادها آلاف المخبرين، فوقعوا في حيص بيص من أمر «تنسيقيات شبابية» لا تطلع من حيث لا تحتسب الأجهزة فحسب، بل تواجه مفارز الأمن بالصدور العارية، والشعارات الذكية.

المسمار الثالث هو الإستهانة بالمغزى الرمزي، قبل ذاك الديني، لاقتحام مسجد أوى إليه جرحى ومواطنون لا يحملون حتى الحجارة، وليس لهم أن يتسببوا بأي أذى للمفارز الأمنية والوحدات العسكرية التي تطوّق المسجد. ولكي تُضاف الإهانة إلى الجرح، وتُخلي المأساةُ مشهدها الدامي لصالح مهزلة ركيكة سخيفة مكرورة مستهلكة، دخلت عدسات إعلام السلطة إلى المسجد لكي «تضبط» الأموال والأسلحة المخزّنة هناك، والتي وصلت إلى «المندسين» من جهات خارجية. كأنّ الأسد لم يتعلّم أبسط الدروس من اتهامات مماثلة، ساقتها سلطات الإستبداد العربية في تونس ومصر واليمن وليبيا، ولم تعد أضحوكة المواطن العربي، والبشر في مشارق الأرض ومغاربها، فحسب؛ بل صارت مبعث اشمئزاز وقرف.

المسمار الرابع هو احتقار الذاكرة الشعبية السورية، عن طريق اقتراح حلول تنطلق من افتراض الدرجة صفر في الذكاء الأخلاقي للمواطن السوري، أو الدرجة صفر في كرامته الوطنية، كما حين اختار الأسد أن يقدّم للشارع الشعبي رشوة زيادة الرواتب (فظهر الهتاف الجميل: «يا بثينة ويا شعبان/ الشعب السوري مو جوعان»)، أو شراء ضمير المواطنين الأكراد بمنحهم الجنسية (فردّوا في اليوم التالي بمظاهرات عارمة تهتف: «طلاّب حرّية/ لا طلاّب جنسية»).

هذه مسامير أولى سبقت سواها، ولسوف تعقبها أخرى، ما دامت مطارق النظام تشتغل دون كلل لإدامة حال عالقة، مستعصية في الفساد وعصيّة على الإصلاح، صار دوامها من المحال، وأخذت ملامح انقلابها ترتسم أوضح، حتى إذا بدت أبطأ، وتباشير أثمانها أبهظ وأفدح. كان يُراد لدرعا أن تكون الفصل الدموي الرادع، المكمّل للمجازر العديدة السالفة، فصارت درعا أمثولة وطنية نبيلة وبطولية، ودشّنت اقتراب الساعة، وانتصار الشعب، وبزوغ فجر سورية الحرّة الديمقراطية.

نيسان 2011 - «الكرمل»

ناقد وكاتب من سوريا

الوضع السوري:
الاقتصاد والصراع الطبقي وإسقاط النظام

سلامة كيلة

شهدت سورية حركات احتجاج في العديد من المدن، أشّرت إلى أنها ليست خارج الوطن العربي الذي يشهد انتفاضات انتصر بعضها ولازال بعضها الآخر يتراكم من أجل ذلك. ويمكن أولاً ملاحظة العنف الذي ووجهت به هذه التحركات، وحملات الاعتقال التي طالت عشرات الآلاف من الشباب، التي يبدو أنها نتاج إحساس النظام بأنه يجلس على برميل من البارود، والتي شهد نتائج ذلك في تونس ومصر وليبيا واليمن، لهذا يتصرف بـ «حسم».

لكن ليست المشكلة هي في أن سورية هي جزء من البلدان العربية التي انتفضت شعوبها، ولا نتيجة تأثر بعض الشباب فيما جرى، وميله للتقدم من أجل أهداف طالما طرحها الشعب، وكانت في أساس انتفاض الشباب في تونس ومصر واليمن وليبيا والبحرين وعمان والأردن والجزائر والمغرب، فلاشك في أن الجو العربي العام يدفع نحو الخروج من القنوط واليأس الذي دُفع إليه الشباب نتيجة انسداد الآفاق، لكن الذي يجعل لهذا الحراك أثر هو أن الظروف التي باتت تعيش فيها الطبقات الشعبية هي متشابهة في كل هذه البلدان، رغم كل ما يقال عن اختلافات أو تمايزات في الموقف السياسي خصوصاً.

تحولات اقتصادية

فقد جرت تحولات اقتصادية عميقة خلال السنوات الماضية كانت أسرع من كل السنوات التي بُدء فيها بـ «الإصلاح الاقتصادي» سنة 1986، وأدت إلى النتائج ذاتها التي حدثت في تونس ومصر. فقد توسع دور قطاع العقارات والسياحة والبنوك داخلياً، وتوسع الاستيراد نتيجة تراجع حاد في الإنتاج المحلي. وهو الأمر الذي أدى إلى تهميش قطاع واسع من الطبقات الشعبية، سواء نتيجة البطالة التي ربما تصل إلى 30% من القوى العاملة، أو الإفقار نتيجة انخفاض الدخل مقابل ارتفاع مذهل في أسعار السلع التي باتت عالمية (أو حتى أكثر من ذلك نتيجة احتكار فئة حاكمة). كما تمركزت الثروة في قلة محيطة بالسلطة باتت وافرة الثراء والبذخ، وتحتكر كل المشاريع التي تدرّ الربح، وتسيطر على كل «الاقتصاد الأسود».

تقول دراسات الحكومة أن متوسط الدخل هو 11 ألف ليرة سورية شهرياً (220 دولار تقريبا)، وأن الحد الأدنى هو 7000 ليرة سورية تقريباً (140 دولار تقريباً)، بينما وعلى ضوء دراسة الحاجات الأساسية للمواطن لا بد من أن تكون 31 ألف ليرة سورية (620 دولار تقريباً)، أي ثلاثة أضعاف الراتب الحالي (وتشير إلى أن الحد الأدنى في دمشق لا بد من أن يكون 40 ألف ليرة/ 800دولار). هذا الوضع وحده يفسّر تراكم الاحتقان لدى قطاعات واسعة من المجتمع، وإحساسها بالعجز عن العيش، وهي الحالة المثالية لكل انفجار اجتماعي يفضي إلى الثورة.

وإذا لمسنا أثر «الانفتاح» الاقتصادي والتحكم الاحتكاري في الاستيراد فسنجد أن رفع أسعار المازوت والبنزين خلال السنتين الماضيتين قد أفضى إلى انهيار مريع في الزراعة حوّل سورية إلى دولة تستورد القمح بعد أن كانت تصدّر أجود أنواعه، وانتهى تصدير القطن، وانهارت مناطق زراعية مهمة مثل الجزيرة، ونزح أكثر من مليون فلاح إلى أطراف دمشق وحوران والمدن الأخرى. وهذا الأمر حصل مع صناعة النسيج التي شهدت انهياراً كبيراً، خصوصاً مع ارتفاع أسعار المواد الأولية والمازوت، واستيراد السلع الصينية ثم التركية، من قبل محتكرين يهدفون إلى الربح الأعلى.

طبعاً دون أن نتحدث عن انهيار التعليم والقطاع الصحي، وتعمم الفساد. وانهيار «القطاع العام» بعد نهب طويل له، وإيكاله لمدراء لا كفاءة لديهم، ويعملون من أجل المصلحة الشخصية، والذين منهم نشأت «طبقة جديدة» أسميت رجال الأعمال الجدد، التي باتت تهيمن على مجمل الاقتصاد، الذي بات اقتصاداً ريعياً.

هل فعلت رجالات النظم في تونس ومصر أكثر من ذلك؟ الغريب أن التشابه كبير بين مجمل النظم العربية (حتى في الاتهامات التي تكيلها على المحتجين، مثل القلة المندسة، وزج اسم الفلسطينيين والتنظيمات الأصولية)، فقد باتت نظم بوليسية وتتحكم قلة سلطوية في مجمل الثروة، وتنشط في العقارات والخدمات وكل ما يدرّ ربحاً ريعياً، ولها طابع عائلي. فحين لا يجد الشعب ما يسمح له العيش، خصوصاً الشباب الذي يعاني من بطالة كبيرة، لا تعود المسألة بسيطة أو تستطيع سلطة مهما كانت قوتها الأمنية وقف دفق الشعب الذي يكون أخطر من تسونامي.

وأشير أنه هنا لا يفيد الكلام «ضد الإمبريالية»، ولا الحديث عن «الممانعة»، بعد أن يصغ الاقتصاد بما يخدم سيطرة النمط الرأسمالي، والطغم الإمبريالية، هذه الطغم التي سعت، ومن أجل تعميم منطق المضاربة في أسواق الأسهم والبنوك، إلى تهديم الاقتصاد المنتج لمصلحة اقتصاد ريعي يقوم على نهب الثروة التي بناها الشعب خلال عقود طويلة من تاريخه. وبالتالي لا يفيد الموقف السياسي، أو التبرير بالموقف السياسي، ولا الحديث عن مؤامرات.

الاقتصاد نهب، والشعب أفقر، في ظل نظام قام على أساس دكتاتوري، وكانت الدكتاتورية ضرورية لتسهيل النهب، وباتت ملازمة لاستمراره. لكن حين لا يكون هناك من فارق بين الحياة والموت لن يختار الشعب سوى الانتفاض، فلا يقبل أي كان أن يموت بصمت. وحينها شاهدنا ماذا كان وضع النظم. الشعب هنا يريد الخبر والحرية، ولقد بات الشعب هو اللاعب الأول. فالوضع يحتاج إلى تغيير عميق في النمط الاقتصادي وفي النظام السياسي.

الوضع الطبقي للانتفاضة السورية

في كل الانتفاضات العربية كان الحراك يتخذ شكل الجموع، حيث لا تمييز بين طبقة وأخرى، وحيث لا تمييز بين شيوخ وشباب رغم أن الكتل «المقاتلة» كانت من الشباب. ولا شك في أن الانتفاضات العفوية هي هكذا، حيث تخرج الجموع بعد حدث ما، أو مسألة محدَّدة، دون أن ينظمها أحد، ودون أن تعتمد الاصطفاف الطبقي في التحرك. إنها كتل وجموع تملأ الشوارع بشكل مفاجئ، باختلاط بين طبقات مختلفة تعاني من وضع متشابه من حيث الحالة.

في سورية بدأت فئات شبابية مفقرة أو من فئات وسطى مفقرة حراكاً بتأثير الثورات العربية (تونس ومصر، ثم ليبيا)، كانت مسألة التحرر من كبت طويل و«نمذجة» للسلوك مديدة، هي المحرّك الأولي لديها. لكن هذه الفئات كانت محدودة ولم تثر حراكاً قوياً. في درعا كان انهيار الريف يؤثر في وضع أصبح يتعرّض لسطوة مافيا السلطة على المنطقة، من خلال السيطرة على الأرض بحجة أنها أرض حدودية تخضع للقانون 49 الخاص بذلك. ولهذا تحوّل الأمر بسرعة إلى انتفاضة بعد قمع دموي لمحتجين على هذا الوضع. ولقد جاء التوسع الأولي في مناطق ريفية، من دوما وريف دمشق إلى بانياس وتل كلخ، وصولاً إلى إدلب وجسر الشغور. لكن مدناً تحرّكت، من اللاذقية إلى حمص ودير الزور والقامشلي، إلى حماة.

لم يتحرّك كل الريف، حيث بقيت مناطق من ألوان «طائفية» معينة متخوّفة أو مترددة. ولم تتحرّك كل المدن، حيث تأخرت المدينتان الأهم خارج الحراك تقريباً، وهما دمشق وحلب.

لماذا هذا التوضّع إلى الآن؟ وما هي مطالبه؟

من الواضح بأن المسار الاقتصادي الذي تحقق خلال السنوات السابقة هو الذي أفضى إلى ذلك. سنلمس بأن سياسة الانفتاح الاقتصادي التي مورست بتسارع خلال العقد السابق قد أفضت إلى لا تكافؤ في التنافس مع السلع التي باتت تستورد من جهة، والى لا تكافؤ في العلاقة بين الأسعار والأجور من جهة ثانية. وهو الأمر الذي وضع قطاع الزراعة تحت ضغط شديد نتيجة ارتفاع أسعار البذور والأسمدة، والمازوت، الأمر الذي فرض كلفة عالية على الإنتاج لا يحتمله وضع

السوق الذي بقيت الأجور متدنية فيه. مما قاد إلى تراجع فيها، ثم انهيار تأثر بعوامل طبيعية أخرى (شح المطر). وفرض توسّع الإفقار في مجمل الريف، والى هجرة أكثر من مليون فلاح من الجزيرة السورية لتعيش على هوامش المدن. وهذا ما حصل لبعض قطاعات الصناعة التي انهارت بفعل المنافسة التي أتت بها سياسة الانفتاح، مثل صناعة الغزل والنسيج، بعد السماح بالاستيراد من الصين ثم تركيا.

لكن الانفتاح الاقتصادي فرض أن تصبح الأجور في وضع لا يسمح بعيش كريم لقطاعات واسعة من الموظفين والعمال، حيث توسعت الفجوة بين الأجور (التي كان الحد الأدنى فيها هو 6 آلاف ليرة سورية في القطاع العام، وأدنى من ذلك في القطاع الخاص) والأسعار التي باتت تطابق السعر العالمي (خصوصاً في المواد المعيشية الأساسية)، وربما تزيد عن ذلك نتيجة احتكار فئة من التجار المرتبطين بالسلطة وحولها. ولما كانت السلع الأساسية وغير الأساسية قد باتت مستوردة فقد نشأ اختلال كبير في الوضع المعيشي لقطاع واسع من الطبقات الشعبية. وهو ما انعكس تدهوراً أكبر في بنية الاقتصاد الذي شحّت السيولة فيه بعد أن تمركزت بأيدي «رجال الأعمال الجدد»، ونهضت فئة ممن يتعامل مع «القطاع الجديد» (أي التكنولوجيا الحديثة)، ومن المقاولين وبعض التجار المقربين، وشريحة من الأطباء والمهندسين والمحامين والمهنيين عموماً.

على ضوء ذلك يمكن ملاحظة أن انهيار الزراعة فرض تحرّك كبير في الريف والمدن القريبة منه (درعا، حمص، حماة، القامشلي)، وهو تحرك فلاّحي شمل صغار الملاّك ومتوسطيهم، وربما بعض كبار الملاّك (نسبياً، نتيجة صغر الملكية أصلاً). لكن سنلمس تردد العمال رغم الأجر المنخفض، سواء الذين يعملون لدى الدولة أو لدى القطاع الخاص. فلم يتحرّك العمال كعمال بعد، رغم مشاركة بعضهم في التظاهر ضمن الجموع. ويبدو تردد وتخوّف موظفي الدولة واضحاً، رغم الأجر المنخفض كذلك. فالخشية من فقد الوظيفة يدفعهم حتى إلى المشاركة في «المسيرات المؤيدة»، ورغم التذمّر فإنهم لازالوا ينساقون في مسيرات ليسوا مقتنعين بها. وهو الأمر الذي يوضّح أن حاجز الخوف لم يكسر بعد، حتى من أجل رفض المشاركة في هذه المسيرات. وسنلمس التردد الأكبر لدى الفئات الوسطى المهنية، التي يشارك بعضها بشكل فردي لكنها لم تنزلق للمشاركة في الحراك بعد إلا في بعض المدن (دير الزور، حماة). وأيضاً سنجد بأن متوسطي التجار (وحتى كبار منهم) هم مؤيدون للحراك لكن بشكل خفي خوفاً على الرأسمال، وانتظاراً لتحول ميزان القوى لكي يصبحوا هم «القائد» والمستفيد في إطار التنافس مع «رجال الأعمال الجدد» الذين باتوا يهيمنون على 30% من الاقتصاد. مع العلم بأن 80% من السكان تحظى بـ 30% من الدخل الوطني.

هذه الوضعية توضح بأن الحجم الأكبر للحراك هو من فئات مفقرة، سواء نتيجة البطالة (التي تبلغ أكثر من 30%، خصوصاً بين الشباب)، أو نتيجة الأجر المتدني، ولازال منحصراً في مناطق ريفية و مدينية أقرب إلى الريف أو هوامش المدن وبعض المدن التي جرى تهميشها في «التطور» الاقتصادي الذي جرى في السنوات الأخيرة، أكثر مما هو في المدن الأساسية، إلى الآن على الأقل. وهي فئات كانت «خارج السياسة» عموماً نتيجة الاستبداد العنيف الذي أفرغ المجتمع من كل إمكانية لنشوء وعي سياسي، أو لتبلور ثقافة حقيقية. وحيث انعزلت الأحزاب السياسية، خصوصاً المعارضة عن كل هذه البيئة، منحصرة في أطر مدينية ضيقة نتيجة الاستبداد لكن أيضاً نتيجة أزماتها، واستمراء الانقطاع عن الطبقات الشعبية، وبالتالي الانحسار في نخب مدينية في الغالب، مالت في السنوات الأخيرة إلى الليبرالية، ومحورت نشاطها حول مسألة الديمقراطية.

وهي الوضعية التي تؤشر إلى المطالب التي يهدف إليها كل هؤلاء، بغض النظر عن الشعارات التي تتكرر، لكن إسقاط النظام لا شك يعني كذلك إسقاط النظام الاقتصادي الذي أنتج كل هذا الانهيار الاقتصادي، وكل هذا التمركز للثروة،

وبالتالي كل هذه البطالة والفقر، وانهيار التعليم والصحة.

الانتفاضة السورية وأهدافها

إذا كانت الانتفاضة التونسية قد رفعت شعار الشعب يريد إسقاط النظام يومين قبل ترحيل زين العابدين بن علي، وكان شعار الانتفاضة المصرية من اليوم الثالث لها، ومن ثم كان شعار الانتفاضات في اليمن وليبيا منذ اليوم الأول، فقد رُفع في سورية بعد أيام من الاجتياح العسكري لمدينة درعا، وفي مواجهة العنف والقتل الذي مورس ضد متظاهرين سلميين، ومن ثم بدأ يأخذ مكانه في المدن الأخرى بشكل متتالي.

وإذا كانت المطالبة بالعمل والأجر هي المحرّك الأول في تونس، وأيضاً في مصر، وبالتالي فقد أصبح لشعار الإسقاط معنى اقتصادي سياسي، فقد بدأت من درعا بمطالب محلية، منها مسألة السيطرة على الأرض من قبل مافيا السلطة، وأفضى شمول الشعار كل التظاهرات إلى ما يشبه الفراغ في المطالب، ربما سوى مطلب الحرية، الذي بدا كمضاد للتسلط فقط.

هل أن الانتفاضة السورية دون مطالب؟ وأن شعار إسقاط النظام لا يحمل مضموناً بديلاً؟

تخوفات كثيرة نتجت عن هذا الغموض، خصوصاً وأن الشعارات العامة التي ترفع في التظاهرات لا تحمل ما يشير إلى مطلب أو هدف غير ذلك، وهو الأمر الذي يفتح على أقاويل وتخوفات واستغلال، أقلها القول بأن المسألة تتعلق بإبدال سلطة بسلطة فقط، وإن كان يتم ذلك تحت شعار الحرية. هذه نقيصة في الانتفاضة السورية، ولا شك في أنها تؤثّر على مسارها، لأن الغموض يزيد التردد لدى فئات لا بد لها من أن تنخرط فيها. خصوصاً مع «المسحة الدينية» التي تلف الشعارات التي تتردد، والتي يُفهم منها منحى سياسياً طائفياً رغم أنها ليست أكثر من التعبير العفوي البسيط لشباب مفقر وأبعد عن السياسة والثقافة طيلة عقود كما أشرت قبلاً.

من غير المنطقي أن يتقدم شباب ثائر لكي يواجه كل هذا العنف دون أن يكون نتج ذلك عن سبب ما، وبالتالي دون هدف محدَّد. هذه بديهية، لكن الوضع كان يُظهر بأن لا أهداف لهؤلاء، ربما سوى الحرية التي لا تعني شيئاً ما دامت لم تحدَّد. لهذا من غير المنطقي ألا تكون الانتفاضة التي تهدف إلى إسقاط النظام دون أهداف واضحة، هي مطالب الطبقات الاجتماعية التي تشارك فيها، خصوصاً الشباب المفقر الذي هو محورها. لكن ربما كان تعميم شعار إسقاط النظام قبل «التعبير الذاتي» لهذه الفئات عن مطالبها قد جعل المطالب دون مستوى الهدف، وهو الأمر الذي أوجد إشكالية «الفراغ». رغم أن التغيير يهدف إلى تحقيق مطالب الذين يخوضون الصراع، وإلا بدا الصراع عبثياً.

هذا الوضع لم يخلق إرباكات لدى فئات اجتماعية فقط، هي معنية بالانتفاضة، ووضعها يشابه الكتلة الكبيرة من المنخرطين فيها، بل جعل الانتفاضة مجال تصارع بين تيارات فكرية سياسية. حيث بات الاتجاه المهيمن في المعارضة السورية، وفي النخب المعارضة، يميل إلى محورتها حول مسألة الحرية والتعددية، دون لمس لأي من المشكلات التي كانت في أساس نشوئها، على العكس من ذلك باتت تنفي بالقطع الأساس الاقتصادي المطلبي للغالبية المشاركة فيها. فأصبحت هي انتفاضة من أجل الحرية والكرامة ليس أكثر من ذلك، وأصبح هدفها نزع الاستبداد فحسب. وهي هنا تُظهر كم أنها حريصة على بقاء التكوين الاقتصادي الذي تعمم في السنوات الأخيرة، فقط مع نزع احتكار فئة قليلة هي السلطة الراهنة، ومع توسيع الحرية الاقتصادية، هذه الحرية التي جلبت الوضع المزري الراهن لكتلة مجتمعية كبيرة، والتي هي بالضبط التي دفعتها إلى التمرّد والثورة على وضع لم يعد محتملاً من ناحية المقدرة على العيش، نتيجة البطالة العالية والأجر المتدني (والهزيل)، ومع انهيار التعليم وتلاشي الضمان الاجتماعي، في وضع أصبحت السلع مستوردة في الغالب، وبالسعر العالمي (مع إضافة احتكارية كذلك كما نوهنا).

بالتالي، يجري صراع على الانتفاضة حتى قبل انتصارها، ويجري السعي لتحقيق التغيير في شكل السلطة، من سلطة استبدادية إلى دولة تعددية، دون تغيير التكوين الاقتصادي الذي بات يهمّش ما يقارب الـ 80% من المجتمع. والذي فرض انهيار الزراعة والصناعة وتمحور الاقتصاد حول القطاعات الريعية (الاستيراد والسياحة والخدمات والعقارات)، ومن ثم لفظه، لأنه كذلك، هذه الكتلة الكبيرة من الأيدي العاملة خارج العملية الاقتصادية (البطالة). ولا شك في أنه أمام القمع الدموي لن تظهر سوى الشعارات العامة، مثل الحرية وإسقاط النظام، لكن ذلك لا يعبّر عن مطالب الطبقات الشعبية بل يعبّر عن حدها الأعلى من أجل تحقيق مطالبها. فقد باتت متيقنة أن تحقيق هذه المطالب لا يكون عبر هذه السلطة بل يفترض أن تتحقق على أنقاضها. وهو الأمر الذي أوصل إلى شعار إسقاط النظام.

هنا نلمس مشكلات البطالة والأجور والتعليم والطبابة والسكن كمشكلات جوهرية تعاني منها الكتلة الأساسية من المجتمع، ومن المنتفضين. وهي نتاج السياسة الاقتصادية التي مورست خلال العقدين الماضيين تحديداً، والتي حوّلت الاقتصاد إلى اقتصاد ريعي. وانهيار وضع الفلاحين، وانهيار الصناعة نتجا عن سياسة الانفتاح الاقتصادي التي جعلت الاقتصاد في وضعية تنافسية سيئة، حيث أكمل ذلك ما بدأ مع النهب وسوء الإدارة اللذين حكما مجمل الاقتصاد لعقود أربعة سابقة. ومن ثم ليس من الممكن القول بأن مطالب العمل والحد الأدنى للأجر والتعليم المجاني وحق السكن، والضمان الاجتماعي ليست من مطالب الطبقات الشعبية التي تخوض الصراع بقوتها وصلابتها، والتي هي وحدها ستحسمه.

إذن، هذه مطالب جوهرية لقطاع كبير من المنتفضين، وهي مطالب يمكن غض النظر عنها من قبل المعارضة والنخب، لكنها ستكون المحدِّد الأخير لمآل الانتفاضة. لأنها تمثل صلب الحراك المجتمعي، وأساس الانتقال إلى دولة مستقرة. حتى وإن استطاعت النخب تجاهلها في التغيير الراهن نتيجة غياب التمثيل السياسي لذلك القطاع، وسيطرة الطابع الليبرالي الديمقراطي على القوى السياسية القائمة. وسيكتشف الذين سيسارعون إلى تقزيم الانتفاضة بأن «روح الشعب» التي كسرت سلطة مستبدة قادرة على الانتقال لكسر كل التفاف عليها. فالمسألة الجوهرية في هذه الانتفاضة وكل الانتفاضات العربية تتمثل في التغيير العميق للنمط الاقتصادي، بالعودة إلى دور أساسي (ولا أقول مركزي خشية الرعب الذي يمكن أن يصيب الليبراليين) للدولة وكونها القادرة على حماية السوق من منافسة غير متكافئة، والتوظيف الواسع في قوى الإنتاج.

لكن لا يعني ذلك أن أهداف الانتفاضة هي هذه فقط، ورغم أن تغيير النمط الاقتصادي يفرض تغيير طابع السلطة من حيث الأساس، فإن «الميل الديمقراطي» ليس طارئاً على الانتفاضة، بل هو أصيل لدى قطاعات مجتمعية متسعة، من الفئات الوسطى خصوصاً، وبشكل عام. وبالتالي ليس من الممكن سوى أن تفضي الانتفاضة إلى دولة مدنية ديمقراطية. هذه ضرورة، وهي هدف لا بد من أن توصل الانتفاضة إليه. لكن من الضروري كذلك السعي لأن تكون دولة مدنية ديمقراطية حقيقة، دون الالتفاف على ذلك عبر تقديم دولة ديمقراطية مشوهة. لا تقوم على المواطنة وغير علمانية ولا تستند إلى إرادة الشعب.

بالتالي فإن للانتفاضة السورية أهداف واضحة، وإن كانت الشعارات لا تعكسها، وكان حديث النخب والمعارضة يبتسرها. وأهدافها فرض حق العمل والأجر المناسب لعيش كريم، والتعليم المجاني (والعلمي) والطبابة المجانية وحق السكن، والدولة المدنية الديمقراطية، والجولان كنتيجة للتغيير الداخلي، وبالتالي موقف من الإمبريالية والصهيونية الآن وبعدئذ. المطلوب، لهذا، هو نظام اقتصادي اجتماعي سياسي بديل. وهذا يعني الصراع مع كل الفئات الليبرالية التي تنطلق من استمرار النمط الاقتصادي القائم بعد عزل الفئة المحتكرة الآن. فالمشكلة ليس فقط مع هذه الفئة بل مع النمط الاقتصادي الذي يقوم على الانفتاح الشامل، والذي يحوّل الاقتصاد إلى اقتصاد مستورد وريعي.

•فصل من كتاب للمؤلف قيد النشر تحت عنوان «ثورة حقيقية»

•مفكر من فلسطين منفي من سوريا ومقيم في الأردن

الثورة السورية أولا وثانيا وثالثاً

ماجد كيالي

I

الثورة السورية.. تحدياتها ومخاوفها

لم تندلع الثورات الشعبية العربية، في تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا، في ظروف مواتية، أو في بيئات مؤهّلة، كما أنها لم تكن منظمة أو مبرمجة، مما يفسّر كل النواقص والثغرات والمشكلات الناجمة عنها.

لكن هذا القول لا يترتّب عليه نزع شرعية هذه الثورات، لأن البديل عن ذلك هو تأبيد حال الموات في الواقع السياسي العربي، واستمرار تهميش المجتمعات، ذلك أن المفاضلة التي سادت، طوال العقود الماضية، كانت بين حدّين، فإما القبول بالواقع مما يعني الاستكانة لحال الموات، وإما مصارعة الموت من أجل الحياة.

هذا يفيد بأن الثورات كانت بمثابة ضرورة تاريخية، أو محطّة إجبارية، لكسر حال الاستعصاء في التطوّر، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، في البلدان العربية، والمتمثلة بنظم الاستبداد والفساد التي هيمنت طويلاً على البلاد والعباد. وقد توضّح ذلك جلياً في مدى ممانعة ومقاومة النظم المعنية لعملية التغيير، والثمن الباهظ الذي دفعته هذه الثورات، وما زالت، لا سيما في محطّتيها الليبية والسورية.

وبداهةً فإن القول المذكور يترتّب عليه، أيضاً، إعمال النقد في هذه الثورات، أي في خطاباتها وبناها وعلاقاتها وأشكال عملها، ذلك أن الثورات هي أصلاً حالة نقد، وهي بوصفها كذلك تنقد نفسها، أيضاً، فما بالك إذا كانت هذه الثورات جاءت، من الأصل، عفوية، بكل معنى الكلمة، وبمعزل عن أية نظرية وأي تنظيم، ومن دون أي خطة؟

في هذا الإطار، ربّما أن الثورة السورية المستحيلة والأكثر إدهاشاً، بين الثورات الحاصلة، على التعقيدات والصعوبات، والعذابات والتضحيات المبذولة فيها، هي أكثر الثورات التي توجب الملاحظة وتستحقّ النقد، رغم البطولات الكامنة في معانيها.

هكذا، وبعد تجربة عام ونصف، تبيّن بأن الثورة السورية باتت في مواجهة تحديات وتخوّفات عدّة، مما يمكن القول معه، بأن مصير هذه الثورة، أو سلامة مقاصدها، بات يتوقف على كيفية مواجهتها لهذه التحديات وتذليلها لهذه التخوّفات.

وتتمثّل أولى هذه التحديات والمخاوف، في صعود ظاهرتي العنف والعسكرة في الثورة، وهما ظاهرتان مترابطتان، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى. فمن المفهوم أن هذه الثورة كانت انتهجت الوسائل السلمية في التغيير السياسي، وفي تطلّب الحرية والكرامة والعدالة، بينما واجهها النظام بأقصى أشكال العنف والتنكيل، الفردي والجماعي، ويأتي ضمن ذلك زجّ الجيش في هذه العملية (إضافة إلى الأجهزة الأمنية وما يسمى جماعات الشبيحة غير القانونية).

وهكذا فإن ردّة الفعل المتمثلة بانتهاج الحل الأمني، ونبذ أي حل سياسي حقيقي، من قبل النظام، هي التي شكّلت الأساس لردّة الفعل المقابلة، والمتمثلة بانزياح الثورة السورية من السلمية، إلى تبني أشكال عنفية.

بالمحصلة فقد تطورت هذه الظاهرة مع تطور وسائل النظام في قمع الحالة الثورية، فظهرت في البداية كنتاج لانشقاق عسكريين، رفضوا المشاركة في عمليات القمع، ثم على سبيل تشكيل مجموعات مسلحة لحماية المتظاهرين، والأحياء الساخنة المستهدفة، وهي المرحلة الدفاعية، وصولاً إلى المرحلة التي باتت فيها هذه المجموعات تتخذ مبادرات هجومية على بعض الحواجز والمراكز الأمنية لإرباك قوات النظام واستنزافه.

مع ذلك لا ينبغي المبالغة في احتساب قوة الجماعات المسلحة، سواء انتمت إلى «الجيش الحر» أو إلى غيره، لا من حيث العدد، أو التسليح، ولا من جهة الأهلية، ولا سيما بالقياس للقوة العسكرية التي يمتلكها النظام، كما لا ينبغي المساواة بين

الطرفين في القدرة على الحركة والسيطرة والقدرة النارية والتدميرية.

وتكمن خطورة دخول الثورة السورية على خط العنف، في تآكل أشكالها الجماهيرية، وضمور طابعها السلمي، وغلبة طابعها العسكري على طابعها المدني، وفي إمكان طغيان البنى العسكرية للثورة على بناها السياسية، وفي احتمال سيادة لغة العنف في العلاقات الداخلية، أي بين القوى المكونة للثورة، أو للهيمنة على المجتمع، وهي مخاوف وتحديات كشفت عنها خبرات التجارب الثورية المسلحة، وضمنها الجزائرية والفلسطينية. وبديهي، فكلما كانت الثورة سلمية أكثر كان الوضع أسهل بالنسبة للثورة في المستقبل، وكلما كان الأمر بالنسبة للمجتمع يقينياً وتصالحياً وسليماً أكثر.

التخوّف أو التحدي الثاني، يتمثل في التداعيات الخطيرة التي قد تنجم عن الثورة، لا سيما الثورة العنيفة، وهذا يشمل عنف النظام وعنف الثورة، على وحدة المجتمع. إذ إن الثورات غالبا ما ينجم عنها تشقّقات أو حتى تصدّعات في المجتمع، الأمر الذي قد يصعّب عليها مستقبلاً صوغ الإجماعات الوطنية في دولة ما بعد الثورة.

هكذا، لم يعد سرّاً أن الثورة السورية كسرت كل الصناديق المقفلة، وكشفت كل السرديات المسكوت عنها، وأنها بيّنت بطريقة فجّة وربما تصادمية بأن وراء هذه اللحمة المشهدية الظاهرة، قصص وروايات، وانتماءات وعصبيات، شتّى وكثيرة، لم تخفف منها لا ادعاءات «القومية» البعثية، ولا شعارات الوحدة الوطنية، التي كانت تصدرها منظمات الطلائع والشبيبة والاتحادات الشعبية، وكذا وسائل الإعلام والمؤسسات الرسمية.

هكذا اكتشف السوريون فجأة ذاتهم مختلفين ومتعدّدين، واكتشفوا في غضون ذلك أن ستة عقود من الاستقلال، وخمسة عقود من حكم الحزب الواحد، القومي، لم تفتّ في عضد انتماءاتهم قبل الوطنية (الطائفية والمذهبية والإثنية والعشائرية)، مما يتطلّب إعادة اكتشاف ذواتهم الجمعية، وصوغ سردية وهوية وطنية مشتركة، كي تكون المجتمعات مجتمعات حقا، وكي تكون الدولة دولة حقاً، أي دولة مؤسسات وقانون ومواطنين أفراد.

وكما قدمنا فإن مشكلة الثورة أنها تفكك وتهدم، بطريقة صادمة، مما يفسّر كل المخاوف التي تتعلق بإمكان هيمنة أو غلبة طرف على آخر، وهي لاشكّ مخاوف مشروعة، وواقعية، لكن هذا الأمر، أيضاً، يرتبط بمدى انخراط كل الأطراف في الثورة، ذلك لأن وقوف طرف ما، بحجة ما، خارج الحراك الثوري، أو ربما ضده، قد يسهل على الأطراف الأخرى إزاحته، أو تقليص مكانته في واقع ما بعد الثورة.

نقول يسهّل لأن ذلك ليس حتمياً أو شرعيّاً فضلاً عن أنه مرهون بمدى قدرة الثورة على نفي الواقع القديم وإحلال واقع جديد، بمعنى عقد اجتماعي جديد، حيث تتأسس الدولة فيه، على مكانة المواطنين، الأفراد الأحرار، لا على الجماعة الإثنية أو الدينية.

التحدي والتخوّف الثالث، يتعلّق باحتمال التدخّلات الخارجية، السياسية أو العسكرية. وقد يصعب الحديث عن أيهما أخطر على مستقبل سوريا، هل التدخل الخارجي العسكري؟ أم التدخل الخارجي السياسي؟ فكلاهما يقومان على التدخّل، وهذا لا بد أن يكون على حساب مصلحة السوريين، وبما يتناسب ومصالح الأطراف الخارجيين.

وقد يبدو التدخل السياسي ناعماً وأقل كلفة من الناحيتين المادية والبشرية، ولكنه أكثر خطورة وكلفة من الناحيتين السياسية والاقتصادية. وبالمقابل فقد يكون التدخل العسكري خشناً وقاسياً ومكلفاً من الناحيتين المادية والبشرية، في حين قد تكون كلفته أقل من الناحيتين السياسية والاقتصادية.

في كل الأحوال، كلما كانت قوى الثورة السورية أكثر انسجاماً، وتماسكاً، وتتمتع بأهلية أفضل في تحكّمها بأحوالها، وإدارتها علاقاتها، وصوغها لتحالفاتها الخارجية، وتمكّنها على الأرض؛ كانت أكثر قدرة على فرض ذاتها، وعلى التقليل من شأن أية تأثيرات أو حتى تدخّلات خارجية. مع ذلك ينبغي التمييز هنا بين كون الثورة السورية حاجة وضرورة داخلية، وبين سعي القوى الخارجية للتدخل في سوريا، بالنظر لاختلاف الأهداف والمصالح والرؤية.

كما ينبغي التمييز بين الطلب من القوى الخارجية التدخّل، وهو أمر غير جائز، وغير محبذ، وبين السعي لكسب تعاطف هذه القوى، وجلب الدعم منها. وما ينبغي إدراكه أن القوى الخارجية لا تتدخل لسواد عيون أي شعب، وإنما تتدخل لأن

مصالحها تملي عليها ذلك، أو ربّما لأن الوضع بات ضاغطاً ويثقل عليها أمام شعبها.
التخوّف أو التحدي الرابع، وهو يتمثل بالواقع الاقتصادي والمعيشي الصعب الذي بات المجتمع السوري يعاني منه الأمرّين، ذلك لأن استمرار الحراك الثوري طوال عام ونصف، وبسبب من انتهاج الحل الأمني من قبل النظام، أدى إلى تفاقم مشكلات الفقر والبطالة وتوقف الأعمال، وارتفاع الأسعار، وغلاء أجور السكن، وانهيار قيمة العملة، والنزوح من منطقة إلى منطقة؛ هذا دون أن نتحدث عن فقدان عوائل لمعيلها، أو لمنزلها أو لأملاكها، وهذه قد تعد بمئات الألوف. وبديهي أن فترات الاضطراب والقلاقل السياسية والأمنية ينشأ عنها حالة من البلبلة والفلتان الأمني والتحلل الأخلاقي، الأمر الذي يفاقم من تدهور الأحوال الاجتماعية والمعيشية.
صحيح أن الثورة السورية استطاعت إلى حدّ ما إنتاج أشكال معينة من التضامن الاجتماعي، التي حاولت التخفيف من معاناة المتضررين، لكن هذه الحالة تصعّب على الثوار عملهم، وتفاقم التحديات التي تواجههم، وتضاعف مسؤوليتهم، مما يعني أن المسألة الاقتصادية ستظل تحدّياً يلقي بثقله على الثورة السورية وعلى سلامة مستقبلها.
أما التخوف أو التحدي الخامس، فيتمثل بكيفية إدراك الثورة، والثوار، لأهمية إطلاق ثقافة وسلوكيات المصالحة في المجتمع، بعد كل ما جرى. وفي الواقع فإنه من الصعب الحديث عن مستقبل آمن ومستقر لسوريا بدون تكريس قيم التسامح والمصالحة في إدراكات السوريين وفي وعيهم السياسي والثقافي، لكن ذلك ينبغي أن يؤسّس على قاعدتي الحقيقة والمصارحة، لأن الاعتراف المتبادل، وكشف الحجابات عن كل القصص المسكوت عنها، هو الذي يؤسس للانفتاح، وهو الذي يمهّد لخلق واقع من التسامح والمصالحة بين مختلف مكونات المجتمع، أي على أساس الاعتراف بمظالم الماضي، والانطلاق معاً من المصلحة المشتركة لبناء مستقبل أفضل وآمن للجميع.
ثمة التحدّي أو التخوف السادس، ويتمثل بضرورة إيجاد حلول عادلة ومتوازنة لقضية المكوّنات الإثنية الأخرى، ولا سيما للقضية الكردية، إذ لم يعد مقبولاً إبقاء هذا الجرح نازفاً، ولا إبقاء الأكراد في دائرة المظلومية، ولم يعد مقنعاً هذا الطمس للقومية الكردية، لا سيما أن الأكراد ليسوا وافدين، وإنما هم مكوّن أصيل من مكونات الشعب السوري.
ومعلوم أن حل القضايا القومية ما عاد يفترض الانقسام حكما، فقد باتت ثمة حلول إبداعية لها، لا تنتقص من عروبة السوريين، ولا من كردية الأكراد، وذلك بإقامة دولة ديمقراطية تتأسّس على المواطنين الأفراد الأحرار المتساوين أمام القانون، بدون تمييز من أي نوع؛ حيث تغتني هكذا دولة وتصبح أكثر حيوية بفضل التعددية والتنوع الكامنين فيها.
يبقى التحدي السابع، ويتعلق بتعريف دور سوريا وتحديد مكانتها في الشرق الأوسط، بعد أن كانت تبوأت في العقود الماضية أدوارا إقليمية بالغة الأهمية والخطورة، وأكبر من حجمها، ومن قدرات شعبها على التحمّل.
وبالنتيجة فإن سوريا هذه التي كانت في فترة ما تمتلك أوراق لبنان وفلسطين والعراق، وحتى إيران، كليا أو جزئيا، لم تنجح تماماً في كل ذلك. هكذا فقد تحوّلت كل ورقة من هذه الأوراق إلى عبء عليها، وعلى شعبها، بل إن كثيرا من هذه الأوراق وضعت سوريا في خانة الاستهداف والاستنزاف، من دون جدوى أو عوائد ملموسة، لا سيما على الشعب السوري.
ليس القصد من ذلك التخفّف من دور سوريا الإقليمي، وإنما القصد وضع مصالح سوريا في الأولوية، والأخذ بالاعتبار التوازن بين إمكانيات سوريا، وبين محاولاتها فرض ذاتها كفاعل في مجالها الإقليمي. وبديهي أن ذلك يتطلب الأخذ في الاعتبار التحدي الذي تواجهه سوريا باعتبار أن لديها أراض محتلة، ينبغي استعادتها، وأن على حدودها الجنوبية ثمة دولة معادية، هي إسرائيل، مما يفرض عليها تأهيل ذاتها لكبح جماحها، فضلاً عن مسؤوليتها إزاء تمكين الشعب الفلسطيني من حقوقه المشروعة.
حقاً، ثمة للثورة السورية تحديات ومخاوف كثيرة ولكنها تعدّ بتوقعات وآمال كثيرة أيضاً.

يوليو2012

II

الافتراءات السياسية على الثورة السورية

لم تتعرّض أية ثورة من ثورات الربيع العربي، لا التونسية ولا المصرية ولا اليمنية ولا الليبية، لما تعرّضت له الثورة السورية من ادّعاءات وافتراءات، على رغم أن السوريين قدموا أروع ملاحم التضحية، وكشفوا عن شجاعة وتصميم غير مسبوقين، وكابدوا في سبيل توقهم للحرية والكرامة معاناة وعذابات لم تشهدها قط أية ثورة من قبلهم؛ إنها حقاً ثورة مستحيلة، بكل المقاييس والمعايير. هكذا فقد تعرّضت الثورة السورية منذ بدايتها إلى محاولات إنكار من قبل بعض جماعات سياسية، وبعض مثقفين، من المحسوبين على تيارات «قومية» أو «يسارية»، الذين حاولوا أن ينزعوا عن هذه الثورة النبيلة شرعيتها السياسية، وفوق ذلك شرعيتها الأخلاقية؛ لكأن العيش مع الاستبداد والفساد هو العادي والشرعي، سياسياً وأخلاقياً. وانطلق هؤلاء في محاججاتهم وادعاءاتهم بداية، من اعتبار سورية مجرّد نوع من «جيوبولوتيكا « فقط، أي أنها مجرّد موقع جغرافي استراتيجي وسياسة علاقات قوّة دولية وإقليمية، لا أكثر، وكأنه ليس ثمة شعب ولا بشر ولا حقوق! بديهي أن هذا الادعاء الفارغ، والمزيّف، إنما هو صنو منطق استعماري، وعنصري، قديم، لايرى أهل الأرض الأصليين، وينكر وجود الشعب، وهو منطق يتماهى مع نظم الاستبداد، بدعوى «الممانعة» و«القضية المركزية»، و«الأمة»، التي باتت في التجربة، وبعد تلك العقود التي مرّت محض ادعاءات لفظية، وشعارات للاستهلاك، لأنه ليس ثمة تمثّلات ملموسة لها في الواقع، ولأن الممانعة، ومقاومة العدو الخارجي، والردّ على التحديات الخارجية لايكون بمحو الشعب وتكبيله وتهميشه ومصادرة حقوقه. ومعلوم أن هكذا ادعاء هو بالذات الذي تغطّت به الأنظمة الشمولية لتكريس هيمنتها على الأفراد وعلى المجتمع والدولة، لتغطية نهبها للبلاد والعباد، ولتبرير تأخّر عمليات التنمية وغياب الحريات، فيما عرف بشعار: «لاصوت يعلو فوق صوت المعركة».ثمة ادّعاء آخر، لايقلّ تدليساً وتزييفاً وخواءَ عن الادّعاء الأول، ومفاده أن الثورة السورية مطبوعة بطابع تيارات الإسلام السياسي، إذ يتناسى المدّعون هؤلاء، في غمرة محاولاتهم إنكار مشروعية الثورة، إنهم يتناقضون مع أنفسهم، ويكشفون معاييرهم المزدوجة، وكذا جهلهم بواقع سورية وتنوّع شعبها. فهؤلاء يتناسون أنهم هم أنفسهم يمحضون التأييد المطلق لسياسات إيران، لكأن هذه جمهورية ديمقراطية وعلمانية وحداثية، سيان بالمعنى الجزئي أو الكلي لكل من هذه الكلمات. كذلك يتناسى هؤلاء دعمهم واحتفاءهم بسياسات حزب الله في لبنان ونظرائه في العراق (وهنا لاأتحدث عن المقاومة ضد العدو)، في حين أن هذا الحزب ينطلق في كل ذلك من مصالح طائفية ومذهبية، وأنه هو بالذات ينتمي، أيضاً، إلى تيار الإسلام السياسي، تماماً كغيره، مثل الإخوان المسلمين، وحماس، وحزب التحرير، وغير ذلك من جماعات إسلامية.ربّما لن يكون مفيداً هنا القول بالطابع المدني والشمولي لثورة السوريين فذلك جليّ الوضوح بدليل انتشارها في كل المدن والحواضر السورية، وبحكم مشاركة مختلف تلاوين المجتمع السوري فيها، بشكل أو بأخر، بغض النظر عن نسبة المشاركة. ذلك أن محاولة الحديث عن انطباع هذه الثورة بلون معين إنما هو محض اختلاق، ومحاولة تزييف للواقع، وبناء نظرية مفبركة له. إذ لايعني، مثلا، القول بأن اللون «السني» هو الغالب على ثورة السوريين أنها بداهة ثورة إسلامية، ذلك أن عموم السوريين، من الفقراء والغلابى والمتضرّرين هم من مجمل أطياف الشعب السوري، وان كان غالبية هؤلاء ينتمون إلى لون معين، ذلك أن الهوية الطائفية/المذهبية لاتعني شيئاً في تمثّلات الواقع، بالنظر إلى كونها انتماءات موروثة، وليست اختيارية. وفي حيّز الواقع يمكنك أن تجد في طائفة ما، المتدين وغير المتدين، والمنتمي للتيار الديني، واللامنتمي. كما يمكن أن تجد اليساري واليميني، والليبرالي والعلماني والشيوعي والقومي والوطني، إذ أن كل الطوائف مفتوحة على تقسيمات أو انتماءات اختيارية مثل هذه، إذ لايمكن تنميط الناس، في هذا العصر، وفق انتماءاتهم الأولية، الموروثة، حتى لو كانت انتماءات دينية. وفوق كل ذلك فإن تأثير التيار الإسلامي في الثورة السورية، رغم كل مايبدو، ليس أزيد من تأثير التيارات الليبرالية واليسارية والقومية

والعلمانية، ويمكن التأكد من ذلك في الشعارات المرفوعة، وفي الشخصيات الشبابية التي برزت في الساحات، والتي يمكن التعرف عليها من خلال أسماء الشهداء كما من أسماء المعتقلين والمعتقلات، على رغم محاولة البعض إبراز بعض الشعارات الإسلامية على حساب غيرها، لغرض التوظيف السياسي، أو لغرض التجاذبات والتنافسات بين القوى الفاعلة في الثورة السورية. أيضاً، ثمة الادّعاء المشكّك بسلمية الثورة، فهؤلاء المدّعون يصرفون الأنظار عن أنهم أطلقوا هذا الادعاء في بدايات الثورة، وقبل حصول الانشقاقات في الجيش، وقبل تبلور بعض المظاهر المسلحة في بعض المناطق السورية. المعنى أن هؤلاء لم يكونوا يريدون من الأصل أن تأخذ هذه الثورة طابعا سلمياً، وأنهم أنكروا من الأصل هذا الطابع عليها، إذ لم يرفعوا الصوت احتجاجا على قمع المتظاهرين والمعتصمين السلميين في ساحات حمص ودمشق وحماه ودرعا، ولم يندّدوا قط بإطلاق الرصاص عليهم. والحال فقد اتجهت بعض قوى الثورة السورية نحو العمل المسلّح، ولكن ذلك جاء في إطار ردّة الفعل على الحل الأمني، وردة فعل على استهداف المتظاهرين السلميين بالرصاص، وكردة فعل على زجّ الجيش (حامي البلاد) في المواجهة مع الشعب. على رغم ذلك فإن الطابع السلمي للثورة السورية مازال غالباً عليها، هذا يحصل في دمشق ودرعا وحلب، وبدهي انه الاتجاه الأسلم والأفضل للثورة السورية ولمستقبلها.يبقى الادّعاء بالتدخّلات الخارجية، والذي يحاول وصم الثورة السورية بأنها مجرّد فعل خارجي، لإنكار شرعيتها، وهو أكثر ادعاءات استهلاكا وخواء، فهاهي الثورة السورية بعد عام ونصف تشقّ طريقها لوحدها، رغم الآلام ورغم كل هذا الدمار. أيضاً ينسى هؤلاء المدّعين بأن إيران ذاتها تساوقت مع الولايات المتحدة الأمريكية في حربها ضد أفغانستان، وفي غزوها واحتلالها للعراق، وأنها لازالت تعمل بالتنسيق معها في هذين الملفين، وضمن ذلك تنصيب قوى معينة في العراق، وهي ذات القوى التي رفضت مقاومة الاحتلال الأمريكي. وربما ينبغي التذكير بأن حزب الله (الذي نقدّر مقاومته لإسرائيل) سكت عن كل ذلك، وبالأخص عن تساوق الميليشيات المماثلة له مع الاحتلال.وعلى أية حال فإن الثورة السورية المدهشة مازالت تشقّ طريقها، رغم الصعوبات والتعقيدات والأثمان الباهظة، بقوة أيمان السوريين بقدراتهم، وباستعدادهم العالي للتضحية، وبتوقهم للحرية.

2012

كاتب من فلسطين مقيم في سوريا

في الشبيحة والتشبيح ودولتهما

ياسين الحاج صالح

خرجت من سورية، ولا فخر، كلمة الشبيحة إلى العالم ولغاته، بينما كان المسمى يخرج إلى «الشارع» السوري كالجنّي، يروع ويقتل، ويكره ويقذع في البذاءة. «يُشبّح». ودخلت اللغة العربية ذاتها كلمة لم تكن معروفة خارج سورية، بل لم تكن معروفة في سورية نفسها على نطاق واسع. ولم تلبث أن أدرجت في عائلة من الكلمات النسيبة: شبّح، يشبّح، تشبيحا؛ وأن جُعلت علما على الموالين للنظام، يقابلها «المندسون» التي استصلحها المعارضون الشباب عنوانا جامعا لهم؛ وأن أدخِلت في سياقات جديدة: شبيحة القلم (رنا قباني)، شبيحة المعارضة، شبيح الفلاسفة، وهذا لقب سوري لبرنار هنري ليفي.

أصل الكلمة غير واضح: هل هي مشتقة من أشباح، لكون الشبيحة خارجون على القانون يعملون في الظلام، بالمعنيين الحرفي والمجازي، ويظهرون ويختفون بسرعة؛ أم من سيارة المرسيدس «الشبح»، المنزوعة النمرة، والمجهولة الهوية تاليا، التي يبدو أن كبار الشبيحة يفضلونها في عملياتهم وتمييز أنفسهم؟ أم ربما من «تمديد الصلاحيات وتعريضها وتوسيعها»، على نحو ما يجري تمديد الشخص وتعريضه، شبْحه، بأن يقف على طوله وذراعاه ممدودان على جانبيه؟ «الصلاحيات» هي التخويل الرسمي بعمل ما، و«التمديد والتوسيع والتعريض» هو ما يفترض أن الشبيحة يقومون به.

1

من المحتمل أن الكلمة دخلت التداول السوري في النصف الثاني من سبعينات القرن العشرين، وبخاصة بعد التدخل السوري في لبنان عام 1976، وما تزامن معه من قفزة في التهريب من بلد مفرط الانفتاح كلبنان إلى بلد كان منغلقا اقتصاديا بإحكام كسورية. لكن الكلمة حازت انتشارا وطنيا بالتزامن مع أزمة وطنية كبرى وقعت قبل أكثر من ثلاثين عاما.

ولقد اقتصر لقب الشبيحة حينها، وحتى تفجر الثورة السورية في منتصف آذار 2011، على شبان ذكور من منطقة الساحل السوري، علويو المولد، ورؤساؤهم من آل الأسد، وفي وقت لاحق من أسر نافذة أخرى: آل ديب (نسائب لبيت الأسد)، آل مخلوف (أولاد خال أبناء حافظ الأسد). وهم يعملون في التهريب (أدوات كهربائية، تبغ، مخدرات، خمور، آثار...)، أو فرض الخوّات، ويتصفون بالخشونة والقسوة، وبالتبعية العمياء لرؤسائهم الذين يوصف واحدهم ب«المعلم»أو «الخال». فهم بذلك أقرب إلى منظمات المافيا، ومثلها هم معروفون من قبل أجهزة الحكم المركزية التي تغض النظر عنهم، والمحلية التي تتواطأ معهم، وتضمن لهم، الحصانة بحكم قرابة رؤسائهم، ولا تتجاسر حتى على الدفاع عن نفسها حين يحصل أن تتضارب المصالح.

في ثمانينات القرن العشرين كان الشبيحة، المتمتعون بحصانة تامة، يتصرفون بحرية مطلقة في مدينة اللاذقية. يحصل أن يمتعوا أنفسهم بإجبار زبائن مقهى على الانبطاح تحت الطاولات، وصادف أن كان بينهم مرة المفكر السوري المرحوم إلياس مرقص؛ أو يقتلوا شابا رفض إهانة من أحدهم، أو يتوسلوا التهديد للاستيلاء دونما مقابل أو بمقابل زهيد على أملاك اشتهوها لأنفسهم، أو يغتصب زعماؤهم فتيات جميلات؛ أو يتولوا التحكيم بين شخصين مع نيل عمولة كبيرة ممن يفوز، وهو الأغنى طبعا.

وضحايا الشبيحة متنوعون، غير قليل منهم علويون. تتكلم مرويات متواترة من بداية التسعينات عن اختطاف الشابة

هالة عاقل، ثم اغتصبت وقتلت ورميت جثتها أمام منزل ذويها. وفي الفترة نفسها قتل الأستاذ الجامعي سمير غفر لأنه رفض إنجاح طالبة يبدو أنها محسوبة على شبيح كبير. وبما أن الشبيحة يقيمون في الأحياء العلوية أو المختلطة فإن أول أذاهم يصيب جوارهم. كان الشبيح أبو رماح يسخر من جيرانه في الحي في اللاذقية، قبل أن يغلق مدخله، وينصب فيه مراجيح لأطفاله و«شادرا» يستخدمه كمضافة.

2

أولى ملامح ظاهرة الشبيحة السورية أن الحدود بينها وبين أجهزة النظام مائعة. في أصل ذلك قرابة الدم التي تجمع «معلميهم» بالرئيس في نظام حكم شخصي (يوصف الرئيس بالمعلم أيضا) من جهة، وقرابة بنيوية تتمثل في شراكة الطرفين في الاعتباط و«التَبَلّي» و«السلبطة». والأخيرة كلمة سورية شائعة، يتكثف فيما نمط ممارسة السلطة في «سورية الأسد»، وتمتزج فيها مدركات السلب (جذر سلب) واللبط (جذر لبط) والتسلط (جذر سلط). أما التبلّي فهو الاتهام الكاذب لشخص بأمر من شأنه أن يلحق به أذى شديدا، مثل أنه شتم الرئيس أو قال كلاما طائفيا.

ولقد كانت «سرايا الدفاع» بدءا من النصف الثاني من سبعينات القرن العشرين ولعقد بعده، أقرب شيء إلى ميليشيا لا يضبطها قانون، ويُنفق عليها بسخاء تمييزي من المال العام. وكان رفعت الأسد، قائدها حتى عام 1985، «شبيحا» بكل معنى الكلمة، رجلا شعبيا خشنا، عنيفا ومتهتكا وجشعا، لا نهاية لقسوته وفساده، وكان شبه محتكر لتجارة وتهريب الآثار من البلاد. كان رجل الغريزة والاندفاع مقابل أخيه حافظ الذي كان رجل الحساب والأناة. ومعلوم أن رفعت كان البطل المباشر لمذبحة حماة عام 1982، وقبلها لمذبحة سجن تدمر صيف 1980. أما حافظ فهو بطل كل الأشياء. ولعل التعذيب اليومي العشوائي للسجناء الإسلاميين طوال عشرين عاما في سجن تدمر هو المثال الأنسب على نمط البطولة الذي يشبهه.

على كل حال كان يكفي أن تكون الأولوية العليا للنظام هي دوامه حتى يجري النظر إلى المجتمع المحكوم بريبة، أو يعتبر مصدرا للمخاطر يتعين الاحتراس منه. هذه النظرة ركن جوهري في عقيدة أجهزة الأمن السوري في الأزمنة الأسدية كلها. فإذا تقاطع ذلك مع سردية مظلومية تاريخية، منتشرة في البيئة العلوية التي خرج منها أكثر القادة الأمنيين في العهد الأسدي، وكثير من عموم رجال الأمن، صار مرجحا أن تظهر عناصر ما دون دولتية في سلوك أجهزة الأمن، لطالما تظاهرت عبر التعامل الحقود والثأري مع المعارضين، العلويين منهم بقدر لا يقل عن غيرهم، ومع المجتمع ككل. صار متوقعا أيضا أن يجنح رجالها في أوقات الشدة إلى التصرف كشبيحة. ولقد رأى السوريون والمهتمون بالشؤون السورية فيديوهات تظهر مجموعات المخابرات تتصرف بأسلوب الحملات التأديبية الاستعمارية، أو بالأسلوب الذي يميز الميليشيات الطائفية في الحرب اللبنانية والحرب العراقية. فيديو البيضا من أشهرها. لكنه ليس الوحيد.

يمتزج في مدرك الشبيحة الأصلي أربعة أشياء. أولها قرابة الدم والمذهب مع آل الحاكم. وثانيها نزعة عداء للمجتمع، تجعل من الشبيحة أداة صالحة لممارسة العنف المنظم وغير المنظم ضد السكان. ولعل العداء للمجتمع تحوير لنزعة معادية للسلطة والنظام الاجتماعي، منتشرة في أوساط المهمشين والأقليات، وذات محتوى ديمقراطي مبدئي، لكنها انقلبت في الزمن الأسدي إلى نزعة عدوانية محافظة، خادمة للاستبداد والتجزؤ الاجتماعي. وثالث سمات الشبيحة التبعية الشخصية لقادتهم، التي تسهل القرابة والولاء من أمرها. وأخيرا هناك الدافع الاقتصادي القوي. يعمل كثير من الشبيحة في التهريب ، ويفيد بعض مصادر معلوماتي أنهم يفضلون سيارات المرسيدس الشبح، لصندوقها الكبير الذي يتسع لسلع استهلاكية ثمينة. وكان الشائع أن هذه السيارات مهربة من لبنان، وأن علامتها الفارقة تداعي مظهرها رغم حداثة تصنيعها، بسبب طيش الشبيحة في استخدامها، واستمتاعهم بالتشفيط بها، وربما لكونها مالا مسروقا في الأصل

لم يتعب عليه.

ويتوسل الشبيحة القوة للاستيلاء على موارد مادية أو منافذ مجزية للدخل: الموانئ مثلا. كان لرفعت الأسد ميناء خاص به في اللاذقية، لم يغلق إلا بعد تفجر الصراع بينه وبين أخيه الرئيس عام 1984. لكن بينما يجني زعماء الشبيحة ثروات مهولة، فإن عموم الشبيحة أناس محدودو الموارد، ولا يكاد أكثرهم يملك مؤهلات للعيش غير التشبيح. ويشتبه كثيرون أن مستوى تنمية منطقة الساحل متدهور من أجل إبقاء المنطقة، سكانها العلويون تحديدا، مصدرا لعضلات متدنية التأهيل تدافع عن النظام. إنهم «قوة حكم» (على نحو ما نقول «قوة عمل») رخيصة الثمن.

والشبيح النمطي متدني التعليم، ينحدر من بيئة اجتماعية مهمشة وفقيرة، فـ«أبناء المشايخ (العلويون) لا يعملون شبيحة لأحد على الإطلاق»، حسب أحد مصادري. وهو ضخم الجثة عموما، عضلي الجسم، متين البنيان، حليق الرأس، طويل الذقن، ويرتدي لباسا أسود في الغالب. لكن مع اتساع نطاق ظاهرة الشبيحة وتعمم التشبيح، لم يعد هناك شكل قياسي للشبيح. إنه اليوم عضلات مزودة بسلاح ناري أو بهراوة كهربائية.

والطائفية أداة سياسية مناسبة للنظام لأنها تسهل تعبئة هؤلاء واستتباعهم للدفاع عنه، دون أن تكون لهم في الغالب مصلحة مباشرة في ذلك. هذا بالضبط ما يجعل الطائفية ظاهرة خطيرة وغير عقلانية. إن فقراء أو محرومين يمكن أن يكونوا أدوات شرسة للدفاع عن أغنياء سلطة وثروة لا يحترمونهم ولا يهمهم رفاههم، وذلك عبر استنفار القرابة الدينية أو المذهبية.

لكن الطائفية مجرد مسهِّل لأمر التبعية الشخصية. وسنقول لاحقا إن ظاهرة الشبيحة تعممت خارج مهدها الأصلي، نحو أوساط تتميز بقوة علاقات التبعية الشخصية، أو المحسوبيات والاستزلام.

3

والشبيحة على ولاء أكيد للرئيس والنظام. ولم يدخل النظام في مواجهة معهم إلا في سياقات محددة، مثلا حين قاد باسل الأسد حملة على تشكيلاتهم في مطلع التسعينات في سياق تأهيله لوراثة أبيه. وقد جرى اعتقال بعضهم، وإلزام زعمائهم من أبناء العمومة بقدر أكبر من الانضباط في التعامل مع المجتمع.

على أن النظام لم يقض في أي وقت على الظاهرة أو يظهر عزما أكيدا على القضاء عليها. وحيث حصل أن جرت مواجهة بينهما ففي سياق إدارة المصالح العامة للنظام على حساب مجموعات منه، من شأن عدم الضرب على يدها أن يلحق الضرر بهذه المصالح العامة. لكن حتى في هذا الحالة، لا يجري استئصال هذه المجموعات، بل تحجم وتركن جانبا. في عام 2006 كان نمير الأسد وأتباعه يتنقلون بين سجني عدرا وصيدنايا، لكنهم كانوا يُشبحون على عموم السجناء والسجانين، ولا يجرؤ أحد على ضبطهم.

وليس الأمر عجزا، بل قربى بنيوية ووحدة حال. فظاهرة الشبيحة هي الوجه الآخر، المظلم، للنظام، أو لا شعوره السياسي المتأصل. إنها الشكل الأكثر عريا للنظام، سلطة العنف الخاص والمنفلت والعشوائي، أو مزيج العنف والقرابة والتعسف. وقد ظهر هذا اللاشعور السياسي بقوة في شهور الانتفاضة مع تراجع إيديولوجية النظام الواعية، القومية والاشتراكية، وبروز غرائزه السياسية على السطح. كما ظهر أن الشبيحة جيش احتياطي للنظام، يتطوع اليوم بكلفة رخيصة وبحماس كبير للدفاع عنه في وجه تهديد الثورة.

كانت «الدولة» قد امتصت التشبيح كعنصر في بنيانها، لكن مع «إخراجه» كعنف عام ومنظم وشرعي ضد المجتمع. لكن مهما يكن المرء متساهلا فإنه يصعب وصف عنف أجهزة الأمن السورية بأنه عنف دولة أو عنف عام وشرعي ومنظم. أو أن سجن تدمر هو سجن نظامي. الواقع أن أجهزة الأمن هي أقرب ما تكون إلى جيش احتلال، يخترق المجتمع كله بعنف

وعدوانية وتعال شبه عنصري، ويمنعه من الحركة، أو يجعل مقاومته غير ممكنة إلا في سياق ثورة عامة، على ما نشهد اليوم. وفي عنفه الوحشي وسريته ونظامه الصارم، كان سجن تدمر مصنع الرعب الوطني طوال عقدين من السنين.
وتتكثف العلاقة لعضوية بين الشبيحة والنظام في الطرفة المأساوية التالية التي يرويها المرحوم ممدوح عدوان في «حيونة الإنسان»: كان شخص «يقف بسيارته الحمراء على شارة المرور الحمراء، وحين تخضر الإشارة يحرك سيارته ليتقدم، وإذا بدراجة نارية، يقودها «شبيح» تأتي من الزاوية الأخرى حيث الشارة صارت حمراء،وكاد الاصطدام يقع ، ولكن تم تفاديه، ومع أن الشبيح هو الذي خالف قانون السير إلا أنه نزل وراح يشتم سائق السيارة على عدم تبصره، فقال السائق: يا أخي الشارة خضراء والطريق لي، فرد عليه الشبيح وهو يلكمه على وجهه» الطريق لك أنت؟ ألا تعرف أن البلد كله لنا؟»! والنجن التي يحيل إليها الشبيح تمتزج فيها السلطة بالطائفة. وكان أشباه هذا «التبلي» المهين شائعا جدا في ثمانيات القرن العشرين، حتى أن اللهجة العلوية غدت سلاح ترويع عام حينها. وكان يحصل أن ينتحلها غير علويين للاستفادة من مردودات سلطوية أو مادية مرتبطة بها.

4

تعمم مصطلح الشبيحة كثيرا في شهور الثورة السورية، وصار يطلق على الميليشيات غير النظامية التي يزجها النظام في مواجهة المحتجين في جميع مناطق البلاد. ومع تعممه، انفصل عن مهده وروابطه الأصلية. في حلب ينحدر الشبيحة من أسر محلية ممتدة، من أشهرها آل برّي، يُعرف عنها اشتغالها بالتهريب، من المخدرات إلى السلاح، وعلاقتها الوثيقة بـ«النظام»، وصراعها أحيانا مع «الدولة»، القوانين والشرطة والإدارة. انتهى الأمر إلى ضرب من التعايش. تحكم هذه الأسر ورجالها أحياءها الطرفية بما يقارب استقلالا تاما، وهي تتصرف بـ«مسؤولية» تجاه النظام، وتشرك رجاله المحليين بأرباحها.
وما تطلق عليه الفضائيات العربية اليوم الشبيحة في مدن سورية مختلفة له التكوين ذاته: رجال عنيفون من أصحاب السوابق والخارجين على القانون، تطورت علاقة مركبة بينهم وبين ضباط المخابرات والشرطة، بحيث يستخدمهم هؤلاء ويتقاسمون معهم المنافع، ويحمون من يديرون شبكات تهريب أو دعارة منهم، دون أن يمنع ذلك من ضرب بعضهم أو اعتقالهم بين حين وآخر. من يتعرضون للأذى الأكبر منهم هم الصغار والمبتدئين، فيما يبقى القادة متمتعين بقدر كبير من الحصانة إلى حين قد تقتضي صراعات في المراتب العليا التضحية ببعضهم.
المشترك بين ظاهرة الشبيحة في مهدها الأصلي، وبين نسخها الأحدث هو قوة روابط التبعية الشخصية، الأسرة الممتدة والعشيرة. وهو ما يقربها أيضا من شبكات الجريمة المنظمة التي تعمل بالتهريب وتجارة المخدرات، ويتواتر في حلب أن تكون نواتها الصلبة أسرا كبيرة، تسكن أحياء طرفية، شبه خارجة عن سلطة الدولة. وحتى حين لا يكون الأمر كذلك، تدين هذه الشبكات بولاء كبير لـ«المعلم» على نحو يحاكي شبكات المافيا الإيطالية. وهذا يقربها أيضا بقدر ما من أجهزة الأمن التي يحرص قادتها على علاقات تبعية شخصية قوية بعناصرهم. وهو ما يجمعها أيضا بالرابطة الطائفية التي هي شبكة محسوبيات داخلية(14)، قائمة على القرابة الحقيقية أو المتخيلة. وما يقربها قبل الجميع من النظام، القائم بدوره على التبعية الشخصية والولاء للرئيس. ومعلوم أنه بدءا من النصف الثاني من الثمانينات صار يوصف بأنه «الأب القائد»، وينتظر من جميع محكوميه أن يظهروا حياله ما يظهره الأبناء حيال أبيهم. ولعل التقارب البنيوي بين هذه الظواهر هو ما يشدها إلى بعضها، أو يدرجها في العالم الاجتماعي والسياسي نفسه.
لكن كما للنظام نواة صلبة، سياسية أمنية، للشبيحة نواة صلبة، هي تلك التي يمتزج فيها العنف بالطائفية بالامتياز، ويتجسد فيها اللاشعور السياسي للنظام كما سبق القول. ومصير النواتين مترابط، أكثر من ترابط «النظام» مع «الدولة» من

جهة، وأكثر من ترابط الشبيحة الأصليين بظاهرة الشبيحة المعممة التي ظهرت بعد الثورة. بل إنه إذا حصل وانهار النظام، كان محتملا جدا أن تتحول النواة الأمنية بالذات إلى شبيحة، أي أن يخلع عنف النظام غلالته الرسمية الرقيقة ليظهر عنفا منفلتا، كله عشوائية وخصوصية. يُسهِّل من ذلك ما أشرنا إليه من امحاء الحدود القائم منذ الآن بين أجهزة الأمن الظاهرة المعاكسة: يقوم الشبيحة بدور أمني بالتفاهم الأكيد مع الأجهزة الأمنية.

5

لكن هل عموم الشبيحة العلويين مستعدون للدفاع عن النظام حتى آخر رمق؟ عتبة دفاعهم عنه أدنى من غيرهم بتأثير مفعول الطائفية التعبوي والاستتباعي كما سبقت الإشارة، ما يجعلهم أسهل تطوعا للدفاع عنه. لكن حتى دفاع هؤلاء الشبيحة الأصليين ليس مضمونا أو بديهيا في كل حال. في الأمر أيضا عنصر اقتصادي «عقلاني». يستبسل كثيرون في الدفاع عن النظام، ليس فقط لأن عتبة تماهيهم به أخفض من غيرهم، وإنما كذلك لأن الدفاع عنه مجز وقليل الكلفة. يقال اليوم أن عناصر الشبيحة ينالون ما بين 7000 و10000 ليرة على العمل أيام الجمعة، وألفين على الأقل في الأيام الأخرى(15). ومعلوم أن كلفة العمل متدنية بفضل الطابع السلمي العام للانتفاضة. فإذا انخفضت موارد التشبيح من جهة، وارتفعت نسبة الخطر من جهة ثانية، كان محتملا جدا أن يتوقف البعض عن العمل. وقد قيل فعلا أن شبيحة أضربوا في شهر تموز 2011 بسبب انخفاض مواردهم، وعاد بعضهم إلى قراهم وبلداتهم في الساحل. ولعل في هذا ما يسوغ اعتبار عموم الشبيحة بروليتاريا قمع: يبيعون قوة قمعهم لـ«رأسمالي» السلطة.
على أن معلومات متواترة تفيد أن النهب الشائع المساكن والممتلكات الخاصة في بؤر الثورة يندرج في سياق تأمين تمويل ذاتي للشبيحة من قبل نظام تتراجع موارده المالية. يقول تقرير مهم صدر في تشرين الأول عن «لجان التنسيق المحلية»، المصدر الأكثر موثوقية للمعلومات في شأن الثورة السورية، إن ميليشيات الشبيحة في تلكلخ تمارس أعمال «التخريب وسرقة ممتلكات المواطنين كالمجوهرات». أما في الرستن فيقول التقرير: «قام الشبيحة والأمن بنهب المحلات التجارية بنهب المحلات التجارية سرقة أغلى المعدات منها وتحميلها في شاحناتهم». يجري التعامل مع ممتلكات المواطنين المنهوبة كغنائم شرعية في حرب النظام ضد المجتمع.
تواترت كذلك معلومات عن اعتقالات عشوائية في غير منطقة، إدلب بخاصة، من أجل الحصول على المال مقابل إطلاق سراح المعتقلين.

6

ما نرى من المشروع الخلوص إليه من هذا العرض المجمل، المحتاج دونما شك إلى مزيد من التفاصيل الميدانية، هو أن التشبيح نزوع متأصل في بنية النظام السوري، يرتد إليه النظام في أوقات الأزمات المصيرية، فيظهر كشبيح عام.
ولقد ظهر هذا بوضوح في ثمانينات القرن السابق. كان أسلوب الحكم في عموم البلاد شبّيحيا، واستمرت ظاهرة الشبيحة في اللاذقية في الوقت نفسه، وتطور ما يناظرها على نطاق أضيق في كل مكان من البلد. يمكن القول إن الشبيحة هم الشبح الملازم للسلطة الأسدية، حضوره أكبر وآثاره أقوى كلما اقتربنا من مواقع السلطة الحقيقية.
نخلص أيضا إلى وجود تناسب طردي بين أسلوب الحكم الشبيحي وبين انتشار الشبيحة والظواهر والممارسات الشبيحية. كلما تصرف النظام كشبيح عام، ظهر بكثرة شبيحة خواص يبذلون له ولاء غير منقوص، مقابل استقلالهم بعوائد التشبيح الخاص: تسهيلات، امتيازات، إعفاءات، غض نظر عن مخالفات متنوعة، امتيازات في التعليم والجامعات(22)، فضلا عن أجور التشبيح المباشر وغنائمه، كما في مواجهة الثورة اليوم.

بين منتصف تسعينات القرن الماضي وبداية الثورة تراجع الأسلوب الشبيحي في الحكم والظواهر والممارسات الشبيحية في آن، لكنهما تراجعا إلى موقع الغريزة، الأساس الذي لا يرى، رغم أنه موجود دوما هناك، ويمكن أن يظهر في المجال العام في أي وقت. وهو ما وقع بالفعل، وبصورة فورية، مع تفجر الثورة.

أما الخلاصة العملية لكل ذلك فهي أنه إذا دانت الكلمة العليا للنظام في مواجهة الانتفاضة، فسيسود الطابع الشبيحي لنظام الحكم، و ستُحكَم البلاد بالشبيحة وبالأسلوب الشبيحي، وسنرى مستويات من الفظاعة والتمييز ربما تفوق ما عرفته البلاد في ثمانينات القرن العشرين. ليس «إصلاحا» من أي نوع هو ما قد يعقب سحق الثورة، بل بالضبط التشبيح الفاشي طوال سنوات. النظام الحالي لا يستطيع أن يحكم بغير هذه الطريقة، فإن استكان له الناس استعبدهم، وأن ثاروا في وجهه قتلهم ما استطاع. الانتهاء من الشبيحة والأساليب الشبيحية يقتضي الانتهاء من نظام الحكم الشبيحي.

هذا ما كثفه شعار رفعه المتظاهرون من بلدة تلبيسة الحمصية في آب الماضي: «نريد دولة مدنية تحكمنا، لا دولة شبيحة تقتلنا»!

7

على أن التشبيح بالمعنى الذي تناولناه أعلاه علامة على وجهة أعم في السياسة والسلوك السياسي ميزت نظام حافظ الأسد، بل في الواقع الحكم البعثي منذ بداياته.

بدرجة تتناسب مع ضعف شرعيتهم الشعبية، لجأ البعثيون منذ أيامهم الباكرة إلى ما يمكن تسميته التشبيح الإيديولوجي، أي المزايدة والتخوين ورمي الاتهامات في كل اتجاه، والعمل الدؤوب على صنع حالة بارانويا عامة، بحيث يشك عموم المحكومين بمؤامرات متنوعة تعتمل حولهم، وليكون كل منهم مشروع متهم في وطنيته، ويكون العالم من حوله مكانا شريرا خطرا ينبغي الحذر منه وعدم الوثوق به.

ولقد كان التشبيح الإيديولوجي عنصرا أساسيا في إضعاف التفكير النقدي والسلوك الانشقاقي في سورية. المزايدة ليست اختراعا سوريا، ولا بعثيا. للأمر صلة على الأرجح بضعف تشكل القوى الاجتماعية وبحاجتها إلى ترميم ذاتها بالعقائد المعصومة والأفكار السامية المجردة. لكن المزايدة وأخواتها ارتفعت في سورية البعثية إلى مرتبة سياسة دولة، وبلغت ذرى غير مسبوقة من انفصال الخطاب المعلن عن الواقع المعاين وممكناته. ظل الحكم البعثي يزايد في مواجهة إسرائيل إلى حين تسبب بهزيمة حزيران الفاجعة. وظل يزايد على الجميع وطنيا وقوميا واشتراكيا، وهو يمزق المجتمع السوري، ويضرب الفلسطينيين واللبنانيين، ويثري أتباعه، ويتسبب في تأخر وجمود ما كان واحدا من أكثر المجتمعات العربية تقدما.

ولقد أفسد التشبيح الإيديولوجي اللغة العربية، اللغة السياسية بخاصة. فقد رفع منسوب الكذب فيها، وطبّع انفصال الدوال عن المدلولات، فحرم الجمهور العام من الأداة الرئيسية للتعبير عن شكاويه ومطالبه، وفرض كلغة وحيدة صحيحة لغة الحكم المصممة أولا وأساسا لسلب المحكومين القدرة على التعبير المستقل عن أنفسهم. ولعل للافتقار إلى لغة الكلام دور في الاحتجاج بالأجساد الذي كان اللغة الأساسية لأنشطة الانتفاضة. كان الاحتجاج بالكلام الفصيح، الممازج بدرجة خطرة غالبا لكلام النظام، هو وسيلة الاحتجاج الحصرية للمعارضة التقليدية، ولا ريب أنه في أصل ضعفها وعجزها. وكان ما تعرض له أكثر المنخرطين في صفوفها من اعتقال وتعذيب قد أخرج أجسادهم من الصراع مع النظام. لم يبق من جيلنا غير كلمات، ومعارضتنا ارتدت إلى معارضة أشباح، أرواح منفصلة عن أجسادها، لا يكاد يكون لها وزن حيال نظام هو جسد كثير العضلات، وكثير الألسنة أيضا، لا يكف عن الكلام. وبفعل طابعها الشبحي، لم يقتل ولو شخص واحد منحدر من المعارضة التقليدية، لكن حبس عدد قليل.

المعارضة الجديدة المتمثلة في الثورة تزج الجسد في الثورة وتخاطر به. وهناك نحو 5000 جسد دمرت في هذه المواجهة حتى يومنا(23).

ولاستيلاء النظام على اللغة العامة دور أيضا في نأي لغة هتافات الثورة وشعاراتها عما يقرّبها من لغة النظام وكليشيهاته. لا تستطيع أن تنفصل عن النظام دون أن تنفصل عن لغته وعالمه الرمزي. هذا شيء لا يدركه من يطالبون الثورة السورية بمواقف وشعارات «قومية». يفوتهم شيئان. أولا أن شعارات النظام كانت تشبيحا لا أساس له من الواقع، إلى درجة أنه قضى على مفهوم الحقيقة ذاته، فصار النقاش يدور بين تفضيلات إيديولوجية لا تتضح صلة أي منها بالواقع، أو تتساوى في انفصالها عنها، وتاليا في ذاتيتها واعتباطها. لم تكد الجامعة العربية تصدر قرارا بتعليق مشاركة الطرف السوري في اجتماعاتها يوم 11/12/ 2011، حتى كان متكلمون على الأقنية التلفزيونية السورية يتكلمون على «عربان» متخلفين، ويتحدث بعثيون عن أمة سورية مكتملة التكوين لا شأن لها بالعرب، ويهتف الموالون للنظام في الشوارع: طز بالعروبة!

وثانيا أن الثورة جهد شامل للانفصال التام عن النظام، قد تطور مقاربة وفهما مختلفا للقضايا المعنية. بل إن هذا محتم في تقديري، وسيكون فهما أكثر نزاهة وإخلاصا. لكن تركيزها الآن هو على لحظة الانفصال والتباعد.

8

ثم أن النظام الذي اعتمد الشبيحة أداة حكم مهمة في الداخل السوري، عمل أيضا كشبيح على المستوى الإقليمي، أي كبلطجي قوي القلب يحكم بالقوة الخام والإرهاب في محيطه، على نحو ما يفعل في سورية ذاتها. ولقد اقتضى ذلك أن يكون ممثلي النظام، في لبنان بخاصة، شبيحة حقيقيون: عنيفون، فاسدون، بلطجية، وأن يعملوا على تشبيح الدولة والسياسية اللبنانية، أي إعادة إنتاج أنفسهم ونهجهم في لبنان، كي يخلدوا في حكمه، مثلما هو الحال في سورية أيضا. وكان آخرهم، رستم غزالة، جديرا بقيادة قوات مكافحة الإرهاب في سورية بعد عام 2005، جريا على التقليد اللغوي الأوروبلي الأصيل.

على أن الأهم في التشبيح هو جني الثروات بالقوة. يتجاوز الأمر هنا ظاهرة الشبيحة الأصلية والجديدة، إلى التشبيح كنظام اقتصادي قائم على الاستيلاء والنهب والسخرة والخوات، أي توسل للقوة كأصل اقتصادي. أثرياء سورية الجدد الذين حولوا نظامها الاقتصادي إلى «اقتصاد السوق الاجتماعي» في عام 2005، هم أبناء آبائهم الذين كانوا في السلطة، ودرت عليهم السلطة ثروات مهولة. سياستهم المسماة «التطوير والتحديث» هي نهد لتحقيق الأشياء نفسها، الثروات المهولة والسلطة الكاملة الدائمة، بوسائل أقل خشونة. بعد الثورة يعود جيل الأبناء إلى نهج الآباء المجرب.

والواقع أن طبقة الإقطاعيين الجدد الذين يسيطرون على الاقتصاد السوري اليوم حصلوا على ثوراتهم عن طريق التشبيح الكبير، تمييزا عن التشبيح الصغير الذي يعتاش منه عامة الشبيحة. الشبيحة الصغار يعتدون على معارضي النظام وجمهور الثورة مقابل أجور وغنائم. هم ميليشيات ترتزق من النظام. الشبيحة الكبار يستخدمون الدولة، ويديرون النظام، ويجمعون المليارات. وهم من يواجهون الثورة اليوم بالقوة المنفلتة. الشبيحة الكبار هم من يحكمون سورية.

وإذ لم يظهروا بعد ثلثي العام أدنى استعداد لتغيير نهج الإخضاع بالقوة، أو إعادة النظر في بنية النظام، فلأن دولة الشبيحة دولة خلدونية، لها عمر طبيعي، تدول ثم تزول. لا تتفاوض، ولا تمارس السياسة، ولا تستطيع إصلاح أمرها. لكن لعلها أقصر عمرا من دول ابن خلدون التي تعيش أكثر من قرن.

9

ما الذي يجمع أشكال التشبيح هذه كلها؟ توسل القوة الخام للحكم، محليا وإقليميا، ودون تمثيل؛ المزايدة الإيديولوجية

المنفصلة عن الواقع والممكن؛ جني الثروات باستخدام سلطة الدولة ودون قانون؟ الانفصال. انفصال الثمرات عن العمل، والكلمات عن المعاني، والأوضاع عن المؤهلات والكفاءات. التشبيح جوهريا تعطيل للعمل، وللقوانين الذي تربط العمل بالدخل، والإنتاج بالثروة. وهو أيضا تعطيل لإنتاج الكلام المفهوم، الذي يثمر ارتباط الدوال بالمدلولات فيه معاني مفهومة للجميع. وهو تعطيل للسياسة، كإنتاج للتمثيل، أو الربط بين المصالح الخاصة والدولة العامة.

وهو أيضا ضرب للتمثيل عموما. تمثيل المحكومين في هيئات سياسية، وتمثيل الأعمال بدخول، وتمثيل الدلالات بدوال. وعليه فإن التشبيح نمط إنتاج مادي (لا ينتج ثروات، بل يستولي)، ونظام حكم سياسي (لا يسوس، بل يقمع)، وصيغة دلالة (لا تنتج معاني جديدة) في آن. إنتاج دون عمل، وحكم دون تمثيل، ودلالة دون فاعلية تعرّف مستقلة.

هذا يوجب على الثورة السورية أن تكون جهدا لإعادة الاعتبار للعمل كمصدر أساسي للقيم المادية والمعنوية، وللتمثيل وسياسة المصالح الاجتماعية كأساس لشرعية الحكم، وللواقع المختبر كسند للمدركات والأفكار. أي أيضا إعادة الاعتبار للإنتاج، المادي والمعنوي والسياسي. فهي بالفعل مشروع إعادة تأسيس كبير، لا بد من العمل على أبعاده الثلاثة، وليس على واحد منها فقط، البعد السياسي.

مفكر من سوريا مقيم في دمشق.

مقالات

- أمجد ناصر
- الياس خوري
- بول شاوول
- بشير البكر
- بكر صدقي
- بدر الدين عرودكي
- جريس الهامس
- جمال سليمان
- جادالكريم جباعي
- خوان غويتيسولو
- راتب شعبو
- رياض الترك
- سامر أبو هواش
- صابر جيدوري
- طالب رفاعي
- عبد الحميد صيام
- عبده وازن
- عبد الحليم قنديل
- عطاء الله مهاجراني
- علي كنعان
- عمر قدور
- عيسى مخلوف
- فايز سارة
- فاروق مردم بك
- فواز حداد
- محمد مشموشي
- محمود عباس
- معتز الخطيب
- هدى زين
- هيثم حقي
- نبيل السهلي
- يارا بدر

أسطورة ‹سيد القردة› العربي

أمجد ناصر

يورد جين شارب، المؤلف الأمريكي الذي صار ماركة مسجلة في ‹المقاومة غير العنيفة›، حكاية صينية من القرن الرابع عشر تدلُّ على الخدع التي يستخدمها الحكام المستبدّون في اخضاع شعوبهم.
وها هي الحكاية:
كان هناك رجل عجوز يعيش في ولاية ‹تشو› الاقطاعية، وقد استطاع هذا الرجل البقاء على قيد الحياة من خلال احتفاظه بقردة لخدمته، وكان أهالي ‹تشو› يسمونه ‹جو غونغ› أي ‹سيد القردة›. كان الرجل العجوز يجمع القردة كل صباح في ساحته ويأمر أكبرها أن يقودها الى الجبال لجمع الفاكهة من الأجمة والأشجار. وكان ‹سيد القردة› يفرض على قردته الكادحة شرطاً وهو أن يقدَّم كل قرد له عُشر ما جمع، ويعاقب كلَّ قرد لم يفعل بجلده من دون رحمة. كانت معاناة القرود عظيمة ولكنها لم تجرؤ على الشكوى. وفي يوم من الأيام سأل قرد صغير القرود الأخرى قائلاً: هل زرع الرجل الهرم جميع أشجار الفاكهة؟ فأجابوه: كلا، إنها تنمو وحدها. ثم تساءل القرد الصغير فقال: ألا نستطيع أن نأخذ الفاكهة من دون إذن الرجل العجوز؟ فأجابوه: نعم نستطيع. فقال القرد الصغير مستنبطاً حكمة من واقع الحال لم تخطر على بال القردة الكبار: لماذا يتوجب علينا، إذاً، خدمة الرجل العجوز؟
فهمت القردة جميعها ما كان يرمي اليه القرد الصغير حتى قبل أن ينهي جملته. وفي الليلة نفسها عندما غطَّ الرجل العجوز في سبات عميق قامت القردة بتمزيق قضبان أقفاصها، واستولت على الفاكهة التي كان ‹سيدها› قد خزَّنها وأخذتها الى الغابة. لم تعد القردة الى الرجل العجوز بعد ذلك أبداً، وفي النهاية مات جوعاً!
يقول ‹يو لي زي›، صاحب الحكاية الأصلي في تفسيره لها: ‹يحكم بعض الرجال شعوبهم باتباع الخدع، لا المبادىء الأخلاقية. هؤلاء الحكام يشبهون ‹سيد القردة›، فهم لا يعون أنه في اللحظة التي يدرك فيها الناس أمرهم ينتهي مفعول خدعهم›.
هل تذكرنا هذه الحكاية بشيء ما؟ نعم، بالطبع. إنها من طراز ما يعرف بالأدب العربي بـ ‹الحكاية المَثَلية›، أي القائمة على المثل، التي تتجلى عبقريتها ‹النضالية›، وقيمها الأخلاقية وأبعادها الحِكَمية في ‹كليلة ودمنة›. فهنا ينسب ‹الخطاب النضالي›، أو ‹فصوص الحِكَم›، إلى لسان الحيوان كدريئة من بطش السلطان. يبدو الأمر متعلقاً بحيوانات تتكلم وتتفلسف في شؤون ‹مملكتها›، فيما هو، في الواقع، عن بشر غير قادرين على تسنم ‹زمام› الكلام في مواجهة الاستبداد والتفرد في الرأي والركون إلى فائض القوة. لكن تلك الحكاية تذكرنا بشيء آخر كذلك. فسيِّدُ القردة، الذي عاش في القرن الرابع عشر، هو سيِّدٌ عربيٌّ يعيش في القرن الحادي والعشرين. ولنا في حكامنا العرب خير دليل.

يستخدم الحاكم العربي أسلوب ‹سيد القردة›، نفسه في حكم أبناء شعبه ولكن على نحو أكثر استبداداً وقهراً. فهو أولاً: يعيش، وطبقته، على ‹ظهورهم›. وثانياً: يحبسهم في أقفاص تسمى دولاً أو نُظماً. وثالثاً: يجلدهم إن عصوا أمره. ورابعاً: يوهمهم أن الغابة ملكه، أشجارها أشجاره وأكمتها أكمته. فالغابة، التي، هي كناية عن البلاد، تصبح بمرور الوقت، وتربّعه المديد على سدّة السلطة، إقطاعيته الخاصة.
سيِّد القردة، إذن، سيِّد عربيٌّ بامتياز. كان هناك مثله في العالم ولكنهم انقرضوا تباعاً ولم يتبق سادة للقردة إلا في عالمنا العربي الذي لم يعد الناس يخافون، اليوم، من أقفاصه الحديدية فراحوا يمزِّقونها بأيديهم الغاضبة من بلد الى آخر. ولكنَّ سادة القردة، للحقِّ، ليسوا متساوين في الجبروت والتشبّث بالسلطة مهما كان الثمن، وأمثلة ‹الربيع العربي› الراهنة تقدِّم لنا وجوهاً مختلفة لهؤلاء. فـ ‹بن علي› قال بعدما وصل هدير الجموع الى حدود قصره: ‹فهمتكوا›، وحسني مبارك أعلن أنه

‹لا ينتوي› الترشح للرئاسة مرة أخرى وقام بنقل صلاحياته الى نائبه الذي أجبر، في آخر ربع ساعة من حكمه المترهل، على تعيينه، بيد أن ذلك لم ينفعه فاضطر، تحت ضغط الكتلة البشرية الهائلة، للتنحّي، فيما قال القذافي، بتساؤلٍ استنكاريٍّ، للخارجين من أقفاص تشبه الكهوف: «من أنتم؟»، فبدا وكأنه يرى شعباً غير الشعب الذي أخضعه لمزاجه المريض، المتقلِّب، وأبى علي عبد الله صالح إلا أن يكون، بطرافة ممجوجة، مثل ‹الفينيق› الذي ينبعث من ‹حريقه›.. أما ملك البحرين فعيَّن لجان تقصي حقائق وأقرَّ ما توصلت إليه ولكنه لم يستطع تغيير رئيس وزرائه المزمن، ولم تكن هناك مشكلة عند الملك الأردني في تشكيل ثلاث حكومات واجراء ‹تنقيح› انتقائيٍّ للدستور من دون أن يتخلى عن صلاحياته المطلقة، أما بشار الأسد، وهذا أشدّهم بأساً وعنفاً رغم هيئته ‹البريئة› المثيرة للشفقة، فقد أنكر، ولا يزال، وجود ثورة من أيِّ نوع، وفي أيِّ شكل من الأشكال، ضد حكمه، وعزا ما يحصل من ‹اضطرابات› في بلاده إلى ‹العصابات المسلحة› التي تسلَّلت إليها في غفلة عن أعين ستة عشر جهازاً أمنياً تحصى على الناس أنفاسهم.. فراح يقصف المدن والبلدات والدساكر بالصواريخ.
ذهب بعض سادة القردة السابقين هرباً وسجناً وقتلاً. بقي آخرون يمكرون ويحتالون ويشترون وقتاً. لكن الانصاف يقضي أن نقول إنهم جميعاً، عدا القذافي، لم يبلغوا ما بلغه حاكم سورية الوريث من عنف ودموية. فهنا نحن حيال حاكم ‹بالأصالة عن نفسه أو بالنيابة عن العائلة› يريد أن يضرب مثالاً مدوياً فـي معاكسة حركة التاريخ. قلت إن سادة القردة ليسوا سواء. هذا، بالفعل، ما يشهده الشعب السوري اليوم من ‹حسم عسكري› في ‹حمص›، و‹حماة›، وغيرهما من المدن، يشبه المجزرة، إن لم يكن مجزرة كاملة الأوصاف.. هذا ما يطفو على سطح الخارطة السورية المرشوشة بصرخات الاستغاثة والدم والأشلاء.
علينا أن نتذكر أنَّ ‹سيد القردة› في الأسطورة المذكورة حكم قردته بمزيجٍ من الدهاء والقوة. كان هذا دأب ‹النظام› السوري حتى وقعت الثورة ضده، فتخلى عن الدهاء وانتضى القوة العارية في مواجهة شعبه الثائر. كان الشاعر السوري الراحل ممدوح عدوان يقول إن النظام السوري يكذب حتى في نشرة الطقس. لم يتخل النظام السوري عن هذه الخصلة المرذولة ولكنه أضاف إليها القتل واسع النطاق. إنَّه يفبرك رواية عما يجري في بلاده ويصدّقها، أو يعمل، من دون كلل أو ملل، على تحويلها إلى حقيقة. الكذب، الاحتيال، التمتّرس وراء رواية مفبركة من الألف إلى الياء، ‹الإستموات› على الكرسي، انعدام المسؤولية الوطنية والأخلاقية، إحتقار أيّ شكل للتعاقد الاجتماعي مهما كان بدائياً، الإستعداد الذي لا يرفُّ له رمش لاستخدام ترسانته المسلحة في سبيل إخماد الثورة ضده.. هذه هي كنانة النظام السوري الدموية وقد فرد محتواها المخيف على طاولة الحرب.
فأيُّ أساس للشرعية، أياً كانت ضآلته، بقي لدى نظام بشار الأسد؟ أيُّ ذرة من ‹أخلاق› السياسة، ناهيك عن المبادىء التي تلطّى وراءها طويلاً، تستر عورة نظامٍ مستعدٍّ لتحويل بلاده الى حقلٍ مفتوحٍ للقتل من أجل الكرسي؟
في أسطورة ‹سيد القردة›، التي أوردناها كأمثولة على ثنائية الاستبداد والوعي، يتخلَّق التمرد على شكل سؤال جريء، على شكل وعيٍّ ساطعٍ يهبط على صغير القردة. ليس أكبر القردة من يتصدى لسؤال الوعي والتمرد بل صغيرها. أليس هذا ما نراه في فصول ‹الربيع العربي› الدامية؟

15-02-2012

شاعر من الأردن مقيم في بريطانيا

النظر جهة القلب

أربع مقالات

الياس خوري

I

كان لا بد من سورية

الفتاة الصغيرة التي حملت وعاء كي تلتقط به الماء، ووقفت تحت الثلج المنهمر في حمص، قالت انها تعرف السر، وانها لن تخبرنا سر المدينة الا عندما يسقط الوحش عن عرشه الدموي.

نقف معها تحت ثلج السماء، ووسط حمم القصف الوحشي، نرتجف برداً، وتحترق اجسادنا بنيران القذائف، ونقاوم العطش بالصبر وبحبات الثلج المنهمرة!

وقفت الفتاة وحيدة، في عينيها يلتمع كل الكلام الذي لا يقال، و كانت تصدّ الخوف، وتقاوم العطش باصابعها التي رسم عليها البرد لونه الأزرق.

لا اعرف اسم هذه الفتاة الحمصية، التي وقفت في حي باب السباع وحيدة، ترتسم براءة الطفولة على وجهها الجميل، ولا تنتظر مساعدة احد. تعلمت الفتاة الحمصية حقيقة انها وحدها، لا احد سيأتي الى نجدتها، وحدها تنتظر الماء، تعطش وهي تعرف ان لا شيء يروي عطشها.

فتاة تتشح ببهاء الضوء الذي يشع من عينيها، تنظر الى افق مغطى بالدخان، وتدعونا الى تواضع الخجل. نخجل من الماء الذي نشربه، ومن الطعام الذي نأكله، نخجل من عجز كلماتنا عن ان تبلسم جرحا، وتدفىء روحاً.

فتاة صغيرة تقول كل الأسى ولا تنتظر شيئاً، تعلمت انها ابنة المدن المستباحة، وان حقها من الحق لم يأتِ بعد.

قادني صمت هذه الفتاة التي لا اعرف اسمها، الى بيوت بابا عمرو المهدمة، رأيت بعينيها الصغيرتين الجميلتين مخيم جنين يئن تحت الركام، وتذكرت اطفال ارنا، وشاهدت كيف تتشكّل نكبتنا من خلال تناوب الاستبداد والاحتلال على سحق ارادة الحياة فينا.

ومثلما كان اطفال جنين وحدهم، كان اطفال حمص وحدهم.

ومثلما صنع اطفال جنين الأمل من الألم، ينسج اطفال حمص من الثلج المنهمر تاجاً ابيض اسمه الحرية.

تعرف الفتاة الحمصية الصغيرة انها في وحدتها تجسّد الألم السوري الذي ينتشر في كل انحاء البلاد التي صارت اليوم جرحاً مفتوحاً. منذ احد عشر شهراً والدم ينهمر في مدن سورية وقراها، ومنذ احد عشر شهراً، والعالم يتفرج على موت السوريات والسوريين، ولا يقدّم لهم سوى كلام العجز الذي صار اشدّ بؤساً من العجز نفسه.

كان لا بدّ من سورية كي يفهم العرب ان ربيع ثوراتهم يصطبغ بدم الضحايا، وان اربعة عقود من الاستبداد جعلت غلاظ الرقاب يتحكمون بالناس. رجال صُنعوا من التشوهات التي تركتها الوحشية على ارواحهم، بحيث صاروا آلات صماء لا تكتفي بالقتل بل تتلذذ به.

كان لا بد من سورية كي نفهم معنى الانتفاضات العربية بصفتها عودة الروح الى مجتمعات تجمدت فيها الحياة، وان

استعادة الكرامة المهدورة تعيد المعنى الى المعنى، وتعيد للانسان انسانيته المفقودة.

كان لا بد من سورية كي نعرف ان على المشرق العربي ان يواجه لعبة الدول الكبرى التي تسعى الى تحويل بلادنا الى ساحة خلفية لحرب باردة جديدة.

كان لا بد من سورية كي نقرأ من خلال الدم المسفوح ان الاستبداد يهرب من مواجهة شعبه الى الارتماء في احضان الحماية الاجنبية.

كان لا بد من سورية كي نعرف ان الدول التي اغمضت عيونها عن جرائم الاحتلال الاسرائيلي وغطته، لا تقدم لنا سوى الوهم والتشكيك، لأنها حريصة على امن دولة الاحتلال وتفوقها، وامن الدولة الصهيونية الذي ضمنه الديكتاتور طويلا لن يعود مضمونا اذا حكم الشعب نفسه بنفسه، لأن لا احد يقبل بتغييب واقع احتلال الجولان، الا من كان هذا التغييب احد حججه للبقاء في السلطة.

كان لا بد من سورية، كي نقرأ اللغة الكولونيالية القديمة تستعاد من قبل امبراطورية روسية لم تعد تملك من الامبراطورية سوى وهمها.

كان لا بد من سورية كي نكتشف ان ربيع العرب لا يصنعه سوى العرب، وان مواجهة آلة القمع الرهيبة، هي الاسم الآخر لمواجهة القوى الخارجية الطامعة في بلادنا، ووقف التفكك الاجتماعي، ووأد اللغة الطائفية التي خرجت من مصانع الاستبداد.

الفتاة الحمصية الجميلة غطت رأسها بقبعة من الصوف الذي يمتزج فيه اللونان الأبيض والزهري، ومدت يديها البيضاوين حاملة صينية من الالمنيوم، وقفت تحت الثلج المنهمر لأن عطشها صار شبيها بعطش الأرض، لأنها تعلم ان عطش القاتل الى الدم لا يوقفه سوى عطش الأرض الى الماء.

دم في كل مكان، دم يعلن ان نهاية زمن الاستبداد صار شرطا للوجود العربي. الحرية ليست خيارا، انها الاسم الآخر للحق في الحياة، وهي لذلك تخوض معركتها الأخيرة في مواجهة المدافع التي تقصف المدن.

المستبد يشبه المستعمر، اسألوا الجنرال ساراي الذي قصفت مدفعيته دمشق، اسألوه عن هذا الذي قصف حمص ولا يزال يقصفها، اسألوه عن قتلة الأطفال في درعا، اسألوه عن تدمير حماة منذ ثلاثين عاما، فسيبتسم ويقول ان هذا هو منطق الاحتلال.

الاستبداد يصير اشبه بقوة احتلال خارجية، يتململك على الشعب، رغم انه لا يحمل من ارث المماليك الذين طردوا الفرنجة سوى نقيضه. يتململك لأنه لم يدافع عن الوطن، وترك ارضه محتلة اربعين عاما من دون مقاومة. يتملك ويصير اليوم آلة صماء للقتل والتشبيح والخراب.

كان لا بد من سورية، كي يرى العرب واقعهم في مرايا الدم المراق، وكي يقفوا مع الفتاة الحمصية ويلتقطوا منها ثلج الأمل.

5-03-2012

II

لغة السياسة ولغة الثورة

بعد الفيتويين الروسي والصيني في مجلس الأمن، دخلت سورية منعطفاً جديداً:كأن النظام اخذ ترخيصا دوليا بايصال القمع الى وحشية غير مسبوقة، عبر القصف اليومي المستمر على حمص، واتخذ قراره بالحسم العسكري مهما كانت النتائج.

يجد نفسه امام باب موصد، ولا يجد عند ضحاياه سوى المزيد من التصميم على المقاومة. ما يواجهه نظام الجمهورية الوراثية في سورية ليس قوى عسكرية يمكن الانتصار عليها وسحقها. انه يواجه ثورة شعبية حقيقية صارت عميقة الجذور، بحيث ان انتصاراته العسكرية تصير بلا اي معنى. يدخل الى الزبداني فتنفجر دمشق في المزة، يقصف حمص فتندلع في درعا، يحاول في حماه فتتصدى حلب.

لم يعد الحسم ممكنا، ولن ينفع الفيتو ولا التشجيع الروسي ، فالثورة صارت خارج قدراته على السيطرة. هذه الحقيقة التي بات يعرفها الجميع، لن تكون للأسف لحظة اعادة نظر بالنسبة للنظام. بشار الأسد اضاع كل الفرص معتقدا انه قادر على تكرار 'درس الدم' الذي صنعه النظام في حماه عام 1982، متناسيا ان الزمن قد تغير، وان ما كان ممكنا في الماضي صار مستحيلا اليوم. لذا يجد نفسه في حفرة الدم، التي يغرق فيها، من دون ان يدري.

الثورة السورية امتلكت اساليبها، وابتدعت المزاوجة بين التظاهر السلمي وحماية هذا التظاهر، وهي تجربة فريدة في الثورات. وقد وصل السوريون الى هذه المزاوجة بسبب جنون آلة القمع، التي كانت تسعى منذ بداية الثورة في درعا الى الحسم العسكري، وتدفع في اتجاه الصدام المسلح بين آلة النظام العسكرية والشعب.

لقد عرف السوريون كيف يتجنبون الانجرار الى العسكرة الشاملة لثورتهم، وهم يستحقون في هذا اكثر من تحية تقدير، فحتى بعد القصف المروع لحمص، وجدت دمشق وسيلتها الى نقل التظاهر الى قلب المزة، معطية البعد الشعبي للثورة مكانته، بوصفه اداتها الأولى.

غير ان الثورة السورية لا تواجه خطر العسكرة فقط، بل تواجه ايضا خطر انفصال السياسة عن ارض الواقع، عبر محاولات القوى الاقليمية والدولية استخدام سورية كساحة صراع مفتوحة بينها.

وعلى الرغم من بعض الاصوات التي دعت الى التدويل والتدخل العسكري، من قبل اطراف في المعارضة السورية، فان التدويل والتدخل الخارجي بدأهما النظام عبر استجارته بروسيا وايران. فالسلاح يتدفق الى جيش النظام، والارتهان الكامل للسياسة الروسية بات عنوانه السياسي الوحيد. وللأسف فان المدافعين عن التحالف مع روسيا ينسون ان احلام روسيا القيصرية التي تداعب خيال السيد بوتين لا علاقة لها بالزمن القديم الذي اندثر مع سقوط الاتحاد السوفييتي.

في مقابل الدعم الفعلي بالمال والسلاح الذي يتلقاه النظام، فان الشعب السوري لم يتلق من اصدقائه الجدد المفترضين، اي من اوروبا والولايات المتحدة ودول الخليج النفطي، سوى الوعود.

لكن قد نكون اليوم امام منعطف جديد عنوانه الدعم الانساني من جهة، ودعم غير محدد الملامح للجيش السوري الحر من جهة أخرى، لكنه لن يكون سوى دعم محدود هدفه احتواء الثورة.

وهنا تقع المفارقة الكبرى في الثورة السورية، النظام عاجز عن الحسم لكنه لا يرى امامه سوى طريق العنف، وهو بهذا يستدرج البلاد الى ان تصير ساحة مفتوحة للصراعات الاقليمية والدولية، اما القوى التي تساعد الثورة فانها تريد احتواءها، وهذا لن يتم الا عبر اطالة امد المعاناة، ووسط بحر من الدم.

لغة الثورة التي صنعها شابات وشبان التنسيقيات، وصارت رمزا حيا للبطولة التي تجسدها حمص في صمودها الاسطوري، لا علاقة لها بلغة هذه السياسة الدولية والاقليمية الحربائية، التي لا ترى في معاناة الشعب السوري سوى وسيلة لتصفية حساباتها. روسيا تريد ان تتسلق الجثث كي تعود دولة عظمى، والولايات المتحدة تريد ان تستغل الموت السوري من اجل تلقين روسيا درسا واضعاف سورية كوطن، والخليج النفطي لا يرى في الثورة السورية سوى نافذة على صراعه السياسي والمذهبي مع ايران.

هذا الواقع على عكس ما يعتقد البعض هو المخرج الوحيد للنظام، فالنظام يعلم ان زمنه قد افل وان لا عودة الى الوراء،

لذا فهو يرى في اطالة امد الأزمة وفي وضعها في خدمة الصراعات الدولية وسيلته الوحيدة من اجل اطالة عمره. لذا سيستمر في حربه الدموية وفي مراوغاته، على امل ان يستفيد من تحول الوطن السوري الى ساحة، كي يجد لنفسه مكانا في التسويات، ومع مراهنته على عسكرة فالتة من عقالها تجري في المدن والأرياف، تقوم بتدمير الثورة السورية من داخلها.

لم تعد سورية امام احتمالات الحسم العسكري مثلما تخيل قادة نظام الاستبداد، النظام الاستبدادي يريد وضعها اليوم في فك الصراعات الاقليمية والدولية، وبذا يكون قد استكمل استباحته للبلاد مثلما فعل غيره من انظمة القمع العربية التي تهاوت بعدما اوصلت البلاد الى الكارثة.

الأمل اذا هو خارج معادلات اللغة السياسية المهيمنة اليوم، الأمل معقود على شباب الثورة السورية وشاباتها، على شعب قرر ان يرفض الذل ويبني حريته بيديه، ويؤسس وطنا مصنوعا من ارادة ابنائه.

لغة الثورة هي التي يجب ان تسود، لا لغة السياسات الاقليمية والدولية التي تقود سورية الى المسلخ.

الثورة تنتصر بابنائها، بهم وحدهم، بارادتهم كي تعود دمشق قلب العروبة، وتعود سورية وطنا لجميع ابنائه بلا اي تفريق طائفي او عرقي.

وحين ستعود سورية سوف يكتشف جميع اللاعبين الدوليين والاقليميين ان الثورات العربية رغم الصعوبات التي تواجهها، هي المدخل الى استعادة المنطقة لسيادتها وقرارها الوطني، وهي العتبة كي تعود الأمور الى نصابها في المنطقة وينتهي عهد الانحطاط الطويل الذي اضاع كل قضاياها، وعلى رأسها قضية فلسطين.

20-02-2012

III

من ميشال سماحة الى آخره

اعترف بداية انني اصبت بالذهول امام المعلومات التي رشحت من التحقيق مع السيد ميشال سماحة بعيد اعتقاله. فالرجل كان يتصدّر المنابر باعتباره صديقا مقرّبا من الرئيس السوري، ويدير شبكة اعلامية دولية تمتد من باريس الى برلين وصولا الى نيويورك مهمتها تشويه سمعة الثورة السورية، بحجة الخطر الذي تشكله على المسيحيين في سورية ولبنان. وكلنا يذكر الدور المشبوه الذي لعبته الراهبة ماري انييس، وهي من حواريي السيد سماحة، في حمص على وجه التحديد.

فالسيد سماحة كان مستشاراً دوليا لبشار الأسد بسبب علاقاته الوثيقة مع الفرنسيين، وكان دوره اساسيا في تطبيع العلاقة بين النظام الأسدي والرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي، بحكم العلاقات الخاصة التي ربطت سماحة بكلود غيان وغيره من الشخصيات الفرنسية، ودوائر استخباراتية.

هل يُعقل ان يضحّي الأسد بمستشاره من اجل نقل عبوات ناسفة الى لبنان؟ وهل ضاقت السُبل بالسيد سماحة الى درجة تضطره الى حمل المتفجرات بيديه، على ما زعمت جريدة 'السفير' اللبنانية في صدر صفحتها الأولى صباح السبت 11 آب/ اغسطس الجاري، بعد اقل من اربع وعشرين ساعة على اعتقال الرجل؟

واخيرا هل وصلت الأمور باللواء علي المملوك، الذي يقود احد اكثر اجهزة الاستخبارات جبروتا وعنفا وسلطة، الى التعاطي شخصيا في مسألة عبوات ناسفة طلب من احد معاونيه وضعها في سيارة الوزير اللبناني السابق؟

وجاء الاعتراف السريع للمتهم، وتراجع حلفاء سورية التقليديين في لبنان عن تغطيته سياسيا، وعلى رأسهم حزب الله، ليعلن سقوط الرجل في فخ محكم نُصب له، او ذهب اليه بنفسه.

الحكاية بائسة من الفها الى يائها، وهي تحمل دلالات عديدة يمكن وضعها في سياقين:
السياق الأول يرتبط بعلامات الانهيار المتسارعة التي بدأت تظهر على النظام الأسدي، من انشقاق مناف طلاس الى اغتيال خلية الأزمة وصولا الى هروب رئيس الوزراء رياض حجاب. لقد تمزق الحجاب الذي يغطي النظام، وصارت الآلة المافيوية ـ العسكرية- العائلية عارية، لا تملك سوى لغة وحيدة هي الايغال في دم السوريات والسوريين.
وحين يبدأ نظام بُني على الخوف ويسود الترهيب علاقات الرؤساء بالمرؤوسين فيه، بالسقوط، يظهر الارتباك، وتتحلل العلاقات، وينكشف الضعف وتسيطر البلبلة، وتسود عقلية تصفية الحسابات الداخلية. ولقد ظهرت آثار هذا الضعف في محاولة اغتيال النائب اللبناني بطرس حرب، التي بدت اشبه بلعبة زعران منها بعمل اجهزة محترفة سبق لها ان حولت لبنان الى حائط اعدام للسياسيين والمثقفين، من كمال جنبلاط الى حسين مروة وسمير قصير، مرورا برينيه معوض ورفيق الحريري وجورج حاوي...
هل فقد جهاز القتل الذي يملكه النظام السوري قدراته في لحظة بداية السقوط؟ ام أنه يتفكك ويتعفن؟ ام هناك قطبة مخفية لن تنكشف عناصرها الا بعد سقوط النظام؟
واللافت الذي يستحق وقفة خاصة، هو ان تهديدات الأسد باحراق المنطقة لم تجد آذانا في لبنان. حزب الله، القوة العسكرية الوحيدة الجدّية في لبنان، على الرغم من موقفه الداعم للنظام في محنة سقوطه، امتلك حكمة ان يقرر مع حاضنته الايرانية ان تفجير لبنان، كما يريد الأسد، سوف يدمر ما تبقى له من سمعة، وسيعرّضه لتجربة الخوض في انقلاب عسكري فاشل فات زمنه.
انه زمن الأفول، وفي لحظة الأفول تصبح الممارسة تراكما للأخطاء، الخطأ يستتبع الخطأ الى ان يسقط الجدار ويتهاوى دفعة واحدة.
في هذا السياق يكون الفخ الذي نصب لسماحة او نصبه لنفسه محكما، ويكون الرجل قد ذهب 'فرق عملة' صراعات حيتان المخابرات السورية والدولية، التي تتصارع في بحر ينتظر الحيتان المنتحرة على شواطئه.
السيد سماحة يتمتع بقرينة البراءة حتى صدور الحكم بادانته، ولم يكن تحليلي اعلاه سوى محاولة لقراءة تقرير صحافي نُشر في صحيفة لبنانية مقرّبة من النظام السوري، جاء قرار المدعي العام العسكري بتوقيف سماحة والادعاء عليه وعلى اللواء علي المملوك ليدعم صدقيته.
السياق الثاني هو اكثر وضوحا بالنسبة لي على الأقل، انه جزء من حكاية يمين الجيل اللبناني الذي صنع الحرب. بدأ سماحة حياته السياسية في مصلحة الطلاب في حزب الكتائب، التي كان يقودها كريم بقرادوني، في اواخر ستينيات القرن الماضي. وقد اتُهمت المصلحة آنذاك بميولها اليسارية، وبأنها خاضعة للنفوذ الفكري لموريس الجميل، وهو زعيم كتائبي اصلاحي، لم تستطع افكاره ان تزحزح البنية الفاشية للحزب الذي اسسه الصيدلي بيار الجميل تحت تأثير 'كتائب فرانكو' الاسبانية.
عام 1968 ظهر السيد سماحة، وكان في العشرين من عمره، على شاشة الحركة الطلابية، حين قاد الى جانب بشير الجميل مجموعة من فتيان الكتائب يحملون الجنازير، قاموا بالاعتداء على الطلاب اليساريين المعتصمين تأييدا للثورة الفلسطينية، في معهد الآداب العليا التابع للجامعة اليسوعية في بيروت.
سوف يتخلى سماحة عن الجنازير ويتحول الى مستشار لأمين الجميل ومدير لتلفزيون لبنان، قبل ان ينقلب مع ايلي حبيقة، على تاريخه الكتائبي- الاسرائيلي، ويتحول الى 'صديق للنظام السوري'، ويبدأ صعوده في زمن الوصاية فيدخل البرلمان ويصير وزيرا...
لا ادري هل كان سماحة واضرابه يعرفون ان لا مكان في لعبة الالتحاق بالنظام الأسدي سوى للمخبرين. ففي النظام الذي

صنعته شيطانية حافظ الأسد، لا مكان للسياسيين الا بوصفهم دمى في ايدي رجال المخابرات. وهذا ما اثبته 'المتصرّف' السوري الأول في لبنان غازي كنعان، حين حوّل مقره في عنجر الى مكان لإذلال السياسيين اللبنانيين بشكل مشين، ثم اوصله خليفته رستم غزالة الى ذروة الصفاقة الدموية.
اغلب الظن ان سماحة الذاهب الى دمشق برفقة ايلي حبيقة، رجل مخابرات بشير الجميل والاسرائيليين ومنفذ مذبحة شاتيلا وصبرا، كان يعرف ان لعبة السياسة السورية هي لعبة مخابرات. وان مخابرات النظام الأسدي تبدأ اختصاصاتها بالنهب والقتل وتنتهي باستباحة كل المحرمات.
غير ان سماحة، الذي امتلك كل عدة المستشار السياسي والاستراتيجي، حاول ان يصنع لنفسه حيثية خاصة في سياق محاولات النظام سحق الثورة السورية.
قامت حيثية الرجل على توظيف صلاته الفرنسية والغربية، في اطار ما اطلق عليه اسم 'الخطر الذي يهدد المسيحيين في سورية'. ووجدت اللعبة صداها اللبناني مع 'جنون العظمة' عند ميشال عون، وفي بعض الأوساط الاكليريكية المشبوهة في سورية ولبنان، ومع بعض الاوساط الاوروبية من بقايا الفاشيين كجماعة 'شبكة فولتير' الفرنسية، الذين تحولوا بوقا لتحليلات السيد سماحة. هذا النوع من التحليل العُصابي كان مقدرا له، لو لقي اذانا صاغية، احداث نكبة بالمسيحيين في بلاد الشام، تكون استكمالا لنكبتهم اللبنانية التي نتجت عن التحالف الكتائبي المجنون مع الاسرائيليين عام 1982.
قصة سماحة انتهت، ونهايتها محاطة بالكثير من الأسرار، 'الفتى الكتائبي' الذي بدأ حياته 'شبيحا' يضرب الطلاب في الجامعة، اريد له ان ينهيها اليوم 'شبيحاً' يحمل متفجرات الموت!
نهاية تدعو الى التأمل، هذا بالطبع اذا صحت المعلومات التي تسربت من التحقيق.
وانا لم اقم سوى بتقديم عناصر لتحليل قصة نشرتها وسائل الاعلام، اما ملابسات الفخ الذي سقط فيه السيد ميشال سماحة او قادته لعبة استخبارية معقدة اليه، فلن تنكشف الا في المحكمة، وعندها يأخذ التحليل دلالاته الملموسة.

IV

وحدكم أيها السوريون!

غياث مطر الشهيد الذي وزع الماء والورود على الجنود السوريين في داريا، في بادرة تؤكد نبل الثورة السورية، خطفته اجهزة المخابرات في 6 ايلول/ سبتمبر 2011 واعادته بعد أربعة أيام الى ذويه جثة ممزقة. غياث مطر يبكي اليوم بلدته داريا، وهو يرى جثث أكثر من ثلاثمئة شهيد قتلتهم الآلة العمياء للجيش الأسدي ومعه الشبيحة والزعران الذين اجتاحوا داريا كالتتر، وأبادوا كل من وصلت اليه نيران بنادقهم.
لم يكتف النظام بهذه المجزرة الوحشية، بل أضاف اليها المزيد من الهمجية، حين قام اعلامه بـ'التغندر' بكاميرا قناة 'الدنيا' لصاحبها رامي مخلوف فوق الجثث التي لم يجف دمها بعد، واجراء 'حوارات' مع مصابين ومن بينهم امرأة بدا وكأنها تلفظ انفاسها الأخيرة!
مجزرتان، الأولى عبّرت عن عربدة القتل المجاني والعطش الى الدم، والثانية ارادت ان تسجّل بالصوت والصورة وقائع ما جرى، تعبيرا عن الحقد والسفالة والضِعة من جهة، ومن اجل ارهاب السوريات والسوريين، وتخويفهم من مصير ينتظرهم، كمصير أهل داريا وبابا عمرو واعزاز وغيرها، من جهة ثانية.
لا يمحو المجرم آثار جريمته، بل يتفاخر بها امام الجميع، لأنه يعتقد ان الدعم الروسي والايراني سوف ينقذه من الهاوية، ويمنع سوقه الى القضاء.
بشّار السفّاح تفوّق في الأمس على والده القاتل، وحلّ مشكلته النفسية مع صورة الأب الذي ملأت تماثيله سورية بشبح

التهديد بحماه أخرى.
يوم الأحد الماضي وانا أنظر الى صور الضحايا في داريا، تذكرت ذلك اللقاء في بيروت وفي منزل المستعرب الفرنسي ميشال سورا، الذي قُتل خطفاً. كان ذلك عام 1981، وبيروت تعيش لحظات التفكك قبيل الاجتياح الاسرائيلي، يومها سألت المفكر السوري الياس مرقص الذي كان آتيا من اللاذقية عن الأوضاع في سورية بعدما تنامت الينا أخبار مذبحة حماه. لم يجب مرقص على سؤالي بشكل مباشر، بل حدثني عن جنكيزخان. وعندما ابديت تعجبي من لجوء مرقص الماركسي - الواقعي الى الاستعارة بدل ان يجيب، نظر اليّ وقال: 'ماذا تريدني ان أحكي'. ثمّ روى كيف دخل رجال المخابرات الى أحد مقاهي اللاذقية، حيث كان يحتسي قهوته، وأمروا الجميع بالركوع.
كان الألم يغطي عيني الرجل بماء لا يشبه الدموع، هذا الرجل الجليل الذي شكّل لجيلنا أحد مراجعه الفكرية، والذي كان سلوكه السياسي والأخلاقي فوق الشبهات، وجد نفسه راكعاً مع الراكعين!
تذكرت الياس مرقص لا لأنهم أذلوه مثلما اذلوا الشعب السوري كله، بل لأنه بدل ان يتحدث عن النظام الأسدي، او من اجل ان يتحدث عنه، استعاد صورة المغول وهم يجتاحون المشرق العربي.
انهم المغول، ولا هدنة مع المغول، لا تحت اشجار السنديان كما كتب محمود درويش مرة، ولا في ظلال المقابر.
شهوة الدم تستولي على آلة نظام فقد شرعيته وسلطته، وظهرت كذبة ممانعته على حقيقتها، طائرات الميغ والسوخوي لم تجرؤ على التحليق امام الطيران الاسرائيلي حين قصف سورية، لأن مهمتها لا علاقة لها بقاموسي الممانعة والمقاومة، مهمتها الحقيقية تركيع الشعب السوري واذلاله.
السوريون وحدهم امام آلة الموت.
كل الدعم اللفظي الامريكي والاوروبي كاذب ومخادع وكلبي.
صمت العالم المدوي امام آلة القمع الأسدية، ليس بسبب ان لا بترول في سورية كي تثير شهية الغرب الى الربح والهيمنة، كما يقال، بل من اجل اسرائيل. فالدمار الذي يلحقه النظام بسورية لم تكن اسرائيل تحلم به. وحين يسقط، وهو سيسقط، فإن امام السوريات والسوريين سنوات طويلة كي يعيدوا بناء ما تهدّم.
لا تصدقوا التحليلات التي تقول ان حجب السلاح عن الجيش الحر سببه خوف الدول الغربية من الاسلاميين.
لا غياب البترول ولا الخوف من الاسلاميين، هما السبب. فالدول الغربية وخصوصا الولايات المتحدة لا تخشى الإسلام السياسي لأنها تبني تحالفا معه.
السبب واحد هو زيادة منعة الكيان العنصري الاسرائيلي، الذي بلغت به الوقاحة والعجرفة الى حدّ اتهام جنوب افريقيا بالعنصرية لأنها قررت وضع إشارات خاصة على البضائع المصنوعة في الضفة الغربية المحتلة!
بشار الأسد يقوم بما لا يستطيع احد القيام به. انه يدمر سورية ويحطم نسيجها الاجتماعي، فلماذا اذن تقديم السلاح والعون لمن يريد اسقاطه؟
فليبق الى ما لا نهاية، وليرقص حليفاه الروسي والايراني طربا على ايقاع قنابله ومجازره. فهو في النهاية سيفقد سلطته بعد ان يكون قد دمّر البلاد كلها من شمالها الى جنوبها، وسيجد حليفاه نفسيهما في العار وسيصيران مكروهين من قبل السوريين والعرب.
صار سفّاح الشام حاجة اسرائيلية اكثر من اي وقت مضى، لذا لا تنتظروا شيئا ممن يدّعي صداقة الشعب السوري.
الشعب السوري وحده.
وحده يدافع عن كرامة الانسان في كل أرض العرب، ووحده يعيد بدمه المسفوك المعنى الإنساني والأخلاقي للسياسة.
ماذا اقول لك ايها الوحدك.

وحدتك يا أخي لا تشبه سوى وحدة الفلسطيني الذي وجد نفسه وحيدا امام كل منعطف دموي صنعه الوحش الاسرائيلي.
اعرف يا أخي ان الكلمات لا توقف نزفا ولا تمسح دمعة ولا تستقبل آهة خارجة من قلب ام ثكلى.
اقول لك انك وحدك.
اقول لك ان صمودك في وحدتك واصرارك على كرامتك المغمّسة بدم ابنائك، ووقوفك دفاعا عن اطلال البيوت التي هدمتها المدفعية والطائرات، هي طريقك كي تنتصر في وحدتك على السفّاح الذي يريد تركيعك من جديد.
اعرف انك لن تركع، واعرف ان هامتك المكللة بالدم هي عنوان كرامتنا الانسانية اليوم، لكنني لا أملك سوى كلماتي التي تنحني اجلالا لتضحياتك واضحياتك.

27-08-2012

روائي من لبنان

المبادرة العربية لإنقاذ النظام السوري أم لإسقاطه؟

بول شاوول

19 - 11 - 2011

الغريب أن الذين هلّلوا للثورات العربية عندما اندلعت في تونس ومصر، "حبسوا" تهليلهم، وارتدوا على "مواقفهم الثورية"، عندما شبّت الثورة في ليبيا وفي سوريا.

وكم سمعنا من أفواه هؤلاء "فليسقط الطاغية في مصر" و"ليسقط الطاغية في تونس"، وهي "ثورة الجياع" (كما صرّح السيد حسن نصرالله في تهاليله المدوية) في الميدان، وأخرى للحرية في ساحة بورقيبة. انطلقت كل أبواقهم وانفلتت كل "شاشاتهم" تُكبر إرادة الشعبين المصري والتونسي في انتفاضتهما.. وهكذا عندما اشتعلت الثورة الليبية بدأ الأمر يشوبه ما يشوبه، فاختلط التأييد الظاهر "بالخوف" المضمر. فالقذافي أخفى السيد موسى الصدر مثلاً، لكن القذافي حليف النظام السوري، وقد أرسل إليه هذا الأخير طيارين قصفوا المتظاهرين في بنغازي ومصراته. وعليه فإن بعض "المنصات" الإعلامية له آذار مثلاً اشتعلت تأييداً للثورة الليبية، وخصصت برامج على مدار الساعة تدين "الطاغية" وتدعو الى تدمير نظامه. لكن لم تذكر هذه المنصات، خصوصاً "العالية" منها لدى حزب الله وسواه نقداً لمن يناصر هذا النظام الفاشي من حلفائها الإقليميين.

وهذا ما حصل مع الثورة اليمنية عندما تلألأت الأدوات الإعلامية والسياسية في مديح "الثوار" ضد الرئيس صالح، لكن لم ترشق ولو بكلمة من يرسل المساعدات والطيارين لدعم النظام اليمني (أخيراً قتل ثمانية طيارين سوريين في اليمن).

ولا ننسى كيف التف بعضهم على "الربيع العربي" نفسه، فراح يعمد الى تشويهه، حتى في مصر وتونس. فالمنابر السورية مثلاً بدأت تنعى كل هذه الظواهر بعد امتداحها، باعتبارها "ليست ثورات" بل هي إما مؤامرة أو فورة، أو مجرد أحداث، وقد تناسوا مواقفهم الحاسمة... عندما وصل "الموس الى ذقونهم". فانطلاق الثورة السورية كان بداية تراجع كثيرين من حلفاء النظام (وكذلك ضمناً مع اليمن والقذافي) السوري من تأييدها، بمن فيهم "فيالقهم" و"كتائبهم" من المثقفين والشعراء والسياسيين. بدأ التشكيك بكل انتفاضة عربية عند "أصحابنا" من أهل الوصايتين والنظام الأمني المشترك ابتداء من آذار الماضي، بداية الملحمة في درعا، فقبل هذا التاريخ كان عندنا ثورتان عظيمتان في مصر وتونس (بالنسبة الى هؤلاء)، وبعد هذا التاريخ انتصرت نظرية "المؤامرة" لضرب "المقاومة" ("أي مقاومة"، و"الممانعة" ("أين؟") وتقسيم الأمة العربية، وإثارة الفتن الطائفية، وتسليم المنطقة الى القوى الاستعمارية وفي طليعتها فرنسا وبريطانيا ومن ثم الولايات المتحدة (والممانعون الإيمانيون عندنا و"العلمانيون" عندهم، سواء بسواء، سبحان الحي الباقي، استثنوا إسرائيل من المؤامرة! رائع!)، ونهب الخيرات العربية، والبترول العربي، وضرب موقع "الأمة" الإسلامية والعربية في العالم! فما هذه الغيرة الإيرانية على الأمة العربية، فهل صار خامنئي قومياً عربياً! وما هذه الغيرة الإيمانية على مصالح العرب، والعروبة؟ الله!

المهم أن هؤلاء انتقلوا من "التكبير" والتهليل... للثورة العربية عندما اندلعت عند خصومهم "السياسيين" في مصر وتونس (وكلنا يذكر الإعلام السوري تحديداً وحناجره وبناجره)، الى نفيها، واعتبارها تؤدي الى عودة السلفية، والأصولية (وكأن حزب الله وولاية الفقيه ليسا أصوليين!)، وإلى انبعاث بن لادن من قبره، بل ولجأ هؤلاء بتحاليلهم العميقة الى إثارة مخاوف الأقليات من طغيان الأكثرية (السنية) في العالم العربي، وتهديد وجودها ومصيرها، استدراراً لمخاوف الغرب،

وتحييداً أو تأييداً لهذه الأقليات. وكأن هذه الأخيرة كانت قبل مجيء هذه الأنظمة على امتداد مئات السنين مضطهدة ثم استرجعت حقوقها ومجدها على أيامهم المجيدة. ونقول أكثر: إن هذه الأنظمة والأحزاب الشمولية وبعقلها التبسيطي والإلغائي والاختزالي جعلت من كل الأكثرية الإسلامية في العالم العربي وأبعد منه سلفية وأصولية وإرهابية، وجعلت هي من نفسها واحة التعددية والتسامح والحرية والسلم الأهلي، ومنارة المستقبل الآمن والمزدهر!

وأخيراً وليس آخراً، نظمت أبواق أنظمة الطغاة حملة ضد الجامعة العربية ومبادرتها، ولم توفر لا السعودية ولا الكويت ولا قطر، باعتبار أن ما تقوم به إملاء من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا وعودة للاستعمار الى العالم العربي واتهمتها بأنها تريد إسقاط النظام السوري، وتخريب الوحدة الوطنية، وتقسيم البلاد، وضرب "الممانعة" في عاصمة الممانعة، وضرب المقاومة في كانتون المقاومة (أي عندنا ما شاء الله في لبنان). أكثر: جعلت من مبادرات الجامعة العربية انحياز "الأكثرية" الإسلامية (الأصولية) ضد الأقليات. وكحلنا عيوننا وشنفنا آذاننا بمرأى "قناديل" هؤلاء، و"غلمانهم" على الشاشات وهم "يحلّلون" (خبراء استراتيجيون من غير شر أو كتّاب أو معلّقون) هذه "البادرة" العربية وخطورتها على الأمة العربية، وخيراتها، وسلاحها الماضي ضد العدو الإسرائيلي، مشيدين، وأي إشادة، بمقاومة النظام السوري للحلول الاستسلامية أمام العدو وأمام أميركا! ولم يخبرنا هؤلاء "المخبرون" الصغار والكبار (وهل من مخبر كبير!) أين هي مواقع الممانعة أفي الجولان أم سابقاً في لواء الإسكندرون، أم نيابة عنهم أهل النظام الأمني المشترك، أم في الجنوب؟

وكما كنّا نتوقع، فما إن قبلت سوريا ببنود الجامعة العربية "بلا تحفظ" حتى انبرت الأبواق المجلجلة في صحافة الممانعة (الشريفة والوطنية)، وفي وسائل إعلامها "المنيرة" والمستنيرة بتعليمات الأجهزة الأمنية لترحب بالمبادرة التي اتهمتها بأبشع التهم، باعتبارها حلاً عربياً يسقط المؤامرة المحبوكة من كل العالم على النظام السوري. وباتت هذه المبادرة بين لحظة ولحظة "صمام" أمان للتضامن العربي، وتعبيراً عن "الانتصار" في وجه الأعداء. فالأعداء صاروا حُلفاء بالنسبة لأبواق الوصايتين. كما صار "الحلفاء" أعداء بالأمس: وهل ننسى الاستقبالات الأسطورية لأمير قطر من قِبَل جماعة الوصايتين، و"قَطَر القطرُ" و"القاطر" والغيث والمقطور، والمستقطر، وهل ننسى صور أمير قطر مرفوعة في ضواحي الكانتونات حيث سمي "أمير المقاومة" وهل ننسى صور "الطيب الرائع أردوغان" المشهورة بفخر في "جمهوريات" حزب الله الأمنية؟ وكما هو معروف، وما إن تحوّلت المواقع التركية بعد "الربيع العربي" حتى ذكّرنا هؤلاء المدّاحون بالاستعمار العثماني، وكذلك بأطماع أردوغان في المنطقة، وبأنه جزء من الحلف الأطلسي... من دون أن ينسوا أمير قطر فنعتوه بأقذع المواصفات، من عميل لأميركا الى عميل لإسرائيل... ووصفوا "الجزيرة" بأنها "جزيرة" التآمر وبأنها تلفق صور القمع والقتل والإبادة التي ارتكبها النظام السوري في استديوهاتها في الدوحة (ما زالوا يظنون أن الجماهير العربية في مرحلة الطفولة الأولى، وفي مراحل الغباء المتقدمة أمام عبقرياتهم!). وعلينا، نحن، أن نصدقهم عندما امتدحوا هؤلاء، ونشاركهم اتهاماتهم، واليوم علينا أن نشاركهم في مديح المبادرة العربية.

ونظن أنه إذا فشلت هذه المبادرة (ونتوقع لها ذلك نحن الذين خبرنا الاتفاقات والمواثيق التي وافق عليها النظام السوري ونقضها في لبنان سواء اتفاق الطائف أو اتفاق الدوحة)، بمساعدة حزب ولاية الفقيه في ضواحيه الأمنية، فستعود "حليمة لعاداتها القديمة"، وستُدار من جديد معزوفات الشتيمة للجامعة العربية لأنها أفشلت المبادرة "لإخضاع الممانعة للمصالح الغربية الاستعمارية"، وهكذا دواليك، وهذا ما تعوّدنا على امتداد خمسة عقود من هؤلاء، ومن الطغاة العرب وغير العرب الذين تعاقبوا بأمراضهم، وجنونهم، وإجرامهم، وأطماعهم على لبنان، من صدام حسين الى القذافي وحافظ الأسد... وصولاً الى شارون والشارونيين من أنظمة "الصمود والتصدي" و"دول الطوق"!

على هذا الأساس علينا ألاّ نصدّق هؤلاء، ولا نتوقع منهم التزامهم أي بنود، أو أي اتفاقات أو عهود (تذكروا معنا الوعود التي أطلقها حزب الله (وبتوع الوصايتين) الى طاولة الحوار: أيدوا المحكمة بالإجماع ثم تراجعوا، وخوّنوا وهدّدوا من

يؤيدها، باعتبارها إسرائيلية أميركية، وأيّدوا بالإجماع نزع السلاح غير الشرعي خارج المخيمات ثم فعلوا العكس: ها هو بعونه تعالى حزب إيران يحاول زرع لبنان كله بالمربعات الأمنية وبوصلاته وأنابيبه للتجسس على اللبنانيين، وأيّدوا اتفاق الدوحة بعدم إسقاط حكومة الحريري التي شاركوا فيها، ثم أسقطوها بقوة السلاح والتهديد بالقتل فكانت حكومة القمصان السود الإنقلابية التي تحوّلت بدورها "مربعاً أمنياً" بوزرائها وعباقرتها. «الطفل المعجزة حسن فضل الله صرّح أن قريطم مربع أمني! برافو! من أين جئت بهذه العبقرية "الأمنية" التربيعية يا ربيب المربعات الأمنية الفكرية والإيمانية والدينية والمذهبية: أنت من أطفال أنابيب المربعات الأمنية... الفقيهية والمستفقهة!»، لكن قريطم ليست بؤرة للتهريب والخارجين على القانون والنصابين وسرّاقي ممتلكات الغير وحماة المتهمين بالقتل، ولا المدافعين عن عملاء إسرائيل.

حالياً، أخبار "سارة": موافقة النظام السوري على "بنود" الجامعة العربية. هذا خبر رائع لأننا نتمنى جميعاً الخير والحرية والديموقراطية والسلام للشعب السوري العظيم. هناك من قال إنه اختبار للنظام. وقال آخرون إنه محاولة "إنقاذ" للرئيس بشار الأسد. وقال آخرون «ومنهم حلفاء للبعث»، إنه فخ منصوب للسلطة. وآخرون من المعارضة والثوار إنه تعويم لنظام سقط ثلاثة أرباعه. بل وأشار بعضهم الى أن هناك محاولة حصار عربية "رسمية" للثورة السورية الكبرى. وبعضهم أضاف أن الحوار العتيد «إذا تم» محاولة النظام لكسب الوقت وتجديد عدة القتل. وهناك من يستعيد آراء ومواقف سابقة أن هذا النظام قابل للكسر وليس للإصلاح، ولا أمل في أي حوار بمثل هذه الخطوات المستحيلة.

هذه أخبار سارة في ظاهرها، لكن "أجمل" من أن تصدق. لكن المهم في كل ذلك هو الشعب السوري، ومطالبه، وهواجسه «وليس النظام». ولأن الشعب أدرى منّا "بشعابه"، فالكلمة الأولى والأخيرة له. هو الذي يؤيّد وهو الذي يرفض. وليس النظام أو أي مرجعية أخرى. فهو المرجعية اليوم، بعد خمسة عقود من مصادرة إرادته، وقمعه ونهبه وتحويل البلاد سجناً كبيراً. هو الذي كان "يتلقى" العصي، ومن يتلقّ العصي ليس كمن يعدّها! فهو الذي قدّم 4000 شهيد «حتى الآن» و20 ألف جريح و30 ألف سجين وعشرات ألوف المهجرين؛ وهو الذي دمّرت منازله وممتلكاته وأحرقت محاصيله... وهو الذي يطالب بالحرية وليس النظام، وهو الذي يطالب بتعددية وبتداول السلطة، وهو الذي يطالب بالديموقراطية وليس النظام. وهو الذي يطالب بالعدالة، والمساواة، والكرامة، واللقمة الشريفة، والدولة النزيهة... وليس النظام. إنها المطالب التي يريد انتزاعها من النظام الذي انتزعها منه.

فإذا تحققت هذه الأمور. فرائع! وإذا اتّسع لها النظام عبر تغييره، فهذا رائع! وإذا توصّل "المتحاورون" الى ذلك، فرائع! رائع، لكن هذا يعني أن النظام قد سقط في تحقيقه هذه البنود!

فهل يقبل النظام إعلان سقوطه "من الأبد الى الأبد"!

هل انتهت فكرة «أبدية» الواصلين إلى السلطة؟

على مدى ستة عقود «ومن قبل أيضاً» كان لنا أن نواكب أنماطاً من الأفكار والاقتناعات ساهمت في تكريس البنى والأنظمة السياسية والحزبية والثقافية والأدبية وحتى الفنية. ويمكن اختزال ذلك، وإن بشيء من الحذر، في عبارة «إيديولوجيا». لقد اكتسبنا، من خلال الظواهر المتعددة التي أنجبها القرن العشرون معاني «دينية» الأصول، قائمة على «التمسك» بالثبات والجمود، تحت مظلة ما رفع من شعارات ويافطات «من الأبد إلى الأبد».. وهذه «المقولة» تعني أن ما يبقى سيبقى، وان كل الظروف تخدمه ليبقى، وأن ما يبقى ليبقى يصب في «خانة» الخلود، ضمن معايير قومية أو أدبية وسياسية. وهذا بالذات ما ترك المجال مفتوحاً لظهور الأيديولوجيات النهائية الصالحة لكل مكان وزمان. وهذا ما ادى إلى بروز الظواهر الايديولوجية التي ترى أن حركة التاريخ واحدة، ودوافعها واحدة، وأبنيتها واحدة، ومصائرها واحدة. حركة تاريخ مستقيمة «تتقدم» ولا تزيح، ولا تتلعثم، ولا تخطئ، ولا تنتقد ذاتها. وأفكار مقولبة مقدسة، منغلقة، ترفض ما يقابلها أو ما يخالفها، سواء كانت عنصرية «النازية، الصهيونية، الفاشية» أو أممية «أحادية» كالستالينية، أو القومية بتوجهاتها الشتى. كل هذه تحمل سمات «البقاء». ولأنها ثورات، فهي تنفي ما قبلها وما بعدها. هي «سفر» التكوين وهي «الجنة»، أو «الجحيم». فنزعة «النفي» التي تتناقض حتى مع فكرة «التاريخ» والجغرافيا والمجتمع تعمل على امتصاص كل ما يجاورها أو يباعدها في نسائج تشبهها، أبدية، واحدية، نبوئية، وإن ادعى بعضهم اعتماد «الجدلية» و«التفاعلية» و«الحوارية»... فهذه كلها تستخدم «كأدوات» «وليس كمصطلحات» لتمكين النفي وليس لفتح مجاز الاحتمالات والمفاجآت.

وهذا بالذات ما عزّز فكرة أن كل نظام عربي قام، بالثورة الانقلاب الانتفاضة، صار في عداد «الخالدين». بل صار «طبيعة» «تاريخية» وحزبية ثابتة ولازبة مستمرة. طبيعة لا تتطبع إلاّ من ذاتها. ذات تقوقعت حول ذاتها. ذات تقدس ذاتها. إيحاءات مفرغة إلاّ من قوتها. ومن تاريخها. إنها فكرة «الأبدية» المتأبدة. ولهذا كان أمراً اعتيادياً الوصول إلى هذه الفكرة عبر التوريث. عبر الحزب الذي يرث نفسه والإبن الذي يرث أباه. والعائلة التي ترث العائلة، باعتبارها انضمت إلى «غابة» الانساب الخالدة.

والغريب، «ربما» اننا ورثنا «قسراً أو طوعاً أو خوفاً أو تطوعاً» هذه الفكرة «المتأبدة عن الأمور والحكام والأنظمة والأحزاب. وبتنا «لا شعورياً؟» ننظر إلى كل ما هو جديد في أحوال الحكم والسلطة والدول وكأنه لازب أبدي. وعندما اندلعت الثورات العربية فوجئنا وذهلنا من هذه العواصف غير المنتظرة.

ومنّا من سماها «معجزة» أو «أعجوبة» أو «أسطورة» جديدة. وكأن الأمور تفوق قدرة عقولنا على التفسير وحتى على التكيف وحتى على التصديق: كيف يمكن تغيير ما هو غير قابل للتغير؟ كيف يمكن «تحطيم» الأبدي باللحظوي. الساكن بالثائر. الثابت بالمتغير؟ لكن «الجنون» الجميل الآتي من الأعماق جرفنا إلى الضفاف الأخرى. وضعنا في ميادين وأمكنة ما كنّا لنتصورها: الشعب الذي كان في الهوامش صار في المتون. فجأة أحس كل واحد منا انه خرج من النوافل إلى المتون. من الأبد إلى اللحظة المتفجرة. وهذا ما حدث أولاً في «ثورة الأرز» عندما أجبرت الانتفاضة الشعبية السلمية إثر اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري الوصاية السورية بجيوشها على الجلاء من لبنان. كأنه «عيد الجلاء الثاني «بعد جلاء» الاستعمار الفرنسي عن لبنان. «وهذا أيضاً ما كاد يحدث في إيران في الثورة الخضراء لولا القمع الفاشي لنظام ولاية الفقيه «الأبدي»!». وعندما اندلعت الثورة في تونس، تجددت «الدهشة»: امن المعقول ان يسقط الطاغية بن علي بهذه السهولة أيجوز أن يخلع هذا «الأبدي» الخالد بسلالته «زوجته وأخوتها...وزبانيته» بأقل من أسبوعين. أين فكرة الأبدية وتجسيداتها الإلهية في هؤلاء الطغاة؟ وبعد تونس مصر: وانهيار مبارك وانتصار الميادين وشبابها وقواها. ثم ليبيا والنهاية المروعة القاصفة القاصمة «للزعيم الخالد». فجأة اهتزت فكرة الخلود. اهتزت القامات الضاربة في شجرة الأنساب المتأبدة. ولا ننسى اليمن.... وصولاً إلى سوريا الثائرة بأطفالها وشيبها وشبابها ونسائها على هذا الطغيان والقتل والعائلة «المستملكة»، اهتزت إذاً الثوابت التي تعزز كحقائق تاريخية وبيولوجية «خير خلف لخير سلف بالسلاح» وجغرافية وحزبية، لكن، مع هذا بقينا أو بقي جزء منا «خاضعاً» لتلك الأفكار حتى بعد الربيع العربي. يعني أن من يتسنم السلطة سيبقى «من الأبد إلى الأبد» غافلين عن الظواهر المكتسبة الجديدة التي انجزتها الثورات العربية، وتتلخص بالديموقراطية وتحرير الأمكنة والتعبير والتعدد والانتخابات وتداول السلطة: انها في الواقع أمور جديدة كأنما لم نتعودها. بل كأن الثورات استبدلت «أبديين» بأبديين... ففي لبنان نسي كثيرون أن ثورة الأرز حررت الأمكنة من قبضة القمع وصار بمقدور أي طرف أن يتظاهر

أو يعتصم. ونسي كثيرون أن «التعددية» (على الرغم من سلاح حزب الله واتباعه وأولياء أموره في الخارج)، فرضت نفسها... وحتى عندما قام حزب السلاح الإيراني السوري في لبنان بانقلابه على الحكومة، وجد نفسه عاجزاً ليس عن إدارة البلاد (وحده) بل عن إدارة حتى ضواحيه! فالأمور لم تعد محسومة بيد واحدة، صار هناك معارضة وقوية. نسي الكثيرون هذه الحقائق الجديدة، وحسبوا ان اغتصاب حزب الله السلطة عبر حكومة «القمصان السود» سيدوم إلى الأبد. عدنا إلى فكرة «الأبدية» وان سلاحه سيبقى مشهوراً على اللبنانيين إلى الأبد! وان تسلطه سيبقى على عنفوانه إلى الأبد. لكن الأمور بدأت تختلف على الأرض. لأن فكرة «الأبدية» (الألوهية الشخصانية) صارت في قاع ما قبل الربيع العربي!

وعندما نجح «الإسلاميون» في الانتخابات في تونس ومصر وقع بعضهم في «الفخاخ» الماضية: ان هؤلاء إذا وصلوا إلى السلطة، فسيبقون إلى الأبد (كأسلافهم الطغاة) متجاوزين بذلك مفهوم «المراحل» (فالأبد لا يعرف المراحل لأنه يستقر في مرحلة واحدة: هذه هي الشمولية أو الدكتاتورية) متجاوزين حتى «روح» الثورة العربية التي انجبت حقائق جديدة. كأنهم يتعاملون مع الزمن الجديد بعقول قديمة (تماماً كما يريد بعض الأصوليين ان يتعاملوا مع هذه الحقائق بعقول قديمة، أي وقعنا في الفكرة السلفية الدينية (مسيحية وإسلامية) أو الأيديولوجية اوالعنصرية: السياسة جوهرها لا يتغير. فقط تبدّل الأقنعة!). وها هم الأخوان في مصر وزملاؤهم في تونس غير قادرين على الحكم وحدهم. لأن زمن الحاكم الواحد قد مضى، وأن زمن الحزب «الخالد» حزب الشعب والأمة والتاريخ قد اندثر...

فلا في لبنان حزب الله والوصايتان من خلفه مالاً وسلاحاً و«معنويات» (الهية) قادر وحده على الحكم ولا الأخوان والسلفيون في مصر وتونس. وهذا يعني على المدى المقبل أن ما يجري اليوم هو مرحلة من الربيع العربي وليس «المرحلة». وان من «نجح» اليوم في الانتخابات قد لن ينجح غداً. وان من اكتسح صناديق الاقتراع في أول انتخابات قد... لن يكتسحها غداً. ومن كان في المعارضة، أمس، سيكون في صفوف الحكم غداً، لأن العالم العربي سينتقل من فكرة الثورة إلى فكرة السياسة أو الاثنتين معاً. أي فكرة التغيير. أي فكرة الحرية. أي الديموقراطية. فلا الثورة تصنع مرة واحدة وإلى الأبد. ولا الديموقراطية تمارس مرة واحدة. ولا التغيير يحدث مرة واحدة، كما كنّا لدى الأنظمة التوتاليتارية «الجامدة». وهذا يعني لا الأنظمة ثابتة بقوانينها وأعرافها وتقاليدها، ولا الشعب موضوع في خانة «الثابت». في الأنظمة الشمولية تقوم علاقة ثابتة دائمة بين النظام «الدائم» جموده، وبين الشعب الدائم تجميده. والعلاقة بينهما محكومة ضمن هذا الإطار بالتكلس. لا علاقة بين الفوق والتحت. لأنهما منفصلان في سبل الاختيار والإرادة والرغبة. الديمومة، وهي صفة دينية «أبدية» تجعل من كل الأزمان زمناً واحداً مغلقاً وتسحق كل ما يتململ أو يتحرك في هذا الخيط الخطي. فالشعب يجب ان يكون مثالاً للحاكم، أو للأب الأكبر، ومتشبهاً به لكي يكون التساوق القسري بالقوة والعنف وسيلة لاستفراده وامتصاص كل رغبة في الاختلاف. تحت سلطة الحزب أو القائد. ومن شروط هذه «الوحدة» ان تبقى شمولية النزعة، بلا نتوءات، ولا «انحراف» ولا صوت إلاّ الصوت «الشمولي» السائد.

هذا الزمن السادر، القابل، بات غير مقبول، اليوم. والذين يحسبون أن قواعد الحكم، أياً يكن الفائز في هذه الانتخابات أو تلك، ستكون مستنسخة عن الماضي. فإنهم واهمون، ومعاييرهم على الراهن مستلة من الزمن «القديم». ونحن نعرف ان اهل الثورة المضادة «حتى من الذين لعبوا لعبة الربيع العربي سيروجون لهذه الأفكار من باب اننا كالمستجير من النار بالرمضاء» أي كالمستجير من الأنظمة الدكتاتورية «المتساقطة» بدكتاتوريات دينية أدهى وأشد وأثقل وأقمع وأكثر شمولية وأيديولوجية. هذه الإحساسات قد تكون مشروعة و«منطقية» وواقعة إذا ما تركت القوى الشبابية والليبرالية

والتغييرية والديموقراطية الأمور على غاربها في أيدي هؤلاء، كما فعلت على امتداد نصف قرن. وهذا يعني أن على هذه القوى بطبقاتها وشرائحها وتنويعاتها الانخراط في العمل التغييري ضمن أطر حزبية أو حركية أو ثقافية او ابداعية أو نقابية، انخراطاً يومياً حياً متجردة من خطابها الفوقي الجاهز، وداخلة في خضم الاعتمالات الاجتماعية الشعبية بكل أنواعها. وكلنا يذكر أن فلاسفتنا ومناطقتنا ومفكرينا في العقود الماضية، إما تحولوا «فقهاء» أو «لاهوتيين» مماشين الموجات المذهبية والدينية المتعاقبة، وإما منعزلين في أعمالهم داخل الصروح الجامعية والاعلامية. في الوقت الذي تحول فيه الفقهاء واللاهوتيون سياسيين فيا للغرابة! هذه العزلة هي التي تركت الساحة للقوى غير المدنية وللأصوليات من الجهات الشتى وانتصار الخطاب الغيبي. كأنما كان مفكرونا وكتابنا يتوجهون بأعمالهم إلى بعضم في دوائر غير مقروءة، وغير مرئية. ولهذا نظن أن الفلسفة والعلوم والكتابات يجب أن تلعب أدواراً «اجتماعية» وسياسية تتأثر وتؤثر في البيئات الجماعية وفي تكوين العقول والاختيارات والاتجاهات الجديدة. لا أن تبقى داخل الجدران العاجية والماهيات والميتافيزيقيا والمفاهيم المجردة.

على هذا الأساس، ومن ضمن هذه المناخات من الابتكار والحرية والاندماج في الواقع لابتداعه من جديد، تكسر فكرة «الأبدية» و«الشمولية» والانعزالية والرجعية والتقوقعية للاسهام في قيام مجتمعات وأفراد حرة، ناقدة، مشاكسة تغييريه، تكون الأساس في إحداث التحولات في المعايير والقيم والحكم والأنظمة والأفكار.

شاعر وكاتب من لبنان

ثلاثة مقالات في الانتفاضة الشعبية في سورية

بشير البكر

كلّنا بعثيّون

لن يكون في وسع أي تعديل أن يُنْزِل حزب «البعث» من موقعه في حياة السوريين. فالمسألة أكثر تعقيداً من أن تُحل بجرة قلم؛ لأنها تحولت إلى ما يشبه نظام الحياة، الذي تكيف معه شعب بأكمله. فالسوري يولد ليجد نفسه عضواً في تنظيم «طلائع البعث»، ويصبح يافعاً ليدخل إلى «شبيبة الثورة»، ومن ثم يتدرج إلى عضوية اتحاد الطلبة والحزب.

حكاية حزب «البعث» هي قصص أجيال من السوريين، بعضها رحل، والآخر لا يزال على قيد الحياة يترقب النهاية السعيدة لكابوس سياسي طويل. أجيال هرمت وأخرى شابة، كلها بانتظار اللحظة التي ترى فيها ملف حزب الوحدة والحرية والاشتراكية، وقد صار مفتوحاً أمامها بعدما ظلّ تناوله من المحظورات.

وجد السوريون أنفسهم في الثامن من آذار سنة 1963 وسط عاصفة سياسية أخذتهم كل هذه السنوات الطويلة، وهم لا يملكون غير خيار الانحناء لها. عاصفة أتت على الأخضر واليابس وحوّلت الحياة السياسية إلى صحراء قاحلة، وصارت سوريا، التي كانت على مر التاريخ بلد حراك سياسي تعددي، ذات لون واحد، أخذ يبهت حتى بات بلا بريق أو نكهة. كانت الشاحنات تأتي بالمتظاهرين من الأرياف لترمي بهم في المدن، وهم يهتفون «حيدوا نحن البعثية حيدوا، حزب البعث بعد الله بنعبدوا»، فيما كان أطفال المدارس يحفظون عن ظهر قلب أغاني من نمط «الدهر دارت دورته والبعث قامت ثورته». ثورة؟ ذلك هو السؤال الذي وقف أمامه السوريون وهم لم يستفيقوا بعد من صدمة الانفصال في أيلول 1961، وكانت الأجهزة المصرية قد بدأت بنشر الملفات السرية للوحدة، التي تصب كلها في خانة اتهام «البعث» بالتآمر على الوحدة.

تقول الوقائع التاريخية إن البعثيين قفزوا على الحكم في الثامن آذار في انقلاب ليل، ولم تقم ثورة ولا من يحزنون، حتى إن الرفيق البعثي العراقي علي صالح السعدي، صاحب التصريح الشهير «وصلنا على ظهر قطار أميركي»، نصح رفاقه في دمشق بذبح عدة آلاف «لكي لا يقول الناس إن ثورة 8 آذار هي ثورة بيضاء». وظلت عبارته: «ماكو دم ماكو ثورة»، مادة للتندر والدعابة السوداء.

دارت دورة البعث على الرفاق أولاً، ولأن الثورة قررت أن لا تبقى بيضاء، فإنه لم يطل بها الوقت حتى بدأت تأكل آباءها، فكانت إطاحة الكبار من جيل المؤسسين مثل ميشيل عفلق وصلاح البيطار ومنيف الرزاز وجلال السيد وأمين الحافظ. ورغم أن الأمر أخذ في سنة 1966 صبغة يسار الحزب يقصي يمينه، فإنه في الحقيقة كان عبارة عن حركة أولى من طرف العسكريين الشباب أبناء الأرياف، الذين بدأوا يضعون أعينهم على السلطة، من أمثال صلاح جديد ومحمد عمران وعبد الكريم الجندي، وكان يلزم هؤلاء أن يتحالفوا مع فئات مدنية تسايرهم في فكرة تحويل البعث إلى حزب يساري يعتمد النظرية المادية، وهو ما نظّر له المفكر الفذ ياسين الحافظ، الذي ندم على ذلك لاحقاً. وكان من أبرز الشخصيات المدنية يوسف زعيّن ونور الدين الأتاسي. لكن تبين لهؤلاء، لاحقاً، أنهم لم يكونوا أكثر من فئة حالمة تطفو فوق واقع حافل بالمتناقضات، وتحدّه صراعات خفية على السلطة ظهرت في صورة علنية في أواخر سنة 1969، حين بدأت تلوح علامات الصدام بين الملك حسين والفدائيين في الأردن، وكان بروز حافظ الأسد وزير الدفاع السوري يمثّل العلامة الأبرز، وكان أن انتهز هذه المناسبة ليقوم بانقلابه في 16 تشرين الثاني سنة 1970، وبموجبه وضع رفاقه اليساريين في السجن من عسكر ومدنيين، جديد وزعيّن والأتاسي، ووصفهم بالفئة المناورة والمغامرة.

مرحلة السنوات الأربع (1966ـ1970) من تاريخ البعث هي الأغنى سياسيّاً في تاريخ سوريا الحديث، وقد اتسمت بثلاث

سمات أساسية: الأولى هي الجدل والحوار داخل البعث نفسه حيال جملة من الخيارات السياسية، وكان الغالب هو الاتجاه الذي أراد تحويل البعث إلى تيار ماركسي، وصار بعض أنصار هذا التيار يعقدون لقاءات مع أطراف من الحزب الشيوعي السوري لبناء حزب طليعي. وذهب تأثر هؤلاء بالأفكار الاشتراكية إلى حد تقليد التجارب الروسية والصينية على صعيد الزراعة والدفاع.

والسمة الثانية هي مرحلة المراجعة داخل الحزب الشيوعي السوري، الذي برز فيه تيار يقوده رياض الترك، يدعو إلى كف يد السوفيات عن توجيه سياسات الحزب، وصياغة برامجه وأهدافه كما تقتضيه ضرورات الوضع السوري والقضايا العربية. ونجح هذا التيار في تكوين كتلة رئيسية تحت جناح الحزب الشيوعي ـ المكتب السياسي، تركت الأمين العام خالد بكداش أقليّة داخل الأطر القيادية، وقد أدى هذا التيار دوراً في إرساء الأسس لولادة اليسار الجديد، ليس في سوريا فحسب، بل في العراق ولبنان وفلسطين.

أما السمة الثالثة فهي ولادة اليسار الجديد، الذي انبثق من سلسلة حوارات ومراجعات قام بها الشباب الجديد، انطلاقاً من نقد هزيمة حزيران، وتكونت الروابط الثورية، التي أخذت بعد ذلك اسم رابطة العمل الشيوعي، ومن بعدها حزب العمل الشيوعي الذي استقطب قطاعات واسعة من الطلبة والشباب الباحثين عن فضاءات سياسية جديدة وعصرية.

إن حصول «الحركة التصحيحية» داخل حزب البعث في هذا الظرف كان مناسبة للربط بينها وبين النهاية الدموية لأحداث الأردن، وحصل على الدوام عطف موقف الأسد من عدم نصرة الفدائيين الفلسطينيين في الأردن، على المباركة الإقليمية والدولية لانقلابه العسكري، ورُبطت المسألة بمواقفه اللاحقة في لبنان، وخصوصاً التدخل العسكري في سنة 1976 ضد الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية. كان بارزاً أن للأسد نظرة خاصة بالحزبية منذ اليوم الأول لوصوله إلى الحكم، ورغم أنه من منبت طبقي ريفي وفلاحي فقير، فإن نظرته اتسمت بالمحافظة، وتحكمت فيها عدة معطيات محلية وإقليمية ودولية، فهو راعى تجار البلد وتصالح مع أنظمة الخليج وفتح خطوطاً مع الغرب.

تاريخ البعث السوري تاريخان مختلفان. تاريخ ما قبل الحركة التصحيحية وما بعدها. والنظر إلى تاريخ البعث لا يكون من خلال دوره فحسب، بل من نظرته إلى نفسه وموقف المجتمع منه. كانت النظرة إلى «البعث» قبل الحركة التصحيحية أنه حزب طهراني، قياداته وأعضاؤه مضرب المثل في الاستقامة والبعد عن الفساد، ولديهم رؤية أخلاقية لإدارة الدولة والتصرف بالمال العام، وكانوا متأثرين بزعماء الثورات في أميركا اللاتينية وشرق آسيا وخصوصاً بثوار كوبا وفيتنام، الذين ظلوا أعفّة حيال إغراءات السلطة وامتيازاتها. ومن الأمثلة على ذلك، أن رئيس الوزراء يوسف زعيّن كان يتنقل في سيارة فولكسفاكن، ورئيس الدولة نور الدين الأتاسي لا يضع ربطة عنق، ووزير الداخلية لا يلبس حذاءً رسمياً، بل صندلاً شعبياً. وهم لا يسكنون في بيوت تحرسها قوات أمنية، بل في مساكن عادية. وكان الفساد مستنكراً، والرشوة أم الكبائر. واتضح ذلك جلياً بعد رحيل هذه المجموعة عن السلطة. ورغم أن الحزب كسب الكثير من العداوات في هذه المرحلة، فإن الاستقامة الأخلاقية والنزاهة اللتين اتسم بهما أعضاؤه وقياداته أبقتا احترام الناس له، بمن فيهم الأعداء الذين ألحق بهم الأذى، وهم كثر، وعلى رأسهم الإقطاع الزراعي الذي تضرر بسبب سياسة تأميم الأراضي وتوزيعها على الفلاحين. والأمر ذاته ينسحب على أصحاب رؤوس الأموال الذين فرّ قسم كبير منهم إلى الخارج، وخصوصاً لبنان والأردن، وأسهم هؤلاء في بناء اقتصاد البلدين المجاورين على حساب الاقتصاد السوري، الذي اختار التوجه الاشتراكي.

قلب البعث الصفحة سنة 1970، وعلى عكس ما كان الانتساب إليه يعد أمراً صعباً، وتحكمه شروط كثيرة، فتحت أبوابه لكافة السوريين، فتغير الجو العام داخله بسرعة شديدة، ولم تمض أكثر من ثلاث سنوات حتى بات يأخذ مكانة حزب السلطة، الذي أصبحت العضوية فيه باب كسب وأمان وظيفي وحياتي، ومن يومها صارت المعاملة التمييزية للبعثيين ومنتسبي شبيبة الثورة أمراً لا جدال فيه، حتى على صعيد القبول الجامعي. وفي سرعة قياسية تكوّن جهاز كبير من البيروقراطيين والمستفيدين، وترافق ذلك مع تغير صورة البعثي في عين المجتمع وصار يجري النظر إليه بوصفه مستفيداً في أحسن الأحوال، أو جزءاً من النظام الأمني الذي أخذ يطل برأسه من خلال الأجهزة الاستخبارية التي شرع

نظام الأسد يسيّج حكمه بها.
بالتوازي مع إطلاق يد «البعث» دستورياً من خلال المادة الثامنة، جرى العمل بمنهجية على محاربة المعارضة الحزبية، من خلال أساليب الترغيب والترهيب، فمن لم يسر في ركاب البعث ويقر بحقه في «قيادة الدولة والمجتمع» والانضواء في ديكور الجبهة الوطنية التقدمية، حكم على نفسه بالعزل والإقصاء، وبسرعة شديدة صار البعث الحزب الواحد، لكنه لم يكن الحزب الحاكم فعلياً. ورغم أنه يُعدّ الحزب القائد، فإن لواء القيادة الفعلية كان معقوداً للرئيس حافظ الأسد، الذي هندس حياة سياسية بعيدة عن أي تأثير فعلي للحزبية فيها.
لم تعرف أهداف حزب البعث، وحدة حرية اشتراكية، مرحلة من التهميش كما في هذه الفترة؛ فالوحدة التي عدّها البعثيون أسمى أهدافهم، وصارت خريطة الوطن العربي شعار البعث، تحولت إلى عداوة لا حدود لها بين البلدين اللذين يحكمهما البعث، سوريا والعراق، وصارت تجربة ميثاق العمل القومي سنة 1979 بين هذين القطرين كما يحلو للبعثيين القول، بمثابة نكسة على العمل القومي ككل وعلى البلدين اللذين وظفا قسطاً أساسياً من طاقاتهما لتحارُبهما. ولا يختلف الأمر في ما يتعلق بالحرية، التي صارت تفسرها أدبيات البعث على أنها حرية الشعوب العربية من الاستعمار. وفيما رحل الاستعمار منذ عقود ولا تعرف عنه الأجيال الجديدة شيئاً، فإنه لا يزال شماعة لمصادرة الحريات للمواطن.
أما الاشتراكية فتحولت إلى مرادف لتعميم الفقر والتخطيط المشوه، وصار القطاع العام مأوى للعجزة وغير القادرين على اختطاف قوتهم من بين أنياب القطط السمان، التي نمت في الحدائق الخلفية للنظام، وبنت اقتصاداً موازياً قائماً على تحويل الاقتصاد الوطني إلى منصة لاقتصاد قائم على الفساد والنهب المنظم، فصارت مصانع الدولة خاسرة، وتراجعت الزراعة وانحطّ الريف وزحف نحو المدن التي سورتها العشوائيات التي تنذر بالانفجار وتعيش على سخط وتفاوت يفاقمه الإكراه الأمني الذي لا حدود لتدخلاته في حياة الناس.
وسط هذا التشوه وانقلاب الموازين وغياب المرجعيات، وتغير وظيفة الدولة، وتعاظم دور أجهزة الأمن، بقيت الآلة الدعائية تحفظ دوراً خاصاً للبعث الذي تحول إلى طريق للترويض، فكل سوري يولد بعثياً بالضرورة، لأن تجربة «طلائع البعث» إجبارية، وكل طفل سوري يذهب إلى المدرسة لا بد أن يتعرض لغسل دماغ لا يجاريه غير الأسلوب الكوري الشمالي، وتدل كثرة الرموز في حياة السوريين من تماثيل وأناشيد على أن دور هذا الجهاز هو تربية الأطفال على حب القائد.

حين رحل القائد الأب لاحت فرصة لنهاية كابوس البعث في حياة السوريين، ومرت فترة قصيرة تنفس فيها السوريون هواء «ربيع دمشق»، ومثّلت تجربة «المنتديات» فرصة لتهوية البيت السوري بأوكسجين جديد، وحتى أعضاء حزب البعث وجدوا في المناخ الجديد فضاءً يطلق حريتهم في التعبير، لكن الحرس القديم تصدى للتيار العام، وانبرى نائب الرئيس السوري السابق عبد الحليم خدام لمواجهة الحالة الجديدة، وصار يحذر من «جزأرة» سوريا، والمقصود من ذلك انتقالها إلى الفوضى السياسية التي عاشتها الجزائر بعد انهيار حكم الحزب الواحد سنة 1988. دُفنت تجربة «ربيع دمشق» في المهد، وكان قد لاح بعدها طيف أمل بعد خمس سنوات خلال المؤتمر القطري العاشر لحزب البعث سنة 2005، حيث جرت حوارات داخلية في التعددية السياسية والإعلامية والفساد، ولكن الأوراق ومشاريع القوانين بقيت في الأدراج، وعاد الرئيس بشار الأسد ليتحدث عنها في خطابه الثاني في 16 نيسان من باب الإشارة إلى أن الحكم غير غافل عن قضايا الإصلاح، وهو يضعها في حسابه منذ خمس سنوات.
أراد الأسد خلال عشر سنوات من حكمه إصلاحاً على الطريقة الصينية، فأتاح المجال أمام انفتاح اقتصادي خلق حالة نمو وانتعاش أدت إلى إشاعة جو جديد استفاد من إيجابيات الانفتاح، ولكنه فتح أعين السوريين على حقوقهم في التعددية السياسية وحرية التعبير.

دولة الاستخبارات

الاستخبارات مفردة دخلت حياة السوريين وصارت مرادفة للرعب. اشتقّوا لها تسميات كثيرة وكتبوا عنها الروايات وصوروا الأفلام والمسلسلات. لكل سوري في زمن الأسد روايته الخاصة، وليس هناك أحد لم يعش تجربة التحقيق والضرب والاحتجاز والمساومة والضغوط والمنع من السفر. أجهزة أخطبوطية لها فلسفة خاصة لا يحددها قانون، قامت على الطاعة والإكراه
حين توفي سلطان في باريس في مطلع سنة 2008، احتارت زوجته وابنتاه في دفنه. هو أوصى بأن تنقل رفاته إلى درعا، لكن الموافقة الأمنية لم تأت من سوريا. بقيت العائلة معلقة بين وصية الأب الذي احتضر ببطء وشجاعة وهو يقاوم السرطان، وموافقة الاستخبارات التي لم تراع الناحية الانسانية في المسألة. انتظرت العائلة عدة أيام دون جدوى، وجرّبت استعمال «الواسطة»، فتحرك وجهاء من درعا للقاء مسؤول مدني من أبناء عمومتهم لكي يتدخل ويحل المشكلة، فانتخى ووعد بإيجاد مخرج لقضية إنسانية، ولكنه اعتذر قبل أن تنفض الجلسة حين علم أن الاستخبارات لم توافق.
زوجة سلطان تقف عند حافة قبره في مقبرة الغرباء حين وارياه في الثرى، وهي تنتحب، والطفلتان اللتان ولدتا في باريس ولا تعرفان سوريا ضائعتان مشتّتتان. تسألان الحضور لماذا كل هذه القسوة؟ ما هي الجريمة التي ارتكبها والدنا حتى يُنفى ميتاً أيضاً؟ ماذا كان يضرّ الدولة السورية لو أنها سمحت بنقل جثمان الرجل إلى مسقط رأسه، لقد مات وانطوت الصفحة؟ ولا جواب. لا أحد يملك إجابة شافية في حضرة الموت يرشها فوق جرح العائلة كي يبرد قليلاً. يقول أحدهم إنه «التشفّي». هؤلاء يتشفّون بكم. يريدون أن يقولوا لكم إن هذا جزاء من يهرب من السجن. الوجوه واجمة والعيون كلها تنطق بإجابة واحدة: الاستخبارات لا قلب لها.
سلطان وقبله أبو يسار، ومن بعده فاروق الذي فارق الحياة بعد عودته من تظاهرة فرح برحيل الرئيس المصري حسني مبارك. تكررت المأساة مرة ثانية حين حاولت زوجته نقل رفاته ليدفن في مسقط رأسه حماه. كانت تظن أن الأوضاع تغيرت، فهي ذهبت عدة مرات وسمحت لها السلطات بالزيارة السنوية، بعد أن اعتقلتها الاستخبارات قرابة أسبوعين في المرة الأولى. حين عادت آنذاك، روت لجاراتها ذكرياتها من «بيت الموتى» السوري، فبكت النسوة الجارات كما في مجالس العزاء. فرنسيات ومغربيات وجزائريات وأفريقيات كن يستمعن ولا يصدقن أن هذه السيدة، التي كانت تريد فقط زيارة مسقط رأسها وبلدها الذي ظل يسكنها، كان عليها أن تمضي أسبوعين من التحقيقات ومراجعة فروع الاستخبارات قبل أن تطرد إلى باريس، لأن زوجها معارض للنظام.
تسألها جارتها الفرنسية بارتياب شديد: هل قمت بأعمال مناهضة للنظام في بلدك؟ من هو زوجك؟ هل هو مانديلا جديد حتى تتعرضين لكل هذا التعذيب؟ وتحار السيدة السورية ولا تجد الإجابة وتتنهد: الاستخبارات. زوجها ناصري وليس من الإخوان المسلمين ولا من الشيوعيين الراديكاليين. درس في فرنسا وكان يريد العودة بعد ذلك، ولكنه تورط في المشاركة في تظاهرات تطالب بالإفراج عن السجناء السياسيين، ووقّع بيانات تضامنية معهم، ولا تدري كيف صنّفته الاستخبارات في خانة الخطرين. هو نفسه كان يسخر من قلة عقل الأجهزة التي تشغل وقتها في متابعة معارضين مسالمين. هذا الرجل كان يمثل حالة بالنسبة إلى سوريين آخرين، لأنه نشط في إطار «لجنة التنسيق»، لا في «إعلان دمشق». وهذه اللجنة أخذت على عاتقها مهمة التنديد بمحاولات الادارة الأميركية الضغط على سوريا في السنوات الأخيرة. كانت اللجنة تقوم بنشاطات ذات أصداء إيجابية، وحظيت بتعاطف جاليات كثيرة، لأنها ركزت على استهدف سوريا من الخارج، ولكنها لم تلق رضى النظام، لأن أعضاءها معارضون. كأن لسان حال الاستخبارات يقول إن النظام وحده يستحق شرف الوطنية، وإنه هو سوريا، ولا يوجد سوريا أخرى بعيداً عن أجهزة الأمن.

ظل ابني وابنتي يسخران مني لفترة طويلة ويقولان لي أنت سوري «افتراضي»، لم نزر بلدك ولو مرة واحدة، ولم نر أهلك إلى اليوم. لا نعرف من هو والدك أو والدتك وإخوتك وأين ولدت. بلغنا الـ18 عاماً ولم نحصل على أوراق سورية. وكنت دائماً أقول لهم إن الاوضاع في سوريا تسير نحو الانفراج، فيردان بسؤال: وماذا فعلت حتى لا نذهب إلى هناك؟ فأجيب بصراحة شديدة تصل حتى السذاجة بأني كتبت مقالات وشاركت في نشاطات تضامنية تخص زملاء لي من الكتاب والناشطين في مجال حقوق الانسان. تضامنت مع رياض الترك وميشيل كيلو وعارف دليلة وفايز سارة وأنور البني. لم أفعل أكثر من ذلك، وكنت على الدوام أعارض محاولات محاصرة سوريا وتطويقها، واختلفت مع الكثيرين من الناشطين بشأن تحويل نشاطات حقوق الانسان إلى اعمال سياسية حزبية، والانتقال بعد ذلك للبحث عن وضع تمثيلي لمعارضة في الخارج من خلال لقاءات مع الأميركيين. وجمدت كل نشاط لي حين بدأ البعض يسير في هذا الاتجاه.

حين اتخذت هذا القرار، كان العديد من أصدقائي قد كسروا الحاجز، وذهبوا إلى سوريا. شجعني ذلك وأنا أعرف أن كل ما هو دون الخيانة الوطنية يعدّ رأياً وموقفاً، وبالتالي فإن خلاف الموقف لن يوصلني إلى السجن. قد أتعرض لمضايقات، وأدفع بعض الثمن، ولكن لن يصل الأمر إلى ما هو أسوأ من ذلك.

في نيسان 2008 دعاني صديقي نبيل، مندوب وكالة سانا، إلى حضور احتفال الاستقلال في المركز الثقافي السوري في باريس. لبّيت الدعوة وشربت أول كأس شمبانيا في حياتي على حساب الوطن. كرعته دفعة واحدة، فنظر إلي الساقي باستغراب، ولم يمنع نفسه من طرح السؤال: لمَ كل هذه العجلة؟ فأجبته بأن هذه أول كأس شمبانيا أرفعها في صحة الوطن. ضحك بطريقة لفتت انتباه الحضور، وقال لي: لنا في ذمتك الكثير من الوطنية، ولك في ذمتنا أنهار من الشمبانيا.

وعلى الفور تحولت إلى مصدر فضول لبعض الحضور، فانهالت عليّ الأسئلة. كان تحقيقاً أوّلياً، نجحت في تجاوزه، لأني بعد أيام قليلة تلقّيت اتصالاً من مسؤول أمني في السفارة يريد أن يشرب معي فنجان قهوة. وافقت على الفور، ولم يكن هناك أي سبب لأن أربط بين فنجان قهوة في باريس وفنجان قهوة في دمشق، ولا سيما أننا حددنا الموعد في مقهى قريب إلى بيتي ذات ظهيرة يوم أحد في شهر أيار.

كان الرجل ودوداً في البداية، ثم تحول إلى عدواني فجأة، وجرّد سلسلة من الاتهامات للسوريين الذين يعيشون في الخارج. وضعهم كلهم في كيس واحد، وصار يرميهم بشتى النعوت: خونة، أساؤوا إلى الوطن. عملاء للغرب، يمضون أوقاتهم في التسكع أمام السفارات الغربية. يتلقون الشيكات من أجهزة الاستخبارات الغربية لتشويه صورة بلادهم. متآمرون...إلخ.

بعدما نفض جعبته، وجّهت إليه سؤالاً محدداً: لماذا طلبت أن نلتقي؟ هل من أجل أن تعيد على مسامعي هذه الأسطوانة المشروخة؟ لا أريد أن أسمع منك. من تنعتهم بالخيانة لا أعرف أحداً منهم. ومن واقع تجربتي، لم أصادف أحداً منهم في باريس أو لندن. من أعرفهم هم من الجامعيين والكتاب والصحافيين والفنانين. وكل هؤلاء رفضوا محاصرة سوريا بين سنوات 2003 و2006، ولم يشارك أحد منهم في مؤامرة. وهؤلاء في غالبيتهم هربوا من فساد الهواء في سوريا، وجاؤوا إلى الغرب لأنهم يريدون أن يعيشوا بحرية. ولحسن الحظ، فإن حق الحياة والعيش هنا غير خاضعين لأي مساومة. ورغم أن هؤلاء بنوا أنفسهم في الغرب، وأصبحوا مواطني البلاد التي فتحت صدورها لهم، ظلوا أوفياء لبلدهم الأصلي وقضايا المنطقة، من قضية فلسطين إلى المقاومة في لبنان واحتلال العراق. وهم لا يطمحون إلى أي دور سياسي، يريدون فقط أن تبقى صلتهم ببلدهم قائمة، ويتمعوا بحقوقهم من دون زيادة أو نقصان.

كان الرجل يستمع إلي وهو يهزّ رأسه مبدياً التفهّم الكامل. وفجأة طرح عليّ سؤالاً محيّراً: قل من الذي أخطأ بحق الثاني، أنت أم سوريا؟ خذها ببساطة، من الذي أدار ظهره كل هذه الفترة، أنت أم بلدك؟ قلت له نحن الاثنين. أنا غادرت ولم أعد، ولم تكن لدي رغبة في العودة لأن الظروف لم تكن ملائمة، وبلدي لم يشعرني بأني أستطيع أن أعود من دون دفع ضريبة

تفوق طاقتي. واليوم، بما أن بعض أصدقائي عاد جزئياً، فإني أودّ أن أحذو حذوهم.

كرر طرح السؤال بالطريقة ذاتها. قل لي هل غادرت من تلقاء ذاتك أم طُردت من بلدك؟ لا، غادرت بقراري، لأني كنت أريد أن أنجو بنفسي. ردّ بعصبية، أرجوك لا تشرح لي، نحن أبناء اللحظة، وأنت تريد أن تزور سوريا. ليست هناك مشكلة، وأنت تعرف ما عليك أن تفعل. أنت كاتب وصحافي، لماذا لا تبدي هذه الرغبة في المصالحة مع بلدك من خلال كتاباتك؟ وأقول لك بصراحة، لكي أعطيك تأشيرة زيارة غداً، يجب عليك أن تكتب سيرتك الذاتية. لا أريد سيرة أدبية وشعرية. أريد أن تكتب لي كل شيء حصل معك من يوم خروجك إلى اليوم.

هل تريد مني أن أكتب تقريراً عن نفسي؟ ألا تكفي التقارير التي كتبها عني آخرون؟ لا أريد تقريراً. نحن لا نتعامل بالتقارير. أنتم معشر الكتاب تظلمون الأمن. الأمن لا يتعامل مع التقارير. كلّ همّه أن يتحقق من المعلومات. شيء أخير أريد أن أتفق معك عليه، «وأرجو ألا تفهمني غلط». وهو أني احتاج من حين إلى آخر أن ألتقي بك، وأتحدث معك، وأسألك رأيك في بعض الأحداث والأشخاص.

أعتذر عن هذا اللقاء. لقاؤنا اليوم هو الأول والأخير. ومن حيث المبدأ ليس لدي شيء ضدّك أو ضد مهنتك، ولكني لا أستطيع مساعدتك، فهذا ليس شأني. أنا كاتب ورأيي يمكن أن تعرفه من خلال كتاباتي، وليس لدي ما أخفيه بعد غياب ثلاثين سنة عن بلدي. وإذا أردت أن أعود فليس للعمل عند أحد، ولا لكي أصمت. أريد أن أعود كمواطن له حقوق في الوطن، وللوطن عليه واجبات. سوريا ليست لك لكونك في السلطة، هي لكل أبنائها.

برهان غليون، الأستاذ الجامعي في السوربون والمفكر التنويري المعروف، له أكثر من قصة مع عالم الأمن، منها ما هو طريف ومنها ما هو أشد من البلية. منها أن الظروف أجبرته على حمل جواز سفر موريتاني لسنوات. وفي سفرة من أسفاره كان ينزل في أحد الفنادق، وبينما هو يهمّ بالخروج، قالت له سيدة الاستقبال إن هناك وفداً طالبيّاً من بلادك يريد اللقاء بك، فما كان منه إلا الاستجابة، ظناً منه أنهم طلبة سوريون، ولكنه فوجئ بأنهم من موريتانيا.

وفي قصة أخرى، في إحدى زياراته لسوريا، طُلب منه أن يراجع أحد الفروع الأمنية قبل أن يعود إلى باريس، فاستقلّ سيارة أجرة وأعطى العنوان للسائق. طيلة الطريق كان السائق ينظر إليه بعطف شديد، وهو يتلو آيات من القرآن. وحين أوصله إلى المكان، رفض أن يأخذ منه نقوداً مقابل إيصاله، وقال له أنا لا آخذ فلوساً من الموتى. وحين استفسر منه ماذا يعني، قال له السائق يبدو أنك لا تعرف إلى أين أنت ذاهب. هذا فرع أمن، ومن يدخله لا يخرج منه حيّاً. فلا تحزن، لقد قرأت الفاتحة على روحك. ولكن حصلت معجزة وخرج برهان حيّاً.

الفرع اسمه فرع فلسطين. سألت أحد زواره الذين عادوا أحياء، لماذا يسمى فرع فلسطين. كان جوابه مرأً، ربما لأن كل زواره من عملاء إسرائيل. يقول عادل إنه لم ينضم إلى أي حزب، وذهب إلى فرنسا للدراسة. وفي كل مرة يذهب للزيارة، يستدعيه الفرع. ليس هناك موضوع محدد، وحين تبدي تذمراً يردّ عليك الضابط «شو مفكّر الجنسية الفرنسية بتحميك. روح ارجع بكرة السابعة صباحاً». وحين أعود في اليوم الثاني يسألني الحارس: ليه مبكّر كتير؟ هيك قال لي الضابط. والله مبيّن عليك مواطن صالح بتعرف واجباتك. وحين يأتي الضابط، ينادي الحاجب، شو بيعمل هالحمار اللي قاعد برّا؟ سيدي إنت طالبو. خلّيه يرجع بكرة، شو مفكّر حالو شفناه ومش مصدقين. قلّو يحضّر كل شي عن معارفو بفرنسا. يدوم الأمر على هذا المنوال عدة مرات، وحين لم يجد الضابط لدى عادل معلومات مفيدة، يسهّل له المغادرة، شرط أن يزوّده ببعض الأخبار بين حين وآخر. وفي الزيارة المقبلة يأتي من تلقاء نفسه، وقد أعدّ تقريراً شاملاً عن جميع زملائه، بمن فيهم أعضاء حزب البعث. بدنا نعرف إذا ملتزمين منيح

رواية القاتل والقتيل

تغيرت لهجة الإعلام السوري في الأيام الأخيرة، وصار أكثر هدوءاً في التعاطي مع الأحداث، وغابت عنه نسبياً التعابير ذات الصبغة التعميمية. قبل بدء الحملة العسكرية على منطقة جسر الشغور، ظهرت تصريحات تتحدث عن وجود مسلحين يتمترسون في المنطقة من دون تحديد لهويتهم السياسية. صفة المسلحين الذين بات وجودهم وسعة انتشارهم اقتناعاً يزداد رسوخاً لدى الشارع السوري، لم تزد الأمر غموضاً، ولم تفسر الوضع، لكنها أعفت المراقبين من الدوران في دوامة الأوصاف الأخرى، التي ركزت في الأشهر الثلاثة الأولى على العصابات المسلحة الإرهابية والمندسين والسلفيين والمخربين.

العصابات تروّع الآمنين. لطالما ترددت هذه الجملة في الإعلام الرسمي السوري خلال الأيام الأولى من أحداث درعا. الجيش يطارد العصابات المسلحة، أو الجيش يقوم بمهمته الوطنية ويطهر أحياء درعا من العصابات المسلحة. ويذهب الخيال بعيداً وراء تعبير العصابات. وتكثر الأسئلة: من هي هذه العصابات المسلحة؟ وكيف ظهرت فجأة في سوريا التي يعد نظامها الأمني محكماً جداً؟

العصابات أشكلت على الكثيرين، وخصوصاً أن تعبير حرب العصابات ثوري في الذهنية العربية العامة. فهذا النوع من القتال استعاره الفدائيون الفلسطينيون من تجارب فيتنام، وحركات التحرر في أميركا اللاتينية. وظل الشارع ينظر إلى رجل حرب العصابات على أنه مقاتل غيفاري يؤمن بالتغيير من خلال فوهة البندقية. ورغم أن حروب العصابات في أميركا اللاتينية لم تكن بلا دماء، فإنها حظيت بالتبجيل، حتى إن الكنيسة في أميركا اللاتينية ابتدعت لاهوت التحرير، وسقط العديد من رجال الدين المسيحيين على درب الشهادة، وهم يقاتلون الدكتاتوريات إلى جانب عمال شركات الموز في كولومبيا والفلاحين في بوليفيا والبيرو ونيكاراغوا، ورفع بعضهم إلى مرتبة عالية في الوجدان الشعبي، ومنهم رمز حاز لقب قديس العصابات الشهيد في كولومبيا.

العصابات ظهرت في الأيام الأولى للحركة الاحتجاجية، وكان أول اتهامات وجهت إليها خلال تظاهرات جرت في مدينتي اللاذقية وبانياس، وفيما ظلت لغزاً إعلامياً استعصت على السلطة فكفكة طلاسمه، لم يصدق الشارع في غالبيته ذلك، وعدّ الأمر مجرد ذريعة للأجهزة لكي تبرر لنفسها عمليات القمع الدموي والرد بالرصاص على المتظاهرين المسالمين. لكن فئة من الرأي العام أخذت برواية العصابات في المدينتين، اللتين فيهما أنصار لكل من رفعت الأسد وعبد الحليم خدام. وبدا للبعض أن استغلال الفرصة من جانب خدام ورفعت على هذا النحو قابل للتصديق، فهما لا يستطيعان تحريك الشارع، وهما مرفوضان من الحركة الاحتجاجية التي كانت في ذلك الحين مطلبية مئة في المئة ولا مكان فيها للسياسة، ولكن ذلك لا يمنعهما من تصفية الحسابات وقلب الطاولة على النظام من خلال إذكاء شرارة نزاع مسلح. لذلك، لجأ أنصارهما إلى إطلاق النار على الطرفين، المتظاهرين وعناصر الأمن. وهدفهم من جهة تصوير الأمن كأنه يقتل المتظاهرين، ومن جهة ثانية تحريض المتظاهرين للخروج عن الخط السلمي، وبذلك يُورَّط النظام في لعبة الدم حتى تزداد الاحتجاجات وتأخذ الصبغة السياسية، ويتلطخ سجلّه في نظر العالم. اختفى تعبير العصابات، لكنه لم يسحب من التداول، إلا أن السلطة لم تقدم حتى اليوم رواية تحدد فيها طبيعة هذا العدو الذي ظهر فجأة بهذه القوة والتنظيم، إلى حد أنه ما إن يُجتَثّ في منطقة حتى يظهر كالسرطان في منطقة أخرى بعيدة جغرافياً، كالمسافة بين درعا وجسر الشغور، أو بين معرة النعمان والبوكمال.

فئة أخرى رماها الإعلام السوري بتهمة التخريب والقتل من أجل إيصال رسالة سياسية، هي المندسون. وهذه أثارت من السخرية المرة، أكثر مما تعاطى معها الرأي العام بجدية، وذلك بغض النظر عن حقيقة وجود هؤلاء. فئة كهذه حركت خيال بعض النشطاء على الفايس بوك، الذين ركّبوا عليها كليبات وأغاني تقول إحداها «قالوا عنا مندسين، ونسيوا يقولوا سوريين». وتبلغ السخرية مداها حين تنقل وكالات الأنباء صورة امرأة ملتحفة بالعلم السوري في إحدى تظاهرات

الاحتجاج، وقد كتبت على ظهرها بخط عريض: مندسة.

ويروي القادمون من سوريا أن التعبير لقي صدىً شعبياً واسعاً في صورة عكسية وشاع في الشارع وصار الناس يتداولونه على سبيل النكتة، وتحول إلى رمز ذي قيمة تهكمية ومدعاة للسخرية من شعبية النظام، وبات توظيف المفردة تعبيراً عن عجز عن إنتاج رواية مقنعة عن مسلسل الدم. استخدام صفة المندسين لكشف قناع العناصر المسلحين بدا سطحياً ومبتذلاً، وحتى أقرب إلى الحشو منه إلى التفسير، ويدل ذلك على أن النظام لم يتمكن من بلورة خطاب إعلامي ناجح، ولهذا السبب توقف الإعلام عن حديث المندسين. في موازاة رمي التهمة على العصابات المسلحة الإرهابية والمندسين، جرى الحديث عن السلفيين، وهنا صارت الصورة أقرب وأكثر وضوحاً على المستوى المحلي، لكنها مختلطة على الصعيد الخارجي. ورغم أن قطاعاً من الشارع لم يصدق بداية رواية السلفيين، فإنها بقيت إلى اليوم حمّالة أوجه، بالنظر إلى امتدادات الحركة السلفية في المنطقة وطبيعة توجهاتها الإرهابية.

مبعث عدم تصديق الشارع لظهور حركة سلفية مسلحة يعود إلى عدة أسباب: الأول هو أن الحركة السلفية في سوريا تحت السيطرة منذ زمن طويل، وهي عبارة عن جزر متناثرة، منها من يتعاطى مع السلاح، ومنها من ينصرف إلى التدين الصرف والتصوف والدروشة. والذين حملوا السلاح من السلفيين لهم قصة طويلة مع الأجهزة السورية التي اخترقتهم، حسب شهادات خبراء محليين وغربيين، وتؤكد ذلك المعلومات التي سربها الأميركيون عن الجهاديين السوريين في العراق، الذين تجاوز عددهم في مرحلة من المراحل 10 آلاف مقاتل. الأميركيون يؤكدون أن الاجهزة السورية غضت الطرف عن هؤلاء، وسمحت لهم بالتسلل إلى العراق لمقاتلة القوات الأميركية، ولكن القسم الأكبر من هؤلاء تعرض للإبادة منذ عدة سنوات في معارك في الفلوجة والموصل، ومن عاد منهم إلى سوريا أودع السجن أو بقي تحت المراقبة. ولا تقتصر هذه الفئة على سوريين فقط، بل هناك عرب وأجانب، من السعودية ولبنان والأردن واليمن والمغرب وتونس والجزائر، قدموا من المهاجر. وكانت سوريا هي معبر هؤلاء للقتال في العراق ضمن صفوف تنظيم القاعدة. وسط التركيز على اتهام السلفيين، ظهرت رواية تنسب إلى جماعات كويتية صلتها بتيار سلفي سوري نما في الظل خلال السنوات الخمس الأخيرة. الرواية نشرها موقع «عكس السير» السوري، نقلاً عن موقع «شبكة نهرين نت الإخبارية» العراقية، من دون نفي أو تأكيد صحة ما جاء فيه من مصادر سورية أو كويتية. ونقل التقرير الإخباري عن مصدر كويتي مطلع لم يسمه قوله «إن ما يحدث في سوريا الآن، هو نتاج عمل دؤوب ومضنٍ بذلته أطراف دولية وإقليمية وكويتية»، واصفاً «الدور الذي مارسته جهات سلفية نيابية وسياسية ودينية في أحداث سوريا بأنه بالغ الخطورة، وساهم في التصعيد الأمني ضد النظام السوري، في غفلة من أجهزة الأمن الكويتية والسورية». وأضاف المصدر أن «عناصر من التيار السلفي في الكويت أسهموا في جمع الأموال وإرسالها إلى داخل سوريا، وخصوصاً من خلال مدينة درعا الحدودية مع الأردن، حيث نجحوا في إيجاد بؤر للتنظيم السلفي داخل مدينة درعا والمناطق الريفية القريبة منها منذ أربع سنوات، ومن هناك توسع التنظيم إلى حمص وحماة واللاذقية ومناطق ريفية أخرى، مقابل رواتب مغرية لكل عنصر ينتمي إلى هذا التنظيم يصل ما بين 500 إلى ألف دولار شهرياً». وكشف المصدر عن «تورط جمعية إحياء التراث الإسلامي في تمويل جزء من نفقات هذا التغلغل العقائدي والأمني إلى سوريا». وتابع قائلاً إن «جمعية إحياء التراث الإسلامي في الكويت تصرف ملايين الدولارات إلى داخل سوريا لصرف رواتب شهرية لاستقطاب الشباب المتدين، للانضمام إلى التيار السلفي، وتنظيمهم على شكل ميليشيات يمكن الاستفادة منهم في أي مواجهات قد تندلع مع الأجهزة الأمنية، كذلك غطت عمليات التبرع وإرسال الأموال لبناء المساجد لتكون مقارّ لهذا التيار». وأضاف: «إن تحركات جمعية إحياء التراث الإسلامي تجري بالتنسيق مع عناصر أمنيين ودينيين وسلفيين متطرفين في الكويت، أمثال محمد هايف المطيري ووليد الطبطبائي وخالد السلطان وضيف الله بورمية، وهؤلاء لا يزالون يواصلون التحشيد السلفي في الكويت والتحريض على نشر المقالات في الصحافة

الكويتية ودعم قناتي «وصال» و«صفا» في التحريض المذهبي الطائفي ضد النظام السوري والهجوم على الطائفة العلوية». ورد الطبطبائي على اتهامات الموقع السوري، ورأى فيها «محاولة لتصوير الثورة الشعبية السورية على أنها ثورة مذهبية تحظى بدعم التيار السلفي الكويتي مالياً». وأكد أن الموقف الكويتي الداعم للثورة السورية والثورات العربية في كل من اليمن ومصر وتونس وليبيا هو موقف شعبي يعبر عن جميع التيارات السياسية الكويتية، وليس دعماً محصوراً في التيار السلفي.

قد يكون نفي الطبطائي صحيحاً، وقد لا يكون، وكان الأمر يحتاج من السلطات السورية نفسها أن تقدم رواية متماسكة في هذا الصدد، وخصوصاً أنها أعلنت مصادرة أسلحة وأموال، واعتقلت أشخاصاً اتهمتهم بالضلوع في استخدام السلاح ضد الجيش وقوات الأمن والمواطنين، وقالت في أكثر من مرة إن هدف هؤلاء هو إقامة إمارة إسلامية، مرة في درعا، وأخرى في بانياس. وما يضعف من الرواية الرسمية أنها ليست على مستوى خطورة المشروع الذي تتحدث عنه، فضلاً عن كل المعلومات التي تؤكد أن الأجهزة السورية ليست غافلة عن تحركات التيار السلفي منذ عدة سنوات، بل إن التقديرات كانت تشير إلى أن النظام كان سيقوم بخطة استباقية لاعتقال هذه الجماعات لكي لا تركب الموجة الاحتجاجية وتقوم بأعمال تخريب. ولأن هذا الأمر لم يحصل، فإنه يطرح أسئلة ويثير الشكوك من حول محاولة بعض الأجهزة توظيف ورقة الحركة السلفية. لكن هذا التوظيف يصبح سلاحاً ذا حدين؛ فالحركة السلفية قد تستغل الفوضى وتعمل لحسابها. لكن في جميع الأحوال هناك معلومات شبه رسمية يجري تداولها في أوساط إعلامية قريبة من سوريا، تفيد بأن دمشق ستذيع قريباً الرواية الكاملة لتورط القوى السلفية في الأحداث، وستسمي شخصيات كويتية وسعودية. وهنا تحضر مفارقة هامة، وهي تتمثل في رد فعل الحركة السلفية في السعودية على اتهام النظام السوري للسلفية. وبرزت أصوات تدافع وتشرح طبيعة الحركة السلفية في السعودية، التي تعد نفسها ممثلة للإسلام حسب أصول السلف. ومن المعروف أن الحركة الوهابية، صاحبة الكلمة الأولى في السعودية، هي الحاضنة الفعلية لتنظيم القاعدة، ورفض شيوخها الكبار إصدار فتاوى تدين الأعمال التي قام بها التنظيم.

بعد مواجهات النظام السوري مع الإخوان المسلمين، والنهاية المأساوية في حماة سنة 1982، أصبحت الأنشطة الإسلامية المعارضة للنظام نادرة، لكن أعداداً كبيرة من المتدينين ظلت ترتاد الجوامع، وهناك من يشارك في حلقات قراءة القرآن، ويرتدون ألبسة متواضعة. كذلك إن أعداداً كبيرة من النساء بدأن بارتداء الحجاب، ونشأت ظاهرة القبيسيات كحركة دينية نسوية وانتشرت بسرعة، ولم يتنبه النظام لخطرها إلا في السنوات الأخيرة. وقد فسر كثير من البحاثة الغربيين في الشؤون السورية أن هذه الطقوس والمظاهر هي محاولة للنأي عن النظام، وربما معارضة له. أما تساهل النظام مع هذه المظاهر فهو يعود إلى سببين: الأول أن هذه الممارسات لا توحي بتهديد سياسي ما دامت في إطار الطقوس. والثاني أنه كان يريد من ذلك امتصاص تأثير الإخوان المسلمين وتجفيف منابع تسييس الإسلام.

المسلحون، صار التعبير يتردد كثيراً في الإعلام السوري، وحل محل العصابات والمندسين والسلفيين، وتجاوز الرواية الرسمية إلى أوساط سياسية وإعلامية أجنبية، كالولايات المتحدة وروسيا. لكن لا أحد يحدد هوية هؤلاء. ليسوا من السلفية ولا من العصابات. لكن الرواية التي تسعى المعارضة إلى ترويجها تقول إنهم عناصر منشقون عن الجيش، وهو ما رأى البعض أنه يفسر تأخر الجيش في اقتحام جسر الشغور. وفيما تفيد الرواية الرسمية بأن التأخير هو للإفساح أمام الأهالي للخروج من المنطقة لتلافي إيقاع ضحايا بين المدنيين، تقول أوساط إعلامية من الجانب التركي إن التأخير حصل نتيجة تحصن أعداد كبيرة من المسلحين، انسحبوا بعد ذلك إلى جبل الزاوية الذي تشير التقديرات إلى أنه سيشهد معركة قريباً. ولا يمكن فصل ذلك عن الخطة التي يعمل بمقتضاها الحل الأمني لتأمين المنافذ الحدودية مع بلدان الجوار، فبعد الأردن ولبنان وتركيا، جاء دور العراق، حيث نُقلت قوات عسكرية إلى دير الزور ومنطقة البوكمال.

شاعر من سوريا مقيم في الإمارات

«الطبيب» بشار الأسد ومجزرة الأطبّاء الثانية في مدينة حلب

بكر صدقي

يذكر مصطفى خليفة في روايته «القوقعة» قصة مجزرة الأطباء الأولى، وهي من القصص الكثيرة المستمدة من أحداث حقيقية جرت في سجن تدمر الصحراوي الذي تدور وقائع الرواية فيه. والقصة باختصار هي أن ضابطاً في الشرطة العسكرية المكلفة بإدارة السجن العسكري الرهيب قام بقتل عدد من الأطباء على التوالي من بين المعتقلين السياسيين المحبوسين هناك. لماذا الأطباء بالذات؟ لغز محير حقاً سرعان ما سينكشف عن حقيقة رهيبة لا يتصورها عقل إنسان مهما بلغ به الإجرام.

الضابط القاتل هو طبيب أيضاً، درس في كلية الطب في جامعة حلب قادماً من إحدى القرى الجبلية في الساحل السوري. وقع في غرام زميلة له من مدينة حلب، ابنة عائلة مدينية ميسورة. تقدم إلى أهلها يطلبها للزواج، فرفضوه رفضاً قاطعاً. وانكفأ الطبيب الشاب على جرحه العاطفي الغائر إلى أن واتته الفرصة للانتقام، حين التحق بعد انتهاء دراسته الجامعية بالخدمة العسكرية، وتم فرزه في الشرطة العسكرية وفي سجن تدمر.

هناك التقى ببعض زملائه في الكلية من معتقلي تمرد العام 1980، فاستعاد ذكريات خيبته العاطفية المرة. بقتله لزملائه الأطباء أراد أن يخفي عاره بإعدام كل الشهود، والانتقام من المدينة التي أذلت ابن الريف وأصابت كرامته في مقتل.

لعل قصة هذا الطبيب الشاب تلخص، بصورة مجازية، كل العقد الدفينة التي شاء القدر أن تقلب مصير سوريا والسوريين منذ الستينات إلى اليوم. الانقلاب العسكري في 8 آذار 1963 الذي قلب الموازين الاجتماعية لصالح الريف المهمش، سيتحول إلى استبدال طبقي ذي آثار كارثية على مستقبل الكيان السوري، في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والثقافة جميعاً. ومنذ الانقلاب التالي في شباط 1966، سيبرز المكون العلوي في الريف السوري بوصفه منبت حكام سوريا الجدد. ثم يأتي انقلاب حافظ الأسد على رفاقه في تشرين الثاني 1970، الذي سيحول البلاد إلى مملكة سلالية لعائلته.

عقدة النقص الريفية المألوفة تجاه المدينة، ستخلي الساحة لعقدة التهميش العلوية المحضة بسردياته المذهبية عن اضطهاد يمتد عميقاً في التاريخ الإسلامي إزاء دين الدولة الإسلامية السني.

حافظ الأسد المتحدر من عائلة علوية متواضعة، سيمسك بزمام سلطةٍ لم يؤمن يوماً بأنه يستحقها. فهو الذي اختار السلك العسكري مهنةً له، في مرحلة تاريخية مؤاتية وفي بلد كانت الانقلابات العسكرية هي الطريقة الوحيدة لتداول السلطة فيه، أدرك أن القوة والمكر وحدهما وسيلتا الصعود الطبقي والسؤدد. أمسك بزمام الأمور بعدما زج برفاقه البعثيين في السجن، وطهر الجيش من أي طموحات مستقبلية. وحين كاد يشعر، بعد سنوات عشر في الرئاسة، بأن الأمور استتبت له تماماً، فاجأته موجة اضطرابات غير متوقعة. قامت مجموعات إسلامية مسلحة في إطار «الطليعة المقاتلة للإخوان المسلمين» بتمرد مسلح على حكمه، مدعوم بإضراب التجار في حلب وحماة وأدلب، وبحركة احتجاجات طلابية في جامعة حلب، وبمظاهرات شعبية في بعض أحيائها، وبحركة نقابية نشطة مناهضة لحكمه، خصوصاً نقابات الأطباء والمحامين والمهندسين. يمكن القول إن حافظ الأسد واجه ثورة محدودة، فيها مزيج من السلمية والسلاح، والإسلام السياسي والمجتمع المدني. وتمكن من سحق التمرد بعنف شديد بلغت تكاليفه عشرات آلاف القتلى ومثلهم من المعتقلين والمفقودين والفارين خارج البلاد.

لم يقض الأسد فقط على المجموعات الإسلامية المسلحة، بل كذلك على كل الحركة السياسية المعارضة من إسلاميين وإشتراكيين وقوميين. كما قضى على الحركة النقابية وعلى المجتمع المدني بصورة عامة.

أفاقت مدينة حلب في صباح يوم الأحد 24 حزيران 2012 على مجزرة رهيبة ضحيتها أطباء ومسعفون كانوا قد كرسوا نشاطهم، منذ بداية الثورة السورية، لإسعاف الجرحى في التظاهرات السلمية. سبع جثث متفحمة في سيارة إحدى الضحايا، أربع أطباء وطالبا طب وطالب أدب إنكليزي تفرغ لإسعاف الجرحى مع صديقيه.

هي مجزرة الأطباء الثانية، وبطلها طبيب أيضاً يحمل من العقد النفسية ما يتجاوز هذه المرة دونية ابن الريف إزاء أهل المدينة. نشأ بشار الأسد في رعاية أب قاسٍ متكتم متشكك في كل ما حوله. لم يكن حافظ ديكتاتوراً في الحكم فقط، بل كذلك داخل عائلته، فلم يرحم شقيقه الأصغر رفعت حين حلم بوراثة الحكم منه إبان مرضه في العام 1984، فطرده خارج البلاد ولم يسمح له بالعودة بعد ذلك برغم جميع الوساطات. أضف إلى ذلك حضور أخ بشار الأكبر باسل الذي طغى على حضوره تماماً. يروي زملاء لبشار في مدرسة اللاييك بدمشق أنه كان منطوياً على نفسه، يبتعد عن زملائه لأنه غير قادر على مجاراتهم في المرح واللعب، مقابل الشخصية القوية لأخيه الأكبر باسل الذي تمتع بكل مزايا الابن البكر ذي الحظوة عند الأب.

من المحتمل أن حافظ الأسد لم يكن يخالط أولاده كثيراً بسبب انشغاله بعمله طوال الوقت. لم يملك الدكتاتور ترف الاعتماد على المستشارين والمساعدين والحاشية. كان عليه أن يتابع جميع الملفات بنفسه، فهو الوحيد الذي يملك اتخاذ القرارات في جميع الأمور، ولا ثقة له بأحد. فإذا حظى بلحظات من الراحة فمن المحتمل أنه كان يخص بها ابنه البكر الذي حلم بتوريثه، تاركاً أولاده الآخرين لرعاية أمهم. هناك شهادات متواترة عن سطوة الأم على بشار إلى اليوم.

بشار الذي اضطرالى قطع دراسته في لندن لطب العيون بقرار من أبيه، ونشأ في رعاية أمه وفي الظل الساحق لأخيه الأكبر باسل، سيجد نفسه فجأةً في الموقع الأول في السلطة، يستطيع نظرياً أن يفعل أي شيء بلا رقابة أو محاسبة. تماماً كما الطبيب الضابط في الشرطة العسكرية الذي وجد نفسه في سجن تدمر الرهيب، يملك كامل الصلاحيات لقتل أي سجين سياسي، فقتل بدم بارد وبخِسَّة جميع زملائه في كلية الطب بجامعة حلب، ممن كانوا شهوداً على عاره العاطفي والطبقي.

أليس السوريون جميعاً شهوداً على وراثة ما لا يورَّث لمن ليس أهلاً لشيء؟

الاحد 8 تموز 2012

كاتب من سوريا

حول الثورة السورية

■

بدر الدين عرودكي

لا يمكن تصوّر المستقبل إلا انطلاقاً مما وبناء على ما عاشه السوريون خلال نيف وخمسين عاماً، وخصوصاً اعتباراً من المعاني التي حفلت بها خلاصة ثورتهم طوال الأشهر السبعة عشر الماضية وحتى اللحظة التي سيقطفون فيها ثمرة تضحياتهم الأولى: إسقاط النظام.

منذ أن انطلقت الثورة في 15 آذار/مارس 2011 تطالب بالكرامة وبالحرية ثم بإسقاط النظام، دخلت على خطها، تحت تأثير خيار النظام في الحل الأمني، قوىً عديدة لكل منها غاياته ومطامحه التي لا تلتقي بالضرورة وبعضها لا يلتقي على الإطلاق مع الغايات التي دفعت ملايين السوريين من أجل تحقيقها، ولا تزال تدفع، ثمناً غالياً تمثل في مواجهة السجون والتعذيب والقتل اليومي شبه المنهجي فضلاً عن التهجير في الداخل وإلى البلدان المجاورة شمالاً وغرباً وجنوباً، ومواجهة تدمير وتفريغ منظمَيْن لعدد كبير من المدن.

ستحاول هذه القوى أن تؤثر على تكوين ورسم هذا المستقبل. لا أحد يجرؤ اليوم على القول صراحة بتقسيم سورية، لكن الحديث عن إعادة رسم خريطة المنطقة أو إعادة النظر بمخطط سايكس بيكو يتردد على ألسنة البعض بين الفينة والأخرى، ولن يكون مخطط دويلات تقوم على أساس طائفي أو عرقي بعيداً عما تعمل عليه إسرائيل بصورة حثيثة مباشرة أو عبر بعض القوى الوسيطة.

منذ بداية الثورة التي بدأت سلمية محضة باعتراف الجميع بما في ذلك النظام، كان معظم هذه القوى يسكت عن اختيار النظام الحلّ الأمني الذي تقرر منذ اليوم الأول أو يحاول الحدّ من حدّته مع الموافقة الضمنية على استمراره. ولم يكن هدف ذلك إنهاك النظام وتدميره من الداخل حتى يفقد عناصر مقاومته كلها فحسب، بل جعل مهمة ورثته الأولى إعادة بناء ما تهدم خلال عشرات السنين..

بمعزل عن أيِّ تفكير رغبي أو تبسيطي، يستحيل على الذين دفعوا دماءهم والذين فقدوا أطفالهم أن يستسلموا وقد أسقطوا النظام إلى مخططات أو رغبات القوى التي حاولت أن تكون طرفاً فاعلاً بهذا القدر أو ذاك وإلى ما ستعمل يقيناً على تحقيقه من غايات. منذ الأيام الأولى للثورة، وبصورة لا لبس فيها، عبَّر الشارع السوري عما يتطلع إليه: «الشعب السوري ما بينذلّ»، «الشعب السوري واحد، واحد، واحد». وبما أنَّ السوريين، عبر تاريخهم الطويل، قد عرفوا أرقى ضروب التعايش، وكان بلدهم موئل وملاذ شعوب عانت الويلات ولجأت إليه وعاشت في كنفه، فقد عبّروا أيضاً وبمختلف الوسائل عما يريدون: يريد السوريون بناء دولة مدنية، حديثة، ديمقراطية. يريد السوريون دولة تحترم تعدديتهم، وأديانهم، وحرياتهم. دولة المواطن لا دولة الرعايا. يريد السوريون ببساطة
أن يستعيدوا ما حرموا منه خلال نيف وخمسين عاماً.

لهذا، يستحيل عليّ أن أتصور، ونحن نشهد ما يفعلونه منذ سبعة عشر
شهراً، أن يتراجع السوريون أو أن يَهِنوا قبل إنجاز هذه الأهداف.

•كاتب سوري مقيم في فرنسا

دروس من التاريخ الوطني لمسيحيي سورية والمشرق

جريس الهامس

إلى دعاة التخاذل والتبعية لنظام القتلة واللصوص الأسدي سواء كانوا من رجال الدين المسيحي , أو من المدنيينوالعسكريين المتواطئين مع أجهزة الإستبداد والقمع والنهب .. أو من شراذم أحزابجبهة شهود الزور المرتزقة التابعة لمخابرات النظام وحزبه القائد.

وإلى البسطاء من أبناء شعبنا المخدوعين بأكاذيبهم الطائفية التي زرعها النظام الأسدي ضد ثورتنا السورية الوطنية والديمقراطية التي حطمت جدران الإستبداد والخوف والطائفية التي بناها النظام طيلة 40 عاماً .. ووحدت النضال الوطني لبناء سورية البرلمانية الديمقراطية الحرة .-- رغمكل محاولات الإسلام السياسي المتمثل في الإخوان المسلمين والمتحالفين معهم مهماكان إسمهم وعنوانهم -- محاولات تجيير الثورة لحسابهم وحساب أسيادهم ومموليهم التيباءت كلها بالفشل، ورغم مسرحية الجامعة العربية ومراقبيها المعروفة المراميوالنتائج ,, بقيت ثورتنا كالعنقاء شامخة تكتب بدماء شهدائنا ملحمة الحرية والوحدة الوطنية الديمقراطية السورية..بل تكتب دستورنا الجمهوري البرلماني العلماني المنشود ... وتنتقل من نصر إلى نصربسواعد وهمّة شبابنا وشعبنا التي لاتساوم على الكرامة ولا تلين أمام العواصف، هازئة بالأعداء أولاً ومشفقة على الجبناءوالإنتهازيين ومثقفي الأبراج العاجية تجار المعارضة ثانياً..

إلى كل هؤلاء أتابع محطات من دور المسيحيين الشرقيين في إستعادة عروبتنا وإستقلالنا الوطني من فم التمساح التركي الذي اغتصب بلادنا مع سابقه المملوكي خمسة قرون متواصلة تحت كابوس همجي رهيب صحّرأرضنا وجبالنا الخضراء, كما صحّر عقول الناس وساق الملايين من شبابنا جنوداًليموتوا في جبهات غزوه للعالم القديم حتى وصل إلى أبواب فيينا شمالاً وإلى القرن الأفريقي جنوباً ؟

وكان للمسيحيين الشرقيين شرف التمردعلى الإستبداد التركي والفرار من الجندية العنصرية الهمجية .. رغم عقوبة الإعدام التي كانت تنتظرهم إذا وقعوا بأيدي الأتراك الوحوش وأذكر على سبيل المثال لا الحصر: إعدام الشابين الشجاعين - بركات أبوسكة - ومحمد ياسمينة , لفرارهما من الجنديةفي ساحة قرية صيدنايا الصغيرة عام 1914 أمام أهلهم وذويهم ..

وقاد رجال الفكروالدين المسيحي حملةالحفاظ على اللغة العربية وآدابها ضد سياسة التتريك العنصرية الشوفينية الوحشيةالتي هيمنت ومازالت تهيمن على العقل السياسي التركي المغولي الأصل الذي أحتل حضارةالإمبرطورية الأولى في العالم وحولها لخدمة هذه العنصرية ,,فهم الذية يضطهدونالشعب الكردي في الشرق والشعب العربي في لواء اسكندرون وكيليكيا المحتلين ويسلبونمن الشعبين أبسط الحقوق القومية والإنسانية والثقافية ..

وصان المسيحيون المشرقيون اللغة العربية وتراثها في الكهوف والأديرة كما حملوا إلى حلب أول مطبعة باللغة العربيةفي أوائل القرن الثامن عشر وكان لكتابات : الشيخ بطرس البستاني وقاموسه الشامل (محيط المحيط) وإبراهيم اليازجي ورائعته (مجاني الأدب - وقواعد اللغة العربية) وفارس الشدياق , وجرجي زيدان ...وماري عجمي أديبة سورية الكبيرة .. وغيرهم الكثير أطيب الأثر ضد سياسة التتريك العنصرية ..

وكان لهم القدح المعلاّ والراية, والريادة فيعقد المؤتمر السوري الوطني الأول في باريس عام 1915 الذي وضع اللبنات الأولى للتحرر من الإحتلال التركي وكان في طليعة المؤتمرين شهداء السادس من أيار 1916الذين أعدموا بعد محاكمة صورية

في عالية بلبنان أشرف عليها جمال السفاح والسفاحينأنور ونيازي وهم جميعاً أعضاء في المحفل الماسوني في سالونيك.. وتقاسم المسلمون والمسيحيون الإستشهاد على أعواد المشانق مناصفة تقريباً في ساحة المرجة بدمشقوساحة الشهداء في بيروت ...كما إشتركوا في تأسيس أول الجمعيات العربية المناديةبالإستقلال في العهد العثماني كا لجمعية العربية - وجمعيات العهد - والقحطانية - واللامركزية وغيرها ..

وبعد تحرير سورية والوطن العربي من الإحتلال التركي عام 1918 تطوع الشبان المسيحيون في جيش يوسف العظمة (جيش الشريفكما كان يسمى) كما رأينا في الحلقة السابقة . كما ساهم المسيحيون المشرقيون فيبرلمان الإستقلال الأول في مملكة فيصل الذي أطلق عليه إسم (المؤتمر السوري) كما اشتركوا في بناء أول حزب سياسي سوري عام 1920 هو (حزب الشعب) الذي أسسه الدكتور الشهبندر وفوزي الغزي وفارس الخوري وحبيب كحالة وعطا الجابري وفخري البارودي وغيرهم والذي تحول فيما بعد إلى الكتلة الوطنية مع هنانو, والأطرش, والقطامي , والبكري, والقوتلي, والعسلي والرّيس والحفار وغيرهم وأسقط المسيحيون الشرقيون كل مزاعم المستعمرين الفرنسيين بأنهم إحتلوا سورية لحماية المسيحيين في سورية ولبنان ..

في الثورة السورية الكبرى : 1925

كان قا ئد الثورة سلطان الأطرش أمياً تقريباً لذلك كان القائد المسيحي المشرقي إبن جبل العرب (عقلة القطامي) ساعده الأيمن .. وهو الذي كتب بيان الثورة السورية الأول, وهو الذي كتب الرسائل بين ثورة جبل العرب وزعماء الثورة في دمشق ..ثم انتخب نائباً في البرلمان السوري لعدة دورات ..

وفي دمشق رفض البطريرك المشرقي المستقيم الرأي --غريغوريوس حداد -- أي لقاء مع قادة الإحتلال الفرنسي واقتدى بهكل من فارس الخوري وحبيب كحالة وعقلة القطامي وغيرهم .. وأثناء الثورة قصفتالمدفعية والطيران الفرنسي أحياء الميدان والشاغور والحريقة بدمشق وقرى المليحةوجرمانا ودوما وغيرها وشردت مئات العائلات من منازلها دون مأوى ..فتح البطريركغريغوريوس جميع كنائس دمشق ودار البطريركية وكاتدرائية البطريركية للعائلات المنكوبة .. وشكل لجنة وطنية للإغاثة مع المفتي العام الشيخ بدر الدين الحسينيوالد الشيخ _ تاج الدين الحسيني - المعروف في تاريخ سورية ..حاول الفرنسيون المحتلون إثارة فتنة طائفية في دمشق وغيرها من المدن السورية لكنهم ردوا علىأعقابهم خائبين أمام وعي اللجنة الوطنية . وطلب المفوض السامي الجنرال ساراي مقابلة البطريرك حداد فرفض مقابلته كما رفض قبله مقابلة الجنرال غورو قائد جيش الغزو - ..واعتكف الإقامة في دير صيدنايا عدة أشهر ..وكان هذا البطريرك الشجاعأديباً كبيراً وشاعراً. وكان المسيحيون المشرقيون في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر طليعة النضال المتعدد الوسائل ضدالإحتلال الفرنسي والبريطاني للمنطقة وضد اغتصاب الصهيونية لفلسطين بحراب بريطانيا والغرب كله , ومادام موضوعنا يتعلق في سورية حصراً أعود لمعارك الإستقلال الوطني التي ساهم فيها الجميع في جبهة واحدة ..وفي لواءاسكندرون السليب قاوم المسيحيون المشرقيون يداً بيد مع مسلمي اللواء : بقيادة المناضلين الوطنيين الكبيرين - الأستاذ المناضل -- صبحي زخور المستقيم الرأي قائدمسيحيي أنطاكية -- وصاحب جريدة العروبة في اللواء -- والأستاذ المناضل - زكي الأرسوزي -- زعيم العلويين والمسلمين في اللواء ومؤسس عصبة العمل القومي .. قاوامواجبهة واحدة,, مؤامرة الإستعمار الفرنسي مع المحتلين الأتراك لتسليم أجمل منطقة في سورية وميناء سورية الطبيعي للمستعمرين الأتراك ..مقابل منح فرانسا إمتيازات ومنافع فيبحر إيجة وجزره ..

وفي العدوان الفرنسي الغاشم على دمشق والهجوم على البرلمان السوري في 29 أيار 1945 كلنت حامية البرلمان من الدركالسوري بقيادة الضابط الأرثوذكسي الحمصي الشهيد (طيب شربل) الذي رفض تحية العلم الفرنسي والإستسلام

وقاتل مع جنوده ببنادقهم البسيطة جنود الفرقة الأجنبية لجيش الشرق الفرنسي حتى نفذت ذخيرتهم واستشهدوا جميعاً باستثناء ثلاثة من الجرحى منهم المرحوم جريس كحلا وزميليه محمد الملا والياس الشلاح، أنقذهم الجيش السابعالبريطاني الذي أخرج القوات الفرنسية من البرلمان ونقل جثث وجرحى حامية البرلمان من الدرك السوري إلى المستشفى, وهكذا كان الشبان موحدين في الفداء دفاعاً عن الوطن ..

أكتفي بهذه الأمثلة دون التطرق لبطولاتهم في جميع معارك وحروب الجيش السوري ضد العدو الصهيوني إلى العدوانالثلاثي على مصر عام56 التي تحتاج لدراسة أخرى ...

وفي عهد البطريرك المشرقي ألكسندر وسطحان : كنت مع زملائي طلاب جامعة دمشق عام 1952 - 53 حتى رحيل الديكتاتور «أديبالشيشكلي » في 25 شباط 54 كنا رأس الحربة في النضال المستمر حتى إسقاطه .

حاول قائد أمن الديكتاتور إبراهيم الحسيني - وعبد الحق شحاذة قائد الشرطة العسكرية تركيعنا دون جدوى وكنا إحدى عشرطالباًجامعياً رفضنا التوقيع أمام الحسيني بتأييد الديكتاتورية من بين مئات الطلاب المعتقلين وأرسلونا إلسجن تدمر ومنه إلة سجن المزة ثم مرة ثانية إلى سجن تدمر ولمنوقع في هذه الأثناء أبلغوا أهلنا بأنهم سيعدموننا إذا لم نوقع لذلك أحضروهم إلسجن المزة لإقناعنا بالتوقيع .. وقد سبق نشري لهذه الوقائع تحت عنوان «»بين ديكتاتورين - أديب الشيشكلي وحافظ الأسد «» المهم بعد فشل كلمحاولات تركيعنا أطلقوا سراحنا بلاقيد أوشرط .. ولكن مايتعلق بموقف البطريركالكسندروس الشجاع هوالتالي : بقي أهلنا خائفين علينا فاجتمعوا في دمشق بتشجيع من الصديقين جورج عويشق وميشيل قوبا - وشكلوا وفدأمن والدي ووالديّ عطالله قوبا , وتوفيق أستور وأباء من حضر من حمص من أهل رفاقنا توفيق الأتاسي ونور الدين الأتاسي وسميح الجمالي وعلاء الرفاعي - وذهبوا برفقة الأستاذ عويشق إلى المريمية لرجاء تدخل البطريرك لإنقاذنا ..استقبلهم بحنان ومودة وبعد شرح القضية ..رفع سماعة الهاتف دون مقدمات قائلاً أعطني العقيد شيشكلي حالاً بعد قليل رن جرس الهاتف - معاكم سيادة العقيد - بعدالسلام قال له حرفياً : ياسيادة العقيد أولادنا طلاب الجامعة عندكم فيسجن تدمر مهددة حياتهم للخطر بدنا يطلعوا فوراً ..طلب الشيشكلي منه أن يزوره رفض البطريرك - أجابه الديكتاتور طيب أنا بتشرف بزيارتكم إعتذر أيضا وقال مرة أخرة أولادنا بدنا يرجعوا لأهلهم وأغلق الهاتف

واستمر رجال الدين المشرقيين محافظينعلى استقلاليتهم الوطنية وجرأتهم وتآخيهم مع إخوانهم السنة المشرقيين أيضاً ...

وبعد الكسندروس طحان جاء البطريرك المشرقي الياس الرابع وكان وطنيا مثقفاً بامتياز وبعد إغتصاب حافظ الأسد للسلطة وتوطيدها على أشلاء ودماء الوطنيين السوريين بفضل الدعم اللامحدود والتعتيم العالمي والعربي لنظامه .. عمد لخنق أية نسمة من نسمات الحرية في سورية ..بعد أنحظر السياسة والفكر والحرية في الجامعات و حوّل الجيش الوطني إلى بوليس طائفي مزود بأحدث الأسلحة لحماية عرشه ومملكته الطائفية .. وحول أكثر من 60% من الموازنةالعامة للجيش الطائفي 33% منها والباقي لفروع المخابرات المنتشرة كالوباء في جميعأنحاء الوطن ولشراء الضمائر والأقلام والمنظمات الرخيصة من المحيط إلى الخليج .. فيهذه الأثناء بعد حل نقاباتنا العلمية التي لم تركع عام 1980 واعتقال وتشريد مناضليها عمد لترويض رجال الدين وتحويلهم إلى حاشيته يسبحون بإسمه ويشيدون ببطولاته ويسجدون له في الجوامع والكنائس وأصبحت خطبة الجمعة وخطبة الأحد توزعها أو توعز بمضمونها أجهزة المخابرات . إلى جانب ذلك إشترى عددا كبيراً من رجال الدين لحساب أجهزة المخابرات والتجسس، رفض البطريرك الياس الرابع التدخل الوقح في شؤون كنيسته وطرد إثنين أو أكثر من الكهنة الذين إنصاعوا لأوامر المخابرات لكن التضييق ازداد وقاحة فماكان من البطريرك سوى رفع شكوى للطاغية حول تدخل المخابرات في حرية العبادة. وفي شؤون الكنيسة الخاصة أرسل الطاغية مندوباً من القصر ليلطف الجو ويطمئن البطريرك بأنه سيعاقب من يتدخل بشؤون الأديان وسين وسوف إلخ ..؟

لم يمض على ذلك أكثر من عدة أشهرحتى توفي البطريرك الياس الرابع فجأة، وأعلن أنه توفي بنوبة قلبية. لكن الأطباء الشرفاء أصدقاء البطريرك تأكدوا باقترابهم من الجثمان أنه مات مسموماً و أصروا على ضرورة تشريح الجثة لكن المخابرات منعتهم فوراً وبقيت محيطة بالجثمان حتى دفنه . تمذلك في حزيران من عام 1981 ...

وبعدها أضحت أجهزة المخابرات والتجسس تشرف على كل شاردة وواردة في الكنائس كلها بما فيها المواعظ وخطب الآحاد...وهي التي فرضت إنتخاب البطاركة الجدد في سورية ولبنان،

لهذا مانراه اليوم من المواقف المخزية لرؤساء رجال الدين إلى جانب الطغاة والمستبدين ضد ثورة الحرية والكرامة والخبزوالسلام المدني ..هو حصيلة خنوعهم لأجهزة القمع والجريمة واللصوصية المستمرة,

إن الشباب المسيحي في سورية الثائرةعلى الإستبداد والديكتاتورية والطائفية والفساد لن يكون إلا في قلب الثورة مع إخوانهم المسلمين يداً بيد في السراء والضرّاء ومعهم كل رجال الدين المسيحي الشبانفي الداخل والمهجر, وباستثناء أسماء مفضوحة لارتباطها بالمخابرات ونظام الترهيب والترغيب والتضليل ,, ولهم من المطران كبوتشي بطل الثورة الفلسطينية, ومن الأب باسيليوس شهيد الثورة السورية في حماة خير قدوة في النضال الواحد لإسقاط نظام القتلة واللصوص الأسدي, وتطهير أرض سورية من آثامه إلى الأبد .. لبناء سورية الجديدة الحرة والديمقراطية لكل السوريين لكل السوريين.

محامي من سوريا

إلى اللقاء في عشاء سوري آخير بحضور يهوذا الاسخريوطي !

جمال سليمان

من الأمور المدهشة خلال الثورة، أو الأزمة، أو الحراك، أو حملة الاحتجاجات في الشارع السوري - كل وفق ما يحب أن يسميها - أن نسبة كبيرة منا نحن السوريين خائنة ومستعدة للتضحية حتى بنفسها وأولادها وبيوتها خدمة للمؤامرة والمشروع الصهيوني. هذا كان مخيباً لنا نحن السوريين الذين كنا نظن أنفسنا - على اختلاف انتماءاتنا الدينية والعرقية و السياسية والفكرية - وطنيين وقوميين ومعنيين بمقاومة المشروع الصهيوني.

والأجيال المعاصرة في تاريخ هذا البلد قدمت قوافل الشهداء وضحت بالعيش الرغيد في سبيل القضية الفلسطينية. وهذا، كما هو معلوم، لم يبدأ مع مجيء البعث إلى السلطة بل من زمن أبعد ، يوم ذهب عز الدين القسام وفوزي القاوقجي وغيرهما كثرٌ من السوريين لنجدة أهلنا في فلسطين، واستمر ذلك إلى يومنا هذا. والشعب السوري يعتبر أن التضحية من أجل المقاومة والدفاع عن الأوطان خطٌّ أحمرُ لا جدال فيه أو عليه. أي أن الشعب السوري لم ينتظر حزباً أو قائداً يسوقه إلى الوطنية ومقاومة المشروع الصهيوني، بل على العكس كانت جماهيرية أي حزب، أو قائد سياسي، قائمة على صدق سعيه و ثباته في هذا المضمار. أي أن السوريين هم الذين اشترطوا في الحاكم مبدأ الإخلاص للمقاومة وليس العكس.

إلا أن وسائل الإعلام شبه الرسمية التي تديرها مجموعة من الشبيحة الدمويين الذين حققوا شهرتهم العالمية في فترة وجيزة في حين عجز باقي السوريين عن الوصول إلى ذلك، بمن فيهم نحن معشر الممثلين، تكشف لنا بلا هوادة حجم الخيانة المتفشي فينا نحن السوريين الذين كان لنا رأي مختلف عن رأي النظام في التعاطي مع انتفاضة الشعب السوري ضد الفساد والاستبداد. ومن الخونة التي كشفتهم هذه الوسائل هو أنا، الذي لم أكن أعرف أنني قد أبيع وطني من أجل حفنة من الدولارات.

هذا الكشف حصل مرتين، مرة عندما اتهمت بأنني في لقاء مع قناة «الجزيرة» قمت باسمي وباسم الفنانين السوريين بشكر القناة على تغطيتها الموضوعية والنزيهة لأخبار الثورة السورية. ووقتها توعدني الوطنيون الأشاوس بأن يستقبلوني عند عودتي إلى الوطن استقبال الخونة، وما أدراكم ما هو استقبال الخونة على يد الشبيحة الوطنيين أصحاب السجلات الجنائية الناصعة والماضي المحترم.

ويومها اكتشف الرجل الشريف النزيه الساهر على تطبيق القانون، محافظ مدينة دمشق، «الذي سيذكر التاريخ أنه كان من نوائب الزمن على هذه المدينة العظيمة»، أن في بيتي مخالفة تستوجب إزالة قسم منه. ثم اتضح في ما بعد أنني لم أشكر «الجزيرة»، و لم أذمها، لأنني ببساطة لم أجرِ فيها أي لقاء مذ كنا نحن وقطر و«الجزيرة» حبايب نتبادل الزيارات و الهدايا. مع احتفاظي طبعاً بحقي أن أجري لقاء مع «الجزيرة» ومع غيرها في حال طلب مني ذلك، وشعوري بأن الأمر مفيد ويخدم قضية بلدي وشعبي التي أخلص لها فقط من دون أي شخص أو حزب أو تجمع سياسي.

عشاء يقلقهم

والكشف الثاني كان قبل أيام، وأيضاً على مواقع التشبيح، حيث انتشر خبر مفاده أن الأستاذ فراس طلاس أقام عشاء تكريمياً على شرفي وشرف الأستاذ عبدالحكيم قطيفان بحضور الإخوان المسلمين ممثلين بالسيد رياض الشقفة و الأستاذ طيفور والأستاذ برهان غليون والسيدة قضماني وباقي أعضاء المجلس الوطني «لم يأت الخبر على حضور السفراء الأميركي والفرنسي والتركي والقطري والبريطاني». ويهوذا أرسل هذا الخبر و نحن مازلنا على طاولة العشاء. و ماهي إلا دقائق حتى انتشر الخبر على أنه اختراق أمني كبير، فيه فضح لحلقة من حلقات المؤامرة على سورية لا سيما أنه - على ذمة يهوذا - كان المجلس الوطني ترك وراءه صراعاته وأزماته ومشاكله المتعلقة بموضوع رئاسته وسافر من أوروبا إلى القاهرة خصيصاً كي يحضر هذا العشاء التكريمي على شرفي أنا العبد الفقير، وشرف صديقي الأستاذ عبدالحكيم قطيفان، وهو في المناسبة لم يأت إلى القاهرة خصيصاً من أجل العشاء بل لاستكمال تصوير دوره في مسلسل «فرقة ناجي عطاالله». وأراد السيد غليون وباقي أعضاء المجلس أن يستغلوا فترة وجودهم معنا كي نتآمر جميعاً ضد بلدنا سورية. وطلب الموقع الإخباري من متابعيه بأن يبقوا على متابعتهم كي يكشف لهم تباعاً حلقات المؤامرة.

عندما قرأت الخبر عدت لأسأل نفسي للمرة الألف: كيف يفكر هؤلاء؟ أي نوع من العقول يحملون داخل جماجمهم؟ ما هي نظرتهم لأنفسهم وهم يطلقون الأكاذيب والأحكام ويعتقدون أن كل سوري سيصدقهم. غير مدركين أن عدد الناس الذين خونوهم أصبح كبيراً جدا إلى درجة يخال المرء معها أن الخيانة تسري في دم معظمنا نحن السوريين.

بادئ ذي بدء، أحب أن أؤكد بأن جزءاً من الخبر صحيح، وهو ليس أول لقاء لي مع الصديق فراس طلاس في القاهرة. وفعلاً تعشينا في مطعم «الكبابجي» «لا أعرف إن كان من أغلى المطاعم في مصر أم لا، وفق رسالة يهوذا»، لكن العشاء تم من دون الحضور المزعوم للمجلس الوطني. وككل السوريين عندما يلتقون، على اختلاف أطيافهم، فقد تحدثنا بالسياسة مطولاً. تمحور حديثنا حول الوضع الراهن والاحتمالات الممكنة، والدور الذي يمكن أياً منا أن يلعبه كي نحافظ على وطننا الجميل سورية بعيداً عن مزيد من الدمار، وعلى مجتمعنا العظيم بعيداً عن مزيد من الاحتقان الطائفي والميل نحو العنف «بت واثقا من أن هذا يعتبر تآمراً من وجهة نظر البعض». تحدثنا عما أنتجه الحل الأمني، وعما آلت إليه عملية العسكرة، وعلى انعكاس ذلك على مستقبل سورية السوري. تحدثنا عن الموقف الدولي واحتمالاته، تحدثنا في كثير من القضايا، وقيل الكثير من الآراء، واستمعنا إلى الدكتور وليد البني وهو عضو سابق في المجلس الوطني، عن تجربة المجلس. أحاديث كثيرة كلها في الشأن السوري، لم يكن الجميع متفقاً بالرأي على بعض التفاصيل، لكن الحديث كان عميقاً، فيه حزن شديد على ما آلت إليه الأمور، وخوف أشد مما قد تؤول إليه في قادم الأيام. والطريف في الأمر أن رسالة يهوذا تقول إن العشاء كان بحضور مبارك من المجلس الوطني في حين كان للمجلس حصة الأسد من النقد القاسي في تلك الجلسة. ولو كان السيد غليون حاضراً لندم على تكلفة السفر وعنائه قاطعاً كل تلك المسافات ليستمع إلى كل هذا النقد المقذع.

لا أقول هذا كي أطمئن الشبيح الإعلامي أو سيده، لأن رضاه أو غضبه غير مهمين بالمعنى الوطني والأخلاقي، ولكنهما بالتأكيد مهمان بالمعنى الأمني، فأنا من السوريين الذين رأوا ويرون إلى أي مدى يمكن غضبهم أن يصل.

وبعيداً من تفاصيل الخبر الغبية بلؤمها. عن أي مؤامرة يتحدثون؟ هل يتحدثون عن مؤامرة الانتقال السلمي نحو دولة مدنية ذات دستور عصري يضمن حرية العمل السياسي، ومبدأ التداول السلمي للسلطة عبر صندوق الانتخابات النزيه والفصل بين السلطات؟ هذه قد تكون بعرف البعض مؤامرة. لكنها بعرف غالبية الشعب السوري مطالب مشروعة تقادم الوعد بالاستجابة لها إلى أن نفد صبر الناس فخرجوا عن صمتهم مطالبين بها، وأنا والمدعوون إلى ذاك العشاء الأخير في الكبابجي يجمعنا التأييد لسلمية المطالب و مشروعيتها. وتأييد معظمنا كان علنياً، ونعتبره موقفاً وطنياً يحقق فيما توقعنا أنه في حال عدم الاستجابة لهذه المطالب المشروعة، وحدوث الصدام نتيجة لذلك، ستكون الفرصة متاحة أمام

المؤامرة لأن تجد لها مكاناً وحيزاً. واحتراماً للدقة ولرأي الآخرين أستطيع أن أتحدث عن نفسي وأقول: هذا كان رأيي منذ البداية وما زلت متمسكاً به. ليس من باب العناد، بل لأنه لم يحدث ما يجعلني أغيره، بل على العكس أثبتت كل المجريات صوابه.

أين هي المؤامرة؟

أكثر من ذلك، القاصي والداني ممن اطلع على التاريخ المعاصر لمنطقتنا يعرف بوجود مؤامرة على سورية. لكني أختلف مع مؤمنين آخرين بها، بأن هذه المؤامرة ليست أمراً جديداً، بل قديمة جديدة ومتجددة في ظل الصراع الدولي على المنطقة منذ برزت فكرة قيام دولة إسرائيل. أي أن سايكس بيكو هي فصل رئيس من فصولها، واستمرت خيوطها ومتابعتها وتطويرها و تحديثها حتى يومنا هذا. وستستمر مهما كانت نتائج ما يجري اليوم في سورية. وأنا من المؤمنين أيضاً بأننا في كثير من المراحل كنا خير معين لهذه المؤامرة على أنفسنا. من هذا المنطلق اعتبرت أن التعاطي الأمني مع حراك الشارع السوري وانعدام أفق الحوار الجدي الذي ينتج مشروعاً سياسياً يقود نحو التغيير الديموقراطي، أعان المتآمرين على احتلال مواقع لهم في هذا الحراك وجعل الحابل يختلط بالنابل، وتبرز إلى السطح قوى مسلحة ذات ارتباطات وأجندات مختلفة تنشر القتل والتفجير في أحياء سورية، كانت يوماً آمنة يلعب أولادها في شوارعها بطمأنينة. ولعل السيد كوفي أنان كان يشير إليها عندما ذكر الطرف الثالث وأكد كلامه السفير السوري في موسكو.

تدويل القضية

من ناحية أخرى، تحولت القضية السورية إلى قضية دولية. ومن دون أن نكذب على أنفسنا، موالين ومعارضين، كلنا اليوم لا نرهف السمع لبعضنا بعضاً بمقدار ما نرهف السمع لما سيقول وزراء خارجية الدول الكبرى. و كلنا نعقد جلسات مسائية لتفسير الإشارات الضمنية لكلامهم، ونستخدم قواميس التحليل اللغوي كي نستشف المقاصد الكامنة وراء كلماتهم. هذا ما صنعناه بأيدينا. أو أنه فخ ركضنا نحوه بعناد شديد. والسلطة هي صاحبة النصيب الأكبر في ذلك لأنها أرادت أن لا تستمع إلى الصوت الوطني الصادق، و لأنها قبلت للمشكلة أن تسير أمامها بدلاً من أن تسبقها بخطوات بما يتيح الفرز في شكل واضح بين المؤامرة وبين الاستحقاق التاريخي الوطني وهو أن سورية لم يعد في إمكانها أن تستمر كما كانت عليه، وأن من حق الشعب السوري أن يطالب بنظام سياسي يضمن له سيادة فعلية على مصيره، لا سيادة لفظية لا نتذكرها إلا في المهرجانات الخطابية.

هذا النوع من الأكاذيب أصبح سماً يومياً. الغاية منه إذكاء نار الفتنة و الكراهية، وخدمة جلية من خدمات كثيرة يروجها ناشرو هكذا أخبار للمؤامرة التي يكثرون الحديث عنها. لكن السوريين، موالين ومعارضين، يعرفون أن هذه المواقع لا تتصرف هكذا عفو الخاطر، أو أنهم زمرة من المتعصبين في حبهم قيادتهم ما أعماهم عن رؤية بعض الحقائق. وأن ممارساتهم هي ممارسات فردية تعكس وجهة نظرهم وحدهم، وأن النظام غير مسؤول عنها أو معني بها. هذا غير صحيح، فهذه المواقع تكتب وتتحرك وفق إدارة وتوجيهات أمنية صارمة ودقيقة من أجل تحقيق غاية واحدة، هي تضليل الشارع السوري وإقناعه بأنه لا يوجد في سورية شرفاء، إلا أولئك الذين يصفقون للنظام ويهتفون له. وأن كل من يعارضه - حتى وإن كان أعزل و لطيفاً بلغته ومسلكه ولا يتقاضى فلوساً من الخارج حتى و لو كانت من قريب مقتدر أحب أن يقدم مساعدة إنسانية - هو خائن. و ما معارضته إلا جزء من مؤامرة كبرى تستهدف الوطن قبل النظام.

إنها إذاً، حرب قذرة على الرأي الآخر وعلى الفكر الوطني الذي يجتهد ليقدم أفكاراً من أجل خلاص سورية من أجل مستقبل السوريين، حرب قذرة بأدوات اخترعها النظام ورجال أعماله الأقرباء والمقربون كي يسدوا عجز الإعلام الرسمي عن الاستخدام المفرط للعنف اللفظي، والبذاءة والشتائم، وعدم الالتزام بتقديم أي برهان أو بينة عن أي خبر أو اتهام،

والإيهام بأن هذا هو لسان حال الشعب السوري الذي إذا ثارت حميته الوطنية يعبر عنها بلغة التخوين والشتائم والتحقير، وفي أحيان كثيرة، بالتهديد والوعيد. والغاية في النهاية أنه لا توجد معارضة شريفة وأن كل ما يجري مؤامرة وخيانة. وأنه لا بد من اعتقال الخونة وتعذيبهم ونفيهم أوقتلهم إذا لزم الأمر.

لكن المفارقة أن واقعة عشائنا الأخير هذا تزامنت مع آخر ما سمعنا من السيد بشار الجعفري سفير سورية في الأمم المتحدة، في الجلسة الأخيرة لمجلس الأمن، من أن سورية «يقصد النظام» تفتح أبوابها للمعارضة الشريفة و الوطنية وهي جاهزة للحوار. والسوريون الذين أدمى قلوبهم ما يجري في وطنهم يقولون برجاء ولهفة: يا ليت، ماذا تنتظرون؟ يصرخون بملء جوارحهم: ابدأوا فوراً قبل أن تأتي النيران على ما تبقى من أمان، وأمل، وسلام اجتماعي. لكن - مع الأسف - كلام السيد الجعفري سوريالي إلى حد ما. لأنه، وفق الإعلام السوري الرسمي وشبه الرسمي هذا الحوار غير ممكن. لماذا؟ لأنه، ببساطة ووفق ما يفهم من كلامهم، لا توجد معارضة وطنية وشريفة في سورية. وفكرة المعارضة في حد ذاتها تنطوي، من وجهة نظرهم، على الخيانة، والعمالة. حتى المعارضة التي اعتبرتها المعارضة الأكثر تشدداً عميلة للنظام ومن صنعه - تعرضت لشتى أنواع الحصار والعقاب، وتعرض أعضاؤها إلى حملات التخوين وتشويه السمعة والتهديد والاعتقال. هل نذكر أسماء المعارضين الرافضين التدخل الخارجي، والنابذين الطائفية، والمنددين بالتسليح والعنف، الذين اعتقلوا ورهبوا و جرى تقييد حريتهم، وأحياناً قتلوا بسلاح مجهول الهوية، على رغم قبولهم وقبول النظام بمبادرة أنان؟ لا داعي، لأن الأمور أصبحت معروفة ومتداولة. حتى هؤلاء الشباب الرائعين الذين وقفوا بلافتاتهم البسيطة التي كتب عليها شعار في غاية البراءة والوطنية «أوقفوا القتل كي نبني وطناً» تم اعتقالهم والتحقيق معهم وترهيبهم. هل من الوطنية أن يختلف أحد على هكذا شعار؟ لقد اختلف عليه النظام الأمني. وكم أتمنى لو أسمع رأي السيد الجعفري في ذلك لأعرف عن أي معارضة وأي أبواب يتحدث.

أما آن لنا أن نتوقف عن استهبال العالم ونتحدث بصراحة، ونقول إن كل من لا يعجبه الشكل الحالي للنظام السياسي هو خائن للوطن، وإنه جزء من المؤامرة عليه، وإنه من الوضاعة بحيث يبيع ذمته وشرفه من أجل حفنة من الدولارات. وبالتالي لا نقبل بأي حال من الأحوال حواراً يفضي إلى نظام ديموقراطي حقيقي يضمن التداول السلمي للسلطة والفصل بين المؤسسات. لذلك، نرفض فكرة وجود معارضة تعارض النظام على فساده واستبداده. ثم ما هو تعريف المعارضة الشريفة إذا كانت كل المعارضات الموجودة في الداخل والخارج - على كثرتها للأسف - غير شريفة وفق معايير النظام وآلته الإعلامية؟

أظن أن المعارضة الشريفة في عرف بعض السادة هي المعارضة التي تقبل العيش على الوعود وحسن النوايا التي جربها الشعب السوري طويلاً حتى كرهها وانصرف عنها إلى اللارجعة، وبالتالي لا يهم إن قبلتها المعارضة أم لم تقبلها.

بقي شيء واحد هو أنني أشعر بالخزي والعار للحالة المتكررة التي وصلنا إليها كسوريين في تفسير سلوك بعضنا بعضاً، لطريقة الحكم على بعضنا بعضاً، كأن يقال لأمثالنا إننا نجتمع مع رموز المشروع الصهيوني. أناشدكم أن تتوقفوا عن ذلك. أن تتوقفوا أنتم عن خدمة المشروع الصهيوني. لأنكم بهكذا لغة وهكذا استخدام «في الطالعة والنازلة كلما فتح مخلوق فمه وقال كلمة لا تعجبكم» حوّلتم المصطلح من حقيقة عنصرية معتدية إلى كذبة تثير الاستهزاء. لن أتهمكم بتعمد ذلك خدمة للمشروع الصهيوني نفسه، ولكني سأقنع نفسي بأنها غلطة غير مقصودة. وإلى يأتينا تعريف دقيق ونهائي للمعارضة الشريفة، ولائحة بمن يجوز العشاء معهم ومن لا يجوز، إلى اللقاء مع عشاء آخر قد لا يكون في «الكبابجي»، لكنه لن يفوت يهوذا. وعاشت سورية حرة لكل السوريين.

فنان من سوريا

حمص الشهيدة: القناصون، كما في سراييفو، يطلقون النار على مواكب المشيعين

خوان غويتيسولو

كما في سراييفو، يعانون من القصف اليومي لمدفعية وقذائف هاون الجيش وطلقات القناصة. كما في الشيشان، ينبغي عليهم إخفاء الجرحى في ملاجئ مُرتَجَلة أو في أقبية بدون أية مواد طبية جرّاء الخوف من تعرض هؤلاء الجرحى والقائمين على رعايتهم إلى الاعتقال والاختفاء في مراكز التصفية المريعة.

أتكلم على سكان حِمص، الذين نقرأ عنهم يوماً بعد آخر في الصحافة، أو نشاهدهم على الانترنت أو على شاشات التلفزة بفضل بطولة بعض المراسلين الذين يغامرون بحياتهم في كل لحظة في هذه المدينة المحاصرة من قِبَل قوات بشار الأسد وأفراد الميليشيات الذين بإمرته، بدون أن يتوصل المجتمع الدولي إلى توفير الوسائل اللازمة من أجل وضع حد لهكذا عذاب.

بخلاف ما حصل في المدينة الجارة حماة قبل ثلاثين عاماً بالضبط عندما قُتِل أكثر من عشرين ألفا من أبنائها على يدي حافظ الأسد، والد الديكتاتور الحالي، وتم إخفاء الأمر بشكل حريص من قبل أجهزة رقابته الحديدية وبالكاد وصلت أخبارها - إذا كان الإعلام يشكل سلطة رابعة فإن عدم وجوده يعني وجود سلطة أكبر بشكل غير متناه - فإن صور الهواتف المتحركة والشبكات الاجتماعية وكذلك شجاعة أولئك الذين يخاطرون بالتحدث بصراحة للإبلاغ عن الوحشية التي تنكِّل بها السلطة السورية بمواطنيها هي تحت مرأى مئات ملايين المشاهدين والقراء ومستخدمي الانترنت في العالم كله.

لكن رغم ذلك، تستمر المذبحة: في كل يوم يتم تزويدنا بصور جديدة مروعة. جثث مضرَّجة بالدماء يتعذر دفنها بكرامة، ذلك أن القناصين، كما في سراييفو، يطلقون النار على مواكب المشيعين. أجسام، انتزَعتْ منها قنبلة يدوية أو انفجار قذيفة قدماً أو ذراعاً، ممددة على الأرض بدون أي عون طبي. عيادات خالية من الوسائل الأساسية لتقديم الإسعافات الأولية. لا أحد يستطيع توفير الأوكسيجين، التخدير، والأدوات الجراحية. جيش بشار الأسد وأتباعه موجودون هناك للحيلولة دون ذلك: يستهدفون أية مركبة تنقل الجرحى. أما المستشفيات الخاضعة لسيطرتهم فقد أصبحت الآن مراكز للاستجواب!

- حيث الضحايا والمعتنون بهم يمكن أن يتم إرسالهم إلى السجون السرية للنظام، أو، بعد أن يصبحوا جثثاً بالفعل، يتم تقديمهم على أنهم عملاء متسللون من الخارج يعملون في خدمة مؤامرة مبهمة.

لا يهم كثيراً أن يعبِّر المجتمع الدولي عن غضبه، أو أن يرسل مراقبين في جولات مخطط لها، أو أن يسحب دبلوماسييه. هذه الضغوط لا تجدي شيئاً. فالطاغية يتشبث بالسلطة محذراً تحذيره البغيض بأن البلاد من دونه ستغرق في حرب عرقية - طائفية كتلك التي حدثت في العراق. في الحقيقة، إنه لا يتطلع إلا للبقاء على حساب نزف دماء شعبه. لقد تجاوز بشار الأسد آخر الخطوط الحمراء وهو يعرف أن لا إمكانية للتراجع. فإما القضاء على السكان المنتفضين أو نهاية سلالته "الجمهورية" الحاكمة والعسكريين الذين يدعمونها.

في العام الماضي، عندما كنت أعلِّق في هذه الصفحات نفسها على قمع الاحتجاجات في تونس ومصر وليبيا لاحظتُ

متهكماً أن درجة حب الطغاة العرب لشعوبهم تتجلى في نوع الأسلحة التي يستخدمونها لإسكاتهم: من الغازات المسيلة للدموع إلى المدفعية الثقيلة. وعند رؤية ما يجري في سوريا، فليس هناك أدنى شك في أن قصب السبق في هذا السباق الفريد من نوعه سيكون من نصيب الأسد، عاشق حِمص.

ترجمة: الحدرامي الأميني

رابط المقال الاصلي، باللغة الإسبانية

http://internacional.elpais.com/internacional/20121002//actualidad/1328...

صحفي إسباني

ثورة على الوعي الدوني والوعي المتعالي

راتب شعبو

لا يماري أحد في عظمة كفاحية الشعوب العربية التي نشهدها منذ مطلع العقد الثاني من هذا القرن للخروج بمجتمعاتها إلى شكل من الحكم يستمد فيه الحاكم شرعيته من الشعب وفق آلية مضبوطة ومتجددة بعد أن تكرس حكم ديكتاتوري أزمن حتى بات يتهيأ للديكتاتور أنه هو من يعطي الشرعية للشعب فيُخرج منه من يشاء ويُدخل إليه من يشاء في مآل سوريالي ممتاز. وقد كانت صيحة القذافي على حشود الناس المتظاهرين ضده والمطالبين بإسقاطه: «من أنتم؟» التعبير الأجلى عن تحول الشعب في ذهن الديكتاتور إلى عجينة من الطاعة والخدمة والتبجيل وبوس الأيادي والطأطأة، فلا يمكن لهذا الذهن الاستبدادي وقد اكتملت دائرته أن يفهم شعباً خرج عن الطاعة وتمرد وملأ الساحات ليهتف بإسقاط الديكتاتور. هذا ما لا عهد لذهن الديكتاتور به، هذا نوع من الناس لا خانة له في ذهن الديكتاتور وبحاجة إلى تعريف. ولذلك صرخ القذافي صادقاً في استغرابه: «من أنتم؟» وبما أن لا ذهن يعلو فوق ذهن الديكتاتور، ولا وجود لمن يضيف «تعريفاً» إلى ذهنه المحيط، فقد أجاب ذهن الديكتاتور نفسه بنفسه بأن هؤلاء جرذان لا أكثر. ليس من طبيعة الشعب في ذهن الديكتاتور أن يخرج إلى الساحات ويهتف بما لم يؤمر به. على هذا فإن من يفعلون ذلك لا بد أنهم من خارج الشعب: عصابات من الملثمين أو عملاء أو جرذان أو كلاب أو مندسون أو شذاذ آفاق والحبل على الجرار.

لا نقول إن الديموقراطية التمثيلية التي تنشدها الثورات العربية مثال أعلى مقدس، ولا نقول إنها نهاية لتاريخ أشكال الحكم السياسية، لكنها، فيما أبدت لنا الأيام، الشكل الأنسب لضبط علاقة الحكام بمحكوميهم حتى الآن. فهي تقي من أن لا ينحط وعي المحكومين إلى إدراك ذاتهم على أنهم مجرد مادة وموضوع للحكم، وأن لا يتعالى وعي الحاكمين ويستقل بذاته وينبتُّ عن واقعه فيدركون ذاتهم على أنهم خيرة الناس وزبدتهم ولا يعلى على فهمهم وحسن خياراتهم فيما يحكمون.

ما أنجزته ولا تزال تنجزه الثورات العربية هو نوع من خلق أرض مشتركة للوعي بين الحاكم والمحكوم. أرض مشتركة لا يمكن بدونها لعلاقة أن تستقر وتثمر بين حاكم ومحكومين. إن هذه الثورات هي، في عمقها، عملية قطع مع تاريخ طويل كان فيه الحاكم ظلاً لله على الأرض في وعي المحكومين قبل أن يكون في وعي الحاكم، ذلك لأن وعي الحاكم لذاته يتأسس على وعي المحكومين له، فكما تكونون يولى عليكم. إن في هذه الثورات كسر لقداسة الحاكم وتعاليه الزائف وشدٌّ لوعيه المتغطرس إلى الأرض، وهي في الوقت عينه كسر لتقوقع الوعي الشعبي العامي المنغلق على شعور دوني وعلى تسليم يائس بقداسة الحاكم وحكمة مقاصده وسداد ما يرى.

لا يمكن للوعي الشعبي العربي أن لا يُجرح ويهتز أمام المحاكمة المباشرة للرئيس المصري المخلوع حسني مبارك، وهو الرئيس العربي الوحيد الذي حوكم محاكمة داخلية. إذ لم يكن خلع ومحاكمة صدام حسين فعلاً داخلياً، لم يكن كذلك في الواقع ولا في والوعي العام ولو أنه حوكم من قبل قضاة عراقيين، فقد كانت القوة الأمريكية على بعد خطوة واحدة منهم. وقد حققت محاكمة مبارك، على المستوى العام، غرضين معاً في آن:

الأول هو إعادة العلاقة بين الحاكم والشعب إلى طبيعتها، ليصبح الحاكم مسؤولاً أمام الشعب وليس فقط مسؤولاً عن الشعب.

الثاني هو نزع المعصومية عن الحاكم ليبدو كائناً بشرياً مخطئاً لا يختلف في شيء عن غيره ممن يقفون في قفص الاتهام. وليبدو فوق ذلك مرتكباً ومستحقاً للحكم لأشد أنواع العقوبات.

الثورة المصرية من بين ثورات الربيع العربي الأخرى هي الوحيدة التي أصاب سهمها تلك البقعة المتكلسة من الوعي العام إصابة مباشرة. المحاكمة الغيابية لزين العابدين بن علي لم تمتلك هذا الفعل الصريح الذي امتلكته المحاكمة المباشرة لمبارك، ومقتل القذافي بالطريقة الوحشية تلك لم تضف كثيراً إلى وعي عربي عام يمتلئ تاريخه بقصص قتل وحشية للحكام في سياق الصراعات الدامية أبداً على السلطة بين الخلفاء والسلاطين والملوك، وكذا الحال لم تكن تسوية الصراع في اليمن ذات فاعلية مباشرة على الوعي السياسي العام بعد أن ضمنت عدم محاكمة الرئيس المخلوع علي عبد الله الصالح. على أن جميع الثورات العربية، سواء ما نجح منها في إزاحة الحاكم أو ما لم ينجح بعد، خلخلت الوعي السياسي العام الذي ينظر إلى الحاكم على أنه إله صغير، يحيط علمه كل شيء، ويصدر في قراراته عن تقدير عميق لمصالح الأمة. بفعل الثورات العربية، يتسرب اليوم إلى الوعي الشعبي العام ضوء جديد يكشف أن ما درج عليه الناس من تسليم بأن «الحاكم أعلم» ليس إلا زيف، ويتبين لوعي العامة حقائق كانت تحجبها ستارة رقيقة من تقديس موروث للحكام، إذ يتبين للناس اليوم وبجلاء أن الحاكم المستبد مصدر بلاء على البلاد، وأنه اعتباطي وضحل وشرير وقاتل حين يحاول محكوميه شق عصا الطاعة وإعادة العلاقة بين الحاكم والمحكومين إلى نصابها الصحيح.

كاتب من سوريا

لقد ولى زمن السكوت: لن تبقى سورية مملكة الصمت

رياض الترك

في سورية اليوم طيف اسمه الحرية يهيمن على كل أرجاء الوطن، ورياح التغيير التي هبت في الاشهر الثلاثة الأخيرة على كل العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، لا يمكن لها في النهاية إلا أن تطرق باب السجن السوري الكبير. فنحن لا نعيش في جزيرة معزولة، والتاريخ لن يتوقف عند أعتاب دولتنا العتيدة.

لقد سقط حاجز الخوف، الذي جثم على كاهل الشعوب العربية لعقود طويلة، وانطوى معه نصف قرن طويل ومديد من الانقلابات العسكرية وتسلط الجيش على السياسة، ومصادرة الحريات العامة، وممارسة الوصاية على الناس، تارة باسم التقدم والاشتراكية، وتارة باسم الدين، وتارة أخرى باسم الاستقرار ومحاربة التطرف الإسلامي.

التغيير آت لا محالة، وسورية لم ولن تكون أبداً الاستثناء. أما التخويف من الفوضى والحرب الأهلية، والتخويف من وصول الإسلاميين إلى الحكم، والتخويف من أن شعبنا غير مؤهل بعد لممارسة تجربته الديمقراطية، فهذه كلها ادعاءات لن تجدي نفعاً عندما تدق ساعة الحقيقة ويستعيد الناس زمام المبادرة. إن الشعب السوري بلغ سن الرشد، وعلى سلطته أن تعي ذلك قبل فوات الأوان. فالمطلوب اليوم ليس خطوات تجميلية على الصعيد الاقتصادي والمعيشي، بقدر ما أن المطلوب خطوات جدية وواضحة المعالم لنقل سورية بشكل سلمي من الاستبداد إلى الديمقراطية.

خطوات قلناها وكررناها مراراً، مثل الإفراج عن المعتقلين السياسيين، وإلغاء حالة الطوارئ، وشرعنة التعددية الحزبية، وترسيخ مبدأ فصل السلطات، واستقلالية القضاء، وطي صفحة الحزب القائد، وتحقيق المساواة بين المواطنين، من دون أي إقصاء أو تمييز. فبمثل هذه الخطوات، لا بالمزيد من القمع وكم الأفواه ومسرحيات التأييد الجوفاء، يمكن للسلطة السورية، إن هي أرادت ووعت، أن تستبق التغيير وتتحضر له.

لقد غيّر الخوف من وجهته، وانتقل من طرف الشعب إلى طرف السلطة. أما من يحذّر من القلاقل والفوضى، ويهوّل بتفكك الدولة وتفسخ النسيج الوطني، ويجهد للمحافظة على هذا الاستقرار الاستبدادي الكاذب بأي ثمن، فإننا نذكّره بأن الشعب السوري منذ بداية تاريخه الحديث، استطاع أن يتجاوز، بوحدة أبنائه ونضالهم المشترك، الانقسامات المذهبية والدويلات المصطنعة التي فرضها عليه المستعمر الفرنسي، وتمكن في النهاية من أن ينال استقلاله الكامل بضريبة الدم التي دفعها من خيرة أبنائه، لا بل أن هذا الشعب تمكن بوعيه وحكمته أن يبعد مخاطر الحرب الأهلية التي كاد يجره إليها عنف السلطة وتهور بعض الجماعات الإسلامية المسلحة.

لقد قالوا بالاشتراكية فجلبوا الجوع والفقر. ووعدونا بتحرير فلسطين، فأتوا بالذل والهوان. وتغنوا بالحرية والعدالة، فشيدوا السجون والمعتقلات. واليوم، إذا كان تفشي الظلم والعوز والفساد ووطأة الاستبداد لا تستثني أحداً من أبناء الشعب السوري، على تعدد مشاربهم وانتماءاتهم، فإن هذا الشعب قادر وعازم على استعادة حريته المسلوبة، وصون وحدته الوطنية، وحماية كيان دولته السورية.

إن الملايين التي تواجه اليوم بصمتها عسف الاستبداد وجبروته، في دمشق وحلب، في اللاذقية وطرطوس، في حمص وحماه، في القامشلي ودير الزور، في حوران وجبل العرب، لن تلبث أن تخرج عن صمتها وتواجه هذا الاستبداد بوقفاتها الاحتجاجية وتحركاتها السلمية، مستندة إلى تضامن أبناء المجتمع السوري وتكاتف الجيش مع الشعب. ومخطئ من يراهن على أن الناس ستنزلق إلى العنف، أو أن الجيش سيوجه فوهات بنادقه إلى صدر الشعب السوري. لقد ولى زمن «معادلة مدينة حماه»، فلا الشعب ولا الجيش سيسمحان لأحد أن يسجنهما فيها من جديد. وليع كل من يحاول أن يصطاد في الماء العكر، أن الجيش من الشعب والشعب من الجيش، فداخل كل دبابة هناك حفيد من أحفاد يوسف العظمة، وعلى زناد كل بندقية يقبض ابن من أبناء وحدات الإنزال على مرصد جبل الشيخ.

لست أنا، اليوم، في موقع من يقترح الحلول ويضع السيناريوهات المستقبلية. فالتغيير آت بعزيمة الشباب وهمتهم، ليس فقط لأنهم يشكلون أغلبية المجتمع السوري، ولكن لأنهم أثبتوا أنهم أكثر وعياً لمتطلبات العصر من أحزاب المعارضة ورجال السياسة، الذين لا يزال الكثيرون منهم مكبلين بخطابهم التقليدي وممارساتهم البالية، يكاد الرقيب الأمني لا يغادر أدمغتهم أبداً. كل ما اعرفه اليوم أن سورية لن تبقى مملكة الصمت، ولن يبقى الخوف مطبقا على الصدور، ولن يبقى الوطن سجنا كبيراً.

نعم «الشعب السوري ما بينذل»، كما هتف متظاهرون في قلب دمشق قبل أيام، وهو يريد الحياة الكريمة، ومن إرادته سينبثق فجر الحرية وستولد سورية الجديدة.

نعم «سورية الله حاميها»، لأنها باقية بشعبها وجيشها ودولتها. أما الاستبداد فإلى زوال، قصر الزمن أو طال، وإن غداً لناظره قريب.

11-03-2011

** سياسي سوري وعضو قيادة حزب الشعب الديمقراطي وإعلان دمشق*

الثورة السورية والصور المهربة

سامر أبو هواش

أيهما أصدق: الصور أم الكلمات؟ وبدقة أكبر: صور الفيديو المتحركة المنقولة عبر أجهزة الهواتف النقالة، أم الخطابات الجاهزة؟ الصور الملتقَطة بعفوية تامة - عفوية لا تلغي قصديتها التامة أيضاً - أم الخطاب الكلامي المعَدّ سلفاً؟

في المشهد السوري، حاول النظام أن يلعب لعبة الصورة، لكنه أغفل الديناميكية التي تجعل هذه اللعبة مؤثرة حقاً على المقلب الآخر، فمارس في أشرطة الاعترافات التي تبثها قنواته الرسمية، لعبةَ السينوغرافيا والتأليف والإخراج ،ومن أبرزها ما بُثّ أخيراً عن الأسلحة بين جثث القتلى، تلك التي يمارسها بأدوات أخرى - إنما مطابقة في نتائجها - الناطقون باسم النظام على الشاشات الإخبارية. سيان بين الكاميرا المعَدّة سلفاً للتصوير والمشهد المعدّ سلفاً، وبين الخطاب الكلامي، مهما تضمَّن من «معلومات» صحيحة، أو تحليلات صائبة في بعض الأحيان. هناك - حتى الآن- حادثة يتيمة تعود إلى بداية الأحداث في سورية، حاولت الذراع الدعائية للنظام الأمني أن «تقلِّد» من خلالها لعبة مناهضيه، فصورت مجموعة من المسلحين، المتمترسين في منطقة مجهولة وراء بعض الأشجار، مطلقين الرصاص على «الشعب والجيش»، مثلما ادعى الشريط. إن عدم فهم ذراع النظام الدعائية هذه للآليات، أو الديناميكيات التي تحكم تدفق الصور من الشارع السوري، جعلها ببساطة تصوّر هذا «المشهد الخارجي» مقابل، أو كمحاولة لدعم المشاهد الأستوديوية الداخلية المركبة، وذلك باستخدام كاميرا ثابتة تخص التلفزيون الرسمي، من دون أن يتفادى الشريط نفسه القول إن فريق التصوير تعرض لإطلاق الرصاص من قبل هذه المجموعة المسلحة نفسها؛ إذن، لا يختلف منطق التأليف والتركيب والإخراج هنا، عنه في مشاهد الاستوديو الاعترافية المسجلة، أو «تحليلات» «الأساتذة الجامعيين» و «الصحافيين» وبعض «الفنانين»، الذين ينطقون باسم النظام على الشاشات العربية والأجنبية.

مقابل هذه الصور الواضحة، المرتَّبة، المتسلسلة، المعَدّة سلفاً، والمُمَنْتَجة، تأتينا صور تبدو في أحيان كثيرة ضبابية، مفتقرة إلى الوضوح والدقة، لكنها - ربما لهذا السبب بالذات - أشدُّ وقعاً وأعمق تأثيراً وأكبر مصداقية. يد «المصوّر»/ المواطن حامل الهاتف النقال، ترتعش غالباً، الصور تهتزّ على وقع جسد حامل الجهاز الذي يركض أو يهرول بين الجموع. في كثير من الأحيان، تكون المعلومات التي تتضمنها هذه الصور قليلة جداً، أو ملتبسة، فنرى بضعة أفراد - مثلاً - يحملون المسدسات أوالرشاشات، ثم يقول الخبر إن هؤلاء قاموا بتفريق تظاهرة أو اعتدوا على متظاهرين أو قاموا باعتقالات في هذا المكان أو ذاك، وكذلك رتل من الدبابات يتقدم في شارع ما، ويقول الخبر إن هذه الدبابات متجهة إلى محاصرة هذه المدينة أو تلك المنطقة. الصور ناقصة، لا تقدم سرداً كاملاً، ولا تفي العناصر الخبرية المعلوماتية حقها، غير أننا نصدقها بصورة شبه تلقائية، لأنها تقدّم في الغالب الأعم حقائق يصعب إنكارها، وذلك بالضبط لأنها صور غير دقيقة، ملتبسة، مهتزة، وفقيرة. إنها جزء من ديناميكية جديدة يصعب على النظام ،أي نظام، فهمها، ناهيك عن الردّ عليها بمثل طبيعتها أو قوتها. بالطبع - ومن البديهي - يمكن التكلم هنا على المصداقية المفقودة أصلاً للنظام ،الأنظمة، والحجج التي يقدمها مناوئو النظام في هذا الصدد أكثر من أن تحصى، إلا أنه بالإضافة إلى الجانب السياسي من المسألة، وعدم قدرة النظام مثلاً على التعلم من تجارب سابقة قريبة جداً ،تونس، مصر، ليبيا...، مقابل استلهام الجماهير لتجارب الجماهير التي سبقتها إلى الانتفاض، فإن ما فات النظام إدراكه حقاً، هو الثورة الثقافية المفهومية، التي أدت - واليوم نقول إنه

كان حتمياً أن تؤدي - إلى هذه الثورات المطلبية والتغييرية في الشارع. لقد امتلك الناس أخيراً الأداة التي تمكّنهم من نقل صورتهم/ صوتهم على نحو لم تعد فيه هذه الصور داعمة لخطاب أو معزِّزة لأيديولوجيا، بل باتت هي الخطاب في حدّ ذاته.

عودة إلى السينما الصامتة

ربما تجد هذه الصور الملتقَطة عبر كاميرات الهواتف النقالة مثالاً قريباً لها في آخر مكان يمكن تصوره، وهو السينما الصامتة. في هذا النوع من السينما الصدارةُ هي للصورة: إيماءات الجسد، تعابير الوجه، إيقاع الصورة غير المطابق للزمن الواقعي ،في البدايات الأولى للسينما الصامتة على الأقل، والأهم من ذلك كله غياب اللغة، التي تأتي فقط عبر بطاقات شرح مقتضَبة من وقت لآخر، الهدف منها فقط خدمةُ الصورة المتحركة وتبيان ما قد يُغفِله المشاهدُ من السرد. هذه السينما - بحسب الناقد الهنغاري بيلا بالاخ - أعادت الاعتبار للوجه البشري بعد قرون من طغيان الكلمة المكتوبة ،عبر الطباعة الجماهيرية، التي أخفت ملامح الوجه تماماً، ومعها تلك التفاصيل الصغيرة التي تستطيع الكاميرا التقاطها في مشهد واحد. يذهب بالاخ إلى الكلام على الطبقات المتعددة من التعبير على الوجه البشري نفسه، وفي اللحظة نفسها، كما في المثال الذي يقدمه عن الممثلة الدانماركية الصامتة أسترا نيلسن، ذلك أنه في غياب اللغة، يصبح التعبير حكراً على الجسد، وهو ليس الجسد البشري فحسب، بل جسد المكان أيضاً، الجسد البشري، و «الأشياء» هي التي تؤدي التعبير. الكرسي الصامت، أو الشجرة، أو الحيوان في المشهد، لا تقل أهمية عن الممثل.

ومن أبرز أدوات هذا التحول التاريخي، عودةُ الوجه والملمح البشري، وإعادة الاعتبار للتفاصيل - بما فيها الجامدة -، وهو ما يسمى في لغة السينما باللقطة المقرّبة. رمزياً، ما تمارسه الصور المتحركة الملتقَطة عبر «الموبايلات» ،ثمة دلالة لا تُغفَل في التعريف القاموسي لهذه الكلمة: متحرك، متنقل، متحول، متسم بامتزاج الفئات الاجتماعية»، هو تقديم لقطات مقرَّبة لما يجري على الأرض. في المقابل، دعت الأنظمةُ التي وجدت نفسها في مواجهة هذه الصور، الناسَ إلى رؤية الصورة البعيدة، الطويلة، الشاملة أو البانورامية، وهي دعوة وجدت نفسها ضمن إطار التحذير من فقدان الأمن الاجتماعي، والكلام على مؤامرة خارجية تستهدف الوطن، والتذكير بمساهمة رأس النظام القومية والوطنية، والتذكير المستمر بأن الأغلبية لا تؤيد هذه التظاهرات... إلخ. الردّ على «المتحول»، على اللقطة المقرَّبة والمتحركة في آن، كان في لقطة ثابتة، جامدة، نرى فيها الرئيس واقفاً يدلي بخطاب معَدّ سلفاً، مطلِقاً الوعود، أو منكراً الوقائع، أو مستبدلاً إياها بوقائع أخرى. رأينا ذلك يتكرر بصورة نموذجية في تونس ومصر وليبيا وسورية. لعلّ الرئيس الليبي التقط - من دون أن يقصد ومن دون أن يفيده هذا الالتقاط - مغزى ما يجري، فرأيناه يخطب بين ركام أحد المباني وكأنه في لحظة عفوية مرتجلة، وكان منفعلاً يدلي بخطاب غير معدّ سلفاً، أو يخرج كثيراً على النص المعدّ، داعياً الناس إلى الخروج «والرقص في الشوارع». بالنسبة إليه هذا هو الردّ المثالي على سيل الصور التي ينتجها مناوئوه. غير أنه، وليس فقط أمام صور الجماهير التي تخرج إلى الشوارع محتجة على حكمه، بل أيضاً أمام الصور العفوية حقاً التي التقطها أناس عاديون، والتي تظهر مثلاً المرتزقة وهم يغزون شوارع العاصمة طرابلس، سقطت محاولة الرئيس الليبي تقمص صوت الناس أو نبرتهم. المسألة ليست مسألة حجج ولا مشاعر، بل مسألة أصالة صور وزيف أخرى، تركيب صور وعفوية أخرى، وهذه لا تحتاج إلى خبراء للتمييز بينها أو تأكيدها. كل الناس خبراء في ذلك.

عودة اللغة

كانت السينما الناطقة قد أعادت سيادة اللغة من جديد، وفي الوقت عينه برز الراديو كمدافع شرس عن اللغة. بهذه الأداة، تمكن هتلر مثلاً من أن يقنع الملايين بأفكاره، عبر الخطاب وحده. وبعده كرّت الأمثلة على سطوة الخطاب ،الصوت، الكلمة،

وصولاً إلى الأمثلة العربية المعروفة، ومنها إبان صعود القوميات العربية. مجدداً انحطّ شأن الجسد البشري، وما كان يمكن لابتسامة أو تكشيرة أو آثار أقدام على الرمل أن تقوله، بات يمكن اختصاره بالكلام، بل بات الكلام هو الذي يبني الملامح والسمات.

ليس عجيباً إذن أنّ أكثر الشهادات الشخصية أو الفردية بلاغة عن الحربين الكونيتين جاءتنا عبر الكلمة المكتوبة (راجع كتاب «الحياة اليومية للجنود خلال الحرب العالمية الأولى» بالإنكليزية، منشورات غرينوود برس)، في شكل يوميات أو شهادات مجتزأة في تحقيقات صحافية، على الرغم من الكميات الهائلة للصور الآتية من جبهات القتال. رأينا التأثير الرهيب للحرب، عمليات القصف الواسعة، الدمار الهائل، الجنود في الخنادق، الجثث المشوهة، لكننا لم نسمع أصوات الجنود أو الضحايا أنفسهم، ولم نعرف شيئا عن مشاعر الخوف، شكلها وطبيعتها وتأثيرها، وكان علينا الاستعانة بالكلام لكي نرى الزوايا الخفية أو غير الواضحة من المشهد.

لا نبالغ إذا قلنا إنه على الصعيد الإخباري الصحافي، كانت الصورة الفوتوغرافية أعمق تأثيراً بكثير، لأنها تمكنت من التعويض عن هذا الجانب السردي المفقود، عن تلك البلاغة الضائعة، لاسيما أن الصورة الفوتوغرافية كانت المعادِل الأقربَ إلى السينما الصامتة، لجهة إفساح المجال للجسد البشري أو للأشياء كي تروي ما غاب من المشهد، ومن هنا نجد أن معظم المشاهد المؤثِّرة عن الحربين العالميتين، وصولاً إلى حرب فييتنام (بين الأمثلة العربية مجازر صبرا وشاتيلا مثلاً)، هي صور فوتوغرافية جامدة، ذلك أنها - بصرف النظر عن «جماليتها» - احتوت على عنصر أساسي لم تحتو عليه حتى الأفلام الصامتة، وهو عفوية اللحظة، أو الإيهام بها على الأقل. الإحساس نفسه الذي تمنحه إياك السينما الصامتة، بتركيزها على الصورة دون الكلام (وهذه تطورت بالطبع لاحقاً مع السينما الناطقة)، ما يسمى ب «وجهة نظر الكاميرا»، التي تشعرك بأنك لست مجرد متفرج، بل أنك جزء من المشهد، تنظر بعيني البطل في تلك اللحظة المحددة وترى ما يراه، هذا الإحساس تمكنت الصورة الفوتوغرافية الإخبارية من نقله، إذ لا يسع المشاهد ألاّ يتقمص المصوِّرَ نفسَه في اللحظة التي التقط فيها صورته تلك.

الفتى حمزة والصور المهرّبة

ما هذا؟ حرق سيجارة؟ لا، ما هو إذن ذلك الثقب الأسود على صدر الفتى حمزة؟ إنه ثقب رصاصة. في مكان آخر ثمة ثقب آخر، في أنحاء مختلفة من جسد الفتى نرى آثار التعذيب الرهيبة. ما نراه يتجاوز في قوته وتأثيره صور التظاهرات، التي قد تضم أحياناً مشاهد ضرب عنيفة (فضيحة الدوس بالأحذية)، ليس لأنها تصور فتى قُتل بمثل هذه الوحشية التي لا يتصورها عقل فحسب، بل لأنها صورة مختلَسة، مسروقة، ومهرَّبة. هنا أيضاً يبرز بؤس الحجج التي يحاول النظام الردّ من خلالها، والتي تكشف على أي حال مأزقه الكبير: عدم قدرته على التحكم بتدفق الصور. مارس النظام المصري مثل هذه المحاولة، عندما منع مراسلين وكاميرات تلفزيونية إخبارية من تغطية الأحداث. كان تجاوبه «منطقياً»، إنما عبثياً. إذا كانت هذه الصور تتسرب عبر الإنترنت ووسائل تقنيات الاتصال الحديثة، فلنقم إذن بقطع هذه الوسائل. لم تنجح هذه المحاولة، ببساطة لأن آليات مقاومتها وتفاديها كانت قد ولدت قبل ذلك، في الوقت الذي كان فيه ناشطو الإنترنت يطوّرون أساساً أدوات تحايلهم على الرقابة الرسمية المفروضة عليهم، ذلك أنه من دون قطع هذه الوسائل كان هؤلاء الناشطون يدركون حجم المراقبة الأمنية والاستخباراتية، بالتالي بدأوا مبكراً بالعثور على بدائل من ضمن الوسائل نفسها، وواصلت الصور تدفقها.

في سورية، يحاول النظام آليات مشابهة، فيقطع كل وسائل الاتصال بصورة منفردة، وأيُّ منطقة بعينها تكون في مرحلة ما بؤرةَ تركيزٍ من قبل الأجهزة الأمنية، ربما تتأخر الصور قليلاً عن الوصول منها، بسبب هذه الإعاقة (في بعض الحالات

تتأخر كثيراً، لكنها في النهاية تظهر، مثل صور الفتى حمزة، التي ظهرت بعد شهر تماماً، إلا أنها سرعان ما تبدأ بالتدفق. بين آلاف «المصورين»/ المواطنين، لا بدّ من أن تتمكن بضع أيد من الإفلات ونقل الصورة، التي في هذه الحالة - وتحديداً بسبب شدة الرقابة ووسائل المنع والقمع - تتخذ قوةَ تأثير أكبر. التحدي لم يعد يكمن في الحراك في الشوارع فحسب، رغم الحصار الشديد والخطر المحدق، بل في إمكانية نقل صور هذا الحراك، كما في السينما الصامتة، فإن التعليقات على الصور المتحركة شديدة الاقتضاب: «الشعب يريد إسقاط النظام»، «الله أكبر»، «باطل»، «ما منحبك»... إلخ. إضافة إلى أداة بالغة الأهمية، تتمثل في ذكر يوم التصوير وتاريخه، وذلك للقول إن هذه ليست صوراً مطلقة في المكان والزمان، ولا توثيقية، ولا مركَّبة، بل هي صور يومية، وهذا ما يُكسبها مصداقيتَها ومشروعيتَها وقوتَها.

ثمار العولمة

في خضم الأحداث المتسارعة، ننسى أحياناً العملية - تحديداً العملية الثقافية - التي قادت إليها. لعلّ لحظة البداية التي أدرك فيها الناس أهمية الهاتف المحمول كشاهد على الأحداث يستطيع أن يتفوق على الكاميرا الثابتة، هي لحظة انهيار البرجين في الحادي عشر من ايلول (سبتمبر). صحيح أن هناك بعض الصور الثابتة التي التقطها مصورون محترفون، مثل الصورة الأيقونية التاريخية «الرجل الساقط»، التي التقطها ريتشارد درو من «الأسوشييتد برس»، والتي نرى فيها رجلاً خلال سقوطه على الأرض بعد رميه نفسه من أحد برجي التجارة، إلا أن سيلاً كبيراً من الصور التي انتشرت حول العالم، سواء صور الفيديو أو الصور الفوتوغرافية الثابتة، التقطها هواة تَصادَفَ وجودُهم على مقربة من المكان في تلك اللحظة التاريخية.

حتى تاريخ انطلاقة الثورات العربية، لم تتخذ الصورةُ اليومية المنقولة عبر الخليوي أهميتها الكاملة، لكن كان ثمة لحظات مهّدت لها، غير الحادي عشر من سبتمبر، لعلّ من أكثرها أهمية فضيحة سجن أبو غريب. كانت وزارة الدفاع الأمريكية قد وجدت حلاً سحرياً لتغطية غزوها للعراق، تجسَّدَ في مَن أطلق عليهم «الصحافيون المندسون»، وذلك للتحكم قدر الإمكان في تدفق الصور، وهو ما نجح إلى حدّ ما، وإن لم يكن كافياً، فإن أعداد الصحافيين الذين سقطوا في العراق أو قُتلوا «خطأً» كافٍ ليعكس مدى صعوبة نقل الصور والأخبار من هناك. جاءت صور سجن أبو غريب لتخترق جدار التحكم هذا، كانت هي الأخرى صوراً مهربة، أو ثمة إيهام بتهريبها. لم تفلح كل تبريرات المسؤولين الأميركيين وإنكارهم في التخفيف من فظاعة الصور، ومن الحدّ من نتائج هذه الفضيحة على صورة الأميركي «المحرِّر». لا ننسى هنا أن إتاحة استخدام الإنترنت والخليوي للجنود الأميركيين في العراق وأفغانستان، كان وسيلة أساسية للتخفيف من الأعباء النفسية للقتال هناك، ولكن من بين الآثار الجانبية لهذه الوسيلة كان تسريب عدد من الصور والأخبار والقصص التي تعكس جوانب أخرى من الواقع غير تلك التي تريد المؤسسة الرسمية إيصالها.

كان من أشكال «انفتاح» النظام السوري، إتاحةَ وسائل الاتصال الحديثة للناس. في حقيقة الأمر، كان ذلك في سورية، كما في سواها، انجرافاً حتمياً مع تيار العولمة، الذي لا تشكل فيه وسائل الاتصال مظهراً بديهياً فحسب، بل هي في المقام الأول ثروة استثمارية ربحية لم يكن في وسع رجال المال والأعمال (وهم من أهل السلطة أو المقربين منها) تجاهلها. استجاب هؤلاء مع مصالحهم بالدرجة الأولى، غير مدركين أن مغارة علي بابا المليئة بالكنوز هذه، هي في الوقت ذاته الفانوس السحري، الذي ما إن أخرج الناسُ الماردَ منه عبر مصادفة الحكّ اليائسة، حتى لم يعد ممكناً عكسُ النتيجة. خرج المارد من القمقم، مجهَّزاً هذه المرة بجهاز هاتف خليوي تتجاوز قدراته السحرية الأمنيات الثلاث التي يتيحها المارد التقليدي.

2011 - 06 - 14

**شاعر وكاتب من فلسطين مقيم في أبوظبي*

لن تسكت بعد اليوم مغتصبة

د. صابر جيدوري

يكاد لعاب الفكر ينقطع في سيولته من متابعة جرائم فرق الموت التي يقودها نظام الأسد في سوريا، ولا يكاد المرء يتصور جريمة حتى يفاجئه نظام الأسد بجريمة أخرى أبشع منها، فتختلط التصورات ويعجز الفكر ويرتجف القلم من هول ما نسمع ونقرأ ونشاهد.. نعيش في هذه الأيام معاناة مريرة مميتة تضطرم فيها حياة الشعب السوري بالمآسي التي تحرق الأرض وتحطم الحجر وتقتل البشر، تتحشرج الألفاظ في الفم ويرتعش القلم وتنطلق الأنفاث المحمومة والغضب الساطع في وصف أحداثها البربرية النازية، من محاولات لهدم قرى ومدن بكاملها، وقتل السكان المدنيين، رجالاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً بالالآف، وإلقاء الرعب والخوف في نفوس النازحين عن ديارهم.. هذا فضلاً عما يتخلل ذلك من مجازر (بابا عمرو والحراك وبصر الحرير..) حيث لم تقترفها غارات الطائرات النازية في هجومها المريع على مدينة لندن أثناء الحرب العالمية الثانية، أو حتى في جريمة 11 سبتمبر2011 على مبنى التجارة الدولي في واشنطن.

وهكذا نعيش تلك اللحظات في مواجهة فرق الموت التي يُحركها الأسد الهِزبَر الذي يسعى للفتك بغباء ومعه ذلك الحلف الممتد من طهران إلى جنوب لبنان، يقدمون له آرائهم المنتقمة علهم يستمرون في السيطرة على البلاد والعباد.. يُضاف إليهم أولئك الصعاليك من الإعلاميين ومدعي الثقافة الذين ينافحون عن الأسد صاحب القيادة في عدوانه على ما يقع على الشعب السوري بطوائفه كافة من جرائم يندى لها جبين الإنسانية.. تلك الجرائم التي يعتقدون أنها المدخل الصحيح لتأديب كل من يتجاسر على مخالفة أوامر السيد الهزبر وأنصاره القابعين في قم على اليمين وتل أبيب على اليسار.. وهنا أتذكر ما كتبته إحدى حرائر سوريا المناضلات الأستاذة الفاضلة ديانا الجابري.. تقول هذه الطاهرة للأسد وأعوانه: إن هذا الجزع لم يُخلق لنا يا أسد.. ستنهض ألف بابا عمر.. وسترفضكم الأجنة في بطون الأمهات والحجارة تحت الركام، ونقول لا ولا.. ولن نخضع..!! كنا الثورة منذ البدء.. كنا وخلقنا بابا عمرو والصنمين وتلبيسة والرستن والحراك وتل رفعت والقورية وداعل وكفر عويد.. وسوف نخلق في كل شبر جهنماً تُشعل ليل الطغاة..!! تلفت حولك وانهض.. هذه الثورة كبرت وقسى عودها.. أين كنا وأين نحن اليوم.. أفتح يديك للصباح فهو أقرب إليك من أنفاسك..!!

نعم لقد فاتكم أن الثوار يُسطرون تاريخ سوريا الجديد.. كما فاتكم أن هذه الثورة ولدت لتبقى وتنتصر.. ثم فاتكم أن كل شبر في وطني هو بابا عمرو.. وكل ثائر هو حمزة الخطيب.. كما فاتكم أن كل ثائرة هي الطفلة إيمان علوش التي قتلتموها داخل شقتها أيها الوحوش.. عن أي إرهاب يتحدث الأسد الهزبر.. هل يتحدث عن إرهاب الطفل ثامر الشرعي وزميله أمجد العاسمي..؟ أم يتحدث يا ترى عن إرهاب آية ونورة وايمان..؟ على أية حال لقد أصبح العالم كله يعرف من هو رأس الإرهاب في سوريا.. العالم أصبح يعرف من قصف بابا عمرو والحراك وبصر الحرير بالدبابات ومدافع الهاون.. كما أن العالم كل العالم شاهد الأطفال والنساء وهي تُرفع من تحت المساكن التي هدمتها دبابات ومدافع حماة الديار.. لقد وثقنا كل شيء أيها المجرمون.. ومن يعتقد أن حماة أخرى سوف تمر مرور الكرام فهو مخطئ بل هو مغفل ومعتوه.. لن تمر جرائم القتل والذبح وانتهاك الأعراض من دون محاسبة.. كيف يحصل ذلك وأسئلة الشاعر العراقي مظفر النواب حاضرة في أذهاننا في كل لحظة..

(ها حمص، عروس (تحضركم)

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها..؟؟
ووقفتم تستمعون وراء الباب لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم
وتنافختم شرفاً
وصرختم فيها أن تسكت صوناً للعرض
فما أشرفكم
أولاد القحـ... هل تسكت مغتصبة ؟!!!

نعم هم كل ذلك وأكثر.. اغفروا لي أيها القراء الأعزاء.. أغفروا لي حزني وغضبي وكلماتي القاسية، بعضكم سيقول بذيئة.. والآخر سيقول لا أخلاقية.. لا بأس أروني موقفاً أكثر بذاءة مما تقوم به فرق الموت في وطني.. فتيات تُغتصب.. وعائلات تُقتل بكاملها .. نعم بكاملها هذا ما حصل البارحة في قرية الحراك بدرعا.. وقبلها في حمص.. وأخرى في جبل الزاوية.. لذلك أتوجه بالقول إلى كل من يُريد تأصيل ثقافة الصمت والإجرام في سوريا أن مجازر حماة التي مرت مرور الكرام من دون حساب وعقاب لن تتكرر مرة أخرى.. ولن تسكت بعد اليوم على جرائمكم مغتصبة.. لقد كتبت لكم من الكلمات ما يكفي لكي تفهموا وتتراجعوا عن غيكم الذي أنتم فيه.. كتبت لكم من أجل حماية نسيج الوحدة الوطنية وتمتينها، وقلت لكم: إن الوحدة الوطنية تُحتم على كل مواطن أن ينظر إلى الآخر باعتباره واحداً منا، حتى نتمكن جميعاً من بلورة صيغة جديدة للهوية الوطنية المشتركة، والتي بمقتضاها يشعر المواطنون على اختلاف ثقافاتهم وأجناسهم وأديانهم ومذاهبهم أنهم أعضاء في وطن واحد، وإنهم ينتمون جميعاً إلى هذا الوطن، وإن تنوعهم يمثل سنة من سنن الله في خلقه.. نعم لقد كتبت لكم كل هذا وأكثر.. غير أن عقولكم الكلية المتعبة لم تستوعب ذلك، فمزقتم الوحدة الوطنية.. وانتهكتم الحقوق.. واستلبتم الحريات.. وقتلتم الأطفال والنساء.. وفوق كل ذلك عزلتم أنفسكم عن العالم.. عفواً لقد عزلتكم ثورة الأحرار عن العالم.. فهنيئاً لكم بالقائد العظيم المنتخب شعبياً.. ابن القائد المنتخب شعبياً.. حفيد القائد المنتخب شعبياً في دولة كوريا العظمى..!! وهنيئاً لكم بالرفيق العظيم المنتخب شعبياً.. شقيق الرفيق المنتخب شعبياً في دولة كوبا الكبرى..!! ثم هنيئاً لكم بجمهورية العمائم وصكوك الغفران ومفاتيح الجنة..!! وألف هنيئاً لكم في دولة روسيا البيضاء وروسيا الحمراء وما بينهما من مافيات..!! وأخيراً هنيئاً لكم في مملكة الخالد المنعم موغابي..!!

كاتب من سوريا

عضو رابطة الكتّاب السوريين

قال الكاتب السوري: شعبي يتعرّض لإبادة جماعية
خالد خليفة وترويض الوحش

طالب الرفاعي

عبر صفحته على موقع التواصل الاجتماعي "الفيس بوك"، أطلق الصديق الروائي السوري خالد خليفة نداءً، باللغة العربية والإنكليزية والفرنسية، وجهه إلى "أصدقائه الكتّاب والصحافيين في كل أنحاء العالم، وخاصة في الصين وروسيا"، وجاء في النداء: "أودّ أن أعلمكم بأنّ شعبي يتعرّض لإبادة جماعية، منذ أسبوع قامت قوات النظام السّوري بتصعيد هجماتها على المدن الثائرة، خاصة في مدن حمص والزبداني وريف دمشق والرستن ومضايا ووادي بردى وعين الفيجة وإدلب وقرى جبل الزاوية، ومنذ أسبوع حتى كتابة هذه السطور سقط أكثر من ألف شهيد بينهم عدد كبير من الأطفال، ودمرت مئات المنازل فوق رؤوس ساكنيها". وكأي كاتب روائي لا يملك بين يديه إلا حروف كلماته، ختم خالد خليفة رسالته قائلاً: "إنني لا أستطيع شرح كل شيء في هذه اللحظات العصيبة، لكنني آمل تحرككم للتضامن مع شعبي بالوسائل التي ترونها مناسبة، وأنا أعرف أنّ الكتابة تقف عاجزة وعارية أمام أصوات المدافع والدبابات والصّواريخ الروسية التي تقصف مدناً ومدنيين آمنين، لكن ليست لديّ أيّ رغبة في أن يكون صمتكم شريكاً في قتل شعبي أيضاً".

"خالد خليفة"، الذي عرفه القارئ العربي من خلال روايته الأهم "مديح الكراهية"، التي صدرت عام 2006، ووصلت إلى القائمة القصيرة في مسابقة جائزة الرواية العربية "البوكر"، ومنعت في سورية منذ صدورها، عاد ليدين الكراهية، وعاد ليستصرخ ضمير العالم ضد الكراهية. لكن الكراهية تأخذ معاني أخرى حين تتحول من هاجس أو فكرة أو سلوك لنبذ الآخر إلى قتل وتدمير أعمى، لا يميّز بين الصغير والكبير، ولا يقف أمام بيت أو مسجد أو كنيسة.

أي وحش مخيف يسكن قلب الإنسان حين يندفع لنفي وتدمير وقتل أخيه الإنسان، لا لشيء إلا لأن الآخر حمل فكراً مختلفاً، أو طالب بقدر من الحرية والعدالة والكرامة، أو أصرّ على نبذ الظلم والقهر والمذلة. إن التاريخ البشري ملون بالدم، وعلى امتداد الحياة البشرية، في شتى بقاع الأرض، لم يكن إلا القتل وسيلة لبقاء الأقوى، الذي لا يتورع في سبيل بقائه الأرعن ومجده الزائل واستحواذه على مقدرات بلدٍ بأكمله، عن تسليط الإنسان على الإنسان، لقتله وسحقه والتمتع في التمثيل فيه بعد موته!

منذ قتل قابيل أخاه هابيل، والإنسان هو الإنسان، مجبول على الوحشية، ومعجون بمناكفة الآخر وكرهه، وجاهز للانقضاض على خصمه وسحقه وإنهاء وجوده. لا الأديان السماوية بتعاليمها الربانية الواضحة، ولا الأنبياء بعذاباتهم وسلوكهم القدوة، ولا المفكرون ولا الفلاسفة ولا الأدباء ولا الفنانون ولا أي وسيلة كانت قادرة على ترويض الوحش والوحشية في الإنسان، والتقليل من إصراره الأعمى على نفي وقتل وسحق الآخر، متى ما وقف في وجهه وتحدى وهدد منصبه أو ثروته.

الأحداث الماثلة أمامنا اليوم، تظهر بما لا يدع مجالاً للشك، أن الإنسان وكلما مشى خطوة تسلح أكثر ببندقية، وكلما قطع شوطاً، ركب دبابة جديدة، وكلما انتقل إلى مسافة أبعد، حمل معه فكرة شيطانية أكثر لهدر دم الآخر، والتمتع بسحقه كأي حشرة صغيرة!

أيها الإنسان، أيها الوحش الكاسر، توقف للحظة عن ممارسة وحشيتك المجنونة!

أيها الإنسان الوحش، الرجل والمرأة، في البيت والشارع والعمل، على كرسي التواضع والحاجة، ومن فوق غطرسة كرسي القرار والحكم، إلى أين يأخذك جنونك في نفي وقتل وسحق الآخر؟

أيها الإنسان، لقد عملت جاهداً على ترويض بعض الحيوانات، وكان الأجدى بك ترويض حيوان قلبك، الذي يطل من خلف نظرتك الصفراء!

أيها الإنسان، ستبقى ضعيفاً، حتى لو طال بك الأمد، فإلى أين أنت سائر؟

كاتب من الكويت

talrefai@hotmail.com

سوريا النازفة

عبد الحليم قنديل

لو أن بشار الأسد فعلها قبل عام مضى، وأصدر الدستور الجديد، برغم جوانب العوار الباقية فيه، لو أنه فعلها لكنا بصدد سورية أخرى غير تلك التي نراها الآن، ونأسى على نزيف الدم المتصل فيها.

لكن التاريخ لا يعرف كلمة «لو»، وما قد يكون مقبولا قبل عام لم يعد كذلك الآن، وبعد أن سال كل هذا الدم، وتحطمت مدن وزالت أحياء، وجرت مذابح، وسقط ما قد يصل إلى عشرة آلاف شهيد، وأضعاف أضعافهم من الجرحى والمعاقين، ولم يعد أحد يثق في بشار، ولا حتى من قطاعات معارضة معتدلة كانت مستعدة للحوار معه، بينما صار الحوار الآن خذلانا لدم الشهداء، وغناء «نيرونيا» فوق الأطلال.

قبل شهور طويلة، كانت الثورة السورية في نصاعتها الأولى، مظاهرات سلمية بامتياز، وتمرد شعبي يخلع القلب، بدأ ببراءة أطفال كتبوا على الجدران عبارة «الشعب يريد إسقاط النظام»، وجرت مواجهة البراءة بالغلظة والوحشية، وبخلع الأظافر والتعذيب الهمجي، فانفجرت «درعا» البطلة، والتي كانت أول الغيث في هطول مطر الجموع على أسفلت الشوارع، ومشت رغبة التغيير إلى مدن أخرى، وإن صمتت حلب الشهباء ولا تزال، وأصمت دمشق الفيحاء آذانها، إلا من غضب ظاهر على حوافها، وفي ريف دمشق بالذات من «دوما» إلى «الزبداني».

وتبدو سورية الآن، وكأنها معلقة على مشنقة انتظار طويل، ثارت ولم تنتصر ثورتها إلى الآن، ونزفت ولم يتوقف القمع، وصار خبزها دمها، وخبرها اليومي قوافل من شهداء جدد، يسقطون بيد نظام لم يطلق رصاصة منذ حرب 1973، ولم يتطلع إلى تحرير الجولان بقطرة دم، وأعد جيشا جـرارا، لا لكي يحرر به شبر أرض، بل ليحتل نفوس الناس، ويحسب عليهـم شهقاتهم وزفراتهم، ويقتلهم بلا رحمة، وقد كان كل ذلك كافيا لضمان صمت الناس فيما مضى، لكنه لم يعد كذلك بعد ثورة الأطفال، فقد استيقظت سورية ببراءة ورودها، وغادرت مرابع الخوف، وعرفت قوة الناس حين يستيقظون من نومة أهل الكهف، وحين يغادرهم الفزع الثقيل الموروث، وحين تتفتح الأزهار من جراحهم، وتنمو حدائق الحرية فوق القبور، فللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق.

كانت الثورة السورية في سيرتها الأولى مثالا دراميا رائعا، حفظت تفوقها الأخلاقي بطبيعتها السلمية التامة، لم يخالطها ميل طائفي، ولا ميل لمبادلة القتل بالقتل، لكن إمعان النظام في القتل خرج بها عن طبيعتها الأولى، ودخلت على الخط ضلالات أغرت بها وقائع التجربة الليبية، والتي بدأت بثورة سلمية صافية تحولت بعدها إلى حرب دمار أهلي، وجرت الاستعانة بتدخل أجنبي أطفأ فرحة ليبيا بنهاية الديكتاتور القذافي، وحول ليبيا بعد القذافي إلى دولة افتراضية موزعة على سلطات مدن وميليشيات لجماعات، وكان الإغراء الليبي مسيئا لنصاعة وسلمية وذاتية الثورة السورية، تغير علم التظاهر على الطريقة الليبية، وجرت محاولات لخلق «بنغازي» سورية، وجرى سحب الثورة السورية لإرتهان خارجي، وكانت تلك فرصة النظام لتصعيد قمعه الدموي، واثبات دعواه عن وجود ميليشيات مسلحة وجماعات إرهاب، وتدخل أجنبي لتسليح وتنظيم متمردين، وتسعير الصراع الطائفي، وجر البلد إلى حرب أهلية طاحنة، غاب معنى الثورة، وبرز معنى الحرب الأهلية، وبدت سورية وكأنها دخلت أو تكاد إلى النفق المظلم، بدت الثورة السورية محتجـزة، وقفـزت إلى

المشهد قيادات تطفلت على نزيف الدم، وادعت لنفسها دورا قياديا لم يكن لها في أي وقت، وارتزقت على موائد العواصم الخليجية والغربية، وغسلت وجه النظام الكئيب القاتل الناهب، ومنحته وجها وطنيا مستعارا لم يكن له أبدا، وعززت - عمليا - دعواه بأنه يخوض معركة وطنية ضد التدخل الأمريكي الغربي وتابعه الخليجي، وكان غريبا ومثيرا للسخرية ان يجري تصوير الملك عبد الله عاهل السعودية، وكأنه بطل الثورة العربية وسند الثورة السورية، ومع أن الملك - إياه - لا يسمح لشعبه بمجرد انتقاد حكمه، أو حتى إبداء ملاحظة، ويعتبر حكمه - مع كهنته - أن المظاهرات حرام وكفر بواح، وأن كلمة ثورة شرك بالله.. وبجلالة الملك.

ولأن الحق لا يضاد بعضه بعضا، فمن الضروري كشف اختلاط الأوراق على ساحة سورية النازفة، فالثورة حق لا مراء فيه، وإسقاط النظام السوري هو الحق كله، وتماما كما أن من حق الناس إسقاط النظام السعودي، وغيره من نظم القهر العربية الديناصورية، والنظام السوري لا يمثل الشعب السوري، ودستوره الجديد لا يفيد في تجميل الوجه القبيح، ودستوره الحقيقي هو القتل والنهب والتدمير، كما أن معارضة الخارج المريبة لا تمثل الشعب السوري، وبعض وجوهها في مرتبة العمالة الصريحة، وكلها تتطفل على عذاب الشعب السوري، وتستحلب ثورته، وتخنقها عمليا، وتقدم خدمة جليلة للنظام من حيث تدري أو لا تدري، فلم يثر الشعب السوري من أجل تنصيب زيد أو عبيد، ولا من أجل تحويل سورية إلى بلد محطم مفكك، أو إلى إمارة تابعة للخلافة الأمريكية، بل ثار الشعب السوري لتحطيم الديكتاتورية الباغية السارقة، ومن أجل تحصين استقلال سورية بحرية شعبها، ولا يوجد ثوري حقيقي يقبل بنجدة استعمارية، وسيناريو احتلال وضياع العراق ليس قابلا للتكرار في سورية، تماما كما أن سيناريو الهوان الليبي ليس واردا، ومثل هذه السيناريوهات تخاصم معنى الثورة، فكرامة الشعب وكرامة الوطن صنوان لا يفترقان، وفك «العروة الوثقي» لا يقود سوى إلى مذابح أفظع مما يجري في سورية الآن بآلاف المرات، والتورط في الخطيئة يجعل السوريين كالمستجير من الرمضاء بالنار، والحل هو أن تستقر النجوم في مداراتها، وأن تصمد الثورة السورية في ساحاتها ووسط عذاباتها، وبصورة سلمية تامة تستعيد للثورة تفوقها الأخلاقي، وأن تثبت عليه واثقة بنصر الله، وأن تفضح دموية النظام، وأن تصل به إلى حافة الهزيمة التي لا مفر منها في النهاية، وأن تفض صمت دمشق وحلب بالذات، وقتها سوف تتزايد ظاهرة انشقاقات الجيش، ويزيد الشقاق والانشقاق في رأس الحكم المنهك، وتنتصر الثورة لسورية لا على سورية.

كاتب مصري

حسم الجدل في المسألة السورية.. مع سورية لا مع النظام

عبد الحميد صيام

كلما كتبنا شيئا تأييدا لحق الشعب السوري في الحرية والكرامة والمواطنة الكاملة وسيادة القانون وحرية الرأي والتجمع والحرية الدينية والتعددية السياسية، إنهالت علينا التعليقات تتهمنا بأننا نقف في صف واحد مع جعجع والحريري ودول الخليج والولايات المتحدة وفرنسا ومجلس ،إسطنبول، ونشارك في مؤامرة تدمير آخر قلاع الممانعة والصمود وجسر العبور إلى تحرير الأراضي العربية المحتلة في فلسطين والجولان ولبنان. ونود أن نحسم هذا الجدل لنبين موقفنا بكل وضوح بعيدا عن النفاق والتزلف لأحد وحرصا على ما إقتنعنا به طوال العمر من مبادئ ولنوضح لأصحابنا قبل خصومنا مواقفنا مما يجري في سورية.

1-من غير المنطق أن نؤيد ثورات الشعب التونسي والمصري والليبي واليمني والبحريني وعندما يتعلق الأمر بسورية ننقلب على عقبينا ونقول لا هذه مؤامرة ولا أحد في سورية يطالب بالحرية والكرامة، فالشعب السوري سعيد بقيادته الحالية الوارثة للقيادة السابقة والتي كان يجسدها الشعار الذي كان يملأ شوارع سورية ،قائدنا إلى الأبد الرئيس حافظ الأسد، هل يوجد بلد في الدنيا يرفع شعارا مفاده أن القائد سيبقى قائدا حتى بعد الموت إلا إذا كان من صنف الأنبياء المرسلين؟ ألهذا الحد يتم تحقير الشعب السوري باعتباره فائضا بشريا على إستعداد أن يضحي بتلك المطالب من أجل عيون قائد مهما كان على قدر من الحكمة والحصافة والتواضع على فرض أنه يتمتع بأي من تلك الصفات؟

2-من غير المنطق أن نكون ضد كل الدكتاتوريات في العالم وعندما يتعلق الأمر بسورية ننقلب مرة أخرى على عقبينا ونقول لا يا سادة هذه دكتاتوية عظيمة لا نريد لها أن تتزحزح عن رقابنا ولا أن تنزل عن ظهرانينا ولا أن تترجل عن كواهلنا. هذه دكتاتورية الإنجازات الكبرى فقد حررت البلاد وعممت الرخاء وحاربت الفساد وبيضت السجون وعمقت حرية الإنسان وأعلت من قيمة المواطن.....هذه دكتاتورية رحيمة لا تعض أحدا، ولا تظلم أحدا ولا تهمش أحدا....حمت أمن البلاد من أي إختراق إلا ثلاث أو خمس أو عشر مرات دمر فيها مفاعل دير الزور مثلا أو إغتيل عماد مغنية أو حلقت الطائرات المعادية فوق القصور أو ضبطت كمشة من الجواسيس أو قتل قائد عسكري هنا أو هناك...كيف تريدوننا أن نقف مع دكتاتورية شمولية على طريقة كوريا الشمالية تبني جيشا وأجهزة أمن لا لمحاربة أعدائها بل لقمع شعبها وتهتم بتسمين الطبقة الحاكمة حتى لو جاع الشعب وتتراجع عند الضغط الخارجي أو تنضم لتحالف حفر الباطن لكنها تستنمر على فقراء حمص وإدلب وحماة ودرعا؟

3-من غير المنطق أن نرى كل الطغاة يسقطون الواحد بعد الآخر ولا نتوقع المصير نفسه لبقية الطغاة العرب ...سقط الشاه الإيراني، وماركوس الفلبيني وساموزا النيكاراغوي وباتيستا الكوبي وبينوشيه التشيلي وتشاوتشسكو الروماني ومنغستو مريام الإثيوبي وموبوتو الزائيري وهونيكر الألماني والنميري السوداني ومعاوية ولد طايع الموريتاني وعيدي أمين اليوغندي ودي كليرك ونظام الأبرثايد الجنوب أفريقي ثم جاء دور الطغاة العرب ففر زين العابدين التونسي وإعتقل مبارك المصري وقتل القذافي الليبي وهرب إلى الخارج علي صالح اليمني. أما بالنسبة لبشار الأسد فقف هنا...لا ينطبق عليه ما ينطبق على الطغاة الآخرين لأنه إبن حافظ وريث عائلة الأسد العريقة وصاحب الإنجازات الكبرى في الداخل السوري والخارج العربي. لا يجوز مقارنته مع أي طاغية آخر.كيف تتجرأ على ذلك خاصة أن الحريري وجعجع وسنيورة

يرونه طاغية لذلك عليك أن تفتل دماغك وتبحث عن مبررات لترى فيه قائدا تاريخيا لا يجوز التعرض له أو مقارنته بأي من الطغاة. قولوا لي كيف يختلف طاغية عن آخر علما أن مؤشرات الطغيان كالقمع والفساد وكتم الأنفاس وتقييد حرية الصحافة وتغول الأجهزة الأمنية كلها ترجح كفته عشرات الأضعاف قياسا للزين ومبارك وصالح وخليفة بل ويتفوق بمرات على القذافي المعتوه.إن مقارنة بسيطة بين حجم القمع في دولة ،قمعستان، كما سماها المرحوم نزار قباني مع نظيره في مصر أو تونس يجعل من مبارك والزين أقرب إلى ،الأم تيريسا، قياسا للأسدين الأب والإبن.

4- من غير المنطق أن تكون 137 دولة كلها متآمرة على نظام الممانعة ومخدوعة بدعاية محطتي الجزيرة والعربية وكل ما يجري من مذابح في حمص وإدلب وريف دمشق تلفيق في تلفيق من صنع غرفة عمليات الجزيرة. ألم تتراجع الهند وجنوب أفريقيا والبرازيل عن مواقفها السابقة عندما إمتنعت عن التصويت في شهر تشرين الأول /أكتوبر الماضي ثم عادت وصوتت مع قرار أشد في شباط /فبراير في مجلس الأمن ،الذي أعدمه الفيتو المزدوج، والجمعية العامة لأنها أدركت أن حجم المذابح أكبر من أن تشيح بوجوهها عنها إلى الجانب الآخر؟ كل العرب متآمرون وكل أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية كل الشرق والغرب والشمال والجنوب يريدون وقف العنف المفرط الذي يمارسه النظام إلا إحدى عشرة دولة من بينها إيران وكوريا الشمالية والصين وروسيا وغواتيمالا وبيلوروسيا وحفنة أخرى من الدول التي يجمعها قاسم مشترك واحد: كلها غير ديمقراطية.

5--ألا يكفيكم ترديد مقولة الإصطفاف إلى جانب الدول المتآمرة على نظام الممانعة؟ فهل عندما يؤيد الظواهري وأوباما رحيل بشار يجعلهما حليفين؟ وإذا أيد حزب الله وأوباما سقوط القذافي يجعلهما رفيقي سلاح؟ وإذا إلتقى حمد بن جاسم وسعود الفيصل على رحيل بشارمع المشير الطنطاوي ومنصف المرزوقي يلغي الفوارق بينهم؟ ألا يمكن أن يكون شخص ما في صف جماعة 14 آذار في مسألة بشار وضدهم في كل شيء آخر، وضد تحالف 8 آذار في مسألة بشار ومعهم في كل شيء آخر؟ هل يمكن أن يبقى الإنسان مع حزب الله إلى الأبد وضد خصومه إلى الأبد وكأنه أصبح المعيار لكل قضايا الأمة؟ ونحن نقول إن حزب الله كان في صفنا عندما أيدنا ثورات تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين ثم عندما قلنا وما الفرق بين تلك الثورات وثورة سورية قالوا هذه مؤامرة ولا أحد في سورية يريد الثورة وكأن الشعب السوري لا يعشق الحرية والكرامة والتعددية وسيادة القانون ومحاربة الفساد. فكيف نقبل مثل هذا القول الشطط؟ هل الاصطفاف الطائفي هو المعيار، ونحن أبعد الناس عن الطائفية المقيتة؟ لماذا يجوز للأغلبية في البحرين أن تثور ونؤيدها في مطالبها وننتصر لها ونرفع شعاراتها في كل مقالاتنا وخطبنا ومحاضراتنا وعندما تثور الأغلبية المقهورة والمهمشة في سورية لا نؤيدها؟ كيف لأحد في الدنيا تبرير مثل هذا الموقف الأعوج علما أن مستوى القمع في سورية لا يقارن بمكان في العالم إلا في كوريا الشمالية الذي فتح شهية التوريث لدى الأنظمة الشمولية؟

6- ننتقد القيادة الفلسطينية ولا أحد يساوره شك أننا نعشق فلسطين، وننزل بلكماتنا على قيادة مبارك ولا أحد يشكك في حبنا لمصر ونصرخ ضد قيادة معتوه ليبيا دون أن ينال ذلك من إحترامنا وإجلالنا للشعب الليبي وليبيا، ونحرض ضد شاويش اليمن دون أن يمس ذلك من إجلالنا وحبنا لليمن بلدا وشعبا....ولكن عندما نصرخ ضد الدكتاتورية السورية وننتصر للشعب على النظام يصطف من تبقى من مؤيدي الدكتاتورية ويتهموننا بأننا نتآمر على سورية. أي منطق هذا؟ نحن أعلناها مرارا وتكرارا في كل ما صدر عنا من قول شفاهة أو كتابة أننا نعشق سورية شعبا وتاريخا وحضارة ومدنا وبادية وريفا وسجلا نضاليا يشرف كل العرب،هنا جذوري هنا قلبي هنا لغتي، لهذا نحن نريد لهذا البد العظيم أن يتعافي من داء الدكتاتورية القاتل. إقترحنا في البداية مثل الآلاف الحريصين على سورية أن يكون العلاج بالإصلاح الجذري والانصياع لمطالب الجماهير ولكن النظام والطبقة الحاكمة إختارت دروب الموت والقصف والتنكيل، فكيف يمكن لعروبي حريص على أمته أن ينحاز للنظام ضد الشعب؟

7-إنهيار الدكتاتوريات في كل الدنيا يؤدي إلى إنهيار حكم الأمن والعسكر والفساد والمحسوبيات والعلاقات القائمة على النفاق والتزوير والدجل ويحل محلها قيام نظام مدني يعتمد الكفاءة لا المحسوبية والتنمية الإنتاجية الشاملة بدل إعتماد إقتصاد الخدمات وتلعب فيه الصحافة الحرة دور الرقيب والناقد والمدافع عن مصالح الناس والفاضح للفاسدين وتشجيع الموهوبين والمخلصين....يعود أبناء الوطن المهاجرون للمساهمة في البناء بدل أن يفروا منه بحثا عن لقمة عيش وجرعة كرامة، وما هي إلا سنوات حتى تبدأ البلاد نهضة شاملة يتحسن الاقتصاد وتنتعش التجارة وتزدهر السياحة وتتعزز الثقة في العملة المحلية وترتفع المداخيل وتزداد ثقة المستثمرين في المستقبل وتتعدد المبادرات وينعكس كل ذلك على المواطنين جميعا لا على زبانية الرئيس وحواشيه وجواريه ورجال أمنه.

قارنوا أيها الرفاق بين تركيا في عهد العسكر وتركيا اليوم التي تحتل المرتبة 17 في العالم من حيث القوة الاقتصادية والبرازيل التي إنهارت إقتصاديا تحت حكم العسكر في السبعينات قد أنزلت بريطانيا مؤخرا عن المرتبة السادسة وجلست محلها وأن بولندا الفقيرة في عهد الشيوعية تحتل المرتبة العشرين وأن رومانيا الجائعة في عهد تشاوتشسكو تحتل المرتبة 47 وتشيلي التي دمرها بنوشية تحتل الآن المرتبة 43. عندما سئل رجب طيب أردوغان كيف يفسر الفائض في الميزانية الذي يعادل 150 مليار دولار قال بكل بساطة ،لأنني لم أسرق، وهو يقصد أن النظام بشكل عام ليس فاسدا. لذلك نؤيد سقوط الدكتاتوريات في كل مكان لما تفتحه من فرص عظيمة أمام كل أفراد الشعب بغض النظر عن ولاءاتهم وأحزابهم وأديانهم وألوانهم وأعراقهم.

8-ليس من حق أحد أن يفرض على الشعب السوري أن ينسى مجزرة حماة عام 1982. قد لا تعني هذه المجزرة شيئا لشلة من المحللين السياسيين الجالسين على الأرائك في بيروت، أو بقايا خلايا بعثية في الأردن واليمن أو حفنة من التروتسكيين الذين يصرخون يوميا على الفضائيات معلنين أن ثورة عالمية إنطلقت من لبنان ودمشق وطهران مستلهمة فكر تروتسكي والخميني معا لتحرير العالم. لكن تلك المجزرة لن تمّحي من ذاكرة الملايين في سورية الذين فقدوا أحبابهم وأقاربهم وأولاد عمومتهم وأبناء أخواتهم وجيران طفولتهم، ولا من ذاكرة الملايين في الوطن العربي والعالم الذين يرفضون المجازر كلها ويدينون مرتكبيها سواء إرتكبت في حماة أو دارفور أو حلبجة أو صبرا وشاتيلا أو دير ياسين أو سطيف ،على يدي الفرنسيين، أو ولاية غليزان ،على يد الميليشيات المسلحة، أو رواندا أو بورندي أو مدغشقر أو هايتي أو مانروفيا أو شاربفيل أو سانتياغو أو مذابح الهنود الأصليين في الأمريكتين.

9-وأخيرا، لماذا لا تثقون في الشعب السوري العظيم؟ لماذا تعتقدون أن سقوط نظام القمع والموت سيؤدي في النهاية إلى إستبداله بنظام خائن وعميل ومتصالح مع الكيان الصهيوني؟ كيف لأحد أن يتخيل أن هذا الشعب المناضل وريث سلطان باشا الأطرش ويوسف العظمة وإبراهيم هنانو وجول جمال وصالح العلي سيتنازل عن وطنه المحتل ويفرط في فلسطين والمقاومة العربية ويتحول إلى عميل للغرب وإسرائيل؟ وهل سيقبل الشعب السوري بأن تقوده ثلة عميلة تفرط في البلاد وتتنازل عن الأرض والكرامة معا وهي التي أطلقت ثورة الكرامة؟ هل الوطنية السورية بدأت مع عائلة الأسد وستنتهي برحيل بشار؟ كيف يصور لكم خيالكم الغريب أن البديل لهذا النظام الجائر سيكون نظاما عميلا؟ وهل تعتقدون أن مستقبل سورية مرتبط بتصريح أو أمنية أو بيان يصدر عن برهان غليون؟ هل يقبل الشعب السوري نظاما لا يمثل طموحه وآلامه وآماله ويضع سورية على طريق النهضة الشاملة ويحول جيشها من جيش يطلق النار على شعبه إلى جيش يحمي الوطن فعلا ويعمل على تحرير الأجزاء المحتلة منه بعد أن غاب عنها 45 سنة. ألم تشاهدوا تصرف الجماهير المصرية ليلة التاسع من أيلول /سبتمبر الماضي عندما لم يعجبها موقف المجلس العسكري من مقتل ستة جنود مصريين على أيدي السلطات الإسرائيلية؟ ألم تقتحم الجماهير الغاضبة سفارة الكيان وهرب الدبلوماسيون الصهاينة من الأبواب الخلفية متخفين بملابس عربية وبعد أن تدخل أوباما شخصيا لدى المشير؟ هل كان يمكن أن يحدث هذا في عهد مبارك؟

أود في الختام أن أذكر أصحاب نظرية المؤامرة بمقولة هيغل، الفيلسوف الألماني العظيم، الذي قال ،إن أعظم درس تعلمناه من التاريخ أننا لا نتعلم من التاريخ، أبعد إنهيار إمبراطورية الأتحاد السوفييتي التي قامت على النظام الشمولي بقي من يراهن على أنظمة الحزب الواحد والقائد الواحد؟ ألم يسقط الطغاة الواحد بعد الآخر فكيف تراهنون على نظام دموي ولغ في دم شعبه ؟ ومتى إنتصر قائد دموي على شعب قرر أن يضحي بكل شيء من أجل كرامته وحريته واسترداد حقوقه المهيضة وبناء دولته الواعدة بالخير والرخاءوالعزة والمنعة لكل مواطنيها؟

أستاذ جامعي وكاتب عربي مقيم في نيويورك

انطباعات سورية

عبده وازن

لا أعلم إن كان شاعر «البعث» وشاعرالطفولة البعثية سليمان العيسى، يشاهد على الشاشات الفضائية صور الأطفال السوريين يسقطون تحت النيران «البعثية»، مضرّجين بدمائهم النقية وابتساماتهم التي تظلّ مرسومة على شفاههم. شاعر «البعث» الذي كتب الكثير من القصائد الطفولية، لا أدري إنكان قادراً على رؤية هذه المشاهد القاسية التي يتهاوى فيها الأطفال الذين تغنّىبهم، متفائلاً بمستقبل لهم، وجميل... أولى حزب «البعث» في سورية عالم الأطفال كبير اهتمام و«جيّش» لهم شعراء وروائيين وقاصين، فهم ذخيرة الحزب و«أشباله» المقبل ونوجنوده لاحقاً... وقد علّمهم أدباء «البعث» أن الاستشهاد عمل بطولي إن كان في سبيلالحزب، وأنّ الملائكة في انتظارهم عندما يستشهدون... الآن يسقط الأطفال مثلاسنابل الخضراء تحت ضربات مناجل «الشبيحة» وفي القصف الذي يدمّر الأحياء والمنازل.

لا أدري ماذا سيكتب سليمان العيسوسائر الشعراء والكتّاب البعثيين، المجنّدين لخدمة الأطفال والطفولة. ماذا سيكتبهؤلاء؟ هل سيجرؤون على تلوين قصائدهم بدماء الأطفال الأنقياء الذين لم يرحمهم حزب «البعث»؟

•••

منحت الشارقة الفنان السوري دريدلحام جائزتها الكبرى للإبداع المسرحي العربي في دورتها السادسة، «تكريماً لدورهالكبير في إثراء حركة المسرح العربي». يستحق دريد لحام مثل هذه الجائزة، فهو ممثلكبير، يملك جمهوراً عربياً غفيراً، واستطاع من خلال أعماله التلفزيونية أن يغزوالمنازل العربية والسهرات والليالي... أما مسرحياً فهو لم يملك حضوراً بارزاًوارتبط اسمه بالشاعر الكبير محمد الماغوط، حتى بات من الصعب فصل الاسمين، واحدهماعن الآخر. وليت دائرة الشارقة ذكرت في براءة الجائزة، الدور الذي أداه الماغوط فيصنع صورة دريد لحام المسرحية. فلولاه لسقط لحام في متاهة الأعمال التجارية التيوقع فيها لاحقاً بعد انفصاله عن الماغوط. لا يهمّ إن كان لحام يستحق هذه الجائزةالمسرحية أم لا، لكنّ هذا التكريم بدا تكريماً للسلطة التي يملكها دريد لحام،الممثل «الملتزم» الذي عمل طويلاً في كواليس النظام وفي جهازه الرقابي. وبدت نافرةجداً ومستهجنة، مواقفه السافرة في تأييد حزب «البعث» والدفاع عنه في معركته الشرسةضد المواطنين، المعارضين والمحتجين والمنادين بالحرية والخبز. ليت مانحي الجائزةأعلنوا منحها لدريد لحام عن أعماله القديمة، بل ليتهم منحوها لـ «غوار الطوشي»،هذه الشخصية البديعة، التي أبدع لحام في أدائها ورسم ملامحها، بطرافة ومتانة،وكانت هي بمثابة المفتاح الذي دخل به قلوب جمهوره الكبير.

إلا أن هذه الجائزة أعادت دريد لحامإلى الضوء، بعد عزلته التي يعيش فيها الآن، جراء الحملة التي قام بها ضده أهل الفنفي سورية والعالم العربي، تبعاً لانحيازه إلى الجرائم التي يرتكبها حزب «البعث» ضدجمهوره تحديداً.

•••

لم يكن يتهيأ لي أنني سأشاهد من جديد«الراجمات» البعثية، تطلق حممها عشوائياً على الشعب السوري مثلما كانت تطلقها علىاللبنانيين والفلسطينيين في لبنان. كانت هذه «الراجمات» التي تُسمى «أرغن ستالين» لكونهاروسية الصنع، تزرع الرعب في نهاراتنا ولياليناً. إنها أشد قسوة من المدافع الأخربوقذائف الدبابات والقصف العشوائي. وقد أمطرت لبنان بما لا يُحصى من الحمم أو الشهبالنارية، الحارقة والمدمّرة. أذكر - كما يذكر الكثيرون من اللبنانيين - كيف كنانرتعب عندما نسمع «طلقتها» كما يقال، ثم أزيز عبورها فوقنا ثم انفجارها. أصبح لهذهالراجمات في حياتنا آنذاك، أيام القصف

البعثي، قاعدة نواجه من خلالها حممها. كناننتظر بصمت وخوف طلقتها التي تُسمع من بعيد، ثم نصغي إلى أزيزها في السماء، فإذااجتازنا هذا الأزيز (كنا نسميه صفيراً) كنا نطمئن أنها لن تسقط علينا لأنها عبرتفوقنا. أما إذا لم نسمع الأزيز، فكنا نرتجف ونخفي أنفسنا مثل الفئران، تحت الأسرّةوفي الزوايا، داخل الملجأ الذي كنا نختبئ فيه، ليقيننا أنها ستسقط علينا. وكم منقذائف سقطت فوقنا وبالقرب منا، محدثة دماراً كبيراً... لكن ما كان يميّز «الراجمة»أو «أورغ ستالين»، هو الأزيز الموزّع كالموسيقي الذي كانت تحدثه عندما تطلقالقذائف في وقت واحد: أربعون قذيفة تتطاير معاً في السماء ثم تسقط كل قذيفة فيمكان... وأذكر جيداً كيف بلغت هذه الحمم أقصى غزارتها خلال حرب التحرير التي خاضهاالجنرال ميشال عون عام 1989، وكلّما سمعناه في التلفزيون أو الراديو يتحدث عن قرباقتلاع «مسمار» حافظ الأسد - كما كان يقول حرفياً - كانت تتساقط القذائف مثل زخاتالمطر، ناشرة الدمار والرعب في المناطق التي كانت تسمى «محررة».

•••

ما أن انطلقت رابطة الكتّاب السوريين الأحرار حتى فتحت الباب على مصراعيه أمام الكتّاب العرب الذين يرغبون في الالتحاق بها. ولبّى عدد كبير من الكتّاب العرب هذا النداء، رغبة منهم أولاً في دعم هذه الرابطة التي أعلنت أول انقلاب على اتحاد الكتّاب الموسوم ببعثيته، ثم في الانتماءإلى حركة المعارضة التي يعتبرونها حركتهم، هم الذين يناضلون، ولو من بعيد،وبالكلمة، ضد النظام البعثي... تدفقت الأسماء بوفرة، من مصر وفلسطين ولبنان وسائرالبلدان العربية. فالانتماء إلى الرابطة هذه، هو انتماء إلى عصر الحرية، الحرية التي صادرها اتحاد علي عقلة عرسان الذي تبوأ رئاسة الاتحاد البعثي طوال ربع قرن...أما الكتّاب اللبنانيون الذين أعلنوا انضمامهم إلى هذه الرابطة فإنما وجدوا فيها فرصة لمواجهة اتحاد الكتّاب اللبنانيين الذين سيطر عليه - وما زال - شبح علي عقلةعرسان، «البعثي» الهوية والطموح.

•••

قرأتُ بشغف كتاب «مذاق البلح» للسينمائي السوري محمد ملص. يكتب ملص ما يشبه اليوميات، مستعيداً ذكريات الماضي الجميل، لاسيما ذاك الذي أمضاه في روسيا، برفقة الروائي المصري صنع الله إبراهيم، علاوة علىنصوص كتبها في ظروف أخرى. يوميات جميلة، تكشف زوايا مجهولة من سيرة ملص وسيرةإبراهيم، وقد استخدم فيها صاحب «أحلام المدينة» عينه السينمائية، جاعلاً مناليوميات، مشاهد بديعة، طريفة ونزقة، وحافلة بالأفكار النافذة والملاحظات والهوامش.

أعتقد أن محمد ملص الذي يعيش تفاصيل الثورة السورية، سيكتب لاحقاً يوميات أخرى، قد يكون عنوانها «مذاق الثورة». هذاالكتاب، على ما أظن، سيكون بديعاً بدوره، وإن مضمّخاً بالدم البريء.

شاعر وناقد من لبنان

مقالتان في الأسد الصغير

سيد عطاء الله مهاجراني

بشار الأسد ابن أي شارع؟

بشار الأسد، مثل والده حافظ الأسد، شخص ثرثار. في إحدى المرات، روى نائب وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق جيمس بيكر قصة لا يمكن تصديقها عن حافظ الأسد. وصف بيكر حافظ الأسد بأنه كان ممثلا بارعا، تحدث عن عديد من الأمور، لكن كي نكون صادقين، لم يقل أي شيء! قال بيكر إنه «بعد اجتماع واحد امتد لنحو 9 ساعات، شعرت أنني كنت في حالة من اللاوعي!» على أي حال، ألقى بشار خطابه الثالث يوم 11 يناير (كانون الثاني).

نتذكر أن بن علي ومبارك تخليا عن السلطة بعد خطابهما الثالث! في خطابه الثالث، قال بشار الأسد: «أعلم أنني غبت فترة طويلة عن الإعلام لكنني اشتقت لمثل هذه اللقاءات للتواصل المباشر مع المواطنين لكني كنت دائما أقوم بمتابعة الأمور اليومية وتجميع المعطيات كي يكون كلامي مبنيا على ما يقوله الشارع، أردت أن أكون معكم لأنني ابن هذا الشارع وعلى من يريد أن يخاطب الشارع أن يكون في الشارع مع المواطنين.. أردت أن أكون معكم لأوجه الشكر لكم ولأبنائكم وأبث محبتي لكل مواطن سوري خرج في كل ساحة وفي كل حي وكل جامع ومدرسة وجامعة».

خلال تلك الفترة من الغياب، قتل أكثر من ستة آلاف شخص، والآن، يستخدم بشار كلمة أساسية، إنه يزعم أن خطابه كان مبنيا على مطالب السوريين. وينظر لنفسه على أنه متحدث باسم شوارع سوريا. إنه ابن الشارع. هل يمكننا أن نصدقه. هل يمكننا أن نثق به. ما مطالب الناس في الشوارع، وما هو رد فعل الحكومة السورية تجاهها؟ من الواضح أننا نشهد فجوة كبيرة بين الحكومة السورية والسوريين. ومن المؤكد أن خمسة آلاف شخص على الأقل لقوا مصرعهم حتى الآن، وهذا أمر لا يمكن إنكاره.

لقد ارتكز خطاب بشار بالأساس على نظرية المؤامرة. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ناقش فيها بشار مفهوم المؤامرة. لكن في هذه المرة، كان لديه تفسير جديد، وضمن بعض الدول العربية وبعض السوريين كأجزاء من المؤامرة الأجنبية. بعبارة أخرى، حاول أن يغطي على الموضوع الرئيسي. لقد قامت الجامعة العربية بتعليق عضوية سوريا في نوفمبر (تشرين الثاني) الماضي وأعلنت عن فرض عقوبات ضدها، كما أرسلت أيضا لجنة مراقبة إلى سوريا بهدف تحديد ما إذا كانت تلتزم بخطة سلام تلزمها بسحب القوات من المدن وإطلاق سراح السجناء والحوار السياسي أم لا.

تمتلك السلطات السورية دبابات سرية في مجمعات عسكرية وأمنية أو عربات مصفحة أعيد طلاؤها باللون الأزرق الخاص بسيارات الشرطة بهدف تضليل المراقبين. لقد تم إطلاق سراح عدد محدود فقط من الآلاف الذين تم احتجازهم أثناء حالة الاضطراب التي عمت البلاد. أعتقد أن بشار الأسد أخفى استراتيجيته الوحشية، واستخدم الإصلاح كستار للتغطية على الأفكار الحقيقية التي تعتمل في ذهنه. مثلما هو متوقع، أثنى بعض المؤيدين للنظام على خطاب بشار. على سبيل المثال، نشر أحدهم مقالا في صحيفة «النبأ» اللبنانية وأعيد نشر المقال في الصحف ومواقع الإنترنت السورية مثل موقع «شام برس» الذي نشر هذا المقال يوم 11 يناير (كانون الثاني) الماضي.

وتشبه العبارات والكلمات المستخدمة في هذا المقال كثيرا تلك المستخدمة في وسائل الإعلام الحكومية الإيرانية: «كشف الرئيس السوري بشار الأسد المستور وبانت خيوط حياكة المؤامرة علي سوريا والمنطقة واضحة وضوح الشمس

لأي مراقب لا يستخدم المنظار الأميركي والغربي.. هذه (الثورة) التي لا يمكن أن تكمل عملها إلا بالأجرة، وعندما ينقطع المال، فلن يكون لها أي وجود وهي بالتأكيد ستقف عند أعتاب البنوك و(القجج) الفارغة حتى من العملات الرخيصة كالشيقل الإسرائيلي».

هذا رد فعل شهير جدا وقديم. إذا انتقدت بشار الأسد وقواته العسكرية والأمنية، واستجوبتهم حول قتل السوريين الأبرياء، فلن يفعلوا شيئا سوى اتهامك بالعمل لحساب أميركا وإسرائيل. ولهذا، ففي نهاية خطابه، أثنى على قوات الأمن والجيش: «إن ثقتي في ذلك تنطلق منكم ومن رجال قواتنا المسلحة.. رجال الضمائر الحية والعزائم الصلبة.. الذين يعبرون عن وجدان الشعب ويحمون قيمه وتطلعاته ويقدمون التضحيات كي ينعم بالأمان فباسمكم جميعا وباسم كل مواطن شريف نوجه لهم التحية وهم يقفون على أهبة الاستعداد ويصونون شرف الوطن ووحدة ترابه وشعبه العربي».

يبدو بصورة ما أن بشار يحاول إصلاح الأخطاء التي وقع فيها في حواره مع باربرا والترز. الآن، يثني على الجيش، وهاجم الإخوان المسلمين واصفا إياهم بـ«إخوان الشياطين». إضافة إلى ذلك، خاطب السوريين بلهجة الواعظ قائلا: «إن هذه ليست ثورة.. فهل من الممكن أن يعمل الثائر لمصلحة العدو بما يعني ثائرا وخائنا.. هذا غير ممكن.. وهل من الممكن أن يكون من دون شرف ولا أخلاق ولا دين.. لو كان لدينا فعلا ثوار حقيقيون بالصورة التي نعرفها لكنت أنا وأنتم وكل الشعب الآن نسير معهم وهذه حقيقة».

من الواضح أن بشار يرغب في القول إنه لا توجد ثورة حقيقية في سوريا. جزء من زعمه صحيح، لأن السوريين طالبوا في البداية بالإصلاح؛ طالبوا بالعدالة والحرية والديمقراطية. لكن قبضة بشار الحديدية غيرت الوضع إلى الأسوأ. فبعد سقوط أكثر من 6 آلاف قتيل من صفوف المتظاهرين وقوات الأمن، يتضح، يوما بعد يوم، أن بشار سيواجه أسوأ موقف في حياته. في سوريا، نواجه ثالوثا - أسرة واحدة وحزبا واحدا وطائفة واحدة - يحكم الدولة. وهذه الدائرة المغلقة يجب أن تفتح الآن. إن سوريا أكبر بكثير من أسرة الأسد. والمناخ السياسي أكثر شمولية من مجرد حزب واحد، وكذلك المسلمون والإسلام أكبر من مجرد طائفة واحدة في سوريا. كل يوم جمعة، نشاهد عددا ضخما من السوريين يؤدون صلاة الجمعة.

إنهم السوريون، وصوتهم هو صوت الشوارع. بشار لا ينتمي إلى تلك الشوارع. إذا كانت الأمة السورية تدعمه بحق، إذن لماذا تعج كل المدن بالدبابات؟ إن بشار يعجز عن إخفاء الجرح الغائر في سوريا. ومن يصوغون خطاباته يعبثون بمصيره.

بشار الأسد وشعب سوريا

أجرت الصحيفة التركية «جمهورييت» مؤخرا مقابلة مع الرئيس بشار الأسد، التي فسر فيها الأوضاع الحالية في سوريا من وجهة نظره الخاصة. بداية، كان أمرا لا يمكن تصديقه بالنسبة لرئيس مثل بشار الأسد، أن يتحدث أحد أنصاره في البرلمان السوري زاعما أن سوريا والمنطقة لا تكفيان بشار، وأنه يجب أن يحكم العالم بأسره! وجعلني هذا أسترجع مقولة شهيرة لنابليون بونابرت. قال بونابرت إن كل شخص يمكنه ترويض زوجته، فهو قادر على ترويض دولة بأكملها، لكن كل شخص بإمكانه إدارة شؤون نفسه، بإمكانه إدارة شؤون العالم أجمع!

من الواضح جدا أن بشار عاجز عن إدارة سوريا. وهو يدعي أن السواد الأعظم من المتظاهرين قد خرجوا إلى الشوارع لأجل المال! يقول: «المخطط ضد سوريا مر بثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى هي مرحلة المظاهرات.. جزء كبير من هذه المظاهرات كان مدفوعا.. في بداية الأزمة كان سعر المتظاهر عشرة دولارات.. الآن أصبح 50 دولارا أو مائة دولار حسب المنطقة ولكن كانوا يتوقعون أن يكون هناك فعلا ثورة حقيقية من خلال المظاهرات وثورة سلمية، كما حصل في مصر وتونس، حتى شهر رمضان الماضي فشلوا في تلك المرحلة.. انتقلوا بعدها لخلق مناطق في سوريا تسيطر عليها العصابات

المسلحة بشكل كامل على طريقة بنغازي في ليبيا؛ فجرب الجيش هذه المحاولة التي استمرت حتى شهر مارس (آذار) الماضي حيث فشلوا في المرحلة الثانية.. فانتقلوا لعمليات الاغتيال الفردية وارتكاب المجازر بحق المدنيين، بالإضافة لمهاجمة مؤسسات الدولة بالمتفجرات».

يعتبر هذا النوع من التبرير شهيرا جدا. قبيل اندلاع الثورة في إيران، عندما كان المتظاهرون يخرجون إلى الشوارع والميادين بأعداد ضخمة، أشار رئيس الحكومة العسكرية (الجنرال أزهري) إلى أن هؤلاء الأفراد أتوا من دول أخرى. وحينما كان الناس يرددون صيحة الله أكبر كل ليلة من أسطح المنازل أو من خلف النوافذ، زعم أن تلك الأصوات منبعثة من أجهزة تشغيل أشرطة الكاسيت!

وبعد اندلاع الثورة، حينما بدأ بعض الكتاب والصحافيين في انتقاد الحكومة، قال آية الله جناتي، الإمام الذي كان يؤم المصلين في صلاة الجمعة، إنهم قد تلقوا 20 مليون دولار من أميركا. وفي مصر، بدا واضحا أن أحمد شفيق قد فاز بأكثر من 10 ملايين صوت، غير أن معارضيه ادعوا أنه دفع مبلغا ضخما من المال للمصريين كي يصوتوا لصالحه. يمكننا أن نجد كثيرا من الأمثلة المماثلة. وهذا يعني أن الحكومات تعتقد دائما أنها تنتهج المسار الصحيح، بينما ينتهج الشعب المسار الخاطئ.

في خمس دول، كنا نواجه خمسة أنواع مختلفة من الأساليب فيما يتعلق بالمنهج الذي اتبعته الحكومات في التعامل مع شعوبها. في تونس، في أعقاب قيام محمد بوعزيزي بإحراق نفسه موقدا شرارة مظاهرات عارمة اندلعت في ديسمبر (كانون الأول) 2010، فر بن علي إلى السعودية. لقد أدرك بن علي وإدارته أن الشعب لم يقبل حكمه، ومؤخرا، تقدم هو وزوجته، ليلى الطرابلسي، باعتذارهما لأسر الضحايا في تونس، وطلبا من الشعب الصفح عنهما.

وفي مصر، استغرقت عملية خلع حسني مبارك وقتا أطول، مما أسفر عن سقوط عدد هائل من الضحايا المصريين في ميدان التحرير. وبعد 18 يوما، أعلن مبارك تخليه عن منصبه.

وفي اليمن، أعلن عبد الله صالح، أنه سيظل في منصبه حتى نهاية مدة رئاسته، وقتل كثيرا من اليمنيين. وفي ليبيا، استخدم العقيد القذافي القذائف ضد شعبه، وادعى أن المتظاهرين يتعاطون عقاقير هلوسة. رأيناه في آخر أيامه، وشاهدنا بأعيننا ما حدث له. كل هؤلاء الحكام استخدموا مفردات متشابهة وأساليب خطاب متقاربة. ووجهت الاتهامات إلى شعوب مصر وتونس واليمن وليبيا جميعها بأنها قد وقعت ضحية لخداع من قبل دول أجنبية، بتلقي دولارات أميركية، إلى ذلك من الاتهامات الأخرى المشابهة.

إن أسلوب تعامل سوريا مع شعبها في الوقت الراهن يعد أسوأ رد فعل على احتجاجات شعبية. كانت ليبيا حكومة ودولة مستقلة بذاتها، وكان القذافي هو زعيم قبيلته، كان موقفه وأفعاله والخطاب الذي استخدمه غريبا. على الجانب الآخر، درس الأسد في المملكة المتحدة، ولا يبدو شخصا أحمق، ولهذا يظهر على السطح سؤال، ألا وهو: لماذا يدعي أن شعبه يتلقى 10 دولارات أو 50 أو 100 دولار نظير المشاركة في مظاهرات ضد نظامه؟ ألم يدركوا أن النظام يستخدم المدفعية في قصف مدنهم ومنازلهم؟ لماذا يفر أفراد الشعب إلى تركيا ولبنان؟ هل الإقامة في مخيمات اللاجئين أسهل بالنسبة لهم؟ كل هذا يوضح أننا ندور في حلقة مفرغة إذا ما حاولنا فهم موقف وسلوك النظام السوري، أو على الأقل بشار الأسد، في ضوء تسليمنا بأنه صانع القرار الرئيسي في سوريا. أعتقد أن بشار الأسد في أضعف فترات حياته وحكمه؛ أولا: يظن أن شعبه يتلقى دولارات من أجل المشاركة في المظاهرات، ثانيا: يعتقد أن سوريا في أفضل حال ممكن!

لدى ديفيد أوين كتاب مهم يحمل اسم «في المرض وفي السلطة». وفي هذا الكتاب، يركز على الأمراض الجسدية التي أصيب بها حكام الدول المختلفة، مثل شاه إيران والرئيس الفرنسي ميتران، اللذين توفيا جراء إصابتهما بمرض السرطان. لكني بصفة شخصية أعتقد أن المرض العقلي أسوأ تأثيرا. فالقذافي لم يكن مصابا بمرض جسدي، لكنه كان مجنونا بلا شك. والرجل المجنون يخالجه اعتقاد قوي بأنه محور العالم. إنه أيقونة الحقيقة. رأيت عنوانا فرعيا باللغة العربية على شاشة التلفزيون السوري. كان مأخوذا من زعم بشار الأسد أن النظام السوري يسير على النهج الصائب.

ليس ثمة أدنى شك في أن بشار الأسد سوف يعثر على الحقيقة في المستقبل، وسوف يعتذر في نهاية المطاف للسوريين، ولكن ذلك سيكون بعد فوات الأوان.

الآن قد ندمت وما ينفع الندم!

وزير الثقافة في عهد الإصلاحيين من إيران

علي كنعان الشعب السوري واحد

علي كنعان

ماذا يقولُ الدمُ للرصاص؟ أينحني مستجدياً خزيان.. في الحضرةِ المهيبة؟ يؤكِّد الطاعةَ والولاء: هل ارتويتَ، يا أخي؟/ أم يعلنُ الثورة.. ويجرف الطغاةَ والطغيان؟

أكتب هذه الزاوية مساء ،الجمعة العظيمة، والدماء الزكية ما تزال طرية في الشوارع والساحات. والتاريخ لن ينسى أنها جمعة عظيمة موجعة ومجيدة بحق وبكل اللغات والرؤى والمقاييس. إن كلماتنا تبدو باردة متخلفة عن هذا الإيقاع النبيل المتسارع للأحداث التي تصنعها الجماهير كل يوم. وكم كنت أتمنى لو كنت بين هؤلاء الشباب، من جيل أحفادي، عسى أن أتلقى أول رصاصة ،مندسة، غادرة فأريح وأستريح. وإذا كانت المرارة توشك أن تخنق الروح من كثرة أعداد الضحايا والشهداء، فليس في الأفق من حل وطني عادل غير سقوط النظام وتفكيك أدواته القمعية واسترداد الأموال المنهوبة من ثروة الوطن وجهود أبنائه الشرفاء.

وإذا كانت تحية الشعب التركي وشكره واجبا علينا لتحركه الأخوي في دعم الانتفاضة السورية ومطالبها العادلة بالحرية والكرامة، وخاصة في غياب الحضور العربي، فإن العتب يبقى شديدا على السيد أردوغان لأنه لم يقف بقوة كافية إلى جانب الدم الذي أريق في شوارع المدن السورية، فليس معقولا ولا مقبولا بأي منطق أو شريعة أن يبذل الزعيم التركي الكبير مساعيه للمصالحة بين النظام السوري والعدو الصهيوني، ولا يتحرك بالقدر الكافي لدفع هذا النظام الاستبدادي الغاشم إلى مصالحة شعبه، رغم نصف قرن من مكابدات الظلم والاستبداد. ولعله فعل ذلك سرا، ولكن دون جدوى!

مر على انطلاقة الانتفاضة الشعبية في سورية نحو ستة أسابيع، ولم نسمع أو نشهد أي إجراء - ولو بصيغة شكلانية - يتخذه النظام بالتواصل والحوار مع رموز الشباب الثائرين أو مع رموز المعارضة والمفكرين السياسيين والحقوقيين من أمثال الدكتور طيب تيزيني، مصطفى رستم، برهان غليون، رياض الترك، هيثم المالح، عبد المجيد منجونة، عارف دليلة، رياض سيف، على سبيل المثال لا الحصر. الحوار القمعي الوحيد الذي أجراه النظام على طريقته القمعية كان باعتقال المناضلين الناشطين فايز سارة، غياث عيون السود، جورج صبرا، محمود عيسى وعشرات غيرهم. إنه نظام يلعب في الوقت الضائع، بعد أن هدر في المناورة والتسويف والدجل كل وقت صالح للمعالجة والإصلاح. المراسيم والقرارات التي تصدر لا ينفذها أحد، لسبب بوليسي مفضوح، وهو أن الأوامر والقرارات القابلة للتنفيذ تصدر شفاهيا أو عبر هواتف الطغمة الحاكمة، وهي هواتف رباعية الأرقام، يوم كانت هواتف الجماهير في دمشق مؤلفة من ستة أرقام قبل أن تتحول إلى سبعة، ولا أدري إن كانت أرقام الشبكة الأخطبوطية قد تغيرت كذلك.

إن أقذر لعبة دموية يتخذها قادة النظام وأبواقه هي التلويح بالوحش الطائفي وانتصار الخط السلفي، لكن جماهير الانتفاضة - ومن ورائها تسعين بالمئة من أبناء الوطن - تؤكد يوما بعد يوم أننا شعب سوري واحد، وأن الخدعة الاستعمارية القديمة ،فرق تسد، لا مكان لها في ثورة الحرية والكرامة. تلك لعبة صبيانية مكشوفة ولا تستحق التوقف عندها أو إعارتها أي اهتمام.

والسؤال الجارح الذي لا يمكن فهمه ولا استيعابه: كيف يقبل الطبيب، وما يسمى بالحكيم في التراث، كل هذا الدم المسفوك ظلما وعدوانا ويتغاضى عن رؤيته ويسكت عن مرتكبيه؟ لو أن الجنرال رستم غزالة أو معلمه المنحور غازي كنعان، هو الذي يحكم سورية بطريقته البوليسية كما حكما لبنان، كنا فهمنا بعض ما يجري عندنا وتجاوزنا السؤال. أما أن يكون الحاكم طبيبا، فهذه حالة غير مفهومة ويعجز عن قبولها أو تصورها أي عقل سليم.

وأود هنا أن أشير إلى أن الإصلاح كان ممكنا منذ اليوم الأول لانتفاضة درعا، لو اتخذ الدكتور الرئيس موقفا تاريخيا مشهودا، تخطى به حدود القرابة، وأمر باعتقال ومحاسبة عاطف نجيب مدير الأمن في درعا ومعه رامي مخلوف رأس الفساد وكبير مافيا النهب المالي في البلد. لكن بداية النهاية كانت في مهزلة البرلمان، ثم جاءت الوزارة الجديدة وكانت الجلسة الإرشادية الأولى مدعاة للضحك والبكاء معا، خاصة أن إحدى جميلات المجلس راحت تبتسم بمسرة غامرة أو سخرية واضحة، ولا من سبب لذلك إلا إذا كان لمسة فنية من المخرج لتطرية المشهد الكالح.

ولكن، إلى أين يمضي النظام بألاعيبه الدموية؟ ولماذا سارع إلى مسح مضمون مراسيمه قبل أن تأخذ طريقها إلى النشر؟ وقيادة البعث أو الجبهة التي يحكم النظام باسمها، أين هي من كل ما يجري من فظاعات؟ وهل حزب البعث أكثر من قناع لعصابة المافيا التي تحكم البلد وتتحكم بمقدراته منذ عشرات السنين؟ وهل جيء بوزير الداخلية الجديد ليثبت تفوقه في البطش والتنكيل؟.. أم أنه مجرد رِجل كرسي، كما يقول المثل الشعبي؟.. أسئلة كثيرة تدور في رأس كل سوري وكل عربي حريص على سلامة سورية ومكانتها ومستقبلها. لكنها أسئلة سرعان ما تتبخر في الهواء المحموم وتضيع بلا صدى ولا جدوى ولا جواب.

وهناك لعبة جانبية رديفة لبالون السلفية وأخطارها، وهي مرتبطة بما يطرح الإعلام الغوغائي حول المؤامرة والتدخل الأجنبي. وأشباح هذه المؤامرة كانت تتسلل مرة من الأردن ومرة من لبنان، ولنترك جانبا قصة الأسلحة المهربة والصفقات السرية المتبادلة بين المخابرات السورية والعراقية، فهي أكثر من مضحكة. والسؤال الأخير هنا: متى كانت سورية في منجاة من التآمر الخارجي، خاصة أن شطرا كبيرا من أرضنا الغالية ما زال تحت الاحتلال؟ هذا إذا تجاوزنا غارات الطيران الصهيوني واغتيال الحاج مغنية والعميد سليمان. لكن من يتأمل المشهد وما يجري فيه من أحداث دامية وترهات رسمية جوفاء يكتشف أن المقصود بالمؤامرة هم جماهير الانتفاضة المطالبة بالحرية والكرامة.

لكن الحقيقة التاريخية الواضحة والدامغة في الوقت ذاته، هي أن إراقة قطرة دم واحدة من قلب شهيد تشكل حدا تاريخيا فاصلا بين ظلمات الماضي ونور المستقبل. لقد انتهى ما يسمى بحكم البعث في سورية، عاجلا أو آجلا، وربما بصورة مختلفة عن نهايته في العراق. ولعل الفارق الوحيد بينهما هو أن نسبة لا تقل عن الثلث من جماهير الحزب المقموعة في بلادنا سوف يشاركون الشعب، كل الشعب، أفراح انتصاره في انتزاع حرياته الديمقراطية وتحقيق التغيير الوطني الشامل. والتغيير الجذري هو الأمل الباقي.

شاعر من سورية

عمر قدور الحاكم الأب والحاكم الإبن:

إنها الروح الخالدة تستمر مع الوريث

عمر قدور

منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي راجت في الإعلام السوري، وفي أوساط البعث ومؤيدي النظام، عبارات مثل «سيد الوطن» و«الأسد إلى الأبد»، وأخذت هذه الأوساط بتلقف كل ما يفيد بتمجيد الرئيس وتقديسه مروِّجة إياه في تنافس ومزاد محمومين بين المتسلقين والانتهازيين الذين التقطوا المزاج الجديد للنظام الذي يُراد تكريسه على نحو حثيث.
في الواقع لم تكن الألقاب غير الرسمية وليدة تلك المرحلة فقط، وإن لم تشكل سياقاً فاضحاً ومستمراً من قبل، فبعد ما سُمّي بـ«الحركة التصحيحية» وفي أول مؤتمر لحزب البعث أعقبها أُطلق على الأمين العام الجديد للحزب لقب «قائد المسيرة»، بناءً على اقتراح من «الرفيق مصطفى طلاس» كما صرّح هو نفسه في أحد الأحاديث التلفزيونية. وفيما كان لقب «الأمين العام» لقباً حزبياً رسمياً قابلاً للتداول، ولو نظرياً، فإن ابتداع لقب «قائد المسيرة» كان شأناً شخصياً يخص الأمين العام آنذاك حافظ الأسد، وقد أُلفت الأغاني التي تتضمن ذاك اللقب الذي يتضمن قيادة مسيرة الحزب و«الأمة العربية»، والذي يتضمن على نحو مضمر تفويضاً استثنائياً ونهائياً لشخص الأمين العام، وإن لم يتضمن كلمة إلى «الأبد».
ومع أن مشروع التوريث رُوِّج تحت ستار «التطوير والتحديث» إلا أن وعد التحديث لم يصل إلى الألقاب ودلالاتها، ففي أول مؤتمر لحزب البعث إثر وفاة الرئيس الأب تم نقل لقب «قائد المسيرة» إلى الرئيس الابن، في إشارة إلى استمرارية الحكم بكل مقتضياته ومندرجاته، وألقابه أيضاً.
إلا أن شعار «إلى الأبد» يختلف عن عبارات التمجيد والتقديس السابقة واللاحقة، وقد لقي التفاتة خاصة بتكريسه كشعار يردده طلاب المدارس يومياً وإلزامياً، ولم يعد معنى «الأبد» المُراد ترسيخه من قبيل المغالاة والتطرف كما بدا أولاً، بل بات هذا المعنى من أدبيات السياسة الرسمية التي رفعت الرئيس باطراد إلى مرتبة الألوهة، فلم تبقَ المسألة في إطار مبايعته رئيساً طالما ظل على قيد الحياة، وتجاوزتها إلى كونه رئيساً على مرّ الزمن؛ رئيساً لن يجرؤ الموت ذاته على أن يطال شخصه. بهذا المعنى لم يكن مشروع التوريث مشروعاً سياسياً بسيطاً؛ إنه من قبيل مغالبة الموت البيولوجي بانتقال روح الميت واستمرارها في حياة جديدة متجددة، وهو انتقال بالسياسة من مجال المُعاش والملموس إلى مجال الميتافيزيك.
حتى لقد كانت صدمة للكثيرين أن «الأبد» قد مات؛ لكن الصدمة لم تبلغ مداها إذ كان التوريث والانتقال السريع للسلطة كفيلين بملء تلك الفجوة الزمنية القصيرة جداً، ولن نجازف إن قلنا إن ذلك كان كفيلاً بالتئام الجرح النفسي لدى بعض الموالين ممن آمنوا حقيقة بأن القائد لن يفنى أسوة بالبشر الفانون. أغلب الظن أن إطلاق اللقب الأخير على الراحل أتى استكمالاً لهذا السياق، فبدأت الإشارة إليه بلقب «القائد الخالد»، ومرة أخرى لم يكن هذا التشريف لقيادته السياسية الزمنية وحسب، بل إنه تشريف لشخصه تحديداً كروح باقية على مرّ الزمن.

إنه الرب؛ لم يقلها أحد علانية فيما مضى مع أن الأفعال سبقت الأقوال الصريحة. فهذه الروح الخالدة لا يمكن إلا أن توضع في مصاف الألوهة، وهي إذ تنتقل من جسد إلى آخر فإنها تغير قليلاً من تجلياتها دون أن تتزحزح عن جوهرها. ليست

إهانة إذاً أن يجبر رجال الأمن المعتقلين، كما شاهدنا في أكثر من شريط مصور، على الركوع وتقبيل صورة الرئيس الحالي وأن يُرغموا على القول إنه الرب. وليست المسألة عودة إلى العبودية بمعناها الطبقي أو الإنساني، إن العبودية هنا هي العبودية المطلقة كما هو الرب مطلق، وكما كانت مشيئته طوال الوقت مطلقة. وما نراه تعذيباً وإهانة بليغين قد لا يكون من جهة الجلادين سوى تصويب للاختلال الذي طرأ على نفوس العبيد، وليست أرواحهم بأحسن حالاً لأن روح العبد ملك للرب يستردها متى شاء.
الرب غير مطالب بشيء أصلاً، وعندما يقدم شيئاً فهذا من سبيل الإنعام. هكذا لم يكن دخول مفردات من قبيل «مكرمة، منحة...» إلى قاموس السياسة الرسمية السورية إلا استكمالاً منطقياً لفلسفة تخرج عن نطاق الحكم إلى «حاكمية» من نوع خاص تتداخل فيها شبهة الوضعية دون أن تكون فاعلة ما دام المُلك لصاحب الملك يمنح منه ما يشاء ويحجبه متى شاء. وفي السياق نفسه لا يجوز قسر الرب على خلاف مشيئته، وما قد يبدو لنا تنازلاً غير كاف لا يخرج عن إطار مشيئته أيضاً بدلالة أنه لا يقدّم سوى ما يتسق مع بقائها فاعلة ومستمرة. ليس من إطار عام يُحتَكم إليه هنا لأن الروح الخالدة هي الأدرى بمصالح العباد، وهي بطبعها تأنف الخوض فيما هو صغير من مصالحهم، فكيف عندما يتطاول العباد على الروح المقدسة ذاتها؟!
بخلاف ما سبق أتت الانتفاضة السورية لتنقلب على المفاهيم المؤسسة للحكم الحالي برمتها. إنها ليس ثورة على الحاكم بالمعنى المتداول للكلمة، هي أقرب لأن تكون ثورة على الحاكمية والربوبية المتجسدة في شخص الحاكم. لم تطرح الانتفاضة سوى شعارات مدنية مؤسِّسة للحكم، وبذلك فضحت المنطوق القديم الذي استعار من السياسة المعاصرة بعضاً من أدواتها كإسسوار لا أكثر، وليس بوسعنا الحديث عن ديكتاتورية تصارع من أجل البقاء لأن منطوق الحكم يعلو على ما يُعرف عن الديكتاتورية كاستثناء زمني محدود. أتت الانتفاضة لتعلن موت الرب، وهي بذلك ذات أثر رجعي لأنها تطاول الزمن الحالي والزمن الذي أسس له أيضاً، وهي إذ تكفر بالروح الخالدة فإنها تتناول أسّ النظام وتقوّض عرش ربوبيته.
ليس استهتاراً ألا يرى النظام أولئك الضحايا الذين بلغ عددهم السبعة آلاف، وليس استهتاراً أيضاً ألا يحتفي بأولئك القتلى من المدافعين عن بقائه، ففلسفة النظام لا ترى في هذه الأرقام حيوات، وتكاد لا ترى فيها حتى أرقاماً لأن الرب بمقدوره الاستغناء عن بعض الأصفار. ضدّ هذه الرؤية تنذر الانتفاضة بإعادة الاعتبار إلى إنسانية المحكوم والحاكم على قدر المساواة، فلا روح خالدة لأحد وإنما هناك حياة ينبغي احترامها للجميع. هي قفزة واسعة من عبادة الأوثان إلى التعددية التي لا تفاضل فيها بين البشر المختلفين.
المعركة سياسية، هكذا يبدو الأمر ظاهراً، لكنها أيضاً معركة فلسفية تعيد السياسة في سوريا من حقل الميتافيزيك إلى مطرحها الطبيعي، تعيدها إلى التداول العام بعد أن تم احتكارها طويلاً من قبل الحاكم. هنا أيضاً تبدو اللغة وضعية ومخادعة، إذ ما حاجة الرب إلى السياسة؟!

كاتب من سوريا

أساتذة الحرية في أقفاص العبودية والسلطة

عيسى مخلوف

في حين يقف العالم أجمع مذهولاً حيال أعمال العنف التي تمارسها أنظمة الاستبداد العربية ضدّ شعوبها، كأنها بالفعل أنظمة احتلال، ينقسم المثقفون العرب في تفاعلهم مع الأحداث الراهنة، بحسب ما يمكن رصده في وسائل الإعلام المختلفة، إلى فئات عدّة. فئة أولى تمثّل الندرة ويكتب أفرادها بموضوعيّة وانطلاقاً مما تمليه عليهم مسؤوليتهم كمثقفين في لحظة التحوّل التاريخية هذه. إنهم يواكبون بالكلمة ما يكتبه المتظاهرون السلميون بدمائهم. فئة ثانية تلتزم الصمت وتتوارى كلياً عن المشهد بعد أن كانت حتى الأمس القريب رمزاً من رموز الالتزام بقضايا الشعوب العادلة، كتابة ورسماً وموسيقى وغناء. يختفي أصحاب هذه الفئة في انتظار أن تهدأ العاصفة. حينها فقط يعيدون النظر في مواقفهم واصطفافاتهم. بعضهم الآخر يجزّئ موقفه الإنساني. ينادي بالعدالة والحرية لشعوب دون أخرى، أي أنه يناهض الظلم في البحرين مثلاً، لكنه يجيزه في سوريا، والعكس. يدينه في ليبيا ويرضى به في اليمن. أما الذين صرَعونا بأغانيهم ومواويلهم الثورية ونضالاتهم اللفظية، فلقد انسحبوا فجأة خشية أن تلوّث الدماء المسفوكة حساباتهم في المصارف. البعض الآخر يبحث عن مخارج لتسويق خطابه السياسي، محاولاً التوفيق بين مبادئه المعلنة ومواقفه من طبيعة الصراع القائم. يتكلّم فرسان هذا البعض عن الديموقراطية ويدافعون، في الوقت نفسه، عن أنظمة القمع. يدّعون العلمانية فيما يدعمون أحزاباً دينية إلهية بامتياز. مفكّرون هم، لكنهم لا يفكرون ولا يحللون بل يكتفون بتغذية الأفكار المسبقة. إنهم أوفياء لعقيدتهم. وكلّ وفاء أعمى هو انعكاس لفكر ديني لا يؤمن بالمراجعة والنقد. بعض الذين ينتمون إلى هذه الفئة يخيّروننا بين الحرية أو المقاومة، كأن ثمة مقاومة فعلية يمكن أن تستقيم بدون أن يحصل المواطنون على أبسط حقوقهم في الحياة. كما يخيّروننا بين الديكتاتورية العسكرية والاستبداد الديني، ويظنون أنهم ينبهوننا إلى الخطر الداهم لنستنتج معهم أنّ خلاصنا الوحيد هو في إبقاء الديكتاتورية وحمايتها، وما دون ذلك الأهوال! ولا يقولون لنا من أين جاء الاستبداد الديني (وهم يعرفون من أين جاء) ومن الذي مهّد له وأنتجه ورعاه منذ عقود حتى اليوم. مساواة الضحية والجلاد ضمن هذه الفئة المتذاكية، هناك من ينبري ويضع الضحية والجلاد في موقع واحد. لكن من يضع الطاغية وضحاياه على مستوى واحد إنما ينتصر للطاغية. الجميع يعرف هذه الحقيقة. ان من يقول إنه ليس مع هتلر وليس ضدّه هو مع هتلر بالتأكيد. هناك أيضاً من لا يخفي انزعاجه من الربيع العربي بعدما اطمأن إلى أن العرب انقرضوا. فمن أين خرجت هذه الجموع كلّها؟ كيف استيقظت ونفضت عنها الأكفان؟ من أين جاء هذا البوعزيزي الذي أضرم النار في نفسه احتجاجاً على العهر الرسمي القائم، فخلخل المصالح والتوازنات، وأطاح نظريات الثوريين الافتراضيين بأكملها؟ الذين ينادون بالحرية والتغيير منذ نصف قرن يحارون اليوم في ما يجري. فما بالها الثورة تخمد هنا لتشتعل هناك؟ كانوا يريدونها ثورة على الورق. كان نداء التغيير، بالنسبة إليهم، حديث إلهاء وتسلية ومجرد شعار أفرغوه من مضمونه ووقفوا أمامه عاجزين، لأن تطبيقه العملي يقتضي منهم شجاعة لا يملكونها وتضحيات لا يقوون على تقديمها. يفاجئنا موقف شاعر يتأثر أمام صورة زهرة ولا يرفّ له جفن لرؤية حمزة الخطيب، المصلوب الأصغر سناً في التاريخ، والذي فاقت عذاباته عذابات المسيح على الصليب. كما يفاجئنا الذين انكفأوا على أنفسهم حين باغتتهم الشعوب التي تجاوزت الخوف وكسرت قضبان السجن وخرجت تصدح بالحرية. أحرجتهم جرأة الشباب الذين كشفوا عجز السلاح وحدود العنف، ووضعتهم في التباس العلاقة بين الكلمات

ومعانيها. وإلاّ فكيف أصبح بإمكان تلك الفئة من الكتّاب والشعراء والمفكّرين أن تنادي بالتحرير وتخاف الحرية في آن واحد، أن تنتقد النظام وتضع ثقتها الكاملة برأس النظام. هكذا تنقلب المقاييس وتنفضح لعبة الكلمات حين يتمّ استعمالها بدون الالتفات إلى المفاهيم التي أنتجتها وإلى خلفياتها المعرفية. على هذا النحو، كان هذا الصنف من المثقفين يساهم في تكريس حالة الانحطاط والتخلّف التي طالما انتقدها. لقد كشفت درجة العنف الذي يمارَس ضدّ المتظاهرين السلميين أنّ النظام العربي الحاكم لا يريد شعوبه إلاّ مسحوقة وميتة، وهو الذي أمعنَ - بتواطؤ من الدول الكبرى صاحبة المصالح - في طمس وجود تلك الشعوب، بعد أن وضَعها طويلاً في ثلاّجة التاريخ. غير أنّ العروش تبدأ بالاهتزاز عندما لا تعود سياسة الترويع والقتل مبعثاً للخوف، وعندما يكتشف المتظاهرون الذين نزلوا إلى الشوارع أنّ الموت الفعلي هو البقاء على قيد الحياة بدون الحقّ في الحياة... صرخة الناس في الشوارع العربية اليوم هي صرخة ولادة؛ لن تكون المرحلة الانتقالية بين الحكم الديكتاتوري والديموقراطية مرحلة سهلة بعد سياسة الأرض الخراب التي اعتمدها الحكم الشمولي والتي أعاقت المجتمعات العربية في الخروج الفعلي من زمن الاستعمار والدخول في مرحلة السيادة والاستقلال. وثمة داخل العالم العربي من لا يزال يغذي الحركات الإسلامية ويحاول اختطاف ثورة الشباب وما تجسده من انفتاح على نموذج الحداثة المتمثل في التعددية الديموقراطية القائمة على مبدأ العدالة والمساواة والمواطَنَة. قد تمرّ هذه الثورة في منعطفات خطيرة على المدى القصير، لكن حركة التغيير لن تعود إلى الوراء. إنها حرب ثقافية وحضارية بامتياز ولن تستطيع حركات الإسلام السياسي، مهما بدت متجذرة اليوم في المجتمعات العربية، أن تجيب عن أسئلة الواقع الراهن وأن تواجه التحديات الكبيرة والمعقدة التي يفرضها العصر. ستتحقق الثورات العربية وتبدأ مرحلة الخروج من الهاوية. هناك فرق بين الثورة، بما هي تحطيم للأصنام ومرحلة أولى ضرورية لكتابة تاريخ مختلف، وبين حركة النموّ والتطور التي تمثّل ثورة أخرى ستحتاج إلى تضافر جهود كبيرة وسيأخذ معها العالم العربي وجهة جديدة لن تكون أسيرة نظام ديكتاتوري أو استبداد ديني، ولا مكان فيها لأولئك الذين يعطون دروساً في الحرية فيما يقبعون في أقفاص العبودية والسلطة.

كاتب من سوريا مقيم في باريس

issamakhlouf@hotmail.fr

أشنع الأنظمة على وجه الأرض نظام يحتل شعبه

فاروق مردم بك

زهاء عشرة آلاف من الشهداء، ومثلهم أو أكثر من المختفين، وعدد طائل من المصابين بجروح خطيرة، المتروكين دون علاج معوقين لباقي حياتهم، وعشرات الآلاف من المعتقلين الذين يسامون أفظع أشكال التعذيب، وأحياء شعبية تُقْصَف بالدبّابات والمدرَّعات في كل أنحاء البلاد، وتجاوزات ومجازر يومية لا يُستثنى منها لا النساء ولا الأطفال... ومع ذلك لمّا يزل في العالم، وبما فيه فرنسا، من يناصرون نظام بشار الأسد مناصرةً معلَنة إلى هذا الحد أو ذاك، متفِّقين على اعتبار الثورة الجارية "مؤامرة إسرائيلية-أمريكية على سوريا المقاوِمة".. وإذ يستعمل هؤلاء في الأغلب لغة اليسار المتطرف، عندما لا يجاهرون بأنهم من أقصى اليمين، بعضُهم من القواعد الناشطة وبعضُهم الآخر يجعلون من أنفسهم خبراء في الجغرافيا السياسية، فإنهم يظهرون مَظْهَرَ الأصدقاء للشعوب العربية، فيشجبون مناورات الإمبريالية، وأفاعيل المملكة العربية السعودية وقطر، والأكاذيب الوقحة التي تبثها قناتا الجزيرة والعربية الفضائيتان، والأفعال الإرهابية التي يقترفها السلفيون المتسلِّلون إلى سوريا، دون أن تراودهم أبداً فكرة التساؤل بكل بساطة عمّا إذا كان السوريون محكومين حكماً صالحاً، عمّا إذا لم تكن لديهم أسباب وجيهة لينتفضوا، وعن هوية هؤلاء المتظاهرين، الشباب والفتيان، الذين لم ينفكّوا، طيلة سنة كاملة، يتحدَّوْن شبِّيحة النظام المدجَّجين بالسلاح وفرقه الخاصة.

من أهم خصائص النظام الحاكم في دمشق أنه أرسى شرعيته الإقليمية والدولية على أساس تغييب شعبه سياسياً، على أساس التستر على معاناته ونزع الطابع الشرعي عن تظلُّماته ومتطلَّباته.. فطيلة عقدَي ثمانينات وتسعينات القرن العشرين الرهيبين، كانت كل سياسة حافظ الأسد تتلخَّص في عمله لتحقيق هدفين نشداناً لتأبيد سلطته: إقناع القوى العظمى بأنه لا غنى عنه، وإقناع السوريين بأنهم ليسوا سوى شيء مَهين، بأنهم غير موجودين ويجب أن لا يكون لهم وجود، بالمعنى السياسي. وبالمناسبة يُذْكَر أن مجزرة عام 1982 التي أُبيد فيها عشرون إلى ثلاثين ألف مواطن في حماه، بذريعة قهر بضع مئات من الإسلاميين المتمردين، لم تُثِر في أوروبا ولا في الولايات المتحدة الأمريكية إلا إدانات خجولة جداً، وأن العبرة من ذلك فُهمت جيداً في سوريا، التي أصبحت منذئذ "مملكة للخوف والصمت"، كما أراد رئيسها. أما السنوات التالية فقد شهدت التنكيل حتى الموت في إطار من الكتمان بالسجناء السياسيين في سجن تدمر العسكري الرهيب، الذي يُعتبر عن حق معسكر اعتقال كان الجلاّدون فيه يفاخرون بأنهم ينزعون الصفة البشرية عن ضحاياهم، آيلين بهم وفق أقوالهم ذاتها إلى منزلة الحشرات.

وفي الوقت نفسه عمل حافظ الأسد، القادر على كل شيء والموجود في كل مكان، على تنجيز البنية شبه الملكية لنظامه - الذي لا يجوز الاقتصار على تعريفه بأنه تسلطي أو استبدادي. فلا مُشاحّة في أنه كان، بعد وصوله إلى السلطة في عام 1970 بانقلاب عسكري، قد سهر على ضمان ولاء الجيش بإحلاله المقرَّبين منه في مناصب القيادة، وبتجاوزه هذا الجيش بميليشيات حَشَدها بصورة رئيسية ضمن طائفته الدينية وولّى عليها أفراد عائلته، مُكْثِراً أيضاً أجهزة الاستخبار المعهود إلى كل منها بمراقبة الآخر والمكلَّف جميعها بتطويق المجتمع. لكن فترة ثمانينات القرن العشرين هي التي اكتسبت فيها سلطته نهائياً صفة "الأبدية" بلغة الدعاية الرسمية، واستكمل فيها أخوته وأبناء عمومته وخؤولته هيمنتهم المافياوية على الاقتصاد الوطني، وتم فيها على الأخص تعيين ابنه الأكبر، باسل، بصورة شبه رسمية، ولياً للعهد، تعيَّنت الاستعاضة

عنه في هذا المنصب الرفيع بعد ذلك ببضع سنين، إذ لقي حتفه في عام 1994 في حادث سيارة، بأخيه التالي في السن، بشار، بصورة طبيعية جداً. لقد نظَّم الحزب الواحد وأتباعه عبادة للفرد جنونية بكل معنى الكلمة، معبِّئين طوعاً أو قسراً الأوساط المدرسية والموظفين للمشاركة في مراسم الولاء للرئيس، التي لم يكن نادراً أن تشهد جلاوزة النظام يؤلِّهونه ويقدِّسون عائلته. وكثيراً ما رُؤوا يفعلون فعلتهم هذه في الآونة الأخيرة، إذ راح الابن يضبط خطاه على وقع خطى أبيه..

إنه نظام عُصبوي، عائلي، لا يبالَغ بتأكيد أنه لا يحكم سوريا بل يحتلّها على غرار القوى الأجنبية. ولذا لم يشأ قط في الماضي إجراء أي إصلاح جدير بهذا الاسم ـ وما كان يستطيع إجراءه لو أراد ذلك فعلاً تحت ضغط الأحداث - ولذا لن يقبل أبداً في المستقبل، مهما ظنَّ الروس والصينيون في هذا الشأن، الانخراط في حوار بنّاء إلى هذا الحد أو ذاك حتى مع معارضته الأكثر تراخياً. فكيف يُعلَّل، بغير هذه "الغربة" عن مجتمعه، كونُه لا يأبه أبداً بكل هؤلاء القتلى والجرحى، وعجزُه عن التوجه مباشرة وبصورة جدية إلى المتظاهرين مرة واحدة على الأقل خلال اثني عشر شهراً، وصَمُّه أذنيه حيال دعوات أصدقائه القدامى إيّاه إلى التعقّل؟ فمنذ أواسط آذار/مارس 2011 ردّ بشار الأسد على مطالب المتظاهرين الحريصين كل الحرص على سلميتهم بشكلين مختلفين: إما بالعنف والاحتقار، ما لم يكن من شأنه إلا جعل حركة الاحتجاج أكثر جذرية، وإما واعداً بتقديم أعطيات إلى هذه أو تلك من الفئات الاجتماعية متجاهلاً على نحو ظاهر المشكلات الجوهرية التي تهم المواطنين بأجمعهم. وإذا كان فيما بعد قد أوعز بإعداد دستور جديد مفصَّل على مقاسه، مفترَض أن يلغي من حيث الشكل الاحتكارَ السياسي الذي يمارسه حزب البعث على أن يبقي صلاحيات الرئيس كما هي، فقد بلغت به الوقاحة أن لا يجد أفضل من دعوة الأهالي إلى إقرار دستوره هذا بالاستفتاء بينما كانت حمص والرستن وإدلب ترزح تحت وابل من القنابل. وبمعزل عمّا يقول به المعجبون في فرنسا بحسن نصر الله، زعيم حزب الله اللبناني، الذي تحمَّس لهذا الاستفتاء وأعلن في اليوم نفسه أنه لم يكن يجري في حمص أي شيء خطير، لا ريب أن هناك أساليب أخرى، أنجع وأجدر بالاحترام، لمعارضة مرامي الشيطان الأكبر...

فقصارى القول إن السوريين، الذين طالما أُذلّوا وجُرحت كرامتهم، تارةً باسم "المقاومة والممانعة"، وتارةً أخرى باسم الاستقرار الإقليمي الذي، كما شُرح لهم، سيُهدَّد تهديداً خطيراً إذا ساورتهم الرغبة في زحزحة رئيسهم الخالد، يستحقون أن يُرى إليهم في آخر المطاف كما هم، وأن يُصغى إليهم. وعندها سيُعايَن أن لديهم جميع ما في الدنيا من أسباب لكي ينتفضوا، وأن النظام الذي يضطهدهم منذ أكثر من أربعين عاماً هو من أشنع الأنظمة على وجه المعمورة، وسيُدْرَك في نهاية المطاف أن بقاء هذا النظام، لا ذهابه، هو الذي ينطوي على خطر إغراق الشرق الأدنى كله بالنار والدم.

كاتب من سوريا مقيم في باريس

(مقال نُشر في صحيفة ليبراسيون الفرنسية - عدد الخميس 15 آذار/ مارس 2012)

(ترجمه إلى العربية محمود الغياش)

الثورة السورية ضد نظام الأسد.. لبنانية أيضاً

محمد مشموشي

لا يعطي الرسالة المفتوحة التي وجهها المجلس الوطني السوري للشعب اللبناني معناها الحقيقي أكثر من التصريح الذي أدلى به، قبل ذلك بيومين فقط، قائد «فيلق القدس» الإيراني العميد قاسم سليماني وكشف فيه موقف بلاده من لبنان من جهة ومن العراق من جهة ثانية. هذا المعنى هو وضع اللبنانيين أمام خيار من اثنين: إما لبنان البلد العربي السيد المستقل، بعد إسقاط نظام بشار الأسد وإقامة نظام جديد، أو بقاؤه منطقة احتلال للنظامين الحاليين في طهران ودمشق، بكل ما تعنيه هذه الكلمة، في حال لم يحدث هذا التغيير.

وفي صلب هذا المعنى، لا يطرح السؤال عما إذا كان المجلس الوطني السوري سيكون قادراً على إسقاط نظام الأسد وإقامة سلطته الجديدة الآن أو بعد حين، ولا ما إذا كانت طهران الرسمية تنفي تصريح قاسم سليماني أو لا تنفيه ،وفي الحالين، أن تلتزم حكومة لبنان الصمت إزاء الموقفين بدعوى «النأي بالنفس»، وإنما أولاً وقبل كل شيء عما إذا كان اللبنانيون يريدون فعلاً أن يخرجوا من السجن الذي يحشرهم فيه النظامان منذ عقود أو أن يبقوا تحت الاحتلال لفترة أخرى، أو ربما عقود طويلة أخرى، مع ما يستتبعه هذا البقاء مما يعرفه القاصي والداني ويعيش اللبنانيون نتائجه وتبعاته في هذه الفترة من تاريخهم.

«أيها الأشقاء اللبنانيون،

أمام السوريين، بعد انتصار ثورتهم، وأمام اللبنانيين، بعد حرية سوريا وتحقيق ديموقراطيتها، كفاح مديد من أجل نقل البلدين الى عصر جديد، عصر الدولة المدنية، عصر الحداثة والتقدم، عصر بناء المصالح المشتركة».

بهذه العبارات البالغة الدلالة، خاطب المجلس الوطني السوري «الشعب اللبناني الشقيق» في رسالته هذه، متحدثاً بشكل خاص عن مستقبل البلدين والعلاقات بينهما، وإن كانت البنود التي أوردها عن إنهاء الدور الأمني المخابراتي لنظام الأسد في لبنان وإلغاء المجلس الأعلى اللبناني- السوري وترسيم الحدود بين البلدين لا سيما في منطقة مزارع شبعا، ليست قليلة الأهمية في حال من الأحوال.

بل أكثر من ذلك، تقول الرسالة عن هذا المستقبل، «إن المجلس الوطني السوري، إذ يتقدم بالمبادئ التي يرى أنها يجب أن تحكم العلاقات بين سوريا ولبنان، فإنه في واقع الأمر ينطلق من مصلحة سوريا ،الدولة والشعب، في أن تقوم بينها وبين لبنان علاقات أخوة وحسن جوار وعمل مشترك ومصالح بينة، ومن مصلحة سورية لبنانية في أن ينهض نظام عربي جديد مؤسس على المصالح بين دول سيدة ومتكافئة».

هل كان لبنان يشكو من غير فقدان هذه «المبادئ» وتزويرها، حتى لا نتحدث عن عمليات القتل والاغتيال والابتزاز والنهب المنظم والتدخل في كل شاردة وواردة فيه وحتى تعيين الموظفين والوزراء والنواب في حكوماته ومجالسه، على امتداد العقود الأربعة الماضية، مما كان يسمى «وحدة المسار والمصير»؟. بل وفي السياق ذاته، وللسبب ذاته أيضاً، هل كان يمكن تصور مجرد تصور سماع ضابط إيراني، مثل قاسم سليماني، يتحدث عن «حضور إيراني» في جنوب لبنان ،عملياً في لبنان كله، وليس في جنوبه فقط، أو قيام رئيسه محمود أحمدي نجاد شخصياً، بالإعلان من العاصمة السورية

ذاتها عما سمي «تحالف الشعوب المقاومة» في العراق وسوريا وإيران ولبنان، من دون تكليف نفسه حتى بطرح الفكرة على مؤسسات لبنان الدستورية، ما دام الأسد من ناحية والأمين العام لـ«حزب الله» السيد حسن نصرالله من جهة ثانية كانا يقفان الى جانبه؟.

الواقع، أن رسالة المجلس الوطني السوري لا تقف عند إعلان دمشق بيروت الذي وقعه بعض المثقفين اللبنانيين والسوريين قبل أعوام، وانتهى معظمهم في السجون والمعتقلات السورية أو على قوائم الاغتيال اللبنانية، وإنما تجاوزه الى إعطاء هوية متكاملة وأكثر شمولاً لثورة الشعب السوري ضد نظام عائلة الأسد وامتداداته المفتعلة في لبنان وإيران وفلسطين وصولاً الى دول الخليج العربية. وهي، من هذه الزاوية، إعلان صريح بأن ما كان يعتبره نظام الأسد أوراقاً للمساومة واستدرار النفوذ ،عملياً، بقاء النظام قبل كل شيء، لم يكن سوى معاول هدم وتخريب للمصالح الوطنية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لسوريا الدولة من ناحية أولى وللشعب السوري وكرامته وحرياته وقوت يومه من ناحية ثانية.

واستطراداً، فهي رسالة مفتوحة الى الشعبين الفلسطيني والعراقي أيضاً، تحمل المعنى ذاته بعد أن بات واضحاً للشعبين الشقيقين مدى تلاعب النظام السوري، وحليفه النظام الإيراني، بقضايا الشعبين ودماء أبنائهما في خدمة أهدافهما الخاصة... ودائماً بدعوى ما يسميانه «الحلف الاستراتيجي» في المنطقة، وتحت عناوين لم يعد لها محتوى ولا مضمون عملي على الأرض: «المقاومة... والممانعة».

وفي الواقع أيضاً، فكل عبارة في الرسالة المفتوحة تقول هذا المعنى بصراحة وجلاء لا تخطئهما العين.

لكن ما يبقى بعد ذلك، هو أن يقرأ اللبنانيون، أو بعضهم على الأقل، هذه الرسالة جيداً وأن يفهموا المعاني التي تقصد المجلس الوطني السوري أن يوجهها اليهم في هذه المرحلة الدقيقة من نضال الشعب السوري ،والشعب اللبناني كذلك، من أجل إنهاء حقبة بالغة السواد في تاريخ العلاقات التاريخية والأخوية بينهما.

ذلك أنه صحيح أن ثورة الشعب السوري تريد إنهاء الاستبداد وحكم العائلة في الداخل، واستعادة الحرية والكرامة الإنسانية، وإسقاط النظام الأمني المخابراتي، وتوفير حاجات الناس الحياتية، إلا أن الصحيح أيضاً أنها تستهدف الخلاص من ذلك لبناء سوريا وطنية وقومية عربية فعلاً.

وبالنسبة للبنان، وعلاقاته البنيوية والعائلية التاريخية مع سوريا وشعبها، فهذه الثورة لبنانية كذلك... بل ولبنانية قبل أي شيء آخر.

ولا تقول «الرسالة المفتوحة من المجلس الوطني السوري الى الشعب اللبناني الشقيق»، كما هو عنوانها، إلا ذلك بشكل محدد وخاص.

الأحد، 29 يناير 2012

كاتب من لبنان

مقالتان في الدستور والهوية

محمود عباس

الهوية الوطنية والديمقراطية في الدستور السوري

معضلة السلطة الحالية ناتجة عن سوء فهم الهوية السورية الحقيقية، وعن غيابها من ساحات الوطن، وتخلفها في إدراك أبعاد وغايات الثورة الشبابية، وعدم إقتناعها بإن متطلبات الشعب في الحياة هي في تفتيت بنيان سياسة الطغي في السلطة، وبناء ثقافة نوعية مغايرة لمفاهيم عصر الإستبداد وخلفياتها الجامدة، وكل هذا يحتاج إلى تغيير كلي صحيح وجازم وليست إلى معالجة آنية للواقع المشوه وبترقيعات أفظع تشويهاً.

الكل أصبح يدرك أن الزمن قد تجاوز إستمرارية السلطة عن طريق طروحاتها الإصلاحية، لا قانون الأحزاب المهترئ ولا الدستور السوري المعدل في أروقة القيادة القطرية للبعث الأسدي، والذي ملئ بتشويهات ما هب ودب من مفاهيم الإستبداد وإلغاء الآخر بتمعن، والملغي بإجحاف لهوية الوطن السوري، يستطيع وقف مسيرة التاريخ الآتي على إسقاط نظام فقد كل مقومات الإنسانية والحضارة.

رفضت السلطة بمسودة دستورها المشوه هذا الإعتراف بالفسيفساء النموذجي لسوريا كوطن كلي، طمست ثانية من على صفحاتها الحقوق الإثنية والمذهبية بمطلقه. إزيلت سلطة البعث بتغيير المادة الثامنة، لكنها رسخت مكانها دكتاتورية مطلقة لرئيس الجمهورية بشار الأسد، ركزت على عروبته وإسلاميته، وذلك من منطلقين: المزايدة على الدول العربية التي تطالب برحيله والقوى الإسلامية التي تريد محاكمته بدون حصانة، والثانية القضاء على المفاهيم الوطنية داخل سوريا كوطن للجميع، لإثارة الفتن التي زرعها منذ عقود بين القوميات والأقليات والمذاهب.

بقي الدستور حكراً على مجموعة مستبدة معتمدين على بنود يسمح لهم بالطغيان دون الوقوف على القيم الإنسانية، ألغوا بهذا الدستور ماهية الوطن الكلي، جردوا القضية الكردية من أي تداول إنساني، بل يحاولون عن طريقها القضاء على الكيان الكردي وطمس جغرافيته وتاريخه، ومعهم جميع الأقليات الاخرى، وعزلوا المذاهب الدينية عن الإنتماء إلى وطن هذا الدستور.

يود حكومة بشار الأسد من خلال دستوره هذا أن يقنع الشعب بإنه يرغب في بناء وطن للجميع! لكن الشباب بثورتهم السلمية أكدوا على إنه غائب بكليته عن كيان هذا الوطن، وبدأ يجول في أروقة الضياع باحثاً عن الإصلاحات، وإلا فلا يعقل ان يقوم بعد أن قربت نهايته بإلغاء نصف الشعب من المجتمع السوري من الحقوق الإنسانية والقومية والفكرية والدينية والمواطنة الحقيقية.

غاب النهج السليم في كتابة الدستور، والذين عدلوا فيه هم متشبعي ثقافة النزعة العنصرية بل وهم أفظع من مدوني الدستور البعثي السابق. سوف لن نبحث عن مدى قدرة بشار الأسد في تعديل بنوده أو إزالة الدستور ذاته بخمس دقائق، إلى عمر يتناسب وعمر إبنه الصغير! ومن ثم إعادتها إلى الحياة ثانية، كما نراه في المادة التي تبحث في عمر المرشح للرئاسة! بل نبحث عن مدى القدرات التي أمتلكها الرئيس من خلال المواد التي وردت في مواده....

يستطيع بشار الأسد « نذكر إسمه لأن الدستور منه وله ومعه سيزول « حل مجلس الشعب متى ما أراد حسب المادة « 111» البند الأول، أي ما معناه السلطة التشريعية تابعة له وبقيت تحت سيطرته المطلقة، وعليه لم تنفصل هذه السلطة من

طغيان القوى الأمنية.

إنه رئيس مجلس القضاء الأعلى حسب المادة «133 « البند الأول، أي أن السلطة القضائية تأمر وتقضي حسب رغبات الرئيس، فهي أيضاً سلطة تابعة عاجزة وغير مستقلة.

إنه رئيس القوات المسلحة ورئيس السلطة التنفيذية، يقيل ويعين ويعفي الجميع من مناصبهم متى ما أراد، وذلك حسب المادتين « 105 « و « 124 « البند الثاني.

في المحصلة السلطات الثلاث خرجت من فروض سلطة البعث وتركزت في يد دكتاتور عن طريق الدستور، كما يحق للرئيس نفسه إلغاء الدستور أو تعديله متى ما شاء، ويملك الصلاحية في تشكيل هيئات ولجان خاصة هو من يحدد مهامها حسب المادة « 115 « يحق لبشار الأسد محاكمة أعضاء السلطة التنفيذية متى ما أراد، إضافة إلى كل ذلك يقوم بتعيين أعضاء المحكمة الدستورية دون العودة إلى السلطة التشريعية لإستشارتها!.

ضاعت في ثنايا مواد هذا الدستور القيم والحريات وجرد المواطن من معظم حقوقه تحت رقابة قانون يضعها ويعدلها وينفذها سلطة شمولية طاغية، إعتماداً على المادة « السادسة والثلاثون « تكون المساكن مصونة...حسب القانون، والقانون ينسخه أو يشرف على وضعه رئيس الجمهورية أو اللجان والهيئات التي يشكلها ك « القوى الأمنية والشبيحة « الذين ينفذون أوامره!. جميع أنواع الحريات مكفولة والحقوق مصانة وفقاً للقانون، مثل حق المواطن في الإسهام بالحياة السياسية والإقتصادية... ينظمه القانون والقانون في يد الدوائر الأمنية، ما دامت السلطتين التشريعية والقضائية مكبلتين أو في حكم الغائب. وكذلك ... حرية تكوين الجمعيات... كما يبينها القانون! والقانون في الدستور وحسب المادة « الثامنة « «التي كانت سابقاً تمجد سلطة البعث» يمنع تشكيل أية جمعية أو حزب له صفة من الصفات الإثنية أوالمذهبية، يرفض الدستور التجمعات الدينية الطائفية أو القبلي أو مناطقي أو فئوي أو مهني أو بناءً على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل أو العرق أو اللون، أي أن تكون منظمة سياسية من كوكب آخر ويستثنى من هذا حزب البعث العربي الإشتراكي الاسدي والذي من خلال اسمه دون ماهيته ومبادئه يتبين صفاته العرقية والإثنية والفئوية المناطقية والعنصرية بكل المعاني. من خلال هذه الديباجة يحق للسلطات الأمنية الغاء أو إتهام أية شخصية أو تجمع سياسي بواحدة من الصفات المذكورة ومحاكمته تحت جنح معاداة الدستور.

أغرب التناقضات الواردة هو أن الدستور في المادة « الثالثة والثلاثون « البند « الثالث « يذكر بإن المواطنون متساوون في الحقوق...لا تمييز... اللغة، الدين أو العقيدة، وفي بند آخر يؤكد على إن رئيس الجمهورية يجب أن يكون عربياً مسلماً! عن أية مساواة وديمقراطية يمكن التحدث بعد هذا البند!. إعتماداً على المادة « 152 « لا يجوز لمن يحمل جنسية أخرى غير السورية تولي المناصب العليا، لا نعلم فيما إذا كانت هذه المادة تسرى وتطبق على زوجة الرئيس بشار الأسد وهي حسب علمنا تحمل الجنسية البريطانية، أم إنها محصنة ولا تنطبق عليها مواد الدستور السوري؟!.

الفكر المغلق المعتمد على سلطة إستبدادية، لا يدرك أن الزمن والثورة تجاوزوا إصلاحاته ودستوره المشوه، عليه أن يدرك إن الشعب السوري قدم الألاف من الشهداء، فمهما تكالبت حكومة بشار الأسد على الإصلاحات ومهما جلبت من المتغييرات القسرية سيبقى عاجزاً عن الحصول على حصانة في هذا الكون. رئيس عاجز عن فهم النفسية الشبابية للثورة السورية، فقد ترعرع على ثقافة مشوهة، حتى ولو حاول أن يلم بها فإنه لن يتمكن من تقبل مدارك الثقافة القادمة، وسوف لن يستطيع تلبية المطالب المطروحة من الشعب لإعادة بناء الوطن سياسياً وإقتصادياً وإجتماعياً لذلك سيبقى عاجزاً ومرعوباً أمام الجدلية الثورية الآتية ولا حاصل إلا بإزالته والسلطة مع مخلفاتها.

الدستور جزء من النظام الآيل إلى الزوال، تعديله لا يفي برغبات الثورة الشبابية، المنطق لا يشك في إن جميع الدساتير مهترئة في ظل الدكتاتوريات، والسلطة السورية لا تشذ عن هذه البديهية، ففي ثنايا صفحاتها نجد كل المعوقات وموبقات

السلطة الدكتاتورية التي ستؤدي بالشعب السوري إلى التشتت والضياع بل وستخلق آفات جديدة لصراع إثني ديني قبلي لا يحمد عقباه, لذا نهيم بالشعب السوري عامة مقاطعة هذه الخدعة الخسيسة التي تسمى بالدستور الجديد.

آفاق المنطقة الكردية في سوريا

ماض اسود، وحاضر مأزوم، ومستقبل غامض، الأسباب عديدة، ذاتية وموضوعية، والمسببون كثر، من الداخل والخارج، الاحزاب الكردية وقادتها في المقدمة، وللحراك الثقافي دور لا يقل عن السياسي، وذلك على بنى متنوعة، أفظعها الخلفيات الثقافية، والنزعات الانتمائية المتناقضة مع المفاهيم الوطنية، والخارجيون في الابعاد المترامية، واضحون في غاياتهم المناهضة للوجود الكردي، أفسدوا على قدر ما تمكنوا. تجاوزنا نقد وتحليل هذه الاخطاء، والآن المنطقة على ابواب تغيرات بنيوية، استراتيجية وبأبعاد متشابكة، لذلك فالتركيز على الواقع المتلاطم، لتبيان آفاق المستقبل القادم، قدر الامكان، يجب أن يكون من اولويات التنقيب والتحليلات والجدالات الدارجة في هذه المرحلة وبشكل واسع.

رغم ذلك فالحركة السياسية الكردية لا تزال تخادع نفسها قبل ان تنافق على الشعب وتخدعهم، تتحرك في الابعاد التكتيكية بضحالة التقديرات، تكاد لا تؤمن بالتحركات الدبلوماسية والعلاقات الدولية، ترى نفسها صرحاً موجوداً، وعلى الآخر، مالكي السيادة والتأثير على المنطقة المجيء والتودد إليهم، كثيرون منهم صرحوا أن القوى الكبرى يعرفون اماكن وجودهم، ومن مصلحتهم النبش عن الاحزاب الكردية وقياداتهم، وقد سمعنا هذا المنطق من بعض قادة الحركة السياسية الكردية، عندما تحدثنا عن خلقنا للوبي دولي، وعلينا القيام بتحركات دبلوماسية معا، كان الجواب: الكل هناك يعرفوننا وعليهم المجيء إلينا! وإن اضطررنا الى التسمية نستطيع في المستقبل ذكرهم، متناسين أن الأمة الكردية بديمغرافية تجاوزت الأربعين مليون وجغرافية مترامية مقسمة بين دول، كانت معروفة للبشرية جمعاء، مع ذلك وعلى مدى أكثر من قرن من الزمن، منذ ظهور التقسيمات الجغرافية، لم تأتي قوة كبرى إلى الكرد، وينبههم إلى حقهم، ولم تقدم لهم مساعدة حتى ولو إنسانية!.

وبالمقابل أغلبية الحراك الثقافي لا يملك تحليلا واعيا ومنطقيا لتاريخ المسيرة السياسية الكردية، والشريحة الواعية والمنطقية منهم تصطدم بردات فعل عدائية من قبل الحراك السياسي الكردي تشبه في بعضه محاربة السلطة الشمولية لهم سابقاً، وهناك المجموعة التي لا تزال تبث ثقافة النقد المليء بالدونيات في الكلام والمفاهيم، ولا يود الالتفاتة الى الخلف ليرى الاسباب التي ادت بالمجتمع الكردي الى الانغماس في مستنقع الضياع الحاضر، كما ولا يبحثون عن المفاهيم الثقافية السائدة في المجتمع للتعامل معها وتغييرها أو توجيهها إلى الوجهة المنطقية الحضارية. للحركة الثقافية ضلع في تعرجات المسيرة وتيهها، ولهم ضلع لا يقل عن دور الحراك السياسي فيه وفيما قامت به السلطة السورية الشمولية من تدمير المفاهيم ونشر الثقافة الفاسدة وعلى مدى نصف قرن من الزمن، وعليه فقد حان الوقت لتنقض وتنقد الحركة الكردية مسيرتها، وتبين مراحل تلكؤها، اسباب ضعفها، إنحسارها وابتعادها عن المجتمع، تقاعسها امام ما قامت به السلطة الشمولية السورية أمام عينيها.

الخلافات والاختلافات بين اطراف الحركة الكردية السياسية ليست متمركزة فقط بين اعضاء القيادة، بل هي مغروزة في أعماق القاعدة، فلا عتب من التعبد للتحزب ونسيان القيم الوطنية، ولا تعجب في اثارة عضوا على خلفية نقد على الحزب وصمت امام التهجم على الوطن. الاحزاب الكردية، مع صمت ما لبعض أطراف الحركة الثقافية، مع الانظمة الدكتاتورية كانوا يقفون وراء هذه الصراعات التنظيمية وتغليفها بنكهة فكرية، ونفثوها الى اعماق المجتمع وبين شرائح الشعب وحتى في مؤسساته، الى ان غرقت فيها كل زوايا الوطن. لهذا فاللقاءات والاتفاقيات مهما كانت موثقة،

ويتحكم بها شخصيات وطنية، ومدعومة ببيانات دامغة ، ستبقى هشة، وتطبيقها على ارض الواقع ستكون صعبة جداً؛ لان الارضية غير جاهزة، والحركة السياسية لا تحاول ولا ترغب لاصلاحها وتصحيحها؛ والثقافية ضعيفة في بعضه.

يعتقد قيادي الحركة الكردية السياسية بأنهم في موضع الضحية أمام انتقادات الاقلام والكتاب والمثقفين والساسيين المستقلين، ويؤمنون أن الاحزاب هم القوة المطلقة والتي يجب أن تطاع من قبل الشعب، يتناسون ان الحزب نفسه ضحية مرمية على مذبحة قادتها مقابل الشعب الذي لا يتبع، أعضاء الاحزاب تلقفوا ثقافة الطاعة، وقبول الرأي المنهمر من العلياء دون نقاش أو تحليل، تاركين المعضلة لقيادة ما هناك، قيادة تنخر هيكلها المتسابقين على القيادة ومنعدمي الكفاءات، والرافضين للمفاهيم الديمقراطية عند المحك.

نقد الاخطاء وتبيان المسيرة المنعرجة تحت املاءات خارجية توجه البعض من المثقفين الى الصرخة، كمحاولة لادخال تصحيحيات ذاتية في العمق القيادي، السلطة السورية على مدى عمرها الزمني لم تتجرأ يوما على تصحيح مساراتها رغم استعمالها الكثير من كلمة الاصلاحات، وهذه الثقافة هي نفسها التي تشربتها الحركة السياسية الكردية وقيادتها، هذه الحقيقة أدت إلى تطور جدلية الصراع بين الكفاءات حاملي التحليل لكل طرح والمجموعات القابلة للإملاءات والخانعة لسيطرة كانت في جغرافية داخلية والان خارجية.

اتفقت بعض أطراف من الحركة الكردية السياسية « وليست كل الاطراف وهذه ناقصة كبرى « على بنود مترامية الابعاد، تلم بالاطراف التكتيكية والعملية والسياسية، ولا يزال الاصرار على ترسيخ هذه الخطوات متداولة بينهم وبالبيانات المتتالية المنشورة على الاعلام، العيون نظرت، والآذان سمعت، والقلوب خفقت، والآمال تراكمت، لكن ما يدور على ارض الواقع من التجاوزات والاختلافات الواضحة بين القاعدة، تبين على الواقع المأزوم الذي يتحدث عنه العديد من المثقفين وحتى بعض قادة الحركة السياسية نفسها، هذه التضاربات الموجهة من الاعلى تتجول ضمن الاطار العام للمفاهيم وثقافة التحزب المترسخة.

في واقع الامر ليس هناك أي تجاوز على أوامر الحزب، والدليل المسيرات التي عمت المدن الكردية وتجاوزت كل الماضي، لكن عدم الالتزام به واضح لدى بعض الاطراف، حتى من القادة الذين وقعوا على الاعلان، وهم نفسهم لا يفرض على القاعدة بالالتزام به، وفي أغلبه اتفاقية لامتصاص رأي الشعب المعارض، وخلق صمت اعلامي في المناطق الكردية، حتى الذين كانوا وراء اقامة الاتفاقية من خارج جغرافية غرب كردستان لا يفرضون على الاحزاب الالتزام الموسع بها وتطبيقها، وما يحصل على الارض تبين هذه، وفي أغلبه تجاوز على بنود الاتفاقية النظرية، وهي ما ترغبه اغلب الجهات الحزبية، فعندما ب ي د يحتفل أو يوزع اللجان الشعبية، ويحدد نقاط التفتيش، ويضع نقاط المراقبة العامة، ويقوم بفرض أوامر وقوانين ميدانية بدون المناقشة ومراجعة الهيئة العليا أو مشاركة الاطراف الكردية المتناسقة معهم حسب بنود اتفاقية هولير، وبالمقابل تصمت اطراف الحركة الكردية الأخرى عليه، بدون نقد ومحاسبة، أثبات على ضعفهم وهشاشة وجودهم العام وعلى الواقع العملي، مع ذلك وبهذه الطريقة من التعامل والتضامن يشاركون بشكل أو آخر في خلق وعي ضبابي لدى الشعب حول مدى قرب أو بعد هذه اللجان من مصلحة الشعب، بل في ظهور مفاهيم بين العامة على أن الحركة بمجملها بدأت تنظر الى المصلحة الحزبية وتفضلها على مصلحة المجتمع والشعب، في المنطقة الكردية والتي يقال جدلاً إنها محررة، والكل يتلمس وجود سيطرة لقوى أمن السلطة الشمولية ما هناك، تظهر عند الضرورة؛ وهنا سوف لن يتوانى المجتمع في القادم من الزمن من اطلاق تسميت القرارات والقوانين التي تفرض على الشارع الكردي بالاستثنائية تيمناً بقرارات وقوانين السلطة الشمولية السابقة.

تجاوز هذه الاخطاء والامتناع عن تبيانه ونقده وعدم طرح أو تقديم الانسب، من قبل المثقفين أو أطراف الحركة السياسية المستقلين أو الحزبيين المشاركين في اتفاقية هولير أو الذين لم يشاركو أو الذين اهملوا عن عمد، وعدم

محاولة ترسيخ البنود وتطبيقها بشكل عملي، وتوسيع المشاركة الفعلية في إدارة المنطقة، سيجرف المجتمع الكردي إلى الضياع، وسيرسله إلى مستقبل بائس خاسر وطنيا وقوميا، وستتعمق في قواعد الاحزاب ثقافة تقديس التحزب، وهي حالة فكرية ثقافية خطرة جداً على الحزب والمجتمع الكردي ومستقبلهما، وسيتفاقم وبائه في القادم من الزمن، ستكون له آفاته الكلية على الشعب، والجانبية على الوطن كغاية أبدية، والأفظع سيظهر في النظام السياسي الاقتصادي الاجتماعي القادم، في حال حصول الكرد في سوريا على منطقة ذات حكم فيدرالي، أو إدارة ذاتية، ضمن سوريا القادمة بنظام لا مركزي، عندها سيكون وئد هذه الآفات شبه مستحيلة، سيتطلب ثورة أفظع وأشمل في الاعماق الثقافية والسياسية لإزالة أو تغيير الحراك السياسي الكردي بكليته.

كاتب من سورية مقيم في الولايات المتحدة الامريكية

mamokurda@gmail.com

هوامش على الثورة السورية

معتز الخطيب

على هامش الثورة السورية لا يزال يتردد الكلام حول جملة من الأمور، بعضها مخاوف، وبعضها قلق، وبعضها أمل مُوجع، من قبيل الحديث عن «الفئة الصامتة»، وفقد الثقة بالمعارضة السورية، والخشية من بروز ديكتاتوريات جديدة، وهل يمكن التفاؤل من بين ركام مثل هذه العناوين؟

فيما يتعلق بما يسمى «الفئة الصامتة»، أعتقد أن توصيف المجتمع السوري إلى معارضة، وموالاة، وصامتين، توصيف ظاهريّ، فهناك في حقيقة الأمر فئتان: الفئة الأولى هي فئة الساخطين على النظام عبر عقوده الأربعة الماضية. وهي فئة عامة الشعب، ولكن هذا السخط يتبدى بأشكال مختلفة، شكلٌ يتخذ صفة المعارضة السياسية، وشكلٌ يتخذ شكل النقد والسخرية وإبداء الانزعاج من النظام، تارة بالنكتة السياسية وتارة بتجاوز القانون بأي شكلٍ كان، أو التعدي على أملاك الدولة، كنوعٍ من الاحتجاج على النظام وعدم الاعتراف به؛ لأنه يعكس نوعًا من الفصل والتمييز بين الدولة والـ «نحن». وشكلٌ يتخذ شكل «العزوف» عن تعاطي أي شأن سياسي أو شأن «عام» والانصراف إلى ما هو «فردي» بحت لعدم الإيمان بالنظام وبجدوى «السياسة» أصلاً في ظله. فما أود قوله: إن التظاهر وحده ليس معيارًا فاصلاً يمكن من خلاله تقسيم فئات الشعب السوري. ولو مشينا على هذا التصنيف فإن الصمت له دلالات عديدة، الصمتُ خوفًا، والصمتُ غضبًا، والصمتُ تعبيرًا عن عدم الإيمان بجدوى التظاهر، والصمتُ استسلامًا لقدرٍ لا يمكن دفعه. ولذلك لا ينبني على هذا الصمت شيءٌ في الواقع؛ لأن أي سوري يعرف حجم النقمة على هذا النظام وسياساته وممارساته، فهل يحتاج بقاء شخص في الحكم ثلاثين عامًا، وتوريثه لابنه من بعده أحد عشر عامًا إلى نقاش؟ هذا إذا لم نصل إلى قتل الناس ونهب البلاد والسياسات المدمرة للبلاد والعباد!

وفيما يتعلق بمسألة فقد الثقة بالمعارضة، فمن الصعب قول ذلك، أو معرفة ذلك بطريقة دقيقة ومعبرة. إنْ هي إلا انطباعات عامة لا يمكن مناقشتها في الواقع، قد يكون هناك بعض الاستياء من أداء المعارضة، وهذا لا ينبغي التجني فيه، لأن له أسبابه وملابساته، فنحن نتحدث عن معارضة محظورة لعقود مضت، تفرقت في المنافي والسجون تحت القمع والملاحقة والتشويه والاستئصال، فالظروف لم تكن طبيعية وسوية حتى يمكن محاكمة المعارضة السورية كأي معارضة سياسية حقيقية كالمعارضة المصرية مثلاً. هذا أولاً. ثانيًا: هناك شرخ وقع في الشخصية السورية خلال العقود الأربعة الماضية، فأنا أرى أن أول أولويات المرحلة القادمة بعد سقوط النظام هي إعادة بناء الشخصية السورية، وهذا أمر شديد الصعوبة، لأن جزءًا من سياسات النظام الحالي كان «تفكيك المجتمع» السوري، وفَرْط عِقْده، لأسباب عديدة، أحدها أن النخبة التي استولت على الحكم في سوريا كانت من الأقليات، وعقلية الأقلية محكومة إلى هواجس وتخوفات ولا يمكن لمن هو غير مرتاح في عالمه الخاص أن يبني سياسات «مستقرة» في المجال العام، هذا لو قلنا إن هناك مجالاً عامًا أصلاً في ظل نظام البعث. وثاني الأسباب، أن فرط المجتمع كان هدفه تسهيل الاستيلاء عليه وضمان استقرار النظام لهذه المدة الطويلة بعد جملة انقلابات عسكرية مُقلقة. ومن أدوات هذا التفكيك مؤسسات التربية والتعليم والمؤسسة الدينية الرسمية ومؤسسة الإعلام، ومؤسسة الثقافة، فقد بُنيت جميعها على تمجيد رأس النظام وتقديسه أيضًا، وقد كان سبّ

الإله - سبحانه - أمرًا سهلاً بينما انتقاد الرئيس يودي بهلاك المواطن!. أليس عجيبًا أن يكون قانون التعامل بين السوريين حيثما حلوا أو ارتحلوا هو التشكيك والتخوف والآن استسهال التخوين؟ ذلك أن انعدام الثقة وسوء الظن جزء من سياسات النظام عبر العقود الأربعة، لقد زرع الشك في نفوس المواطنين، وأقرّ قاعدة «النفاق» فما يعلنه المواطن السوري غير ما يعتقده، لأن حرية التعبير تودي به وراء الشمس!.

أما ما يتعلق بمسألة الخشية من السوريين أنفسهم، وبروز ديكتاتوريات جديدة، هذا في حقيقته يرجع إلى ما سبقت الإشارة إليه من إعادة بناء الشخصية السورية، وترميم ما انثلم منها، نتيجة تغييب «السياسة» وقيمها، بما هي انشغال «بالشأن العام» والسعي «للصالح العام». فالسياسة وقيمها وتجربتها المتراكمة تقتضي رسوخ ممارسة سياسية حقيقية وقدرة على التواصل السياسي والتفاهم بعيدًا عن سياسات القهر والقمع والغلبة باسم الصواب أو باسم السلطة أو باسم الواسطة. وأنا هنا أتجنب ذكر لفظة «الديمقراطية» عمدًا. فلا يمكن لمجتمع بُني على القهر، ولا يَعترف لمواطنيه بأي حقوق، يولد فيه المواطن مسحوقًا منذ تبلور وعيه وحتى مماته، لا يملك خياراته ولا يشعر بفرديته، ويقبع في نفسه سلطان الخوف، لا يمكن لهذا أن يمارس الديمقراطية بالولادة أو بالفطرة!. وأخشى أن تكون كثرة الحديث عن نقد المعارضة ومساوئها نوعًا من تبرير النظام القائم ومساواته بها!. وفي هذا جريمة!.

أما ما يتعلق بمسألة التفاؤل، والتعويل على الشرفاء، فلا يمكن العيش من دون تفاؤل، إذا توقف التفاؤل فسدت الحياة!. وأصبحت أتحسس كثيرًا من كلمة «الشرفاء» هذه الأيام، لكثرة «التخوين» وارتجال إطلاق ألقاب الشرف والوطنية على كل أحد. الحديث عن شرفاء يستبطن إشارة إلى التخوين، وهو ما لا أحبه.

آفاق التحولات السياسية العربية وتبعاتها

نبيل السهلي

بعد نجاح ثورتيْ تونس ومصر في الإطاحة بنظامي بن علي ومبارك، وانطلاقة انتفاضات شعبية في دول عربية أخرى مطالبة بتغيير النظم السياسية القائمة، برزت أسئلة في الشارع العربي عن مستقبل النظام السياسي العربي وإمكانية تحقيق حلم مجتمع الديمقراطية والحرية.

ففي الوقت الذي تعززت وتترسخ فيه الخطوات في العديد من دول العالم لجهة بناء مجتمع الحريات والمؤسسات والمنظمات الأهلية، يلحظ المتابع السياسي لشؤون المنطقة العربية سيادة مبدأ الفردية في الحكم في غالبية الدول العربية، وتغييب دور الغالبية الساحقة من الشعوب العربية، هذا فضلا عن فرض مصطلحات تخدم المبدأ المذكور، وذلك بغية الاستمرار في الحكم لنهب المال العام على حساب لقمة عيش المجتمعات. وقد توضح ذلك بشكل جلي بعد سقوط النظامين في كل من تونس ومصر، حيث قدر المال المنهوب بعشرات المليارات من الدولارات.

لقد أدت عملية الفساد المالي والإداري إلى زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء, فضلا عن تفشي ظواهر خطيرة في غالبية الدول العربية، وفي مقدمة تلك الظواهر ظاهرة القطط السمان حول النظم السياسية الحاكمة، وتلك الشريحة لا يهمها إلا تراكم رأس المال بعيداً عن القيام باستثمارات تعود بمنفعة مباشرة على الأوطان والشعوب، وهذا بدوره أدى إلى ارتفاع وتيرة مؤشرات البؤس في غالبية الدول العربية، فتفاقمت معدلات البطالة وازدادت قيمة الديون الخارجية وارتفعت معدلات الفقر والفقر المدقع إلى معدلات فلكية رغم وجود المصادر الطبيعية الوطنية الكبيرة، وهذا بدوره كان وسيكون من العوامل الهامة لانطلاقة انتفاضات وثورات شعبية تنادي بالتحول الديمقراطي.

المشهد العربي والمتغيرات الدولية

على الرغم من المتغيرات الدولية التي عصفت بجدار برلين والاتحاد السوفياتي السابق في بداية التسعينيات من القرن العشرين، لم تبد الأنظمة العربية أية نوايا على تغيير نوعي في مجالات الاقتصاد والسياسة، بل على العكس اشتدت وطأة ظاهرة نهب المال العام والإفساد المالي والإداري في غالبية الدول العربية، في الوقت التي تتطلع فيه الشعوب العربية إلى بناء المؤسسات التي تعبّر عن ديناميكية المجتمع وقدراته وقواه الحقيقية وكفاءاته المتشعبة.

صحيح أن ثمة نقابات ومنظمات مجتمع مدني برزت خلال العقد الأخير في العديد من الدول العربية، إلا أنها بقيت محكومة بقوانين لم تتعد توجهات النظام الحاكم، حيث تمت عملية مبرمجة لعدم ظهور قيادات ورموز وطنية لها امتدادها الجماهيري الذي تعبّر عنه، وتبعاً لذلك بقي خطاب تلك النقابات والمنظمات وأدبياتها أسير توجهات النظام السياسي، والأخطر من ذلك كله أن ظاهرة الفساد عششت في داخل أهم سلطة في غالبية الدول العربية ألا وهي سلطة القضاء، لتصبح الرشوة سيدة الموقف والموقف الفصل، وليصبح الحق باطلا والباطل حقا في غالب الأحيان، وقد أسست هذه الظاهرة لانتشار وتفاقم ظاهرة التسلّط في مناحي الحياة.

مؤشرات البؤس في الدول العربية

لقد انعكست سياسات النظم السياسية العربية على كافة مناحي الحياة، ومن بينها الحياة السياسية والاقتصادية، وتجلى التعبير عن ذلك من خلال سوء توزيع الدخل القومي للدول العربية، حيث تتحكم أقلية من السكان التي تعيش في كنف

النظام السياسي القائم بالقسم الأكبر من الدخل القومي لهذه الدولة أو تلك، في حين بقيت أكثرية المجتمعات العربية عرضة لتفاقم ظاهرة الفقر والبطالة كما حدث في تونس ومصر والدول العربية الأخرى.
في مقابل ذلك يتوزع الدخل القومي بشكل أكثر عدالة نسبياً في الدول المتطورة، وبالأرقام ثمة 20% من سكان الوطن العربي يستحوذون على 90% من الدخل القومي، الأمر الذي يجعل 80% من السكان تحت خط الفقر المدقع، ويضعف خياراتهم من صحة وتعليم ورفاه اجتماعي.
وفي هذا السياق تشير دراسات مختلفة إلى أن معدلات البطالة تتراوح بين 9% كحد أدنى و30% كحد أعلى في الدول العربية، ويشار إلى أن نصف الإناث العربيات البالغات ونحو ربع الإناث المراهقات من الأميات، كما تشير بحوث متخصصة إلى أن معدل الأمية بين البالغين في الدول العربية بقي في حدود 36% خلال عامي 2009 و2010، في حين سجل مؤشر الأمية بين الشباب العربي بشكل عام نحو 19%.
ومن الأزمات التي تعاني منها المجتمعات العربية -بسبب السياسات الفاشلة للنظم الرسمية العربية- عدم الاستفادة بالشكل المطلوب من تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وثورة المعلومات، وتُعزَى الفجوات الكبيرة في هذا المجال بين الدول العربية والدول المتطورة في دول العالم إلى ارتفاع معدلات الأمية بين الشباب العربي، والتي كان مردها كما أسلفنا سياسات النظم العربية الرسمية، حيث لم تخصص الموازنات الكافية للارتقاء بمستويات التعليم والبحث العلمي.
واللافت أيضا أن المؤشرات تزداد سوءاً عند الإشارة إلى ضعف المشاركة السياسية الشعبية في غالبية الدول العربية، فضلاً عن ضعف مشاركة المرأة العربية في مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة، هذا في وقت أصبحت فيه مشاركة المرأة من المعايير الرئيسية لمستوى التطوّر والتنمية في دول العالم. إذاً المسؤول عن تدني مؤشرات التنمية البشرية في غالبية الدول العربية هو النظم السياسية وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية.

آفاق التحول الديمقراطي وتبعاته

وتبقى الإشارة إلى أن الاستمرار في حالة النظم السياسية العربية المترهلة سيؤدي إلى تراجع في المؤشرات كافة الدالة على تطوّر المجتمعات العربية، إن على المستوى الداخلي أو الخارجي، ويمنع العرب من اللحاق في ركب الحضارة، ومن هنا فإن الدول العربية ستشهد مزيداً من الانتفاضات والثورات الشعبية للمطالبة ببناء مؤسسات ومنظمات اجتماعية حقيقية، فضلا عن المطالبة بالتغيير الشامل وترسيخ مبدأ الديمقراطية وسيادة القانون عوضا عن مبدأ الفردية في الحكم.
وبطبيعة الحال فإن انتشار وترسيخ المبدأ المذكور سيهيئ الظروف السانحة لعودة رأس المال المالي العربي المهاجر من جهة، وكذلك ستكون الطريق معبدة لعودة الأدمغة العربية المهاجرة إلى أوطانها، حيث تشير دراسات عديدة إلى وجود خمسة ملايين من العلماء والأكاديميين والباحثين العرب في أوروبا وأميركا.
وبعودة رأس المال والقوى البشرية إلى الدول العربية وتوطينها في الوطن الأم، يمكن التأكيد عندئذ أن ثمة قدرات وطنية حقيقية كامنة ستدفع باتجاه تعزيز وتنمية قدرات الوطن والمواطن العربي، وتالياً تحسين شروط الأداء الاقتصادي لكافة القطاعات الاقتصادية في إطار الاقتصادات الوطنية وتحقيق معدلات نمو اقتصادي عال من شأنه تعزيز الخيارات للدول والشعوب العربية على حد سواء, وقد تدفع تلك التغيرات إلى أن يتبوأ الوطن العربي مكانة هامة, ويصبح رقماً ليس هامشياً في إطار العلاقات الدولية.
فالوطن العربي يزخر بالمصادر الطبيعية والبشرية، فثمة 60% من احتياطي النفط العالمي موجود في الدول العربية، ناهيك عن قوة بشرية كبيرة يصل مجموعها إلى 360 مليون عربي، ومن بينها نحو 80 مليونا من فئة الشباب الفاعلة في ميادين مختلفة, وهي الفئة الأقدر على حماية منجزات شعوبها وتطلعاتها.

بشار الأسد ... أنت تقتل إذا أنت موجود!

هدى زين

ياقاتل أبناء شعبه.. ياقاتل الأطفال والشباب والنساء والرجال.
ياقاتل الحيوانات.. وقاتل الحياة..
بشار الأسد . وكل من يصنع معك هوية نظام حكمك في السياسة والامن والجيش .: لم تعد شيئاً آخر إلا حاكم السلاح ومستبيح القتل..
بشار الأسد: لم تعد رئيساً لسوريا اليوم ولاحتى الرئيس المستبد.. إنك فقط قاتل.. لاشيء آخر..
بشار الأسد: أنت موجود لأنك تقتل.. أنت وأخوك ماهر وكل من يساهم معكم في صناعة القتل في سوريا..
لم يبق من ذاك الهرم السلطوي الصلب الذي بناه حافظ الأسد وحماه وزاد من صلابته بشار الأسد إلا دعامة واحدة فقط وهي القتل.. مما أفقده استحقاق أن يكون نظاماً غنياً بأشكال الاستبداد المتنوعة وطرق التسلط والقمع المختلفة.. أصبح نظام بشار الأسد نظاماً فقيراً بطرق خداع الشعب وتنوع مستويات وأشكال الترويض والإخضاع.. لم يبق من كل أصناف الاستبداد التي كان يعدها حافظ الأسد ويبدع فيها وكذلك وريثه غيرالشرعي بشار إلا صنف واحد يصنعه كل يوم لشعبه في ساحات الصراع الوجودي بينهما.. ألا وهو القتل أو القتل بالتعذيب..
ماذا يعني أن تفقد سلطة استبدادية أهمية كل أدواتها الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية والتنظيمية في السيطرة على متغيرات المجتمع لتتحول إلى سلطة عنف مسلحة محضة ؟ أي لماذا هُمشت آليات السيطرة والإخضاع الأخرى لدى نظام بشار الأسد وأخيه ماهر وكل من يشاركهم الحكم أو القتل مشاركة حقيقية في القضاء على ثورة الشعب؟
إن الثورة السورية التي دخلت شهرها الحادي عشراليوم تقدم نفسها على شكل صورة مصغرة للتاريخ الإنساني بكلّيته.. تلخص تاريخ المالك للجزء الأعظم من الثروات وتاريخ من لايملك إلا إما قوة عمله فقط أو القليل من الثروة.. وتختصر تاريخ الصراع بين المالك للسلطة بشكل شبه مطلق وبين فاقدها بشكل شبه مطلق.. الصراع بين التعبير عن الذات والتعبير عن الآخر.. بين تقريرالمصير والتبعية.. بين ضمير المتكلم و الضمير الغائب.. القاهر والمقهور.. السيادة والعبودية.. وبين الاستبداد والحرية.. ولولا هذا القهر كله ولولا تراكمه الطويل.. لولا أن الشعب انحنى وانكسر الى أبعد الحدود الممكنة للانحناء والانكسار لما انتفض اليوم ثائراً على سلطة هو يعي تماما أنها ستنتهك كل شيء في حياته وستحاول أن تكسره مرة أخرى..
إن اعتماد هذا النظام لعقود طويلة على سياسة السيطرة الكاملة على كل شيء في المجتمع.. على كل فرد أو جماعة.. وجعل كل مكونات المجتمع عاجزة عن تكوين ذات خاصة بها.. تَطّلب عملاً دؤوباً وصنّع أدوات سيطرة مدروسة بدقة لإنتاج العنف وبناء سلطوياً صلباً لاتهزه ببساطة تدخلات خارجية أو اهتزازات داخلية.. حينما يكون الهدف إذاً السيطرة على كل شيء وترويض كل شيء يكون هدر الحقوق والحريات واستعباد المجتمع هو الطريق الطبيعي والمنطقي لإثبات ذات السلطة المستبدة.. أي أن سلطة حافظ ومن ثم بشار الأسد هي سلطة اعتمدت دائماً العقلانية منهجاً في تنظيم وتأطير وقوننة الاستفراد بالسلطة فأنتجت بالضرورة أحادية الحكم وثنائية الأمر والطاعة.. فحافظ الأسد الذي

استطاع أن يبني نظاماً أمنياً ألغى من خلاله كل قوى المعارضة و صفى زعماءها إما بالاعتقال أو الاغتيال أوالنفي، وقضى على كل مظاهر المجتمع المدني المستقلة إنما استطاع تحقيق ذلك ليس فقط عن طريق ممارسة العنف المباشر وإنما أيضاً بآليات السيطرة الأخرى حيث كان النظام وحزب بعثه . ومازال حتى اليوم . يملك جميع الصحف ووسائل الاعلام المرئية والسمعية والمقروءة.. كما أحكم سيطرته على كل مظاهر المجتمع المدني كالمنظمات الشبابية والنسائية والنقابات المختلفة والجمعيات المهنية والنوادي المستقلة والدور الثقافية والفنية وكذلك الجمعيات الصناعية المستقلة ودور الصحافة والنشر الخاصة وكل جمعيات الضغط بمختلف أشكالها كجمعيات حقوق الانسان وغيرها..

كما حرص حافظ الأسد ومن بعده وريثه غير الشرعي بشار الأسد على منح امتيازات كبيرة لأقارب وأصدقاء مجموعة الضباط في الجيش وأجهزة الأمن الذين يقدمون الموالاة التامة للسلطة لضمان تأييدهم واستبعاد إمكانية تآمرهم وانقلابهم على السلطة... فتحولت الدولة بمؤسساتها المعبرة عن المجتمع والتي من المفترض أن تعكس وتحمي العقد الاجتماعي المتفق عليه وعلى قانون يؤطره إلى دولة نظام تحمي العقد الاجتماعي الخاص بزواج المال بالسلطة وتحولت الدولة إلى مؤسسة كبرى ذات ملكية خاصة لطبقة حاكمة تدور في فلك رئيسها تنظم الحياة في المجتمع بالشكل الذي يُسمح به بالسيطرة على منافذ الثروات وفرض السلطة المطلقة..

ولأن الاستبداد السياسي يشبه نظيره الاستبداد الديني فهو يعتمد على ثقافة المطلق التي يمكن أن نختصرها بدلالة شعار "للأبد ياأسد" وعلى بناء الرموز التي تتخذ لها طابعاً مقدساً وتتحول في كثير من المواقف إلى أصنام محنِّطة ومحنَّطة ويمكن اختصار ثقافة الرموز وصنمية الحاكم بتماثيل حافظ الأسد وصوره وصور وريثه غير الشرعي بشار وأخوه باسل التي تستهدف حصار المواطن وملاحقته نفسيا وثقافيا.. ناهيك عن اللغة السياسية التعبوية الكاذبة التي تنتجها السلطة عبر طبقة المثقفين والأدباء والشعراء والاعلاميين ورجال الدين وغيرهم.. إن هذه السلوكيات والقيم الاستئصالية وغيرها التي بناها حافظ الأسد ورسخها بشار كانت آليات استطاعت أن تحول الدولة بمؤسساتها الوطنية من حاضن للوطن إلى حاضن وحام للنظام.. أي أن تحولها إلى أدوات نفعية بأيدي أصحاب النفوذ وجماعات المصالح عبرحالة ذوبان قسري في كيان النظام الحاكم.. وكذلك تحول الشعب بمكوناته المختلفة إلى قطيع من الجماهيرغير قادرعلى الانخراط في النشاط العام باستقلالية ويعيش في حالة مستمرة من السلبية والاغتراب.. لم يتم إذاً فقط استخدام العنف المباشر والقتل لسحق كل تعبير أو مؤشرعلى الاستقلالية في التعبيرعن الذات أو عن المعارضة..

أما نظام بشارالأسد اليوم فقد أعلن بفعل الحراك الثوري عن إفلاسه من طرق ممارسة الاستبداد المتعددة ولم يعد يسيطر إلاعلى القتل.. لأن هذا النظام أدرك تماماً أن معركته اليوم هي معركة مصيرية بين الحياة والموت.. ولأنه شعر أنه اليوم أضعف من أي وقت مضى.. فلم يعد قادراً على ترويض الشعب كقطيع يصفق له ويقف أمامه سمعا وطاعة.. ولم تعد قبضته الحديدية وهيمنته الإيديولوجية والسياسية تهدد وعي المواطن السوري فتشل مقاومته.. لقد أدرك أن أنساق الاستبداد المتحكمة التي كان يمارسها منذ أربعين عاماً أصبحت عاجزة عن حماية السلطة وأن الإنسان الثائر في سوريا انتصرعلى قمقم الخوف الذي كان يعيقه عن أن ينطلق نحو الحياة من إرادته الذاتية أومن تفكيره الخاص متحرراً من أخلاق الطاعة وفوقية السلطة..

فلم يبق بين يديه إلا القتل الوحشي والتعذيب الأكثر وحشية.. لقد تحول من نظام استبدادي إلى نظام قاتل لشعبه.. وأخذ يقبل باحتمال انهيار الدولة بأكملها أمام تفاقم الأزمة مقابل عدم التخلي عن السلطة.. وما نهج القتل الذي يتبعه إلا الوجه الآخر للإنكار الكامل والإصرارعلى إلغاء الاعتراف بالاخر.. إنكار جنوني سافر لحق الفرد والشعب بالحرية والكرامة.. إنكار لواقع حقيقي لايمكن إنكاره إلا ممن يتوهم أن وجود هذه السلطة هو أمر مطلق مثل وجود الله أو ممن يدرك

حتمية سقوطه ويحاول تجنبه بالإنكار المحبط.. هو إنكار يسلّم بعبودية الشعب وأبدية الحاكم.. إنكار من لم يتصور في عقله الباطني أن المحكومين هم بشر لهم الحق في الحياة والحرية والكرامة وتقرير المصير بدون وصاية أبدية من سلطة جائرة.. التعبيرعن الإنكار الكامل والمحض لثورة الشعب في سوريا وعدم التنازل عن قيد شعرة من هيبة وأحادية الاستبداد هو التعبير بالقتل.. القتل الكامل والمحض.. القتل بالرصاص أو بالتعذيب وبأبشع صوره.. ولأنه ناجم عن الإفلاس والعجزعن إيقاف الثورة والمقاومة فهو قتل من نوع خاص.. إنه همجي وسادي يعبرعن نفسه بروح الانتقام وبفظاعة التفنن في تفريغ الاحتقان العدواني الهائل الناجم عن الخوف أمام ثورة شعب لايهدأ ولايخاف ولاتنام له عين قبل أن يسقط بشار ونظامه.. فمن ينظر إلى أي جثة معتقل مات تحت التعذيب سيرى أن جسد كل جثة تروي قصة رئيس قاتل وإنسان ثائر.. قصة تاريخ طويل من النضال والآلام.. قصة عمرها عشرة أشهر ونيف.. قصة شعب يستمد قوته من موت شهدائه المقتولين.. قصة نظام قاتل يعيش تحت وطأة التهديد بالزوال فتحول إلى كيان نرجسي سادي ينتقم من أجساد ضحاياه بأفظع وأبشع أصناف التعذيب والتنكيل والتمثيل بالجثث وتحقيرها بتقطيعها أو قلع بعض أعضائها أو التشفي بتشويهها وحتى سرقة أحشائها بصورة تهز الكثير من القتلة..

ولكن مامن شيء يدفع الناس إلى طلب الحرية مثل الطغيان.. وكما قال نابليون يوماً: إذا اندفعت الشعوب فلا يمكن إيقافها..

فيا أيها القاتل لشعبه بشارالأسد: ليس شخصك المقصود فقط وإنما نظامك وأجهزتك الأمنية والعسكرية:

اقتل كما تشاء وارو ظمأ ساديتك من دماء أبناء شعبك الساخنة وعش نشوة جلاديك بقهر وإبادة ضحاياك..

اطحن عظام المواطن الذي تريد أن تكون حاكماً له وعذبه بروح الفاشيين وبجبن العاجزين كما يحلو لك..

كسر أسنان ضحاياك.. قلّع أظافرهم.. اسلخ جلودهم.. شوه أجسادهم.. كسّر الأعناق والأقدام والأصابع.. اقتلع الحناجر والعيون.. قطع أوصال الجثث..

اقتل الأطفال بجبن الفاجرين حيث أنك الوحيد من المستبدين الذي لايفزعه اعتقال وتعذيب وقتل الأطفال..

تلذذ بما تقترف يداك وافعل ماأنت فاعله كل يوم كما تشاء.. ولكن اعلم شيئا واحداً.. وتأكد من حقيقة حتمية.. وهي:

إنك لم تعد رئيساً.. فما أنت إلا قاتل.. ولابد وأنك ساقط.. لابد وأنك ساقط.. لابد وأنك ساقط.. أنت وأجهزتك الأمنية والعسكرية لن تستطيع أن تبقى حاكماً.. لأنك طرف يقتل ولست رئيساً يحكم..

فاذا لم تستطع أن تحصل على الحد الأدنى من شرعيتك والاعتراف بك من شعبك فأنت زائل لامحالة.. كل ماتستطيع فعله هو المزيد من القتل . هذا إن لم تتخل عن السلطة بإرادتك وتُجنب الدولة والشعب من الانهيار الكارثي . ولكنك لن تستطيع أبداً لا أنت ولا من يقف وراءك البقاء لأنك لا تستحق البقاء ولأن من يقاوم لايُهزم وأنت اليوم تصارع شعبا مقاوماً..

لم يعد عند كل حر فينا فرق بين أن يموت فينا مئة أو عدة آلاف أومئات الآلاف... لأن قيمة كل إنسان فينا تعادل قيمة الجميع... لن نقبل أبداً أن يتعذب بعضنا ويصمت بعضنا الآخر... لن نقبل أن يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر... فلتقتلونا جميعاً وتصبحوا حكاماً وهميين على جثث قتلاكم أو لنسقطكم مهما قتلتم فينا

كاتبة سورية مقيمة في فرنسا

هل تعيد الثورات العربية الاعتبار للقضايا الكبرى؟

فواز حداد

يوحي تسارع غالبية الأدباء نحو الاصطفاف وراء الثورات العربية بأن الفنون كافة ستضطر إلى المرور في مرحلة شاقة تحاول فيها التلاؤم مع تطلعاتها، والاندراج في سياقها بهدف التعبير عنها، بعدما جرى، وعلى نطاق واسع، الارتداد عن ثورات القرن الماضي وإعلان التحرر منها. المفارقة أن خيانات الأدب هي التي تصبغ تاريخه وتصوغ منعطفاته. وتبدو اليوم الحاجة ماسة إلى التعويض عن التقصير في التنبؤ بعاصفة «الربيع العربي»، وإن كان بعض المثقفين لم يتحرجوا من القيام بحركات استعراضية زائفة، تمسحوا بهذه الثورات بزعم أن انتظارهم لها لم يخب. وكأننا لم نكن «في انتظار غودو»، وإذا كان الكثيرون التحقوا بها، فهناك من وقف منها موقفاً نقدياً استعلائياً، واشترط عليها اشتراطات نموذجية، على نمط ثورات لم تحدث قط.

لكن الثورات لا تنتظر المحللين ولا المنظّرين، الذين عادة يحاولون مجاراتها وتفهم آلياتها، لا سيما إذا لم تكن بالحسبان. وإذا كان الربيع واحداً، فهو يختلف من بلد الى آخر. من يزعم أن مصر أو ليبيا أو حتى اليمن، تشابه المثال السوري المعقد الذي لا نظير له؟ وعلى رغم تسجيل ثورات مصر وتونس تحررهما سريعاً من الطغيان، لم تستتب الأمور بعد للمنتفضين الشبان ولا للأحزاب الوطنية، هناك التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل، حيث تربض الشياطين، ولا يستغرب أن يكون الصراع احتدم، والأغلب ألا تكون النتائج في صالح الأخيار كمرحلة أولى، ما زال الطريق طويلاً.

في العقود الماضية التي سبقت سقوط جدار برلين، شهد الأدب والفن مرحلة ذهبية لازدهار القضايا الكبرى في الرواية والسينما والمسرح، وإن من دون مردود على وزنها. كانت الإخفاقات التي مُنيت بها أكثر من النجاحات المأمول منها. ومع ذلك ظفرت بأسماء كبيرة ومهمة، كان من روادها الكبار المسرحي بريخت والسينمائي ايزنشتاين والناقد لوكاتش وغيرهم، قادوا حركة وضعت الإنسان في صميم عالم ينحو إلى التغيير الجذري، إلى أن قضت عليها الأنظمة التي ساهمت بولادتها، ومعها رفاق الثورة الذين لم توفرهم من الإعدامات والتشريد بين السجون والمنافي.

قضايا كبرى

في عالمنا العربي، تجلت على نحو أكثر التباساً، فمثلما أنجبت عبدالرحمن منيف وغسان كنفاني وسعيد حورانية... دفعت الكثيرين بسبب انتشارها وجماهيريتها وهيمنتها على أسواق الصحافة والأدب إلى ركوب القضايا الكبرى، فشادوا أمجادهم على حساب فلسطين والطبقة الكادحة ومناطحة الامبريالية، ولم يألوا جهداً بالمزاودة على الحرية والاشتراكية والوحدة والتغني بها وإحالتها إلى مسرح وسينما وشعر ورواية ولوحات تشكيلية، لا تخدمها قدر ما أساءت إليها، بعدما جرى تقزيمها إلى شعارات ولافتات، غذت المشهد العام بوهم خوض معارك ضروس ضد الرجعية العالمية والأنظمة المنخورة، مصحوبة بانتقادات خجولة ترفيهية للأنظمة التقدمية، تصلح للتسلية أكثر منها لكشف المجرمين والجرائم. وبشروا بانتصارات حتمية تجبر الدول الكبرى على الاستجابة للحقوق المهدورة للشعوب المحرومة. ورسموا بذلك الحدود النهائية لنضالاتهم المستقبلية، بينما كانت القضايا نفسها في طريقها إلى الهزيمة الكاملة. حتى أن حدثاً ولو كان دولياً وضخماً، يبعد عن المنطقة آلاف الكيلومترات في موسكو، وضع حداً لكل هذه الآمال وغيّر وجهتها نحو الإحباط، فانقلبوا

عليها، بانتقادها، والتنكر لها، والارتداد عنها.

ظهرت على الأثر دعوات أبدى فيها لفيف من الكتاب امتعاضهم من القضايا الكبرى، ووصفوها بالقضايا البائتة، المفلسة والخاسرة، كهنتها وسدنتها يقبعون في عرين اتحادات الكتاب في طول البلاد العربية وعرضها، من دون أن يقدموا لها شيئاً سوى المزيد من التكلس والانحطاط، حتى لم تعد القضايا الكبيرة إلا موهبة اقتناص المنافع الشخصية. هذه العقلية المهيمنة ما زالت المسيطرة لم تسقط بعد.

لم يكن غريباً على الأدب الذي خذلته القضايا الكبرى في العقد الأخير من القرن الماضي، مجاراة أهواء أدباء في الغرب، في تمثل منحى الكتب الأكثر رواجاً، التي لا تثقل على القارئ، وتدعو إلى التخفف من الأيديولوجيا، فنادوا بالقضايا الصغيرة التي تهم الفرد العادي، وهي ليست دعوة مبتكرة، وإن اتخذت تسميات مخاتلة، كانت لا تزيد عن دعوة شاعت تحت ظلال الأدب الاشتراكي نفسه، من جراء سحق الفرد لمصلحة الحزب، بتوجيه الاهتمام إلى «الرجل الصغير»، والتفاصيل الإنسانية الأكثر التصاقاً به، فالقضايا الكبيرة كما كانت تطرح، لم تكن إلا كلاماً في الهواء وتحت الرقابة، يدور في قاعات سيئة التهوئة، امتيازها الصراخ والضجيج، وخنق أية فكرة معارضة.

مارس أدباء التقليعات الغربية حفلات اتهامات وسخرية ضد أي عمل أدبي يتضمن عودة السياسة إلى المجتمع، بتهمة جاهزة: الأيديولوجية. تحت ذريعة أن السياسة للسياسيين، والأدب للأدباء، وأي خلط بينهما سيكون على حساب الأدب. وفي لحظة تكفيرية فارقة عما ارتكب من خطايا سياسية، أصبح الأدب يُعنى بالجنس فاشتطوا به، تعويضاً عن كل ما حاق بالإنسان العربي من إهمال، ولم يكن العيب في هذا الشطط، فالجنس كالطعام والشراب لا يأمن الشطط، لكنه يصيب بعسر الهضم، فأصاب القراء بعسر الفهم، لم يستسيغوا العنتريات الذكورية للجنس المفضوح، ولا التحرر الجنسي للأنثى المقيدة بواقعها الضيق. انهال هذا الحجم الكبير من الإغراءات على مجتمع محروم من الحرية والكرامة... وأيضاً من الجنس الحلال والحرام. فالجنس الحلال غير متاح إلا بالزواج، والجنس الحرام لا يناله الفقير، ولا متوسط الدخل إلا بالمال الوفير، وبما أن الزواج مكلف، والمال الوفير غير موفور، فالحرمان هو السائد.

المشكلة أن الجنس كان مقحماً وغير ناضج، ومتنفجاً أكثر منه علاقة إنسانية، رداً على ما وصمت به السياسة، التي باتت رهاباً يتنصل منه الشعراء والروائيون، يكفي التلويح به حتى يحاط أي كتاب بالشبهات، ويُقضى عليه حتى من دون قراءته، وأصبح لهذه المهمات أدباء حداثيون لهم مآرب شعرية وروائية وسير ذاتية مختلقة، بارعون في تلفيق الانتقادات وتوجيه الاتهامات.

ما حالنا اليوم وقد وجدنا أنفسنا في خضم القضايا الكبرى، وهي ليست كونية، بقدر ما هي قضايا شعوب مهانة تريد انتزاع حقوقها من سلطات غاشمة؟ كيف يمكن الكتابة عنها من دون الوقوع في فخ الأيديولوجية، أي ألا يكون الأدب تابعاً للسياسة، أو أن تتحول الكتابة الأدبية إلى منشور تعبوي، لا سيما أن النزر اليسير من الأدلجة لا يمكن التخفي عليه، في أوضاع غدت السياسة فيها ضرورة، فالشعب عاد إلى الشارع، أعزل بلا سلاح، إن لم يتسلح بالسياسة، ستعاد الكرة ويحتال القادمون الجدد على حقوقه المهدورة، وتحصد الشعوب ثورات تُسرق في وضح النهار، لافتقارها إلى ثقافة سياسية فاعلة.

بالتالي ما حال الأدب، بعد مروره بتجربة مريرة، وضعته في خدمة أنظمة مستبدة والترويج لها؟ وماذا عن الثورة، بعد آلاف الضحايا، هل تمر من دون أن تحظى بالتعبير عنها أدبياً؟ ألن يقدم الروائيون والقصاصون رؤاهم؟ ألا ينبغي لهذا الحدث الدخول إلى محراب الأدب؟ ولئلا يمتعض أولئك الذين يأنفون من السياسة، ويعتقدون أن الأدب مخصص للإنسان في وحدته وتخيلاته وأوهامه... هناك كتاب كبار كتبوا عن ثورات عاشوها، وأخرى لم يعيشوها، كالذين كتبوا عن الثورة الروسية والفرنسية، إضافة إلى الأميركيين الذين ما زالت ثورتهم ضد البريطانيين تلهمهم بالكتابة عنها روائياً وسينمائياً.

تشكل الكتابة الأدبية عن الثورات العربية تحدياً، وهو لا يعني توثيقها، إلا كمرحلة أولى، وإنما تمثلها وهي تسري في المجتمع، وتجلياتها بين الأفراد والجماعات، وإدراجها في التاريخ، دونما دعايات وادعاءات، فشهودها ما زالوا أحياء.
وإذا كان هناك درس تعلمناه من الثورة، فهو أن القضايا الكبيرة لا تنفصل عن القضايا الصغيرة، لا تناقض بينهما، الكبرى لا تمنع الصغرى وبالعكس، إلا إذا صادرت إحداهما الأخرى، فالمجتمع ليس نقيض الفرد، ولا الفرد خارج المجتمع، حتى ولو كان ضده، وناقداً له، أو على عداء معه. تستمد القضايا الكبرى مكانتها من التاريخ والبشر، ففي التاريخ تسجل حضورها وفعلها وقدرتها، ومن البشر تستمد مشروعيتها. أما عن العلاقة بينهما، فلا قضايا كبرى، إلا إذا كانت الصغرى جوهرها، هذا ما يمنحها مكانتها وديمومتها.
وليس في هذا ابتكار، ولا قول جديد أو تجديد، تاريخ الأدب يحفل بروايات سجلت هذه المتغيرات في حياة شعوبها، سواء من الناحية النضالية أو الروحية، فكتبَ أناتول فرانس عن الثورة الفرنسية «الآلهة عطشى»، وعن الثورة الاسبانية كتب أندريه مالرو «الأمل» وجورج أورويل «العودة إلى كاتالونيا»... لم يغب عن رواياتهم الإنسان بآماله وأحلامه وتوقه إلى الحياة، وفي مثال بسيط ومعروف، إذا كانت الرواية الروسية قد خرجت من معطف غوغول، فمعطف غوغول خرج من قضية كبرى هي قضية الإنسان.

روائي سوري

الاربعاء، 25 أبريل 2012

السعي نحو الحرية

(ثلاث محاولات)

هيثم حقي

الخوف من الديموقراطية

الخوف من النتائج التي قد تتمخض عنها انتخابات حرة ديموقراطية، أصبح ذريعة لدفاع الكثير من النخب الثقافية العربية عن بقاء الحال على حاله «لأن الديموقراطية تحتاج إلى تدريب وتعلّم يتطلبان وقتاً». والغريب أن هناك من هذه النخب من كان يتباهى ليل نهار بنضاله في سبيل الحرية. وفجأة أصيب هؤلاء بالرعب عندما دقت ساعة الحقيقة. وبالنسبة الى السوريين، المختلفي الانتماءات العرقية والعقائدية، تضاعف الخوف عند البعض من اندلاع مواجهات يذهب ضحيتها الأقليات. وكطوق نجاة من الغرق في تهمة الوقوف ضد الحراك الشعبي، راحوا يسوقون الأدلة من نتائج انتخابات تونس، وما ستنتج عنه انتخابات مصر وليبيا من فوز مؤكد للإسلاميين.
في البداية هذا الموقف فيه عدم ثقة بشعب عظيم كالشعب السوري، الذي تحمّل الكثير في سبيل إصلاح لم يأت. ثانياً: الإيمان بالديموقراطية قديم في سورية، فالدكتور عبدالرحمن الشهبندر قال عام 1940 قبل اغتياله: «إذا كانت الديموقراطية كفراً فأنا أول الكافرين»، ودفع حياته ثمناً لذلك. وجاءت الديموقراطية وخرج المستعمر. تبع ذلك سلسلة من انقلابات العسكر التي عطلت المشروع الديموقراطي التعددي، ليعود البلد الى عافيته عام 1954 حيث تم إنهاء الديكتاتورية العسكرية ليؤسس السوريون ديموقراطية تعددية كانت فعلاً ستجعل سورية واحدة من أكثر البلدان تقدماً في منطقتنا.
لكن العسكر عادوا من بوابة الوحدة وخضعت سورية من جديد لوصاية على الشعب بنظام الحزب الواحد. وبعد فشل الوحدة، وعدم قبول ديموقراطية الانفصال شعبياً (لأنه أطاح «الزعيم الملهم جمال عبدالناصر» والذي وضع الشعب فيه كل آماله، على رغم أن فترة الوحدة القصيرة كانت وبالاً على سورية في مجال الحريات والاقتصاد) جاء العسكر من جديد في الثامن من آذار (مارس) 1963 بدعوى إعادة الوحدة وتحرير فلسطين وإقامة نظام العدالة الاجتماعية. وخلال خمسين عاماً لم يحققوا أياً من هذه الأهداف (الوحدة والحرية والاشتراكية) التي يرددها طلاب المدارس كل صباح مع تحية العلم، بل زادوا عليها فقداناً للجولان وعداء للوحدة وازدياداً للهوة بين الطبقات.
وهكذا، وعلى مدى نصف قرن من نظام الحزب الواحد، لم يتوقف الشعب السوري عن سعيه نحو الديموقراطية، حيث قامت حركة ثقافية ونقابية قوية مع حراك سياسي، خلال النصف الثاني من السبعينات، أطاحتها المواجهة المسلحة بين النظام والتنظيم المسلح للإخوان المسلمين، فقد استفاد النظام من هذه المواجهة ليعتقل لسنوات كل معارضيه غير المسلحين من اليمين واليسار. وبدا كأن جذوة النضال من أجل الديموقراطية قد خبت، لكن النصف الثاني من التسعينات حمل تجدداً للحراك السياسي مع بدء التحضير لتسلّم الدكتور بشار الأسد السلطة، فقد استلزم الأمر حواراً حول الإصلاح تتوج بعد تسلّمه السلطة بما بات يعرف بربيع دمشق. وخلال السنوات العشر الماضية لم يهدأ الحراك الديموقراطي على رغم محاولات تجميده بسجن رموز ربيع دمشق أو مضايقتهم أو محاولة جلبهم إلى حضن النظام، خصوصاً بعد احتلال العراق واستفادة النظام من العداء الذي تكنه النخب الثقافية السورية للسياسة الأميركية المنحازة الى إسرائيل.
ومع تفجر ثورات الربيع العربي، استعاد الحراك الديموقراطي في سورية زخمه مع التظاهرات المطالبة بالحرية والتغيير،

التي أقرّ حتى النظام مشروعية مطلبها، وليعترف الجميع بحق السوريين في الانتقال إلى نظام تعددي ديموقراطي.
إذاً، هو مخاض عسير استمر نصف قرن وأكثر، عرف فيه السوريون طريقهم وما يريدون. وتعلموا الكثير، ولا يحتاجون الى أي زمن لممارسة حقهم هذا.
أما بالنسبة الى احتمال فوز الإسلاميين في الانتخابات، فأنا ديموقراطي اجتماعي علماني أؤمن بالديموقراطية وأتقبل نتائجها. فإذا فاز الإسلاميون في انتخابات تعددية حرة نزيهة، وهو أمر أستبعده لكن أتقبله إن حصل، فسأكون أول المهنئين... وسأستمر في نضالي من أجل فصل الدين عن الدولة، وحرية المعتقد، والمواطنة المتساوية أمام قانون يعدل ليصبح عادلاً... ولن أستسلم إلى وهم: «الذي تعرفه خير من الذي تتعرف عليه»!
أخيراً... النظام الديموقراطي هو الأكثر اقتراباً من العدالة، لكنه ليس نظام العدالة الأمثل. فهناك الاتجاهات الليبرالية المؤيدة لحرية رأس المال المطلقة والتي نتج منها عالم الرأسمالية المتوحشة ونظام النهب المصرفي الذي نعيش فيه. كذلك أنشأت هذه الرأسمالية نظام تسعير ظالماً، خصوصاً لدول الجنوب. لذا أجد أن الديموقراطية هي عتبة للانضمام إلى النضال العالمي في سبيل تحقيق العدالة بين الشعوب وإلغاء نظام التسعير العالمي الظالم والذي أسمّيه: «التسعير أعلى مراحل الإمبريالية».

20 نوفمبر 2011

تظاهرات سورية مليونية ... موالية كأنها تعارض

تظاهرات مليونية مؤيدة... تظاهرات مليونية مؤيدة لإصلاحات القيادة... تظاهرات مليونية ترفض التدخل الأجنبي... تظاهرات مليونية تشكر الصين وروسيا على الفيتو ضد قرار يدين استخدام العنف ضد المتظاهرين... تظاهرات مليونية... إلخ.
حسناً يا سادة، سأفترض أنكم خرجتم جميعاً بإرادتكم وأنكم لا تقصدون بخروجكم هذا دعم قتل المدنيين، بل أنكم خرجتم تطالبون بوقف العنف وتغيير الدستور الذي بتغييره يسقط نظامٌ وينشأ نظامٌ جديد يقوم على التعددية والمواطَنة المتساوية أمام قانون عادل، وتكون صناديق الاقتراع هي الحكم فيه.
لكن هذا الأمر بدا لكم بعيد المنال.
لذا سأفترض أنكم خرجتم لتطالبوا القيادة بالتعجيل به، أي بتغيير الدستور من دستور نظام الحزب الواحد إلى النظام التعددي الديموقراطي المدني البرلماني، بفصلٍ بين السلطات واستقلال للقضاء بعد إصلاحه، وبتعديل للقانون ليصبح عادلاً يتساوى أمامه كل المواطنين بصرف النظر عن الجنس أو العرق أو الدين، مما يمكّن من القضاء على الفساد الذي يؤدي إلى تكافؤ الفرص، واعتماد التنمية المتوازنة، والقضاء على البطالة والفقر وتأمين حقوق المواطنين بالعمل والمسكن والصحة والتعليم، وكلها تحتاج الى إصلاح جوهري.
إذاً، أنتم خرجتم كما يخرج السوريون منذ ثمانية أشهر في طول البلاد وعرضها، يطالبون بمطالبكم ذاتها تحت مسمى الكرامة والحرية وتغيير النظام، ويُقمعون ويُقتّلون ويُساقون إلى المعتقلات ويُعذبون ويُهانون وتُهدر كراماتهم وكرامات أسرهم وتُقتحم بيوتهم... إلخ، والقائمة تطول، وأنتم لا شك تعرفونها.
حسناً من جديد. قد تقولون إن هؤلاء المتظاهرين الآخرين يضمرون تغيير النظام إلى نظام إسلامي متشدد غير مدني يضطهد الأقليات. لكنكم تقولون إنكم أكثرية وإن الجيش معكم وممسكون بكل مفاصل الأمن والاقتصاد و.. و.. و... ممّ تخافون إذاً؟ طالِبوا القيادة التي وعدت منذ شهور بالإصلاحات، بتنفيذ إصلاحاتها فوراً، أو على الأقل بتنفيذ بنود بيان اللقاء التشاوري الذي عقدته السلطة، والذي عرفنا أنه سيكون أساس الحوار في هيئة الحوار التي أعلنت عنها السلطة، وستكون هذه المرة برئاسة الرئيس لا نائبه. أذكّركم أعزائي من جديد ببعض مقاطع البيان.
«... رفض الاعتداء على الأشخاص والممتلكات العامة والخاصة، ومن أي جهة تبادر إليه. ضرورة الإفراج الفوري عن جميع المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي (...) التأكيد على أن حق إبداء الرأي غير قابل للانتهاك ومصون تحت سقف الوطن والدستور وأن الحريات العامة حق لكل المواطنين (...) ضرورة إعلاء قيمة حقوق الإنسان وصونها وفق أرقى المعايير الدستورية والإنسانية والعصرية (...) إن المعارضة الوطنية جزء لا يتجزأ من النسيج الوطني السوري (....) وإن توجه اللقاء هو من أجل إقامة دولة الحق والقانون والعدالة والمواطَنة والتعددية والديموقراطية التي تعتمد صناديق الاقتراع أساساً للتفويض السياسي».
هذا تذكير فقط ببعض ما جاء في هذا البيان. إذاً أنتم خرجتم لتكون صناديق الاقتراع هي الحكم، فلمَ تفرضون بهتافاتكم أبديةَ النظام الذي تنادي السلطة على لسان أعلى شخصياتها بتغييره؟ ولمَ تؤيدون قتل المطالبين بالمطالب ذاتها، والذين لولا تضحياتهم لما خرجتم اليوم لتؤيدوا تغيير النظام من دون أن تدروا؟...
ولأنكم غالبية، فلا ضير في أن يخرج المتظاهرون الآخرون من دون أن يتم الاعتداء عليهم واعتقالهم وترويعهم وتركيعهم. لذا، أريد أن أفترض أيضاً أنكم خرجتم وأنتم تطالبون لإخوتكم بالمعاملة نفسها التي عوملت بها تظاهراتكم، من حماية وفتح للطرقات وتسهيل للخروج من العمل والمدارس... إلخ.
يا أيها المواطنون السوريون المؤيدون للقيادة السورية، ارفعوا أصواتكم عالياً بسحب الجيش والأمن من المدن السورية المحاصرة، وبتغيير عقيدته، بجعله جيش الدولة لا جيش السلطة. كذلك طالبوا بتوحيد قوى الأمن لتُختصر بالأمن الخارجي ضد العدو الصهيوني، وبتقوية جهاز الشرطة وإعطائه الصلاحيات الموجودة في الدول المتمدنة. وارفعوا أصواتكم بكل قوة للمطالبة بالسماح بالتظاهر السلمي، لتلتقي تظاهراتكم المطالبة بالإصلاح عن طريق تغيير نظام الحزب الواحد إلى النظام التعددي الديموقراطي المنشود مع تظاهرات المعارضة المطالبة بالمطلب ذاته.
ولأن استعراض القوة الذي أجريتموه في الساحات الرئيسية في دمشق واللاذقية والحسكة وغيرها طمأنكم إلى قوتكم، اطلبوا من القيادة فوراً الانتقال إلى النظام التعددي الذي سيسمح لكم عن طريق صناديق الاقتراع، من دون لبس، بتحقيق الغالبية المنتخبة المعترف بها شعبياً.
هل قرأتُ جيداً أسباب خروجكم بتظاهراتكم المليونية؟
لا أستطيع أن أرى الأمر إلا بهذه الصورة، فمن المستحيل أنكم خرجتم لغير وقف سيل الدم السوري على أرض أجمل البلاد: سورية.

7 نوفمبر 2011

ملاحظات على مشروع الدستور السوري الجديد

قرأت نص الدستور المقترح المنشورعلى الإنترنت. وهو كسابقه دستور لنظام رئاسي شمولي يجمع فيه رئيس الجمهورية كلاالسلطات من جديد. فهو رأس السلطة التنفيذية وهو من يعيّن الحكومة، من دون أي ذكرللأغلبية النيابية المعمول بها في الدول الديموقراطية سوى بعمومية ترد في البندالأول من المادة 8: «يقوم النظام السياسي للدولة على مبدأ التعددية السياسية، وتتمممارسة السلطة ديموقراطياً عبر الاقتراع».
لكن تحديد من يملك صلاحية تعيينالحكومة يأتي في المادة 97: «يتولى رئيس الجمهورية تسمية رئيس مجلس الوزراء

ونوابهوتسمية الوزراء ونوابهم وقبول استقالتهم وإعفاءهم من مناصبهم»، ولا ذكر طبعاًللخضوع لنتيجة الاقتراع في هذا التعيين. ورئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقواتالمسلحة، وهو رأس السلطة القضائية، ويعيّن حتى المحكمة الدستورية العليا، وهوالوحيد الذي يكفل استقلالية القضاء مع مجلس أعلى يساعده. كذلك هو رأس السلطةالتشريعية واقعياً، فهو السيف المسلط على مجلس الشعب لأنه يستطيع حله لعلّةٍيُبيّنها، وهو يصدر القوانين في فترة عدم انعقاد المجلس وهي تعادل نصف سنة، ولايستطيع المجلس رد القانون الذي يصدره الرئيس إلا بأكثرية ثلثي الأعضاء المسجلين فيالجلسة على ألا يقلوا عن ثلثي أعضاء المجلس كافة وهو ما يتطلبه تقريباً تعديلالدستور برمته.

وبالطبع، هناك بنود وضعت بقصد محدد،فالترشح للرئاسة يجب أن يكون لسوري عاش عشر سنوات متتالية في سورية عند ترشحه،وهذا لو طبق في تونس لما نجح المنصف المرزوقي، وهو ما لا ينطبق على محمد البرادعيفي مصر مثلاً، ولا حتى على شارل ديغول في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، ولاعلى فلاديمير لينين بعد الثورة البلشفية، ولا على الخميني بعد الثورة الإيرانية. أمابالنسبة إلى نواب الرئيس وأعضاء مجلس الشعب ورئاسة الوزارة فدون المرشحين مشكلةالجنسية المزدوجة، والتي حصل عليها أغلبهم بسبب سحب جوازاتهم السورية حينها. وكلهذا لو طبق فهو يمنع كل المبعدين عن البلاد قسراً منذ ثلاثين عاماً من ممارسةالعمل السياسي فعلياً.

ألغى الدستور الجديد تسلط حزب البعثعلى الدولة والمجتمع، لكنه في مقدمته أقر تسلط فكره القومي. كما امتدحت المقدمةتوجه النظام السوري الإصلاحي والعروبي والمقاوم وهو أمر وقتي، إذ يمكن نتائجالاقتراع أن تفرز فئات تبين خطأ هذا التوجه الذي - على سبيل المثال - لم ينجزالتحرير والتحديث والمساواة بين المواطنين.

تقويمات من هذا القبيل تعكس وجهاتنظر - في رأيي - ولا يمكن وضعها في دستور.

وعلى رغم حذف الدستور كل ما يتعلقبأهداف حزب البعث المكونة من «الوحدة والحرية والاشتراكية» المتكررة في الدستورالقديم، لكنه أبقى على نسبة الخمسين في المئة للعمال والفلاحين في مجلس الشعب. كماأبقى على الملكية العامة للموارد الطبيعية وللمؤسسات والمنشآت العامة كونها «بقايااشتراكية».

حزب البعث والتفرقة العرقية

لكن المحيّر فعلاً والذي يجب أن يردّعليه خبراء دستوريون: هل إن حزب البعث العربي الاشتراكي بتوجهه القومي العربيوبأدبياته التي تمجد كل ما هو عربي وبعض ممارساته الشوفينية ضد الإثنيات الأخرى لايخالف مثلاً البند الرابع في المادة 8 الجديدة الذي ينص على أنه «لا يجوز مباشرةأي نشاط سياسي أو قيام أحزاب أو تجمعات سياسية على أساس ديني أو طائفي أو قبلي أومناطقي أو فئوي أو مهني، أو بناءً على التفرقة بسبب الجنس أو الأصل أو العرق أواللون»؟! ألا يعتبر التشديد على العروبة والانتماء العربي و «أنا بعث فليمت أعداؤه،عربي عربي عربي» مخالفة للمواطنة المتساوية مع الأكراد والآشوريين والسريانوالأرمن والشركس والتركمان السوريين؟! والطريف أنني قرأت أسماء أعضاء اللجنة ووجدتفيهم من ينتمي إلى إثنيات غير عربية، وهذا أحد مميزات التنوع السوري، وقد قامتالثورة اليوم من أجل العدل بين كل مكوناته، لكن أعضاء اللجنة من غير العرب آثروااالسلامة وقبلوا بنصف العدل.

وعلى رغم تأكيد الدستورِ المواطنةَالمتساوية أمام القانون العادل إلا أن الاستثناءات الكثيرة تخالف ذلك بالطبع. منهذه الاستثناءات ما أشرنا إليه، ومنها أيضاً تحديد دين رئيس الجمهورية، فهذه تخالفمادة المواطنة المتساوية جملة وتفصيلاً. كذلك، فإن الدستور الجديد في المادة 155يسمح لرئيس الجمهورية الحالي بشغل منصبه حتى نهاية ولايته الحالية عام 2014. ثميحق له الترشح بحسب المادة 88 من هذا الدستور لدورتين مدة كل منهما 7 سنوات، لتنتهيولايته فعلياً في حزيران (يونيو) 2028. وهذا أمر غريب، فالدستور أمر دائم ولايُكتب عن حالة خاصة، ولو ترك الأمر مفتوحاً لكان أفضل لواضعي الدستور. إذ تتم فيهذه الحالة إحالة الأمر إلى الجدل القانوني والدستوري، فالدستور الجديد هو تغييرللنظام أو «إسقاط»

له إذا استخدمنا تعبير التظاهرات، وبه يبدأ نظام جديد يعتمددستوراً جديداً، وبالتالي تتغير كل المؤسسات القديمة لأنها أقسمت على الولاءللدستور القديم وتنشأ مؤسسات جديدة تقسم على الولاء لهذا الدستور الجديد.

وهذا الموضوع لا يخص الرئاسة فقط، بليخص مثلاً مادة عجيبة هي المادة 154 التي تقول: «تبقى التشريعات النافذة والصادرةقبل إقرار الدستور سارية المفعول إلى أن تعدل بما يتوافق مع أحكامه، على أن يتمالتعديل خلال مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات ميلادية». وهذا يعني أن كل القوانين التيتسمح بالاعتقال التعسفي وتمنع التظاهر السلمي عملياً، وكل تشريعات مصادرة الرأيبحجة «وهن عزيمة الأمة» والتشريعات الكثيرة المماثلة التي تميز بين المواطنينوالتي لا تنسجم مع الدستور الجديد الذي يقر المواطنة المتساوية وحق التظاهر وحقوقالمرأة، ويبين كما ورد في المادة 32 أن «الحرية حق مقدس وتكفل الدولة للمواطنينحريتهم الشخصية وتحافظ على كرامتهم وأمنهم»... كل هذه الأمور يجب أن تنتظر ثلاثسنوات ميلادية!

علامات للخروج من الأزمة نحو سورية ديموقراطية

في خضمّ الأحداث المتلاحقة في سورية، ورغم الألم الذي يعتصر القلوب للضحايا وللاستعصاء السياسي الذي يتم الإصرار على تعقيد حله، فإن النقاش الذي خلقه هذا الوضع أوجد للمرة الأولى، وبوضوح شديد، طريقاً ممكناً للخروج من الأزمة إلى دولة حديثة تقوم على المواطَنة المتساوية أمام قانون عادل. وقد تابعت النقاشات والمطالب الشعبية، وحوارات النخب الثقافية والسياسية والاقتصادية، وخرجت بالملخص التالي، الذي يبدو لي أن هناك شبه اتفاق حوله، أو حول جعله أساساً للحل المطلوب.

وألخص هنا هذا الاستنتاج، الذي وجدت أنه يعبر عن الإجراءات الإنقاذية لتحقيق مطالب الشعب السوري، وتحويل سورية إلى دولة ديموقراطية عصرية تحقق التحرير والتحديث المنشودين. وهو كما يلي:

1 - رفع حالة الطوارئ فعلياً، وتقييد إعلانها بحالات الحرب والكوارث الطبيعية. وإلغاء المحاكم والقوانين الاستثنائية، ومنها القانون 49 لعام 1980. وإلغاء منع السفر السياسي، والسماح بعودة المهجّرين ومنحهم جوازاتهم المحرومين منها لعقود بسبب حالة الطوارئ والقوانين الاستثنائية.

2 - سحب الجيش من المدن وإعادته إلى ثكناته، بمجرد الإعلان عن الخطوات التنفيذية للتغيير الديموقراطي في سورية. وفي نطاق التحول المطلوب، يجب التأكيد على كون الجيش السوري هو جيش البلاد وليس جيش السلطة، وذلك بتغيير صبغته العقائدية والحفاظ على عقيدته القتالية، بتكريسه - بشكل أساسي - لتحرير الأراضي المحتلة وحماية السلم الأهلي.

3 - التحقيق دون إبطاء في كل المخالفات للقانون العام والإنساني، ومحاسبة مرتكبي ومصدِّري أوامر القتل والتعذيب وإهانة المواطنين، وإحالتهم على محاكمات علنية، لينالوا قصاصهم العادل.

4 - إطلاق سراح جميع السجناء والمعتقلين السياسيين وتبييض السجون، والكشف عن مصير المختفين قسراً، تمهيداً لعقد مصالحة وطنية شاملة تقلب صفحة الماضي، وتبشِّر بمستقبل لا يكون فيه اعتقال بسبب المعتقد أو الفكر أو الانتماء.

5 - إلغاء المادة 8 من الدستور وكل ما من شأنه تكريس سيطرة حزب البعث وفكره على دستور البلاد.

6 - حلُّ الجبهة الوطنية التقدمية، وإعطاء أحزابها الفرصة للتنافس مع الأحزاب الجديدة أو التي كانت معارضة، ليقرر الشعب حجمها ووزنها في البرلمان المقبل.

7 - حلُّ أجهزة الأمن الحالية وإلغاء تسلطها وسطوتها، وتأسيس جهاز عصري واحد للأمن القومي، تكون مهمته الأساسية الأمن العسكري ومكافحة التجسس والأمن الخارجي. وتعزيز دور جهاز الشرطة وتحديثه، مع التأكيد على التزامه

الإجراءات القانونية، وإلغاء التعذيب من قاموس الحياة السورية.

8 - تشكيل جمعية تأسيسية تمثل أطياف المجتمع السوري وقواه وشخصياته كافة، والمشهود لها بالاستقامة والنزاهة، لتضع دستوراً جديداً للبلاد يعتمد النظام البرلماني. ولتقر قانوناً انتخابياً عصرياً يعتمد النسبية والدائرة الواحدة، على أن تنهي مهامها في مدة أقصاها 3 أشهر، تطرح في نهايتها الدستور والقانون الانتخابي على استفتاء عام، ليصبح ساري المفعول فور إقراره من الشعب.

9 - إصدار قانون يسمح بحرية إنشاء الأحزاب بالعلم والخبر، شرط أن لا تحرض على الانقسام الديني أو الطائفي أو المذهبي أو الإثني الذي يهدد وحدة البلاد، وشرط الشفافية في مصادر التمويل. ويكون القضاء هو الحكم في ذلك.

10 - إجراء الانتخابات البرلمانية والمحلية (وانتخابات مجلس الشورى إذا استحدثه الدستور الجديد) خلال شهرين من تاريخ إقرار الدستور والقانون الانتخابي، وتحت إشراف دولي وقضائي كامل.

11 - تشكيل لجنة لإصلاح القضاء، تقوم بتعديل القوانين لتواكب العصر، ولتؤكد على المساواة بين المواطنين أمام قانون عادل. وتقترح اللجنة كل الطرق الممكنة لتعزيز سلطة القضاء ولتضمن استقلاله، بإبعاد سيطرة السلطة التنفيذية عنه، وضمان الانتخابات النزيهة لمجالس القضاء الدستورية والعليا.

12 - إصدار قانون عصري للإعلام المكتوب والمرئي والمسموع، ومنحه كامل الحرية في التعبير ضمن الشروط المرعية في العالم المتقدم. وتغيير سياسة أجهزة الإعلام المملوكة للدولة لتتحول إلى إعلام الدولة السورية، أي لتعبر عن الشعب السوري لا عن الحكومة، فبتداول السلطة الحكومات زائلة والشعب باقٍ.

13 - إنشاء هيئة قضائية مستقلة تحقق بتهم الفساد، وتُنهي التجاوزات والمحسوبيات، وتحيل من تَثبت إدانتُه على القضاء، لينال المفسدون جزاءهم العادل، ولتعود أموال الشعب المنهوبة إليه.

نتيجةُ هذه الإجراءات ستسمح للسوريين ببحث قضاياهم الأساسية في التحرير والتحديث وحلّها، والتوزيع العادل للثروة، وتكافؤ الفرص، والمراقبة والمحاسبة، وتحقيق إصلاح التعليم والقوانين الزراعية والصناعية. كما تتيح الاستفادة من قدرات السوريين وتنوعهم لوضع الثقافة السورية على خريطة الثقافة العالمية، لما لدى السوريين في الداخل والمهجر من ملكات شهدت لها المحافل الدولية، على رغم خضوع مبدعيها للرقابة الصارمة عبر سنوات طويلة.

باختصار، وضْعُ سورية على مسار صحيح تحدده خيارات الشعب السوري عبر صناديق الاقتراع، وعلى الجميع أن يخضع لإرادة الشعب عبر هذه الوسيلة، كما على بعض القوى العلمانية الخائفة من انتصار الأحزاب الدينية، أن تبتعد عن جبنها وأن تمتلك الشجاعة الديموقراطية للخضوع للنتائج التي تنتجها الانتخابات النزيهة. وحتى لو أخطأ الشعب في خياره، ووضع ثقته بمن ليس أهلًا لها، فإن الشعب السوري وحده قادر، بدولته العصرية، على تغيير ذلك.

26 يونيو, 2011

• مخرج سينمائي وتلفزيوني سوري

الموسيقي يتخلى عن سلميّته:

غاليري مخيف اسمه سوريا

■
يارا بدر

دقت الساعة الثانية عشر، وولجنا العام 2012 بتوقعاتٍ عالية في مختلف أنحاء العالم، الغالبية ساورها القلق حول الرؤى والدراسات التنبؤية بنهاية العالم مع حلول عام 2012، والحالمون استمروّا يبنون من الرمال تصوراتهم عن عالمٍ أفضل بلا تدخين، ولا أسلحة نوويّة، والعاديون كذلك فعلوا لكنّ أحلامهم اقتصرت على أمل امتلاك عمل أو راتب معيشّي افضل. إلاّ نحن السوريون، فكانت أحلامنا فوق كل هذا وذاك، ويومها حتى السياسيون ما كانوا ليكترثوا كثيراً بجمع شعب يُغني في الساحات، ويموت منه عشر أو عشرين شخصاً في اليوم الواحد، وحدها لعبة الانتخابات شغلت السياسيين من فرنسا إلى روسيا حتى تونس ومصر وليبيا ولازالوا ينتظرون القرعة الأمريكية.

إلاّ أنّ السوريين اقتحموا نشرات الأخبار وكلّ الساحات، ولم يدخلوا في مجالات الآخرين، بقدر ما سحبوهم إلى مجالهم الخاص. هنا، في سوريا، نحن مجال مفتوح للعرض، للرؤية، للحديث، وللذاكرة. ففي ذات مرّة وقعت مجزرة، وهبّ العالم لالتقاطها، للبحث فيها والحديث عنها، وتمّ لفظ اسم «الحولة» بأكثر من عشر لغاتٍ مختلفة في جلسة خاصة لمجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة، وكان هذا كلّ ما كان ذات مرّة.

أمّا البارحة، قبل أسبوعين على وجه التقريب فوقعت مجزرة في «إعزاز» بريف حلب، ليست الأولى، وليست الوحيدة، لكن أحداً لم يهتم، فالجميع قد اعتاد أخبار الموت في بلدٍ يودّع منذ قرابة الشهرين وبمتوسطٍ يومي قرابة المئة والخمسين شهيداً.

يقولون أنّ في بلادي إسلاميين وسلفيين، واقول ربما. يقولون أنّ في بلادي عصابات مسلحة ومندسين، وأقول ربما. ويكثرون من الكلام عن بلادي، يكثرون من التحليل والبحث عمّا يثبت مقولاتهم الجاهزة مُسبقاً، وانا أقول: هل فكرتم أننا ولدنا هكذا؟ مندسين وسلفيين؟

سوريا اليوم، غاليري عام، جناحه الأكبر قد يكون مُخصّصاً لحمص أكثر المدن السورية دماراً، ولا أعلم هل هناك جناح خاص بالمجازر أم أنّ كل مجزّرة في جناح المدينة التي وقعت بها. في سوريا نحن مجرّد صور بالنسبة لجمهور الحضور الذي يبتدئ رحلته مع الصور الأولى للساحات الممتلئة، كما نشاهدها حين تعرض بعض الفضائيات الإخبارية تقريراً مصوّراً عن «حماة» أو «الرستن»، «بابا عمرو» أو «الخالدية»، عن مكانٍ ما اجتمع فيه حشد كبير يُغني ويهتف في الشهور الأولى من عمر الثورة السورية، رجالاً ونساءً إلى جانب بعضهم البعض، وإن دققنا في صور الوجوه النابضة بالأمل فقلّما نجد ملتحيّاً، ننظر إلى الأيدي الممدودة وقد رفعت شعاراتها ليلاً بعد ليل، شعارات السلميّة ووحدة الشعب السوري، ونبذ الطائفية، وبعضها نادى للدولة المدنية. في تلك الأيام كانوا كُثر، وكانوا جميلين، لكن العالم أصرّ على أنهم مسلحون، ومندسون، وسلفيون. اليوم إن توقف أيّ مراقبٍ مع أيّ صورةٍ من تلك الصور، لاستطاع عدّ العشرات وأكثر من الوجوه التي غيّبها الموت، وأكثر من الوجوه المدفونة حتى اللحظة في زنازين الاعتقال.

في جناح «إعزاز» للصور، نجد المرأة تضمّ صغيرها الذي لعلّه لم يكمل عامه الأول واللون الأسود يكتسيه، تضمه بيد

وترفع يدها الأخرى تصرخ إلى السماء، وبقربها رجل يحاول سحب جثّة من تحت الأنقاض هي في الغالب جثّة زوجها.
في معرض «إعزاز» يتفرّج الحضور الكريم على صورة الرجل الستيني، الشائب، جلس على حطام منزله فاتحاً يديه إلى السماء، ودمعه يذهب إلى الأرض. أمّا الرجل الآخر فلم يقوَ على شيء. بجسده النحيل، بملابسه الرثّة، جلس القرفصاء واسند رأسه إلى يده، ينظر إلى الكاميرا وغضب محتقنٌ يتفجّر من عينيه.
علامة شفقة ترتسم على ملامح المتجوّلين في المعرض، من مكانٍ آخر حوّل الشباب عربة قديمة تُستخدم عادة لنقل مواد البناء إلى عربة إسعاف، فيبتسم العابرون لطرافة الفكرة. وهم لا ينظرون إلى الجسد المرميّ في العربة، فهو ليس بالشيء الجديد. ومن حمص، التي لاتزال تحيا بأنفاس بعض المتمسكين بأرضهم كجذور الزيتون، تُلتقط صورة لثلاثة اخوة، الفتاة تقف تمسك عكازتي أخوها المصابة قدمه، والأخ استراح على عتبة المنزل ومدّ ساقه بلفافها الجبسي الأبيض وقد احتضن أخاه الأصغر بيد وبيده الثانية أغمض عينيه كي لا يرى، فقد يكون في عدم رؤيته رحمة. في الغالب أنّ الملل بدأ يتسلل إلى العابرين، فوضعوا كؤوس شرابهم جانباً وخرجوا إلى المقهى المجاور، وفي أثناء عشائهم الخفيف انتقلوا بشكلٍ عفويّ تماماً من هذه الصور إلى الحديث عن مسلماتهم حول فظاعة الإسلاميين، وقسوّة العصابات المسلحة التي يؤمنون بوجودها في بلادي، لكنهم في النهاية نسوّا كلّ هذا مع الخبر العاجل عن أحدث أشواط الانتخابات الأمريكية، والفضيحة المالية في أوروبا، وطلاق نجمي هوليوود المحبوبين.
إلا أنّ سرّ تحوّل السوريين من السلميّة إلى العسكرة، وكيف ارتفع الصوت الديني يوجد هناك، في الزاوية العميقة من الغاليري، والتي لا يتحمّل أغلب العابرون مشقّة الوصول إليها، حيث تكمن في هذه الزاوية صورة الموسيقار السوري «مالك جندلي» وهو يقرأ بيان تحوّله عن سلميته، وفي ذات الوقت ينضح السرّ من كل صورة من صور المعرض، لكنّ العابرين رفضوا رؤيته، مكتفين بالتحديق السريع في شكل الصورة.

صحافية وناشطة من سوريا مقيمة في دمشق.

شهادات ويوميات

- أسامة محمد
- ابراهيم الجبين
- جوناثان ليتيل
- خطيب بدلة
- خليل نعيمي
- خولة دنيا
- رزان زيتونة
- رودي عثمان
- روزا ياسين حسن
- زينة ارحيم
- سامر طحان
- سعاد قطناني
- سمر يزبك
- عبد الناصر عايد
- فادية لاذقاني
- فداء الحوراني
- كريستوف رويتر
- لطيفة اغبارية
- ماجد كيالي
- محمد أبي سمرا
- محمد العطار
- محمد دحنون
- منهل السراج
- نوري الجراح
- نينار حسن

«ماءُ الفضّة»... رسالة عاجلة من بابا عمرو لابنه أسامة

أسامة محمد

صباح الخير «هفالو». هفالو يعني صديقي بالكورديّة.
الوقت متأخر «الثانية فجراً» أرجو ألّا تكون نائماً. فعندي حكاية أو ورقة خريف ليس أكثر. أحبُّ أن أحكيها لكَ قبل النوم. هل أنت قادر أن تسمع من كل هذا الوجع حكايةً. هل تحبّ الحكايات قبل النوم؟
وحدها أنفاسي اللاهثة خلف الكاميرا... التي تَقَمّصْتُ دورَ خَيّالٍ كرديّ لها... تعلمُ كَمْ كان الخوف ورقةً راعِشةً أمام ما انتابني أثناء تصوير مشاهد في «حمص - بابا عمرو»... رعشة الأصابع كما لو كان دبيبُ كلِّ نَمْلِ الكون يسكنها... وَحْدَهُ يَعْلمُ وحدهُ الثلج على أطراف أصابعي يعلمُ.
حكاية أنني من شعب يَعْرِفُ معنى الظلم جيداً. إنه الشعب الكوردي... وجَعُ الله على الأرض وأحلى مَخاضاتِ السماء. وأني باسمك شعبي أحببت أن أرسم لوحة لهذه الثورة العظيمة. ولصلاةٍ صارَتْ مدينةً من بشر وشجر وحجر... اسمها حمص.
بعد شهر من مُحاولةِ تأمين مُصَوّرٍ مُخْتَصٍ أدركت أنني لن أفلح بذلك... وبدأت أجزم بأنني من سيقوم بهذه المهمة.
الكاميرا سلاحُ الجريمة. كانَ عليّ أن أقطع حوالى الـ500 كلم لأُهرِّبَها في «...» وأدخلها حمص. لتتخفى من مكان إلى مكان مصابة بالرعب حين أرى الجيش على أبواب البنايات حيث تنام الكاميرا. فأخفيها في مكان آخر... فآخرَ. فآخرَ. إلى أنْ تستيقظ في بابا مرو... فتكون خيط الدخان الأبيض لي لأبدأ مهمتي.
رتَّبْتُ كلَّ شئ كأنيْ لن أعود. وحدَها دُمُوعي في وجه أمي... لم أستطع ترتيبها. وبشغب ولدٍ صغير بعثرتُ كلَّ المعاني. قبل أن تصيح بي العتبة لا تخرجي.
هذي هي حمص. كل شيء يبكيك لو كنت ستخرج بعد العتبة. عتبة الدار أو الروح أو الحلم. لأن «القنّاص» لم يَعُدْ يترك لدمعك عيناً بعد بابِكَ المخلوع منذ أول مداهمة.
لا أدري كيف وكم قطعنا. ولا كيف ومَن قَطّعنا لأجد نفسي بعد الحاجز اللئيم داخِلَ بابا عمرو المُحَرّرَة إلا قليلاً.
كان عليَّ أن أبدأ فوراً. بلا أي تردد... لأن الدقيقة القادمة قد تطفئ الحلم... دفء الحلم.
طويتُ أنوثتي في جيبي إلى حينْ.
كانوا كلهم ظلالاً لمعاندة قدر ظالم. لم يكونوا مجرد رجال وشباب. في جيبي طويتُ أنوثتي ورتبتُ لي ظلاً كظلهم ومضيت.
كان ركضاً هستيرياً أحياناً وربما زحفاً على الركب. ولم أكن ألتمس سوى الوصول إلى المعنى مجسداً في صورة تهرب إلى كاميرتي الصغيرة. بدأت من منزل بلا كهرباء يُلْجِئُ عائلاتٍ وبكيت معهم. وضممت أرواح المكان في شموعِ قصصهن المفجعة.

ثمَّ شارع ورصيف وحارة مهجورة وبناء شبع القصف منه وما ارتوى كيدُ رُماته.
بين خوفي وجبروت الحلم. تَيَبّسَ الدمُ في عروقي وأنا أتسلق الجدارَ لأصِلَ ثقباً أعلاه... يخفيني عن القناصة وأنا أصور الدبابة التي لم تترك للصلح مطرحاً. بين صورة الدبابة من ثقبها في جدار وبين صراخ الشباب المرافقين «ارجعيييييييي». وصوت الرصاص... مسافاتٌ من لُهاثٍ وموتٍ يتقَمّصُ الحياة.
صحراء الرمل في أكياس الرمل ردَّت عني جواب البقاء لأولى رصاصاتهم.
صدري صارَ أنبوب اختبار لزمرة دمي الغريب عن البشر كما بدا لي وهم يمطروننا بكل ذاك القصف.

ولم أرجع إلا وقد صوّرت البناء المحترق... وتبّاً لمن عاد ولم يظفر بما جاء به إلى هذا الموت.
هل كان كل هذا الدمار بانتظاري لأنزف كلَّ خوفي على مدارات قنّاصَةٍ يحرسون ما دَمّرُوه؟
كنت أزرع الأسئلة وسط كل ما مَرَرْتُ به من أنقاض علَّ جواباً يُثْمِرُ بينها ذات مَرّة.
الليل الذي لم يترك لي سوى كتل اللحم الدافئة الصغيرة المندسة بين بعضها كقطط الحارات وطفل بقي بينهم لم يعلن انتماءه الى السلطان ولا عرف النعاس منذ و أشهر. نظر إليّ في الليل وقال... لا أخاف الرصاص ولا العسكر.
لم يكن طفلاً من دمع. كان طفلاً من صنوبر...
وعلى جنبات القلب والليل تدحرجت ألف آهة من باب الغرفة تترحم كلٌّ على عائلتها. وكلّ آهة هي الناجي الوحيد.
عتمةُ حمص وشرارات حقدهم وجدران من البرد القاتل. وآه يا برد حمص.
ربما غفوت قليلاً.
وعدت لأكمل بين ضلوع الصبح ما بدأتُه البارحة. تلك المُقْفرة انسلَلْتُ إلى الكاميرا. والشمس أفضت إلى أطفال يزرعون أحجار البيوت المهدمة فوق بعضها بعضاً. وحين تتلعثم لهم وأنت تخفي حيْرَتَكَ «ماذا تزرعون؟». يصدمون ضعفك... «نُعَمّرُ بيتنا».
أطفال بابا عمرو جبال من شرايين وبقايا لحم... وكثير من ياسمين.
الحياة تزدرد القبور.المقبرةُ تلبس قبورها الجديدة الفارغة. المقبرةُ تُرَتّلُ أغاني قاطنيها القادمين.
إنهم في بابا عمرو يُعِدُّون لموتِهم كما نُعِدّ لحياتنا... يا ألف آه تشقّ صدرك حينها وترتمي على صوتك خرساء.
والبلبل الشهيد وأمه المشدوهة وأبوه والكل في بابا عمرو شهداء... أنت تتنقل بين الشهداء... لا حيّ باقٍ هنا يا صديق.
وتظاهرة المساء... وجدتني أصرخ بها بلُغَتِيْ ولغتهم وأغصّ أمام رهبة الموت. يتجلّى بكل ما فيهم من حياة.
وماذا أحكي... لم يعد لكل ما يقصف به أولئك المارقون معنى. كل شيء هنا يقولها... أصوات الثكالى وشعارات الجدران وتظاهرة الجمعة واللافتات والأطفال وبقايا العرائش والشوارع المقفرة وأكوام القمامة التي عاقبوهم بها. والقبور والشجر والسكة الحديد الممتدة على جسد بابا عمرو بغنج.
ماذا أحكي لك؟ عن الأطفال يهتفون لي من رأس كل شارع بـ«الكرديّة» ويضحكون فتبتسم كل شوارع حمص هنا على جروحهم الصغيرة وتنتفض ألف صلاة.
وتلغي القنابلُ تظاهرة المساء فيودّون لو صاروا عصافير تتظاهر في السماء.
كيف بقيت لا أدري وأين وماذا؟ كل اللغات والقواعد هنا في «بابا عمرو» تتساقط منك وتصير أنت ابنها

«عمرو».
يتثاءبُ في دمك شهداؤها فتخرج صباحاً وتحرص كما يُطلب منكَ ألا تلتفت وتركض أسرعَ منكَ لتقطع الحاجز بسلام. تصبح خارج حدودها... ويبقى قلبُك مُعلقاً على صباحها.
لا أدري كيف الآن أجدني خارجها ولا أبكي؟
ويبدأ التعب من جديد... لتحمل كل ما صوّرتْهُ «500 كلم» لتؤمّن لصورتها الهواء والسلام.
وتعود من دون أن تعود.
الآن... وبصوتي. بسيناريو بسيط جداً لفيلم بسيط جداً أودّ أن أقول لك...
من تحت ركام أضلاع حمص.
أسعد الله مساءَك.
اليوم انتهى الفيلم وبدأ الترقبّ.
لست خائفة مهما حصل.
أرواح من ذهبوا... وأخي المعتقل وابن عمي وجاري وألف حرّ بكل أرواحهم التي تتعذب الآن... لن تكون أغلى من روحي أبداً.
سأموت حرة كما عشت يا صديقي... لن أهرب...
أسكن بين «دمشق» و «عامودا». أنا كوردية.
اسمي الكوردي «سيماف» أحبه. ومعناه ماء الفضَّة.
الفيلم أنا باسم شعبي «الكورديّ» هديةً للثورة السورية ولحمص الصامدة.
أسم الفيلم الحركي «سيماف» ومعناه «ماءُ الفضَّة».
لكَ روحي يا صديقي.
لأنني أعرف أن ما بها سيلزمك.
وسط كل هذا الشوك هل تذكر «حنظلة الحوممصي» الذي كتب لك مرةً؟ هو أيضاً شخصية اخترعتها ليكون ابن وجع حمص. و «ناجي الكوردي»... والله حين أكتب بلسانه أبكي.
و «عمّو أبو دبابة» و «عمو أبو قصيفة» و «عمو الصبح».
الفيلم بأمان. خارج الحدود. أرجو أن تشاهدهُ. قريباً. قريباً جداً... العرضَ القادم Soon كما يقولون
أسامة: هل تسمحي لي بنشر هذه الرسالة. في «الحياة»؟...
ماء الفضّة: لك الحريَّة بما صار ملكك.
أسامة: لكِ الشوقُ والشكرُ والحياةُ.
ماء الفضّة: ولك يا صديقي... الأكثر مما تبقى.

2011-12-25 حمص المُحتلّة.

**سينمائي من سوريا*

دب هرم يسقط من أعلى الشجرة

ابراهيم الجبين

أينما ذهبت في شوارع دمشق القديمة، التي طالما استحكم فيها الصمت في «جمهورية الصمت» لعشرات السنين، يمكنك أن تسمع اليوم همساً عن اقتراب سقوط نظام بشار الأسد، ولكن لا أحد يعرف كيف؟ ولا أحد يسأل كيف؟ وحين تزور الوزراء السابقين ورجال الأعمال المقربين من النظام، تشعر أنك في مشهدٍ فانتازي من مشاهد الدراما التلفزيونية السورية التي نجحت في إقناع العالم العربي، ولكنها تفشل اليوم في إقناع أطفال درعا بوجود إرهابيين متطرفين بين المتظاهرين ضد النظام، يقول لك هؤلاء إنهم غير موافقين على المعالجة الأمنية والقمع الذي يتعرض له المواطنون، ولكنهم في الوقت ذاتهم مقتنعون أن النظام في سورية قائم على فلسفة أساسية ـ غير قابلة للنقاش ـ هي القبضة الفولاذية، وأن الإصلاح السياسي سيعني تخلي نظام الأسد عن تلك القبضة، وبالتالي سيكون أضعف من وضعه السابق والحالي، مما سيعجّل في انهياره.
بعض هؤلاء عرفوا عن قرب كيف يفكّر العالم في الغرب، ومنهم من عاش سنوات طويلة كسفراء لحافظ الأسد ثم ابنه بشار الأسد، وهم يقولون لك بوضوح: نحن نعرف أن هذا الضغط الغربي ليس مداعبةً للنظام في سورية، وليس بلا قيمة، وأن الرئيس بشار يخطئ حين يظنّ أنه سيتمكن من النجاة بهذه الطريقة، وبعضهم يأسف على ضياع جهدِ سنواتٍ طويلة من بناء العلاقات السورية ـ الدولية.
أما الشعب السوري الذي يواجه أكثر الأنظمة ـ شرق الأوسطية ـ عنفاً ودموية، ومع ذلك يخرج كل يوم جمعة بأيدٍ وصدورٍ عارية، ليعطي للدبابات والقناصة فرصة إطلاق الرصاص الحي على الرؤوس مباشرة، الشعب الذي بدا متحدياً كل الإجراءات المعقدة والمنظّمة التي يقوم بها نظام بشار الأسد، لمنع وصول المتظاهرين إلى الساحات، ونشوء ما يمكن أن يشبه اعتصام «ميدان التحرير» في القاهرة، هذا الشعب السوري، يفكّر في أن الوقت حان للتغيير، وأنه لا يمكن الرجوع إلى الوراء، ليس خوفاً من آلة العنف الرسمية، بل خوفاً على الثورة السورية التي اكتملت شروطها اليوم، وتحدّدت أهدافها، ولم تعد تقبل حتى بالإصلاح الذي يدّعيه النظام في النهار ويفعل عكسه في الليل، مما أدى إلى فقدانه مصداقيته، وبالتالي شرعيته، تلك الشرعية التي آمن السوريون أخيراً أنها تنبع فقط من الشعب وصناديق الاقتراع، مثلها مثل قضايا كثيرة، مثل السلام مع إسرائيل، أو التحالفات مع دول ومحاور مختلفة كالمحور الإيراني، الذي يعتقد السوريون أنهم مخطوفون إليه، دون إرادتهم، وأنهم يضطرون لدفع ضريبة لطموحات آيات الله ورجال الدين في كل من طهران وقم أو حتى جنوب لبنان «حسن نصرالله وفريقه الذي احترق في الوجدان السوري كما تحترق أوراق الخريف بسبب صمته عن قتل السوريين».
ولكن حين تسأل السوريين عن الموقف الغربي، يقولون لك إنهم لا يشكّون أبداً في أن العالم المتحضّر لن يتركهم وحدهم، وأن الشرعية الدولية هي الأقوى الآن، وأن مصالح الغرب تتحقق في وجود سورية ديمقراطية، مسالمة، تبحث عن التطوّر العلمي والاقتصادي والمجتمعي، وتختلف كلياً عن وضعها الحالي، القائم على العبث في شؤون دول العالم، وابتزاز الأنظمة والحكومات.

ولا يمكن أن تنظر إلى الوضع في سورية، دون أن ترى المشهد كاملاً، من غير أن تسرقك تفاصيل هنا أو هناك، فالمشهد الكامل، والوضع الداخلي، وخيارات دول الإقليم المجاورة، والموقف الغربي، على اختلاف درجاته اللونية، يجعل من مصير نظام بشار الأسد كدبّ عجوز ولد في مارس 1963 يسقط الآن من أعلى الشجرة..ولكن العالم يسعى لجعل سقوطه بطيئاً جداً ..كي لا يحدث ارتطامه السريع بالأرض انفجاراً في المنطقة ..تركيا والمشكلة الكردية، لبنان وتناقضاته السنية الشيعية المسيحية الدرزية، العراق والأردن والتداخلات القبائلية والعرقية والدينية مع سورية، ولكن أيضاً إسرائيل التي لم تعد تثق بنظامٍ يتعامل مع شعبه بكل أشكال العنف والخروج على القانون.

شاعر وكاتب من سوريا

نشرت بالإنكليزية صحيفة الغارديان البريطانية تحت اسم علي الحاج

حمص في دوامة العقاب الجماعي والتطهير المذهبي

جوناثان ليتيل

في زاوية من المسجد مسجّى الجثمان الشمعي في كفن، وجلل رأسه بإكليل من بلاستيك. وعلى مقربة من النعش ركع ولد باكٍ هو أخو القتيل، ولمس وجه أخيه حانياً. ويبلغ عمر الميت 13 سنة. الليلة الماضية كان يحطّب اغصان شجر بجوار المنزل، على ما يروي والده في وسط أسرته وأقاربه، أحمر العينين ومنتفخ الجفنين: «الأرجح أنه أضاء النقال (الخليوي) الذي يحمله، فقتله القناص». والحادثة ليست مصادفة ولا فريدة من نوعها. فالشارع الذي تقيم به العائلة هدف ثابت لقناص يختبئ في مدرسة الحي، ويتمرن على التصويب بالقطط حين يعوزه البشر. «لم نعد نجرؤ على إخراج النفايات»، يقول أحد الجيران. ويريني رجل آخر شارك في العزاء، جثمان أخيه على شاشة هاتفه النقال، وقال إن القتيل كان يحاول حماية ابنه البالغ من العمر 11 سنة. وشرح لي أنه اضطر الى نقر جدران بين بيته وبين الجامع ليتمكن من الخروج سالماً.

ولولا أبو بلال وأبو عدنان وعمر تلاوي، وهم ثلاثة ناشطين في «دائرة» الإعلام، لما اهتدينا الى المسجد، وبلغناه قبل تشييع الولد القتيل، اليوم في 26 كانون الثاني (يناير). بعد الدفن، حشرنا أنفسنا 7 أشخاص في سيارة واحدة، واتجهنا الى حي كرم الزيتون، شرقاً. عمد السائق عند المفترقات المفضية الى «شوارع الموت»، كما يسميها الأهالي، إلى «دعس البنزين» والإسراع، تفادياً لنيران القناصة. وفجأة ينعطف السائق ويدخل طريقاً ضيقة. بعض الناس يركضون، وآخرون ينتظرون غير بعيد من الشارع العريض، وإنما على حدة ولصق حائط منزل أو في مدخله. وبلغنا هناك مستوصفاً أو مشفى مرتجلاً يعالج فيه مسعفون شاباً اخترقت جمجمته رصاصة. كان يتقيأ دماً غزيراً وهو يحاول أن يطوي صدره على بطنه وفخذيه. ووقف المسعف، وهو ليس طبيباً، عاجزاً ومقراً بعجزه. فلفّ مسعفون رأس المصاب بشرشف، وحملوه الى سيارة لتنقله الى عيادة. وروى أحد الشهود: «عمر الضحية في تذكرة الهوية 27 سنة، وأصيب قرب مسجد سعيد بن عامر القريب وهو يحمل أدوية لأهله، وقبل ساعة قتل أحد المارة وهو يغادر المسجد برصاصة في عنقه».

ولم يكد الراوي ينهي روايته حتى جيء بجريحين. الأول رجل مكتهل أصيب في أعلى صدره، وجريحة منقّبة تدير في الحاضرين عينين هلعتين وتحت الغطاء الاسود بدا جزء من فكها مكسوراً. والقناص هو نفسه، فهو في المرات كلها يصيب العنق ويقتل. وهذه المرة، نجت المرأة «المحظوظة» من موت أكيد. وتمسك الرجل وهو يلهث بيد ماني (المصور ورفيق الكاتب). ولم يجد القائمون على المستوصف بداً من إرساله في شاحنة صغيرة، وإلى جانبه صديق يحمل كيس الدم الذي يغذي الجسم. وفي الأثناء كان الناشطون الاعلاميون يصورون الوقائع. وتولى عمر التعليق على الصور بالصوت، بينما أمسك أبو بلال برأسه المنحني وهو يغالب الانهيار.

لم تكن المشاهد التي مرت إلا البداية. فبينما كان القائمون على المستوصف يسألون الشهود، علت أصوات الزمور القريبة، ودبت الفوضى في الأرجاء. فالجريحان اللذان أرسلا الى العيادة للتو أعيدا ميتين. وانشغل جهاز التمريض بـ3 جرحى جدد أصيبوا بانفجار قذيفة قرب مستوصف آخر. وتمدد على الطاولة رجل رابع

ينازع، لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير في ارتعاشة لم أدرك معناها إلا حين همد الجسد. وكنت أسأل أحد الجرحى حين أدخل رضيع أصيب في عانته. وترامت من الطريق الى الداخل أصوات مضطربة، وتراكض الناس في الاتجاهات كلها. خرجتُ لأستطلع ما يحصل. فوجدت رجالاً غاضبين يجبرون المصور ماني على الاستدارة الى الجدار ويحولون بينه وبين التصوير. وأخيراً أفلح ماني في إخراج كلمات من فمه: «إنه أحد الشبيحة ويريدون قتله»، ومنع ماني من تصوير مقتل الشبيح.

ويرابط الشبيحة على تخوم الأحياء العلوية في حمص، ويصلون شوارع أحياء السنّة وطرقاتها بالرصاص من غير توقف، فيقتلون من يرميهم سوء طالعهم بالمرور في هذه الأحياء. ويروي بعض الشهود حوادث اغتصاب وتعذيب وفظاعات، وغالباً ما يعمد الثوار الى مقايضة معتقليهم من الجنود أو من الاستخبارات، لكنهم يقتلون الشبيحة من غير تردد. وحين غادرنا، ماني وأنا، بعد بعض الوقت الحي، واجتزنا الشارع العريض الذي يرابط القناص في أحد مبانيه، وقعت عيناي مصادفة على الشبيح، عارياً ومدمى، موثوق اليدين ومحطّم الرأس، تجرّه شاحنة صغيرة للجيش السوري الحر، وتعرضه على الأنظار، ويستقبل الأهالي الجثمان بالهتاف «اللّه أكبر».

بعد ٥ أيام، وكان يوم أحد، ذهبنا الى أحد معاقل المعارضة شمال حمص. وشهدنا المناظر ذاتها. لم يكن علينا هذه المرة أن نترك المبنى الذي نزلنا به، فمركز الإغاثة قائم في ملجأ المبنى. ووصل الجريح الأول قبيل ساعة الظهيرة، وأماطت رصاصة جلدة معدته عن هذا الجزء من جهازه الهضمي بينما كان يحمي أولاده من قناص يختبئ على سطح مكتب البريد في الحي. ولم يلبث أن لحق أحد اولاد الرجل بوالده. وفقد الولد إصبعين من اصابع يده اليسرى. وقيل لنا إن رجلاً قتل في مرمى القناص قبل وقت قصير. ومضت ساعتان قبل أن يؤتى بولد في العاشرة من عمره، فاحم الشعر وأجعده، عمد الطبيب الى لف يديه بالشاش. والرصاصة التي اخترقت صدره قتلته في الحال. نظر ابن عمه الى جسده الصغير ونشج «الحمدلله الحمدلله». قبل الليل، حمل رجل أصيب في رئتيه، وأنقذ من الموت المحتم وكان مشرفاً عليه.

وعلى مقربة من شارع عريض، نبهني دليلي ومرافقي الى قصبة معدنية طويلة ربطت بآخرها علاّقة معدنية، تستعمل في جر الجرحى والقتلى الذين يصيبهم القناص أو يرديهم لا لشيء أو غرض، بل إرهاباً وعقاباً على تمردهم الجماعي أو رفضهم الانحناء والركوع صامتين لسيدهم. أردت الاشتراك في تشييع الفتى، واسمه طه، لكن التشييع لم يحصل قبل مغادرتي. فالمخابرات حبست الجثمان في المشرحة، واشترطت على الوالد لقاء الإفراج عن الجثمان، توقيع «اعتراف» بأن «الارهابيين»، أي الجيش السوري الحر، قتلوا ابنه. وعلم الناشطون أن أسرة قتلت كلها أثناء مجازر كرم الزيتون. ومع الليل، خرج ماني المصور، مع جنود من الجيش السوري الحر ليصور الجثث: 11 قتيلاً بينهم 5 أولاد، 3 منهم ذبحوا. العائلة من السكان السنّة، وكانت تقيم في ضاحية حي علوي. وقادت ماني تحرياته الى افتراض استدراج مذهبي مقصود، على ما أوضح في تحقيق نشره في عددي 28 كانون الثاني (يناير) و30 منه في صحيفة «لوموند». وارتكبت مجزرة ثانية في الوقت ذاته قتلت فيها أسرة من 6 أفراد، بينهم 4 أطفال، قتلوا برصاصة في الرأس أو العين. واستحال الحصول على الجثامين قبل الاثنين التالي وهدوء الاشتباكات المستعرة في المدينة القديمة.

ومساء نهار المجزرة بنصيحين (مقتل الـ11 ضحية) خطط الجيش السوري الحر للرد عليها، لكنه حرص على أن يقتصر الانتقام على العسكريين: الحواجز ومبنى الأمن العسكري. فضباط الجيش الحر وجنوده يبذلون

وسعهم لتفادي انحراف الثورة الى الانتقام المذهبي والطائفي.

ويقول مهند العمر، أحد قادة مجلس بابا عمرو العسكري: «نُدرك أن النظام يلعب ورقة المواجهة الطائفية. وإذا طال النزاع، من الممكن أن يصبح مذهبياً، فالطائفة العلوية تساند النظام، ولكن إذا سقط، لن تحصل عمليات انتقام، وسيحاكم الذين شاركوا في القتل، ولا شيء غير المحاكمة. فالطائفة العلوية جزء من المجتمع السوري، مثلنا تماماً».

ولا ينكر أحد أن مدنيين علويين خطفوا - غالباً لمقايضتهم بمخطوفين على الحواجز - وقتل بعضهم. والناشطون الذين حاورتهم يلقون المسؤولية على جماعات «غير منضبطة» لا يعرف عنها إلا أنها مؤلفة من عائلات بدوية تتحكم بها تقاليد ثأر راسخة. وعلى رغم كل الوساطات، لم يفلح الجيش السوري الحر ولا الناشطون المدنيون في الحؤول دون ثأر البدو من علويين أبرياء، خصوصاً حين تقتل النساء ويغتصبن أو حين يقتل الأولاد. ويهجم النظام على المناسبة، ويتهم معارضيه بالإرهاب. والحق أن ثمة فرقاً، بين سياسة منهجية يرمي النظام من ورائها الى إيقاع مجازر طائفية، وبين عجز سلطة جنينية تتنازعها دواعٍ متناقضة تقصّر عن السيطرة على أكثر عناصرها تطرفاً.

غداة مقتل طه، التقيت سينمائياً من دمشق وناقشنا المسألة. فقال لي: «لا شك في حصول مواجهات دينية هنا. ويتحدث الطرفان جدياً عن التطهير الإثني، لكن هذا يخص حمص ولا يتعداها الى غيرها. أنا مدني، وعليّ أن أكون هنا، وإذا لم يكن أمثالي هنا انقلبت الحرب مذهبية. وإذا سارت الامور في الاتجاه الصحيح في البؤر الاخرى، خارج حمص، وإذا غلبت صيغة للثورة أفضل من صيغتها هنا، أمكن احتواء النزعات المذهبية في حمص». وهذا رهان لم يربحه أصحابه بعد. ومنذ مغادرتي المدينة، في 2 شباط (فبراير)، تتعرض حمص يومياً لقصف مدمر، أوقع الى اليوم (17 شباط) 718 قتيلاً أحصاهم المرصد السوري لحقوق الانسان بأسمائهم. وتكاد الاتصالات أن تكون مقطوعة كلياً، والخبز مفقود، والمشافي والمستوصفات والعيادات تغص بالجرحى. ويلوّح الغرب والجامعة العربية بالقبعات الزرق والممرات الانسانية، ودون الإجراءين «فيتو» روسيا والصين. يثير هذا ذكريات أليمة وسيئة، فبين 1993 و1995، وكنت يومها في البوسنة، قتل حوالى 80 ألف شخص وصحافيو العالم والعاملون الإنسانيون يتفرجون، ومعهم قوات أممية حظر عليها تكليفها القانوني إطلاق النار، واستثنى الكلاب المسعورة من القيد. وإذا كان هذا كل ما يمكن اقتراحه على السوريين، فخير لهم ولنا أن يتركوا الى مصيرهم، وهذا أليق بالاستقامة.

روائي فرنسي - أميركي حاز جائزة «غونكور» الرواية على «ربات الصفح» في 2009، عن «لوموند» الفرنسية (الحلقة الخامسة من تحقيق ميداني)

فبراير 2012

بدكن حرية ‹خدوا هاللبطة›:
السوريون يبتسمون ويموتون امام الكاميرا!

خطيب بدلة

كل شيء عند السوريين غير شكل.. السوريون لديهم حضارة، وجَمال، ومحبة، وصمود، وتصدي، وممانعة، وفكاهة، وخفة ظل، و.. يا سيدي، حتى ثورتُهم غير شكل!..

رأى السوريون، رأيَ العين، عبر الفضائيات، طائرةَ زين العابدين بن علي وهي تحط في مطار جدة، بعد أيام قليلة على بدء ثورة التونسيين عليه، وشاهدوا، في بث مباشر، حسني مبارك ممتطياً سرير الاحتضار في طريقه إلى المحكمة، ‹وكأنه محمول على بساط الريح!›.. واندهشوا بمشاهدة الأخ القائد معمر القذافي وهو يُسحب من جوف المجرور، بعد كل ما مضى له من عز، وخدم وحشم، وحليب نوق، وأزياء غريبة، وشعر طويل مصبوغ، ونهر عظيم، ولجان شعبية، وجماهيرية عظمى... وغابت، كذلك، عن أعين السوريين، فجأة، خطابات علي عبد الله صالح النارية، وترغلاته العذبة وهو ينصح المواطن اليمني بأن ‹يسلك سلوكاً حضارياً، ويلجأ إلى صندوق الاقتراع›..

هذا كله، والثورات العربية كلها انتهت ‹وشُطِّبت›.. وما يزال ‹السوريون› مبتسمين للكاميرا، وتُطلق عليهم النيران أمام الكاميرا، ويتجمعون في المنافي على هيئة لاجئين، وترصدهم الكاميرا، ويساقون إلى السجون والمعتقلات، بعلم الكاميرا، والرجال العتاة من أعضاء اللجان الشعبية ‹الذين كانوا يُعرفون- سابقاً- باسم الشبيحةً› ما زالوا يعجقون بأبواطهم العسكرية، في بؤرة الكاميرا، فوق بطونهم، مع صيحات الاستنكار، والاستحقار، والاشمئزاز، والازدراء، والاستحمار، تقول لهم: بدكن حريـ ـي ـي ـي ـي ـة؟؟!! خود، يا أخو ال...، هذه الرفسة، كرمى للحرية!!.. بدكن ديمقراطية؟ خود هذه اللبطة، على البيعة، كرمى للديمقراطية!.. وهكذا دواليك، وهلمجراً.

نريد رئيساً من العائلة الكريمة

الفضائيات العربية، إذن، والفضائيات الأعجمية الناطقة بالعربية، لم تكتف، منذ ستة عشر شهراً، بنقل أخبار ‹السوريين› المصورة، بل تجاوزت هذا الحد بأن أعدت فواصل إعلانية ‹سلوغونات› خاصة بثورة السوريين، ومآسي السوريين، وأنين السوريين، حتى إن قناة (A.N.N) التي وضع فيها رجلُ الأعمال السوري الناجح الدكتور رفعت الأسد شقاء عمره، وتحويشة حياته، تخصص قسماً كبيراً من برامجها لدعم انتفاضة السوريين، وقد توج السيد ريبال الأسد، نجل الدكتور رفعت الأسد، هذا التوجة النبيل، بإبداء خوفه على سورية الحبيبة من الانزلاق إلى حرب أهلية لا تُبقي ولا تذر، وقال: إن الشعب السوري سينتصر، في المحصلة، و‹نحن› مستعدون لقيادة سورية في المرحلة القادمة.

لم يوضح السيد رئبال من هو المقصود بقوله: ‹نحن›.. ولكن ‹السوريين› سرعان ما تلقفوا التصريح وجلسوا

يقلبونه على وجهه المختلفة، فقالوا إن السيد الدكتور رفعت هو الأَوْلى بـ ‹قيادة› سورية، لأن لقبه القديم الذي لا يمكنهم نسيانه هو ‹القائد›، هذا من جهة، ومن جهة ثانية هو كبير القوم، والمثل يقول ‹من ليس له كبير فليشترِ كبيراً›.. ولكنهم، مع ذلك، استبعدوه لأنه قد بلغ من العمر عتياً (75 سنة)، أضف إلى ذلك أنه قال، في آخر تصريح متلفز له، إنه، لا يعرف مدينة حماه، ولا يعرف، بالضبط، أين يقع سجن تدمر.. وبالتالي فهم يفضلون السيد رئبال، لسببين، الأول أنه شاب، والرئيس الشاب- كما هو معلوم- غير شكل، والثاني أنهم لا يرغبون برئيس عنده نقص في الثقافة الجغرافية، كالقائد رفعت الأسد.

مرحى لأعضاء البرلمان الجديد

تأكد ‹السوريون›، بأنفسهم، ومن دون مساعدة من أحد، أن مجلس الشعب الذي تم ‹تعيين› أعضائه على ضوء حزمة الإصلاحات القوية التي ضخها النظام السوري في الأسواق بعد بدء الأزمة ‹الجنائية› التي تمر بها البلاد منذ أواسط آذار مارس 2011، لمختلفٌ، اختلافاً جذرياً، عن مجالس الشعب المتلاحقة التي ‹عُيِّنَ› أعضاؤها منذ فجر الحركة التصحيحية التي انطلقت في العام 1970، وحتى ساعة إعداد هذه المقالة.

فحينما خطب فيهم ‹رئيسُهم› بشار الأسد خطبته الأخيرة يوم 3 / 6 / 2012 ظهر واضحاً أنهم أناس عاقلون، ومهذبون، ومربون في بيوت أهاليهم تربية حسنة، واكتفوا بالتصفيق الحاد، دون أن يبادر أحد منهم إلى إلقاء بضعة أبيات من الزجل، أو إلقاء شدّيَّات، أو عدّيَّات، أو قراديَّات، مثلما كان يفعلُ الأعضاءُ ‹المعينون› بصفة أعضاء في مجالس الشعب السابقة، ولم يُقسم أحدهم للرئيس، بحضرة الله تعالى، على أنه يصلح لأن يكون رئيساً للعالم، على غرار ما قاله صاحبُ محطة المحروقات الذي ‹عينوه› عضواً في مجلس الشعب السابق، وحينما عاد إلى بلدته وجد محطته قد أحرقت بالكامل، من قِبَل عصابة إجرامية مسلحة، وحينما سألهم عن سبب تلك الفعلة الشنيعة قالوا له: أحرقنا محطتك لأنه قليل عليك أن تكون مجرد صاحب محطة محروقات في بلدة صغيرة، أنت يجب أن تكون رئيس منظمة الأوبك!

لم يقل الأعضاء لرئيسهم ذلك، لأنه أعلن، في الخطاب نفسه، أنه لم يعد رئيساً لكل السوريين، وإنما لبعضهم فقط.

لن يستطيع الإرهابيون كتم صوت الحقيقة

في جلسة لاحقة لمجلس الشعب السوري، أبدى الأعضاءُ ‹المعينون› حديثاً بصفة أعضاء استنكارهم، واشمئزازهم، وامتعاضهم، واستياءهم، واشمئناطهم، واحتقارهم للعمل الإرهابي الجبان الذي استهدف مقر الإخبارية السورية، وأثبتوا، للقاصي والداني، أنهم قوم متحابُّون، متعاضدون، متلاحمون، متفقون بالرأي إلى حد التطابق التام، بدليل أنهم أكدوا، من دون استثناء، على أن هذا العمل الجبان يهدف إلى كتم صوت ‹الحقيقة›، فقد عُرف عن هذه الفضائية حساسيتها المفرطة تجاه ‹الحقيقة›، فإذا أحس معدو البرامج فيها، أن خبراً ما، أو معلومة ما، أو نبذة ما، تشوبُ ‹الحقيقةَ› فيها شائبة لا تزيد عن مثال ذرة، سرعان ما يتخلى عن الخبر برمته، أو المعلومة برمتها، أو النبذة برمتها، إكراماً لعين ‹الحقيقة›!

مجلس الإدانات المستدامة

الجلسة المذكورة أعلاه ذَكَّرَتْنا نحن ‹السوريين› باليوم الأخير من سنة 2005، حينما اجتمع مجلس الشعب السوري، بحضور كل الأشخاص ‹المُعَيَّنين› فيه بصفة أعضاء، بقيادة الرفيق المناضل عبد القادر قدورة، وأبدوا

استنكارهم، واشمئزازهم، وامتعاضهم، واستياءهم، واشمئناطهم، واحتقارهم للسلوك البغيض الذي بدر عن نائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، الذي استغفل الشعب السوري «ويا غافل لك الله» وذهب إلى قناة العربية «وقد أطلق عليها الأعضاء يومئذ اسم: العبرية» ليبث سمومه وأحقاده ضد نظام الممانعة الذي شارك في تأسيسه وصناعته وبنائه لمدة خمس وثلاثين سنة من النوع «العجاف».

في تلك الجلسة الرهيبة، وكانت الآراء موحدة فيها «كالعادة»، وقف نقيب المحامين السوري ليلقي على مرآنا ومسمعنا نحن «السوريين» قنبلة صوتية، صعقتنا صعقاً، وهي أن مجلس النقابة، قد قرر، بالإجماع، فصلَ المتخاذل، المنشق، التحريفي، الخائن عبد الحليم خدام من عضوية نقابة المحامين!!.. «فعرفنا، للمرة الأولى في حياتنا، أن الرفيق عبد الحليم خدام كان عضواً في نقابة المحامين!!! مثلما عرفنا، يوم توفي الرفيق أحمد أبو موسى رئيس منظمة الطلائع، أنه عضو في اتحاد الكتاب العرب!!!»

وهب وزير العدل السابق، الأستاذ شعبان شاهين، ليعلن على الملأ، وعلى الهواء مباشرة، أن ملفات الفساد الخاصة بـ«خدام» موجودة لديه منذ سنين طويلة، بالحفظ والصون!

«ملاحظة: لم يذكر الأستاذ شعبان شاهين، لنا، نحن السوريين، الأسبابَ التي جعلته ينام على تلك الملفات، طيلة تلك السنين، ولا يصارحنا بها.. ولكننا خمنَّا أنه لم يعلنها- ربما- لأن «خدام» كان مناضلاً شرساً ضد الاستعمار والإمبريالية، ومعادياً بشكل خاص للخونة من جماعة «المحتمع المدني»، وأنه ليس من اللباقة، ولا من الكياسة، ولا من حسن التصرف، أن يقوم المناضلون بـ«شرشحة» بعضهم البعض، أمام اللي يسوى، واللي ما يسواش!

كاتب سوري ما يزال يقيم في سورية

سيرحلون

■

خليل النعيمي

سيرحلون واحداً إثر آخر يَلُفُّهم المقت والإحتقار

سيرحلون مثل كائنات منقرضة إلى مزابل التاريخ: طُغاتنا الصغار التعساء (فليس ثمة أتعس من طاغية).

ولكن، لا تستَعْجلوهم الرحيل. دعوهم يستوعبون الكارثة. وتمتَّعوا بمرأى غطرستهم الكاذبة، وتماسكهم المهزوز. دعوهم يتجرَّعوا كأس الإندحار المرير. وهو أشدّ مرارة لأنه أتى ممن لم يكونوا يتصورون أنهم جديرون بدحرهم، وبهذه الطريقة: بالصوت والصورة، وعلى مرأى من العالم أجمع.

دعوهم يعرضون أمامكم مشاريع إصلاحهم الكاذب، عدا عن كونه لم يعد "مقبولاً". وأنظروا إليهم بشماتة وهم يتفنَّنون باستعراض الخطوات الإصلاحية التي كانت جديرة بأن تُمارس منذ أكثر من خمسين عاماً. وارفضوا كل ما يقدِّمونه لكم باصرار، لأنه لم يعد يليق بكم. فليس بإمكانكم أن تقبلوا، بعد اليوم، بأقل من "قلب الوضع" برمته، وانتزاع حريتكم من مخالبهم.

لا تستعجلوا. خذوهم بحزم. فالزمن لم يعد في صالحهم مهما ابتدعوا من مكائد وأساليب. وفي النهاية، لا بد أن تتحلَّل كياناتهم القمعية، وتتفَتَّتَ أنظمتهم الفاسدة. وسيدركون بالرغم من تَغابيهم أن العالَم لم يعد هو العالَم الذي جاء بهم إلى الحكم. وأن الشعوب العربية لم تعد مصفَّقة، ولا مُلَفَّقة، وإنما صارت، اليوم، قوة تاريخية لا تُقْهَر.

لا "أوباما"، ولا "ساركوزي". لا أحد غيركم يمكن أن يقوم بما يجب عليكم القيام به. فـ "الثورة المباشرة"، كما هي حال ثورتكم، فعل حسّيّ يمارسه الكائن الواعي. الكائن الحر الذي وعى دوره التاريخيّ، وعانى من ضَراوة القمع و"الحُقْرَة"، ولم يعد قادراً على تَحَمُّل المزيد، فصار كل همّه أن يفعل ما يريد. أنتم، وحدكم، القادرون على حسم الأمور. لا أحزاب، ولا هيئات، ولا أوصياء إيديولوجيين، ولا مثقفين قُدامى، ولا موقّعي عرائض واستنكارات، ولا مُنَظِّري ثورات على الورق «وأنا منهم»، ولا الآخرين الذي يلتزمون الحيادية الكاذبة، فهم ، كلهم، قد أصبحوا اليوم صدى لأصواتكم العاصفة التي تَهُزُّ أركان الطغيان العربي الغاشم.

الرحيل متعة عندما يمارسه الكائن الحر. لأنه سفر واكتشاف. وهو تغيير مبدع للأمكنة والكائنات. لكن الطغاة ليسوا أحراراً. إنهم عبيد "استعبادهم للآخرين". وهم إذا رحلوا سيختنقون. لأنهم يتنفسون برئات غيرهم، ويرون بأعين أزلامهم (أو العبيد الجُدُد، الذين أوجدتهم حاجة السلطة القامعة إلى مَنْ يلبّون نزواتها دون اعتراض). وليس للطغاة فضاء خاص بذواتهم، لأنهم سرَقُوا الفضاء العام، واستَرَقّوه. ولا يعني رحيلهم، بالنسبة إليهم، إلا انتكاسة لا عزاء لها، مع أنه باب قد يُفضي إلى "تحريرهم من استعبادهم لشعوبهم"، لو كانوا يفقهون.

لا تتعَجَّلوا الرحيل عليهم. دعوهم يحترقون بنيران حقدهم اللئيم عليكم، وقد صار الأمر خارج قبضاتهم الحديدية التي لم تعيد تخيفكم. يا الله! كيف تفتَّحَتْ في نفوسكم ينابيع الشهوة والتمرد: شهوة الحرية، والتمرد على القمع العربي المعمم. وكيف مَرّت نَسَمات الربيع العاطرة من تحت أنوفهم لتتنَشَّقوها أنتم بعمق، وأنت تصرخون: "الشعب يريد إسقاط النظام". ومع ذلك لا يسقطون. لكنهم سيسقطون.

عزيمتكم الواعية، وإصراركم الثوري، كفيلان بنقل العالم العربي من عهد العبودية المقنَّعة إلى عهد التحرر الأكيد. ولكن، لا تتراجعوا عمّا تطلبون. اكسروا الجدران الثخينة، وحرروا الضوء المحبوس خلفها: ضوء الحياة البديع. فقد قتَلنا الظمأُ للضوء، بعد خمسين عاماً من الظلام. لا تخافوا؛ فقد خفنا نحن بما فيه الكفاية. عشنا خوفاً يكفي أجيالاً قادمة أخرى. لاحاجة بكم إلى الخوف فلدينا ما يكفي منه. ما يكفينا ويكفيكم، ويكفي حتى "طُغاتنا التعساء".

لا تهابوا قسوتهم. ولا يُغرَنَّكم تمسُّكهم العنيد بالسلطة. الطغاة، كلهم، يتصرَّفون هكذا، وهكذا يفكِّرون. يعتقدون أن دوران الأرض مرتبط بوجودهم، وهم لاشيء تقريباً. قوتهم الهشَّة تنبع من "ضعف" العالَم الذي يتسيّدون عليه، بلا سبب. ويكفي أن يَغفُص "حمار الشعب الذي يركبونه" ليطيروا من فوق ظهره، ساقطين على الأرض كالريشة التافهة.

مستقبل الطغاة، ومستقبلكم أنتم، أيضاً، صار اليوم بين أيديكم. لا تتراجعوا قبل أن تحققوا ما صرتم تريدونه بوضوح، ومن أجله خرجتم: الحرية. الحياة. إلغاء العبودية المفروضة عليكم بقوة القمع. لا مبرر، ولا ذرائع، ولا وُعود.

لا تتردَّدوا. إفعلوا ما تريدون. وكل ما تفعلون عظيم. أسمعكم تصرخون، في أنحاء البلاد، غاضبين: إرحَلْ. إرحَلْ، يابَليدْ.

وفي البعيد، في غياهب المدى،

يُردِّد الصدى: سيرحلون.

روائي سوري مقيم في فرنسا

يا حرية

■

خولة دنيا

انطباعات متظاهرة في دمشق بجمعة الصمود
هذه الجمعة (٨-٤-٢٠١١) قررنا الذهاب إلى دوما..

لا أدري لماذا اخترنا دوما.. بالنسبة لي قد يكون إحساسي بالذنب لأني في الجمعة السابقة اخترت النزول إلى المرجة، ولم يحدث شيء يذكر.. في الوقت الذي حدثت فيه مجزرة دوما.

نزلنا في وسائل النقل العادية، ركبنا السرفيس وسرفيس آخر إلى حرستا.. كان الوضع حتى لحظتها هادئاً جداً. لم نجد وسيلة نقل توصلنا لدوما.. انتظرنا قليلاً حتى وجدنا سرفيس ينقلنا إلى مفرق دوما..

عند وصولنا إلى مدخل المدينة أوقفنا حاجز أمني بملابس مدنية تقدم شخص وأمر جميع الركاب بالنزول والتوجه إلى الجهة المقابلة من الشارع والعودة من حيث أتوا..

نحن (أنا وزوجي) بقينا في السرفيس لم نتحرك من مكاننا..

سألونا لماذا لا تنزلون قال جلال (أنا طبيب ولدي حالة إسعافية).

تلكأ السائل قليلاً.. ثم نادى لشخص أعلى منه رتبة..

سألنا من جديد وكررنا إجابتنا من جديد... اعتذر وقال اذهبوا...

بعدها عرفنا أن الحاجز موجود من الليل لمنع أحد من دخول المدينة إن لم يكن من أبنائها.

بعد المفرق نزلنا.. مشينا لمسافة ثلث ساعة حتى وصلنا إلى وسط المدينة.. كانت الشوارع مقفرة في البداية..

ثم لاحظنا حركة بنفس اتجاه سيرنا.. الجميع يتجه إلى ساحة الجامع الكبير..

عند وصولنا إلى الجامع.. كان جمهرة من الناس ينتظرون نهاية خطبة الجمعة ..

بعد قليل انتهت الخطبة، وقفت سيارة سوزوكي على جنب كانت مليئة بالأعلام تم توزيعها على الواقفين...

البعض كان قد أتى مع يافطته.. وقد كتب عليها مطالبه (وهي مطالب الشعب السوري).

خرج جمع كبير من الجامع وسارت المظاهرة.. بدأت الهتافات.

التقينا بأحد الأشخاص سألناه أين النساء... قال سوف يلحقن بنا بعد حين.. الآن الوضع غير آمن.

قال لي إبقي على جنب لا داعي لسيرك.

وشكر لي ولزوجي وجودنا إلى جانبهم..

قلنا له.. هذا بلدنا وهذه دماؤنا نحن لسنا ضيوفاً.. نحن منكم وما يحصل لكم يحصل لنا..

كنت امرأة في حشد يتجاوز الثلاثة آلاف رجل...

نظرات الاستغراب لم تخف عن الجميع

ظن البعض أني أجنبية، ربما صحافية.. أو أي أحد ولكن النظرات لم تتجاوز سؤال الفضول إلا من البعض.

سرنا مع السائرين.. هتفنا مع الهاتفين... كانت الهتافات بأبرز شعاراتها (الله، سورية، حرية وبس...).... وكذلك (حرية .. حرية.. حرية..) (وين العصابات وين العصابات).. إضافة لشعارات تنبذ الطائفية.. وتحيات للشهداء..
لأول مرة أسمع الهتافات للحرية بهذا الدفق والتأجج في شوارع سورية... لأول مرة وبدون عصي أو بلطجية أو رصاص..
وزعوا علينا (سكر نبات) حتى لا تنجرح حلوقنا من الهتاف.. وهتفنا حتى تعبنا..
لفت نظري إلى جوارنا رجل كبير في العمر يتكئ على عكاز.. ويمشي ويهتف والناس تردد وراءه.. كان رائعاً في هتافاته التي لم يكن يحفظها كلها وكان هناك من يردد له كلمات لا يعرفها.. إصراره كان رائعاً في التواصل مع الآخرين والتعبير عن مطالب الشعب.. لم تخل المظاهرة من بعض البهجة.. رغم لوعة فراق أصدقاء الأمس والشباب الذين استشهدوا في الجمعة السابقة..
أطفال بعمر الورود كانوا يحملون اليافطات التي تؤكد أن دماء الشهداء وحدت الجميع في سورية.!!
شباناً.. شيباً.. أطفالاً دوما كانت في المظاهرة..
في ساحة جانبية وقف أحد المصابين من الجمعة السابقة وألهب الشعارات بهتافاته..
ثم توجهنا إلى ساحة المدينة الرئيسية..
هناك كانت خطب للبعض.. وهتافات.
التقيت بصديقة لي استطاعت الدخول بالحيلة كذلك مع أصدقاء من دوما وكانت تضع الحجاب مراعاة لأهل المدينة..
قلت لها ليس من المطلوب أن تتحجبي أنت مقبولة هنا كما أنت.. يكفي تضامنك مع الأهالي ليقبلوك ويحموك
مجموعة من النساء القلائل تجمعن الى جانب أحد الجدران توجهنا إليهن.. كن نساء شجاعات بامتياز.. اخترن النزول ودعم الرجال وتأكيد وجودهن وحضورهن عندما أصبح عدد النساء مقبولاً (حوالى 15 امرأة) توجهنا إلى مركز الساحة قام الشباب بإحاطتنا بجدار من الأيدي المتشابكة خوفاً علينا... وبدأنا بالهتاف للحرية والشهداء عندها وكأن خبراً تسرب عن حدوث شيء ما في حرستا.
ارتفعت الهتافات (واحد واحد واحد.. دوما وحرستا واحد...) ومن يعرف دوما وحرستا يعرف أهمية هذا الشعار..
بدأت المظاهرة تخف وتوزع الشباب في مجموعات على الحارات يلهبون حماسة الناس...
قررنا الخروج.. تخلصت من طوق الحماية بينما أحد الشبان يقول لي ابقي مع النساء.. قلت له أبحث عن زوجي هل تعرفه.. فضحكَ ومشى...
في العودة اضطررنا للسير لمسافة طويلة حتى المفرق من جديد
هناك أخذنا سيارة أجرة اختارت التلوي بين الشوارع الفرعية حتى وصلنا لمشارف دمشق.

كان الوضع رائعاً في دوما
لا أمن.. لا رصاص.. ولا إساءات من اي نوع.. فقط أناس وطنيون مفجوعون عبروا عن حبهم الكبير لبلدهم..
في الطريق سمعنا طراطيش عما حدث في حرستا
وتأكد لنا الخبر بعد رؤية أحد الأصدقاء العائدين من هناك...
جاءت باصات نقل داخلي مليئة برجال يلبسون اللباس المدني ويحملون الأسلحة.. قاموا بإطلاق النار على

المتظاهرين. (لم يكن متأكداً عدد الشهداء أو الجرحى).
أيضاً مجموعة أخرى بملابس مدنية كانوا يحملون عصيا ويهاجمون المتظاهرين....
وتم إطلاق قنابل مسيلة للدموع..
الوضع كان رائعاً في دوما (دوما المحررة من الداخل.. المحاصرة من الخارج).. أما حرستا.. وحمص.. ودرعا... واللاذقية.....والقامشلي.. والدرباسية .. وبانياس.. وطرطوس...
يا بلدي حبيبي
أفدي دماءك بدمي

ساعات من الحرية

اتصلت بي صديقتي من القابون قالت تعالي لعندي، توقعت جلسة نسائية اعتدنا القيام بها بين الحين والآخر للتحدث عن الأوضاع وما يمكن فعله... ولأنني كنت سأرى بعض صديقات الفيس البوك اللواتي أراهن لأول مرة والمهتمات بما يحدث ويعشن في منطقة بعيدة عن دمشق، فقد عرضت عليهن المشروع وعندما وافقن أخذنا تاكسي باتجاه القابون..
كثر لا يفكرون حتى بأن يكونوا على مقربة من القابون بعد الأحداث الأخيرة هناك وعدد الشهداء الكبير الذي سقط يوم الجمعة الماضي.
أخذت التاكسي طريقاً طويلاً، فقد كان عناصر الشرطة قد قطعوا أغلب طرقات المدينة باتجاه ساحة الأمويين لقيام المؤيدين بما يسمى بصمة الوطن بمناسبة تولي بشار الأسد الرئاسة بعد أبيه. والتي قيل أنها ستكون احتفالاً ضخماً يحضره مجموعة من الفنانين المشهورين.
في النهاية وصلنا، استدلينا على البيت وقبل ان نقترب رأينا مجموعة من النساء يتظاهرن في الأحياء والزواريب القريبة اسرعنا سيرنا وقد نسينا الزيارة، أحسست الفرحة في عيون صديقاتي، قلت لهن هل تريدون المشاركة في المظاهرة، فقلن بسرعة أكيد طبعاً...
شباب الحي من بعيد قالوا لنا هل أتيتن للمظاهرة: قلنا نعم. فأشرقت وجوههم وهم يدلوننا على الطريق...
سارعنا بالانضمام وبدأ ذاك الطقس الجميل والرائع هتافات رائعة، أغاني إبراهيم قاشوش التي دفع حنجرته ثمناً لها، والأجمل كان،تسونامي الحرية...
رجل يلبس ملابس العراضات الشامية ينتصب بكامل قامته فوق آخر يسير به على طول المظاهرة وعرضها ويهتف ونحن نردد وراءه، قال: الآن قفوا في أماكنكن ورجاء الجميع يقرفص، قرفصنا جميعاً لم يبق سواه في أعلى المشهد، قال بصوت خفيض وهادئ: الشعب يريد اسقاط النظام، كررها بهدوء مرة ثانية ثم انتفض صوته وانتفضنا معه واقفين ونحن نردد بصوت واحد: الشعب يريد إسقاط النظام... كان صوتاً جماعياً رائعاً.
استمرت المظاهرة في مسيرتها التي بدأتها بالمرور على بيوت شهداء جمعة (أسرى الحرية)، عند أحد البيوت توقفنا فتح الباب لتخرج منه امرأة كبيرة في العمر كانت أم الشهيد، لم تكن تبكي ولكن وجهها كان حزيناً وهي تردد كلمات شكر للجميع ونحن نهتف لها ولابنها شهيد الحرية.
الزقاق كان يوصل للاوتستراد.. ترجتنا صديقتنا أن نعود فهناك سنكون مكشوفين على القناصة، قدرت أنها تعاملنا كضيوف، عدنا وعادت معنا مجموعة من النساء، الباقي استمروا في سيرهم..
جلسنا هناك ننتظر وقتا نستطيع فيه الذهاب إلى بيت العزاء المشترك الذي نصبه أهالي القابون لشهدائهم بعد

شهادات ويوميات

حوالى ساعتين دارت فيهم القهوة ومعها دارت أحاديث وشجون المناطق التي أتينا منها، الصبايا اللواتي أتين معي كن من السويداء بعض الصبايا الأخريات والشباب من حمص واللاذقية والطرطوس وغيرها....

خرجنا جميعاً كوفد إلى بيت العزاء، وعلى الرغم من عادات المنطقة ويمكن سورية كلها بفصل بيوت عزاء الرجال عن بيوت عزاء النساء، فقد كان مفتوحاً للجميع...

في طريق طويل تنيره الأضواء يقف صفان من أهالي القابون ونسائها وأطفالها لاستقبال المعزين مشينا حوالى 50 متر حتى وصلنا إلى المكان الرئيسي على طول الطريق كانت هتافات الحرية تصدح وهتافات استقبال الضيوف.

جلسنا في صفوف أمامية على المنصة رجل كبير في العمر يستقبل الناس بالميكروفون ويتلو اسماءهم أو مناطق قدومهم، كان طقساً ضرورياً لتأكيد الهوية الوطنية للجميع وأن الجميع شارك دون التفات للمنبت أو الدين..

فتاة صغيرة ألقت أغنية وفتى صغير ألقى شعراً.

وعاد تسونامي الحرية بوجود أكثر من 2000 شخص في المكان....

كان كل شيء يسوده التنظيم والمشاركة بين الجميع رجال ونساء وأطفال، القابون كلها كانت تحتفل بشهدائها الذين وضعت صورهم بجانب بعضهم البعض على عرض بيت العزاء.

كان مهرجان حرية بحق أقيم لشهداء الحرية..

خرجنا كما أتينا بهتافات المودعين وهم يستقبلون وفداً ويودعون آخر..

أوصلونا إلى وسط المدينة بسيارة، كانت الطرقات ما تزال مقطوعة على شرف بصمة شباب التأييد، لا جدوى من المقارنة بين مظاهرتنا الخائفة في الزواريب وبيوت الشهداء، وبين الرفاهية الواضحة لهؤلاء الذين تقطع لهم طرقات العاصمة على عرضها وطولها.

،في اليوم التالي وصلتني رسالة من صديقتي تقول فيها:

خولة كان أجمل يوم في حياتي.. شكراً لأهالي القابون الرائعين

لقد عشت حريتي لعدة ساعات..

عن مدينة ساحلية في سورية:

سوري بمواقفك.. طائفي في خوفك.. أيها المثقف كيف؟

اليوم اقتحموا باب الدريبة.. اعتقلوا الشبان.. ونهبوا المنازل ثم أحرقوا ما تبقى..

هي جبلة الأدهمية التي تنتظر الرعب منذ عشرة أيام.. والمخاوف من الاقتحام لا تفارق شبابها..

جبلة اليوم هي مفتاح حديثي هذا.. بعد أن رأيت على الصفحة الخاصة بها دعوات طائفية للانتقام من العلويين بسبب مواقفهم السلبية من الحراك هناك، والمظاهر التي رافقت الشبيحة فيها من إبراز مظاهر الانتصار على الأخوة الأعداء فيها.

هذه الدعوات التي أصبحنا نتفهمها اليوم بعد كثرة التشبيح بأنواعه المادية والمعنوية.. وبعد الانقسام الحاصل فيها، الذي طال حتى شاطئها.. فترى نصف الكورنيش ممتلئا ومليئا بالحياة والناس .. والنصف الآخر مليء بالجيش والأمن والقناصة ويعاني من فراغ سكاني يملأ الجو بالخوف والذعر من القادم..

لم تكن جبلة وحدها على هذا الحال، فكذلك بانياس، واللاذقية والكثير من المدن المختلطة.. والتي يوجد

فيها تواجد للعلويين. فمع ازدياد الربط بين الطائفة والنظام.. بدأت هذه المظاهر بالازدياد ومما فاقم الوضع الانكفاء الواضح لدى المثقفين وعدم الفعل للتخفيف من هذا التوتر الطائفي، وهو ما أرغب بالأتيان على ذكره هنا، وتفصيله.

في اللاذقية، وعند زيارتي للرمل الجنوبي، التقيت بأحد الرجال الناشطين هناك، قال لي: نريد تبيان موقف من الطائفة العلوية من النظام، وأن على المثقفين والمعارضين فيها التبرؤ منه، ومن أفعاله، وقتها قلت له، الكثير من المعارضين هم مع الحراك، ولكن لا يقبلون أن يحسبوا على النظـام فقط لأنه علوي، نحن مع الحراك لأننا سوريون ولأنكم سوريون، ولأن وجعكم وجعنا، وما يصيبكم يصيبنا. الرجل تفهم الأمر ولكن لم يستطع تقبله فهو لم ير أيا من هؤلاء المعارضين متواجدا بينهم كسوري، وبقوا لوحدهم هناك في الرمل الجنوبي يعانون الحصار والعزلة.. وكان الاقتحام في اليوم الثاني لهذا الحديث.

وعلى الرغم من الصدى الإيجابي لكلامنا ذاك، إلا أنه لا يشفي قلب المواطنين الذين يعانون في كل لحظة من تعنت وعسف النظام.

في نقاشنا مع الشباب المعارضين هناك في الساحل كان موقف الجميع نحن سوريين ولا نريد أن نحتسب الآن على أساس طائفي..

ولكن ما لفت نظري هو الـموقف من الذهـاب إلى مناطق الحصار، أو محاولة التظاهر في مناطق أخرى.. فقد قالوا لي: نحن علويين في النهاية، والشبيحة لن يتركونا بحالنا أبداً ونحن نتلقى تهديدات يومية ومحاولات إيذاء ولا نستطيع النزول بحرية للتظاهر وتبيان الرأي!!!

سوري بمواقفك.. طائفي في خوفك.. أيها المثقف كيف؟

الشيء الآخر: أن الجميع احتج على توقيعي على بيان للعلويين يتبرأون فيه من النظام مع أني كتبت ،مع فصل الدين عن الدولة، لتبيان علمانيتي، غير أنني أحسست أن هذا التوقيع قد يجد صدى في قلوب الناس، فالناس متدينون والاحتقان موجود، وإن كان توقيعي يخفف منه فلم لا... صحيح أنا في النهاية علمانية، ولكن كل كلمة أو فعل لا نقوم به، قد نندم مستقبلاً على عدم فعله، وخاصة إن كان يصب في مصلحة توحيدنا كسوريين.

العلمانيون رفضوا التوقيع بحجة أنهم سوريون أولاً، ولكن خوفهم مما يجري يتم بحسابات أخرى وبأنهم علويون في النهاية ويخافون الانتقام.

الملخص:في التضامن نحن سوريون ومواطنون أولاً.. وفي تبيان هذا التضامن نحن نخاف كطائفيين!!!

هذه المعادلة وكيف ضبطت ما تزال تثير استغرابي.

الأثمان التي دفعها السوريون هناك كبيرة جداً على وجدان أي واحد منا.... وطريقة التعامل الطائفي التي يحاول النظام تكريسها بل وكرسها في الساحل بالفعل، تحتاج إلى فعل سريع وفوري، كي نستطيع تجاوزها، والأخطر هو هذه الدعوات التي نراها اليوم بالانتقام، فهؤلاء المحتجون لم يروا أمامهم سوى القتلة والشبيحة ورجال الأمن الذين يلبسوا لبوسا طائفيا، ويتهمون الآخرين على أساس طائفي بالسلفية والعرعرة... وغيرها من تهم.

وخوف المعارضين أو المؤازرين للانتفاضة السورية لم يظهر على السطح للأسف بسبب خوف هؤلاء، هذا الخوف الطائفي بامتياز، فأنا معارض ولكني علوي في النهاية، وسيتم الانتقام مني، من العلويين، كعلوي.....

ومع أننا يجب أن لا نتجاهل أن الشبيحة والمدافعين عن النظام ليسوا فقط من طائفته، وأن هذا يظهر في

المناطق التي لا يوجد فيها هذا التمايز الواضح في الطوائف، كالمناطق الشرقية والشمالية وحلب، غير أن خطورة هذه الدعوات توجب علينا عدم تجاهلها، والعمل ضدها، وتبيان الرأي المخالف لها، وهذا يتطلب شجاعة من الجميع تبيان مواقفهم كسوريين أولاً، ومعارضين ثانياً بغض النظر عن طوائفهم.

المشكلة اليوم، أنه إن لم تظهر مواقف صريحة وواضحة من هؤلاء، وإن لم تظهر معارضتهم واستعدادهم لدفع ثمن هذه المعارضة، وأن يشاركوا إخوتهم السوريين معاناتهم بحق وحقيق... فستذهب هذه المعارضة الصامتة أدراج الرياح... ولن تفيد في ساعة ازدياد التوتر الطائفي وبروزه بأشكال عنيفة.

المثقف من الطوائف الأخرى يبدو ثقله أكبر اليوم، بسبب انتمائه لتلك الطائفة، لذلك رأيت أن هناك إشكالية يجب تجاوزها عند التمييز بين خوفنا الطائفي، وانتماءنا الوطني، وأن هناك ضرورة الآن تبدو ملحة للخروج من البوتقة الطائفية وإعلان مواقفنا بغض النظر عن طوائفنا، وتجاوز مخاوفنا الطائفية تلك.. فنحن كسوريين معارضون يجب أن نكون في الشارع.. ولا يمكن تبرير عدم نزولنا بأننا ننتمي إلى طوائف قد تحاربنا لأننا نزلنا. على السوريين الذين يمتلكوا موقف مما يحدث إن كانوا مع الانتفاضة بشكل صريح أو رافضين للتعامل الطائفي للنظام، أن يبروزا هذه المواقف وأن يحددوا من هم:

هل هم سوريون فعلاً وعلى استعداد للمشاركة في الصالح والطالح مما يجري؟

أم هم طائفيون وعليهم أن يتحملوا نتائج ما تعنيه هذه الكلمة الآن وفي المستقبل.

2011/9/1

لا أمل بهؤلاء المثقفين

لم يعد هناك ما يحتاج إلى النقاش في سورية اليوم. الأمور لم تعد ملتبسة، والمواقف لم يعد من مجال لتأجيلها أكثر من ذلك.

فبعد ثلاثة أشهر من انتفاضة الشعب السوري، هل هناك ما هو ملتبس بالنسبة للمثقفين؟

الملتبس هو أنتم، بمواقفكم الملتبسة، وبخوفكم الملتبس، وبحججكم الملتبسة كذلك.

فمن موقف لننتظر ونرَ، إلى موقف لنرَ جدية النظام لتطبيق الإصلاحات، إلى موقف نعم يوجد سلفيون، إلى موقف الخوف على سورية من حركة شعب بدون قيادات، إلى موقف لن أشارك في مظاهرة تخرج من جامع، إلى موقف الوقوف على الرصيف ومراقبة ما يجري، إلى موقف لن أسمح للعرعور بأن يقود البلد....

والسلسلة تزيد وتزيد لتبرر عدم اندماج المثقفين بحركة الشارع التي طالما دعوا إليها ونظروا بضرورتها، كما نظروا بضرورة التغيير ، ودور الشعوب في الحراك، وكأن حراكهم في السابق لم يكن لينجح بسبب اعتكاف الشعب وعدم تبنيه لقضيتهم العادلة بتغيير النظام!!

،وإن كنت في السابق وجهت دعوة للمثقفين أن ،شاركوا في التغيير كي يشبهكم هذا التغيير، أشعر اليوم بفقدان الأمل منهم كلياً، ولا أجد عذراً لهم في هذا الخوف والارتباك سوى العجز الطبيعي للمثقف عن اللحاق بحركة الشارع.

لماذا اليوم يبدو المثقف السوري مرتبكاً ومتنصلاً من حراك الشعب؟ هل اكتشف فجأة أن الصورة الرومانسية عن الثورة والشعب التي قرأ عنها كثيراً في أدبيات الثورات، تختلف كثيراً عن الشارع الذي يراه اليوم أمام عينيه؟

نعم فالشعب ليس صورة رومانسية لامرأة تشهر صدرها وترفع يدها بالراية في وجه الظلم بينما الشعب يندفع باتجاه القصر، كما صورها فنانو القرن الثامن عشر عن الثورة الفرنسية، وليست ذلك العامل الذي يشهر إصبعه في وجه المشاهد ليقول له هل شاركت أنت؟ كما صورتها أدبيات الحزب الشيوعي السوفييتي في لوحات ملأت الجدران خلال العقود الماضية.

الثورة اليوم تشبه أبناء هذا الشعب بكل ما فيه من بلاوٍ ونواقص قد لا تعجبكم، فلا داعي لإيجاد مبررات عدم المشاركة فيها، ولا داعي لإيجاد مبررات للانتقاص منها ومن شعبيتها..

هي الثورة المعبرة عن الشعب السوري رغبتم في هذا أم لم ترغبوا، فإما أن تشاركوا في هذا الحراك، أو سيلفظكم الحراك بطريقة لا رجعة فيها..

،ما نراه اليوم هو سقوط أخلاقي مدو للمثقف السوري الذي يحسبها جيداً، وقد يكون تعود على حسابها جيداً خلال زمن القمع والاستبداد، واليوم حيث لا داعي للحسابات تراه يفلسف الحراك والثورة ويجد المبررات لعدم المشاركة. وهنا لا بد من التساؤل المشروع:

كيف يمكن القبول بالقتل من قبل نظام القمع والارهاب الذي كنت تناضل ضده خلال السنوات الماضية؟

وكيف يستريح ضميرك وأنت تحصي ما تجاوز الـ 1500 شهيد، و13000 معتقل و51 طفلاً استشهدوا على يد النظام الأمني؟

كيف يرتاح ضميرك لمساندتك نظاماً لا مشكلة لديه بإرسال الطائرات والدبابات ضد المدن السورية بينما يرسل الشعب للحدود مع العدو كي يقتل بكل بساطة؟

كيف تبرر وقوفك مع نظام اعتقل طائفة بأكملها لمصالحه وللدفاع عن هذه المصالح، بحجة دفاع الأقليات عن وجودها؟

كيف تبرر وقوفك للدفاع عن النظام الأمني الذي قمعك لعشرات السنين، ويريد اليوم الاحتماء بطهارتك بوجه الشعب؟

،أسئلة كثيرة لا أجد لها جواباً سوى: إنه السقوط الأخلاقي للمثقف السوري المعارض في معادلة الثورة الحقيقية وهو ما أراه وجهاً آخر للخوف من مجريات ثورة ما فتئت تطالب بحدوثها وتنصلت منها حين قامت...

، لا أظن أن هناك داعياً للتنويه إلى أنني لا اشمل جميع المثقفين المعارضين هنا، لأن هناك منهم من لم يفكر مرتين عندما اختار الوقوف إلى جانب الشعب وثورته.

كاتبة من سوريا

ما بين سجن وشارع...

رودي عثمان

حين دخلت المُعتقل أول مرّة، كان عمري لا يتجاوز السبعة عشر عاماً، كنت في ثياب المدرسة، ولا أحمل غير كتبي. سرقني عناصر إدارة المخابرات العامّة، أو ما يسمّى فرع «أمن الدولة»، من الشارع.
ورموني في زنزانة بعد ضرب شديد مع عشرات الشبان الأكراد، لتقتل انتفاضتهم الشعبية عام 2004. رموني في عالم غريب، قلعت أظافري فيه أثناء التحقيق، وصار للكرابيج شكل على جسدي. لكني خرجت بعد شهرين من القهر اليومي، نتيجة اضراب عن الطعام استمر مدّة 25 يوم من الجوع.
اسمي رودي عثمان، أعيش أثناء الثورة كصحفي وناشط ميداني، واكتب هذا النص بعد خروجي لأيام من اعتقالي الرابع.
وقفت لدقائق مع 15 شاب سوري أمام السفارة التونسية في كانون الثاني 2011، وهتفت امام السفارة المصرية في نفس الشهر مع عشرات الناشطين والمثقفين هناك، وبعدها رفعت لافتة ضد الظلم أمام السفارة الليبية في دمشق.
هتفت في سوق الحميدية في 15 آذار، ووقفت بعد يوم واحد في ساحة المرجة... أثناء هذا الفرح بالحرية بدأت الثورة، وبدأت العلاقة تختلف مع الشوارع والأمكنة. صارت مرتبطة بصوتي وكاميرتي.
ساعدت عدّة وسائل إعلام عالمية في الحصول على الأخبار المصورة، وصوّرت مشاهد كثيرة من المظاهرات.
في الشوارع أصوات جميلة تحلم بالحرية، كنت أحب صوتي هناك. لكنهم سرقوني من الشارع مجدداً، من مظاهرة في حي الميدان الدمشقي هذه المرّة بتاريخ 27 أيار. نفس الفرع السابق، وذات القسوة، لكن كانت المدّة أقل؛ ثلاثة أيام فقط. وخرجت إلى صوتي مجدداً.
بعدها، عملت مع مؤسسة الشارع للإعلام على تصوير مقابلات صحفيّة، وصناعة عدّة أفلام للثورة. أولها: وثائقي «آزادي» الذي صوّر في آب (أغسطس) 2011 في منطقة القامشلي والمناطق الكردية الأخرى الواقعة شمال سورية، وحاز على الجائزة الفضية في مهرجان روتردام بعدما جسّد يوميات من الثورة. وعرض على تلفزيون فرانس 24.
اعتقلني فرع الأمن السياسي بعد «آزادي» مدّة أربعة شهور منذ 4 آب 2011، ونقلت إلى سجن دمشق المركزي بمجموعة تهم، منها: «إذاعة أنباء كاذبة من شأنها وهن نفسية الأمة، والتحريض على التظاهر، وتأسيس جمعية محظورة، والنيل من هيبة الدولة».
بعد السجن، شاركت مع مجموعات شبابية ثوريّة في التظاهر وتغطية الأخبار وتوزيع مناشير داخل دمشق.
وصوّرت لوكالة رويترز للأنباء مجموعة تقارير ميدانية، منها أول تقرير احترافي عن الجيش السوري الحر.
كما عملت على مساعدة التنسيقيات تقنياً لتمكينها من نقل المظاهرات بشكل مباشر على الفضائيات الإخباريّة.

ومساعدة مكاتبها الإعلامية في توصيل الأخبار.
صوّرت قبل اعتقالي الرابع فيلم وثائقي عن معارك مدينة الزبداني بين جيش النظام السوري والجيش الحر في المدينة، وهو الآن قيد المونتاج. أيضاً صوّرت تحضيرات ثوّار مدينة القامشلي للاحتفال بذكرى انتفاضة 12 آذار الكردية.
وشاركت في التحضير لاحتفالية الشارع السوري، بمناسبة عام على مرور الثورة السوريّة، التي تتضمن فعاليات ثقافية مختلفة، تقدّم مهرجان سينمائي، ومعارض تشكيلية، وأعمال مسرحية، وتجهيز في الفراغ، وموسيقى. في عدّة مدن سوريّة ومدّن عربية وأوربية.
اعتقلت للمرة الأخيرة في 15 آذار 2012، أثناء مشاركتي في مظاهرة شارع الحمرا وسط دمشق. ودخلت الزنزانة ذاتها في اعتقالي الأول عام 2004. وتعرضت لتعذيب شديد أيضاً. خرجت بعد 12 يوم، ولازلت مؤمناً بالحريّة، كحل وحيد لضمان مستقبل الشعب السوري.

كاتب من سوريا

السوريون يحصون مجازرهم
«جديدة عرطوز»... جميع الجثث كانت بالبيجامات

روزا ياسين حسن

رغم الدخان القاتم ورائحة الحرائق التي تعمّ الجو فوقنا، قال لي ابن عمي: «انزل لنرى ما حدث». كانت قد مرّت ساعات ونحن مختبئون في بيوتنا، فئران مذعورة لا نجرؤ على الخروج. قالوا إنهم يقتلون كل من يخرج من الحارة القديمة في «جديدة عرطوز»!! وكانت ثمة بيوت تحترق حولنا منذ صباح اليوم الجمعة. رأيت سحب الدخان وشممت رائحتها.

باتجاه بساتين الزيتون كانت مجموعات من النساء والأطفال تهرول، القليل من الرجال معهم، ولحقناهم. كان يبدو أنهم يلهثون باتجاه محدد.. هناك قريباً من البساتين كانت وجهتهم، فقد وقفت سيارات السوزوكي قرب بعضها. كانت سيارات مليئة بالجثث المغطاة بحرامات وشراشف ملونة، عشرات الحرامات الملونة الهاجعة. صعدت امرأة من الراكضات إلى السوزوكي، رفعت ثوبها الطويل الأسود واندسّت بين الجثث، وصارت ترفع الحرامات عن وجوه القتلى: حرام وراء حرام، تعيده لترفع الآخر. الجثة الخامسة، التي كانت تفتح عينيها على سعتهما باتجاه السماء، كانت جثة زوجها على ما يبدو.. لم أعرف المرأة، قالوا لي إنها من عائلة «مربية»، ولكنها طوّقت الوجه الشاحب وراحت تشتم وتصرخ من دون بكاء.. كان لون وجهها قريباً من لون وجهه!

أحد شباب عائلة «بلال» كان يركض بين السوزوكيات، رأيته قادماً من بعيد مرتدياً بيجاما. ثم راح يرفع الحرام هذا ويرفع الحرام ذاك، وجهه كان شاحباً كشبح وخالٍ تماماً من التعابير. أردت أن أناديه لألقي التحية عليه، رغم أنه لا مكان للتحية الآن، لكنه كان قد رفع حراماً آخر ثم جلس على الأرض، وراح يبكي بصوت عالٍ، ممسكاً برأسه بين يديه. حين اقتربت منه كان «عبد القادر بلال» ممدداً هناك. لا يشبه من أعرفه أبداً، يشبه دمية محزوزة العنق، متفاجئة ومخيفة.

الأقدام شاحبة وجافة تبدو من تحت الحرامات! ورأيت ابن جيراننا، ذاك الشاب الأسمر، نسيت اسمه، وعيناه تنظران بثبات إلى فوق. قربه «فاروق البقاعي» ممدداً، رأسه مفتوحة، ودماغه خارج منها على أرض السوزوكي. يبدو أنهم ضربوه كثيراً منذ اعتقاله يوم الأربعاء قبل يومين، فقد كانت أقدامه حافية ومتورمة من تحت الشرشف الأبيض الذي يغطّيه، والبيجاما التي يرتديها ملوثة بالدم.

كان ثمة حرام أحمر يضمّ شاباً من عائلة «السماوي» يرتدي بيجاما أيضاً، وحرام آخر كان مزيناً بالورود مليئاً بنثرات الفحم. حينما رفعه أحدهم رأيت أكتاف شاب وفوقها كتلة من الفحم «المكرنشة»، كان ينبغي أن تكون رأسه! دماغه كان متفحّماً، ومازالت رائحة الشواء تعبق في الجو حولها. قالوا إنه «طارق بلال» أو ربما «خالد البقاعي» لأن الاثنين تم حرقهما كما شاع، وكان ثمة سبعة عشر شاباً قتلوا خلال اليومين السابقين من عائلة «البقاعي» وحدها. ثم أتى رجل لا أعرفه، وتعرّف على الجثة المحترقة من شحّاطتها وبيجامتها.. كان ابنه، هذا ما كان يهذي به وهو يلطم قربه.

«من بيت مين يا عمي؟»..

صاحوا وهو لا يردّ.. من بيت مين يا حج؟!!». ولم يردّ أيضاً.

جميع الجثث كانت ترتدي بيجامات؛ فقد كانت في بيوتها ساعة اعتقالها أو موتها. أنا أيضاً كنت أرتدي بيجاما وابن عمي كذلك. وكنا مازلنا في البيجامات حين وقفنا مذهولين بجانب المقبرة الجماعية، تلك الحفرة الطولية التي تم استحداثها بين أشجار الزيتون لتستوعب كامل الضحايا الذين فقدتهم «الجديدة» خلال يومين. كان ثمة شيخ عجوز يقول لسائل:

«لم ندفنهم في مقبرة الضيعة حتى لا يعدّوا لنا كميناً ويقتلوا المزيد منا.. سندفنهم هنا من دون تشييع.. شبعنا موت.. حاج بيكفي..»

ونحن هناك نشهد تنزيل الجثث بجانب الجثث صرخ أحدهم من بعيد: «جثة أخرى مرمية قرب الخزان.. يالله يا شباب» فانطلقت سوزوكي مع شابين إليها.

المجزرة أمر سهل جداً.. هذا ما اكتشفته. من السهل أن ترتكب المجازر في بلادنا. حاصر المنطقة وادخل لتقتل الناس. رصاصة رصاصة.. طق طق.. وينتهي الأمر. لا يوجد عزاء، لا يوجد تشييع، لا يوجد أحد في الشوارع.. هكذا تكون المجازر، وكل ما تتركه للباقين رائحة خوف حامضة تملأ الفضاء.

هذا جزء من رواية (ن) عما حصل في «جديدة عرطوز» وهو من سكانها. لكن حينما ستسأل عنصراً من النظام عن سبب مجزرة «جديدة عرطوز» سيقول إنها بسبب ما فعله «الإرهابيون» من ضرب لمخفر الشرطة هناك. وكيف أخرج الثوار المسلحون بعض العناصر من المخفر وقتلوهم، ثم دخلوا وفجروا المخفر. كما أنهم وفي يوم الأحد 7/29 قتلوا عميداً وعنصرين من عناصره، وظلت جثته حوالي الساعتين في السيارة من دون أن يأتي أحد ليأخذها.

لكن المجزرتين اللتين وقعتا في «الجديدة» يوم الأربعاء 8/1 ويوم الجمعة الذي يليه، لم تحصلا بين صفوف الثوار المسلحين، كانوا قد انسحبوا من كامل المنطقة. المجزرة طالت الشباب الذين في بيوتهم، فلو كانوا مسلحين لما حدثت المجزرتان هكذا بمنتهى البساطة. قبل حوالي الأسبوعين، مثلاً، في أول يوم في رمضان بدأت مداهمة «جديدة عرطوز» بفوج 100 مع عناصر «المساكن»، ومعهم ثلاث دبابات تمركزت في شارع الجلاء وشارع غالب مربية ومنطقة البساتين. فحصلت اشتباكات قتل على إثرها اثنا عشر عنصراً من أمن النظام، كما استولى الثوار على سيارتين عسكريتين ورشاش «دوشكا».

الأمن السوري أخذ عناصره الذين قتلوا في ذلك اليوم، عمل على نزع ثيابهم العسكرية، وتركهم بالملابس الداخلية. وخلال لحظات خرجت الكاميرا من الدبابة، ثم صورت الجثث المتراكمة وذهبت مع الدبابات. فيما بعد عُرضت تلك الصور في الإعلام السوري على أنها لمجموعة من الإرهابيين قام النظام بتصفيتهم!

بعد ساعتين من الاشتباكات تم اعتقال الطبيب زياد البقاعي، والشاب يوسف غنيم، وهو نجار من سكان الجديدة عمره لا يتجاوز الثانية والعشرين. يوسف غنيم كان شاباً فاتح اللون بشعر أصهب، بعد مقتله عُرضت صوره في الإعلام السوري على أساس أنه مجاهد أفغاني أتى للجهاد في سوريا!

الأربعاء 8/1 صباحاً بدأت بوادر المجزرة الأولى.

ساد هدوء شديد في المنطقة، لم تُقطع الكهرباء كالعادة ذلك اليوم، وبقيت طائرة هليكوبتر تدور في السماء

فوق «الجديدة» لأكثر من خمس ساعات، بعد أن أطلق الفوج 100 خمس قذائف على مشارف الجديدة باتجاه البساتين عند ساعات الفجر الأولى.

الساعة الثالثة بعد الظهر دخلوا «جديدة عرطوز»: آلاف العناصر وعشرات الدبابات. كانت عناصر من الفرقة الرابعة تؤازرهم، يضعون شارات بيضاء على أيديهم وخوذهم. وصار الناس يدورون على البيوت ويقولون للشباب إن الجيش يداهم المنطقة: كل من هو تحت الأربعين ليهرب.. لكن الكثير من الشباب بقوا في بيوتهم، فهم لم يفعلوا شيئاً، باستثناء مظاهرة من هنا ونشاط طفيف من هناك. وهذا ما فكرتُ فيه أيضاً: «أنا لم أفعل شيئاً يستوجب الخوف.. سأبقى في بيتي». لكنهم عادوا وقالوا لي هناك خمسة وسبعون شاباً تم اعتقالهم من الحارات المجاورة وليس لهم علاقة بشيء.. أهرب. فهربت.

كانت أصوات تكسير إقفال المحلات تصمّنا: طلقة على القفل، ثم تُكسّر الواجهات وتُنهب المحلات. جاء صديقي وأقنعني بالهرب إلى البساتين. رأيت الشباب يركضون إلى السهل، حيث أشجار الزيتون تواريناً. وكان هناك حاجز لرجال النظام في نهاية شارع الدير، وحاجز آخر في الاتجاه المقابل. كان يبدو جلياً أنهم يريدون حصر الشباب في السهل، ولكن ما من مفرّ أمامنا. قعدنا في السهل تحت الأشجار، ثم مرّ شاب ملثّم بكوفية مرقّطة على دراجة نارية، نظر إلينا ملياً وذهب. بعد أقل من عشر دقائق نزلت قذيفة علينا، وقفز التراب والحجارة في وجوهنا. هربنا بالعشرات إلى الاتجاه الآخر رغم أني لم أعد أرى بعيني، كان الغبار يعميني، وسمعت صوت إطلاق رصاص، كان يزداد سرعة واقتراباً، وأحسست برفيقي يأخذني من يدي إلى اليمين ثم نعود أدراجنا إلى الزيتون، فقد كان ثمة حاجز آخر أمامنا يطلق الرصاص علينا.

عيناي تحترقان فأغمضهما، وأسمع أصوات مرور الدبابات على الزفت، أصوات قذائف بعيدة، أصوات إطلاق رصاص من هنا وهناك. كانت السيارات المصفحة والدبابات قد حاصرت البساتين، ولكني استطعت الهرب. حاولت إقناع صديقي بالهرب معي لكنه لم يقبل. قلت له: «إذا متنا فليعرف أهلنا بأننا متنا.. على الأقل». لكنه أصرّ على البقاء في البساتين.

كل من بقي هناك قتل، الكثير منهم ذبحاً بالسكاكين. «محمد الخطيب» و«عبد الرزاق بلال» وجدا مشنوقين بأسلاك الهاتف على أحد أشجار الزيتون. في هذه الأثناء، وأنا أمر قرب الساحة مهرولاً، كانت عناصر النظام تأتي بالشباب من بيوتها إلى الساحة. غالبيتهم بالبيجامات. كانوا حوالي المائة والخمسين شاباً، كما قدّرت، كوّموهم وهم مقيدو الأيدي إلى خلف ظهورهم، وراحوا يدعسون عليهم، ويزعقون صائحين: «بدكن حرية؟«... ويشتمون ويشتمون. أصواتهم الزاعقة والصمت المحيط ظلاّ يلاحقانني وأنا أهرب باتجاه المجهول.

فيما بعد عرفت بأن سبعة عشر شاباً تمّ اختيارهم ليذهبوا إلى مدرسة «غالب مربية الجديدة». أخذوهم مع الدبابات والعناصر. وحين لم يستطيع عناصر النظام فتح باب المدرسة، اقتحموها بالدبابة وفتحوا ثغرة فيها. ما زالت الثغرة شاهدة حتى اليوم. هناك صفّوا الشباب على حائط المدرسة الداخلي، وضعوا كنزاتهم على رؤوسهم، فأضحوا أشبه بالمكبّلين «المطمّشين». خرج مصور من بينهم ومعه كاميرا محمولة، صوّرهم بسرعة وانسحب، لتنطلق نار الرشاشات وتدرز أجساد الشباب السبعة عشر. فقتلوا جميعاً.

لم يكتشف أهالي «جديدة عرطوز» مجزرة المدرسة إلا بعد انسحاب الجيش من المنطقة. ولم يكتشفوا القصة إلا بعد أن عرض الإعلام الرسمي صور أولادهم أحياء مصطفين على حائط المدرسة، على أساس أنهم إرهابيون مسلحون تم أسرهم بجهود الجيش «الباسل».

عدت إلى البيت ولبثت انتظر الموت. لكنهم لم يأتوا. بعد ساعات طويلة، أطول من دهر، صرت أسمع أصواتاً

تدور على البيوت: «يا ناس اطلعوا تعرّفوا على شبابكم.. عاملين مجزرة.. يا ناس».

خرج الأهالي إلى البساتين ليبحثوا عن أولادهم، وكنت أهمّ بالخروج لأطمئن على رفاقي، ولكن إطلاق الرصاص راح يلعلع، فقد كانت حواجز الجيش ما تزال منصوبة تطلق النار علينا مباشرة، فمات منا من مات. على بعد أمتار قليلة مني كان ثمة رجل بنصف رأس، وقد خرج دماغه قانياً على الإسفلت. كنت أشعر بأن جسدي خارج عن إرادتي، وفي الوقت الذي كنت أظن فيه أنني سأقع فور رؤيتي لمشاهد مشابهة، تحرك جسدي مبتعداً على قدمين مهرولتين لا تأتمران بأمري.. الآن وأنا أتذكر كل ما رأيته أشعر بأني لم أعشه! إنه أشبه بكابوس فظيع.

بجانب جامع العمري القديم كان ثمة عسكري لم يستطع أن يطلق النار على الناس هكذا ببساطة. فقتلوه. رُميت جثته في قبو بناية مجاورة، ثم رمي فوقه أربعة مدنيين تم قتلهم، وأشعلت النار في الجثث الخمس. كانت رائحة الحرق تفوح في المنطقة كلها. ولم يتم اكتشافهم حتى المغرب، فقد صارت أخبار المجزرة تتناهى إلينا. حينما تأكدنا بأن الجيش والأمن انسحبوا، خرجنا من بيوتنا.. وكنت مع الخارجين.

في تلك الليلة عثر الأهالي على عشرات الشباب مقتولين في الأقبية المهجورة. كانت «جديدة عرطوز» مفعمة برائحة حرائق وبارود وموت وخوف يهيمن على الوجوه والأرواح.

في نهاية يوم الأربعاء كان ثمة خمس وأربعون جثة تم اكتشافها قبل أن يأتي المساء. تكوّمت بجانب بعضها أرتالاً في جامع خديجة. وهناك كان صديقي ممدداً ورأسه بجانبه.. لا أعلم إن كانت قد قطعته شظية أو سكين أو.. لا أعلم. ما أعرفه أني لمحته من بعيد وهربت.

قبل أن ينتهي الليل تم اكتشاف ثماني جثث أخرى ، لتصبح الحصيلة اثنين وخمسين شاباً. مكبرات الصوت تنادي على الناس أن تذهب لتتعرف على أولادها في الجامع، فالكثير من الجثث غير معروفة أو مشوّهة فليتعرف أهلها عليها من ثيابها أو أحذيتها!

اليوم لا أعرف إن كان ينبغي أن أفرح لأني نجوت وغيري قتل، أم أحزن لأن غيري قتل وأنا بقيت شاهداً على كل ما حدث؛ لا أعرف إن كان علي أن أفرح أم أحزن لأني حدت عن الموت الآتي بلمح البصر إلينا.

خلال الأيام القليلة الماضية «هجّ» معظم أهالي «جديدة عرطوز» من بيوتهم، وكأن المدينة القديمة خلت من ساكنيها. الخوف هو من سكن في أمكنتنا، الخوف من كل شيء حتى من الحديث عما حصل في المجزرة.. وكأن شباب الجديدة الذين سقطوا صرعى الطغاة يسقطون مرة أخرى بصمتنا.

غصّ (ع) بكلماته وصمت. ثم أشاح بوجهه بعيداً عنّا.

•جديدة عرطوز هي بلدة في ريف دمشق، تقع جنوب العاصمة السورية، تحدها شمالاً معضمية الشام.

26 آب 2012

كاتبة من سوريا مقيمة في دمشق

من حلب إلى دمشق

زينة ارحيم

سأقول لكل فلسطيني: اعرف شعورك تماما؛ من حلب الوفاء الى ادلب المحتلة!

الحدود شيء والحواجز العسكرية على الطرقات شيء آخر، أجابني عمي عندما أخبرته ببراءة بأنني ذاهبة لإدلب، فأسماء المطلوبين تُوزّع كلٌّ حسب منطقته وإن كان ‹الحظ› قد حالفني بتجاوز الحدود فبالتأكيد سيخذلني عند حواجز إدلب.

لم تكن الحواجز هي العائق الوحيد أمام ذهابي لإدلب فقد احتاج رسم خارطة الطريق إلى مدينتي الثائرة مؤتمرين: داخليٌّ عُقد بين أهلي في إدلب وخارجيّ مع المحبيّن ببقية المحافظات وتمخض عن هذين المؤتمرين لجاناً لـ‹ترطيب الأجواء، وأخرى ‹للوساطة، وثالثة لتقّصي الوضع الأمني على الحواجز.

وبعد طول انتظار، جاء يوم السبت، كنت قد تواعدت مع صديقي الحرّ عامر مطر لنسافر معاً إلى ‹دولة حلب، المستقلة حيث نستطيع منها التحرك بحرية كلٌّ إ لى المكان الذي يقصد.

كراج دمشق مازال قبيحاً كما عهدته ربما ازداد مقدار السواد وطبقات الأوساخ المتراكمة على جدرانه وأرضه وافتُتح في داخله محلّ للشاورما من نوع ‹كول وودّع›، مازلت أسجّل صوره برأسي حتى نادى أمامي أحد عمّال شركات النقل: دير الزور يا آنسة وبحركة لا إرادية أجبته ‹نعم› وشرعت أسير وراءه إلى أن صرخ آخر: حمص! هزيّت رأسي بالإيجاب و لحقته، ثالث نادى: حماه! فتركت الاثنين وتبعته قبل أن يعيدني الواقع المر إليه، أنا ذاهبة إلى حلب!..

انطلق بنا الباص بسلامٍ من الكراج، سيلٌ من النميمة والأخبار والمشاريع كان يلفّ بمقعدنا فأتذكر أين نحن وأطلب من عامر أن يخفض صوته متلصّصةً على عيون من يجلس بجوارانا مدعياً ا لنوم خلف نظّارة سوداء، وعلى رجل أحنى رأسه ليستند على كرسيّ عامر. الشّك، مرضٌ سوريّ لم تشفني منه إقامة سنة في لندن. من دمشق وحتى حمص كان الطريق كما اعتدته جافًا وأصفر، لكن ما إن بدأت أشجار حمص تطّل علينا حتى رأينا بينها ذاك الخضار الآخر، كان لقائي الأول مع دبابات ‹حماة الديار›صادماً ومؤلماً، ما أقبح الدبابة يا إلهي! هذا أول مافكرت به، إلى أن شاهدت العلم السوري فوقها يرفرف عالياً، أصابتني حالة من ‹البلكمة› تلتها ‹هستيريا›، وهنا تبادلنا أنا وعامر الأدوار وكاد أن يضع يده على فمي ليسكتني بالقوة! كبح صراخي رؤية السيارات تمرّ قربها حتى أنها تغمّز لها وتتجاوزها متآلفة تماماً مع الضيفة القبيحة التي قاسمتها الشوارع السورية.

كان صديقي عامر يراقب يمين الطريق وأنا يساره ونبّه بعضنا عند كل دبابة، سيارة زيل عسكرية، قناصّة، جنود مختبئون بين الأشجار وحتى حاملات دبابات، وإ لى أن وصلنا لمفرق حلب لم نستطع إكمال حديثٍ واحد فكان ينبهني وننظر يميناً ثم أنبهه ونتحول للشمال، فالجيش الباسل قد انتشر بآلياته وعدّته على جانبي الطريق من حمص وحتى مفرق إدلب مروراً بحماه.

بعضهم يقف بشكل واضح على أسطح أبنية حكومية مع سلاحٍ يوجهه لداخل البلدة وأكياسٍ رمليةٍ من جهة الشارع العام، وآخرون يحتّلون سطوح أبنية، جفّ وشحُب الغسيل المنشور على شرفاتها دون أن تلتقطه سيدة المنزل، وتحت القناصة تتابع الحياة حركتها طبيعيةً عند ورشات تصليح السيارات.

عند مشفى الشفاء بخان شيخون كانت تقف ثلاث دبابات يتفيّء بظلها جنود نحال تعبين، فيما يتمشّى حولها آخرون، بعضهم يافعٌ ترى انحناء ته من ثقل البارودة التي يحمل.

على مدخل الرستن وجسرها توزعت أربع دبابات وسيارة زيل محمّلة بالجنود وكذلك عند تلبيسة التي ترك القصف على بعض أبنيتها هُباباً أسود فيما تهدّمت أخرى جزئياً، وهذا فقط على الشارع العام. فكرة وحيدة كانت تلّح عليّ طوال الرحلة..من الآن فصاعداً سأقول لكل فلسطيني يعيش في الأرض المحتله ‹أعرف شعورك تماماً، وبكل صدق.

وبينما زرع منظر العسكر انقباضاتٍ عنيفةً اختلجت صدري، رعباً، رهبةً، قهراً...لا أعرف تحديداً.. مسحت المنازل القديمة والمشققة وواجهات المحال عن عيوني الارتباك وفتحت لي جدرانها لأقرأ في دفتر الحرية شعاراتٍ مبخوخةً بخط اليد، مُحي بعضها وعُدّل آخر لتُسبق كلمة ‹منحبك› المطبوعة بإتقان بالحبر الأسود بحرف ‹ما› بخط يديوي كُتب بالبخاخ الأحمر، ويُشطب اسم الرئيس من مطبوعة ‹الشعب يريد بشار الأسد› ليتحول إلى ‹الشعب يريد إسقاط النظام›.

جسر سراقب الذي كان يشهد عادةً حركة نشطة من البولمانات والسرافيس وخاصة في ذلك الوقت من العام ‹قــبل العيد› كان مسكوناً بالوحدة.

ساعتين مضتا ونحن نلاحق مخطـوطات الحرية ودبابات قامعيها على يمين الشارع ويساره إلى أن وصـلنا لمفرق حلب.

الوادي ‹المقدّس›!

شبكة المحمول التي كانت تضعُف وتقطع استقرت على الإشارة الكاملة، الجنود والدبابات استُبدلوا بصور كبيرة على جانبي الطريق للأسد، ذُيّلت بتوقيع ‹حلب الوفاء›، مع الكثير من الإعلانات لمطاعم وحفلات عيد وحتى برنامج نادي ليلي.

انقطعت الكلمات ودخلت مع عامر في حالة من الخرس لم يقوَ على لفت إنتباهي للصور والعبارات التي يتواضع أمام فصاحتها كتاب القومية، وبينما انشغلت أنا بقياس أيّ من الصور هي الأكبر وصلنا للحاجز العسكري الأول ثم الثاني لنصبح بعدها في حلب ‹الأسد›.

الشوارع مزدحمة بالمتسوّقين ولا مكان لركن السيارة أمام محلات الوجبات السريعة، المقاهي والمطاعم عامرة، لم يتغير علي من ملامح المدينة شيء سوا المبالغة في إظهار ‹الولاء› وتلك الرسمات المطبوعة على الجدران والطرقات وكأن هناك من يكّذبها وهي ترد بالتأكيد ‹منحبك، والله منحبك، واللهِ العظيم منحبك›.

افترقت أنا وعامر لكنه كان يتصل بي كل عشر دقايق ‹زينة خذيني معك لإدلب، هنا قبيح›، كان شعوري مماثلاً ولم تمضِ ساعتين حتى كنت على طريق إدلب، وبينما بدأت رياح إدلب الحرّة تلهب أنفاسي هاجم قلبي أسىً وتعاطفٌ كبير مع الإنسايين الأحرار الباقيين في مدينة ‹الوفاء›، أن تكون حرّاً في حلب هو تعذيب متواصل يمارسه عليك آلاف السجانيين كلٌ بأدواته وزنازينه الخاصة من بائع الخضار على بسطته إلى بولمان الشهباء والبلدية. ما أصعب ماهم فيه!

نقترب من إدلبتي الآن، خرجت حلب من حساباتي لتحّل مكانها سرمين، منذ قرأت أول خبر عن ضربها ودخول الجيش والشبيحة إليها ارتسم بذاكرتي مدخلها الذي شُكّل كقوس كبير كُتب عليه بالحجر الأسود ‹سرمين عرين الأسد› ووُضعت فوقه صورتان كبيرتان لحافظ وبشار الأسد، تساءلت كثيراً ما حلّ به.

ولم يكن مفاجئاً أن تتحول ‹عرين الأسد› إ لى ‹سرمين الحرة›، لكن الحجم المهول من مخطوطات الحرية التي غطّت جدار مدرسة سرمين على طول الشارع العام كانت مذهلة، ‹نموت وتحيا سورية›، ‹عاشت سورية ويسقط بشار الأسد›، ‹سورية بدها حريّة›، ‹ننتصر أو نموت›، ‹مامنحبك..ارحل إنت وحزبك›، ‹الخلود للشهداء›،...

مرّت سرمين واقتربتُ أكثر، هو حاجزٌ وحيد وأعود لشرنقتي الجميلة الثائرة، أوّدع وجهي ونسيم الهواء في شعري وأرتدي ملامحي الجديدة، حجابٌ مشدود حتى جبيني، عباءةٌ، ونظّارةٌ شمسيةٌ صباحاً تتحول لخمارٍ في الليل.

المحبّون خائفون من ذاك اللئيم الذي يعرف أبناء المدينة ويتصيّدهم على الحاجز، لم يكن موجوداً، هي‹ إدلبتي› تريدني فيها إذاً، مريّت بسلامٍ دون أن يتفحّصوا هويتي وها أنا في إدلب!..ساحة ‹المحراب›، سوق الخضار، عند الساعة، أغمض عيوني وأفتحها مراراً لأصدّق ولا أصدّق.

إدلبتي خلعت عنها عباءة ا لبعث والطلائع والشبيبة وسُمعة ‹الشرطة، الغامقة المهترئة وارتدت فستاناً أخضراً نضِراً زيّنته بعقدٍ من ستة أحجار كريمة من العقيق البّني.

الشهداء يرحبّون بك، يسيرون قربك في السوق و يسترقون النظر إليك من جدار مديرية السياحة، ترفرف أرواحهم في ا لضبيط والحارة الشمالية، بأسمائهم زُيّنت الساحات والدّوارات والشوارع، فمدرسة ‹البعث› تحولت لـ‹الحرية›، ومدرسة محمد زكريا بيطار أصبحت مدرسة الشهيد محمد السيد عيسى، وأصبح لدينا دوّارات الشهداء محمد غريب وحسان عوض وابراهيم شحود.

لا صور للأسد باستثناء المديريات والسجن ومنطقة القصور حيث بناء المحافظة وفرع الأمن وبيت المحافظ، هناك قرب ما بقي من تمثال حافظ الأسد الذي حطّمه مشيعو الشهيد لتلُّم أجراءه البلدية في اليوم الثاني كأي أحجار عثرة من الطريق.

في ساحة السبع بحرات وعلى مرأىً من ابراهيم هنانو صورتان كبيرتان للأسد تتوسط إحداهما عَلما البعث وسورية على مسرح لأفراح ‹خلصت›، وقد كُتب تحتها ‹سورية الله حاميها والأسد راعيها›، والطلاء الأحمر يسيل من وجهه المبتسم بينما تركت زيتونة على رقبته بقعةً من خضارها القاني.

خضراء‹ إدلبتي› أكثر من أي وقت مضى، يليق بها ثوب الحريّة الذي سأمسك بطرفه كطفلة تائهة مساءً وألاحق الأبطال في مظاهرتهم اليومية بعد صلاة التراويح. وسأسجل على حَور ذاكرتي: السادس والعشرون من آب: أول مظاهرة في‹ إدلبتي› وأول مظاهرة يقود صوتي هتافاتُها، مدينتي الصغيرة تخصص لي مقعداً مميّزاً فيها كالعادة.

كاتبة من سوريا

لقاء بأصغر مطلوبة أمنيا... وصبية رشيقة تقود مظاهرة: مشاهدات من دمشق خلال جمعة ‹الموت ولا المذلة›

يرّن هاتفها ‹ألو، أستطيع أن أؤمن لك سبعين نسخةً من الكتاب، ورقه نوعيةٌ جيدة وتستطيع قراءته بأسبوعين، تُنهي المكالمة وتلتفت إلي مترجمةً ‹يحتاجون إلى مساعدات لأهالي المعتقلين والشهداء في برزة والقابون وعندي سبعين كرتونة من مواد غذائية تكفي كلاً منها عائلة لأسبوعين›.

هاتفٌ آخر ‹لازم نعمل العملية للولد سريعاً يا أبو نبيل، لعمليته الأولوية بعدها نتدّبر أدوية أمك›، تغلق وتشرح مرةً ثانية ‹هو متظاهر من الصفوف الأولى كان مصاباً واقتحم الشبيحة منزله ليحولوا عظامه إلى هشيم، جمعنا تكاليف عمليته ونحاول إدخاله إلى المشفى بحجة أن تعرض لحادث سيارة لئلا يعتقلوه منها، أما أدوية أم نبيل فهي طلبية أكياس دم ومواد طبية علينا تأمينها لدوما›.

هاتفٌ تلوَ الآخر وهي تلعن الظُلاّم الذين حولوا علاج الجرحى وتهريب الطعام لأهلها المُحاصرين إلى تهمة، صديقتي التي تُلقّب نفسها بـ‹أم جوزف، سأصلّي دائماً لذلك الصليب المتدلّي من راديوا سيارتك، وللإنسانية التي تخفق في مُحيّاك.

تعيش أم جوزف في كوكب أسميته ‹الحياة›، يعلو فيه صخب الحرية وأنصارها، لا يهدأ.. يزرعه المتظاهرون والنشطاء والأطباء الإنسانيون وجامعو المساعدات لعائلات الشهداء والمعتقلين كل يوماً حبّاً وغداً أجمل.

يدور كوكب أصدقائي ذاك في فُلك دمشق مع كوكب ‹المنحوتات›، الذي تتحرك به أجسادٌ جبصينيةٌ بلا روح تضحك وتسهر وتحتفل وتملأ صالونات التجميل والنوادي الليلية فيما تضجّ مقابر دمشق وغوطتها بالشهداء.

نظامٌ معقدٌ يُسّير هذه الكواكب المختلفة بدمشق مع كوكب المتألمين الصامتين وكوكب الشبيحة الذي زرته في جمعة ‹الموت ولا المذلة› بحي الميدان بدمشق.

مئاتٌ من الشبيحة بلباس خاكيّ وبعضهم مدّني يحملون هراواتٍ وعصي خضراء- ربما هي كهربائية- مع سكاكين، كانوا ينتظرون تحت جسر المتحلق الجنوبي وخلف جامع الحسن في حديقة صغيرة احتلّوها بالكامل، تأخر الشيخ كريّم راجح في خطبته فضجّت النساء تلفّ الشرفات جيئةً وذهاباً باحثات عن أسباب تأخرهم عن الموعد.

سيدة في الخمسينات من عمرها كانت تنتظرهم على باب الجامع ومعها لافتةٌ كَتبت عليها ‹مبروك لثوّار ليبيا من أحرار سورية›، وما إن خرج المصلون حتى انساب صوتها بين أصواتهم الخشنة التي تعالت بالتكبير قبل أن تتحول لهتاف ‹الشعب يريد إعدام الرئيس›، و‹السوري يرفع إيدو، بشار ما منريدو›.

الشبيحة خرجوا من مخابئهم ليشكّلوا جدراناً عازلةً على الشوارع الرئيسة يمنعون بها التقاء مظاهرات الجوامع مع بعضها، كالمجانين يركضون بكل الاتجاهات ويصرخون كلاماً بذئياً لم أفهم معظمه.

المظاهرة تنقسم لمظاهرات عدة لتشتيتهم وما زالت الهتافات تخفق بسماء الميدان، هاهي القنابل المسيلة للدموع تُطلق هنا وهناك وبلمح البصر يختفي المتظاهرون، ثلاث صبايا بخمارٍ أبيض كنّ يهتفن مع إحدى المظاهرات الفرعية ثم دخلن ببناء ما إن هجم الشبيحة.

بصلٌ وزجاجات كازوز وزجاجات ماء تُرمى من الشرفات على الشبيحة لتعيق حركتهم وليستخدمها المتظاهرون لإزالة آثار الغازات الحارقة للعيون، من خلف الغمامات البيض ذات الرائحة اللاذعة تراءى لي شاب وسيم يرتدي كنزةً بنفسجية، وقف وحيداً على طرف حديقة تجمع الشبيحة وصرخ بصوت عشرة رجال

شهادات ويوميات

‹حريّة للأبد غصباً عنك يا أسد› ليُقاسم أصدقاءه قسماً من الشبيحة.
ورغم أن تلك الجمعة كانت ‹من أقل الأيام عنفاً في الميدان، فلم يستشهد فيها أحد، وإنما اعتقل - من أمام جامع الحسن وحده - حوالي خمسين شخصاً ككل يوم جمعة!› إلا أن ذالك القرب الجسدي من الشبيحة أنهك روحي، أجل أعرف أنهم أشخاص من لحم ودم لكنني تفاجأت بذلك!، وبكمّ الحقد واللؤم الذي يضربون به أناساً لا يعرفون منهم سوى صوت حرّ يهتف لسورية أجمل دون عصيّهم وهراواتهم.
ولو خُيّرت بين الرصاص الذي أُطلق علينا في دوما والهروات التي انهالت في الميدان لاخترت الرصاص، لأستشهد بعيداً عن الوحوش.
‹دوما وقصاع.. واحد›
بين دوما والرصاص علاقة عمرها ستة أشهر، إلا أن الرصاص ‹العادي وغير المخيف› - كما تصّر أم عبادة وهي تبتسم - كان سطراً رميته في ذاكرتي القصيرة وسيُمحى أمام تلك الملاحم التي ستخلّد عن تلك الرحلة في مدينة الحرية. دوما التي لم يخطر ببالي زيارتها خلال السنوات السبعة التي عشت فيها بدمشق، رقصّت في أذني لحناً لا يقاوَم إغواءه عندما أخبرتني صديقتي أم جوزف أننا سنزورهم مساءً.
قبل الموعد حضر الجميع، ستة صبايا وتسعة شبّان بينهم شاب دوماني رافقنا طوال الرحلة ليتفقّد الطرق ويختار أقلّها حواجز.
وصلنا دوما، وأنا أحاول البحث عن الخوف فيّ، لأفاجأ بفراغه الواسع، لا ذرة من الخوف في قلبي، لا لشجاعتي وإنما لثقتي بأنني محمية بين أهلي في تلك المدينة التي لم أزُرها بحياتي ولا أعرف أحداً فيها.
قادنا صديقنا الدوماني إلى طريق مختصر أخرجنا فيه بوسط المظاهرة عند الخط الفاصل بين النسائية والرجاليّة، وقفت أو ربما مشيت أو ركضت لا أعرف، ما أعرفه أن قلبي كان يرقص على وقع طبل تعزف عليه صبيةٌ رشيقة تقود المظاهرة.
في دوما الحرية كان موعدي الثالث مع البكاء، سيدات بخمار سحبتنا للمشاركة بعد أن وزّعت علينا أعلاماً سورية نحملها وأخرى نتخّمر بها من الكاميرات والعواينية، وهانحن وسط المظاهرة، استغرق استيعابي لما يجري عدّة هتافات، ولأنني لم أكن أتابعهم هتفت وحدي ‹الشعب يريد إسقاط النظام›! وإذ بإحداهن تضربني برفق على كتفي مؤنّبة ‹نظام مين يا حبيبتي! نحنا عنا عصابة› استسمحتها بهتاف واحد أطفئ فيه حرقتي التي تجاوز عمرها الخمسة شهور، كنت فيها ميّتةً أمام شاشة كمبيوتر حجريّة يبثون فيها الحياة بكل مظاهرة، فسامحتني.
صبيّة كانت تنظّم حركة المظاهرة بالتنسيق مع عدد من الرجال الذين طوّقونا خوفاً من ‹غدر الأمن› وأخرى جرّتنا نحن الستة لنتصّدر المسير بعد أن وزّعت علينا شموعاً، لم أكد ألحظ انطفاء شمعتي حتى تشعلها إحداهن، تلتقي عيوننا، نبتسم ثم نعود للهتاف.
وفي غمرة انهماكي بالهتاف أول المظاهرة أمسكت إحداهن بيدي وأوعزت لي لأقرأ ترحيبهم بنا، التفتت إلى السيدات السائرات خلفنا وإذ بلافتةٍ كبيرة كتبن عليها ‹تنسيقية نساء دوما الحرّة ترحب بأحرار القصّاع› وانطلق الهتاف ‹يا قصّاع دوما معاكي للموت› و ‹واحد واحد واحد...قصّاع ودوما واحد› بينما كانت صديقاتي -اللواتي اكتشفت لاحقاً أنهنّ من القصّاع فعلاً - يندبن القصّاع التي اتخذها النظام مقراً لحفلات الرقص على دماء الشهداء.
أخبروني بأننا تظاهرنا لأربعين دقيقة، مشينا في الشارع الرئيسي، الشرفات والأرصفة تضجّ بالمتفرجين،

تفيض عيون بعضهم بالحب والتقدير فيما يعتري البرود أخرى.
قطع هتافنا صوت الرصاص الذي ترافق مع انقطاعٍ كاملٍ للكهرباء عن المدينة، الرجال يركضون نحونا وفي لحظاتٍ تحولنا لنواة تحيط بها مدارات جسدية كثيرة، صرخوا ‹تفرقن الآن وخبّئن الأعلام السورية›، تهمس في أذني صبية تشعّ فطنةً ‹أجل العلم السوري تهمة، مالم تكن صورة الأفندي عليه› بقينا واقفات ونحن نهتف ‹مو خايفين..الله معنا› غضب الرجال ثم تمالكوا نفسهم وترجونا أن نفترق لأن الأمن وصل لمفرق الشارع، وبينما كانت السيدات تتنافسن لاستضافتنا جَمعنا أبو أحمد في سيارته وانطلق بنا لمنزله.
قدّمت لنا بنات أم أحمد الرقيقات الماء والعصير بابتسامهّن المفعمة بالحياة وعرفتني إحداهن بنفسها قائلةً ‹أنا أصغر مطلوبة للأمن في دوما›، ‹والنعم والله› قالت أم أحمد ضاحكة ثم أضافت بجديّة ‹إذا داهم الشبيحة البيت لا تقلقن.. لن يقتربوا من غرفة النساء، وعندما شاهدت علامات الدهشة علينا تابعت ‹هذا البيت مُحطّم ومُداهم أربع مرات، عادي، لا تقلقن›.
كنت كطفلة مستجدّة بالصف اسجل كل مايجري حولي، على يساري جلست صبيةٌ جميلة كانت تخبر أم عبادة عن مشاركتها في مظاهرة القيمرية ‹تخيلي قالوا عني سلفية عرعورية وأنا مسيحية ومن القصّاع كمان›، تسبّهم أم عبادة وتدعو عليهم قبل أن تقاطعها الجميلة ‹يا ستي أنا مسيحية وأريد الحرية وسنسقط النظام›.
في تلك اللحظة انفّك ارتباط مقولة ‹سورية بخير› عنه وانتقل إليهم، فأضحت اللافتات الكثيرة التي تحملها تثير فيّ ذكراهم وابتسامة بدلا من الغضب من تلك الكذبة الباهتة.
لن تكفِ هذي الصفحات لأرسم دفء تلك الليلة ونقاء جلستنا النسائية الثورية على أضواء الشموع بذاك الحر الخانق الذي استحال برداً وسلاماً على جميلات القصّاع ودوما و بينهما أنا ‹بالخطأ› الأكثر صحّةً في حياتي.
أما مكاني أنا فإدلبتي التي سأسافر إليها غداً متخفيةً بخمارٍ لم ألبسه بحياتي، غطى معظم ملامحي وترك عيوني التي سترتشف إدلبتي الجديد، شارعاً شارعاً، وحريّةً حريّة.

15-09-2011

كاتبة من سوريا

عامي وفصيح: تحيا سوريا يا رفيق!

سامر طحان

من أكثر القضايا التي تثير استغرابي "كمواطن سوري رث" هو التأييد العمائي الذي يتمتع به حزب البعث لدى بقية الأحزاب، وأقصد هنا التيارين البارزين: القوميين السوريين الاجتماعيين، والشيوعيين بمختلف انقساماتهم .. يعني شي ما صار لسه بتاريخ السياسة لا القديمة ولا الحديثة.

ع قولة المتل أنو "المصارين بالمعدة بتتخانق"، لذلك لما بيستلم حزبين حكومة ائتلاف بيضلو يشتغلو ضد بعض.

بدي أفهم شغلة أنو هالشبيبة العمالية المؤمنة بالتغيير والنضال الثوري، ويلي بتسب ع المجتمع الخانع، ع الطالعة والنازلة ، و بتتحدى العرف المجتمعي البالي، شو عم تعمل هلأ؟ وينها .. عم تعق كحول بمطعم "الندوة" مثلاً؟ Hang overمن سهرة مبارح؟

ولك نخر ربنا الحزب الشيوعي السوري من الستينات لليوم بأنو القائد الحقيقي للتغيير الاجتماعي، وأنو البعث حزب طارئ، وأنو الشيوعي هو الأساس.. لك لعمى بعيونكن لك طرأنا حزب البعث بالحيط ، وأنتو كلشي عملتو أنكن عم تسندولو الحيط مع بقية الأحزاب ..

هلأ أنا شخصياً ما بزعل ع "رجالات": لاحظوا "جمع المؤنث السالم لكلمة رجال"،.....

كنت عم قول ما بزعل ع رجالات الحزب الشيوعي من الجيل القديم، قدري جميل، ولا بكداش ولا الفيصل .. لأنو هدول خلص راحت عليهن، يعني استنفذوا كل وسائل الخنوع تبعن، بس بزعل ع هالشباب يلي صاروا بينزلوا طوعاً وتبرعاً لمسيرات تأييد للرئيس..

كان معنا بالزمانات بالكلية صبية ..شيوعية.. ومو أي شيوعية .. يعني عندها استعداد تاكل الأخضر واليابس كرمال تقول رأيها، وبسبب جرأتها الاستثنائية .. رسبت بشي ست مواد ..وع طول جاية ع هالكلية وحاطة هالسلك الفلسطيني، وعم تتخانق مع الشباب والصبايا عن حرية الرأي والتعبير، وضرورة أخذ المبادرة من الأجيال السابقة .. وحقوق المرأة والنضال السلمي ... ووو المهم بلا طول سيرة .. فتشنا عليها اليوم لقيتها كاتبة بما معناه ع الوول تبعها: "اليوم لازم نتمتع بأقصى درجات ضبط النفس، ونكون مستعدين لمرحلة إصلاحية قادمة مع القيادة الحكيمة"، لعمى ..يعني طلع كل اليسار فافوش؟ .. لاء أكيد .. لأنو في من اليساريين شباب وصبايا عم ينزلو ع المظاهرات .. وفي منن عم يعتقلوا .. بس وقت التحقيق بيسألن المحقق:

. أنت شيوعي ولا ؟

. يجيب المعتقل البطل بنزاهة: نعم أنا شيوعي ... بس عم بتظاهر بصفة شخصية ..

حلو صارت المظاهرات وزر ما بدو يحملها العضو للحزب.. "بالمناسبة هي أحد التعليمات الداخلية عند الشيوعيين حالياً" .

والأعتى من الشيوعيين .. القوميين السوريين الاجتماعيين .. يلي هنن رب الانفتاح .. ويلي هنن رب التغيير ..

ويلي هنن رب الإخلاص لسورية .. ويلي هنن بالمقابل رب العداوة التاريخية مع البعث ..

يا سيداتي يا سادتي .. بأم عيني من كم شهر .. كان في شب زميل دراسة كمان .. نازل ضرب وخبط مع الأمن ع هالمتظاهرين الأكارم .. والأخ لما كان بالجامعة ترشح لنيل مقعد ثابت بصفة (عضو) في اتحاد الطلبة لأنو من الحزب القومي السوري الاجتماعي.. يعني صار شبيح الزلمة ..

بس طبعاً مو كل القوميين هيك ، لاء في منن نوعية أخرى.. يعني القومي السوري العلوي .. رجع علوي، والسني رجع سني، والدرزي رجع درزي .. وبس تخلص الثورة "يا حبيب" منبقى منرجع لمواقعنا كقوميين سوريين علمانيين نؤيد الزواج بين الطوائف .. .. بس هلأ في ضرورات المرحلة هي يلي بتتحكم بما يحدث ..

وفي قوميين سوريين يلي هنن" والله ماطالع بأيدن شي"، وما مقتنعين بكل شي عم يصير .. لأنو بدن شخصية قيادية تشبه سعادة .. يلي هو شرط تعجيزي تماماً..

حلو كتير ..

هلأ بين حزبي مو مقتنع بموقف حزبه .. وحزبي واقف ع الحياد .. وحزبي عندو استعداد يصير شبيح .. بيطلعو البعثيين عم يغردوا بتأييد أحزاب الجبهة للنظام الحاكم، وتأييد كافة مكونات الشعب السورية لعملية الإصلاح.. وهالأمن نازل بسموات السوريين .. قتلاً .. اعتقالاً .. تعذيباً ..

وحلها إذا بتحلها ..

ببساطة بتنحل وقت بقرروا شباب الشيوعي من مختلف أطيافه ، أنو يبعتو قياداتن العتيدة ع البيت إجازة كم شهر.. ووقت بيقرروا شباب القومي السوري ينتموا لبلدهم أكتر من انتمائهن للحزب يلي ما عاد بيعرف من سورية إلا أسمها..

وحتى ذلك الوقت .. صامدون إلى أن "يقضي الله أمراً كان مفعولاً" ..

وطوبى "لليتامى" لأنهم يرثون الأرض ..

بصحتكن ..

وتحيا سوريا يا رفيق

والشعب يريد إسقاط النظام.

كاتب من سوريا

دمشق.. شريطة خضراء تبارك يومي

سعاد قطناني

بين الشك واليقين أستذكر قطرة ماء شربتها يوماً من صنبور صغير قرب الجامع الأموي... كانت المياه باردة عذبة في ذلك اليوم الصيفي حار...فلكأس الماء ذاك سحر يأخذك إلى ذات المكان مرارا وتكرارا....وأنا أعترف أني لم اشرب قطرة ماء فقط، فقد شربت حتى ارتويت من كل صنبور في حي صغير أو كبير في دمشق، وقرأت الفاتحة على أرواح كل الشيوخ والأبرار ... بل وأكلت من تين دمشق وزيتونها...شبعت من خبزها وملحها، شربت من ماء وردها.... كبرت في أفيائها...لعبت في حاراتها، ومشيت في أحيائها...

دمشق... حقك علينا... سامحينا ...

فأنت كل ما أنت، أنت الكبيرة الشامخة القوية الراسخة، أنت الحانية، الحنونة، الصامتة، الصارخة، أنت الوطن حين غابت الاوطان، أنت البيت الدافئ، الأهل والأخوة، الأحبة والأصدقاء والجيران...

أنت الشقاء والبقاء، أنت زحمة الشوارع الضيقة ليلة العيد، أنت صباحات فيروز التي لم تغب وهي تغني: ‹وطني يا جبل الغيم الأزرق›.... وفي الليل أنت العروس التي أبت إلا أن تتزين بأنوار قاسيون الشامخة... أنت أحلامنا في الدروب والطرقات الصغيرة... أنت رائحة البرتقال على عربات الباعة... وطعم التفاح في أوائل الشتاء...أنت زهرة النارنج تتلصص على البهاء والنور من خلف الجدران... أنت فتنة الياسمين وحزن الخزامى في الشوارع... أنت صياح الأولاد في الزقاق والحارات.... أنت دفء البيوت ورائحة الغسيل والمازوت والعدس.... أنت فضول الجيران... أنت مقاعد الدراسة ولهو الشباب... أنت الزمن الضائع من كل الأزمنة حين يطارد شابٌ صبيةً وكتاباً...

لا وقت للوقت هنا في دمشق...فالجميع يلهث لينهي نهارا طويلا لا ينتهي.... لا وقت للوقت هنا في دمشق، فالساعات تنتظر عاشقة على باب حارة دمشقية بلا حساب.... لا وقت للتفكير في الآتي، فبيت المونة يكفي لسبع وسبع وسبع سنين عجاف.... في دمشق يمتد الوطن من موقف الباص إلى البيت في رحلة تأخذك إلى الشوارع المقفرة إن عدت متأخراً ولا شيء يؤنس الليل سوى صوت حذائك ونباح كلب شارد أو قطة أفزعها اقترابك من حاوية القمامة....

بين الشك واليقين أحاول أن أستعيد الوجوه الواجمة والخائفة ذات نهار، يوم مات الرئيس حافظ الأسد، أحاول أن أستعيد صوت ذلك البائع الذي نهر زوجته حين أخبرته على الهاتف ‹الرئيس مات›، تناهى صوتها إلى مسمعي، صاح البائع على الهاتف وقد امتقع وجهه : ‹اخرسي، لا تخبصي وليه›. أغلق الهاتف على عجل، نظر في وجهي وحاول أن يعتذر عن شيء لم يفعله، حاول أن يهرب من عيوني الواجفة، وتمنى أن تبتلعه الأرض قبل أن أكون قد سمعت ما قيل على الهاتف من مكان ما في دمشق... تابعت سيري يومها في الشوارع المقفرة... وكأن حظراً للتجوال قد فرض في المدينة... لم يكن في ذلك الشارع سواي وبعض المارة ممن سمعوا بالخبر وهم في الطريق إلى منازلهم... كانت الوجوه كلها واجمة ... تائهة... خائفة.. كان الناس يبدون وكأنهم يمشون وهم نيام في مدينة الضياع حين مات ‹الأخ الأكبر›...

الخوف ذئب جائع لا جوف له يبتلع كل الأمنيات والأحلام في دمشق... خوف يذكرني برواية جورج أورويل 1984 حين يصل بطل الرواية إلى اليقين الذي لا يراوده شك بأن الأخ الأكبر هو أفضل ما يمكن أن يكون لخير تلك البلاد، وحين يدرك البطل تلك الحقيقة بكافة جوارحه يمشي إلى حتفه راضياً، غاضباً لأنه تجرأ يوماً وفكر بأنه يمكن أن لا يحب الأخ الأكبر... ومن يجرؤ على أن لا يحب الأخ الأكبر ففي دمشق غدا شعار ‹منحبك› تجاوزاً لكل خيالات أورويل.

أفيقي يا دمشق ... أفيقي! ولتكسري أسوار خوفك يا دمشق ولتفتحي قلبك... كفى يا دمشق ... تعانقين سجانك في الصباح ... تضعين أحمر شفاه وترقصين رقصة الدراويش حباً في سجانك... تصطبغين بكل الألوان وتمعنين في لهوك وغيك ... وما ان يحل المساء حتى تلبسي ثوبك الأسود الطويل وتجهشين بكاءً على أبنائك وبناتك على حائط قديم في حي ‹الميدان›.... كفى يا دمشق فهذا الرقص يجرحني ويوجعني... خذيني إلى كفيك وضميني في مساءاتي الحزينة وصباحاتي الجديدة...خذيني ثانية إليك يا دمشق ... أبحث عن عينيك في كل المدن فلا أرى إلا ظلاً من ظلالك، أما أنت فلا أجدك... ابحث عن روحي التائهة على عتبات مقامات أوليائك الصالحين... أبحث عن شريطة خضراء تبارك يومي وتحفظ أولادي... أبحث عن جيراني فلا أجدهم ... أتلقط أخبارهم من هنا وهناك... هل ما زالوا أحياء؟! .. هل ما زالوا هناك في حينا القديم؟!... هل سأرى جارنا ذات يوم مسجىً على الأرض ككل الشهداء!!! أم سأراه مزيناً كمهرج في حفلة تنكرية يرقص ويهتف ‹منحبك›!

أريد أن أعود قليلاً للوراء وأعيد ترتيب أيامي معك يا دمشق لأحبك أكثر... سأخفي ملامح الجلاد من مدرستي وصفي و كراستي... سأنسى أني هتفت باسمه رغماً عني كل صباح... سأرمي من ذاكرتي صور المخبرين والجواسيس في الصف والشارع والجامعة وعند بائع الملابس وفي موقف الباص والسينما وعلى مقعد تائه في حديقة.... سأنسى تلذذ ذلك المخبر بقراءة إسمي على الملأ مراراً حين جرح كبريائي في حافلة البلدة البعيدة... سأنسى ذل طفلة واقفة في الطوابير الطويلة لتأخذ ‹ربطة خبز› لعائلة بحجم الكون.... سأنسى كل ذلك يا دمشق وأبقى وفية لقطرة ماء سقيتيني إياها عندما كنت عطشى ذات يوم.....

ولكن أفيقي !!

15-01-2012

كاتبة من الأردن

فتاة وامرأة

سمر يزبك

زينب التي قُتلت مرتين

ليس يوما عاديا، كان يردد كعادته، بصوت مسموع. ليس يوما عادياً. يتجاوز الشارع، ويقف أمام الحاجز الرملي. صار يحفظ شكل الجنود، يقول لهم: صباح الخير، وهو خارج. عندما يعود، يحييهم بابتسامة وايماءة خفرة: مساء الخير. رغم أنهم كانوا يتبدلون، لكنه كان قادراً على حفظ وجوههم التي يراقبها من نافذته.

الزحام خانق، ومفترق الطرق الذي يؤدي إلى دوما والدويلعة وباب شرقي يعج بالناس والحافلات. يقطع الشارع. يشعر بخفقان نابض، لقد رأي بعينيه برك المياه والبحرات التي تتوسط العاصمة، كيف تحولت إلى اللون الأحمر، كان منظراً يبعث على الاستغراب، ولكنه مخيف. تخيل فجأة أنه يشرب الدماء، عدة ساحات عبرها ليتأكد، نعم المياه حمراء! لابد أن أحداً ما قام بتلوينها، لم يقرأ على النت شيئاً بهذه الخصوص، كيف لا، وهو المتابع بدقة لما يحدث، تفوته أشياء؟ ثم أنه غير موجود! يفتح باب غرفته، مخفيا رأسه في الأرض، نعم إنه غير موجود، لا أحد يعرف عنه شيئاً، ولا أحد يهتم بما يفكر وبما يقوله، وجوده افتراضي مثل كل حياته المجهولة

الأصل. أقفل باب الغرفة، طق المفتاح طقتين كالعادة، ثم رمى نفسه على فراشه الإسفنجي، وقبل أن يفعل أي شي فتح جهاز الكمبيوتر، سيبحث عن هذا الخبر في صفحات الفيسبوك.

يستخدم اسماً مستعاراً، هو صديق لكثيرين، يدخل صفحاتهم، يقرأ ويحول ما يقرأه إلى قصاصات، يقارن بين هذه القصاصات وبين معلومات من 'غوغل'. يدخل إلى عدة صفحات متضاربة، صفحات النظام وصفحات الثوار، يسمع نشرات الأخبار على التلفزيون وفي الإذاعات، شغله الشاغل.

اليوم يفكر أن اللون الأحمر في ساحات العاصمة يجعله يشعر أن دماءً تغرغر في حلقه، يقرأ ما كُتب عن الموضوع، يقول لنفسه: هذا ما خمنته. شباب الثورة يلونون مياه البحرات بالأحمر لأنهم لا يستطيعون التجمع في الساحات، يتظاهرون كالأسماك، يا للشباب الشياطين! ثم أضاف: والأبطال. عندما يسمع كلمة أبطال، يتلفت حوله، لقد قالها بصوت عال ومرح. المريح في الأمر أن أحداً لم يسمعه.

يدقق في صور حكايته الثانية، في العينين، الوجه، شكل الحجاب، ثم يطيل النظر في المقابلة التي بثها التلفزيون الرسمي عن الفتاة، وينظر في الصور التي ظهرت على النت، الفتاة وأخاها الذي قتل أيضا في السجن. يقول: مثل كل الصور التي قد نجدها لدى كل عوائل الأطفال، كانت ستمر دون ذكر لولا المأساة.

يدقق في صور لها ولأخوتها، صورتها في العاشرة، ملامح عادية، وجه كأي وجه، حوّله الموت إلى أيقونة. ينظر حوله، يبحث عن شيء ما، هو لا يحتفظ بصورة له، أو لأي فرد من عائلته، ولكن أي عائلة؟ يدقق في وجه الأم التي ستدور عنها الحكاية، أيضا لا صور لأمه. يتوقف طويلاً عند عيني بطلة الحكاية المغمضتين

في أحد مقاطع الـ'يوتيوب'. ينظر في الجدار المقابل له، حيث رفوف طويلة من الكتب. هو لا يعرف وجه أمه كيف كان، ولا يستطيع مقارنته بأم الفتاة. يهز رأسه كمن ينفض البلل. يقوم لينزع صورة الرئيس. كان ثمة ظل يتراقص بين الصورة والضوء الأصفر الشاحب. يتذكر أنه بحاجة لفنجان قهوة وسيجارة، هكذا يفعل الأدباء العظماء، يدخنون السجائر أثناء الكتابة، ويشربون القهوة بلا سكر. ركوة كبيرة من

القهوة أعدها ووضعها جانبه مع منفضة وعلبة سجائر. الآن كل شيء جاهز ليبدأ، لكن بقي أمر واحد. قام من مكانه للمرة العاشرة، وأزاح الستارة فاختفي الظل بين الصورة والضوء. نظر إلى الشارع، كل شيء طبيعي.

أعاد الستارة، وبقي لدقائق يسوي أطرافها حتى تغطي كامل النافذة. ربما استرق النظر إليه أحد المارة، فقرأ ما يكتبه على شاشة الكمبيوتر. لا بأس سيبدأ.

أي موت يمكن إبداعه في صلصال مقطع، لا فرق الآن بين لحم بشري وصلصال خارج من فرن أعد خصيصا لمشهد ضوئي لامع. ليست الفكرة هنا، الفكرة كيف يمكن ليدي الأم احتواء هذه الكتل اللحمية الملفوفة أمامها، والتي كانت فيما مضى تسمى زينب. ستعرف لاحقاً أن تلك الأجزاء التي مرت بأصابعها الواهية عليها ربما لم تكن لابنتها. لكنها الآن وفي هذه اللحظة، تجلس مغمضة العينين، تطبقهما بشدة. يتوقف عن الكتابة، أصابعه ترتجف، كان يحاول معرفة لون عيني الأم، وهو يغبط نفسه لأنه استطاع الحصول على صورتها. الحكاية الأولى عن مدينة حماة كانت بلا صور، ولم يستطع أن يشعر بسعادة الإنجاز، استعاد فرحه عندما قام بطباعة صورة أم زينب، وعلقها فوق جهاز الكمبيوتر، صورة عادية لامرأة مغمضة العينين لن تلفت انتباه أحد، لن يعلق صور الأبناء، صور الأمهات فقط ستمنحه ما يريد، ينقل ما كتبه من القصاصة الصغيرة إلى الملف: (بتاريخ 27-7-2011- قامت مجموعة من

عناصر الأمن والشبيحة في حمص باختطاف الشابة زينب الحصني من مواليد 1992 من حي كرم الزيتون لكي يقوم أخوها بتسليم نفسه. وعن طريق المصادفة وعندما كان أهل الشهيد محمد الحصني يقومون بمعاملة تخريجة من المشفى العسكري بحمص ذكر لهم أحد العاملين في المشفى أنه توجد شابة في ثلاجة المشفى من آل الحصني وعندما شاع الخبر في العائلة سارع أهل الفتاة المفقودة إلى المشفى العسكري بتاريخ 15-9-2011 للتأكد والتعرف على جثة ابنتهم فوجدوا الفاجعة الكبرى.. زينب ملقاة في الثلاجة مشوهة الوجه ومقطوعة اليدين، قد أحضرت إلى

المشفى العسكري بهذه الحالة من قبل عناصر تابعة لأحد فروع الأمن بحمص. لم تقبل إدارة المشفى تسليم الجثة للأهل حتى اليوم السبت بتاريخ 17-9-2011، حيث تم تشييعها من جامع عبد الرحمن بن عوف في حي باب السباع إلى مثواها الأخير، مقبرة الشهداء في باب السباع).

يتوقف عند هذا الخبر من مدينة حمص، المدينة التي تُقصف الآن، الآن في هذه اللحظة. يفكر أن الحديث عن موت هذه الفتاة ليس سهلاً، فقد قامت من قبرها من جديد! وظهرت على التلفزيون الحكومي لتقول بأنها ليست القتيلة. فكر أن حكاية زينب تصلح لرواية، وليس فقط أن تكون جزءاً من رواية؛ إن كانت زينب لم تقتل، وهي في أحد فروع المخابرات، فمن التي قتلت؟ رواية بوليسية تصلح لأسئلة فلسفية، نعم هذا سيكون رائعاً، أن يكتب رواية بوليسية. سيكون له فضل السبق، الروايات البوليسية تحتاج المنطق والعقل والتحليل، لذلك لا توجد رواية عربية بوليسية! يقول لنفسه، وهو يفكر بالحالة التي كتب عنها أمبرتو إيكو روايته الشهيرة 'اسم الوردة'، عندما جعل من أسئلة أرسطو عن المنطق مدخلا لرواية بوليسية شديدة التعقيد والحساسية. ولكن رواية زينب وقتلها أقل بساطة من ذلك. زينب لم تُقتل، والجثة المشوهة المقطعة الأوصال

المحروقة، التي لامستها أصابع الأم، هي لفتاة أخرى!

"طيب!" قال كلمة طيب وهو يقوم عن كرسيه، ثم أضاف بصوت عال: لم لا أبحث عن أسماء فتيات مفقودات، ربما تكون واحدة منهن؟ ولكن لم هذا التشتت أيها الغبي؟ موضوعك هو الأم، وليس الفتاة.

الأم.. الأم.. الأم، نعم، أنت في رواية ولست في مسرحية؟ أنت تكتب عن قصة حقيقية وقعت في مدينة قريبة منك، لست بحاجة للإنشاء، بل أنت بحاجة فقط لتكتب عن أم زينب التي وصلت ابنتها إليها مقطعة الأوصال، ومن ثم ظهرت بعد ذلك على التلفزيون حية ترزق. هل تستطيع توثيق ذلك الألم؟ هل أنت قادر على التقاط اللحظة؟ ولكن أم زينب ليست بطلة هذه الحكاية!

الأم الأخرى، الأم الثانية، الأم التي ماتت ابنتها وقطعت أوصالها، ماذا عنها؟ هي

البطلة المفترضة للمأساة، ولكن كيف تكتب عن أم غير موجودة، وعن جثة مشوهة مقطعة الأوصال محروقة؟ هذا يشبه السرد البطل والسرد الكومبارس في ليالي ألف ليلة وليلة، بين دنيا زاد الصامتة وشهرزاد الراوية.

ولكن ما بالك لا تعرف كيف تكتب هذا اليوم؟ هل هو منظر الساحات؟ هل يكون اللون الأحمر الذي صبغ بحرات دمشق أثر على سعة خيالك؟

اجلس واكتبْ. يأمر نفسه وما يزال يتحدث بصوت عال، ويعود إلى كرسيه، وينظر

في وجه أم زينب. "الأصابع المرتجفة لا تقترب من بقايا الجسد المطحون بالنار، تنظر ببلاهة، شبه ذاهلة عن تفاصيل ابنتها، شبه منومة.

رأت منذ أيام جثة ابنها، كان جسده كاملاً كما نزل من بطنها، الابن الذي اختطفت

أخته بديلاً عنه. كانت الأم تحرك رأسها مثل رقاص ساعة، صوتها بالكاد يخرج. كلمات خافتة صغيرة سمعت من شفاهها، يا الله! يا الله! يا الله! تنظر في تلك الإنحناءات التي احتفظ بها جسد الصبية، وتفكر كيف يمكن أن يكون هناك رجال لا تعرف عنهم شيئاً قد عروا ابنتها وعرفوا تفاصيلها وعبثوا بجسدها، فتغشى عيونها وتغيب عن الوعي.

تستيقظ وتفكر بمن استباح زمنها وهناء أيامها، ترفع يديها للسماء، وتطلب الرحمة

للبنت ولأخيها الذي قُتل. يقول لها ابنها الشاب في لحظة ما، وهي في نقطة عائمة عن الواقع تهز رأسها يميناً ويساراً: يا أمي بدنا نطلّع زينب. تنظر مذهولة حولها، لا

تفهم شيئاً. تتدفق نسوة ملتفعات بالسواد، يرفعنها، فلا تقف. قدماها لا تلتصقان بالأرض. تنظر في الغطاء الذي لف جسد الصبية ليسترها، ولكن عن أي ستر يمكن

الحديث الآن؟ الرأس في مكان بعيد عن الجسد، الرأس غير واضح الملامح، إلى جانب الرقبة، اليدان أيضاً، عيناها ذاهلتان تحدقان في حركة من حولها، ولكن لم لا ترى وجه ابنتها للمرة الأخيرة؟ هو ليس شيئا الآن، مجرد كتلة لحمية متداخلة مع العظام والحروق، لكنها تصرخ بالنساء أنها تريد أن تضم رأس زينب وتقبّله.

تسحبها النساء، تضمها امرأة وتمسك يديها، وتجرها أخرى من كتفيها. صمت ونواح خافت تخرقة تنهدات بكاء جماعي. خارج الغرفة، كانت تقف أمام الرجال محمولة من كتفيها، وعندما خرجوا يحملون زينب في تابوت خشبي، عليه غطاء منزلي من النوع الرخيص، خرت على الأرض وانبطحت معها عدة نساء.

الأم نفسها التي ستظهر بعد أيام على إحدى شاشات التلفزة، شبه مذهولة. لم يكن

ذهولها طارئاً، فقد تحولت إلى امرأة مندهشة حتى بفكرة الحياة. كانت تشعر بالغرابة لأنها ما تزال على قيد الحياة، وأجزاء من لحمها ودمها تحت التراب. هذا تماماً ما يمكن أن تشعر به أمّ فقدت من خرج من بطنها

يوما ماً. لكن رغم الدهشة كان هناك فرح غريب يلوح من عينيها، وهي تقول للكاميرا: "ما بعرف إذا اللي طلعت عالتلفزيون هي بنتي، ما بعرف يمكن هي بنتي، ما بعرف، ياريت تكون بنتي، يمكن هي بنتي".

ما تزال تحتفظ بذهولها شبه المريض، وهي تخبر الكاميرا عن ابنتها التي ظهرت على التلفزيون الحكومي وقالت أنها حية، أما كيف؟ عرف الجميع أن هناك من قتل فتاة مجهولة الهوية، وقطع جسدها وأحرقه وشوهه، وقام بالتلاعب بمصائر البشر، وقال لأمّ أن هذه ابنتها.

ماتت زينب للمرة الأولى، وهي مقعطة الأوصال. وماتت مرة ثانية عندما اختفت في أحد فروع الأمن، وأُجبرت على أن تقول أنها هاربة من أهلها. وماتت زينب عندما

عادت للاختفاء ثانية، ولم تسمع الأم عنها شيئاً. والأم عاجزة عن فهم ما يحدث، وكيف تم التلاعب بها، وكيف سُلمت جثة قالوا لها أنها ابنتها، ثم قالوا لها مرة ثانية

أنها ليست ابنتها. الآن عليها انتظار المزيد من الخوف، فكيف يمكن أن تفكر أن يحدث لزينب ما حدث للمرة الثانية؟ أنا، المؤلف، أستطيع القول لكم أيها القراء إن الواقع أكثر وحشية من الخيال، ولا أحتاج لكثير من الحكايات، الحكاية تخبركم، وأنا

هنا جالس في غرفتي، أستطيع إخباركم عن أم ماتت ابنتها مرتين، ومات ابنها مرة، وعن المجاز في اللغة. الميت لا يعود للحياة، زينب الميتة عادت، وهذا يعني أن الخيال ممكن التحقق بنسبة أعلى من الواقع، أما كيف ستموت زينب للمرة الثانية، وماذ يحصل معها في غرفة معتمة في أحد الأقبية المعتمة في السجن، فهو ما تنتظره الأم التي كانت تصلي أن تموت زينب للمرة الثانية دون عذاب.

هذا جل ما تتمناه. لم تعد تحلم بالكثير، بل لم تعد تتجنب الفضائح. ليس مهما ما يحدث، بل المهم أن تشعر بالرضا والطمأنينة أن آلام شديدة لن تمر على روح

فتاتها.

الأم التي بقي قلبها معلقاً مثل ذبيحة تنتظر تصفية دمها، ولا من جواب يشفي قلبها. كانت تجلس ساعات طويلة وحدها تنظر في الفراغ وتتخيل وتستعيد شكل الجثة المشوهة، إن كانت لابنتها أم لا. هل هي زينب؟ اليوم تحديداً وبعد أن خرج الجميع من غرفتها، جلست مع صور زينب. كانت صوراً عادية، واحدة في العاشرة لزينب، قبل أن تضع الحجاب، وصور لها بعد أن كبرت قليلاً، الصورة التي تتجنب النظر فيها هي لزينب تجلس إلى جانب أخيها القتيل. لا تنظر في الصورة، تمرر أصابعها عليها، تدفعها بعيداً عنها، وتعود لإطباق عينيها وتزم شفتيها، وتفكر بزينب التي كانت تكبر كل يوم في قلبها.

تتذكرها وهي تتعلم النطق وتلثغ، ثم تعود إلى طفولة بعيدة. في العادة، الأمهات اللواتي ينجبن عدة أبناء قد ينسين صور أبنائهن، لكن أم زينب، تتذكر وجه زينب

قبل أن تبلغ السابعة، تتذكر الآن صوتها، وتحاول أن تستعيدها بعد أن كبرت، لكن صورة الجثة المقطعة تحتل فضاء عينيها. شعرت بالرعب، وعادت لتمسك بصور زينب بعد أن كبرت.

تحدق في الصورة. الصورة التي تشبه زينب فعلاً، لكنها لا تلمح شيئاً، لا تستطيع أن

ترى سوى كتل من قطع الجسد المكومة أمامها. تحاول استعادة صورة زينب بعد أن ظهرت على شاشة التلفزيون، تكتشف أنها فقدت صورة زينب في عقلها، تفتح عينيها من جديد، ثم تعاود إطباقهما لترى زينب. لكن بعد أن ظهرت على التلفزيون الرسمي، اختفت زينب، لم تعد الأم تراها. شهقت، ووقفت على رجليها، فتحت عينيها

على اتساعهما، وكأنها أصيبت بالعمى، ثم صرخت بصوت عال جعل ابنها الشاب، الذي بقي على قيد الحياة، يركض إليها. كان ينظر إلى أمه برعب، لم يدرك ما ترى الأم أمامها حتى تتحرك بتلك الطريقة الهستيرية وهي تهش الهواء. كانت تزيل من الفضاء صورة زينب الجديدة في قلبها، صورة الكتل اللحمية المحروقة والمقطعة.

اختفت زينب، اختفت مرة واحدة وإلى الأبد.

كيف هو وجه زينب؟ تصرخ وتحرك أصابعها وهي تدور حول نفسها. يضمها الابن بقوة إلى حضنه، فتقول له وهي شبه ذاهلة، عيناها جاحظتان:

كيف كان وجه زينب؟

2011/08/18

الخالة

الخالة التي تجاوزت الستين من عمرها، ممتلئة قليلاً لكنها تغطي وجهها بوشاح أسود، تحدثني بصوت مبحوح لكنه واثق، تخبرني كيف رمت نفسها ف كومة قش، واختبأت، ونجت من المجزرة، عندما اقتحم الشبيحة ا٠لحولة٠ وكيف أغمضت عينيها لأنها ظنت انها سترى مع أصوات الصراخ واصوات السواطير، كيف يُقتل الناس، لكنها اكتشفت أنها تستطيع فتح عينيها، وأنها لن تلمح سوى ألوان غائمة، لكنها تقول: ٠ انا سمعت صوت اللحم كيف بينفرم،سمعت صوت السكين بالجلد٠ الخالة التي لاتنتظرني لأسأل السؤال: وكيف أولادك؟تقول بلهجة واضحة رغم أن صورتها عبر السكايب تغيب، وتتحول إلى سائل داخل الشاشة، نعم سائل يتماهى بين الأسود والأصفر، وأنا أمد أصابعي وهي تتحدث لأصدق أن ما أسمعه حقيقة: ٠ ولادي اتنين شباب ماتوا، قتلوهن الشبيحة بعد المظاهرة، ما كانو مسلحين ولا شي، بين الساعة اربعة وخمسة، دبحوهن٠ تتوقف عن الكلام، عندك ولاد؟ ٠ ٠عندي بنت٠ ٠الله يخليها يابنتي، الله يحفظها، ويفرحك فيها، أنا ولادي اتنين شباب، اتنين شباب متل الوردة دبحوهن!! وطيب بنتك متجوزة؟ ٠ أصمت قليلا، وأمد أصابعي ثانية الى شاشة الكمبيوتر،

٠ الله يصبرك يا خالة٠ تتحرك قليلا، ألمح كتلتها تتحرك. الصورة غير واضحة لكن الصوت واضح: ٠ودخلو ا علينا يابنتي وقتلونا تقتيل، ديحونا، جارتي الحامل بالشهر الثامن، دبحوها من بطنها، حدا بيدبح مرة حامل من بطنها؟ مات ابنها قبلها، وماتت المرة، بس ما خبرتيني انشالله فرحتي ببنتك؟ ٠ ٠لسه يا خالة٠ أجيبها بصوت مخنوق، فتقول بصوت حزين: ٠ الله يفرحك فيها يا حبيبتي، والله نحنا وأنتو أخوة، كنت اسهر مع جيراننا من ضيعة القبو، أنا وعيلتي، للساعة 12 بالليل، ونبقى عندهون، ويرجعونا بالسيارة، بالليل، وكنا نأمن عليهون ويأمنوا علينا، الله يلعنك يا بشار الأسد شو عملت فينا! ٠ تصمت الخالة قليلا، ربما تتحدث؟ تعود الصورة واضحة، أرى أنها تتحرك، استطيع الاحساس بصوتها رغم الصمت تميل برأسها، لكني لا أفهم ما تقول، فأشير إليها بيدي بأني لا أفهم، ينقطع الاتصال، ثم يعود فجأة صوتها بقوة ٠ والله يا بنتي بعد ما دبحونا وقتلونا، حاصرونا، بعد ما خلو بعيونا الضو، منعوا عنا كل شي، يعني بعد كمان كم يوم ومنموت من الجوع، ممنوع يدخل لعنا شي، محاصرين من كل الجهات، والعالم كلو ناسينا، وبيعرفوا انو اندبحنا، ببس ما بيعرفوا انو عم يجوعونا؟ بس ما خبرتيني، بنتك صبية؟ الله يخليها ويفرحك فيها ولا يحرق قلبك عليها يارب، آآآمين يا رب... دبحولي ولادي اتنين، اتنين شباب؛ اتنين شباب متل الورد؛ وكمان يا ريت بس هيك، شوفي شو عملوا بالنسوان ما بيكفي بهدلهون، كمان رموهن عرايا ودبحوهن، والله يا بنتي نحنا وانتو دائما حبايب٠ تتوقف الخالة عن الحديث، تشير لشخص بقربها أن يحرك السماعة التي تضعها، ثم تثبت الغطاء الأسود الذي يحجبها بالكامل عني٠ والله صحيح يا خالتي الله يصبر قلبك والله ليتحاسبوا واحد ورا التاني٠ أقول. ٠الله يحفظك يا بنتي ويفرح قلبك ببنتك، أنا ولادي اتنين..اتنين شباب متل الفل، دبحوهن..ما كان معهون سلاح، طلعوا مظاهرة بس، بين الساعة خمسة واربعة، الله يخلي ولاد الناس ، دبحوا ولادي وجيراني، وبنتك انشالله منيحة؟ ٠ ينقطع الارسال فجأة، تصير الصورة سوداء،٠ يا خالة يا خالة٠ أناديها، لا صوت. الشاشة سوداء، يا خالة يا حبيبتي، ردي علي: الشاشة سوداء، انتظر وانتظر، أترك الشاشة، اسمع صوتي يقول: والله انا اتنين من ولادي دبحوهن متل الفل شباب..انظر في الشاشة السوداء، اسمع صدى صوتها: الله يخليلك بنتك ويفرحك فيها.

اصمت.

بعد دقائق، كان أول خبر اسمعه: قصف مكثف بالهاون على ٠الحولة٠ تحديداً على احدى قراها التي كلمتني منها الخالة..

كان هذا منذ ثلاثة أيام، حيث اختفى صوت الخالة نهائياً..نهائياً وإلى الأبد.

كاتبة من سوريا

ملاحظات سريعة عن حدث تاريخي

عبد الناصر عايد

لم يكن قرار مغادرة البلاد سهلا، كنت قد أدمنت حالتها الثورية إلى حد الخدر، وكان الخروج منها صعباً من الناحية الاجرائية لعدم امتلاكي لجواز سفر حرمني النظام من الاستحصال عليه مذ كنت ضابطا في سلاح الجو.

أيام الفرار كنت مؤسية، نظرة أمي الحائرة بين دفعي للرحيل بعيدا عن الخطر، ومرارة ابتعادي عنها، تعمشق ابنة اخي التي لم تبلغ السنتين من العمر برجلي، الموضع المقفر الذي مررت في وسط بادية الجزيرة حيث ولدت قبل أكثر من ثلاثين عاما، صور رفاقي وأصدقائي ممن قضوا في أيام الثورة والذين مازالوا يقيمون على جمرها، خاصة المعتقل منهم... الفتاة صاحبة أجمل اصابع في العالم، عبور الفرات في ساعة متاخرة من الليل بقارب صيد فقير، فكرة الفرار من بلادي فيما هي تشق طريقها إلى الحرية عبر بحر من الدماء.. كلها كانت تعيق خطواتي، وتجعل الرحيل في ذلك الآوان، من الناحية العاطفية، خروجا من الروح.

لكن من الناحية العملية كان لابد من الرحيل، كان الوضع الانساني يتدهور بفعل الحصار الخانق على مدينة دير الزور وريفها، بالتزامن مع تصاعد الارادة العامة باسقاط النظام بأي ثمن، وكانت كل وسائل التواصل مع العالم الخارجي الذي يفترض به أن يمد المجتمع باكسير الحياة قد انقطعت... كان لابد من ارتحال بعضنا في الجهات بحثاً عن الينابيع كما كان يفعل أجدادنا البدو يوماً... وتظل قلوبهم مشدودة بخيط ماء إلى الربع، وإلى معشوقة ساحرة رآها ذات أصيل على الغدير.

عبور الحدود من شمال شرق سورية حيث خريطة سياسية معقدة إلى أبعد حد، كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، المهرب الذي مر بي على حاجز كبير لحزب العمال الكردي المتشدد ما لبث ان مر على حاجز للأمن السوري، شعرت حينها أنني وقعت في كمين وسيتم تسليمي لأجهزة أمن النظام، لكن المهرب حياهم ومضى إلى الشريط الحدودي، الذي ما أن اقتربنا منه حتى استدعانا زملاء المهرب لأن القوات التركية نصبت كمينا هناك لاصطياد المعارضين الأكراد المسلحين الذين يعبرون من تلك المنطقة، ولأنها تتعامل مع هؤلاء كإرهابيين محتملين فقد كانت امكانية اطلاق النار علينا كبيرة... في النهاية عبرت الحدود وتوجهت بالباص إلى استنبول، ولانني لا أملك جواز سفر ولا أي وثيقة اخرى، ولأنني عبرت من منطقة يسيطر عليها اكراد متطرفون، ولاني عرفت عن نفسي بأني صحفي سوري بينما وجد المحققون على الفلاش ميموري خاصتي صور لي وانا بلباس الضابط النقيب على طائرة مقاتلة، فقد ارتابو بي وأودعت السجن وبدأ تحقيق أمني.

في السجن المسمى «أمنيات يابانشي شوبا» حيث اودعت، وهو مركز لتوقيف وترحيل الأجانب الذين يدخلون البلاد بطريقة غير شرعية، كان الشرق الأوسط كله ممثلا تقريبا، بقومياته واثنياته وأديانه وشعوبه، بصراعاته وصدام حضاراته، بمأسيه وأحزانه، من ناصر الايراني الكردي الذي هرب من اضهاد النظام الايراني بسبب انتمائه لحزب الحياة الجديدة القومي الكردي في ايران، ليعاد اعتقاله لمدة عشر سنوات هنا بسبب قرب هذا الحزب ايديولوجيا من حزب العمال الكردستاني المعادي لتركيا، إلى محمد شافئي الايراني الهارب الى

السويد بعد أن تحول الى الديانة المسيحية والمطارد بتهمة تزوير وثائق سفره، إلى آمد الفتى الكردي السوري الذي جاء من عامودا السورية ليذهب تهريبا إلى ألمانيا حيث سيدرس الهندسة ويعمل في الآن نفسه ليتخرج وفي حوزته قدر من المال ينشيء به معملا للمعكرونة من الحنطة الكردية التي يقول أن لا مثيل لها في العالم وتكفي الشرق الاوسط كله، وصولا الى مجموعة من الاذريين المسلمين المتسللين من جورجيا، وعدداً من السوريين الفارين من مناطق إدلب وحلب، وليبي واحد مشكوك بانتمائه إلى تنظيم القاعدة، قال لي عند وصوله « النصر جاي على سوريا والاسلام سينتصر» ولأننا كنا في شهر رمضان سألني فيما اذا كان الشرطة سيقدمون حليب وتمر على الافطار أم لا، وصولا إلى جو الذي هرب من راوندا قبل سنوات عديدة ابان مذابح الهوتو والتوتسي، وآخر من الصومال لم يكن يتلفظ بكلمة واحدة، هو فقط يبادر إلى تنظيف المكان بالكامل بعد أن ننتهي من طعامنا ويقبل بعض السكائر التي نهديها له ثم ينام حتى موعد الوجبة التالية. في قسم النساء المجاور كان هناك سوريات وجورجيات وإيرانية ترتدي ثيابا على أحدث طرازات الموضة، وفتاة آرترية تجيد اللهجة الشامية تتحدث معنا من وراء القضبان بحثا عن عريس تشترط أن يكون «ماباس تمو إلا إمو» كان بيننا أربعة اطفال تحت العاشرة جاؤوا من كفرنبل السورية مع والدهم الشرطي المنشق، وقبض عليهم بدون وثائق عندما كانوا يتسجلون في مكتب الأمم المتحدة للاجئين في أنقرة... كانوا أكثر من ستين شخصا تنطق عيونهم بالحقيقة المرة: شرق أوسط حزين... شرق اوسط مصطرع.

جلسات التحقيق مع الضباط الاتراك كانت لطيفة جدا مقارنة بتلك التي أقامها لي أبناء جلدتي أيام اعتقالي في سوريا، لكن أسئلتهم ونظراتهم ونبرتهم كانت تشي بذلك القلق التركي العميق من الوقوع في فخ صراع الحضارات الشرق أوسطية، خوف على المشروع الاتاتوركي المتجه غربا ومن انعكاس وجهته، خوف على سياسة صفر مشاكل التي يتغنون بها ومن التحول إلى مشاكل لا نهائية، خوف من الإرث الذي قطعوا معه يوما، على حاضرهم المشرق... وكان ذلك يبرر على ما رأيت ذلك الاحتفاء والتاكيد على أتاتوركية الدولة متمثلة بتمثال وصور مصطفى كمال التي تتصدر الواجهات الرسمية والعامة والشعبية.

عندما اعتقلت مطلع الثورة في دمشق، كان على رأس ما يسمى اتحاد الكتاب في سوريا رجل اخرق جاهل وانتهازي ولا علاقة له بالأدب أو الثقافة، ناقشني يوما في أسباب منع اتحاد الكتاب العرب لروايتي سيد الهاوما، وأثناء حديثه عن الأدب وفي الأدب كان كل ما يمر في ذهني هو عنوان كتابه الوحيد المعروف والذي أسماه الحيوان في الأدب العربي. هذا الرجل الذي يفترض أنه كان في موقع الدفاع عن الكتاب والمثقفين طلب على مانقل لي عضو في المكتب التنفيذي لتلك المؤسسة المسيطر عليها أمنيا شانها شأن كل مؤسسات الدولة السورية، اجتماعا للمكتب التنفيذي وأخبرهم أن القيادة ممتعضة جدا من هذا الكاتب الولد الذي هو أنا، خاصة عندما نشرت جهات إعلامية خبراً حول اعتقالي قالت فيه أني روائي، وقال إن القيادة طلبت منه ان تُكتب مقالات باقلام كتاب في الاتحاد تثبت أني «كاتب نص كم..» لكن عضو المكتب الذي نقل لي وقائع المؤتمر يقول إنه ذكَّرهم بأني فزت منذ أربع سنوات بجائزة وزارة الثقافة لافضل كاتب شاب في القصة القصيرة، وأني فزت للتو بجائزة دمشق عاصمة الثقافة العربية بالرواية وسيبدو موقف من يكتب ضده ضعيفا وسيزيد من شعبية من يهاجموه وأنها عمليا تزيد الانتشار على شاكلة المنع الذي يجعل من رواية عادية شيئا استثنائيا.

بعكس ذلك تماما كان تعامل «رابطة الكتاب السوريين» التي ولدت في أحضان الثورة، حيث بادر منسقها الشاعر نوري الجراح إلى الاتصال بي فور معرفته بخبر اعتقالي وبذل جهوداً كثيرة في عدة اتجاهات حتى

تم انهاء توقيفي وترحيلي إلى مخيم جيلان بنار في أورفة، في منطقة تحاذي مدينة راس العين شمال شرق سورية.

أول ما يلاحظه المرء في مخيم اللاجئين السوريين هو التشدد الأخلاقي، خاصة بالنسبة للعائلات الموجودة وهي من الريف السوري عموماً، ثمة إحساس بالعري، منشأه التدمير الهائل الذي أحدثه النظام في حياتهم، وصمت ولا مبالاة العالم... أنت لست في بيتك.

المستوصف المتواضع شأن كل مرافق الحياة هنا يعج بالمراجعين من مختلف الأعمار، الطبيب يصف معظم الحالات بانها ناشئة عن أسباب نفسية وينصح بالابتعاد عن مسببات القلق والضغط النفسي.

حين تمر في الدروب بين الخيام تلتقط بوفرة أطرافا من أحاديث الريفيين بأصواتهم العالية: «ضربت ضيعتنا، استشهد ابن اخي، جارنا وزوجته وبناته الأربع قضوا تحت القصف الليلة...»

الأطفال يلعبون لعبة ثوار وجيش أسدي.. مداهمات لبعض الخيم ودفاع مستميت وصرخات الله اكبر ... لعبتهم المفضلة.

طفل تحت العاشرة عرف أني كنت ضابطا في مطار تفتناز فجاء برفاقه الصغار ليثبت لهم أنه قام باستطلاع المطار دون علم أهله ونقل المعلومات للثوار حين سمعهم يقولون ليت أحداً ما يستطيع أن يستكشف المطار ويخبرنا عن الأسلحة التي فيه... عندما وصف المطار من الداخل وجدت الكثير من أجزاء الصورة تنطبق على المكان الذي أعرفه جيداً.

الحالة في المخيمات من الناحية المعاشية والخدمية بمنتهى البؤس مهما حاولنا أن نجملها، لكن معظم سكانه لايرون ذلك البؤس، المخيم لديهم إما محطة استراحة كما يفعل عناصر من الجيش الحر دفعتهم كتائبهم قسراً إلى هنا ليرتاحوا قليلا ثم يعودوا إلى مواقعهم، أو لاتقاء القذائف والقصف قليلا.. لكن عندما يطرأ أي أمر جدي فلا شيء يمنع من كسر ذلك الوهم والتقدم بطلب عودة إلى الحدود ودخول البلاد.. شاهدت عنصراً من الجيش الحر يكاد يتعارك مع الجنود الاتراك ليسمحوا له بالمغادرة في وقت مبكر بعد أن هاتفه قائده من داخل سوريا ليخبره أن زميله الذي حمل بندقيته بدلا عنه قد استشهد... رجل في السبعين كان يسابق الوقت برباطة جاش أسطورية لانجاز الاجراءات ومغادرة المخيم لأن ابنه البكر أخبره بأن شقيقه أصيب وقد يستشهد في أي لحظة وهو يريد أن يراه قبل أن يرحل إلى الفردوس الأعلى..

قبيلة من الاطفال الصغار مع أمهاتهم الثلاث عملوا مظاهرة عند مدخل المخيم يريدون العودة إلى الداخل والانضمام إلى آبائهم المنخرطين في الجيش الحر بعد تحرير قريتهم ليعودا إلى منازلهم رغم انهم يعرفون أنها دمرت في القصف وأصبحت قاعا صفصفا.

في المخيمات يشعر المرء فعلا بأن زلزالا ضرب سورية، آثاره بادية للعيان، لكن الصدع الذي خلفه يطل منه الأمل أكثر من أي شيء آخر، إنهم يتزوجون هنا، وينجبون الأطفال.

لا خوف على الغد.

2012-8-25

كاتب من سوريا لاجىء في تركيا

مخيم أورفه-استانبول

هل أتاك حديث الصور؟

فادية لاذقاني

بطاقة

أنا قادمةٌ من كوكب يعجّ بأسئلة لا أجوبة لها . فيه لا يُصدَّق كلُّ ما يُقال، ولا يُقال كل ما يُصدَّق. في أضلاع ساكنيه، يُختزن جنون السؤال الملازم ليقظتهم والمنام. تحتفظ الأرض بأسرارها. لا تجيب الأغصان ولا الأرصفة. لا تُعنى بأغاني الانتظار أغبرةُ «ميكروهات» طلعة شورى، وما أسوار ساحة فرع السادات بمستجيبة لألم سكاكينه. لكن الانتظار واسعٌ لا ينتهي، كالنجوم.

أنا بنت السؤال المعرّش في جادّات المهجرين وحديقة السبكي، وزوايا بيت شورى وشرفته وحيطانه.

الصمت حارس الخديعة. العيون تتحاشى التقاء نظراتها كي يكون. لا أحد يسأل الآخر هنا.

سنواتٍ تدوم التياثاتُ السيناريوهات الممعنة في الهذيان. ذات يومٍ، سيُنفخ في الصور وسيصعق من كُدِّس في الحفر الجماعية. ينهض الميتون «إعداماً» إثر كلمةٍ واحدة يلفظها «جنرالٌ» جائر. يوقظ كلٌّ من «زوّجوه حوريةً» جارَه. تنبعث الضجة في سكون المقام النائم، منذ تكوّمت الأجساد، قبل أن تصير عظامها إلى رميم. حماة، حلب، دمشق، شمالاً وجنوباً. إنهم يلملمون قطعات أجسادهم، يلفون حولها أكفانهم البيضاء ثم.. على صوت النفير...بم..بم..بم.. جيش جرّار من الموتى- الأحياء، يتقدمون موكباً للحقيقة. كلٌّ يحمل شهادة تاريخ ولادته وتاريخ ومكان إعدامه واسمه.

الموت «العاديّ» لا يُصدق. فما يسعف الروح كي تصدق موت من ولده البطن نفسه الذي جاء بجسمها إلى الوجود؟ كيف بلا شاهدة ولا جثة؟

السؤال لاصقٌ شهيقاً وزفيراً.

صيدنايا/ السجن

هذه أول زيارة أرى فيها أخي الأكبر، بعد نجاته من تسع سنواتٍ في سجن تدمر. كان الاعتقاد يسود أنهم ينقلون قدماء المعتقلين لصيدنايا، سجن «الخمس نجوم»، كي يسترجع السجين هيئته البشرية، قبل إخلاء سبيله المحتمل الوشيك، بسنة، أقل أو أكثر. أمضى أخي وقت الزيارة يحاول اختلاس هنيهة تشرد فيها أمنا عن الانتباه، كي يبلّغني بحركات شفتيه خبر «ترويحهم» لأخينا عبد، الثاني في ترتيب العائلة بعده. لم أسأله بعد ذلك البتة كيف خطر على باله أن يقسو عليّ كل هذه القسوة، وهو يمرر يده على رقبته، بسرعة البرق، ليشير لي إلى «امّحاء» عبد من الوجود. في طريق العودة من صيدنايا، غار صدري عميقاً، وجثمت فوقه تلك الصخرة التي ستلازم حلّي وترحالي.

لكني لم أصدّق.

بيت الأمّ

بعد سنتين، في بيتنا في شورى المهاجرين، ستكون أول جملة يقذفني بها أخي المُحرَّر : «عبد، روّحوه».

لم أصدق.

ألم يحدثنا كثيرون بخروج أبنائهم بعد خمس عشرة سنة، عشرين، ظنهم أهلهم من عداد الأموات؟ بل وأقاموا

لهم طقوس العزاء، لماذا لا يكون أخي واحداً منهم؟
لا أقول لأمي شيئا. فرحتها المكتومة تفضح نفسها وهي تروي لنا كيف جاء الأمن. دقوا باب بيتنا وسألوها عن ابنها الغائب. بل وكرروا مجيئهم، ومازالوا يكررون. أسرَ لها بعض الجيران وأصحاب الدكاكين في الحيّ. أأشفق عليها أم على نفسي؟ أكنت أقل بؤساً منها؟ لا أدري، فداخلي أيضاً مابرح الأمل يعاود رقصه الشيطاني.
دمشق الواسعة
الرجلُ الملثم، الذي اقتادني أخي الأكبر إلى موعد معه في سوق الهال، كي أصدق الخبر، قال لي بوقارٍ وحسمٍ: «لا تسألي أكثر، إنها مغاليقُ لغة السجناء. نحن نعرف كل شيء» وقال: «آخر ما قاله أخوك، وقت قدموا لاقتياده الرابعةَ فجراً من مهجعنا في سجن المزة: «لا ينس من يخرج منكم حياً أن يبلّغ زوجتي: أرغب بـ «محمد» اسماً لطفلي القادم إن كان صبياً. وعند عتبة الباب الذي طواه وهو يُرى حياً للمرة الأخيرة أردف: «أوصيكم بأمي، سامحيني يا أمي».
قبل أن يذهب الرجل الملثم أوصاني بحدّة: «هذا الموعد لم يكن له وجود في يومٍ من الأيام، لم أركما ولم ترياني».
لم يكن الرجلُ الملثمُ الأولَ الذي رأيناه؛
فتح الباب شابٌّ متجهم الوجه. أشار إلى صالة الانتظار وغاب زمناً. جلسنا، أخي وأنا، دون أن يدعونا لذلك.
قال أخي: جئتك بأختي تسمع منك فتصدق. أعرف من تدمر أنك كنت معه طيلة الأشهر الستة التي كانت الأخيرة في حياته في المزة. هل..
لم يدع الشاب أخي يكمل. وقف قائلاً بتشنج بالغ:
لا أعرف عمّ تتكلم!
هذا الشاب كان صديقاً مقرّباً لأخي عبد من قبل. كان قد اعتقل هو الآخر لمدة سنة، ثم عاد إلى افتتاح مكتبه الهندسيّ.
أما الثالث، فلم نره بتاتاً؛
بعد طريق طويل إلى بلدة (م) في آخر الدنيا، لم يفتح خلاله فاه واحدنا أنا وأخي. قالت لنا امرأةٌ فتحت الباب بعد انتظار دقائق :
لا يوجد هنا أحدٌ بهذا الاسم؛
في طريق العودة، كانت الجملة الوحيدة التي تلفظ بها أخي الأكبر، كعادته دون النظر إليّ مباشرةً:
يا أختي، كفاك بحثاً وأوهاماً. لو شاهدتُه ماشياً على رجليه الآن أمامنا، لما صدقت أنه هو؛
فرع المخابرات الجوية/ مكتب ع. د
خالي وصل بعد جهود كبيرة إلى مكتب مسؤولٍ كبير. نظر هذا إلى السجلّين أمامه، وقال بتجهم :
الكبير في تدمر. الثاني لا تسألوا عنه بعد اليوم.
لم أصدق.
كفرسوسة/ أمن الدولة

كان مدير السجن عالماً بمعرفتي لاعتقال أخي الأول. حدث هذا قرب مكتبه، وكانت زيارةً مشهودة لها قصة أخرى. بعد شهور. استدعاني المدير، ذات مساء، إلى مكتبه. آخر المقابلة قال لي :
يبدو أن قصة أخويك قد أثرت عليك فعقّدت وضعك.
أمضيتُ بقية الثلاث سنين وشهرين وعشرة من الأيام، التي قدروها كافيةً كمدة لاعتقالي، أتساءل : لماذا «خَرْبَط» وقال لي «أخويك» بدلاً من «أخيك».
ولم أصدق.
فرع تحقيق السادات - الخطيب، مكتب الرائد «ت.ع.د»
أعادوني إلى الفرع الذي استلمني قبل ثلاث سنين وشهرين، قبل أن يسلمني إلى كفرسوسة. سأعرف بعد ذلك أن ذلك كان لإعادة التحقيق وطقوس المساومة قبل الحرية. مرةً أخرى، ثالثة، عاشرة، يجب أن تحكي عن أسرتك، إخوتك، وأجداد أجداد الذين خلفوك. لن أنسى نظرة الرائد، وملامح وجهه التي تغيرت، لحظة أجبته فيها بكل بساطة، عما يفعل أخي الثاني. سأتذكر فيما بعد كثيراً من المرات، ارتجافةً صغيرةً، خلتني لمحتها سريعاً، في عضلات وجهه. صمت هنيهةً، ثم سألني: منذ متى لم يزرك أخوك عبد؟
باريس- الشام
مهنة الأخ ومكان إقامته : .... المعاملات الإدراية لا تقبل الفراغات.
أخي كان شاباً في ريع الصبا وكان جميلاً. كانت له أيضاً مهنة اسمها الهندسة. الشام وأمه كانتا حبيبتيه. أغيثيني يا أفعال لغات العالم. اخترعي لي كي أكتب في خانة المهنة والمكان كلمتين تعنيان: كان لي أخ يلعب. ابتلعته حفرةٌ كبيرةٌ في مكان ما من سوريا، أواخر شهر ديسمبر عام 1983 تقريباً. ماذا أكتب؟ فأخي مازال حياً في دائرة الأحوال الشخصية.
لم يكن لي أن أصدق، لو لا أن أتاني حديث الصور.
حديث الصور
زوجة أخي انتظرته بكل صبر وحب ما ينوف عن ثماني سنين. لا بد أنها «تيقنت» من خبر موت زوجها بطريقة ما، قبل أن تعلن انفصالها وتبدأ بعمليةِ الطلاق - بحكم الهجران!- أولِ رصاصة تخترق جدار انتظار أمي الكتيم. ليس لي سوى زوجة أخي. لعلّه قال لها شيئاً قبل سعيه إلى الصليب. عساها تنقل لي يقينها.
أودعتُ خشيتي وهدير قلبي أعمق عميق داخلي. يا ما خشيت هذه اللحظة وحسبت لها عظيم الحسابات. سألتها كالعابد يتضرع إلى إلهه.
قلبي صدّقَ بعد ثماني سنوات. قالت بتجلد وهدوء. وكان هذا كل جواب لها.
أمعنتُ في إلحاحي. رأيتُ نظرات الإشفاق في عينيها. حدثتْني عن المظروف الكبير الأصفر. أدارت رأسها كي لا أرى انحدار دموعها.
أخوك سلمني هذا المظروف قبل أسبوع من غيابه. قالت وعيونها ساهمة في العماء.
في المظروف صورٌ مكبرة بالأبيض والأسود. كتلك التي تضعها الأسر ل.. ل.. ل..للشهداء. كان عددها ستاً من الصور. سهم اخترق أضلاعي واستقر فيها. رأيت أخانا يذهب خصيصاً للمصور، ويجعل من

صوره ستّ نسخ. عدَّنا من دونه فنحن أربعة إخوة.. لزوجته بجنينها ذي الشهرين خامسة. و لأمنا سادسة. لم يخطر على بالي يوماً أن أقول إنه العدد السائد في استخراج الصور في الشام.
هذه المرّة، ركّنَ أخي «عبدُ»، بكلّ حنانه، كمَانّه وعُودَ الأب جانباً. غنّى متمايلاً من طربٍ وَوَلهٍ، كعبد الباسط، آخرَ آيةٍ من سورة البقرة. ثم همس لي أن صدّقي، واختفى بين الغمام. فكان أن صدقّت!

هامش :

كُتب هذا النص، إلا كلماتٍ منه، منذ سنوات عدة. أُعيدت كتابته منذ شهرين ونصف الشهر، مع الكلمات الناقصة.

أيلول 1995. آب 2012

كاتبة سورية تقيم في فرنسا

لعشرين عاما مذ دخلت حماه وأنا أعيش المذبحة

فداء الحوراني

الحجر والبشر كل شيء يحكي ما جرى. أرواح الراحلين تملأ الأمكنه لم يغادروها تشعر بأنفاسهم تلامس وجهك وأناتهم تسمعها ضعيفة تتسلل من بين خرائبها الباقية ومن تحت ما شيد عليها.إن وضعت أذنيك على ترابها تسمع دقات قلبها المتعب متسارعة وخائفه من لحظات القتل الساكن فيها منذ زمن لمن قضوا وذبحوا وتم رشهم على جدرانها. دمعات قاطنيها من وقتها لا تزال معلقة رذاذا في هوائها في كل الفصول ترطب الشجر والروح والأحياء والشوار ع المشقوقة في جسدها . أحجار أزقتها تبكي الراحلين نواعيرها نهرها كل شيئ فيها بكاء،حتى عندما يضحك أهلوها فهناك في الأعماق شعور بالذنب والخجل في أعماقهم وكأنهم يخونون حزنها مع فرح لقيط. لن أتحدث أكثر عن أحزانها فسوريا كلها اليوم حزنها وسوريا كلها اليوم آلامها . اليوم في قلبي حديث آخر . ثلاثون عاما يصورون المجزرة وكأنها حصلت ضد عصابات إرهابية وطائفيه مغرقة في التخلف اليوم فقط اضحى العالم يعرف أن حماه دفعت ثمن تاريخها الوطني أن حماه ذبحت ودفعت ثمن وقوفها مع الوطن كل الوطن. توقها للحرية ذبحها وقوفها مع المظلوم ضد الظالم من أي صوب كان ذبحها وقوفها مع الفقير الجائع على امتداد الوطن ذبحها. اليوم أقول إذا كنا لا نزال عند الأخلاقيات التي عاشت بها المدينة على طول تاريخها فإننا سنكون كما كانت دائما مع الحرية لكل الوطن أي الدولة الديموقراطية المدنيه دولة المواطنه التي يتساوى فيها السوريون بغض النظر عن دينهم وطائفتهم وقوميتهم مع المظلوم ضد الظالم أي مع المحاسبة لا الثار والانتقام. هذه الأخلاقيات ذبحت حماه هذه أخلاقيات الثورة اليوم هذه أخلاق سوريا الوطن لا أخلاقيات سوريا الأسد أخلاقيات التشبيح والعنف والتفرقة والطائفيه.

كاتبة من سوريا

وجهاً لوجه مع المأساة في سورية

كريستوف رويتر

يتحوّل الصراع في سوريا إلى وحشيّ بشكل متزايد، حسب وصف شهود عيان لمشاهد مروّعة من حالات الاغتصاب والمجازر. ويشعر الطرفان بأن نهاية اللعبة قد اقتربت، ولكن دون أن يعلم أحد كيف ستُلعب تلك النهاية. تبدأ المعارضة بمناقشة الوضع في سوريا المستقبل، مع عدم ارتياح البعض للقوّة المتعاظمة للجيش السوري الحرّ.

ظلّت مروحيّة حربية تحلّق فوق رؤوسنا لدقائق عديدة، مثل حشرة غاضبة في حرّ الظّهيرة. ويبدو الطيّار وكأنه يبحث عن شيء ما هنا بين الحقول والمباني. نستطيع من خلف صفّ الأشجار رؤية المروحية بوضوح، على بعد بضعة مئات من الأمتار، تهبط فجأة، وتطلق أربع قذائف، وتعود لتحلق مجدداً ثمّ تميل قليلاً لتسمح للمدفع الرشّاش بصبّ النار على سنابل القمح العالية، قبل أن تبتعد مختفية خلف الضباب الأبيض في الأفق.

ارتفعت سحب الدخان إلى السماء... أحد الحقول يحترق. وخرج أحد عشر مقاتلاً من الجيش السوري الحر مصابين بالدوار، من منزلٍ إلى الشارع المجاور لمبنى يخرج من ثلاث نوافذ متلاصقة فيه دخانٌ كثيف. أصابت القذيفة الرابعة جداراً حجرياً محيطاً بالمنزل لكنها لم تصب المنزل نفسه، ولا المركبة المركونة بشكل مرئيّ بوضوح إلى جانبه. ووجّه قائد المجموعة تعليماته بألّا تظهر تلك المركبة بهذا الشكل في المرّات القادمة، إذ «انّها الوحيدة التي نملكها». حيث استخدم هؤلاء المقاتلون من الجيش السوري الحرّ العربة نفسها لستّة أشهر.

«لا بدّ أن الطيّار قد رآه» قال شال، قائد المجموعة، وهو مصمّم ديكورات داخلية بالممارسة، وتابع: «وإلّا لماذا يستهدف المكان هنا؟ ولكن لماذا يستهدف جانبه فقط أيضاً؟»

وفي وقت لاحق من المساء، شكرَ أحد أفراد المجموعة «العناية الإلهية» التي أنقذتهم، ولكن أغلب الظنّ أن للطيّار الحربي أسبابه بعدم قتل أولئك الرجال، وفي الوقت نفسه إرسال رسالة واضحة بمعنى: «أعرفُ أنكم هنا». في النهاية، لا يمكن لأحد القطع بما دار في خلد ذاك الطيّار في العاشر من حزيران (يونيو)، حين حلّق فوق قرية (هربل)، الواقعة قرب مدينة حلب في شمال سورية. لكنّ ما يعلمه رجال تلك المجموعة أنّه لو اختلف قرار الطيّار في تلك اللحظة، لكانوا أمواتاً. أخيراً يقود الرجال عربتهم مترنّحة من جانب إلى آخر.

كابوس التمزيق

هي لحظة غريبة من كابوس التمزيق الذي تعيشه سورية حالياً. خمسة عشر شهراً من الثورة ضدّ الديكتاتورية في البلاد... ثورة استحالت حرباً في النهاية، ولا يمكن وصف الحالة هنا بعبارة واحدة.

من جهة، هناك مأساة على شكل ميليشيات تابعة للنظام، ترتكب جرائمها في القرى، محاطةً بجنود تابعين للحكومة وقوى «أمن» تصدر الأوامر. ونشرت الأمم المتحدة ومنظمة العفو الدولية تقارير تصوّر تعذيباً، وإعدامات ميدانية واستخداماً للأطفال كدروع بشرية.

وقامت شبيغل بمقابلة عدد من الأطباء والممرضات كلّ على حدة، في مشفيين عسكريين، أشاروا إلى حوادث

قتلٍ لمرضى مصابين. وتحدّثوا عن جثث لضحايا تعذيب موجودة في برّادات، بآذان وأنوف مقطوعة.

في شمال البلاد، تمّ قصف قرىً بشكل عشوائي بأنواع مختلفة من أسلحة مدرسة المدفعيّة في حلب، منذ بداية شهر حزيران (يونيو)، وتمّت مهاجمتها بالمروحيات والطائرات المقاتلة كذلك. وقُتل 24 مدنياً في الأيام القليلة حول العاشر من حزيران وحدها، بالإضافة إلى العديد من الجنود والمقاتلين من كلا الطرفين في المعركة.

ولكن من جهة أخرى، هنالك طيّار يضرب بعيداً عن الهدف. وهنالك جنود فارّون لا يحاول أحدٌ إيقافهم. وتُبرم صفقات وتحذيرات سريّة خلف الكواليس في تلك المعارك. إذ يدعم أصحاب الأعمال في حلب كلّاً من النظام والمعارضة، ويقوم عناصر الجيش الحر باختطاف ضبّاطٍ وأفراد من عائلات «فرق التعذيب» لمبادلتهم بمعتقلين. ويبدو أن تكتيكات الرعب التي يمارسها النظام باتت تقوّض من سطوة قبضته.

التطلّع إلى مرحلة ما بعد الأسد

الكلّ هنا متأكد بأن الأمور تتجه إلى نهاية، ولكن لا أحد يعلم كيف ستتم. هنا، في السهول المحيطة بـ«مارَع»، في القرى وحقول القمح بين مدينة حلب والحدود التركيّة، امتنعت الحكومة السورية عن التواجد منذ شهور خلت. وبين حين وآخر، تبعث الحكومة برسائل متقطعة، كما حدث في أواخر أيّار (مايو)، تفيد المقيمين بإمكانية البناء دون رخص وجعل ذلك قانونياً بأثر رجعي في المستقبل. ولكن، عدا ذلك، لا تبعث إلا بالقنابل.

وبعد أن اختبرت شبيغل أحداث جهة من السهل وكيف يتم قصف مدينة عزاز عشوائياً بالمروحيات، وإرهاب أهالي نصف المدينة عن طريق القنّاصة المتمركزين في مآذن المسجد المركزي للمدينة، يعيش من جهة أخرى، سكّان شماليّ وغربيّ السهل بمنأى عن نيران أسلحة النظام، على بعد كيلومترات قليلة من عزاز، في قرية تدعى «دابق»، يجتمع ممثلو تسع مدن ليناقشوا، ولأول مرة في حياتهم، ما ستؤول إليه سورية في المستقبل.

يجتمع اثنان وثلاثون رجلاً في مكتبٍ مهجور، كان يتبع يوماً لحزب البعث الذي مازال يحكم البلاد إسميّاً. منهم عدّة مدرّسين، ومهندس، وعاملا بناء، ومصوّر فوتوغرافيّ، وضابط شرطة سابق، وجنديان فارّان، ورجل غير موظّف، وبضعة تلاميذ. والسؤال المطروح للنقاش هو «ماذا نريد؟»، بطرقٍ مختلفة: أدولة إسلامية؟ أم جمهورية؟ أم ربّما لا حكومة على الإطلاق؟ بكل الأحوال، كما أشار أحدهم: «في الوقت الراهن، المسألة أسهل الآن دون حكم دكتاتوريّ، منها حين وُجد ذلك الحكم».

لم يرَ هؤلاء الرجال الكثير من العالم الخارجي بأنفسهم، لكنّ قصص الرّعب كانت مألوفة بالنسبة لهم، تلك التي يرويها اللاجئون العراقيون الذين هربوا من الحرب الأهلية في بلادهم. وكذلك الذين أقاموا كعمّال في لبنان، ووصفوا كيف تعترض معسكرات الطوائف المختلفة هناك طريق بعضها البعض. ويتّفق جميع الحاضرين على حاجة بلادهم إلى دستور مدنيّ لا يفرّق بين الطوائف والأديان والإثنيّات المختلفة، ولا ينظر إلى أحدٍ، مهما كان انتماؤه الديني، إلّا كمواطنٍ سوري. كما يتفقون على اختيار المرشّحين لعضوية مجلس الشعب حسب الكفاءة، لا حسب الخلفيّات الدينية، وعلى ألّا يبقى رئيس للبلاد لأكثر من ثماني سنوات في الحكم.

ويقول الضابط السابق في الشرطة: «على أصحاب المناصب الكشف عن ظروفهم الماديّة باستمرار، علينا التأكّد من الحفاظ على نزاهتهم».

«لقد غرقت أياديهم في الدماء»

لكن الصفحة الجديدة الورديّة تتوقّف فجأة حين يسأل أحدهم عمّا إذا كان على عائلة إحدى المدرّسات العلويات التي غادرت منذ أشهر، أن تعود.

«طبعاً!» يصرّ البعض. «هي لم تأتِ بسوء لأحد!». لكن وجوه البعض الآخر تتجهّم. يقولون: «لقد غرقت أياديهم في الدماء، لا نقصد المدرّسة بالذات، بل آخرين منهم».

لم يستطع الرجال حسم الأمر حول ذاك السؤال، ولا حول سؤال آخر كان محطّ جدل واسع لأشهُر في البلاد كلّها، من درعا في الجنوب، إلى هذه المنطقة في الشمال. اذ قال أحدهم: «نشعر بامتنان كبير للجيش الحر ولدوره في حمايتنا، لكننا لا نريد أن يتولّى السلطة»، ولدى سماع ذلك شعر أحد أعضاء الجيش السوري الحر، جندي مصاب موجود في الغرفة، بالإهانة.

يشرح ياسر الحجّي، منسّق تجربة تلك الأمسية، في طريق العودة إلى «مارع» أن هناك شعوراً بعدم الارتياح من تنامي سلطة المقاتلين. «نحن بحاجة لهم دون شك، لكننا نخشاهم في الوقت نفسه». ثم يفسّر أهميّة وجود الجيش الحرّ حيث يشرح كيف كان عناصر جهاز «أمن الدولة» يظهرون في أي وقت شاؤوا حتى آخر شهر آب (أغسطس) من العام الماضي، يعتقلون من شاؤوا. أما الآن - يتابع - فحتى الجيش لم يعد يأت إلى مارع وآخر مرّة ظهر فيها كان في العاشر من نيسان (أبريل)، حين أحرقت قوات النظام البيوت ودمّرت مقهى الحجّي بالرشّاشات، قبل أن يعودوا بعد نصف يوم، محمّلين دبّاباتهم بالسجّادات، والفرش والثلّاجات، تاركين عبارات مكتوبة على الجدران مثل: «أنتم لا تحتاجون للحريّة، بل تحتاجون فقط أن تُعاد مضاجعة أمّهاتكم!» موقّعةً باسم «قوّات الجيش السوري».

معنى «حرّ»:

كانت تلك بعض الكلمات الأخيرة، ربّما، لحكومة بدأت تفقد السيطرة شيئاً فشيئاً لصالح القائد شال، مصمم الديكور، وقادة آخرين من الجيش السوري الحر.

«لجنة الخدمات الاجتماعية» التي تتحكّم بسعر المازوت, وقسم الإطفاء, والبلديّة, كل تلك باتت جزءاً من الجيش الجديد, الحر الذي يتساءل الحجي عنه بسخرية: «ولكن ماذا يُفترض بتلك الكلمة أن تعني «حر» هل تعني أنهم أحرار في فعل ما بدا لهم؟»

ومفهوم «حر» ذاك، مفهوم ملتبس، قد لا نجد أدهى من حالة السجن المرتجل التابع للجيش الحر، وهو مبنى إداري سابق، كمثال عن ذلك، إذ يُحتجز فيه أشخاص يفترض أنّهم قاموا بجرائم التعذيب والاغتصاب والقتل، ويتمّ اعتقالهم بناءً على وجهة نظرٍ ما، بعد أن يتعرّف شهود عليهم.

المسؤول هنا هو رقيب سابق منشق عن جيش النظام, ضخم الجثة، لقبه «جامبو». بعد محادثات مطوّلة, سُمِح لنا بلقاء سجينين، كان أحدهما جاسوساً لميليشيات الشبيحة الشهيرة، وهو طالب في كليّة الفلسفة، كان يبلغ مخابرات النظام عن تحرّكات زملائه من الطلّاب. أما الآخر, فهو جندي متّهم باغتصاب سجينات، وضرب سجناء بالهرواة.

«هل تعلم ماذا فعلوا بي؟»

في وقت سابق، شرح لنا جامبو أنّهم يسعون لإقامة نظام عدلي هنا، ولكن يختم قائلاً:

«في النهاية نحن أمام خيارين, إما أن نقتلهم أو أن نطلق سراحهم».

«حوالي مئة سجين تم الإفراج عنهم خلال سبعة أشهر».

- «وقتلتم منهم؟»، سألناه.

- «القليل فقط».

- «حوالي؟»

- «قليلاً جداً»

- «هل تضربون السجناء؟»

- «لا... ليس أكثر من فلقة».

- «ماذا عن الصعق بالكهرباء؟» سأل أحد السوريين الذي انضم إلينا بعفويّة.

- أجاب جامبو غاضبا: «لا؛ نحن لانفعل أشياء كهذه, ولا نتّبع أساليب التعذيب, نحن لسنا مثلهم!».

- سألناه: «إذا ماهي الفلقة إن لم تكن تعذيبا؟».

يصمت لبرهة, ثم يستجمع نفسه ويجيب:

«هل لديك أدنى علم عمّا فعلوا بي؟ كان أكثر من مجرّد فلقة.».

كان جامبو معتقلا لدى فرع المخابرات الجوية لشهور، تعرّض للضرب والصعق بالكهرباء, إلى درجة جعلته يفقد السيطرة على جسده ويتبوّل لا إرادياً، كما أخبرنا. يَدين بحرّيته إلى عميد من الطائفة العلوية, كان معتقلا لدى الجيش الحر, وأُطلِق سراحه بعد أن تمّت مبادلته به.

أُمرْتُ أن أغتصب:

دخل شاب هزيلٍ إلى الغرفة، لايتجاوز عمره الحادية والعشرين، من الحسكة، المدينة الواقعة في الشمال الشرقي من سورية. أخبرنا عن اسمه، وقال أنه كان حاضرا عند اقتحام الجيش النظامي لجسر الشغور وإدلب، في الصيف الماضي. أخبرنا أنه كان شاهدا على ماحصل هناك, وبدأ يروي قصّته.

من المستحيل بالنسبة لصحفي أن يحدّد بشكل قاطع إذا كان الرجل يقول الحقيقة أم يقدّم اعترافاً فقط لينجو بجلده من العقاب. ومع ذلك, فالمعلومات التي أقرّ بها, توحي بصدق ما قال. ومن خلال الأسئلة, أثبت بأنّ التفاصيل التكتيكيّة للهجمات أمر مألوف لديه، واستطاع وصف معمل السكّر في إدلب من الداخل بالتفصيل، ذاك الذي استخدمه جيش النظام كمركز للتعذيب. في السنة الماضية، دخل المئات من الأشخاص ذلك المبنى أحياء, واختفوا بعد ذلك.

فيما كان الرجل يدلي باعترافاته لم يقاطعه أحد، تكلّم لساعات تطرّق خلالها لذكر أدق التفاصيل، وفي النهاية، تطابقت شهادته مع اعترافات شهود آخرين. قال: «اختارني العميد من الأمن العسكري مع أربعة عشر آخرين لتنفيذ العملية كمكافأة كما ادّعى، لكنّه كان أمراً في الحقيقة.»

«وما كانت تلك العملية؟»

« كانت أمراً باغتصاب نساء قاموا بإحضارهنّ».

في المرة الأولى تم اختيار ثلاث منهّن. بعد تخديرهن، قام عناصر المخابرات أولاً بتعريتهن واغتصابهن، بعد ذلك جاء دورنا لاغتصابهنّ على دفعتين، في الوقت الذي كان عناصر المخابرات يشاهدوننا فيه، مهددين بإطلاق النار علينا إذا لم ننفذ الأوامر بالاعتداء عليهن.

كيف أمكنك فعل الاغتصاب في ظروف كتلك؟

- كانت المرة الأولى صعبة, إلا أنّها أصبحت أسهل فيما بعد. كانت النساء في مقتبل العمر وتم اختيارهنّ بعناية وحرصوا على عدم اعتقالهن مع أقربائهن، أو من يمكن أن يسأل عنهن، أو يتعرّف عليهن».

- «ماذا بعد؟»

- «تم أخذهنّ بعيداً».
- «إلى أين؟»
- «بعيداً» ..

«ضربناهم حتى النهاية» أخبرَنا أنه شارك في تنفيذ أوامر بالاغتصاب إحدى عشرة مرة، في البداية كانوا يختارون النساء من السجينات، ثمّ أصبحوا يجيئون ببعض الموقوفات على نقاط التفتيش.

- وماذا عن الرجال؟
- في إحدى المرّات جاؤوا بعشرين منهم، وألقوا بهم جميعا في غرفة. في الوقت الذي كنّا فيه مائة وخمسين، مع هراوات . أوعز لنا العميد بأن نبقي المطلوبين منهم على قيد الحياة أما الباقي ممّن ليست لهم أسماء، فكان علينا أن نضربهم حتى الموت».
- وبعد؟
- نعم ...
- « ماذا حدث بعد ذلك؟»
- « ضربناهم حتى النهاية... حتى فارقوا الحياة».

قالحارسوه: ستتشكل محكمة، وستقوم بإصدار الحكم على الرجل. ثم رددوا الحكم الشرعي: «القاتل يُقتَل».

لكن مسألة القتل بالنسبة لهم ليست بتلك البساطة، فلو كانت كذلك فعلاً، لأطلقوا النار على هذا الرجل منذ مدة طويلة. أشلاء على الطريق

«علينا ألّا نستسهل القتْل»، يقول ياسر، ثم يشرح لماذا ظلت قرية مجاورة تتساهل مع عائلة تضمّ ثلاثة أفراد جنّدو أنفسهم كمرتزقة للشبّيحة.. «ببساطة، كنّا نأمل أن يتوقّفوا عن ذلك».

ولكن تبيّن أن ذاكَ كان خطأً مأساوياً. فذاتَ خميس، خطط الأخوة الثلاثة لركوب باص صغير إلى حلب، حيث يشاركون في قمع المظاهرات التي ظلّت تتكرّر سلميّاً في المدينة. وليس ذلك إلّا مثالاً واحداً عن جنون تلك الحرب، أن يعمد ثلاثة من المرتزقة إلى السفر مدججين بسلاحهم، عبر أراضٍ تابعة للمعارضة، واستخدام باص بغرض توفير المال فقط.

على الطريق طلب منهم أحد حواجز الجيش السوري الحرّ أن يرى هويّتهم. ونشب خلاف، دفع اثنين من الشبيحة لاستلال سلاحهما، لكن أفراد الجيش السوري الحرّ كانوا أسرع، وقتلوهما.

وحاول الثالث رميَ قنبلة يدوية في الباص، الذي كان نصف ممتلئ بالركّاب، لكن رجلاً واقفاً بجانبه حاول منعه، لكن المرتزق حشر القنبلة في فتحة قميص الرجل وسحب المسمار وقفز جانباً في آخر لحظة، حين مزّق الانفجار جسد الرجل، الذي لا علاقة له بشيء، إلى أشلاء، تطلّب دفن ما تبقّى منها، وما لم يمكن حملُه مقداراً كبيراً من الرمل.

وبعد أن غفل أولئك اللذين جمعوا الأشلاء عن بعض تلك الأشلاء، قام رجل آخر بجمع بقاياها المتناثرة على تقاطع الطريق في علبة للمناديل الورقيّة: نثرات عظام، أحشاء، قطعة صغيرة من الدماغ مسحها بتأنّ من على الاسفلت باستخدام منديل ورقي. ووعد شخص آخر بالمجيء بالعلبة مليئةً إلى المقبرة. وحين همّوا بالمغادرة كان رجل مسنّ قد ساعد بصمت في جمع الأشلاء وكان يقف حاملاً قطعة من جمجمة، ولا يعلم ماذا يفعل.

كان الجميع في عجلة من أمرهم، فأسرعوا مبتعدين حيث كانت أصوات نيران الأسلحة تُسمع مجدداً في مكان ما في المحيط، وتُركَ الرجلُ المسنّ وسطَ التقاطع، محدّقاً بصمت في الآخرين المبتعدين، وقطعة من جمجمة في يده المرفوعة، بما يشبه التحية.

كريستوف رويتر في شبيغل أون لاين

صحفي من بريطانيا

ترجمه عن الإنجليزية: مروان زكريا.

دفاعا عن المتمردين: شهود عيان ينقضون مزاعم باطلة من النظام السوري حول مجزرة الحولة

كريستوف رويتر

تحدثت تقارير ألمانية مؤخراً على أن متمردين سوريين هم من قام بمجزرة الحولة، ثم قاموا باتهام قوات الرئيس الأسد بذلك. لكن شهود العيان على عمليات القتل يناقضون هذا الزعم.

لقد كان الوقت بعد ظهر اليوم الخامس و العشرون من شهر أيار عندما أخذت الحولة القريبة من حمص شهرة عالمية كمرادف لوحشية النظام في سوريا. كانت البلدة مسرحاً لمجزرة راح ضحيتها 108 من الأشخاص، معظمهم من النساء والأطفال.

في الأيام الماضية ذكرت تقارير ألمانية أن متمردين هم من نفذوا المجزرة و اتهموا وحدات الأسد بذلك. إلا أن روايات شهود العيان للشبيغل تقدم صورة مختلفة عما تم ذكره في هذه التقارير.

أيمن حسن عبد الرزاق، المزارع الذي نجا من المجزرة، يخبر بأنه كان قد رأى حافلة ممتلئة بعناصر عسكرية سورية كانت متجهة صوب التلة المتجهة نحو القرية، و التي تبعد حوالي النصف كيلومتر جنوباً و ذلك قبالة الساعة الخامسة بعد الظهر من ذلك اليوم. حوالي ال60 أو ال70 عنصراً ممن يرتدون زياً نظاميا اقتحموا القرية، يرافقهم حوالي مائتي عنصر من الرجال بملابس مدنية.

عبد الرزاق، الذي كان قد اعتقل مؤخراً، وجد مكاناً للإختباء بين الحقول و الأحراش. بعد دقائق قليلة سمع بأن زوجته وأطفاله الخمسة قد تم قتلهم.

و تقول شاهدتا العيان الآخريين، أم شعلان عبد الرزاق و سميرا سوا (الكنية غير واضحة)، بأنهن شاهدن مجموعتين من العناصر العسكرية و المدنية، وقد تجمعتا عند أعلى التلة، ثم قامتا بدخول منطقة تلدو. قبل ذلك بوقت قصير كان القصف بالهاون على الحولة قد توقف.

شاهد آخر، فضل الكشف عن إسمه الأول فقط، سارية، قدم وصفاً لوصول باصين بلون أبيض وثلاث سيارات كبيرة على الأقل. لقد رأى أيضاً جنوداً نظاميين، وضباطاً من المخابرات وبحوزتهم أسلحة، ورجال يرتدون بزات رياضية وآخرون بلباس مدني يحملون مناجل وهراوات.

يقول سارية: كانوا فقط ثلاثة رجال من دخل البيوت. لقد كان من الصعب البرهنة على أنهم كانوا فعلاً شبيحة من قرية فلة، القرية العلوية المجاورة. و لكن كان هناك ما يدعو للافتراض بذلك، إذا أنهم شوهدوا يصلون على الأقدام إلى القرية الواقعة على التلة هناك.

إفادات أخرى قدمها شهود تناقض أيضاً ما جاء في التقارير التي صدرت مؤخراً عن صحيفة فرانكفورتة ألغيماينة تسايتونغ وبعض المواقع الأخرى، وقد اتهمت المعارضة بتنفيذ المجزرة. وبشكل يناقض هذه التقارير، السّنة فقط هم من يسكنون الحولة ولا وجود لأي من الشيعة الموالين للنظام.

على كل حال، لماذا يقوم متمردون بتنفيذ مجزرة بحق أناس مؤيدين لهم، أولئك الذين تم دفنهم، و يا للصدفة، بمساعدة السّنين من أهل الحولة؟

هذه المادة تقرأ كتكذيب لرواية تبنتها منابر ألمانية تتهم الثائرين بمجزرة الحولة. يجب أن تقرأ على هذه الخلفية حصرا.

شبيغل أون لاين، 19.06.2012

ترجم النص من الألمانية جمال صبح

إلى أمّي السوريّة.. أمّا أنت أيّها القاتل فيا ‹لرهبتك من المقتول›

لطيفة اغبارية

لا أعرف سرّ انجذابي في الآونة الأخيرة، إلى ‹كزهر اللوز أو أبعد، لمحمود درويش، رغم أنّني حفظت الكتاب عن ظهر قلب. فأصبحت عيناي تُوجّهاني تلقائيا إلى المكتبة لتناوله وقراءته مرّة تلو الأخرى. رُبما لأنّه يُذكّرنا ببداية آذار وتفتح زهر اللوز، أو أنّها وصايا درويش التي يحثُّنا من خلالها على التفكير بالغير وبأدّق التفاصيل.

ها هو عام قد انقضى، على آذار الثورة السورية، والوريد ما زال ينزف، وجراح الثكالى لم تلتئم، ودماء الشهداء خضراء....، وها نحن في بداية آذار جديد، وهذه المرّة يطلّ علينا يوم الثامن من آذار، يوم المرأة العالميّ، متزامنا مع موسم الربيع والثورات العربيّة، له نكهات مختلفة ومركّبة، ما بين حلم التخلّص من أنظمة فاسدة تربّعت عقودا على رقاب الشعوب، وما بين ترقّب الأمل في وقف سيل الجروح وتضميدها.

ومع تفتّح أزهار اللوز، سألتصق بحديثي كالثّوار الذي يزين الشجرة الأمّ ويحضن أغصانها. لذلك لن أُطلق الفقاعات المائية الهشّة، المليئة بالشعارات والتمنيّات، لأنّنا أطلقنا مثلها كثيرا. وإذا ما عدنا وأطلقناها مرّة أخرى ، فإنّها سرعان ما ستطير وتنفقئ أعينها، وتتلاشى، وتصبح أضغاث أحلام، يدوسها الشبيحة.

نريد لهذه الفقاعات أن تنمو لوحدها، وتصبح سُحبا تفيض بالماء الذي يروي خضرة الأرض، سُحُبًا ترسم في الأفق قوس قزح يحمل في طياته أياما ربيعية جديدة، لها نكهة وطعم اللوز، ورائحة الياسمين الدمشقيّ.

ففي يوم المرأة هذا العامّ، ما زال الرجال في الشّام يحلمون بنوم هادئ، يتخلصون فيه من الأنفاس المتعبة المتقطّعة، دون سماع تمضية سكين الذبح، ودون الاستيقاظ على زئير الأسود، وأزيز الرصاص. يحلمون بنهارات غير ثكلى، لا تحمل بكاءً وعويلا. أمّا من يعيش ناجيا من ضرب السياط، ومن الموت المحتوم، فهو ينام مثقل الجسد، يرقب نهارا جديدا يحمل في طياته، آمالا بنفسجية، يصلّي للنجاة والظفر بحياته من عذاب وسياط الجلاّد.

لن أتحدث عن يوم المرأة، ولن أطالب بحقوق نسوية للمرأة العربية، ليس لأنّها تنعم في رغد ورفاهية، وليس لأنّه لا توجد ملايين الأرامل والثكالى في العراق. وليس لأنّ شوق آلاف الأمهات وزوجات الأسرى الفلسطينيين قد انطفأ. ولا لأنّ القبور لم تعد مأوى الكثير من نساء مصر. ولا لأنّه لم تعد هناك ملايين العوانس في العالم العربيّ....! لن أطيل عليكم بقائمة حرف النفي ‹ليس، وهو ذاته الفعل الجامد...فهو مركّب كحالة ووضع أمتنا العربيّة. لكنّني أختصر ذلك بالقول تبّا لك أيّها الجلاّد، أيّها القمع، أيّها الترهيب، تُبّا لسياسة كتم الأفواه وقطع الألسن، أيها الفقر والفراغ واليأس القاتل، الذي ملأ الكراسي الخشبية الضيّقة المتشقّقة بالرجال العاطلين عن الأمل، وملأ المقاهي بأنفاس ‹ النرجيلة، المخنوقة الهاربة من هذه الأيام .

وبما أنّني ما زلت أؤمن أنّ الرجال العرب ليست لهم حقوق، فكيف لنا إزاء هذا الوضع أن نطلب تحقيق العدالة والمساواة من فاقدها؟ وكيف لكادح يومه من أجل توفير لقمة العيش، أن يعود بعد عناء ساعات طويلة إلى بيته فاردا ابتسامته العريضة برحابة صدر؟على كلّ حال، فإنّ أكثر ما يواسينا أنّنا أصبحنا جمرا مشتعلا، حتى لو كنّا تحت الرّماد، ومن هذه النيران أشعل الشهيد محمد البوعزيزي الثورة التونسية، التي ألهبت الملايين لاحقا. ومنها خلقنا بصيص الأمل المستمر،

ومنها خلقنا الرجال. وقبلها خُلق الشعراء. هذه النيران الكامنة تحت الرماد يجب ألا نستخفّ بها، فالأُم الفلسطينية ما زالت تغطيّ الجمر بالرماد، ليبقى ‹ الطابون، مشتعلا ليومه التاليّ، ولتقوم بإعداد أرغفة الخبز، وليلتّف حولها أبناؤها، لتكبر سنابل القمح.

سأختصر رسالتي هذا العامّ، وأهديها لأميّ السورية، وبما أنّ الكلمات هربت مني تكرارا، فلم أفلح في إطالتها، فسأسترق ما تبقى من كلماتي المبعثرة، فأقولك لك يا أمّي السوريّة، هنيئا لك بالصبر، لأنّه مرّ آذار...وحضر آذار...وأنت تعيشين تحت سطوة الجلّاد... يا سيّدة الشّام الغالية على قلوبنا، كم أخجل من نظراتك، وأنت تنسجين خيوط الشمس من دماء أبنائك، على مرأى من العالم المتحضّر.

أيتها الغالية، التي لا أعرف أن أنام دون أن أفكّر بها، ليس لأنّ وصية درويش، فكر بغيرك، وحدها تطاردني! بل لأنّ نظراتك وخطوط الحزن المرسومة على جبهتك الشامخة، كافية لوحدها أن تجعل من حيز العقل مرتعا للتفكير بلا إرادة! لا أفكّر بك حتى أقول لك هذه منّة أو جميلا منّي..إنّها فيض المشاعر تغزو عقلي، وتشعل رأسي شيبا، من هول صراع التفكير، من رهبة الدماء، من تزهيق الأرواح ... من أحرف الجرّ التي قادتك إلى الجرّار.

أعدك بأنّني سأبقى أفكّر بك..فما زلت أحتفظ بوصايا درويش المقدّسة في ذاكرتي، وتحت وسادتي الخالية إلا من التفكير بك...يا أمي...ويا أمّ الشعب العربيّ...ويا أمّ الشعب السوريّ الغالي. أمّا أنت أيّها القاتل فيا ‹لرهبتك من المقتول› !

كاتبة وصحافية من أم الفحم -فلسطين المحتلة .
Latifa_agh@yahoo.com

أنا الفلسطيني السوري ـ السوري الفلسطيني...

ماجد كيالي

اللوحة الأولى
في البحث عن معنى الهوية

أنا فلسطيني سوري، أي لاجئ في سوريا، ولكن بمعنى ملتبس وغريب ومفارق. فلم آتِ إلى سوريا من بلد آخر، ولم أحصل قطّ (وأنا أشارف على الستّين) على أيّة جنسية أخرى، فقط «لجأت» إليها مباشرة من بطن أمي، حيث «وطني» الأوّل!
ومع أن سوريا بلد يتغنّى بالقومية العربية، ويستهويها القول بأنها «قلب العروبة النابض»، فأنا مازلت لاجئاً فيها، وهذا انطبق على أولادي ثم أحفادي.
المشكلة أن فلسطينيتي، مثل كل الفلسطينيين السوريين، ليس لها معنى قانوني، أو دولتي، وإنما هي كذلك بمعنى هوياتي، أي بمعنى الوطنية/السياسية، وهي فلسطينية افتراضية، بانتظار الذي يأتي أو لا يأتي، بخاصّة بعد حصر هذه الصفة بفلسطينيي الضفة والقطاع (بعد إقامة السلطة).
أما مشكلتي مع سوريّتي، فهي إنني بمنزلة المقيم، الضيف، الموجود خارج الحيّز القانوني والسياسي للمواطنة السورية، من دون أن أفهم هذا التناقض المتمثّل بكوني لاجئاً بين بني قومي. ولعل ما يخفّف من هذا التأزّم الوجودي واقع أن السوريين أنفسهم لا يتواجدون في حيّز المواطنة أصلاً، بمعنى الكلمة، لذا فمن شابهك بنفسه ما ظلم، حيث أننا نحن (كلاجئين) وإياهم في حيّز المواطنة الشكليّة أو الافتراضية.
لهذا كله، ولأسباب سياسية وثقافية وفولكلورية وسيكولوجية واجتماعية وتاريخية، فإنني أنا الفلسطيني . السوري لطالما شعرت بأنني مصري أحياناً، وتونسي وجزائري في بعض الأحيان، وبأنني لبناني في أحيانٍ كثيرة، مع ذلك فإن سوريّتي هي الوحيدة التي ظلّت على الدوام تنازع أو تنافس أو تحاكي فلسطينيّتي. ق
بل أكثر من نصف قرن، جئت من والدين فلسطينيين لاجئين، حيث ولدت في حيّ باب «قنّسرين» (أحد أبواب المدينة القديمة في حلب)، وعشت في حي «الكلّاسة» الشعبي، ودرست الابتدائية في مدرسة اليرموك في الحيّ ذاته، ثم في إعدادية عبد الرحمن الغافقي (في حي المشارقة) وبعدها في ثانوية المتنبي (في حي الجميليّة). أما في دمشق فقد درست في جامعتها، في قسم التاريخ في كلية الآداب، وسكنت في أكثر من حيّ فيها، في ركن الدين والقصاع ودمّر ومخيم اليرموك والديماس.
وفي سوريا تدرّبت في معسكرات «فتح» في مصياف وغوطة دمشق، وكوّنت صداقات في حلب ودمشق وحمص واللاذقية وحماه وادلب والرقّة ودرعا، فلي في كل هذه الأماكن ذكريات حميمة وحياة كاملة وعوالم جميلة.
كل ما فيّ لا يفرّقني عن أيّ سوري لا في النشأة والدراسة ولا في المعاش والسياسة، لا في الواقع والحياة ولا في الأحلام والآمال، سوى أنني رضيت بقدري بتعيين هويتي كفلسطيني، مثل غيري، وهي الهوية التي بتّ أعمل وأحرص على اصطناعها، وتنميتها، في حياتي وصداقاتي وتخيّلاتي وآمالي.
لكنني في غضون ذلك لم أكن أشعر بأنني أحاول أن اكبت سوريّتي، لصالح فلسطينيّتي. كما لم أكن أشعر بأنّ سوريّتي، تسكن فيّ، وتتملكني بما لا يقل عن فلسطينيّتي. فما أن اندلعت ثورة السوريين، التي جاءت مفاجئة جداً، وشجاعة جداً، ومدهشة جداً، بدءاً من درعا إلى دوما وبرزة والقابون وحرستا والحجر الأسود والزبداني والضمير والرستن وتلبيسة واللاذقية، وصولاً إلى حمص وحماه وادلب والقامشلي وريف حلب والرقّة ودير الزور والبوكمال، حتى باتت فلسطينيّتي

تغار من سوريّتي، وباتت سوريّتي تفيض حتى على فلسطينيّتي.
اللافت إنني في خضم هذا التنافس والانفصام والتمزّق، الذي كنت أتحسّب منه، وجدت نفسي إزاء توليفة لافتة ولطيفة ومدهشة حقاً، إذ لم أشعر يوماً بأن سوريّتي وفلسطينيّتي تتكاملان وتتصالحان وتنسجمان مثلما هما الآن، في التماهي مع نشيد الحرية الذي يصدح به شعبي في سوريا؛ ومن دون الحاجة الى جواز سفر.
فقد وجدتني طوال العام الماضي من عمري وكأنني أعيش هوى جديداً وعمراً جديداً وأملاً جديداً، لكأنها «عودة الروح»، إذ باتت مشاعري وهمومي وتوجّساتي وآمالي متوزّعة بين شعبي في فلسطين وشعبي في سوريا. وهكذا بكيت سوريّتي، في العام الماضي، كما لم ابك يوماً فلسطينيتي، وحتى إنني ربّما استبشرت لسوريّتي كما لم استبشر يوما لفلسطينيّتي، ورغم ذلك فإن فلسطينيّتي، التي لطالما كانت عزيزة علّي، تسامحت مع سوريّتي، وأفسحت لي مجالاً للبكاء والألم والغضب والأمل.
ما كان يمكن لي، أنا الفلسطيني، أن أكون على الحياد إزاء الثورات التي تحاول تحرير شعوبنا من عقدة الخوف، ومن ربقة أنظمة الاستبداد والفساد، التي أضاعتنا وهمّشتنا وقيّدتنا، ففلسطين ليست مجرّد قطعة من الأرض، ولا مجرد ذاكرة موروثة، فلسطين هي معنى للحرية، أيضاً، هي أمل بمستقبل متخيّل، ولا معنى لفلسطين بدون أمل وبدون حرية.
والأمر أن الثورات جرفتني إلى معمعانها تابعاً هوى قلبي. لم اشعر البتّة بأن في ذلك نقضاً لعهد «عدم التدخّل في الشؤون الداخلية»، الذي صكّته القيادة الفلسطينية في يوم ما، لأن الحق في الحياة والحرية والكرامة هي حقوق إنسانية، وجودية، قبل سياسية. لذا فإذا كنت انشد الحرية لشعبي في فلسطين، وإذا كنت مع حرية الشعوب في كوريا (الشمالية والجنوبية) والصين والمكسيك وروسيا والولايات المتحدة، وفي السعودية والبحرين وجزر القمر وزيمبابوي، وفي أي بلد في العالم، فالأحرى لي أن أكون مع حرية شعبي في سوريا.
هكذا، وقبل أيام قليلة، وفي يوم المذبحة في كرم الزيتون في حمص، شنّت إسرائيل هجمتها على حي الزيتون في غزة. وأحسب بأنني ما أحسست في عمري بهذا القدر من القهر مثلما أحسست في ذاك اليوم.
مصدر القهر ليس حجم المأساة التي يعيشها شعبي في فلسطين وسوريا فقط، وإنما في المقارنة الصارخة، الجارحة، فشعبي في فلسطين يقتل على يد إسرائيل، لكن إسرائيل هذه، العدوّة والمصطنعة والحقيرة، لا تقتل شعبها! في اليوم المذكور بات أصدقائي في حمص يسألوني (عبر السكايب والفيسبوك) عما يجري في غزة، وأصدقائي في غزة يسألوني عما يجري في حمص. وهكذا تماهت فلسطينيتي مع سوريتي في نشيد واحد.

اللوحة الثانية
في البحث عن معنى لمجزرة

هذا ما حصل معي. وأعرف بأنه حصل مع كثيرين غيري. فلم استطع البتّة تحمّل خبر بحجم المجزرة المهولة التي راح ضحيتها 108 من الأبرياء، ضمنهم 50 طفلاً، و34 امرأة. هذه ليست مجزرة عادية، ولاتتوقّف على أعداد ضحاياها، فقط، فثمة هنا قتل بأعصاب باردة، قتل عن قرب حيث ينظر القاتل في عيني مقتوله، لايهمه ما يقول بعينيه، لايهم أن كان خائفاً يرتعش، أو خاشعاً يترجّى الرحمة، أو واجما مستلب الحواس.
طوال أيام كنت في حالة ذهول، أو كمن أصابه مسّ. كنت أفكّر بالمعنى الذي يكمن وراء هذه المقتلة، وأتأمل أسماء المقتولين. يا الله..ماهذا الظلم؟! ثمة 62 منهم من عائلة واحدة هي عائلة عبد الرزاق، بينهم 32 طفلا دون العاشرة، و20 امرأة، وعشرة رجال. ما الذي فعله أو لم يفعله هؤلاء حتى استحقوا هذه المقتلة أو هذا الإفناء؟ ما الذي يريده القاتل

من كل هذا القتل؟ أو ما المعنى الذي قصده؟ يا الله كم أن ذلك قاسٍ ومؤلم ومرعب.ما زلت اتطلّع في صور ضحايا هذه المجزرة، تطلّعوا معي..أنظروا...مهلاً...مهلاً.. أعرف أن ذلك مؤلم جداً.. لكن لاتشيحوا بأنظاركم..انظروا جيدا..تمعّنوا جيدا.. في وجه هذا الطفل البريء أو في عيون هذه الطفلة البريئة، هذا يشبه ابني.. وهذه تشبه ابنتي..هذا يشبه ابنك وهذه تشبه ابنتك.. ابنكم..ابنتكم..ابننا.. ابنتنا... وهذه المرأة وهذا الرجل يشبه أخي أو أختي.. أخوك أو أختك، والدي أو والدتي.. والدك أو والدتك.. جارنا أو جارتنا. وهذا..وهذه كان يمكن أن، يكون أنا أو أنت أو أنتِ.. فهؤلاء نحن، أيضاً، انظروا في عيونهم جيدا.. تروا أيضاً عاري وعاركم..عارنا.. يالعارنا.

انتظروا قليلاً..دعونا نتخيّل اللحظات الأخيرة لهؤلاء، أو لنا نحن، في هذا الموقف، فما الذي يمكن قوله؟ وما المشاعر التي يمكن أن تنتابنا؟ كيف نفكرّ بأنفسنا أو بقاتلنا في هذه اللحظة الفريدة التي لا لحظة بعدها؟ ترى هل قال هؤلاء الضحايا كلمة ما؟ أو هل فكّروا فينا كيف تركناهم؟ هل فكّروا كيف أوصلتهم الأقدار إلى هذه اللحظة؟ هل هي لحظة رعب أم خوف أم ضياع؟ هل سألوا عني أو عنكَ وعنكِ وعنا؟هل سألوا ماهذه الدنيا التي جاؤوا إليها؟ ماهذا الموات والخراب العميم الذي شاهدونا نعيش فيه؟ أتراهم فضّلوا البقاء أم الرحيل عن هذه الدنيا التافهة؟ والقاتل بماذا كان يفكّر، إن كان يفكّر؟ وكيف يصبح القاتل قاتلا بهذا الشكل الذي يقتل فيه نفسه؟ إذ عندما لايعود ثمة معنى للقتل، لا في السياسة، ولا بما يتعلق بأغراض السلطة، يصبح بمثابة محو كامل، ليس للمقتول فقط، وإنما للقاتل، أيضاً. هنا لدينا قاتل لايعي ما يفعل، إذ تحول إلى آلة، وأداة للقتل، لا سيطرة فيها على نزعة القتل، الذي بات بدوره غاية في ذاته. والقاتل هنا شبح تضخّمت أناه وأضفت على نفسها أبعاداً ميتافيزقية، لابشرية، إذ لا يمكن لبشري، أو لأحد يعي انه يعيش في مجتمع بشري، أن يفعل ذلك، فهذا عدم مطلق.

طبعاً، ليست هذه هي المقتلة الوحيدة التي شهدتها سورية منذ 15 شهر، لكنها الأكثر بشاعة وحقارة. ولعل ما يميّز هذه المقتلة، ومثيلاتها، إنكارها، أو التنكّر لها، إذ ليس ثمة سلطة تعترف بمسؤوليتها عن التنكيل بالناس، أما القتل الذي يحدث فهو من عمل عصابات إرهابية، تنضوي في إطار مؤامرة خارجية، وتتغذى من الدعم الخارجي، وإن لم يكن كذلك فنتيجة للفلتان الأمني، وفي كل هذه الأحوال المهم ضمان براءة السلطة. وفي الواقع فإن هذا الوضع الإنكاري، لما جرى في الحولة وفي حالات أخرى، هو ما يميّز ما يجري في سورية عن ماجرى في غيرها، رغم وجود هذه الظاهرة في ليبيا القذافي. لكن سورية تتميّز عن سواها، أيضاً، بما بات يعرف بصعود وتفشيّ ظاهرة الشبّيحة في فضاء الصراع الأهلي الجاري فيها، وهي صيغة جمع لمفردة الشبّيح، وهؤلاء باتوا على شكل عصابات منظمة، وبات لهم نوع من «المشروعية»، وقد اشتهروا بدمويتهم، وبعدم وجود ضوابط أو حدود لتنكيلهم بالناس، لا قانونية ولا أخلاقية.ومعلوم أن كلمة الشبّيح هذه مصطكة من كلمة شبح الذي هو خيال لشيء ما، أي انه شيء غير ملموس، وغير واقعي، ولا يمكن توقّعه، ولا توقّع أفعاله. هكذا بات القتل والتنكيل والاختطاف في سورية تقوم به أشباح، وهكذا وسمت معظم المجازر في سورية باعتبار أنها من فعل شبيحة، أي أشباح، وبديهي أن هؤلاء لايمكن في معظم الأحوال تعيينهم أو التحقق من شخوصهم أو إثبات فعل القتل عليهم.

ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أن الضحية تقتل عدّة مرات، مرة بسلب حياتها، ومرة ثانية بإنكار شخصية القاتل، ومرّة ثالثة بمحاولة إفلات المجرم من العدالة، هذا في حال الإقرار ببراءة الضحية من أية شبهة سياسية. هكذا نحن أمام واقع من استلاب مزمن يتأسّس على محاولة إنكار أن ثمة مجزرة، أو أن ثمة قتل، وحتى إنكار أن ثمة قرى أو أطفال، لأن الرواية من الأصل تتأسّس على إنكار وجود شعب، بمعنى الكلمة، لأن الموجود هو كناية عن جماهير تهتف هتافاً واحداً، ولها صوت واحد وصورة واحدة وأب واحد. أما في حال الإقرار بوجود جريمة فإن هذه العقلية الإنكارية تتحول نحو الإنكار على هذا الشعب، الذي اعتاد على العيش بوداعة، أما الطلب على الحرية والكرامة والعدالة، فهذا أشياء خارج نطاق

التصوّر، والمألوف، وهي دليل «مؤامرة»، ومجرّد ألاعيب خارجية.

ذلك يفسّر أن حالة المحو والإنكار السائدتين، لاتقتصران فقط على منع الكلام، أو إنكار واقعة ما، وإنما هي تشمل محو الصورة، ففي غياب الصورة لاتوجد واقعة من أصله. ولعل هذا يفسّر التشدّد مع الصحفيين وناشطي صفحات التواصل الاجتماعي، والمصوّرين، الذين يوثقون كل مايجري، والذين تم استهدافهم بالتحديد، بحيث لقي 36 منهم مصرعهم، وأخرهم المخرج باسل شحادة، الذي ترك بعثته في الولايات المتحدة كي يعود إلى حمص ويوثّق ما يجري فيها بالصوت والصورة؛ مع التشدّد أيضاً ضد الأطباء والحقوقيين لدورهم في عملية التوثيق أيضا.

على أية حال ستسجّل مجزرة «الحولة» في سجل المجازر التي عرفتها هذه البلاد، من دير ياسين واللد والدوايمة وصفورية كفر قاسم في فلسطين، إلى تل الزعتر وصبرا وشاتيلا وقانا في لبنان، إلى حلبجة في العراق، وصولا إلى مجازر الجنجويد في السودان. وللأسف فإن كل واحدة من هذه المجازر باتت تشكّل مآسينا المرّة وذاكرتنا المربكة وهوياتنا المتعثّرة في هذه المرحلة من تاريخنا التي نبحث فيها عن مبنى ومعنى لوجودنا في هذا العالم. وفي غضون ذلك سنظلّ نصغي السمع لرجع صدى لأصوات أطفال الحولة في لحظاتهم الأخيرة وستظل صورتهم تلك معشعشة في مخيلاتنا.

اللوحة الثالثة

ما في حكي وما بقي حكي أمام كل هذا الموت...»

منذ عام ونصف باتت حياتنا محسوبة بتظاهرة هنا أو هناك، وباعتصام هنا أو هناك، وفي من ضرب، ومن اعتقل، ومن قتل، من الأصدقاء، أو الجيران، أو المعارف، أو من هذه الحارة أو تلك، في مدن و«ضيع» سورية. منذ عام ونصف بات إيقاع حياتنا يمضي مع نشرات الأخبار، بين محطة ومحطة، ومع صفحات الفيسبوك، بين صديق وصديق، ومع ترصّد مزيد من المعلومات من هذه الجهة أو تلك.

مع الزمن لم يبق ثمة كلمات يمكن قولها بشأن مايجري حقاً في سورية، فلقد عجزت الكلمات، ونضبت، فما يجري يصعب وصفه، أو حتى تصوّره، فهو شيء مهول، ومروع، ومفجع، وموجع، ومأساوي، بقدر ماهي الثورة السورية مدهشة، بشجاعة السوريين الرائعين، وباستعدادهم العالي للتضحية، وبتضامنهم الحميمي، وبإصرارهم غير المسبوق، وبجوعهم الذي لايضاهى إلى الحرية. حتى الصور المبثوثة لايمكنها أن تحيط بكل هذا القتل الأعمى، والتدمير المعمم، والتنكيل الاهوج، فما يجري لوأد ثورة الحرية والكرامة أضعاف أضعاف ما تبثّه الأقنية الفضائية، والشبكة العنكبوتية، وأصلاً فإن ما يبثّ هو اقل القليل، وهو نتاج جهد شجاع، يقوم به «فدائيون» حقاً، بدليل أن كثيرا منهم لقوا مصرعهم، أو اختفوا، في سبيل الحقيقة.

هكذا، ففي الأيام التي تلت ماجرى في الحولة والقبير والحفّة، لم أعد أستطيع أن أتجاوب مع صديقتي خولة، ابنة تلبيسة (فثمة أكثر من خولة رائعة في سورية). كانت خولة تحيطنا، عبر صفحتها، بما يجري في قريتها لحظة بلحظة. في إحدى رسائلها قالت خولة: «عاجل...قصف عنيف ومدمّر وغير مسبوق على تلبيسة هو الأعنف حتى الآن، الصواريخ و قذائف الهاون تتساقط أغزر من المطر و لا نعلم ما عدد الجرحى و اشتعال النيران في المنطقة الغربية من المدينة غربي الطريق العام و الأهالي يستغيثون..أين المراقبون؟!...أين العالم؟! ياالله مالنا غيرك ياالله.» لم استطع أن اكتب شيئاً...ثمة شيء كثير يجتاحني من القهر والعجز والغضب.

الصديقة العزيزة رفيدة (فلسطينية سورية) تعيش مع زوجها وولديها في برزة بدمشق، كانت دائما تحدثنا عن ما تكابده هناك. في مرة كتبت: «بدنا قلوبكم معنا... هذا اضعف الإيمان.. نحنا محاصرين بكل أنواع الأسلحة..برزة الله يحميكي ويحمينا.» وكانت قبلها كتبت: «ما في حكي أدّام (أمام) الموت.. الدموع والوجع.. ما في حكي ادّام مطر من القذائف

والرصاص فوق راسك .. بيوت عم تحترق.. وأولاد عم تصرخ ونسوان عم بتولول...ما في حكي.» وقبل ذلك كتبت «موت بطيء..ياعالم..عم منموت موت بطيء.» رفيده هذه تعرّض بيتها مرارا للانتهاك، مثلها مثل حارتها، التي تعتبر من المناطق الساخنة في دمشق، وهي ذاتها تعرّضت لضرب مبرح من الشبيحة، ومع ذلك فقد رفضت، وعائلتها، عروض كثيرة لمغادرة الحي، فهي تقول «اللي بيصير على جيراننا بيصير علينا.. راسي مرفوع مع هيك شعب».

كوليت بهنا كتبت، قبل أيام، تناجي ربها: «يارب..اجعل من حضن كل معتقل وسادة طريّة لرفيقه المعتقل (المنهنه) من التعذيب..اجعله كحضن أمه وأخته.. حنوناً ومعطراً ومطرزاً بحروف الرأفة..يارب..اجعل ذاكرتنا مستيقظة صبحاً وليلاً كي لانسهو عن آلامهم في غفلة ما». وكتبت أيضا: «في الوقت اللي عم نشرب فيه قهوتنا الصباحية.. أنتوا عم تشربوا المرّ.. عم نتأفف وضجرانين من الجبنة واللبنة..وأنتو عم تستحلوا شقفة خبزة طرية..شوية شوب وعجقة بخلونا نصير نزقين.. أنتو شو عاملين بهالفرن اللي محشورين فيه؟؟..عرق ملح بإصبعتنا بوجعنا ساعتين.. مين عم يداوي جروحكم ويمسح دموعكم؟؟ صباح الصبر ياكل المعتقلين..يا كل اللي بنعرف أسماءهم واللي ومابنعرف عنهم غير إنهم ولاد وصبايا بلادي اللي متل الفلة ..شو ماقلنا مقصرين .. ياريت الكلمة بتجيب نتيجة كنا ضلينا عم نحكي..» وتروي كوليت حادثة حصلت معها، إذ تقول:»من مدة ماحاكيتو..واحد من البياعين اللي بشتري من عندو..قلتلو: ماعم لاقيك.. وين غاطط؟؟ قال لي: والله غبت يومين تلاتة للعزا..الله أكرمنا بابن عمي شهيد..شعب بقول (الله أكرمنا) وبيرضى بقضاء الله وقدره بكل صبر وبعضّ ع جروحه شعب مابينهزم..نعم ..إيمانهم يقوينا». كوليت هذه كتبت عن نفسها «وصيّة» قالت فيها: «ماحدا يلفني بالكفن متل بونبونة بلا سكر..ماحدا يحشرني بتابوت متل سمكة سردين..ماحدا يعمل العلم شادر فوقي..بدي منكم بس قنينة سفن آب..وشوية بزر وفستق للتسلاية..وكل مرة تحكولي عن أخبار السينما..» صديقتها هالا محمد أجابتها: «احسبي حسابي ياكوليت». فردّت كوليت: «معناها صار بدنا كازوزتين». وفي ذات يوم صاحت كوليت: «ياهدوك..يللي بتنتموا لضيع الساحل بكل طوائفو..إذا كنتوا سوريين صحيح يفترض تعتبروا أنو هالضيع اللي عم تنقصف بتخصكم..مابدكم تزعلوا عالبشر..ازعلوا عالشجر..عالطير..عالزيزفون والشنكليش والسوركي والزعتر البري والأرض السمرا اللي بتغنولها سميرا وأنا الحاصودة ..ولك ازعلوا ع بنات آوى وديباب الغابات..كونوا منحبكجية لترابكم ..ازعلولكم ع شي شغلة».الشاب رشاد (فلسطيني سوري) لم يتحمّل قلبه فكتب على صفحته: «كنا كفلسطينيين نبكي حالنا..ونشكي من تخلّي العالم عنا؛ بتنا اليوم كفلسطينيين نحسد أنفسنا على وضعنا مقارنة مع ما يحصل للشعب السوري!» أما الشاعر الفلسطيني إياد حياتلة فيكتب: «ينتابني الخجل هذه الأيّام عندما أكتب شيئاً عن فلسطين..فأشعر أنّني مدينٌ باعتذارٍ لأصدقائي السوريّين.»

حقا هذا وضع يصعب تحمله، هذا فوق طاقة البشر، المشكلة انه في غضون ذلك تأتي رسالة من صديق بعيد، لم يعش يوما في سورية، يتحدث فيها عن مؤامرة وعن عصابات...فكم يكون حجم الألم، لاسيما إذا كان هذه الصديق شخص مثقف وأكاديمي، أي أن شغلته المعرفة والبحث عن الحقيقة؟! لا أستطيع أن أصف أحاسيسي ومشاعري، لكنني كتبت له وقتها، مايلي: «احترم رأيك، فأنت حرّ فيه...لكن رجاءً لاتبعث لي بهكذا رسائل، كل ما اطلبه أن تتفهمني... لقد عرفت رأيك.. شكرا لك. لكن الصديق لم يرتح لردي، فكتب معاتباً، معتبراً موقفي بمثابة رفضاً لحريته في الرأي! كان جوابي كالتالي: ياصديقي العزيز، شكرا لك، أنا معك في حرية رأيك، لكن آمل منك أن تتفهّم وضعي، فنحن هنا لانتحدث عن اختلاف على رأي، ولا نتجادل حول قضية سياسية أو فكرية، نحن هنا نتحدث عن اختلاف في رؤية الواقع الذي يجري أمامنا، أنت لاتريد أن ترى الواقع، ولا تريد أن تعرف ما يجري حقاً. والأنكى أن هذا يأتي بعد عام ونصف، وبعد كل ما جرى...لذا مجددا احترم رأيك، لكن لاترسل لي عن ذلك، لأنه ليس بإمكاني أن أكذّب ما أراه وأسمعه وأعيشه. لايمكنني أن أنسى أو أتجاهل أن ثمة أصدقاء لي فقدوا واحدا من أبناءهم أو أخوتهم...لا يمكنني أن أكذب أن ثمة عشرات من معارفي المباشرين، وأضعافهم من معارفي البعيدين، من المناضلين السلميين والعلمانيين، قضوا في السجون...أو نكّل بهم...رجاء

افهمني وقدّر ألمي وعجزي وقهري ولا تزد من شجوني.وقتها، ومن كل هذا الوجع، كتبت على صفحتي: «إذا كانت درعا وضواحيها، ودمشق وضواحيها وحمص وضواحيها وحماه وضواحيها وحلب وضواحيها واللاذقية وضواحيها والدير وضواحيها والقامشلي وضواحيها..وإدلب وضواحيها..والرقة وضواحيها..وإعزاز ومعرة النعمان وبنش والبوكمال والضمير والرستن والبيضا والقصير وتلبيسة وكفر نبل والحفّة والقبير والحولة وبابا عمرو وباب السباع والخالدية وحي القصور وجورة الشياح والزبداني ودوما وبرزة والقابون والقدم وعسالي والزاهرة والمعضمية والجديدة وحرستا والميدان وسقبا وحمورية وجوبر وحرستا والهامة ودير قانون وقدسيا والمزة وكفر سوسة وبستان القصر والجميلية وحلب الجديدة والسكري والانصاري والحمدانية والمدينة...إذا كانت هذه كلها إرهابية... وتشترك في مؤامرة...فمن هي سورية إذا؟! ومن هو الشعب السوري حقاً؟! وماهي هذه المؤامرة؟!

كاتب من فلسطين مقيم في سوريا

مواد منشورة في ملحق نوافذ المستقبل

سوريا الجرحى والمشردين

محمد أبي سمرا

يتكاثر جرحى الثورة السورية في مستشفيات جمعيات وجماعات اسلامية في طرابلس. من لم تحرره الثورة من الكتمان والصمت المزمنين، لا يزال الهلع يأخذه الى قيعان نفسه ويغرقه في الخرس وفقدان الذاكرة. لكن الغالبية منهم أخرجتهم الثورة من آبار الصمت والدونية الى الرواية. اما المستمع الى شهاداتهم عن القتل وتدمير البيوت وحرقها والتشرد، فيتساءل كم من القتلى والجثث والمشردين تحتاج سوريا لتتحرر من الغيبوبة الأسدية؟

ظهيرة نهار الجمعة الأخيرة من آذار الماضي، فرّ يوسف من حي الوعر في حمص، متوجهاً الى دمشق. نهار الأحد في الأول من نيسان، التقيناه في طرابلس. كان في حال من الإرهاق والذهول، مبنّج الجسم والحواس والمشاعر. روى وقائع من أيامه الاخيرة في حمص، لكن شخصاً آخر سواه كان يروي ويتكلم فيه وعنه.

كنا جالسين مع يوسف في حديقة مستشفى للعلاج الفيزيائي تابع لإحدى الجماعات الاسلامية في محلة أبي سمرا الطرابلسية، حيث ينزل حوالى 18 جريحاً. يوسف ليس جريحاً. لكنه فور وصوله من دمشق الى بيروت، غادرها الى طرابلس للإقامة مع صديقه الشاب السوري. قبل بدء التظاهرات في سوريا كان الصديقان يدرسان في جامعة بيروت العربية. بعد أيام من بدايتها غادر محمد الى مدينته بانياس، فعاد منها بعد ثلاثة أشهر فاراً من الاعتقال. يوسف غادر الى حمص في أواسط شهر رمضان من العام الماضي. إحدى التظاهرات الرمضانية التي شارك فيها، قال إنها انطلقت من سوق حمص الأثري، وسارت في اتجاه إحدى الساحات: 12 شخصاً من المتظاهرين أصيبوا برصاصات القنّاصين القاتلة في الرأس. كان سائراً الى جانبه صديق، التفت اليه، فرآه يهوي فجأةً مضرّج الوجه بالدماء، واختفى. «مستشفى البر» في منطقة الوعر كان الوحيد في حمص يستقبل الجرحى. الناشطون والمتظاهرون في المدينة عملوا على إبقاء هذه المنطقة خارج نطاق التظاهرات منذ بدايات الثورة، واكتفوا بجعلها منطقة آمنة لإمداد الأحياء الثائرة والمحاصرة بما تحتاجه للصمود والمقاومة وإسعاف الجرحى وإيوائهم، فلم يخلُ بيت فيها من جريح أو أكثر. فمنطقة الوعر يستحيل التظاهر فيها أصلاً. المؤسسات الحكومية ومقار الأجهزة الامنية تتركز وتكثر في نواحيها وشوارعها. وهي منعقد شبكة طرق المواصلات التي تربط حمص بالمناطق والمدن السورية. وحين تتالت انشقاقات «الجيش السوري الحر»، ولجأ عناصره الى بعض أحياء حمص، لم يدخل الى الوعر أيٌّ من الجنود المنشقّين. عمُّ يوسف المسنّ كان مسؤول التنسيقية الصحية في «مستشفى البر»، قبل أن يختفي. بعد أربعة ايام أو خمسة، رأى مشاهد اعتقاله وتعذيبه مصوّرةً بكاميرا هاتف محمول لإحدى الممرضات التي قالت إن رجالاً من المخابرات الجوية اقتادوه الى مقرّهم. حين سأل أهله عنه في المقر، قالوا لهم: «ارهابي، ارهابي، خلّصنا عليه. روحوا استلموه من المستشفى العسكري». ممزقاً مسحولاً تسلمناه، قال يوسف، وكدنا ألاّ نعرفه، ثم أضاء شاشة هاتفه المحمول وقرّبها منا قائلاً: هذا هو، انظروا اليه. لقد صوّرته. هذا هو الارهابي الذي كان يوزع الخبز وعلب الدواء على النازحين والجرحى.

روى محدّثنا أن الوعر ظلّت المنطقة الوحيدة الآمنة في حمص حتى مساء الخميس الأخير من آذار الماضي. كان عدد سكانها قبل الثورة 60 ألف نسمة من أصل إجمالي عدد سكان حمص البالغ مليوناً و300 ألف نسمة. ساكنو الاحياء الاخرى

في المدينة، أولئك الذين لم ينزحوا منها، تباعاً، الى دمشق والاردن وتركيا ولبنان، وصولاً الى مصر، لجأوا الى الوعر، فأوتهم بيوتها ومدارسها ومساجدها وكنائسها، وارتفع عدد سكانها الى 800 ألف نسمة. في بيت أهله ترك يوسف ست عائلات قبل فراره الى دمشق. مساء الخميس ذاك، أذاع التلفزيون السوري الرسمي أن أهالي الوعر يطالبون بدخول الجيش الى منطقتهم لإنقاذهم من العناصر الإرهابية المسلحة. صبيحة الجمعة توغلت الدبابات في شوارع الوعر. تبعتها وحدات عسكرية وأمنية أخذت تمشط الحي والمباني وتقيم الحواجز في الطرق لتقطيع أوصال المنطقة وحصارها شارعاً شارعاً، فاعتقلت الكثير من الشبّان والرجال، حتى العديد من الجرحى في «مستشفى البر» وفي البيوت، اعتقلوا. سمع يوسف رجل أمن يصرخ في أحد الشوارع: «مشروع حلم حمص يتحقق. لقد صارت عاصمتنا، عاصمة الجبل. دولة الأسد الى الأبد، قبل خراب حمص وبعده». في الظهيرة، وهو يمشي في شارع، هائماً وفي حال من الرعب، فوجئ بحاجز للجيش، فأوقفه، لا يدري لماذا لم يعتقله جنود الحاجز. أحد الجنود سأله الى أين هو ذاهب. لم يكن قد قرّر وجهةً لفراره. كان ضائعاً، فقال: الى دمشق. نظر الجندي في وجهه قائلاً: اذهب، لن تعود. كل خارج من حمص لن يعود اليها.

...

الجرحى الذين تحدثنا اليهم في مستشفى العلاج الفيزيائي الطرابلسي، معظمهم من حمص وريفها. كلهم قالوا انهم سيعودون الى سوريا بعد شفائهم، وينتسبون الى «الجيش الحر». أنا الذي حاولتُ سابقاً تسجيل شهادات عمال سوريين وسير حياتهم في سوريا ولبنان الذي يعملون فيه طوال سنين، فلم أستطع الحصول الاّ على بضع كلمات متقطعة خائفة من آبار صمتهم أو خرسهم المزمن - للمرة الاولى تطالعني سيولة الكلام على ألسنة سوريين لا يختلفون في شيء عن أولئك العمال الصامتين كأنهم فقدوا المقدرة على الكلام والعبارة. لقد أخرجهم العام السوري السابق، من دونيتهم الخائفة الخرساء في لبنان الذي فروا اليه جرحى برصاص الجيش الأسدي وقواته الأمنية في شوارع مدنهم وبلداتهم وقراهم.

في لبنان الذي، كبلدهم، احتله وحكمه ضباط المخابرات الأسدية، كانوا يعيشون في العراء مكتومين. لم تكن الصحف البيروتية تنقل أخبارهم إلاّ حين يهوي أحدهم عن سقالات ورش البناء العالية، أو حين يرتكب بعضهم جرائم سرقة وقتل تدفعهم إليها تلك الشهوات البائسة واليائسة الصادرة عن دونيتهم وانسحاقهم وضياعهم وشجاراتهم وغربتهم في البلد المفتوح والمستباح والغريب.

في هذا البلد الغريب والقريب، كانوا، كسائر العمال الأجانب المكتومين، يحصّلون قوت يومهم، وما يقوم بأود أولادهم وأهلهم في بلدهم المصادر المفقر منذ عقود على مذبح أكاذيب «المقاومة» والممانعة التي لم تجلب سوى الحروب والعداوات الأهلية القاتلة والاغتيالات والفقر. وباسم هذه الأكاذيب، كان رجال مخابرات الاحتلال الأسدي وزبانيته من اللبنانيين، يخرجونهم من مآوي بؤسهم وصمتهم في أطراف بيروت وضواحيها، ويسيّرونهم في تظاهرات «الممانعة» تأييداً لإحتلال لبنان «إلى الأبد».

اليوم، ها بعضهم هاربٌ الى طرابلس، جريحاً برصاص الاحتلال نفسه، لأنه هتف للحرية والكرامة في بلده. الهتاف والتظاهرات والرصاص والجروح، حرّرت ألسنتهم، وأخرجتهم من آبار الصمت والدونية والكتمان التي يقولون إنهم لن يعودوا إليها، بعد شفائهم. ما من أحدٍ منهم لم يتحدث عن فقدان قريب أو أخٍ أو صديق أو أب. أحدهم سأل: هل تعلمون لماذا يدمّرون المنازل؟ ثم جاوب: لكي تتمكن الدبابات من التوغل في الطرق والشوارع الضيقة للوصول إلى الأحياء الداخلية، دهم الناشطين واعتقالهم أو قتلهم. أما الجنود الفارون أو المنشقّون عن الجيش النظامي، فيحرقون بيوتهم وبيوت أهلهم وأقاربهم الذين يتشردون في العراء هاربين الى حدود البلدان المجاورة.

روى جريح آخر قصة امرأة من درعا اختفى زوجها قبل أربعة أشهر. بعد انتقالها من بيت الى بيت لحماية أطفالها من القصف والهجمات، أخذت تتلقى اتصالات هاتفية، من بينها من هاتف زوجها المحمول، تهددها بالقتل والاغتصاب. بعد

تدمير منزلها قرّرت الرحيل عبر طرق التهريب الحدودية للوصول الى الاردن. مسبقاً حذّرها المهربون من أن يصدر عنها وعن أطفالها أي صوت أثناء رحلة الهرب الليلية، خشية أن يطلق الجنود النظاميون الرصاص عليهم من التلال المجاورة. في عتمة الطريق جزعت من أن تصرخ، حينما اكتشفت فجأةً أن اثنين من أطفالها الأربعة ليسا بالقرب منها، وقد اختفيا. عادت للبحث عنهما، فوجدتهما مذعورين صامتين، وملابسهما عالقة بأسلاك شائكة على الحدود السورية - الأردنية.

الجريح المصاب بشظية كسرت عظم فخذه، قال إنه نُقل قبل شهر الى طرابلس. لم تُجرَ له عملية جراحية بعد. كان قد مكث أياماً في أحد مستشفيات حمص الميدانية بعد إصابته. حين رفع الغطاء وكشف عن رجله، قال إنها قَصُرَتْ خمس سنتيمترات بعد وصوله الى طرابلس. فور دخولنا الى غرفته، فجأة طوى الشاب المستلقي على السرير الآخر، جسمه النحيل وأخفاه مع رأسه تحت الغطاء، بعدما نظر إلينا محملقاً. عيناه الواسعتان فارغتان إلا من رعب أخرس. بعد قليل أخرج وجهه لثوان من تحت الغطاء، ثم أطلق، مع حملقته نفسها، صوتاً مستغيثاً، قبل أن يخفي رأسه مجدداً. عقب خروجنا من الغرفة، قال دليلنا، منسّق الشؤون الصحية، إن الشاب جُرِحَ برصاصة في بطنه، وقد شُفي تقريباً. لكنه منذ وصوله الى طرابلس قبل 20 يوماً، وهو على هذه الحال من الخرس والرعب. كلما اقترب منه أحد أو حاول التحدث معه، يفتح عينيه على آخرهما محملقاً، ثم ينطوي ويكمر رأسه بالغطاء، محاولاً أن يختفي. قد ينطق كلمات غير مفهومة، قبل اختفائه أو غيابه. أحياناً يستفيق في الليل مذعوراً ويطلق صرخة طويلة.

ذلك الشاب الغارق في الصمت والرعب، لا أحد يعلم حقاً ماذا يخفي خلف الهلع في نظرته المحملقة، والى أي عمق يحاول أن يغور ويختفي في قيعان نفسه ليتخلّص من شقاقها ويجمع شظاياها، علّه يعثر على لحظة سكون في تلك القيعان الغامضة.

آخر جريح التقينا به قال مبتسماً، كأنه يتندّر على نفسه، إنه لا يعلم متى وصل الى طرابلس، وإنه أمضى 15 يوماً في غيبوبة كاملة. منذ نزوح أهله من القصير الى النبك، لا يعلم عنهم شيئاً. ذكرياته عن الأيام القليلة السابقة على إصابته، امّحت تماماً. كم من الوقت والقتلى والتدمير والمشردين والجثث تحتاج سوريا - فكرتُ وأنا أخرج من المستشفى - لتتحرر من الغيبوبة الأسدية؟

2012.4.28

mouhamed.abisamra@annahar.com.lb

كاتب من لبنان

كي لا يسرق الاستبداد مستقبل سوريا أيضاً

محمد العطار

في مقطع فيديو مسرّب من درعا، يظهر طفل صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره وهو يرثي أخته الصغيرة المسجاة على الأرض، كملاكٍ نائم، محوطة بعددٍ من النسوة. يغنّي الأخ باكياً «جنة يا وطنّا». تبكي النسوة بينما يغنّي هو عن وطن «ناره جنة»، ثم تغلبه الدموع ويطلق صرخة طويلة ويستسلم للأسى والبكاء.

ماذا أكتب عن حال سوريا اليوم؟ هل هناك ما لم يُقَل بعد عن المقتلة المستمرة؟ هل هناك ما لم يناقَش بعد عن الوضع السوري الراهن في ضوء التعقيدات السياسية والملفات الإقليمية والدولية المتشابكة؟ في ظل مشاعر الخواء والعجز المقيت، أشعر بأن الكتابة يجب أن تكون عن صرخة الألم التي تغلب الأغنية عند ذلك الطفل المفجوع، عن الحزن العميق الذي قد يجرّد كل نصرٍ من قيمته.

لم يعد حاضر سوريا هو فقط ما يؤرق السوريين. إنه المستقبل الذي بتنا نخشى أن يُسرَق منا أيضاً. لا أقوى على تصور تراجيديا أعظم من تلك التي تقول إن نظاماً مستبداً سرق ماضي البلاد وحاضرها، سيسرق مستقبلها أيضاً.

سيرحل النظام لا محالة، الآن أو بعد قليل. هكذا يخبرنا التاريخ، وهكذا تخبرنا إرادة شعب مذهل قاوم كل أشكال التنكيل عبر أكثر من سنة ونصف سنة. يبقى الرهان أن لا يخطف المستبد مستقبل البلد معه عند رحيله. يبقى أن لا نسمح له بإمرار شعاره الأثير: «نحرق البلد». يجب أن لا يسرق النظام الشمس حين يسقط. يجب أن لا يسرق مستقبلنا.

أنتمي إلى جيل تشكّل وعيه على هذا الاستبداد. طوال عقود، ردّدنا في «مداجن» طلائع البعث والشبيبة: «قائدنا إلى الأبد... الأمين حافظ الأسد»، ثم استُبدل حافظ ببشار. تغيّرت الاسماء وبقي الأبد يحكم حاضرنا. ترعرع جيلنا وهو يرى الأجيال التي سبقته محبطةً ومهزومة. استسلمت للاستبداد وهجرت أحلامها. هكذا يُسرَق الماضي، ويُسرَق كذلك حين تُسرَق ذاكرة بلدٍ بأكمله، وحين تُختزل هذه الذاكرة باسم شخص وبإنجازاته فقط، وحين يُكنى البلد باسمه. بينما يُسرَق الحاضر تحت وطأة التنكيل، والحل الأمني العسكري في مواجهة مطالب مشروعة. نتفقد أصدقاءنا وأحبتنا كل ليلة، لنرى من اعتُقل ومن قُتل. الحاضر هو لحظة المخاض العسير، طريقٌ وعرٌ وشاقّ. الحاضر هو درب الآلام الذي لا بد لنا من اجتيازه. بقي لنا المستقبل إذاً. ولادتنا الثانية تتوَّج هناك. المستقبل هو ما يجب عدم السماح بسرقته. ألا يكفي أن السجّان أسر الماضي والحاضر؟ كيف يمكنه أن يسرق المستقبل؟

تأتي الإجابة المريرة من كرم الزيتون، والحولة والقُبير ودوما وزملكا، وقبلها وبعدها. المجازر ليست هي فعل القتل بدمٍ بارد فحسب، ولا صور الجرّافات القاسية وهي تردم أكفاناً بيضاء متجاورة تحت التراب. المجازر هي أيضاً جروحٌ غائرة لا تندمل، وهي منهلٌ خصب للخوف والانغلاق والغضب المجنون. المجازر هي فعلٌ ممنهج وخسيس لقطع الطريق أمام عودة محتلمة لفريق من السوريين إلى المطالبة بنزع عباءة الأبد. يُسرَق المستقبل عبر سياسات العنف المنظّم والموزّع بقصد وخبرة على المناطق، بقصد ترسيخ معادلة الأكثرية والأقليات. يُسرَق المستقبل بتأجيج الطائفية وبالعمل على سحق ما بقي من نسيجٍ مجتمعي ظل صامداً عبر عقود من الاستبداد.

ألا يزال ممكناً قطع الطريق أمام سرقة المستقبل؟ منذ أيام قُصفت قدسيا. مصدر القصف كان أحياء الموالين المجاورة لها والمحسوبة على طائفة معينة. القاتل يعي تماماً ما يفعل. عينه على المستقبل. تُقصَف قدسيا التي احتضنت أبناء الطبقة

المتوسطة الدمشقية المهزومة، بعدما تأكلت طبقتهم رويداً رويداً. تُقصَف قدسيا الشراكس والخليط السوري البديع، قدسيا التي احتضنت آلاف اللاجئين العراقيين، قدسيا التي تبعد عشرين دقيقة بالسيارة عن وسط دمشق؛ أتحدث إلى صديقي عبر الـ«سكايب»، فيأتيني صوت قذائف الهاون المتساقطة عشوائياً أقوى من صوته المتقطع. ثم ينقطع الاتصال. أُحدّثه في اليوم التالي ليخبرني أنه وجد نفسه مضطراً للنزوح مع عائلته التي كانت قد نزحت قبلاً من حمص: «إلى أين ننزح في المرة المقبلة؟». لم أجبه. كنت أتمنى أن ينقطع الاتصال هذه المرة كي أهرب من عناء الإجابة. عدد من أقربائه قُتل في حمص منذ شهور. غلبه الدمع: «والله لن أسكت على حقي ولو بعد مئة عام». وددت القول:» الأعوام المقبلة كلها لك ولنا. لن نمضيها غضباً وانتقاماً.» لكني صمتُّ مرة أخرى. هل تعلمون كيف يُسرَق مستقبل بلد؟

بعد أيام قليلة تحدثتُ مع أحد أصدقاء الطفولة وهو من زملكا، بعد المجزرة المروعة هناك. هل تعرفون زملكا؟ هل تعرفون غوطة دمشق الشرقية؟ أبناء جيلي يحفظون هذه الجملة عن ظهر قلب: تحيط الغوطة بمدينة دمشق كما يحيط السوار بمعصم اليد. هذا تقريباً كل ما علّمونا إياه عن الغوطة في مناهجنا البليدة. بعيداً من كتب المدرسة كبرنا ونحن نرى الغوطة تتأكل رويداً رويداً. الأحزمة الخضراء تختفي والبساتين تتحول معامل وورشات قميئة، مدن الغوطة يلفها الإهمال ويجتاحها الفقر. أسأل صديقي: هل فقدت أحداً؟ يجيبني بصوتٍ هادئ: «فقدت اثنين من أولاد عمومي، نحن فخورون». للأمانة، رغبتُ أن أسمع الأسى في صوته. هناك حزن يجب عدم كبته. قلتُ له:» يقلقني صوتك المحايد جداً. هل أنت بخير؟». يجيبن: «أنا بأفضل حال، أنا ابن عم الشهداء، لن أموت إلا مثلهم شهيداً». وددتُ القول: لكن الموت مفجع! يجب أن يتاح لنا الوقت لنحزن. يجب ألاّ نحتفل بالموت أياً يكن نبل مقاصده. لكني صمتُّ. هل تعرفون كيف يمكن أن يُسرَق المستقبل؟

هل هي مهمة مستحيلة اليوم أن نحمي المستقبل من سرقة الطاغية المتهاوي؟ نجد أنفسنا اليوم أمام جبلٍ لا بد من تسلقه كي نفعل ذلك. حمايته ليست ترفاً، بل هي حماية كل ما قامت من أجله الثورة. حماية المستقبل تعني أيضاً أننا سنحرر الماضي من بين يدي الطاغية وسنحرر ذاكرة السوريين أخيراً.

يتحدث الأب باولو الذي أرغم على مغادرة سوريا، عن رجلٍ ذي حظوة في مدينة القصير دفن بيديه اثنين من أولاده، قتلهما النظام، لكنه كان مصرّاً في كل مرة يقود تشييعاً أو تظاهرة، على ترديد «الشعب السوري واحد». هكذا نتسلق الجبل الشاهق. بالإصرار على تغليب «الشعب السوري واحد» على «الأسد أو نحرق البلد». نناضل الآن من أجل أن تظل الأغنية أبقى أثراً من طعم الألم في فم الطفل الدرعاوي المكلوم بفقدان أخته. من أجل أن نتذكر أن قيد المستبد يشمل المناطق التي ينصب فيها مدافعه، تماماً كما يشمل المناطق التي ترزح تحت القصف، كلتاهما بحاجة للحرية وكلتاهما تعيش في الأسر. قد يبدو هذا جهداً مضنياً (وهو كذلك)، وقد يبدو سبيلاً طوباوياً (ولم لا؟)، لكن واقع الحال يخبرنا بأن لا سبيل غيره من أجل منع المستبد من أن يأخذ المستقبل معه عندما يسقط.

07-07-2012

مسرحي سوري

ممرضات المشافي الميدانيّة: ملائكة الثوّرة!

محمد دحنون

هنّ قلّة: ولكن ذاك النوع من القلّة التي لا يمكن لـ"كمّها" أن يبرّر تجاهلها. هنّ قلّة: ولكن، مزدحمات برغبتهن في إيجاد مكان ودور في ثورة الشعب السوري، وفي قلب المواجهة العنيفة التي فرضها "نظام التشبيح" على الثوّار. لهذا السبب، وضعت كلّ واحدة منهن نفسها أمام مسؤوليتها كمشاركة في الثوّرة، لم تأبه لظروف عملها القاسيّة والخطرة، أملت عليها أمور كثيرة لا تبدأ بواجب أخلاقي ومهني ولا تنتهي بواجب ثوّري أن تقوم بهذا الدور: ممرضة في مشفى ميداني!

تمّ احتضانهن في مجتمعات الثوّرة الأهليّة، التي لم تكن "المواقف المسبقة" منها تسمح بفهم طبيعة موقفها من المرأة. وفي ظروف عمل قاسية، تفتقر إلى الحد الأدنى من الإعداد التقني الجيّد، هذا فضلاً عن الأخطار الكبيرة التي واجهنها، أقدمن على التجربة. تروي اثنتين منهما تجربتها في العمل بمشفى ميداني.

المشفى الميداني: علبة إسعاف منزليّة!

تتحدّث ميساء. ص، إحدى الممرضات اللواتي انخرطن مبكراً في العمل بمشفى ميداني، عن تجربتها. تبدأ حديثها بوصف واقع المشافي الميدانيّة التي يتم فيها علاج المصابين، فهي، بحسب ميسا "لا ترقى بمستواها التقني وأدواتها المتواضعة إلى مستوى المشفى الميداني الحقيقي". وتتابع" بل إنّ المشافي الميدانيّة، في الأماكن التي عملت بها على الأقل، أقرب لأن تكون علبة إسعاف منزليّة، وبالأخص في ريف دمشق". من جهتها، تعتبر مها العمري (اسم مستعار) أنّ المشافي الميدانيّة التي ارتجلها أطباء وممرضون وممرضات شجعان قد تمّ تنفيذها على عجل"، وتتابع "ولهذا كان من الطبيعي أن تكون التجهيزات على مستوى كبير من التواضع". ما كان يمنع تطوير المشافي الميدانيّة في بؤر الثوّرة الكثيرة هو النظام بالطبع؛ تشرح ميسا "الظروف الأمنيّة وسيطرة الجيش كانت تحول دون قدرة العاملين بالمجال الطبي على إعداد مكان مجهز بكافة احتياجات المشفى الميداني الذي يستطيع علاج كافة الإصابات الخفيفة والمتوسطة". وتضيف"معظم العاملين بإسعاف المصابين مهددين بالقتل مباشرة، وعملهم كان يتمّ إما في المنازل وأحيانا في الحارات الضيقة أوالبساتين، في شروط لا توّفر الحد الأدنى من مستويات التعقيم أوالبيئة الصحيّة والنظيفة التي يحتاج إليها المعالج ليحمي الجرح من الإنتان".

تتكرر مها ما قالت له ميسا، وتؤكدّ على أنّ غياب التعقيم، الأمر الذي "يُعتبر أساسيّاً في عملنا، كان هاجسي الأوّل في بدايّة العمل، وسبّب غيابه الكثير من الصعوبات والإرباك".

لم يُتح للناشطين العاملين في المجال الإسعافي أن يطوّروا أماكن عملهم، وإن تفاوت الأمر نسبيّاً بين منطقة وأخرى، حيث تلعب درجة "تحرّر" البلدة أو المدينة من قوّات النظام دوراً في ذلك. تقول ميساء"كل المحاولات لتأمين مكان مجهز بأدوات ومواد وأدويّة طبيّة كانت تفشل نتيجة اكتشاف الأمن للأماكن ومداهمتها وسرقها واعتقال القائمين عليها. والظروف مستحيلة لتحقيق حالة مشفى ميداني متنقل (سيارة مثلاً) نتيجة التفتيش والحواجز".

وفي الحديث عن أبرز الصعوبات التي واجهتها كلاً من الممرضتين خلال تجربتهما، تكتفي مها بالقول: في الحقيقة، كان كلّ شيء صعباً"، تبتسم ثم تضيف: ولا أقصد بهذا الكلام القول أنّي متعبة أو أي شيء من هذا القبيل. ولكن (عن جد: كل شي كان صعب!)". أما بالنسبة لميسا التي لم تتح لها تجربة العمل في "المدن المحرّرة" فتقول "أصعب ما كنا نواجهه هو الدخول إلى الأماكن التي تتواجد فيها الإصابات. لا نملك سيارة خاصة. ولا نعرف الطرقات الفرعية لكل مكان، ثمّ كان هنالك انقطاع الاتصالات في المناطق الثائرة وسوء التنسيق أيضاً".

معنى التجربة: كثافة إنسانيّة.. وثوريّة!

تصف مها العمري الجزء المتعلّق باللحظات والمواقف الإنسانيّة بأنّه الجانب الذي تهتم به أكثر في تجربتها، فهي تقوم بتدوين تلك المواقف واللحظات كمذكرات يوميّة. وتقول "بصراحة، لا أحبّ الحديث كثيراً عن تلك اللحظات والمواقف"، تضحك ثم تتابع" ربما في الأمر شيئاً من الأنانيّة، ولكن الأمر يتعلق بدرجة عاليّة من الحميميّة والخصوصيّة التي تمنعني من روايتها دون أن أبكي!". تتوقف مها عن الحديث، ثمّ تتابع" أريد أن أقول شيئاً واحداً، أن تلك المواقف الإنسانيّة المؤثرة التي تختلط فيها مشاعر الألم والحزن والفرح والدهشة تمنحني الطاقة للاستمرار بهذه التجربة".

أمّا بالنسبة لميساء فتروي ما تصفه بأنّه أشد موقف إنساني أثّر بها ولا يزال، تقول"عندما وقعت مجزرة القابون الأولى، كان ثقة شاب عمره 21 عاماً قد أصيب برصاصة في الصدر.كنت أضمد له الجرح، وكان يضحك عندما يتألم. سألته : هل كنتم تحملون سلاحاً؟ فأجاب: نعم. بالطبع أنا فوجئت. فضحك الشاب وقال لي (كان معنا بصل مشان الغاز المسيل للدموع بس طلع إنّه ما بينفع البصل مع الرصاص)وضحك"، تتابع ميسا قصتها مع الشاب" ثمّ سألني:(يعني شو بقدر أطلع الجمعة الجاي؟) أجبته: طبعاً لا. فتدخلت أمه وقالت (هناك رصاصة قديمة في رجله منقدر نعملا شي؟)، فرد وليد ضاحكاً:(انسي هي صرلا شهر)" . تختم ميسا روايتها عن"علمت لاحقاً أن وليد أحتاج إلى خمسة رصاصات ليستشهد، وليقتل النظام فيه إصراره على العودة إلى الشارع. لكن صوت أمه ما زال ببالي حين قالت: (أي لكن شو مفكر الحرية ببلاش؟)!".

تتحدّث ميساء عن لحظات خوفها خلال العمل، تقول"في كل مرة أتوجه بها إلى مكان لعلاج مصاب، كنت أشعر أن الخطر كبير، ومن الممكن أن أتأذى أو أعتقل، فلا شيء آمن وما من ضمانة بأنك ستعود سالماً. فقد صدف أن حدثت مداهمات وأنا داخل المنازل أقوم بعلاج المصابين. الأهالي كانوا يخافون على الغريب القادم من خارج المنطقة كثيراً، وكانوا يشعرون أنهم معنيون بإعادته سالماً".

تنقلنا ملاحظة ميساء الأخيرة للحديث عن نمط التعامل الذي اعتمده أهالي المناطق الثائرة مع الممرضات. تقول مها" لم يبدر عنهم إلاّ كلّ ما يمكن أن يشعرني أنّني بين أهلي. كنت أشعر أنّي أعرفهم منذ أعوام كثيرة. ربما سهّل هذا الأمر عليّ الكثير". أما ميسا فتقول" لم أشعر بأيّة تمييز. على العكس، كان أهالي المناطق الثائرة ينظرون لنا كمن يقوم بعمل بطولي، وكانوا يقدّرون عاليًا عملي"، تضيف " أنا لا أضع حجاباً. وفي إحدى المرّات طلب مني أحدهم أن أرتديه لأذهب إلى إحدى المناطق، وعندما وصلت لأتفحص الإصابات، لاحظ البعض أنني غير قادرة على تحمل الحجاب، ففوجئوا من امتثالي لطلب الشاب، وطلبوا مني ألا أكرر ذلك. وقالوا لي أن الشاب الذي طلب منك ذلك طلب هذا بشكل فردي، ولك أن تتصرفي بكامل حريّتك".

تتابع ممرضات سوريا الثائرة، لاسيّما في المناطق المنتفضة كليّاً، عملهن الذي قد يصح وصفه بأنّه التجربة المهنيّة والإنسانيّة الأعمق والأرقى التي قد يخضنها. دورٌ كبير ومهمةٌ نبيلة تثبت مجدداً أنّ نساء سوريا في قلب ثورتها.. وربما كنّ "قلب" هذه الثوّرة!

كاتب من سورية

الخجل من الكتابة

منهل السرّاج

لا أستطيع الكتابة، وأشكو من ضعفٍ أثناء التعبير، ومن تردّد في العبارة، ومن وجلٍ من الفكرة، ومن تخوّفٍ في التأويل، ومن خشيةٍ من نزعة القارئ، ومن نزعة الكاتبة. أشكو من وهنٍ في القول.

لدي الأمنية والحرص، لكنّ الكاتبة الملهوفة ليست مؤكّلة إلا عن نحولها.

القهر نصالٌ من النار، بشأنِ ما يقع على البنات والأولاد، والشباب المندفعين، والرجال الهادرين. القهر نصال من غرور المهاجمين المتكالبين، وافتقاد أيّ معنًى لغاياتهم وسبلهم، وأيّ معنى لوجودهم. ولكنّ نصال القهر لا تفعل كتابة، بل توهن العزيمة، إذ لا أملك أن أكتّف أذرعَ أحد، كما يخطر في بالي، أولَ وهلة أن أفعل، حين أراهم في الصورة يهجمون على الضحيّة.

يقع الترويعُ على من فكّرتُ فيهم طوال أوقات الكتابة، المندفعين، الأنقياء السريرة، أصحابِ الرِقّة، ممن حرصتُ عليهم وكانوا أبطالي بيني وبين أوراقي. أيُّ حيلة توقظهم اليوم من مضيّهم في استشهادهم، من انغماسهم واستسلامهم؟ ولا أستطيع أن أوهم أحدًا منهم بالنهوض.

إذنْ، عملُ الكتابة هباء! والإيمانُ بالحقّ في لغتنا العربيّة لايفعل شيئًا! وإخلاصُ المرء ومضيُّه في الإيمان لا يفعلان أيّ شيء! فالكاتبة لا يَسمع منها الربُّ، ولا تراها الملائكةُ، ولا يلتقيها المؤمنون. كم كانت متبخترةً بإيماناتها ويقينها بالحقّ الذي لا بدّ ، كما كانت تعتقد، أنْ يعلو.

فالعبء الأكبر على الإنسان هو أن يكون كاتبًا باللغة العربيّة، ولا يتقن شيئًا غير الكتابة بها. الأبرياء يستصرخون، والكاتب يهرب، ليتناول ورقةً ويسطّر.

الفجائع كثيفة: تتكالب على الشعور، وتُعجز النفسَ أمام الضمير، وتشلّ ذراعَ الكتابة.

والكاتب طفل في موهبته، يحتاج تصفيقًا ودعمًا لكي يعبّر. والتصفيق في هذا الظرف عيب وعار. والحقّ الأكمل الذي ينشده لأهل بلده هو أنِ انهضوا من دون أن تموتوا، كما تنهض بقيّة أهل الأرض . وهو نداءٌ يستدعي تهكّمَ أولي النفوذ.

ويهتف في العمق صوتٌ: «لماذا لا تفهمون؟». صوت مكتوم ولا جدوى منه، يضرّ صاحبه، حين الصوت لا يؤدّي غايته: إنْ كان لهؤلاء أمّهات، إنْ كان لذويهم ومن يعتنون بهم ويطعمونهم، إنْ كان لديهم أيُّ معنًى، إنْ كانت ثمة في زاويةٍ ما من نفوسهم خليّةٌ يمكن أن تستيقظ!

أما الجهة المعافاة، النشطة، التي تعلم ولا تفعل، فليس لديها غير السياسة والإحصاء: سياسة السياسيين، وإحصاء الحياديين، حيث الضحايا بالأرقام.

الناس على عجلة من أمرهم. يحُصون قتلاهم ويهبّون.

لم يحصِ أحدٌ ما يلامس عمقَ الفجيعة، وامتدادَها. لم يضحّ أحدٌ تضحية الشهيد، ولم تتمكن الكاتبة من أن تضحّي. أو ربما غصبًا، لا بإرادتها، تضحّي. مغتصبون نحن، حتى في تضحياتنا.

ماذا لو عدتُ إلى بلدي، عشتُ في بيت الضحيّة، مع أمّهات البنات المخطوفات، الخائفات، الغاضبات؟ آخذ بيد الأم، نبحث عن ابنتها، ونعثر عليها، ونرجع إلى البيت نساءً معزّزاتٍ مكرّمات؟

صبيّة صغيرة، مازالت عقدةُ الساتان تزيّن شعرها، فيما يدٌ تقلّب جسدَها المثقَّبَ بالرصاص، كما تقلّب فروجًا!
المشاهد تغرز. وتقول أختي بحسم: لا فائدة من رجوعك إلى سوريا الآن.
قتيل رحل بروحه، وترك لنا الإثم. نحن شهودٌ في عالمٍ لا يجيد إلا سياسة النسيان وقذف الآلام إلى الزمن، والزمنُ غافل.
والضحايا في السياسة مجردُ ورقاتٍ وأرقام.
ويجرّون الكاتبة جرًّا، ويسحلونها سحلاً، كي تعلن موقفًا.
والكاتبة الآن لا تهمّها الهيبةُ ولا المواقف. هي تحتقر الهيبة والمواقف. يأكلها همُّ الأمّهات والآباء، وعيشُهم من دون حبيبهم. أولاد يُتّموا، وهُدم غدُهم، وأصبحوا أيضًا، مشاريع أوراق ومشاهدَ وأرقام، سوف يخدمون السياسةَ والساسةَ غدًا، وسيقع عليهم الإحصاءُ يومًا، كما حدث وفعل أهلُهم، وكما وقع على أهلهم. هكذا تُسهّل طرقُ السياسة والمخطّطات. أترؤن الحقّ؟ هذه هي الأبراج التي ترتفع حين يرتفع عددُ الضحايا في منطقتنا، فقط في منطقتنا!
لن نسامح عن الضحيّة، وإنْ سامح العالم عنها. لدينا الحقُّ في إسطاع حقوقها. وإننا مسؤولون، ولن ننسى!
يمكنكم الآن أن تتضاحكوا من وعيد الكاتبة. فالكاتبة لا تملك محكمةً، ولا تملك أن تحاكم أحدًا. وربما لن يمتدّ العمرُ بها لكي تتشفّى بكتابة رواية؛ فالأدب في نبله الحقيقيّ يلزمه عمرٌ مديدٌ قبل أن ترقى لغتُه إلى ألم بُنيّةٍ خُطفتْ الآن وتستنجد، ولا يوجد من يسمع استغاثتَها!
ليست لديّ مهاراتٌ كي أبقى متماسكةً. وأدّعي الأمل، حين اليأس الشديد.
سئلتُ لماذا لا أكتب؟ وكان هذا بعضًا قليلاً من أسى الكاتبة.
أخجل من الكتابة. وأخجل حين أستطيع التعبير.

آب 2011

روائية من سوريا

عمل أهل السلطة في أهل التمرّد

(بصدد صورة حمزة الخطيب وصور شتى)

نوري الجرّاح

«على دفاتري المدرسية/على منضدتي وعلى الأشجار/على الثلج كما على الرمل/أكتب اسمك:
يا حرية» - بول إيلوار

I

كم مرة نظرت في جسدك المسجّى أمامي، وها أنا أعود وأنظر بعينين مصفوعتين جسَدَكَ المسجّى تحت ناظري، جسدك الذي كان قبل هذا الموت، حياة ضاجة، ووجهك الذي تشوبه، في صور أخرى من ألبوم العائلة، حمرة الصبا وزغب اليفاعة، ها إنه الآن كامد أزرق بجروح وكدمات وثقوب وأورام... بل إنه جسد بات أكبر من عمرك ليحتمل موتاً لا طاقة لجسد صغير على احتماله... موتك أكبر من جسدك.

***

أفكر الآن باليد التي امتدت الى هذا الجسد... اليد الآثمة التي أبدلت حياتك موتاً، وطفولتك جسداً متلفاً: كيف أمكن صاحب تلك اليد التي نكّلت بطفولة جسدك الطفل ألا يشعر أنه ينكل بإبن له أو أخٍ صغيرٍ، بطفلٍ هو الطفولةُ بريئةً من زمنها، الطفولة في مقطع من صورة أو مشهد، وقد مَرَحَتْ يوماً تحت نظرة من بات اليوم قاتلاً!
كيف لم يشعر الشخص الذي مزّق جسدك أنه إنما يمزق بعض جسده؟ كيف لم تتألم يداه وهما تؤلمانك، وهما تبرحانك من ألم؟!

***

من أي شِق أو هاوية في الأرض وفي التاريخ خرج هذا الوحش؟ أي خراب في الروح، أي فساد في الخلق، أي خلل في العقل، أي غموض في العلاقة بين الفرد ومرآته وبين الجماعة والتاريخ، ولّد هذا القاتل؟

II

أي لغة يمكن ان تحتوي فعلة هذا الفاعل، أي لغة يمكن ان تشرح أو تصف، أو تحلل الفعلة، إن اللغة لتعجز أمام هول الواقعة، أمام صورة هذا الموت.

***

أشجع نفسي لأختلس النظرات من جسدك المسجّى أمامي، بما آل إليه، بين صورته يوم أمس وهذه الصورة له اليوم. أهي صورته حقاً؟!
أنظر وأنظر وأنظر، ولا أرى سوى نفق الظلام المديد يبدأ من ثقب في الجسد، ليصل نهاري بأرض العدم.
وإذ أحاول أن أخلص عيني من الصورة، إذ أحاول أن أهرب بعيني من تلك الأرض، أفشل وأصير أسيرهما المعذب، أمشي على تلك الأرض، وآخذكَ معي: إلى غرفة النوم، إلى طاولة الطعام، إلى الكتاب، إلى السوق، إلى المحادثة اليومية، إلى الصمت، إلى الصمت، إلى الصمت... والذهول. وعندما أغمض عيني أجدك هناك بكامل صورتك. فجائعية ما أنت عليه الآن.

وإذ أستنجد بالصور الأخرى أرى صورتك وهي تلتهم الصور كلها... لتبقى صورتك الصورة القاتلة.
ولا ألبث أراها تسمّرني في عراء عزلتي إلى مقعد المحكوم بالإعدام.

***

ولكن ما أنت عليه الآن، أعني ما بتّ عليه الآن، بفعل صورتك، هو أولاً إدانة لي، لصمتي الذي شارك في الجريمة، وإدانة للعقل الذي قبل بها، بوصفها واقعة محتملة في أزمنة الاحتجاج، وإدانة لأداة القتل؛ للفاعل الذي قتل ونكّل، وللذي أعطى الأمر بالقتل، للذي لم يمنع الأمر بالقتل، إدانة للزمن الذي أتاح نفسه لفعلة كهذه، وإدانة للعالم الذي رأى وصمت، ورأى وتألم، ورأى وأشاح ببصره لئلا يتألم أكثر... لئلا تفيض به إنسانيته بأكثر مما يحتمل أو يستطيع، ولئلا يكون هناك موقف قوي.. موقف يتجاوز الأنين إلى حركة في الوجود، التفاتة كبرى، فعل شيء أي شيء يمكنه وقف سريان الموت في هذا الجسد الجماعي، جسدك يا حمزة؛ الجسد الكيان الانساني المرتفع برمزيته إلى اللغة العليا: ونحسب أنه جرم صغير وفيه انطوى العالم الأكبر

III

قال شاهد: ما ضر جسد، تركته الروح، أن يسلخ؟ وقالت عضلة في صدري المنقبض: كيف قيّض لهذا الجسد الغض احتمال كل ذلك الألم.
قال محللٌ: وماذا ينتظر شعبٌ يتمرّد على نظام شرس أن يفعل بأطفال هذا الشعب؟ هل يقدم لهم الحلوى؟ كيف أمكن اللغة ان تراك يا حمزة وتبقى، هكذا باردة؟ يا لبلاغة اللغة ومنطقها كيف يصبحان شريكين في القتل.

***

أي لغة تحتويك، اي لغة تحتوي جسدك المشوّه؟ أي لغة تحتوي طفولتك الهاربة من جسدك المثقل بوحشية الوحش، بالآثار الكاملة للأيديولوجيا وقد صار لها ناب، وبالعقيدة وقد صارت بلطة ومنشاراً؟!

***

أفتح القاموس وأفتش عن الكلمات فلا أجدها، أنكأ الجريمة لأعثر على الكلمة، لعلّي أجد الكلمة هناك، الكلمة القادرة على وصف ما أرى.
لا أجد الكلمة تلك، لا أجد الكلمة.
أريد كلمة تشفي عيني من هذه الصورة، كلمة تنتزع من عيني تلك الصورة، كلمة تحيط بالصورة وتأسرها في حيز وتبقيها هناك. وها إنني أفشل... فلا أجد، في هذه الأوقات، وأنا مصلوب أمام صورتك المتحركة هنا وفي الشاشة إلا عيش الجحيم، إلا خراب الوعي وخراب باطنه الممسوك نهائياً بين حجرين قديمين، حيث أمكن الغراب أن يسوق هابيل إلى جوار قابيل، ويتركهما مشدودين إلى قدر لا فكاك منه.

IV

ولا أخلص من قراءة ما أقرأ في صورة الدم السوري المهراق إلا بوصفه الضحية الصارخة للتحكم الايديولوجي، التحكم الطائفي، التحكم الغريزي للسلطة العمياء بالبهيمة العمياء التي دانت لمن يسيّرها بمادة الطاعة العمياء. إنها التربية المطلقة للشر في مزرعة ليس فيها غير الشر، عمل السلطة، ميكانزمات التحكم المطلق بالجموع بوصفه القطيع الذي لا إرادة له.
أسوأ ما في 1984 لجورج اورويل، حيث تهيمن صورة الاخ الاكبر، لا يمكن أن يبلغ هذا المبلغ من الابتكار في التمثيل والتشنيع بجسد «العدو». إذاً انت هو العدو يا حمزة. وجريمتك أنك خطوت خارج الممكن... أنك هتفت بالكلمات الحرام، أنك صار لك صوت: حرية... تريد حرية! تريد حرية! تريد حرية؟! خذ هذه إذاً!

V

ليست صورة حمزة العدو بجسده الفردي وقد صار جسداً رمزياً لجماعة هي شعب مخطوف ومستعبد، إلا صورة عدو مخيف نائم، كان لا بد من سحقه قبل أن يستيقظ. أما التنكيل به فهو عمل المستبد الخائف المنتقم لخوفه من عدو يكاد يستيقظ ويقوّض حظيرة الاستبداد.
صورته المفردة صارت الرمز الدالّ على العاقبة... عاقبة الهتاف لأجل الحرية.
العاقبة/المصير يروج لهما أهل السلطة في أهل التمرد. فإن كان للتمرد أهل، فعلى هؤلاء الأهل أن يعرفوا أن هذه الصورة/النموذج هي العاقبة التي ستلحق بأبنائهم المتمردين إن هم تمردوا على السلطة وخرجوا يهتفون ضدها.
هي إذاً الصورة النموذجية لمستقبل المتظاهر في المدينة تتقهقر بنا وبمخيلاتنا إلى شاشة اللاوعي وما عكس عليها التاريخ من صور للهمجية في عصور كانت الرؤوس تكسر بالحجارة... وتقلع العين بشظايا الخشب، ويخترق الجسد بقضبان ومسامير كبيرة.
عصور التمثيل بالجسد، لإخضاع العين وتأديبها بأدب الموت... ثمناً لزلات التمرد.
الرومان كانوا يطلقون الأسود والنمور الجائعة من أقفاص في اعماق الكوليسيوم إلى فضاء/معترك جمعوا فيه المجرمين والمغضوب عليهم، والمسيحيين في مرحلة من المراحل، لتمزق أجسادهم بمرح فاجر على مرأى من جمهور بهيمي متفرج ومصفق.
وفي المثال السوري، الجماعة العائلية الحاكمة تنتخب الأقسى والأشرس والأجرم من العبيد وتطلقهم بعضلات ذات تصاوير أكبر من رؤوسهم، فهم كائنات تربت في أقفاص الديكتاتورية الزراعية لا تخرج منها الا لتفترس من دلّت عليهم الإشارات والأصوات.

***

لكن ظهور مزيد من الصور الشنيعة، الصور المدمرة للاعصاب، لحيوات سلبت ونُكّل بها ورميت بقاياها منتهكة الآدمية ومفتضحة أمام العدسات، يكاد أن يسلب صورة حمزة الخطيب فرادتها، ويجعلها مقطعاً في متوالية دموية... لا تعود الصورة /الحياة المفردة معها غير برهة في مشهد رعب كابوسي مديد... لا ينتهي.

***

أتقهقر أمام المتوالية الكابوسية، لكن ابتسامة حمزة في صورة أخرى له مجاورة لصورة جسده الهامد... تنسف الدلالة على الاستبداد والوحشية، وتعيد تركيب الدلالة في حقل يرمز فيه الصبي الشهيد إلى الحرية... إنه حمزة الخطيب ولكن في صورة فتى يبتسم. وهي تملأ الفضاء المجازي بقدرتها على حشد الهتاف لأجل الحرية

***

حاشية تنتسب إلى المتن:
هذه الصورة التي ما تنطق، إلا لتعلن فشل اللغة ومحدودية قدرتها على وصف كل هذا العنف، هذه الصورة المفترق تجعلني أقف لأنادي رفاقي الشعراء، من أحببت شعرهم، من طالما قدرت مواقفهم النبيلة في محطات الصعاب... وبينهم من تشاركنا شباباً في حصار بيروت 1982 وخرجنا من الحصار في زهو المدافعين عن الحرية؛ خسرنا معركة في الجغرافيا، وربحنا معركة مع الروح.
أحاول، الآن، أن أتعرف على صوتي بين أصوات إخوتي الشعراء، وعن وجودي بين وجودهم المنافح دفاعاً عن قضية الحرية. في الأزمنة العصيبة يتكشف الشعراء عن ضمائر تجتمع لتكون ضميراً لشعب، أمة، عصر...

***

في أزمنة القتل ليس ثمة ما هو أبلغ من صوت الشاعر ضميراً للعالم وصوتاً للضحية... أين هي أصواتكم في ربيع الدم

السوري، بعد دم في تونس، ودم في مصر، ودم في المغرب، ودم البحرين، ودم على حدود الخرافة اليهودية... الدم العربي في الربيع العربي يريد أن تتفتح أزهاره، من الشام إلى اليمن، ومن بغداد إلى تطوان... فإن لم يكن الشاعر خطوة في المفترق، منحازة نهائياً نحو قضية الحرية، نحو الهتاف الدامي، نحو طفولة العالم مخضبة بدم الأمل، فأي ولادة ترتجى من يوم غد...

***

وبما أننا ضيوف عند حمزة الشامي... أوليس الشاعر ولي كل دم بريء يسفك، وهو أول من يطالب بهذا الدم؟ أوليس الشاعر ضمير العالم...؟

أسال أصدقائي الشعراء وقد بحثت عن صوتي بين أصواتهم ووجدته غائماً... أو زائغاً... أو مخاتلاً... أو هارباً من لحظة الصدام مع الموت. يا له من هربٍ يائسٍ من اعتراف لا دافع له بالحقيقة المروعة.

***

وبما أننا إخوة الدم الأول والسؤال الأول في برية الشعر، لا بد من أن أفتش عن سورية المصموت عنها في أصوات الشعراء العرب.

***

أليس لسوريا زهرة في هذا الربيع؟

شاعر سوري مقيم في لندن

عن صحيفة الحياة- لندن 16-10-2011

أنا من سورية حيث الطفولة نسيت أحلامها

نينار حسن

أنا من سورية، حيث الطفولة نسيت أحلامها القديمة، اللعب، العطلة الصيفية، البوظة التي نشتريها سراً من عيدية الجدة، أعياد الميلاد، زيارات الأقارب القصيرة مهما طالت...

وحيث نسيت همومها الطبيعية: صباح المدرسة، كتابة الوظائف، طعام الغداء الذي لا نحبه، انتهاء الوقت المخصص لبرامج الأطفال...

أنا من سوريا، حيث تقف الآن طفلة على شرفة منزلها، لا تدري لماذا تراقب السماء، ولا يعنيها أنها بعيدة جداً. تنظر إلى منزل الجيران المقابل، ولا تنتبه كعادتها للأرجوحة على شرفته، ولا تتساءل كيف لأحد يمتلك أرجوحة كبيرة كهذه، أن يتركها فارغة دائماً!

تشاهد بصمت بائع الذرة الذي لا يغادر الحي، ولا يبيع أحداً، ولا ترغب في الشراء منه. لا تدري لماذا تغيب في شكل متكرر عن مدرستها، ولا لماذا لا تذهب إلى بيت جدتها في المدينة الأخرى. لم تفهم حجة والديها بأن «الطريق مقطوعة».

كيف تقطع الطريق؟ وأين تذهب قطعها؟ وبماذا تقطع؟ ومتى تنبت طريق مكانها؟

تجول بخيالها في أسباب قطع الطريق: «هل قطعها ولد مشاغب قاد دراجته بسرعة عليها فعلقت الطريق بين عجلاتها وانقطعت؟

أم ضربها مدير المدرسة بعصاه الكبيرة فقطعها؟

أو ربما قصّتها معلمة الرسم العابسة دوماً بمقصها الضخم لتزين بها مجلة الحائط!

أقنعها الحل الأخير، لطالما هي كرهت معلمة الرسم الغاضبة.

تتذكر حين لم تسمح لها برسم ميكي ماوس، يومها كانت ذكرى الحركة التصحيحية، وعليها أن ترسم كلمة 16 تشرين مزينة بعلم سورية وعلم البعث...»ولكني أريد أن أرسم لا أن أكتب! وما هي الحركة التصحيحية؟ ولماذا يلقي المدير خطاباً طويلاً باللغة الفصحى في هذا اليوم؟ وماذا يقول؟ ولماذا يتذكر في هذا اليوم أن يقول: يا أبنائي؟ ولماذا لا نستطيع أن نغيب عن الاحتفال ولا أن نرسم ونكتب إلا مواضيع عن الحركة التصحيحية؟

تذكر يومها كيف طلبت من والدها أن يكتب لها موضوعاً عن الحركة التصحيحية، وكيف سخر والداها من هذه الوظيفة، وكيف نهرتها والدتها عندما سألتها هي بعفوية: «ماما لماذا أنت لا تحبين حافظ الأسد؟ كل سوريا تحبه، هكذا قال لنا المدير اليوم!

هي لا تحب المدرسة، ولا تحب لون الجدران الرمادي، وتخاف من الشبك الحديد الذي يغطي النوافذ، وتكره الجدار العالي الذي يمنعها من رؤية الحي في وقت الفرصة، وتكره عصا المدير الغليظة، وتكره المقاعد القديمة الضيقة، وتكره لون مريولها الأزرق الباهت، وتكره أنها أصبحت وحيدة على المقعد بعد أن سافرت صديقتها إلى القرية... أين قريتها؟ ولماذا الطريق إلى قريتها ليست مقطوعة أيضاً؟

تتذكر حين همست لها صديقتها في أذنها: « بابا يقول أن القرية أكثر أماناً لنا الآن».

أكثر أماناً!

تغبط صديقتها لأن الساحرة التي تأكل الأطفال الأشقياء لن تستطيع الوصول إلى قريتها، ولأن «الحرامي» الذي يخطف الأطفال الذين يتأخرون في النوم لا يعرف بيتها الجديد!

هي تكره الشتاء، ولا تحب البرد والمطر، ولكنها آثرت الوقوف خارجاً لأنها ملّت مشاهدة العائلة الدائمة للأخبار، ولا تفهم لماذا تمنعها أمها المشاهدة عندما تتحدث المذيعة عن سوريا، ولا تعرف لماذا تبكي الأم عند مشاهدتها... «الكبار غريبون أحياناً! لماذا تصر ماما على مشاهدة شيء يبكيها؟»

لقد حرمت منذ مدة من حضور برامج الأطفال، لا شيء في المنزل سوى الأخبار، لم يزرهم أحد منذ زمن، أصبحت الطفلة أكثر عزلة واستغراباً.

يقطع الصمت حولها صوت سيارات الإسعاف والإطفاء... وتلته ضجة وصخب، وأغان تشبه تلك التي تسمعها في مدرستها، وأبواق السيارات تزيد المشهد ضجيجاً

تسمع والدها يشتم من الداخل

لم تكن تعرف سابقاً أن والدها يقول «الكلام العيب»، وأزعجها الموضوع جداً.

البرد يشتد.

تذكرت سترتها الصوف الحمراء التي حاكتها لها جدتها، «لقد كبرتُ عليها، لذلك أرسلتها ماما إلى ابنة صديقتها في حمص، لأن صديقتها تحب هذا اللون، لكنها أرسلت معها كنزة سوداء، وملابس أخرى ملونة، وأغطية! يا الله! ماما الحنونة تحب صديقتها التي في حمص جداً! ولكنها لم تعرفنا عليها سابقاً».

تسمع أهلها يتحدثون عن «حمص» هذه كثيراً، هي لا تعرفها، ولكنها تتخيل حمص مليئة بالملاهي وحدائق الحيوانات ومحال البوظة والألعاب، لا ريب في ذلك، هذا هو السبب المنطقي الوحيد الذي يدفع الجميع لمحبة هذه المدينة والتحدث عنها دائماً.

تسرح بخيالها في حمص، تتخيلها مدينة زهرية، المدارس فيها لا أسوار لها ولا شباك من حديد، طلابها يرتدون ملابسهم العادية، ومعلمة الرسم تسمح لهم برسم ما يرغبون فيه...

يقطع تفكيرها صوت انفجار قوي، تخرج أمها مسرعة تحضنها وتدخلها إلى غرفة الجلوس الباردة، تلمح على التلفاز من حضن أمها وقبل أن تنقطع الكهرباء صورة طفل نائم على الأرض وقد لون جسده وثيابه بالطلاء الأحمر، وتقرأ: ح م ص.. حمص!

تنقطع الكهرباء...

20 فبراير 2012

كاتبة من سوريا

شهادات ويوميات

الاعتقال والسجن

- راتب شعبو
- عامر مطر
- غسان ياسين
- غياث الجندي
- سلامة كيلة
- فرج بيرقدار
- محمد حيان السمان
- مفيد نجم
- هيام جميل
- وئام عماشة
- ياسين الحاج صالح

سيرة سورية

يوميات السجن

راتب شعبو

كنت في الخامسة عشرة حين جاءت دورية الأمن إلى بيتنا في الفجر تبحث عن أخي الفار من وجه الاعتقال السياسي. كنت أحب أخي ولا أعلم لماذا يبحثون عنه بهذه العدائية الظاهرة. يتكبدون مشقة السفر من المدينة (اللاذقية) إلى قريتنا كي يسألوا عنه، وكي يفتشوا البيت، ويقصروا أعمارنا بتهديداتهم. أعرف أن أخي يعمل مع تنظيم شيوعي وأن هذا التنظيم ممنوع، لكني لا أعرف لماذا هو ممنوع، ولا ماذا يريد هذا التنظيم وماذا يعمل كي يكون ممنوعاً. أعلم أن هناك شيوعيين في بلدنا لا تلاحقهم المخابرات ولا تعتقلهم ولا أعلم بماذا يختلف أخي عن هؤلاء. المهم أن أخي الأقرب إلى قلبي بات هارباً. لم نره لعدة أشهر ولم نعلم عنه شيئاً، وكنا نسمع الأقاويل والتخمينات. كانت هذه الظاهرة جديدة علينا وعلى مجتمعنا المعزول وكنا مستعدين إلى تصديق كل ما نسمع. كانت عقولنا تربة خصبة بل متعطشة للأقاويل المتعلقة بأخي، وما أن تُرمى البذرة حتى تنتش وتفرع وتتكاثر. قيل إنه وأمثاله رحلوا إلى كوبا، فهي الدولة الوحيدة التي تستقبل جماعة بمثل هذا التفكير. وقيل إنهم يعيشون في الجبال مثل «أبو علي شاهين»، وقيل إنهم مسلحون... كان غيابه وما يصلنا من تخمينات حوله وحول من معه، يزيد من رصيده في قلبي. أتخيله في الجبال ملثماً بكوفية وفي رأسه تتطاير شرارات أفكار ستغير العالم الذي نحن فيه. وأتخيله مع مجموعة من رفاقه يدرسون، وقد ندروا حياتهم لما هم فيه، كيف يغيرون حياتنا إلى الأفضل. كان حبي لأخي يضفي المصداقية والفضيلة والصحة على كل ما يعتنق من أفكار.

جاءت دورية الأمن باكراً في الصباح، وحين علمت بقدومهم، هرعت من فراشي فوراً إلى الخزانة التي يضع فيها أخي كتبه وأوراقه، وأخذت كل الصور «الشيوعية» التي كانت فيها مع جرائد كنت أرى أخي يقرأ فيها باهتمام، وكالبرق ركضت ودسستها في السياج الذي يسور الأرض المجاورة للبيت. لم يلحظني أحد من أهلي فقد كانوا تحت وطأة الخوف والترقب. فقط أحد عناصر المفرزة لاحظ حركتي السريعة من بعيد قبل أن يصلوا بعد إلى البيت. وحين وصلوا أمسكني ذاك العنصر من ذراعي بقوة وطلب مني أن أقول له ماذا أخفيت. قلت له من بين ضربات قلبي المتسارعة إنني لم أخف شيئاً وإنني كنت في قضاء حاجة. تركني وذهب إلى السياج وفتشه فلم يعثر على شيء. عاد وأمسكني وزاد من شده على ذراعي ونهرني بقوة وجرني إلى عند رئيس الدورية البدين الذي كان واقفاً باسترخاء يراقب حركة عناصره. سألني رئيسهم في أي صف أنا فقلت له إنني في الصف التاسع ثم سألني عما أخفيته في السياج فكررت عليه الإجابة التي قلتها للعنصر (كنت أعتقد أن هذه الصور وهذه الجرائد ستكون دليلاً رهيباً ضد أخي). فتوجه الرجل البدين إلى أبي وقال بصرامة وبلهجة ليست محلية:

- هذا الولد يا يطالع الشي اللي خباه يا قسماً بالله ناخدو معانا ونحرمه يقدم فحص الشهادة!

شل الخوف وجه أبي ونظر إلي وهو لا يدري ما أخفيت، ربما ظن أن في البيت سلاح لا يدري هو به، وقال لي وهو بالكاد قادر على تحريك فكه السفلي:

- ابني طالع شو خبيت، لا تخاف.

ليس تشجيع أبي هو ما دفعني لإخراج ما خبأته بل لبكتي من خوفه، ليس سهلاً على طفل أن يجد أباه خائفاً! ذهبت بصحبة العنصر إياه وأخرجت الصور والجرائد من السياج. نظر إليها الرجل البدين استعرضها (كانت صور روسية منوعة للينين: مرة وهو يخطب ومرة وهو شاب يسير في عكس تيار الهواء الذي يلعب بذيل معطفه ومرة في اجتماع مع رفاق له ..الخ) وقال:

- أيوه...شغلات محرزة!

لم أفهم ما معنى كلمة «محرزة» ولكن لاحظت أن نبرته كانت خائبة. في حين لاحظت أن وجه أبي وصوته استردا شيئاً من طبيعتهما. ذهبت الدورية بعد أن أخذ رئيسها الخائب تعهداً لفظياً من أبي بأن يخبرهم عن أخي إذا ما زارنا وأن يمتنع عن استقباله في البيت.

فيما بعد زارنا أخي سراً في إحدى الليالي، وسهرنا معاً في غرفة جانبية من بيتنا، بينما راح أبي يقوم بأعمال الدورية حول البيت وعلى السطح. حكيت لأخي قصة الدورية فقال لي:

- ليش تخبي هالشغلات، بالعكس هدول شهادة حسن سلوك إلي.

كانت بعض الجرائد ناطقة باسم الحزب الشيوعي الرسمي «بكداش»، كما قال، وبعضها باسم الحزب الذي انشق عنه، ويعرف باسم المكتب السياسي، وهذان أقل خطراً، كما قال، من التنظيم الذي يعمل هو فيه. نمت قيمة أخي وصحبته في نظري. سألته كيف يخبئون السلاح الذي بحوزتهم، فضحك وقال لي:

- ما معنا لا سلاح ولا بطيخ، لك سكينة ما معنا! تفاجأت. قال لي: شفت كيف أمك بتحط الخميرة بالعجين وبتتركو ع جنب منشان يتخمر كله، نحنا متل هالخميرة.

راق لي التشبيه غير أن قيمتهم بهتت قليلاً في ذهني. فلا شيء يعادل جاذبية السلاح في ذهن الطفل الذي كنته.

في الصيف التالي حصلت على جرائد وكتابات رابطة العمل الشيوعي. كنت أقرأها خفية بنهم. قرأتها كي أعجب بها، كما المؤمن يقرأ القرآن كي ينبهر به. كان يسحرني الكلام القطعي والتعابير الجديدة بالنسبة لي والنبرة الاستعلائية الواثقة المدعومة بولوج مواضيع ممنوعة وبمواقف معارضة جريئة. كل ما سبق أن قرأته قبل ذلك سوى كتبي المدرسية هو بعض روايات حنا مينة وبعض الروايات الروسية المترجمة الصادرة عن دار التقدم.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبي خالياً فتمكن

هذا المبدأ الفعال فعل فعله بي. كان قلبي ميالاً لاعتناق فكر، وكذا يكون قلب كل من هو في هذا العمر، وكان ميلي النفسي إلى أخي المطارد هو ما جعل قلبي مفتوحاً لهذا الاتجاه الفكري الذي يعتنقه. وهكذا كان. وفيما بعد حين يهدأ القلب ويعمل العقل، يجهد هذا الأخير في تبرير خيارات الأول وفلسفتها. القلب يهوى والعقل يجهد في الدفاع عن أهوائه. لا غرو أنه حين أراد الله أن يميز الرسول محمداً وصفه قائلاً إنه لا ينطق عن الهوى. ليس سهلاً أن لا ينطق الإنسان عن الهوى. فالغالب في الإنسان أن عقله يخدم ميوله وهواه.

كما هو الحال في الدين كذلك الحال في السياسة وفي كل ما لا توجد براهين قطعية على صحته أو خطئه. في السياسة كما في الدين يمكن الدفاع عن أية فكرة إلى ما لا نهاية، هنا يتسع المجال للميول النفسية والمصالح والعناصر التي لا علاقة لها بالسياسة ولا بالدين كالجمال والحب والطباع والبيئة..الخ. وما يضع العقل في حيرة أن الناس عموماً تراهم مطمئنين إلى ما يعتقدونه، وإذا كان في الدين ثمة فرقة ناجية كما يقولون، فإن كل فرقة تؤمن أنها الفرقة الناجية دون أن يخامرها أي شك. الإيمان هو الترياق المضاد للقلق الذي يولده الشك. لا يجتمع الإيمان مع القلق بحال، ذلك أن قطرة واحدة من القلق تفسد بحراً من الإيمان.

الشيخ حسن (الكراكون)

لا يمكن لمن قاده حظه العاثر إلى هذا المكان الحائر بين كونه سجناً وكونه مقراً للتحقيق ويحمل فوق هذا وذاك ملامح البيت الدمشقي، أن يمحي من ذاكرته ذكراه. يتألف مبنى سجن الشيخ حسن من قسمين مختلفين عمرانياً ووظيفياً وتاريخياً. القسم الأول يمثل بيتاً دمشقياً بغرف موزعة على محيط باحة سماوية تتوسطها بحرة في وسطها نافورة، هذا عمرانياً، أما وظيفياً فهذا هو مبنى الإدارة، ومن الناحية التاريخية فهو على الأغلب القسم التركي أو العثماني من السجن. أما القسم الثاني فهو وظيفياً مبنى السجن بالخاصة، حيث يضم جماعيتين (تحتانية وفوقانية) ويوجد أمام كل جماعية صفان من الزنازين المتقابلة، يضم كل صف سبع زنازين. ومن الناحية التاريخية يعود بناء هذا القسم إلى ما بعد الوجود العثماني. يقال أن جزء منه يعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي والجزء الآخر إلى فترة الحكم الوطني وتحديداً فترة حكم أديب الشيشكلي.

هناك أمكنة لا تستطيع أن تستأثر بمكان خاص لها في الذاكرة، لكن الكركون ليس من بين هذه الأمكنة. المبنى عرفته من الداخل فقط، وعلقت في ذاكرتي صورته الداخلية. وحين أتيح لي، بعد ماراتون السجن، أن أتأمله من الخارج لم تستطع الصورة الخارجية أن تنافس سابقتها على الأولوية في الذاكرة.

الكركون هو المكان الذي فتح لي بسخاء إحدى زنازينه ليستضيف خطوتي الأولى في مسافة الأميال التي لا تنتهي، بعد أن استقبلني أبو عيد، رئيس مفرزة الكركون، بترحيب يقشعر له البدن، مستعار من لهجة غير لهجته بطريقة تنم عن استخفاف وتوعد: «أهلاً يا طويل العمر!». كنت قد خطوت أياماً بعدد أصابع اليد الواحدة في عامي الواحد والعشرين، وكانت دمشق تعيش أيام عيد الفطر، وشمس تموز كانت تغدق الكثير من ذاتها على تلك المدينة، عناصر مفرزة الكركون بشيالاتهم البيضاء ونفوسهم الميتة، يستلمونني. بفعل العادة، يفقد هؤلاء الإحساس تجاه الأحداث التي تشكل انقلاباً جذرياً وصدمة في حياة الناس. كانت سيارة نقل الطعام قد نقلتي إلى جانب بقلاوة العيد «عيدية المساجين» من حي الشيخ محي الدين حيث مكتب رئيس الفرع (حي يحمل اسم الشيخ العالم الذي وسع صدره لكل أشكال الإيمان بما فيها الوثنية، ويضم مكتب رئيس فرع جهاز أمن يضيق صدره برأي مغاير ولو بمقدار شعرة!) وحيث تم استلامي من دورية اللاذقية، إلى حي الميسات حيث فرع التحقيق المباشر «هكذا كانوا يسمونه»، وحيث تقرر عدم قبولي هناك وتحويلي «مؤقتاً» إلى الكركون الذي قبلني على الفور بكرم موروث عن الشيم التركية.

في حي الشيخ محي الدين استلام وتسليم (سوف تخضع كثيراً خلال ماراتون السجن لعملية الاستلام والتسليم هذه: فرع اللاذقية يسلم وفرع دمشق يستلم، فرع دمشق يسلم وسجن الشيخ حسن يستلم، ثم من سجن الشيخ حسن إلى سجن عدرا، ومن سجن عدرا إلى فرع التحقيق ومن هذا رجوعاً إلى سجن عدرا ثم من سجن عدرا إلى سجن تدمر ثم من سجن تدمر إلى فرع التحقيق ومن هذا إلى أهلك - إذا كان قد بقي لديك أهل - الذين يستلمونك بعد هذه «المعالجة» (process) الطويلة جثة غير هامدة. تشعر أنك مجرد بضاعة «مُتعِبة» لا أكثر). الطرف اللاذقاني الذي سلمك يرتاح من عبئك وينفض يديه بارتياح ويشيعك عناصره، قبل أن يعودوا إلى مدينتك التي سيطول كثيراً بعدك عنها، بنظرة إشفاق، نظرة من يعرف ما الذي ينتظرك هنا. والطرف الذي يستلمك يغمرك بنظرات لزجة مليئة بالاستثقال وبالقرف حتى، كأن عليك أن تعتذر إلى هؤلاء الحانقين لأنهم في يوم العيد ليسوا بين أهلهم. لا شيء أشنع من أن تشعر أنك مكروه ومحط حقد في عيون أناس يمتلكون كل القدرة عليك، إن مارسوا حقدهم عليك أذوك، وإن امتنعوا يكونون إنما يمارسون «كرماً» مذلاً ومؤذياً لك بقدر إيذائهم لو ضربوك وربما أكثر.

تسجيل معلومات على أوراق، تحويل من مكتب إلى آخر، ينتهي التسجيل. صرت على ذمة هؤلاء! يمسكني أحد العناصر من العضد ويشدّ (المسكة النموذجية التي تدل على أن الممسوك مجرم خطير أو عنصر فاسد في المجتمع يجب معالجته «أمنياً»!) ويقودني إلى سيارة الطعام، يسبقني أحد العناصر إلى الصندوق الخلفي للسيارة ثم يدفعني «عنصري» بفظاظة كي أدخل السيارة (كنت في يده سلساً كالحرير ولم أدر لماذا كان يقبض على عضدي مع ذلك بتلك القوة ولماذا كان يدفعني بتلك الفظاظة)، همّ أحد العناصر بضربي من الخلف بكعب بندقيته وأنا أصعد إلى السيارة، لكن أحداً ما منعه (تبين لي بعد قليل أن هذا «الأحد» هو سائق السيارة الذي عرف من خلال الأوراق أنني من بلده، بل ومن قريته نفسها). ولكن يجب أن أقول للحق أن كل هذه التنقلات والحركات والممارسات وغيرها إنما جرت وأنا طليق اليدين والقدمين والرأس أيضاً (أقول الرأس أيضاً لأن إحدى استيهاماتي التدمرية ستقودني بعد وقت طويل من الآن إلى تخيل قيد للرأس، وقيد الرأس يختلف بطبيعة الحال عن قيد اليدين والرجلين من حيث أن اليد تقيد إلى اليد الأخرى والرجل إلى الرجل الأخرى، أما الرأس فواحد ولا بد بالتالي أن يقيد إلى شيء ما ثان كأن يكون وتداً على سبيل المثال!) دون أية كلبشات أو قيود من أي نوع حديدي قديم أو بلاستيكي حديث.

الزنزانة رقم 3 في الطابق الثالث من سجن الشيخ حسن المؤلف من ثلاثة طوابق أحدها تحت الأرض تماماً وآخر تحت الأرض تقريباً وثالث فوق الأرض، كانت منزلي الأول (الذي لم آلفه ولا أحن إليه!). ولكن تجدر الإشارة إلى أن الطابق السفلي من سجن الشيخ حسن قد جرى ردمه في مرحلة ما (لا أعرفها ولم أستطع معرفتها ولكن يقال أن الردم تم بعد ما يسمى «الحركة التصحيحية» في 1970) وبالتالي فإن السجن بات طابقين فقط فوقاني وتحتاني. في صدر الكوريدور المحفوف بالزنازين من الجانبين يوجد المهجع. أهل المهجع هم أناس انتهى التحقيق معهم وباتوا تحت بند التوقيف العرفي غير المحدود. تماماً كما لا يعرف المرء متى يسترد الله أمانته منه، كذلك لا يعرف الموقوف العرفي متى يفرج عنه. حتى أن غموض التوقيف العرفي أشد كثافة من غموض الموت، في الموت مثلاً هناك حالات يمكن للطب أن يحدد مدة بقاء أصحابها على قيد الحياة، أما قيد التوقيف العرفي فلا يمكن «لِعِلْم» على الأرض أن يفيدك في مقاربته. مصير الموقوف العرفي لا يعرفه حتى الحاكم العرفي نفسه لأن هذا يعمل، كما اقترح أحد السجناء الظرفاء، وفق قاعدة: «بعدين منشوف!» أهل المهجع موقوفون سياسيون في حال مستقر نسبياً قياساً على نزلاء الزنازين الذين ما زالوا في طور التحقيق ولم يبت في أمرهم، أإلى الإفراج أم إلى مستنقع التوقيف العرفي أم إلى ما هو أسوأ. يحاول أهل المهجع معرفة هوية النزيل الجديد في الزنازين، فيخاطبونه صائحين من طاقة باب المهجع الذي يفتح على امتداد الكوريدور: «يا جديد!». قد يكون هناك نزلاء سابقون في الزنازين ولكن القادم الجديد يدرك بهذا النداء أنه المقصود. ويبقى يحمل هذا الاسم «جديد» حتى يأتي جديد آخر. وإلى أن يأتي جديد آخر يكون أهل المهجع قد عرفوا اسم الجديد القديم وباتوا ينادونه باسمه إذا لزم الأمر.

اليوم الأول في الزنازين

كان يومي الأول في الزنازين، أو لأقل إنه كان يومي الواعي الأول (الليل الذي قضيته نائماً في زنزانة فرع اللاذقية غير محسوب!). هذا الشيء (العيش في زنزانة) الذي اعتدت عليه لاحقاً (اعتدت عليه جداً) بدا لي غريباً وصادماً في البداية. هذه العزلة في مكان لا يتجاوز طوله المترين وعرضه أقل أو أكثر من المتر بقليل، ويضم جورة تواليت لقضاء الحاجات ومصطبة للنوم، بدت لي شيئاً لا يحتمل. يسترجع ذهني كل ما قرأت أو سمعت عن الزنازين، لكن أن تعيش الحالة شيء وأن تقرأ عنها شيء آخر. أول ما يصدمك رائحة المكان: رائحة عفونة معتقة، لا تزال إلى اليوم تعيدني إلى الزنزانة ما أن تتناهى إلى شمي! ثم يصدمك المكان: هل تقضي أيامك بجوار جورة تواليت؟ (تكتشف فيما بعد أن وجود جورة التواليت في الزنزانة إنما هو رفاهية)، هل تنام على هذا العازل الوسخ وتتغطى بهذه البطانية الوسخة؟ هل تنام دون وسادة؟ كيف

تقضي ساعة في هذا المجال الضيق فما بالك بأيام أو شهور!؟ وبعد أن تهدأ ثورة حواسك على طبيعة ورائحة المكان، يبدأ الشعور بالعزلة يسيطر على ما عداه، لا ينافسه سوى ترقب التحقيق والتكهن بسبب وخلفيات اعتقالك.

بعد أن يغلقوا باب الزنزانة عليك، تبدأ التعرف على تفاصيل مكانك وخصائصه: جيد أن هناك ثلاثة ثقوب في طاقة باب الزنزانة تخفف قليلاً من وطأة إغلاق الطاقة، وجيد أن هناك غطاء معدني لجورة التواليت، وجيد أن هناك نافذة عالية تعلو، نظراً إلى أن الزنزانة في الطابق الثالث (الذي صار ثانياً بعد ردم الطابق السفلي)، فوق سور السجن وتطل على المدينة. ثم تبدأ بعد ذلك تتسلى بقراءة الخربشات المحفورة على الحيطان. تستأنس بإشغال خيالك برسم ملامح شخوص مروا قبلك في هذا المكان. الأمن السياسي لا يتعامل فقط مع قضايا سياسية بحصر المعنى، يضرب شبكات دعارة وعصابات تهريب أطفال وجرائم غش وتحايل وتزوير في قضايا اقتصادية...الخ. الأمن السياسي له قرص دسم من كل عرس. لا غرابة إذن أن تجد على جدران الزنزانة إضافة إلى الأسماء والشعارات السياسية والنضالية، تعابير جنسية، هناك مثلاً من كتبت بكل جرأة: «فلانة الفلانية جاهزة تحت الطلب، رقم الهاتف كذا»، وهناك من يتحسر على الأيام التي يقضيها هنا بعيداً عن صدر«ها» «سحر ضمير الغائب!». يتساءل المرء ما قيمة هذا البوح المغفل كي يكابد صاحبه مشقة حفر هذه الكلمات في إسمنت جدار الزنزانة. ولا غرابة أيضاً أن تجد حِكَماً عامية مثل «الزمن غدار» أو «الحب بيزل». ولكني لم أعثر على العبارة المواسية «أيها السجناء أنتم الأفضل!» التي يقترحها أحد الشعراء السوريين. من جهتي لم يكن بي رغبة لكتابة شيء ولم يكن عندي أية أداة لفعل ذلك أيضاً.

أثقل المنغصات على السجين في الزنزانة هو إغلاق طاقتها عليه. طاقة الزنزانة بالنسبة لمن داخلها أثمن بكثير مما يعتقد المرء لأول وهلة، لدرجة أن السجين يحلم بأن يكون لديه سلطة أو قوة ما، ليس لكي يستخدمها للإفراج عنه، بل كي يجبر الشرطة على إبقاء طاقة زنزانته مفتوحة. الحاجة المباشرة تحجب الحاجة الأهم. وبالمناسبة، إن هذه خاصية نفسية عند البشر يبرع مساعدو الشرطة أكثر من الضباط في الاستفادة منها، فالخبرة الطويلة من التماس اليومي المباشر مع السجناء أوصلت المساعدين إلى استنتاج أمرين أساسيين، الأول هو أن مطالب السجين لا تنتهي، وأنه ما أن يحصل على شيء حتى يبدأ التفكير بالمطالبة بما بعده في سلسلة لا حد لها، والثاني هو أن المطلب اليومي الملحّ يشغل السجين عن المطلب الأكبر. وعليه فما أن تستقر حياة السجين على حال معيشية معقولة حتى يستغل الشرطة أي إشكال بسيط كي يسحبوا من السجناء جل ما لديهم من مكاسب لتعود المطالبة من نقطة الصفر في دائرة لا تنتهي من المطالبة والاستجابة بعد لأي، ثم المصادرة وعودة المطالبة من جديد وهكذا..

عند الغروب فتح باب المهجع الكائن في صدر الكوريدور الذي يضم زنزانتي وسمعت صوت الشرطي يقول: يالله يا شباب تنفس، الكل لتحت! «سأعرف لاحقاً كم هي مدنية هذه اللهجة، حين سأقيسها لاحقاً بلهجة أسياد وأرباب وجبابرة سجن تدمر!» خرج أهل المهجع، وأتيح لي أن أراقبهم من خلال الثقوب الثلاثة في طاقة الزنزانة. كان عددهم حوالي الخمسة عشر، يمشون بالشحاطات بتثاقل واعتياد ظاهر، وما لفت نظري هو وجود طفل بينهم يلبس دشداشة أو جلابية بلون سماوي. طفل نحيل ذو وجه حيوي شاحب يزيده شحوباً انعكاس لون الجلابية عليه. لا تزال صورة عمار الأولى حاضرة تماماً في ذهني لم يؤثر على قوة حضورها معرفتي اللاحقة الطويلة بهذا الطفل الذي تراكمت سنوات سجنه في دمه الفتي فصار في السجن رجلاً عالقاً في شباك الطفولة أو طفلاً ضائعاً في متاهات الرجولة.

كل وافد جديد على زنازين الشيخ حسن يشكل حدثاً مثيراً يرقق زمن سجناء الجماعية، كما سأَخبر ذلك لاحقاً حين أتحول إلى واحد من هؤلاء بعد حوالي الشهرين. كل وافد جديد إلى الزنازين هنا مرشح أن يكون في عداد أهل الجماعية بعد حين، مرشح بالتالي أن يكون ضيفاً بعد حين، أن يكون صديقاً حميماً لك، أو لاعب شطرنج يحطم هيبة لاعب متغطرس لا يقدر أحد من أهل الجماعية على هزيمته، أو أن يكون شخصية بمواصفات تضفي حرارة وود وظرافة على حياة

المهجع، أو شخصاً نشيطاً يعين في تدبير شؤون الجماعية، هناك الكثير مما يدعو إلى التفاؤل به وانتظاره. ولا شك بالمقابل أن هناك إمكانية أن يكون شخصاً كسولاً أو ذا مزاج صعب قد يسمم حياة الجماعية. وهو إذا كان ينتمي إلى إحدى المجموعات السياسية التي لها رصيد بشري في المهجع فإنه يحظى بحفاوة كبيرة، ولكن مجرد أن يكون فيه رائحة «معارضة يسارية» يخوله أن يكون ضيفاً مكرماً عند اليساريين والعكس بالعكس. وقد كان لليساريين اليد العليا في سجن الشيخ حسن ليس من ناحية التفوق العددي، إذ لم تكن الأغلبية العددية تستقر لاتجاه هناك. يزيد الإسلاميون إلى أن يأتي قرار ترحيل دفعة منهم إلى تدمر فيصبحون أقلية، ثم تأتي من سجن تدمر دفعة إسلامية أنهت أحكامها الميدانية فيرتفع عدد الإسلاميين، ثم ينقلون إلى الكركون سجناء يساريين من سجون أخرى أو يعتقلون أناساً بتهم يسارية فيرتفع عدد اليساريين وهكذا.. كما لم يكن تفوق اليساريين في سجن الشيخ حسن سياسياً، إذا اعتبرنا القوة السياسية هي قوة انتشار الطرح السياسي بين الناس وقدرته على تحريكهم. بل كان بالأحرى تفوقاً أخلاقياً، أو ربما أخلاقياً سياسياً. السجين الإسلامي كان يحمل وزر أمرين الأول هو وزر الفكر الطائفي الذي تحمله الجهة السياسية التي يُنسب إليها، والثاني هو وزر الكثير من الأعمال المسلحة والعنيفة غير التمييزية التي قامت بها هذه الجهة. السجين اليساري كان متحرراً من أوزار كهذه، ويبدو طرحه السياسي، بصرف النظر عن قوة حضوره وفاعليته، أكثر أخلاقية. من هنا، برأيي، كان يتأتى ثقل حضور السجناء اليساريين في سجن الشيخ حسن، ولاحقاً في سجن عدرا، إذ ليس عندهم ما «يخجلون» منه.

تمهل بعض أفراد المهجع قليلاً أمام زنزانتي محاولين فك صرة هذا «الجديد» والتسلي قليلاً بمحتوياتها تناقلاً وربطاً وتحليلاً، فذلك يخفف من وطأة زمنهم الثقيل، لكن الشرطي منعهم. غير أن الشرطي نفسه الذي منعهم، زودهم تحت ضغط أسئلتهم الملحة بالمعلومات التي يريدونها: اسمي ومن أية محافظة وأنني معتقل حديثاً وليس سجيناً قديماً منقولاً من سجن آخر وتخمينه لتهمتي.. الخ، فعند عودة أهل المهجع من التنفس، وقد صارت صرتي مكشوفة قليلاً لهم، أسرع أحدهم بصعود الدرج وفتح طاقة الزنزانة بعيداً عن الشرطي وسألني بحماس عما احتاج، قلت له، وكان شعوري، للمفارقة، شعور الغارق في بحر متلاطم من الزمن رغم أني لا أزال على الشط: أريد جريدة! لم يكن ذلك من باب اهتمام ثقافي ولا متابعة أخبار ولا شيء، بل فقط كي تعينني قراءة أي شيء على تحمل هذه التجربة الأولى من العزلة القسرية، على تحمل غلب الزمن. أذكر أن جدتي فاطمة كانت تقول إن أصعب غلبين هما غلب الماء وغلب النار، وأنا، بعد خبرة طويلة مع نوع ثالث من الغلوب، أضيف إلى هذين غلب الزمن.

الشخص الذي أسرع كي يسألني عما أحتاج هو علي. وقد ظن علي بي الظنون جراء طلبي للجريدة، إذ لا ينتظر من معتقل له ساعات فقط في الزنزانة أن يطلب جريدة!

في المساء أرسل لي أهل المهجع، بعد استئذان الشرطي، صحن فاصوليا خضراء بالبندورة واللحمة وملعقة معدنية وخبز مع أبي عمر (المعتقل الذي أكثر ما كان يرى من مرور أيامه في السجن أنها خسائر متراكمة للقاءاته الحميمة مع زوجته الشابة)، سأعرف بعد زمن طويل أن هذا الالتفاف على القواعد، بأن تحصل على أدوات أكل (صحون وملاعق) طبيعية وتستغني عن الأدوات البلاستيكية المخصصة لك في الزنزانة، ممكن ربما في كل مكان سوى في شيخ السجون السورية: سجن تدمر. لم يكن لدي أدنى قابلية لأكل أي شيء. كأن أحشائي كانت تريد أن تحتفظ بآخر اللقمات التي تناولتها مع أهلي حول مائدة عيد الفطر نقية من أي طعام سجني! ولكن بعد ذلك، وبالتحديد في فرع الميسات في فترة ما بعد انتهاء التحقيق وانتظار القرار الذي يحدد مصير مجموعتنا، سوف أذكر بحسرة صحن الفاصوليا هذا الذي أهدرته في جورة التواليت. حتى كأن شبح ذاك الصحن صار يلاحقني في تلك الفترة ويعذبني بالدهن السائل الأحمر اللماع الطافي على سطحه وقطع اللحم الكبيرة الوافرة فيه. إن يدي هذه نفسها التي أهدرت ذاك الصحن باستغناء كامل، هي نفسها اليد التي كانت تمتد من طاقة الزنزانة في فرع التحقيق طلباً للمزيد من الخبز!

وفي المساء نفسه، قبل أن أحسم قرار إهدار صحن الفاصوليا ذاك، فتح أحد عناصر الشرطة زنزانتي وقال بلا مبالاة مشتتة بين الثقة والخجل، وبصوت أقل شدة من الصوت العادي ودون أن ينظر إلى وجهي: الحقني! فلحقته. (عرفت عن قرب فيما بعد هذا الشرطي الذي فتح زنزانتي، إنه أبو يوسف، ومن صفات هذا الرجل أنه لا ينظر في وجه محدثه، فيخاطبك وعيناه على قدميك طوال الوقت حتى لتظن أنه ربما قضى ما مضى من عمره سجيناً سياسياً في سجن تدمر العسكري واعتاد على الوضعية النمطية للسجين هناك حتى صارت عنده طبعاً). نزلنا درج طويل يلتف مرة واحدة وينتهي بباب حديدي مفتوح على ممر إسمنتي صقيل قليل العرض يحيط بمبنى السجن إحاطة تامة (سأعرف لاحقاً أن هذا الممر الذي يمكن وصفه بأنه دائري ذو زوايا أو مربع دائري! «في السجون يمكن تربيع الدائرة!» هو «ساحة التنفس» في سجن الشيخ حسن) قطعنا الممر (أربع خطوات بالمشي العادي) فأصبحنا أمام باب حديدي كبير يفضي إلى مقر الإدارة، ومقر الإدارة مبنى على طراز البيوت الدمشقية القديمة التي يتوسطها بحرة وتتوزع الغرف في محيطها. أدخلني الشرطي إلى مكتب رئيس المفرزة، ولكن الرجل الذي كان وراء الطاولة ليس أبو عيد «الطويل العمر!» بل أحد ضباط التحقيق الجدد برتبة ملازم أول. (بديهي أن هذا السرد هو نظرة ترميمية لما جرى، نظرة مسلحة بكل معرفتي التي اكتسبتها لاحقاً في التحقيق ثم في «رحاب الكركون» على مدى حوالي السنتين، لا شك أنه ما كان لي أن أعرف رتبة الضابط ذاك حين قابلته للمرة الأولى، فضباط الأمن لا يرتدون بزة رسمية تبين مراتبهم، وما كان لي أن أعرف أن هذه الغرفة هي مكتب رئيس المفرزة أو أن أبو عيد هو رئيس المفرزة لولا المعرفة المكتسبة عقب حدوث ما يجري سرده).

دخلت المكتب فبادرني هذا الرجل-الضابط (هكذا يراودني القول دائماً حين أذكر هذا الضابط الذي عرفته جيداً فيما بعد، الذي سيختاره القدر لاحقاً ليكون مرافق رحلتنا الكئيبة «سرغلتنا» إلى سجن تدمر، رغبة من القدر في أن يضيف إلى موتنا عصّة القبر، بالقول: انشالله بتضل هالابتسامة على وشّك! لم أكن أعلم أن على وجهي ابتسامة، ولكن كلامه المغمس بالدلالة على هول ما ينتظرني، حرض للتو سيلان خيط ناعم من الماء المثلج على مسار عمودي الفقري، الشيء الذي من شأنه أن يستأصل شأفة الابتسامات من جذورها. كانت تلك جلسة التحقيق الأولى، وقد كانت ودية جداً إذا ما قيست بالجلسات التالية في «فرع التحقيق في الميسات» والتي كان أبطالها ضباطاً آخرين أعلى رتبة وشأناً. في هذه الجلسة وضع هذا الضابط أمامي حقيبة مأخوذة من غرفتي المستأجرة التي كنت أسكن فيها أثناء دراستي الجامعية، وكانت تحوي أدبيات ومنشورات لحزب العمل الشيوعي. وقال بثقة وبلهجة انتصارية: شو هدول؟! قلت إن هذه حقيبة كانت في غرفتي ولكنها ليست لي وقد وضعها عندي صديق، وأنا لا أعرف أصلاً ماذا تحوي. الغريب أنه اكتفى بالهمهمة: «هممم...»، ولم يلح في السؤال، حتى أنه لم يستخدم في وجهي حينها سلاح تكشيرته التي أعمت على قلبي كثيراً فيما بعد، والتي يوظف فيها كل ما حباه الله به من غلاظة في الشفتين وسعة في المنخرين تتكامل مع حجوظ عينيه وتقدم فكه العلوي، كل ذلك كي يرهبك ويظهر من بشاعة صورته بشاعة ما يضمر لك خلف من نوايا سيئة ومؤذية. تكشيرة هذا الرجل-الضابط وهيئته حين يهيج مريداً أن يعتصرك ويخرج منك ما يرغب من معلومات، تذكر بقصة سمعتها عن معلم الابتدائي الضخم الجثة والمخيف الوجه الذي رفع طفلة صغيرة في الصف الأول ووضعها أمامه على الطاولة في غرفة الصف صائحاً في وجهها: إذا مرة ثانية ما كنت كاتبة الوظيفة شو بدي أساوي فيكي!؟ فما كان من الطفلة المرعوبة أمام هذه الخلقة الهائجة إلا أن قالت له: أستاذ كُلني!

وجّه الضابط بعد ذلك أسئلة متعددة ثانوية كانت أقرب إلى الدردشة، دون أن يبدي تركيزاً أو إلحاحاً على شيء محدد. إذ يبدو أن المهمة الأساسية من حضوره ذاك هو رميي في دوامة التحقيق وإشعاري بقوة الأدلة ضدي. ولكن ماذا يعني هذا؟ لم أدر ما قيمة هذه الخطوة من ناحية الجدوى التحقيقية. حتى أنه يمكن اعتبارها حركة ضعيفة من حيث أنها كشفت لي ما بيد المحقق من معلومات وتركت لي الوقت كي أتدبر كيفية الرد والتعامل مع هذه المعلومات. يعزز هذا الاعتبار أن هذا الضابط لم يطلب مني أية معلومات مستعجلة يمكن أن تفسر اضطراره إلى كشف ما لديه للضغط علي. ظلت هذه الخطوة سؤالاً عالقاً لم تجب عليه سيرورة التحقيق اللاحقة التي بدت كأن لا علاقة لها بها. هل كانت تلك خطوة ارتجالية مبتورة من الضابط ذي التكشيرة، أم أنها خطوة لها غاية لم يستطع تحقيقها ذو التكشيرة، كل هذه أسئلة بلا إجابات.

أعادوني إلى الزنزانة أكثر خوفاً وضعفاً مما كنت. إذ تيقنت أن القضية أكبر مما كنت أتصور. وفي اليوم التالي تم نقلي إلى فرع التحقيق في حي الميسات.

الكركون من جديد

ها أنا مرة ثانية في الكركون، ولكن هذه المرة في الجماعية وليس في المنفردة، ولسنتين وليس ليومين. حال وصولنا إلى الكركون قسموا مجموعتنا إلى قسمين أدخلوا القسم الأول إلى الجماعية التحتانية والقسم الثاني (وكنت منهم) إلى الجماعية الفوقانية. سعادة خلاصنا من القبو ومن أجواء التحقيق، وسعادة اختلاطنا معاً نحن أبناء الدفعة الجديدة، وسعادة اختلاطنا مع السجناء الموجودين قبلنا في الكركون، وسعادة هؤلاء بقدوم «دم جديد» ينعش لبعض الوقت حياتهم ويحرك قليلاً زمنهم الراكد، وسعادتنا برؤية خيرات المهجع من خضار وفواكه وشاي وقهوة ومتة ودخان بعد انقطاع طويل. مجموعة من السعادات أضفت على دخولنا إلى الجماعية جواً احتفالياً عارماً. كان هناك شيئاً من التحفظ من جانب سجناء التهم الإسلامية وكانوا حينها قلة، وربما أيضاً من جانب بعض «اليساريين» ذوي الأوضاع والأمزجة الخاصة.

الجماعية عالم مثير وفريد (في سجن عدرا وتدمر لا وجود لمفردة «الجماعية»، المفردة المستخدمة هناك هي «المهجع» وتتناوب هذه المفردة في سجن عدرا مع مفردة مدنية هي «الغرفة»، لكن في فرع التحقيق وفي الكركون المفردة المعتمدة هي الجماعية كمقابل للمنفردة). الجماعية فيترينا تعرض مختلف أصناف البشر، مختلف الأعمار ومختلف التنويعات النفسية والفكرية، وها أنت تدخل الفيترينا وتصبح جزءاً منها. معروضات الفيترينا تنشئ علاقات فيما بينها. يتاح لك، بعد أن دخلت الفيترينا، اختيار الصنف الذي تميل إليه، كما أنك تصبح أنت أيضاً موضوعاً للاختيار. الدخول الجماعي لنا شكل حالة من الاضطراب في الجماعية، عددنا يقارب نصف عدد أفراد الجماعية الموجودين سلفاً. في البداية يلتف أهل الجماعية حولنا وتبدأ الأسئلة. يطل الشرطي من طاقة باب الجماعية ويقول بود متوجهاً للسجناء القدامى: «على مهلكم عليهم شوي!». وبالمناسبة لا أهمية كبيرة في الجماعية لكون طاقة الباب مفتوحة أم مغلقة على خلاف تام مع الحال في الزنزانة. علاقات السجناء مع الشرطة ودية، يتخاطبون بالأسماء ويضحكون معاً، واللافت أن غالبية السجناء وغالبية السجانين من سهل حوران، والثقافة الحورانية الغنية والمميزة هي السائدة في اللهجة والتعابير والأمثلة والأغاني..الخ.

في بداية دخولنا الجماعية يكون طلب «المعرفة» أقوى من عرضها. ثم بعد الإجابة على الأسئلة الرئيسية يشبع الطلب نسبياً ويبدأ التجمع بالتشطي بشكل تلقائي، تتشكل تجمعات صغيرة مبعثرة نواتها واحد أو اثنان من الوافدين الجدد. بعد حين من الوقت ترضى قليلاً رغبة المعرفة لدى أهل الجماعية القدامى، وترضى قليلاً رغبة الوافدين الجدد في شرب الشاي والتدخين، ويبدأ النهار بالأفول، فيبدأ ما هو أهم، وهو تأمين مستلزمات الوافدين الجدد الذين لا يمتلكون شيئاً. مستلزمات أساسية من بيجامات وملابس داخلية ومناشف وغير ذلك، ثم يبدأ توزيع أماكن النوم. ثم تدريجياً وبشكل عفوي يبدأ تبلور العلاقات. الخطوة الأولى من تشكل العلاقات الثنائية مبادرة السجين القديم بتأمين مستلزمات أحد الوافدين. في هذا بداية التعبير عن الميول، بداية نشوء العلاقات. هنا اختبار واسع لقيمة الانطباعات الأولى.

يستمر الاحتفاء بالوافدين الجدد ثلاثة أيام. ثلاثة أيام هي شهر العسل. عادة بدوية! خلال ثلاثة أيام يكون الوافد الجديد معفياً من مهام السخرة (اعترض كثيرون على هذه التسمية على مدى سنوات السجن، واقترحوا بديلاً عنها «الواجب» أو

«الدورية» أو «البلدية» ولكن، من عجب، لم تتمكن أية مفردة أن تنافس مفردة «السخرة»، ويكون محط اهتمام ورعاية. الوافد الجديد يحمل رائحة العالم المقصي عنه السجين القديم. ومع الوقت تتلاشى هذه الرائحة ويحل محلها رائحة السجن الراكدة.

هذا هو اللقاء الأول مع المشهد الداخلي للسجن، السجن بمعنى الكلمة الحرفي، المكان الذي يقضي فيه الإنسان سنوات. كل شيء أمامك له رهبة المعرفة الأولى. كل شيء هنا يهجر معناه المألوف ويكتسب معنى جديداً ضمن هذه البيئة السجنية ذات الرهبة. الصناديق الخشبية، كيف تصبح مطبخاً. الكراتين، كيف تصبح خزناً معلقة بحبال ومسامير على الجدران. السطول، كيف تصبح «غلوبات»، كيف تعلق في السقف بطريقة تمكن من رفعها، عند النوم، كي تصبح ساتراً للمبات المدلاة من السقف. هنا تلاحظ السخرة، كيف تقوم بواجباتها اليومية من صنع الشاي وتوزيع الكاسات ثم جمعها وغسلها وترتيبها في أماكنها. السجناء، كيف يقضون أوقاتهم. الاستسلام، كيف يعلو الوجوه على شكل طمأنينة يائسة أو يأس مطمئن. الروتين اليومي، كيف يكبل وحش الزمن. السجناء الإسلاميون، كيف يؤدون واجباتهم الدينية وطقوسهم... ترصد بتمعن وذهول هذا العالم الجديد الذي طالما قرأت عنه وسمعت به. هذا هو السجن إذن! «بعد سنوات طويلة في السجون، ورغم هذه السنوات، ستشعر بما يشبه هذه الرهبة حين سيتم نقلك إلى سجن صحراوي وتقول في نفسك: هذا هو سجن تدمر إذن!». بعد ساعات قليلة من دخولنا الجماعية، وبعد أن بدأت تخف حمى الأسئلة وبدأ الجمع يتبعثر، أدهشتك إلى حد كبير حركة أحد السجناء القدامى حيث نهض وأصلح ضب بلوزته الخفيفة تحت بنطلون البيجاما، كمن يستعد لأداء مهمة، وانطلق مسرعاً في فسحة المهجع بضع خطوات كأنه يتجه لغاية محددة، ثم ما لبث أن استدار وسار بضع خطوات سريعة في الاتجاه المعاكس وعلى وجهه معالم الجدية، ثم استدار ثانية وكرر السير بخطوات سريعة وهكذا... حركة يظن من يراها للمرة الأولى أنها حركة جنون أو اختلال عقلي ما، ولكنك ستلاحظ فيما بعد أنها الحركة الأكثر شيوعاً وألفة في السجن، إنها نوع من التريض وتحريك الدم الراكد للسجين، يمكن أن تقول إنها نزهة أو مشوار سجني. وفي أحيان كثيرة يمكن أن يتنزه سجينان معاً في هذه الفسحة ويتسايران كما لو أنهما في حديقة أو على كورنيش. إذن، ضمن هذه الجدران وهذه الشروط يمكن لإنسان أن يعيش سنوات طويلة! تذكر أنك اجتمعت مرة، وكنت لا تزال في دراستك الثانوية، بواحد من أصدقاء أخيك كان قد قضى ثلاث سنوات في السجن، حينها لم تمل النظر إليه، ولم تشبع من التمعن في طريقة كلامه وإشاراته، كأنك ترى كائناً من عالم آخر. كيف احتمل هذا الرجل كل هذا الزمن حبيس الجدران؟ أين هي آثار السجن عليه؟ وكان أكثر ما يدهشك قدرته الكبيرة على الضحك. كنت تحاول أن تتخيله سجيناً فتفشل. الآن صار التخيل أسهل. أحياناً، وفي الأوقات التي يهدأ فيها قليلاً اضطراب الجماعية وحرارة النقاشات العبثية «بالمناسبة هناك نقاشات بلا طائل تشغل السجناء لأيام ولا أظن أن لمثل هذه «النقاشات» وجود خارج شروط السجن، مثلاً يختلفون على كلمات أغنية حورانية، فيرى فريق إن الأغنية تقول: «هبت هبوباً شمالي بردها شين!» أي شديدة البرودة، في حين يرى فريق آخر إن الأغنية تقول «بردها عجيلي»، نسبة إلى جبل عجلون في الأردن، وليس «بردها شين». ويبدأ سجال تزج فيه كل الأسلحة ويتردى إلى حد اكتفاء كل فريق بترديد العبارة التي يدافع عنها، فتسمع: يا سيدي «بردها شين» لا يا سيدي «بردها عجيلي»، «شين».. «عجيلي».. شين».. «عجيلي».. ولا ينتهي السجال إلا بتعصيب أو زعل أو رهان لا وجود لحكم يفصل فيه، ويكون الخلاف نفسه قابلاً للانتعاش في يوم آخر لدى أدنى إشارة إلى الموضوع. مواضيع السجال هذه تكون في كل المجالات قاطبة من مستوى: في ضربات الجزاء في كرة القدم، هل يرمي حارس المرمى نفسه لجهة قررها سلفاً أم يرمي نفسه وفق مراقبته لحركة اللاعب؟ أو هل الأفضل أن تكون فقسة إنارة التواليت داخله أم خارجه؟ ثم تأتيك الخلافات على تفسير الأمثال الشعبية وعلى تسمية الألوان...) ويصبح الجميع منغمسين في شؤونهم الصغيرة، كنت أسلي نفسي بمتعة المراقبة. أستقل بنفسي عن المحيط وأتخيل أني أنظر من الخارج على هذه الحياة الضيقة، هذه الحياة التي رغبت

دائماً أن أتخيلها وحاولت ولم أفلح يوماً، وها هي الآن تنبسط أمام عيني: رجل ينتف شعر وجنتيه بالملقط معتمداً على اللمس وهو يتكئ على وسادته مثل شيخ بدوي. رجل يقيس طول فسحة الجماعية ذهاباً وإياباً بخطى سريعة وهو يسبح بمسبحته بسرعة عصبية. رجل آخر ينقر على آلة موسيقية مرتجلة من وترين ما أنزل الله بها من سلطان، ويغني مع شاب حليق الرأس «عائد حديثاً من سجن تدمر!؟» أغنية حورانية: «حمامة ع النخل نوحي وأنا ابكيلك»، ولا يكف بين حين وحين عن مسح رأس أنفه بقفا يده مسحاً خفيفاً بحركة عصابية. مجموعة منهمكة في الجلي وتنظيف المطبخ. اثنان يلعبان الشطرنج وتتحلق حولهما مجموعة. شاب منهمك بحف بذر الزيتون على منطقة خشنة من حائط المهجع. شاب آخر منهمك بصناعة حقيبة كبيرة من بنطلون جينز قديم. شخص بوضعية نصف استلقاء شارد في دنيا أخرى. شخص آخر لا يكف عن تخيل أشياء تحوم حول رأسه ويدأب على التقاطها ودسها تحت أحد فخذية بعصبية. أشخاص نائمون والغطاء يسترهم من الرأس حتى القدمين. أحاديث هادئة مبعثرة ثنائية أو ثلاثية... عوالم مستقلة لا تنفتح على بعضها ولا تتوحد إلا حين يحضر شرطي لأمر ما أو في مواعيد الطعام أو حين تحدث مشكلة داخلية في الجماعية. صحيح أن الناس في الجماعية يعيشون بغياب الحواجز المادية التي تفصل عادة بين الناس وتجعلهم بمنأى عن رؤية بعضهم البعض، لكن هناك حواجز أخرى لا مرئية تفصل وتحجب بين الناس. مع مرور الأيام في الجماعية لا تفاجأ حين تنظر إلى شخص ما داخل الجماعية وتخال أنك لم تره منذ أسابيع.

في الجماعية فراش الشخص هو بيته، من يجلس على فراشك كأنما دخل بيتك ووجب عليك ما يجب على المضيف تجاه ضيفه. يُفسح المكان للضيف كي يجلس وظهره إلى الحائط، من غير اللائق أن يجلس الضيف وظهره إلى فراغ في حين يجلس المضيف وظهره إلى الحائط، إلا إذا كان المضيف كبيراً في السن أو مريضاً، وفي هذه الحالة يوضع للضيف ما يتوفر من وسائد كي يتكئ ويرتاح. وأحياناً يضطر المضيف إلى استعارة وسائد أو كاسات أو مصاصات متة أو سوى ذلك من عند جاره، وقد يضطر لاستعارة «بيت» جاره إذا كان عدد الزائرين أكثر من واحد. حين تقترب من فراش السجين وفي نظراتك علامات زيارة تكون كمن قرع جرس الباب، يستقبلك: يا حي الله! ويفسح لك المكان في الصدر. ربما قضيت أمام ناظريه ساعة وأنت تذرع فسحة الجماعية ذهاباً وإياباً، ولكن حين تدوس فراشه زائراً تصبح كأنك قادم إليه من بعيد ولم يرك منذ زمن، يستقبلك بحفاوة ويسألك عن أحوالك بجدية. حياة كاملة ولكنها مصغرة، تكبر أو تصغر مع تحسن أو سوء شروط السجن لكنها تبقى متشابهة كما تتشابه دمى الماتريوشكا الروسية.

الجماعية في الكركون مكان إقامة طويلة، ليست مركز تجميع لموقوفين يجري التحقيق معهم ويتم ترحيلهم بعد ذلك حسب نتائج التحقيق ونوايا المحققين السيئة دائماً، لذلك إذا زاد عدد «نزلاء» الجماعية تظهر مشكلة جديدة هي أن فرشات بعض النزلاء تمد وسط الجماعية أو أمام الباب أو لصق المطبخ ولا بد أن يتم رفعها في النهار من أجل سير حياة الجماعية. في هذه الحالة يبقى بعض السجناء دون «بيت» في النهار. وغالباً ما يستفيد هؤلاء المشردون من «البيوت» التي تبقى مفتوحة دائماً، وهي فرشات بعض السجناء الذين هم من النوع «الدوار» والذين نادراً ما تراهم على فرشاتهم إلا في النوم، تراهم يمشون في فسحة الجماعية أو يضيفون عند أحد ما أو يساعدون السخرة أو يحفون بذر الزيتون... الخ. وعليه يختلف سكان بعض «البيوت» بين الليل والنهار.

كل سجين يرتب فراشه وفق ذوقه وإمكاناته كما يرتب بيته «هذا أمر ضعيف الحضور في سجن تدمر لأن الفرشات «اليطآت» تطوى عادة في النهار إلى وقت النوم، وقد يوفق المرء بجار مريح أو لا يوفق. وقد يترك «داره» إلى مكان آخر حين لا يوفق بجار مريح. غالباً ما تتوازع الألوان السياسية مساحة المهجع دون تداخل أو بحدود دنيا من التداخل. وغالباً ما يكون الجار المفضل للسجين شخصاً قريباً إلى قلبه من لونه السياسي نفسه. ويحدث أن يكون فراش السجين ملاصقاً تماماً لفراش جاره، ويفصل، في الوقت نفسه، ما بين السجينين بحر من العداوة والقطيعة، لكن هذه البحار من الصنف

الذي يمكن أن يغور في لحظة، عندها ترى السجينين في ضيافة بعضهما البعض ما أن يتكئ كل منهما على فراشه متجهاً إلى الآخر، حيث تغدو منطقة التقاء فراشيهما سهلاً رحيباً لأهل أحباء يتبادلون فيه السجائر والأحاديث وما يتوفر من شراب وطيبات.

حين تزول الأسوار والجدران والتضاريس والمسافات التي تفصل بين البشر، يبقى هناك شيء يفصل ما بين الناس يمكن أن نسميه غلافاً شخصياً. غلاف شفاف لكنه يكفي كي تقضي مثلاً سفرة كاملة تدوم ساعات في باص إلى جانب وفي لصق شخص دون أن تتبادلا كلمة، في الوقت الذي يمكن لكلمة أن تقوض هذا الحاجز وتفتح عالمين على بعضهما البعض، وربما تفتح طريقاً لبناء صداقة بين شخصين. في وسائل النقل العامة وفي قاعات الانتظار يقوم هذا الغلاف بوظيفته، وظيفة العزل، تقع عيناك على الشخص ولا تراه، حضوره عابر ونادراً ما تترك ملامحه أثراً في الذاكرة. في السجن الجماعي تقوى وظيفة هذا الغلاف أو الكبسولة، هنا يعيش الفرد على مدار الساعة تحت أعين الجميع، ويا له من أمر محرج ولكن سرعان ما تعتاد عليه، سرعان ما تتكرس أكثر وظيفة هذا الغلاف في وجه النظرات الغازية كما في وجه الضجيج وفوضى التحركات داخل الجماعية. ولهذا الغلاف وظيفة تبادلية، يعترف باستقلالية حياتية وسلوكية للآخرين ويكسبك اعتراف الآخرين باستقلاليتك. تنام تحت نظر الجميع وتعيش انفعالاتك كلها تحت نظر الجميع، تعتاد على الحياة تحت «الأبصار». لكن هذه الحياة «المستباحة» تفرض نوعاً موارباً من الصراع على حدود الاستقلالية التي يتمتع بها كل فرد. صراع سلاحه الأهم هو السخرية، أو ما يمكن تسميته «التنقير الهزلي». إذا كان ثمة من يمارس استقلاليته الحياتية بشكل لا يروق لآخر أو لآخرين، كأن يقوم شخص بشرب الشاي بصوت عال، أو كأن يقوم أحد ما بنكش أسنانه بصورة مقززة أو يستأثر بفسحة الجماعية فيمشي دون أن يفسح المجال لغيره...الخ، فإن مثل هذه الصغائر تحتل مرتبة محيرة، هي أدنى من أن يتم تناولها بحديث جدي وأعلى من أن يتم تجاهلها، لذلك يتم تناولها بالسلاح الأمثل وهو «التنقير». بواسطة التنقير هذا يتم إيصال رسالة للهدف المقصود بطريقة غير جارحة، وغالباً ما يقوم بالتنقير شخص تربطه علاقة جيدة أو على الأقل عادية بالشخص المقصود، ذلك أدنى إلى أن لا يُستثار. أسلوب التنقير مهم كما أن الشخص الذي يصدر عنه التنقير مهم أيضاً، وغالباً ما تحل هذه الوسيلة معظم هذه الإشكالات التي هي صغيرة بالفعل ولكنها منغصة في الحياة المشتركة. التنقير الهزلي طريقة غير مباشرة في رسم حدود التعايش بين الأفراد، كما أنه وسيلة للدفاع عن الحق العام، إذا صح القول، حين يوجه إلى شخص يقصر بواجباته تجاه الجماعية مثل سوء قيامه بمهام السخرة أو سوء اهتمامه بنظافته الشخصية وما شابه ذلك. غير أن هذا السلاح غالباً ما ينطوي على أشكال عديدة من القمع الذي يمارسه أشخاص يتمتعون بمقدرة تنقير عالية ضد أشخاص لا يتمتعون بقدرة مساوية على الرد. ربما يتقبل الشخص المستضعف القمع ويكبس الجرح ملحاً، أو يغير طبيعة المعركة مستخدماً سلاحاً يجيده أكثر، كأن ينقل الموضوع من مستوى التنقير الهزلي إلى مستوى النقاش الجدي. في مثل هذه الحالة يمكن للطرف «المعتدي» أن يتراجع تحسباً لما يمكن أن يسفر عنه النقاش الجدي لموضوع «تافه» من شجار أو قطيعة، أو يمكن له أن يواصل «عدوانه» متحدياً الإمكانات المفتوحة. وفي مثل هذه الحالات ينفتح الباب أمام تدخل «الرأي العام» أو الشخصيات ذات الوزن في الجماعية لقطع الطريق على التطورات غير المرغوبة للموضوع. ولكن رغم كل شيء فإن مجالات الحرية الفردية غير متساوية ولا يمكن أن تكون متساوية في تجمع بشري يعيش هذه الشروط، إذ تختلف طاقات الأفراد وتختلف سعة مجالات حرياتهم تبعاً لذلك، وطاقة الفرد في مثل هذه الشروط يمكن أن تستمد من منابع مختلفة، من ثقافته أو من مرتبته الحزبية أو من عمره أو من طبيعة شخصيته أو من وضعه المادي أو من استعداده الدائم للدخول في شجار أو من سلاطة لسانه وسفاهته...الخ.

والمفارقة في السجن الجماعي أن القطيعة بين شخصين، ولاسيما حين يكون سبب القطيعة خلافاً على حدود الحرية الفردية، لا تعني انقطاع التأثير المتبادل بينهما، بل تعني، على خلاف ما يظن المرء، زيادة قوة هذا التأثير. في مثل هذه

الحالات، غالباً ما يتخذ قرار المقاطعة من قبل الطرف الضعيف الذي ضاق ذرعاً بتنقيرات وتعليقات طرف «معتدي» يمتلك إمكانيات لا يمتلك هو رداً لها. المقاطعة توقف التدخلات المباشرة للمعتدي. ولكن بعد القطيعة تصبح تعليقات الطرف «المعتدي» السابقة وتعليقاته الحالية غير المباشرة أكثر حضوراً في ذهن الشخص المستهدف وأكثر تأثيراً في التحكم بسلوكه. القطيعة بين شخصين داخل الجماعية هي حل لمشكلة ولكنها بذرة لمشكلة في الوقت نفسه، لاسيما إذا كان أحد طرفيها عدوانياً. غير أن علاقات الأفراد فيما بينهم لا تكون «ليبرالية» إلى هذا الحد، فهي غالباً ما تمر عبر موشورات عديدة ربما كان أهمها الكتل الحزبية. الفرد هنا ليس وحيداً في الميدان، فهو يرتبط بعلاقات متعددة مع جماعته الحزبية - «أبناء تهمته» حسب تعابير السجناء القضائيين - ومع أبناء منطقته أو طائفته، إن وجدوا، ومع أصدقاء له في الجماعية، ومع...الخ، وكل هذه العلاقات تدخل وتشكل حماية ما لنقاط الضعف عند الفرد. وحين يفتقد الفرد لهذه الحماية، وهو أمر نادر، تحميه علاقات التعاطف والشفقة والرأي العام، أو يحميه جناح شخص قوي له نفوذ في الجماعية. أما إذا فشلت كل هذه الحمايات في ردع تمادي شخص أو أشخاص ضده فقد ينفتح الباب أمام تدخل مفرزة الشرطة. على أن كل ذلك لا يمنع وجود أشخاص من طبيعة خاصة، في سلوكهم طرافة، يكونون، برضا عام، محط تعليقات ساخرة وتنكيت وضحك، وتكون ردودهم ونرفزاتهم طريفة كسلوكهم، لكنهم لا يكونون عدوانيين ويتقبلون هذا الدور، لا بل تراهم سعداء به، ويضفي وجودهم على جو الجماعية لمسة من الحيوية والبهجة. من هؤلاء مثلاً عبد الله الأردني، راع أردني اعتقل في طريق عودته من العراق إلى الأردن حيث دخل الأراضي السورية، تائهاً على الغالب، واستبقي بتهمة تجسس لصالح الأردن ولا أحد يدري ما هي ملابسات قضيته. رجل لا يقرأ ولا يكتب ويوحي شكله بالإعاقة العقلية. شكله العام يشبه نقطة الماء، رأس صغير وصدر ضيق وكرش كبير انسيابي يزداد انتفاخاً كلما ازداد نزولاً ويسنده حوض عريض يستند بدوره على رجلين قصيرتين، وله عينان متقاربتان وأنف أفطس وفم كبير بأسنان ناتئة إلى الخارج. وهو مشهور بقصة النمرين، ففي طريق عودته من بغداد إلى الأردن اعترض طريقه نمر جائع رهيب راح يعدو صوبه بسرعة فاستدار عبد الله هارباً ليصادف نمراً آخر أكثر سرعة يتجه إليه من الجهة المقابلة فما كان منه إلا أن تسلق شجرة نخيل أسعفه الله بوجودها على مقربة منه، ومن على تلك النخلة شهد عبد الله العجب العجاب حيث واصل النمران عدوهما السريع باتجاه بعضهما البعض واصطدما والتهم كل منهما الآخر فلم يبق منهما سوى الذيلين. وطالما أن الذيل لا يأكل فقد نزل عبد الله من على النخلة وتابع طريقه بعد أن أنقذه الله من الموت افتراساً. كان عبد الله مغرماً لسبب ما غامض كغموض قضيته، بكلمة «دبلوماسي». وكان أقصى مديح يمكن أن يقدمه لشخص هو أن يصفه بأنه «دوغلوماسي»، وعبثاً كان نور يحاول تصحيح اللفظة، فكل المقاربات المتنوعة والطرق المختلفة التي كان يتوسلها نور دون ملل، كانت تفشل أمام ثقة عبد الله وإصراره. وكان نور يختم جولاته الفاشلة معه بالقول: فعلاً يا عبد الله أنك «دوغ»-«لوماسي»! فيقول عبد الله منتصراً: «شفت!.. أنت تقول!» دائماً يكون في الجماعية أشخاص بارعون في العزف على أوتار هذه النماذج وخلق لحظات مسلية في جو الجماعية الثقيل.

ومن هؤلاء أيضاً محمود المعتقل بتهمة «اليمين المشبوه» (التسمية الأمنية لحزب البعث جناح العراق)، وهو من الأشخاص الذين يوحون بقدر كبير من الضعف. يجيد توليد التعاطف والشفقة لدى الآخرين ولاسيما من أمثالي، يخدمه بذلك وجه طولاني بلون وملامح تنم عن مرض مزمن، وعينان غاربتان إلى النصف تحت جفنيه العلويين، إضافة إلى نوع من اللجلجة الذليلة في كلامه، وطبع متساهل للغاية في موضوع الكرامة الشخصية. كان محمود محط تعليقات وسخريات يبقى صامداً لها دون أن يهتز أو يعترض. لا بل يوحي لك إنه سعيد طالما أن الحديث يدور حوله بصرف النظر عن مضمون الحديث. وحين يتاح له أن يتكلم يحدثك عن زواجه المبكر جداً وكيف «جرّه» أبوه من الشارع كي يدخل على عروسه، وكيف هرب في اليوم نفسه إلى السينما كي يرى الفيلم الهندي «ماسح الأحذية» تاركاً العروس وحيدة. يحدثك وهو يقطع

حديثه بالقول المتلجلج: يا سي.. يا سي.. قاصداً أن يقول يا سيدي. وكان محمود يشكو من مشاكل هضمية، وأحياناً كان يسقط على الأرض وهو يرتجف وتصطك أسنانه لشدة الألم، فأتبنى مشكلته وأنهض لأخبط باب الجماعية حتى يأتي أحد أفراد الشرطة. وكان يغيظني برود الشرطة ومعظم أهل المهجع أيضاً في تعاملهم مع حالة بهذه الحرارة. الشرطي يفتح باب الجماعية ويخرج محمود ساعة أو نحو ذلك ثم يعود محمود بحالة لا بأس بها. ملامح هذا الرجل مركبة بحيث لا تستطيع أن تعطي انطباعاً بحالة أفضل من اللابأس. ذلك الشحوب الذي يصل إلى حد الزرقة والجحوظ الرخو في العينين لا يمكن أن يعطي الانطباع بحالة جيدة. كنت أشعر أن هذا الإنسان معذب وأتعاطف معه، ودائماً أقف، على نحو دونكيشوتي، في مقدمة من يخبط الباب طلباً لإسعافه ومن يتبنى مشكلته مطالباً بحقه في العلاج. وسأتعرض من أجله لخطر الضرب والحبس في المنفردة، لأعرف فيما بعد أنه كان يتصنع ويبالغ ويضخم مشكلته كي ينال ساعة من التنفس خارج الجماعية أولاً ثم كي ينال «عطفاً» من الفرع، ناله فعلاً فيما بعد.

من أجل تسهيل الحياة الجماعية هنا يتم وضع نواظم برضا عام. نوع من القواسم المشتركة العظمى بين الأفراد. مواعيد للنوم وللقيلولة وللطعام، مهام السخرة، نظام الاستحمام، نظام غسيل الملابس، نظام حرق الخشب أو بذر الزيتون، مواعيد إشعال البابور، مواعيد حظر التدخين..الخ. ولكن تبقى المساحة الكبرى من الحياة اليومية في الجماعية خاضعة لأدبيات غير منطوقة ولاعتبارات ذوقية وأخلاقية. مثلاً، تحجب الأضواء بالسطول (الغلوبات) في الساعة الحادية عشرة ليلاً، الموعد «الرسمي» للنوم، ولكن ماذا عمن لا يريدون النوم؟ ما هي حدود حريتهم بعد هذا الموعد؟ ألا يزعجون غيرهم إذا تهامسوا؟ أو إذا أصدروا طرطقة صحون وهم يأكلون في الليل؟ ثم ماذا عن الذين يستيقظون باكراً؟ ما يشبه هذه الحالات تخضع لتقديرات الأفراد ولنوع من توازن القوة أيضاً. ما يقبل من شخص لا يقبل من آخر تبعاً لتوازن القوى الذي يكون مستقراً ويتجدد ضمنياً بصورة دائمة، ترسيخاً أو تغييراً، مع التغيرات التي تجري في تركيبة الجماعية. توازن القوى يشمل الجانب الفردي، الخصائص الشخصية للفرد وعلاقاته، والجانب الحزبي، نفوذ الجماعة التي ينتمي إليها الفرد شرط أن تكون هذه الجماعة تحتضن الفرد ولا تنبذه. على أن الحياة في الجماعية هي مصنع للحساسيات. تاريخ من علاقة متعثرة بين شخصين تجعل كل واحد منهما يرى في كل ما يقدم عليه الآخر استفزازاً له، لا يبرئ منه حتى شخيره. مثل هذه الحالة المتأزمة مولد مستمر لشجارات تضع الجماعية في استنفار دائم. واللافت أن كثير من هذه الحالات تتطور عن صداقات حميمة، فهناك نوع من الأشخاص علاقاتهم مع الآخرين تشبه حركة النواس، يقتربون إلى حد كبير ثم تنضب قوة النواس ويبدأ بالعودة فينقلبون إلى الضد. ولا شك أن في جانب كبير من هذه الشجارات والمناكدات اليومية، ودون قصد من أبطالها، محاربة فعالة لفيض الزمن ومعونة على تحمله. مثلها في ذلك مثل النميمة، هذه النبتة المغرية التي تزدهر أيما ازدهار في بيئة السجون. النميمة توقظ روح السجين وتشحن خلاياه المتبلدة. كل المواضيع يمكن أن تصبح مملة بعد حد معين إلا النميمة، فهي كالنار كلما التهمت أكثر باتت أكثر قوة.

النم صفة بشرية غالبة، حتى الحديث السياسي يحلو أكثر حين يكون من باب النميمة: تستحضر شخصاً غائباً (عن الجلسة وليس عن الجماعية) ممن تختلف معهم في السياسة وتبدأ بعرض أفكاره السياسية بالشكل الذي يجعلها سهلة التهشيم، ثم يجري تهشيمها ثم يجري الانتقال إلى استبطان هذه الأفكار وردها إلى اعتبارات «لا سياسية»، إلى اعتبارات طائفية غالباً، لكي تصل بالتالي إلى تناول صاحبها شخصياً. النميمة السياسية تنتهي غالباً بنميمة شخصية. بيد أن النميمة الشخصية هي الأمتع والأكثر إثارة ومقدرة على تحريك الجو ومقاومة كسل الزمن وتراخيه في السجن. وفي السجن تستخدم كنايات كثيرة عن النميمة، مثل «الدس» أو «سلخ الجلد» أو «الوضع في المقلاة»..الخ. تسمع مثلاً شخصاً يتوجه إلى اثنين أو ثلاثة منغمسين في حديث طويل دون ملل فيقول: «على مين عم تدسو؟» أو «جلد مين عم تسلخو؟» أو «مين حاطين بالمقلاية؟». الضغينة والكيد والغيرة والحسد والغيظ والخيبة والعجز.. كلها مشاعر حادة توقد مرجل النميمة والنيل

الغيبي من الآخر. النميمة هي القناة الأسهل لتحرير هذه المشاعر، من ينم يفرّج عن نفسه ويرتاح، ومن يستمع يستمتع، يستمتع أولاً لأن من ينم يمنحه ثقة، وثانياً لأن السهام تستهدف غيره فيشعر بالأمان، ولكن الأهم أنه يستمتع بتكسير غيره أمامه. غير أن متعة المستمع تخفت وتتلاشى حين يكون موضوع النم شخصاً لا يشكل بالنسبة له أية أهمية، لا ينافسه في شيء أو لا يعنيه معرفة أشياء شخصية عنه..الخ، عندها يصبح الإصغاء عبئاً مهما كان النمام ماهراً في نمه. ويصطلح السجناء على هذه الحالة بالقول إن فلاناً «النمام» يجلد فلاناً «المستمع». وقد يتقبل السجين أن يُجلد كي يتاح له تالياً جلد جالده بموضع نم جديد يهمه، وإلا فلا مصلحة له في الوقوع ضحية الجلد!

دائماً يخترع السجين ما يعين قلبه على تحمل السجن، وكل سجن يتيح بعض السبل إلى ذلك، لا يشذ عن ذلك حتى شيخ السجون السورية، أقصد سجن تدمر. الكركون لا يوفر الكتب ولا الجرائد ولا الراديو ولا التلفزيون... الكركون كما قلت هو فرع تحقيق يقوم بدور السجن، يبقى السجين فيه كما لو أنه قيد التحقيق دون تحقيق، ومع ذلك كان يمكننا أن نبتكر ما يعين: مائدة الاستيقاظ الباكر، أو حفلات الغناء الجماعي المسائية التي كانت تتحول إلى جلسات استماع ممتعة حين يصادف وجود سجين ذي صوت جيد ويتقن الغناء، أو جلسات القص التي يحكي فيها سجين ما قصة رواية قرأها أو فيلم شاهده، أو جلسات النقاش السياسي التي كانت عبثية غالباً وفولكلورية في جزء كبير منها، أو مباريات حفظ الشعر والأمثال والحزازير.

كان أبو رأفت يستيقظ مع أذان الفجر. وكي لا يزعج النائمين كان يدخل البابور إلى التواليت ويشعله بهدوء ويضع عليه إبريق الماء ثم بهدوء يعد كاسات المتة، ويعود ليوقظ أبا ثائر. يمهدان مكان فراشيهما، فراشاهما متلاصقان، لجلسة الصباح الباكر. دقائق قليلة وتصبح مائدة المبكرين جاهزة. المتة والقهوة والحليب وما يتوفر من تين يابس أو جوز أو عسل... كان ذلك في أيام الوفرة قبل أن ندخل في طور الشح والجوع حوالي النصف الثاني من 1984. وبعد أن تكتمل المائدة يبدأ أبو رأفت وأبو ثائر بتنبيه أشخاص متفق معهم سلفاً على الاستيقاظ الباكر. حول هذه المائدة الغنية كانت تتحلق نفوس غنية بالود والمحبة. لم أكن من رواد هذه الموائد ولم يكن لي علم بها أصلاً لأني كنت غالباً ممن يتأخرون في الاستيقاظ، لكني استيقظت باكراً ذات يوم لأجد لمّة صغيرة (وائل وناصر وخير وعبد الحكيم إلى جانب أبي رأفت وأبي ثائر) تبتكر متعتها الصباحية دون جلبة، حريصة على أن لا تزعج النائمين. وما أن لاحظ أبو ثائر استيقاظي حتى أومأ لي داعياً وعلى الفور صار لي مكاناً بينهم، وصرت كأني في مضافة: أحدهم يخيرني ماذا أشرب، وأحدهم يمد لي يده بقطعة خبز مدهونة بالعسل، وآخر يقترح علي شرب الحليب أولاً.. رواد الجلسات الصباحية يخبئون حصصهم من «خيرات» الزيارات كي يغنوا بها موائد الصباح. صرت من رواد هذه الجلسات. كان جميلاً هدوء الصباح الباكر وأصوات استيقاظ المدينة النائمة، ولاسيما ذلك الصوت الصباحي اليومي لعربة حصان كانت تمر باكراً عقب أذان الفجر. ذلك العربجي يستجيب تواً إلى دعوة المؤذن: «الصلاة خير من النوم»، فيصلي الفجر ويغتنم الأجر ثم ينطلق إلى عمله. كان صوت وقع حوافر الحصان وضجيج عجلات تلك العربة يدخلان الألفة إلى النفس. وكذا كان صوت طرق النحاس في سوق النحاسين القريب. ربما كان الإحساس بأنك في وسط المدينة ووسط الناس هو الفارق الحاسم بين سجن الشيخ حسن وسجن تدمر الصحراوي النائي. وقد كانت طيبة النفوس واطمئنانها إلى بعضها والشعور بالضيافة والحميمية كلها أشياء تميز هذه الموائد. وأذكر أن هذه الجلسات كان يغمرها الود وصفاء النفوس، كانت الأحاديث فيها قليلة، ربما لأن النفس لا تميل إلى الكلام الكثير في أول الاستيقاظ، وربما لأن المبكرين لا يودون إزعاج النائمين بالكلام، ولكن ما لاحظته أنه حين كانت تدور بعض الأحاديث الهامسة في هذه الجلسات، فإنها كانت خالية من النميمة.

حديث البوابير

البوابير في سجن الشيخ حسن كانت عصب الحياة. تزعجنا بصوتها ورائحتها وتسمم دمنا بالغازات الصادرة عنها ولكنها كانت عصب حياتنا. وكان الشرطة يدركون ذلك، ولذلك كانت أول وسيلة ضغط علينا وأول عقوبة هي سحب البوابير. وجاءت محاولة أحد أفراد الجماعية الانتحار بواسطة كاز البابور لتشكل حجة جاهزة دائماً في يد الشرطة. سحب البوابير يعني السقوط في هاوية من الإحباط والخمول والنزق و.. الكآبة. لا شاي ولا قهوة ولا متة ولا طبخ ولا شيء. كأننا أدمنا غاز الفحم ورائحة الكاز وضجيج البوابير فنصبح بغيابها قلقين لا رغبة بنا في الكلام ولا الطعام، وترى الغالبية نائمين مكفهرين. شيء يعادل انقطاع الكهرباء في المدن. وكان أثر غياب البوابير يظهر جلياً على المحامي عبد الله (أبو عمر) الذي كان يقضي وقته مستلقياً وما أن يسمع صوت شرطي على باب الجماعية حتى ينهض ويقاطعه بحدة قائلاً:

- يا زلمي دخلولنا هالبوابير عاد! ودنا نشرب شاي يا زلمي، إيه!! وحين لا يروق له جواب الشرطي كان يصعد من وتيرة كلامه:

- يعني هسّع حررتو الجولان وما عاد هاممكو إلا تسحبوا البوابير!؟ ويعود للاستلقاء على فراشه متمتماً: «يلعن أبو شرفكو عرصات!»

على أن المفرزة لم تكن قادرة على الاستمرار طويلاً في سحب البوابير، لأن هذا يعني أنه لا مجال أمامنا كي نستحم ونغسل ملابسنا، ولا مجال أمامنا كي نسلق أو نقلي البيض الذي كان يأتينا نيئاً. والحقيقة أنه لم يكن يتجاوز إجراء سحب البوابير الأسبوع، ولكن كل يوم بلا بوابير كان يعادل دهراً. والواقع أن إعادة البوابير كانت مصلحة مشتركة لنا وللشرطة. أولاً يتوقف «نقّنا» المستمر لإعادة البوابير، ثانياً يستريح الشرطة من عبء سلق البيض وإعطائه لنا، ثالثاً إعادة البوابير تعني استئناف نشاط صنع المسابح ولوحات الحرق وفي هذا مكاسب عينية للشرطة. أحياناً كانت المفرزة تلجأ إلى حلول وسط، سحب جزئي للبوابير، يدخلون البوابير صباحاً كي نسلق البيض ونعد الشاي، ثم يسحبونها باقي اليوم.

وذات يوم كئيب مسحوب البوابير، توجه أحد شباب الجماعية إلى أبي عمر قائلاً:

- حابب تشرب شاي أبو عمر؟

- يا زلمي حل عن سماي! أجاب أبو عمر بنزق.

- بسألك جد، حابب؟

- يا خوي حابب، بس كيف؟

- طوّل بالك!

أحضر الشاب خيطاً طويلاً وربط في طرفه شنكلاً ووقف على طاقة باب الجماعية وراح يرمي الشنكل مرات عديدة باتجاه البابور الموضوع في الكوريدور أمام باب الجماعية، حتى علق الشنكل في يد البابور وأخذ يجره بهدوء، ثم رفعه حتى وصل أمام طاقة الجماعية. البابور لا يدخل من طاقة الجماعية، أمسك الشاب البابور وحقنه وأشعله ثم أنزله بالشنكل حتى صار على أرض الكوريدور أمام باب المهجع وملأ أبريق الشاي بالماء وأنزله بالشنكل أيضاً ووضعه على البابور. بعد دقائق كان لدينا في الجماعية شاياً ساخناً بدا لنا ألذ من كل شاي شربناه من قبل. كانت سعادة الجماعية لا توصف بهذا الإبداع الذي كان بمثابة الفتح. وقف أبو عمر وأمسك الشاب من رأسه وقبله في جبينه قائلاً:

- والله شكراً للّي سجنوك معانا!

أما عبد المجيد فكان يأخذ على الجميع، ولاسيما على من يبدو عليهم التأثر جراء سحب البوابير، ضعفهم، فمثل هذا الضعف لا يليق بمعارضين يريدون تغيير نظام. دون أن يعني هذا بالطبع تخليه عن حصته من الشاي «المهرّب». وعبد المجيد هذا رجل قصير أصلع ذو كرش معتدل ويعاني من مشكلة أورتوبيدية فتراه يقف ويمشي مع انحناء خفيف دائم في مفصل الركبة. كما أنه كثير القرف والنحنحة ودائما ينفخ الهواء من فمه كأنه يبعد عن منخريه غباراً عالقاً في الهواء، مع حركة متكررة بالعنق تشبه حركة المتضايق من وجود ربطة على عنقه. كان عبد المجيد في السنة الثانية من دراسته

الجامعية، أدب عربي، حين اعتقل. ولكنه كان بعمر أكبر بسنوات كثيرة من عمره الدراسي. وقد اعتقل، كما يكرر القول، ليس لانتمائه إلى تنظيم حزب البعث الديمقراطي بل لأن شهامته دفعته إلى أن يحاول شد أزر الرجال الذين جاءت دوريات الأمن تعتقلهم والذين هم زملاؤه في المهجع الآن. وكثيراً ما كان يكرر سرد حادثة اعتقاله.

لو قيض للموتى أن يتحدثوا إلى بعضهم البعض عن أسباب وكيفيات وفياتهم، لتحدثوا مثل السجناء عن أسباب وكيفيات اعتقالهم. التشابه يفرض نفسه بقوة تصعب مقاومتها. في هذا التقابل يكون ملك الموت مقابل عناصر أجهزة الأمن، وتكون أسباب الاعتقال مقابل الأمراض أو الحوادث المسببة للموت، وتكون حملات الاعتقالات الواسعة مقابل الجائحات المرضية أو الأوبئة القاتلة. تجد مجموعة شباب جرى اعتقالهم من بيت كانوا يجتمعون فيه وتمكن شاب منهم أن ينجو بنفسه بأن قفز عن البرندا مثلاً، يمكنك أن تشبه ذلك بحادث سيارة حصد أرواح جميع الركاب ونجا واحد منهم. وتجد سجيناً يقول إنه مر عرضاً على صديق له فكانت دورية الأمن تقيم في غرفة هذا الصديق وتقبض على كل من يطرق بابها، يمكنك أن تقول إن الاعتقال كان مخبأ لهذا السجين في غرفة صديقه، كما يمكن أن يختبئ الموت لشخص تحت شجرة أراد أن يستظل بظلها فكان هناك على موعد مع لدغة أفعى مثلاً، أو كما يمكن أن يختبئ الموت لشخص آخر في رصاصة طائشة، أو في حادث سيارة..الخ. هناك فاصل قطعي بين الموت والحياة وفاصل قطعي بين الحرية والاعتقال، لذلك لا يمكن أن يمحى من الذاكرة الحدث الذي أدى إلى تجاوز هذا الفاصل، واللافت أن السجين يجد متعة واضحة ومتجددة في السرد المفصل لحادثة اعتقاله.

يمكن مثلاً أن نشبه المرض العضال بالملاحقة الأمنية. الأشخاص الذين تصيبهم أمراض لا شفاء منها، أمراض قاتلة، هم موتى مؤجلون إلى حين يقصر أو يطول (صحيح أن كل الأحياء هم موتى مؤجلون، ولكنهم يعيشون ساهين عن الموت طالما أنهم أصحاء، أما مرضى الأمراض المستعصية على العلاج فيعلمون أنهم مدرجون على جدول أعمال الموت ويعيشون خائفين من الموت الذي يقيم ويبقى حاضراً في أذهانهم)، يشبههم في ذلك الأشخاص الذين يحاول رجال الأمن اعتقالهم فيفرون ويصبحون مطلوبين للاعتقال ويعيشون هاجس الاعتقال بشكل دائم. أولئك مطلوبون لموت ملحّ، وهؤلاء مطلوبون لاعتقال ملحّ أيضاً.

أحياناً يأتي الموت سلساً هيناً، وأحياناً عنيفاً مؤلماً. سريعاً أحياناً وبطيئاً أحياناً. وكذلك الاعتقال يمكن أن يكون صاخباً وفي الشارع وأحياناً هادئاً «ودوداً» كما حدث مثلاً مع عبد الكريم. إن أهدأ حادثة اعتقال يمكن أن يتخيلها المرء هي حادثة اعتقال عبد الكريم. كان عبد الكريم ملاحقاً منذ حوالي سنتين، فقد أفلت من حملة الاعتقالات التي طالت عناصر حزبه (الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي) في أوائل عام 1980، وقد اعتاد خلال هاتين السنتين أن يزور بيته في القرية ليلاً بين فترة وأخرى، يسهر مع طفلتيه وزوجته، ثم يغادر البيت قبل الفجر. ذات ليلة راقت له برودة الجو في الفسحة أمام البيت بعد أن همّ بالابتعاد عن بيته تحت جنح الظلام، استمهل نفسه وجلس يستمتع ببرودة الليل وهدوئه قبل أن يبتعد عن قريته، غير أن النوم كان أقرب إلى عينيه مما كان يتصور، فاستيقظ بعد حين على مجموعة من رجال الأمن يحملونه ويضعونه في السيارة المخصصة لاعتقال أمثاله. رجال الأمن كانوا لطيفين معه كي لا يثيروا بلبلة في القرية، وعبد الكريم الذي ربما كان يحلم بأنه يطير على بساط ريح أو بأنه نجم سياسي يحمله معجبون به، أو لا ندري كيف يمكن أن يكون حلمه المبتسر قد دمج حادثة حمل عناصر الأمن له في تلك الليلة، أيقن حين أفاق أن «الموت» قد أدركه، فطلب من عناصر الأمن أن ينزلوه على الأرض واعداً أنه لن يحاول الهرب، ولا مجال للهرب أصلاً، ولن يحدث ضجة، وطلب أيضاً أن يسمحوا له بالدخول، «شرعاً» هذه المرة، إلى البيت كي يلقي «النظرة الأخيرة» على طفلتيه وزوجته. وكانت هذه الزيارات الليلية الخاطفة والبعيدة عن عيون المخبرين قد أثمرت طفلاً عوض لعبد الكريم عن كل الخيبات النضالية، كما كان يكرر على أسماعنا في السجن، قائلاً إن خلدون (ابنه) هو إنجازه الأهم طوال فترة الملاحقة!

هذا التجاور في المعاني بين الاعتقال والموت يُكرَّس في حالة سجن الشيخ حسن بتجاور مادي محسوس وعريق بين السجن والمقبرة. فالكركون يوجد إلى جوار مقبرة الباب الصغير التاريخية بدمشق. الحائط على الحائط. تلك المقبرة التي انتسبت إلى أحد أبواب دمشق السبعة الذي يسمى الباب الصغير والذي يرمز إلى كوكب المشتري. كما كل باب من أبواب دمشق السبعة يرمز إلى واحد من الكواكب السبعة. كان إلى جوارنا إذن يرقد أسلاف لنا كبار: بلال الحبشي ومعاوية ابن أبي سفيان وعبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك وأبو النصر الفارابي وابن القيم الجوزية.. أسلاف ليسوا ساهين عنا بأكثر مما نحن ساهون عنهم. همهمة المصلين والداعين وقارئي القرآن المأجورين كانت تصل إلى أسماعنا في أيام الجمع والأعياد. وكذا أصوات الزائرين الذين يأتون لتفقد المكان الأخير الذي شهد وجود فقيدهم فوق سطح الأرض ويخصون هذا المكان بباقة من الريحان الأخضر الذي يختصر ويوحد مشاعر الناس تجاه موتاهم.

إجمالاً يقوم السجناء السياسيون «بوظيفتهم» لمجرد بقائهم في السجن بصرف النظر عن قدراتهم ونوعياتهم. ليس الغرض من الاحتفاظ بالناس في السجون حرمانهم من حريتهم خوفاً مما يمكن أن تشكله حرية هؤلاء المحتجزين بالتحديد من خطر، كما لو أن حرية هؤلاء أصعب احتمالاً على الدولة من حرية غيرهم. إن «وظيفة» السجين هي أن الدولة توجه عبره رسالة تظهر الجد والجهد الذي تبذله لحفظ الأمن، وهي لا شك توجه بذلك رسالة ردع لمن هم خارج السجن، ولكن الأهم من هذا وذاك، أن سجن السجناء يشكل جسراً يمكن أن يعبر عليه من يحمل في نفسه دافعاً ما للمعارضة إلى ضفة المسالمة والسلامة والولاء، إذ لا جدوى من هذا العمل والسجناء «القابعون» في السجن دليل بيّن على ذلك. إن السجون الخالية من السجناء لا تقل غرابة عن المقابر الخالية من الموتى. الميت أيضاً يقوم بوظيفته على أكمل وجه تجاه الأحياء حين يبقى الدهر صامتاً ومختفياً عن النظر. حتى حين يُزار فإن زائريه لا يأتون لزيارته كي يروه، بل كي يروا بدلاً عنه كومة من التراب أو ركاماً من الحجارة أو ربما صندوقاً مزخرفاً من الرخام يحمل اسمه. الرخام على جماله وقيمته أضعف من أن يحمل ملامح تميز الهويات مثل وجوه البشر، فيلجأ إلى استبدال الهويات العضوية بالأسماء. يقوم الميت بوظيفته على أكمل وجه حين يتحول إلى فكرة أو ذكرى مكتملة ومنتهية. ذكرى تنتمي إلى ذات المتذكر فقط، ذكرى تسكن ركن الذكريات المؤلمة في الذهن، قد تثير الحزن والافتقاد وتحرض على البكاء إذا ألحت وسيطرت. الموتى يقومون بوظيفتهم كصلة وصل بين عالمين. كانوا معنا ومثلنا ثم انتقلوا بشكل تام وقطعي إلى عالم آخر لا نعرف شيئاً عنه، هم سابقون ونحن لاحقون، وظيفتهم أن يكونوا سابقين وأن يشكلوا ربما محطة ما لنا لاحقاً في عالم نجهله بالكامل، ولكننا نحاول استيعابه وفق قواعد عالمنا، عالم الأحياء، فنعتقد أن القرابات لها حضورها «هناك» مثلما هي هنا، وكثيراً ما نوصي الميت الحديث بالسلام على ميت قديم قريب له أو لنا.

إن على الميت، ما أن يقرر الاستغناء النهائي عن الهواء، أن يختفي نهائياً، فقد أحيل في الذهن إلى منطقة لا تقبل له الظهور مجدداً إلا كمصدر للرعب. أي شكل لظهور الميت يشكل خرقاً لقوانين راسخة، شيء يثير ريبة العقل في ثبات الأرض التي يقف عليها. وكما أن ظهور السجين الفار بين «الأحرار» يشكل خرقاً لقوانين محمية، ويثير نوعاً من الارتباك والخشية تمنع إقامة علاقات طبيعية معه، كذلك يمكن القول افتراضاً إن الميت الذي يظهر فجأة بين الأحياء يبدو، في العقول التي تدركه ميتاً، كما لو أنه ميت فار. وعلى افتراض ذلك فالأرجح أن أقرب الناس إلى هذا الميت الحي لن يتمكنوا من إقامة علاقات طبيعية معه ولن يتمكن هو من استعادة مكانته القديمة في بيئته القديمة، فقد مات غصنه في شجرة العلاقات المتشابكة ويصعب إحياؤه. هذا التجاور في المعنى بين الميت والسجين يصمد للمقارنة على أكثر من صعيد.

السجن إلى جوار المقبرة. ربما كانت أرضية الجماعية التحتانية على المستوى نفسه الذي ترتاح عليه بقايا الموتى، أما أرضية الجماعية السفلى «تحت التحتانية» التي تم ردمها بعد 1970 كما قيل، في محاولة لدفن ماضيها الشنيع، فإنها كانت بلا شك أدنى من المستوى الذي يصل إليه حفارو القبور في عملهم الدؤوب لإخفاء الموتى والسيطرة على روائح التفسخ

البشري. أي إن عمقاً أقل يكفي حفاري القبور، في حين يبدو الساعون إلى إخفاء الأحياء والسيطرة على «روائحهم» أقل اطمئناناً، فيحفون عميقاً أكثر في الأرض.

حديث البوابير، الذي قادنا للحديث الذي لم يكتمل عن عبد المجيد ثم عن قصة عبد الكريم، وردنا مئات السنين إلى الخلف، لم ينته. فأهمية البوابير في سجن الشيخ حسن كانت كما قلت توازي أهمية الكهرباء في المدن اليوم. ولذلك فقد كان من الضروري لنا أن نتقن التعامل مع هذه الوسيلة التي يفترض أنها نُسقت أو «انقرضت». غير أن السجون تكسر الزمن على غرار تقنيات الرواية الحديثة. السجن جزيرة زمنية لها استقلاليتها عن الزمن المحيط بها. تخلق السجون نوعاً عبقرياً من تجاور الأزمنة. إن لإيقاع الزمن داخل السجن وتيرة مختلفة عن وتيرة إيقاع الزمن خارجه، السنة في السجن لا تعادل سنة في الخارج، سنة السجن أقصر وأسرع على عكس ما يمكن أن يخطر في البال لأول وهلة. أليست الحركة هي مقياس الزمن؟ اليوم المليء بالحركة هو يوم طويل واليوم الفارغ هو يوم قصير. يعرف إيقاع الزمن السجني كل من طال به السجن إلى حد أنه «استقل» عن الخارج استقلالاً استطاع به أن يلامس إيقاع ذاك الزمن، ذلك أنه قبل هذا «الاستقلال» يكون زمن السجن ثقيلاً وبطيئاً لأنه لم يتحرر بعد عن صلته بالزمن الخارجي. ولهذا التحرر صلة مباشرة بما سميناه «الاستحباس»، أي استسلام السجين وخضوعه للدوران في فلك السجن.

يبدو أن حديث البوابير يثير الشطط ويغري بالتشعب؛ ربما لم يكن لأبناء المدن من السجناء أدنى معرفة بالبوابير، أما أنا فكانت ذاكرتي تحتفظ من طفولتي ببقايا صور عن البابور. لذلك كان عندي شعور بالمتعة في استعادة هذه الصور وترميمها واستكمالها، كنت أوشكت أن أنسى رائحة الكاز وطريقة إشعال البابور، أوشكت أن أنسى النكاشة والفالة والدفاش والشمبر والجرن والجلدة... وها هو السجن يعود بي إلى تلك البقعة من الحضارة الفائتة والمتروكة بعيداً خلف حضارة الغاز والكهرباء. أوشكت أن أنسى تعابير تلك البقعة من الحضارة البابورية: دقّ البابور أو احقن البابور، نفِّس البابور، حمّي الرأس، انكش الفالة، غيّر الجلدة، عبي البابور كاز...الخ. ها هو السجن، مثل دونكيشوت له قدرة على الانتصار، يبعث الروح في قيمة منسية. وما أسهل أن يعتاد الإنسان. فبعد حين قصير عشنا وانسجمنا مع جو البوابير ونسينا أن هناك وسائل تسخين أخرى حديثة، وقف الزمن بنا عند تقنية البوابير، أو كأن الكهرباء والغاز صارت، بالنسبة لنا، حضارة غابرة منسية قياساً على حضارة البوابير.

العبء الأكبر كان يقع على البوابير يوم الحمّام. في هذا اليوم الأسبوعي كان أبو منار، الشيوعي الحمصي الذي كان ضمن مجموعة الشيوعيين الذين نقلوهم من سجن القلعة المدني إلى سجن الشيخ حسن في صيف 1984، يشعل البابور الكبير منذ الصباح ويضع عليه حلة الماء الكبيرة ويقوم طوال اليوم على شأن الحمام، يوزع الماء الساخن بالعدل على الجميع. يدخل كل شخص بدوره إلى التواليت، يناوله أبو منار سطل ماء ساخن، يتدبر المستحم أمره بهذا المقدار من الماء، فيعدل حرارة الماء من حنفية التواليت كما يناسبه. ويبقى أبو منار قريباً، يكمل للمستحم ما ينقصه، ويحثه على الإسراع إن هو تأخر، وإن تأخر المستحم كثيراً فإنه يقع تحت طائلة سيل من التلطيشات والتعليقات والكنايات والتهكمات التي تنصرف كلها إلى تهمة المستحم باستغلال الحمام لممارسة العادة السرية. ولم يكن أبو منار يبخل بطاسة ماء ساخنة إضافية لمن يطلبها من المستحمين، وهناك من البدينين من كان يحتج على قانون توزيع الماء الساخن، مطالباً بتوزيع مقادير الماء بما يتناسب مع حجم الجسم. وبين خروج مستحم ودخول آخر، كان يعلن أبو منار بالابتسامة التي لا تفارقه عن فرصة لدخول التواليت لمن يرغب، قبل أن يشغل التواليت مستحم آخر، صائحاً: أوكازيون يا شباب!

هكذا بآلية طبيعية عفوية وكأنما من خلف ظهور الناس تفرز الجماعة الشخص المناسب ليقوم بالوظيفة المناسبة. الآلية الطبيعية العفوية هذه تبرز الأكفأ والأنسب للمهمة المعينة. هكذا يكون حين لا تشوب مصلحة الجماعة مصالح فردية أو فئوية أنانية، وحين تكون خدمة الفرد للجماعة عملاً طوعياً يلبي حاجة الجماعة لهذه الوظيفة وحاجة الفرد إلى أن يحقق

ذاته في هذه الخدمة. تكامل طبيعي لا انحراف فيه ولا تشويه ولا قسر. وبالفعل خسرت الجماعية كثيراً حين أفرج عن أبي منار (أفرج عنه في سياق الإفراجات الفردية التي شملت عدداً من شباب الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي في 1985 عقب مقابلة «نسميها مساومة» أجرتها معهم لجنة أمنية فرداً فرداً، حيث كان يتم الإفراج عن واحد أو اثنين من هؤلاء الشباب كل حوالي الشهر، ولذلك فقد أطلق عبد المجيد، البعثي الديمقراطي، على هذه الإفراجات تسمية «العادة الشهرية»، وحين كان يتأخر استدعاء السجين التالي عن الموعد الافتراضي قليلاً كان يبدي أحد ما، ممازحاً عبد المجيد، خوفه من انقطاع «العادة» ربما بسبب الحمل، فيرد عبد المجيد بأن الخوف الأكبر ليس من الحمل بل من سن اليأس). وقد أفرزت نفس الآلية الطبيعية العفوية بديلاً لأبي منار لم يكن أقل كفاءة هو أبو سعيد الذي قاد بنجاح مرحلة تقشف طويلة بسبب شح الكاز محافظاً للجماعية على تلبية حاجاتها الأساسية.

جاء نظام الحمام الصارم هذا حلاً لا بد منه لكثرة العدد وضيق المكان وندرة الموارد. قبل ذلك، قبل اكتظاظ السجن بسبب نقل السجناء السياسيين من سجن القلعة إلى الكركون، كانت تسمح لنا المفرزة بالاستحمام في حمام الكركون كل يوم جمعة. كان حماماً نظامياً بقاظان يؤمن ماءاً ساخناً وافراً.

في الأيام التالية للحمام تحمل البوابير عبئاً أكثر ثقلاً من عبء الحمام هو عبء تسخين الماء للغسيل. كل مجموعة حسب حجمها تختص بيوم أو نصف يوم لغسيل الملابس. ولأن غسيل الملابس مهمة شاقة ومستهلكة للوقت فقد كان يجري توزيع مشقتها على أفراد المجموعة وفق مبدأ السخرة نفسه في الجماعية. كل أسبوع يتولى مسؤولية الغسيل اثنين أو ثلاثة من أفراد مجموعة الغسيل هم سخرة الغسيل، وأحياناً يمكن أن يصادف كون الشخص في سخرة الغسيل وسخرة المهجع معاً، فيكون يومه أسود ما لم يعينه أحد ما، والحقيقة لم يكن المعينون قلائل.

ولكن رغم الحمام وغسيل الملابس الدوري والنظافة العامة في الجماعية فإننا لم ننج من الجرب. الإصابة بالجرب كانت الضريبة التي دفعناها بسبب طبيعة الكركون الذي يجمع بين كونه سجناً وكونه فرعاً للتحقيق. الأمر الذي يعني أن الزنازين هي نقطة تماس دائمة بيننا وبين أناس مغفلين كثر يجري اعتقالهم واحتجازهم إلى حين في الزنازين وربما كانوا يحملون أمراضاً معدية كالجرب.

قصة الجرب بدأت مع نبيل (حزب عمل شيوعي) الذي عوقب ووضع في الزنزانة لأنه غافل الشرطة وأعطى الحارث، أحد المعتقلين الجدد من الحزب نفسه، بطانية وهو لا يزال قيد التحقيق. بضعة أيام ثم عاد نبيل إلى الجماعية وهو لا يرتوي من هرش بطنه وما بين فخذيه. انتقلت العدوى إلى أكثر من شخص. الجميع صار يحك ويهرش، بعضهم بفعل الجرب الفعلي وبعضهم بفعل الجرب النفسي. كانت محنة فعلية زاد من شدتها الطقس الشتوي، إذ لا بد من غلي الملابس الداخلية بشكل يومي وطلي كامل الجسم بالدواء ثم الاستحمام. لذلك كانت البوابير على موعد مع مهمة ثقيلة طارئة. هي أيام تترك ندباً في الذاكرة مثل ندبات الحروق على الجلد. أيام كريهة كأننا كنا خلالها «قيام على الجمر». وهذه الأيام تكرر ذاتها بين حين وحين بلبوسات متنوعة. مثل مقدار من الألم يجول في الجسم ويلجأ إلى مختلف الأعضاء ويتظاهر بشتى الأمراض والعلل والعذابات. تبدأ هذه الأيام في محنة التحقيق، وتتخذ فيما بعد أشكالاً شتى، في سجن الشيخ حسن أيام الجرب وأيام الجوع وأيام الاكتظاظ، وفي سجن عدرا أيام الفسفس (البق) وأيام الغبار وأيام الحصار وأيام الجوع، والغالبية الغالبة من الأيام في سجن تدمر. هذا ما يطال المجموع، أما الأيام القاسية الخاصة بالأفراد فهي صفحات محجوبة لا يعلم بها في الغالب الأعم إلا أصحابها. وهناك أيام قاسية تقع بين كونها جماعية وكونها خاصة بالأفراد، هي القسوة التي تطال فئة معينة من السجناء. مثل محنة إعادة التحقيق مع مجموعة، أو ترحيل مجموعة إلى سجن تدمر، أو معاقبة مجموعة..الخ. ومن هذه الأيام اليوم الذي جاء فيه الملازم أول ذو التكشيرة إلى سجن الشيخ حسن وهو يحمل بيده خيزرانة ووقف على طاقة باب الجماعية وفي عينيه شر (الشر الذي في عيني هذا الرجل مقيم لا ينافسه خير مهما

قل). أخرج من الجماعية صفوان وعلي (بصفتهما قياديان في حزب العمل الشيوعي) وبعد قليل جاء رئيس المفرزة وطلب خروج كل «جماعة الرابطة». في كوريدور الزنازين كان صفوان يجلس على كرسي وهناك شرطي يجز له شعره على الصفر بماكينة يد، وكان في أرض الكوريدور دولاب. في حين كان علي واقفاً وذو التكشيرة يلوح بالخيزرانة ويستفزه بالكلام. كان صفوان قد رفض في البداية أن يحلق على الصفر، ثم وافق بعد بضع خيزرانات في الدولاب، مفسراً ذلك فيما بعد على أنه من الواجب أن لا تسلم رأسك للحلاقة طائعاً دون شيء من المقاومة. فعندما خيره ذو التكشيرة بين كرسي الحلاقة والدولاب اختار صفوان الدولاب فقط كي يوافق على الحلاقة بعد عدة خيزرانات. بعد حين من الوقت عاد إلى الجماعية أكثر من 12 شخصاً من أبنائها برؤوس حليقة. فهمنا لاحقاً أن هذه العقوبة كانت رداً على بيان أصدره حزب العمل الشيوعي فانتقم ضباط الأمن من معتقليه. وقد رأى عبد المجيد، الذي ينتظر الجميع تعليقاته على الأحداث، أن الأمن بسلوكه هذا إنما يعلق أوسمة على صدور حليقي الرؤوس، مضيفاً:

- يا ريتني كنت معكو، بس وينك! أَنِيْ أصلع ما لهم مني فايدة!.. وينك! أصلاً هيك صرتو أحلى لأنكو صرتو شبهي! خاتماً قوله بضحكته الحنجرية المميزة المترافقة مع حركات عصابية في الكتفين والرقبة، ثم، وتماشياً مع هذا الموقف، أبدى استعداده لتحضير المتة على شرف ذوي الرؤوس الحليقة.

خاتمة

حين أفرج عني كنت في السادسة والثلاثين وأحمل شعوراً بأني فتى في العشرين، وهو عمري حين اعتقلت. كأن آلة عقلي أنكرت الاعتراف بهذا الكم الهائل من الزمن المنقضي المتراكم. كأن الزمن في السجن كان يتغلغل في ولا يسير بي. المفاجئ أنني لدى وصولي قريتنا جلست أمام بيتنا كأنني لم أفارقه. لم يكن إحساسي بالحرية طاغياً ولم يكن قوياً حتى. كالنابض الذي تعرض زمناً طويلاً لقوة شد فاقت قدرته على التحمل ففقد شوقه إلى وضعه الأول. ربما كنت قد مللت انتظار الحرية فلم تعد تغريني. وربما فقدت قدرة الاستمتاع بالحرية ففقدت هذه قيمتها لدي. بدا هذا للآخرين قوة وتماسكاً أثنى الكثيرون علي به. أما أنا فكنت أشعر بخسارة حاسمة. كنت أشعر أن قشرة التماسك والتوازن البادية لدي - على أنني لم أكن أتصنع شيئاً منها - هي لباس لخواء هائل. لم يكن هدوئي اطمئناناً ولا توازني استقراراً. الأماكن والأشياء التي من المفترض أن تستفز مشاعري وتلامس روحي لم تكن تفعل، على الأقل لم تكن تفعل بالشكل المتوقع أو بالشكل الذي كنت آلفه في نفسي قبل هذا الماراتون. كأن بيني وبين ما يحيط بي غلالة من بلادة.

الإحساس بالأمان هو ما سيطر على شعوري في الأيام الأولى بعد الإفراج. ها هنا أناس يتجمعون حولي يحتفون بعودتي ويسألون عن حالي يدفعهم الفضول أو التعاطف أو الواجب ولا يبدو أنهم يضمرون الأذى بي. ها هنا بيئة اجتماعية مستقرة، توازن ما يحافظ على تراتبية مكرسة ويحول دون قدرة أحد على إلحاق الأذى بغيره اعتباطاً. لا خوف من أن أستيقظ على خبر أن شرطياً قد «علمني» أثناء نومي وعلي إذن أن أسدد الفاتورة غداً عند توزيع الفطور. ثقل باهظ شعرت بالراحة لزواله ولكن ما حل مكانه هو شعوري بمن بقي في ذلك السجن. فقد بقيت فترة طويلة أعيش على إيقاع ذلك السجن، هذا موعد توزيع الفطور ترى هل بينهم معلّمون ومن يكونون، الآن وقت التفقد ترى من هو الرقيب اليوم، هل يكون التفقد عادياً أم عدائياً؟ فترة طويلة كان أفراد المهجع حاضرين في ذهني بقوة، وأنسب كل من أراه إليهم شبهاً بالشكل أو بالطبع. حالة معاكسة تماماً للفترة الأولى من الاندماج في حياة السجن، حيث كنت أقيس أشخاص بيئتي السجنية الجديدة على أقاربي وأصدقائي ما قبل السجن، شكلاً وطبعاً.

بعد 16 سنة وثلاثة أيام ها أنا أجلس أمام الغرفة نفسها التي شهدت ذلك الحدث البسيط والبديهي مثل طبيعة الأشياء، مثل موت العجائز أو نمو العشب. في لحظة تستعرض ذاكرتي أحداث ذلك اليوم بتفاصيلها. شريط سريع من التفاصيل

يعبر على شاشة فكري، لكي يردم ربما هذا الفارق الزمني الكبير. كان ذلك منذ 16 سنة وثلاثة أيام في ثاني أيام عيد الفطر بعد الساعة الواحدة ليلاً، حين وقف رجلان في باب الغرفة المفتوح كما هي العادة في القرى، غرفة من بيتنا كانت أسرتنا حينها تعيش فيها طعم العيد ومتعة اللمّة العائلية الحميمة. حيا أحدهما وسأل مباشرة وبشيء من الود الرسمي: راتب موجود؟

ربما كان يومي ذاك، لمن يتقن القراءة، غنياً بالدلالات. منذ الصباح كنت غارقاً في عالم «مئة عام من العزلة» وسط فسحة خضراء جميلة تحت شجيرات ريحان كثيفة الأوراق والظلال في «المرجة». تحيطني الخضرة وأصوات الطبيعة. أقرأ عن عزلة في عزلة و... أنتهي في عزلة. تلك الفسحة حافظت على صورتها في نفسي طويلاً في قفرة السجن، تلطّف إحساسي بالغربة والإهمال والقسوة حين كانت تتلبد تلك الأحاسيس لتحكم طوقها من حولي. وتلك الفسحة الخضراء، كما لو أنها كانت تعلم بما أنا صائر إليه، استبقت لديها بطاقة هويتي، التي ظننت، لجهلي، أنها سقطت مني سهواً في ذلك المكان، وحفظتْها من ذل الحبس. وفي ذلك المساء الصيفي الهادئ نفسه أغرقتني صبية ساحرة، ببحرها الدافئ، غرقاً يميت ليحيي. وكنت إذا اشتد طموحي منها لا يتعدى أن أبلل عطشي بشيء من مائها الفتي، فكيف بما أتاحه لي ذلك المساء الذي كنت ذاهلاً بالكامل عما يخبئه لي ليله. ذلك سخاء ملأه اعتقالي بالدلالة، وأعطاه قيمة «الناقوس الذي يدق في عالم النسيان». خيمة صيفية بسيطة ارتمى على أكتافها ويبس الغار والشمبوط والحور وكل ما من الطبيعة الأولى يمنح نفسه ليكون حجاباً في وجه الشمس والعيون. بدأت ظلمة الليل تغلب ضوء النهار، فتركتُ عزلتي تحت شجيرات الريحان واتجهت صوب صوت غناء خفيف عذب يفوح من تلك الخيمة. هل كان الغناء نداء ومجيئي تلبية؟! وهل كانت تلك الخيمة تهيئ نفسها لنا استجابة لأمر مكتوب في لوح محفوظ كي تحتضن ذاك اللقاء كما يحتضن الرحم التوأم؟! كل شيء كان ممهداً وودوداً كأن لحظات ذلك المساء كانت تحتفي بي. لكن حين اقتربت أصوات العائدين من الحقول إلى منازلهم من الخيمة الحانية علينا كأم، لفظتنا هذه إلى الساقية المجاورة، مخافة فضول أو حاجة تدفع أحدهم للدخول إليها. وفي الساقية المجاورة حيث كنا شبه عراة، كان يمكن أن نتحول إلى جنيين شريرين أو إلى روحين عائدتين بهيئتهما الشبحية تستطلعان أمكنة كان لهما فيها ذكريات، غير أن عيون العائدين إلى بيوتهم من تعب يومهم الطويل، لم تبصرنا فبقينا على حالنا، شاباً وصبية مذعورين ويخفق قلباهما خوفاً من افتضاح أمرهما، ينتظران ابتعاد أصوات العائدين كي يطمئنا قليلاً وتحتضنهما الخيمة من جديد، ويتاح لهما أن يكملا ما بدآ به. تبتعد الأصوات، وتستعيدنا الخيمة، وتتهيأ لمركبي الغر كل سبل الإبحار المشتهى، إبحار ينطوي على متع المغامرة البكر مجتمعة، وكان البحر صديقاً ولا يعكر هناء الرحلة وصفوها شيء. كأنها رحلة معد لها منذ أزمان بعيدة. وحين أفتح عيني من نشوة المشوار لا أجد أثراً ليابسة، لا شيء وراء الماء سوى الماء. ويعيدني إلى اليابسة همس خفيف، فأودع البحر كل شيء، وأعود أدراجي أتلمس جمال ما حظيت به، وأستمتع بحجم هذه الغنيمة الهائلة التي أسقطتها لي الريح، والتي أنارت بين أضلاعي مثل زوادة من ضوء لرحلة معتمة بهذا القدر.

نهضت في الحال واتجهت إلى رجل الأمن الذي يسأل عني، وكنت قد دخلت الغرفة منذ وقت قصير. كان أهلي في الغرفة يتحلقون متراخين حول مائدة عامرة بالمأكولات والمشروبات والنكت والتعليقات في حين كانت أمي مستلقية كعادتها على الأريكة بجوارهم وقد غفت على هدهدة أحاديث السهرة. تأكد الرجل من أنني المقصود بأن كرر السؤال: أنت راتب؟ ثم قال بلطف أنت مطلوب لفرع الأمن السياسي، مشهراً بطاقته في يده. ولم أشعر أن لطف النبرة تلك وإشهار البطاقة هو تعبير عن احترام لمبدأ أو عرف أو التزام بقانون، بل نوع من الترف، أو تعبير بالأحرى عن سيطرة تامة. هو الشعور بالسيطرة نفسها التي تجعل الهر يداعب الفأر قبل أن يفترسه. انطلقت بنا سيارة التويوتا بعد أن تجمهر حولها أهلي وأقربائي المجاورين لنا وتناهى إلى سمعي قبل أن تنطلق السيارة صوت أمي يسأل: شو فيه.. شو صاير.. راتب..؟! كانت

سيارة التويوتا تلك بنصفها العلوي الأبيض ونصفها السفلي الأحمر (منذئذ سأكره هذا الصنف من السيارات وأخافه) تنطلق مسرعة والطريق شبه فارغة على العكس من رأسي الذي كان مزدحماً بالتوقعات ونهباً للقلق والمخاوف. ثم راحت السيارة تقترب من البحر أكثر وتدخل في شوارع لا آلفها.

وصلت سيارة الجيب التويوتا من كفرية إلى فرع الأمن السياسي في اللاذقية حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لا يوجد في السيارة سوى السائق وعنصر الأمن وأنا. دليل على أن المعلومات حولي لا تشير إلى أنني خطير. هذا جيد، ومبشر، كما خيل لي. كان العنصر لطيفاً. السائق في الدوريات الأمنية تقتصر وظيفته على السواقة، هذا ما تبين لي من تجربتي، إذ يبدو كأنه مجرد سائق مأجور. قطعنا المسافة بين كفرية واللاذقية صامتين، لم يدر أي حديث حتى بين العنصر والسائق. فقط أنا سألت العنصر إن كان يعرف سبب الاعتقال فأجاب إنه لا علم له بشيء، وأضاف: أنت من يجب أن يعرف. ظننت أن فرع اللاذقية يريد أن يسألني عن ابن عم لي مطارد منذ فترة بتهمة النشاط لصالح رابطة العمل الشيوعي ولاسيما أنني أدرس في دمشق وجئت لقضاء عطلة عيد الفطر وهم قد يعتقدون أن قريبي ذاك يتخفى في دمشق أيضاً، لعلهم يريدون تحقيق سبق ما يفاخرون به على فرع دمشق، خصوصاً وأن ابن عمي كان قد أربك الأمن في أكثر من مرة وبالتالي فإن الوصول إلى معلومات عنه يشكل نصراً ما. استقر ذهني على هذا الاحتمال وانشغلت في تخمين مدى الضغط الذي يمكن أن يمارسوه علي في سعيهم للحصول على معلومات عنه. شعرت بالخوف ولم يكن عندي استعداد لتحمل الضرب المتوقع وفي الوقت نفسه لم يكن عندي أية معلومات عن ابن عمي، وهم لن يصدقوا وبالتالي يرجح أن يكون التعذيب شديداً. ازداد خوفي. ولكن بعد هذا التعذيب لن يحتفظوا بي، قلت في نفسي، فقد سبق لهم أن طلبوا أخوه وأخوه وأخته لهذا الغرض ولم يحتفظوا بهم. أزاح هذا بعض الثقل عن صدري، ولكن التعذيب المنتظر طاغ على ما عداه ومخيف إلى حد الرعب. وأنا رجل خوّيف وأكره الألم الجسدي وأهرب منه قدر الاستطاعة ولذلك فإنني أميل إلى المسالمة. لم أكن في طفولتي مشاكساً ولا محباً للعراك والتحدي، وما حماني في طفولتي وفتوتي من الوقوع ضحية الاستضعاف هو التكاتف العائلي لا غير، هذا التكاتف الذي جعل جانب عائلتنا مرهوباً إلى حد ما. وها أنا اليوم لا ينفعني لا تكاتف عائلي ولا سواه. أنا الذي كنت أنفر من العراك البدائي البسيط الذي يمكنني فيه مهما ضعفت شوكتي أن أدافع شيئاً ما عن نفسي، أجد نفسي بانتظار عراك ممنهج لا مهرب منه، ليس غايته كسر الشوكة أو تسجيل النقاط أو التباهي، بل توليد أقصى ما يحتمل الجسد من ألم. ها أنا أمام أجهزة سأدرك لاحقاً كم هي متخصصة في إنتاج الألم واستثماره.

كان ليل تموز حاراً، وفي باحة فرع الأمن السياسي يجلس رجل بقميص شيال على كرسي وقد رشرش الأرض من حوله بالماء وأمامه تربيزة عليها قنينة ماء بلاستيكية. رمقني هذا الرجل بنظرة اعتياد وحدد للعنصر الزنزانة التي يجب أن يضعني فيها دون أن يتحرك عن كرسيه (أما نظيره في سجن الشيخ حسن أو بالأحرى كركون الشيخ حسن في دمشق فقد كان يجلس الجلسة نفسها وبالقميص الشيال أيضاً - ربما كان هذا يفسر شيئاً ما من نفوري من منظر الرجل بالقميص الشيال الأبيض - ولكن الفارق أن رجل الشيخ حسن كان يجلس والى جواره بحرة ونافورة ماء كالتي نراها في البيوت الشامية القديمة، وأن ذاك الرجل القصير البدين المكرش ذو الوجه المستطيل والملامح الغليظة والذي سأعتاد كثيراً فيما بعد على رؤيته بصفته رئيس مفرزة الكركون، ابتسم، حين أدخلوني إلى حرمة الكركون من باب حديدي ضيق، وقال باستخفاف باد وبلهجة خليجية غير متقنة: أهلاً يا طويل العمر!). جردني العنصر من كل ما يمكن أن أؤذي به نفسي، الساعة، القشاط.. الخ وأدخلني إلى زنزانة أول ما لفت نظري فيها أنها لا تحوي تواليت (يعرف كل من مر في هذا المعبر الرهيب «رفاهية» وجود التواليت في الزنزانة). هي ليست زنزانة بمعنى الكلمة بل غرفة صغيرة، وكانت مظلمة إلا من شعاع ضوء يأتي من زاوية ضيقة أتاح لي أن أقرأ بعض التعابير المخطوطة على الحيطان منها «اليساري الثورجي» ومنها الإسلامي. ولم يمض وقت طويل حتى سقطت نائماً كزند من خشب، كما يقول التعبير الإنكليزي، على إسفنجة وسخة

مرمية كيفما كان على أرضيتها. فأنا لم أنم تقريباً خلال أول يومين من أيام العيد (عيد!).
أيقظني في الصباح صوت العنصر دون خشونة، فتح لي الباب وأعطاني ما صادروه مني البارحة. قال لي المساعد إنهم سينقلونني حالاً إلى دمشق، وإنهم لا يريدون هنا مني شيئاً، وإن طلب اعتقالي قد جاء من دمشق. وبالفعل لم يوجه لي أي سؤال في فرع اللاذقية ولم يمسني عناصر الفرع بأذى. لم أتعرض للنهر أو الشتم هناك أبداً، وليس هذا بالشيء القليل قياساً على ما كنت أسمع وعلى ما خبرت بلحمي ودمي بعد ذلك. كانت الدورية والسيارة المكلفة نقلي إلى دمشق جاهزة، وقبل أن يجعلوني أصعد إلى السيارة سمعت المساعد يقول للدورية التي سترافقني إنهم لم يطعموني شيئاً منذ البارحة. ولكن كيف يمكن لمن هو في حالي أن يستطيع ابتلاع ريقه فكيف بالطعام. انطلقت السيارة بي وبالدورية بزعامة رجل يدعى أبو صخر. وهو صورة نموذجية عن رجل المخابرات في العهد البعثي الثالث. متعال دون مؤهلات، ومزوج دون ألمعية، وجلف ويملأ كل فجوات ذاته بسلطة الجهاز الذي يتكئ إليه، ولذلك فإن تبعيته إلى هذا الجهاز مطلقة. وقياساً على وصف الشخص المغرور بأنه ممتلئ بنفسه يصح القول في وصف رجل المخابرات إنه ممتلئ بالجهاز الذي ينتمي إليه. ولذلك ترى هؤلاء بعد انتهاء خدمتهم في حالة مزرية من الخواء.
الطريق إلى دمشق طويل وممل، ومنذ عرفت بأمر نقلي إلى دمشق، انهارت مرة واحدة تحليلاتي السابقة وبدأت أبني تحليلات جديدة أستنير بها. ولكن كيفما اتجهت التحليلات هذه المرة فالمؤشرات باتت أكثر خطورة، الخوف جعلني أنكمش على نفسي وأرد باقتضاب شديد وعدم رغبة على محاولات العنصر الأربعيني الذي جلس إلى جواري في المقعد الخلفي وأسئلته لمعرفة مدى قرابتي مع فلان وفلان ممن يعرف من عائلتنا، كان يعرف أحد أقاربي معرفة جيدة فطلبت منه في غمرة انشغال أبي صخر بحديث مع السائق، أن يخبر هذا القريب، عند عودته إلى اللاذقية، بأمر نقلي إلى دمشق، وقد كان هذا الرجل لبقاً بما يكفي ليس فقط لأنه وعد بأن يفعل بل وأيضاً لأنه كف عن المزيد من الاستفسارات قارئاً انكماشي وعدم رغبتي بالحديث.
عند بانياس سألني أبو صخر عن بطاقة هويتي فقلت له إنها ليست معي. وفي الحال طلب من السائق التوقف والعودة إلى اللاذقية. قلت له إنها لم تكن معي حين كنت في الفرع. صفن قليلاً ثم قال للسائق:
- معليش كمل ع الشام. بس العمى بعيونن شو جحيش! كيف بيجيبوه بلا هوية؟ العمى شو مساطيل. يالله هونيك بيحلوها.
قبل حمص بقليل توقف السائق إذ فوجئ بتلال من الأتربة تغلق الطريق، فقد كان عليه أن يسلك التحويلة قبل بضع مئات من الأمتار ولكنه لم ينتبه، بدأ بالرجوع ولكن أبو صخر قال له أن يكمل. توقف السائق ونظر إليه مستغرباً. فقال أبو صخر متخذاً هيئة جدية:
- ليش عم ترجع كمل وأنا بحمل السيارة تحت باطي وبقطعها للطرف التاني من التلة.
ضحك السائق مراعاة لمزحة رئيس الدورية الفاقدة لرهافة الحس. شعرت كما لو أن مزحة أبي صخر (اسم على مسمى!) سقطت في قلبي مثل حجر ثقيل أملس كاد يخنقني. ولا تزال هذه «المزحة» تتمسك بذاكرتي إلى اليوم لأنني حاولت جاهداً أن أنظف ذاكرتي منها. والأنكى، وما جعلني ربما لا أستطيع التخلص من عبء هذه المزحة، هو أن أبا صخر وكأنه سر لألمعيته فغمرته حيوية عابرة جعلته يلتفت إلي ويسألني عن الجرم الذي ارتكبته كي يطلبوني إلى دمشق بهذه السرعة. وكان الخوف والترقب قد أتيا على ما تبقى لدي من طاقة، فأجبته، مستجمعاً شيئاً من طاقتي، إنني لا أعرف. لكن جوابي لم يرق له فالتفت إلى الرجل الجالس بجواري وقال:
- كلّن هيك، منقاينن ع الفرازة.
• • •
أجلس للمرة الأولى، بعد كل هذا الزمن، أمام الغرفة التي شهدت اعتقالي. ذاك يوم، وهذا يوم، وقد التهم الزمن الطويل

الذي يفصل بين هذين اليومين التضادَّ «الطبيعي» بينهما، وصنع بدلاً منه شيئاً أقرب إلى التشابه. يوم الاعتقال ويوم الإفراج، في كليهما قطع لحياة امتلكت أسباب استقرارها، ورميٌ في لجة حياة قلقة تبحث عن عناصر الاستقرار. أن تبدأ من جديد وفق قواعد جديدة بعد استقرار طويل على حال مختلف، أمر فيه صعوبة وحتى مشقة. شيء من ثقل البدايات وضغط القوة المقاومة للتغيير. شيء يذكر بقصة الجنّي الذي احتالوا عليه فأدخلوه القمقم، وراح يعد من يخرجه من القمقم بكل الإغراءات، وحين طال به الزمن في القمقم، تغير الحال وراح يخيف كل من يحاول إخراجه من القمقم بشتى التهديدات.
من الطبيعي أن تطورك النفسي والروحي والمعرفي قد تأثر كثيراً بفعل السجن الطويل. نمت في ذهنك تصورات جديدة، وفي ذهنك تحمل قيماً واعتبارات باتت مهجورة أو قل مهزومة، وأنت ابن تجربة مهزومة، ولأنها كذلك فإن ميراثها لك وحدك لا ينافس عليه أحد، الناس ينافسون على ميراث التجارب الناجحة فقط. تقرأ في عيون الناس سؤال ثابت: ماذا جنيت؟ سؤال ينبع من افتراض كامن هو أنك إنما كنت تعمل لشأن شخصي. هذا الافتراض يريح «الناس» من عبء الشعور بالهزيمة. لو نظروا إلى الأمر على أنك كنت تعمل لشأن عام فإن هزيمة قضيتك (وهي قضية عامة) هي هزيمة عامة تطالهم، وربما تحملهم وزر التزامات ما تفرضها هذه الهزيمة. لكنهم يطوبون لك الهزيمة ويرسمون لأنفسهم أنهم على ضفة أخرى. بطريقة لا واعية يتجه التفكير نحو المسارات الأقل إيلاماً للنفس. يكاد أحدهم أن يسألك ألست نادماً، كما لو أنك اقترفت جرماً. ولكن ليس لك أن تهجو الناس. لو خرجت منتصراً لتحولت ربما إلى جلاد لهؤلاء الناس، ولاستثمرت سنوات سجنك لتحصد امتيازات لك في السلطة والمال والوجاهة وغير ذلك. لا شيء يضمن. الضامن الوحيد أن يمسك الناس قضيتهم بأيديهم، غير أن ذلك لا يتم إلا في لحظات عابرة، لحظات تحول ومفاصل تاريخية، وفي هذه اللحظات غالباً ما تكون قوة الناس قوة إلغاء وإسقاط وهدم، ثم سرعان ما يسلّم الناس قضيتهم إلى نخبة يعتقدون أنهم أمناء عليها، فيتحول هؤلاء إلى صورة أخرى، وإن بلون أو هيئة مختلفة، عمن ثاروا عليهم. لتبدأ الدورة من جديد. لا يمكن أن تجتمع القوة مع الشعور بهمّ وقضايا الناس في جهة واحدة. قوة الناس أو الجمهور أو الشعب هي قوة مبعثرة ولكي تمارس هذه القوة فعلها لا بد أن تتركز في نخبة ما، نخبة تتحول عن الناس بعد أن تحوز على هذه القوة. ولا تلبث أن تنفك قوة الناس عن قضاياهم. ثم تُمارَس قوة الناس، وقد عادوا إلى همومهم اليومية بعد أن رفعوا نخبة ما إلى السلطة، ضد قضاياهم ذاتها. ولا حل فيما يبدو لهذه المعضلة. هل تهجو الناس الذين تكاسلوا عن محاسبة نخبة «انحرفت»، أم تهجو نخبة «انحرفت» في ممارسة سلطة فوضت بها؟ ولعل السؤال الأهم هو: من يمتلك المسطرة التي تقيس «الانحرافات»؟
تخرج من السجن المديد وتبدأ تلملم أشلاء حياتك المتقطعة. سرعان ما تذوب قشرة السكر التي تغلف حريتك الأولى وتبدأ من ثم الشعور بالطعم الحقيقي. تبدأ البحث عن مكان لك في النسيج الذي استؤصلت منه حين اعتقلوك. سنوات السجن طويلة، والجرح الذي خلفه اعتقالك اندمل على غيابك، لا أنت تستطيع أن تغرس نفسك حيث كنت، ولا النسيج الذي اعتاد غيابك واستعاض عنك يستطيع قبولك حيث كنت. شوق أهلك إليك هادر لكنه ضحل. جزء كبير من أهلك لا يعرفك إلا سجيناً، وكل من هؤلاء الشباب الأقارب يتصورك كما يشاءك أن تكون، ويخيب حين تخيّب حقيقتك افتراضه، ولا بد أن تخيّبه! والكبار من أهلك يحتضنوك ولكنهم ينتظرون منك أن تكون رديفاً لهم في المناكدات العائلية الأزلية الأبدية. وأنت لا هواية ولا مهارات لديك في فنون المناكفات والدس والنميمة وتكبير الصغائر وتصغير الكبائر. سنوات طويلة في العالم الأمثل لهذه الفنون لم تستطع أن تفك أميتك فيها، فلا أمل منك. أنت غافل ولكن ثمة رقابة «أهلية» لا تغفل عنك. رقابة تسجل وتحلل وتصنف وتبدأ بعد ذلك بتوجيه الرسائل الساخطة بكل أساليب التعبير غير المباشر التي يجيدها البشر، قبل أن تبدأ السهام في خرق جلدك.
تقطعت صلتك ببعض أهلك. ولكن أنت في الأصل رجل التقطع. تواصلك متقطع، وذاكرتك متقطعة، وصداقاتك متقطعة.

في الدراسة الثانوية انتقلت إلى مدرسة أخرى وانقطعت صلتك بزملاء مدرستك الأولى، في الدراسة الجامعية اخترت الذهاب إلى دمشق وانقطعت صلتك بزملاء دراستك الثانوية. في دمشق قطع الاعتقال دراستك وبعد سنين طويلة عدت للدراسة ولكن في جامعة اللاذقية. لم تكمل مشوارك مع زميل دراسة إلى النهاية لا في المدارس ولا في الجامعات. والسجن لم يقطع دراستك فقط بل قطّع حياتك. دفن فيك أشياء دون أن يميتها، وأحيا أشياء دون أن يمدها بأسباب البقاء. تعيش إذن بأشياء مدفونة تأمل رغم دفنها أن تنفض عنها التراب يوماً كي تحيا، وأشياء حية تجهد كي تفوز بحياة أقوى. أنت رجل البقاء على المفارق. تضعف عن قطع الفروع الذابلة في شجرتك طمعاً في غلة توفرها لك يوم تستطيع أن تمدها بفيض من نسغ الحياة، وتبخل على فروعك الحية بماء الحياة مخافة أن تخسر غيرها. فتبقى شجرتك مثقلة وغلالك فقيرة. طوال عمرك تكره الحسم، لو وضعت أمامك ورقة بيضاء مغرية وأعطيت ريشة، لبقيت واقفاً لا تجرؤ على «تشويه» ذاك البياض. قد يخطر لك أن تكتب كلمة وفي الحال تستهويك أخرى ثم أخرى، ثم تجد أن مثل هذا البياض الأخاذ جدير أن يحظى برسم لا بكلمة، ثم تتصارع الأشكال على الفوز بحضن تلك الورقة غير أنك لا ترشّح شكلاً إلا كي تستبعده في الحال، تاركاً البياض للبياض لأن من طبيعتك أن ترى أنه ما من كلمة أو رسمة تملك من القوة والكمال ما يجعلك ترضى لها بالفوز به، أو أن هناك الكثير من الرسوم والكلمات الجميلة لكنها لا تفضل بعضها بقدر يجعلك تحسم في الاختيار بينها. من طبيعتك أن تخشى على ما هو موجود بالقوة من أن «يبتذله» الوجود بالفعل. في السجن كنت تخشى أن تحكي ذكرياتك الحميمة، فقد تخرج في هيئة لا تناسب مكانتها في ذهنك، وفي السجن كنت ترتاح إلى أنك لا تزال تملك فرصة اختيار شريكة حياتك. تقضي الأوقات في تخيلها ورسم طباعها وشكلها وصوتها ومشيتها و.. وكل حين تعدل في الصفات فتتعدل، تريدها قوية مع أطفالك ولينة معك فتكون، تريدها نظيفة دون هوس وأنيقة دون تطلّب فتكون، تريدها وقورة تليق بالسهرات الرسمية فتكون، تريدها عفوية ضحوكة تحب المرح وتنعش القلب فتكون. عجينة بدئية تتشكل كيفما يشتهي الخيال. كوني! فتكون. ولكن مهما كان الممكن غنياً إلا أنه، ما لم يتجسد، يتساوى مع العدم.

عدت إلى الجامعة تحمل سنوات سجنك الطويل في عينيك. الهوّة التي صنعها السجن المديد في نفسك ‹التفارق بين الذات والشعور بالذات› لا تقل سعة عن الهوة التي تفصل بينك وبين الطلاب الذين تدرس معهم. وشيئاً فشيئاً تبدأ حومة الذات العالية تهبط كي تحط على غصن الذات الداني. تحط، لكنها لا تنفك، رغم عجزها، تهم بالطيران ويؤرقها الحلم بذلك.

تغرق في الدراسة. الدراسة تشكل واجهة جيدة ومحمودة تستر وراءها ضياعك وهروبك من نفسك. تحاول وراء هذه الواجهة أن ترمم تشتتك بالكتابة والترجمة والعلاقات الجديدة والرحلات... لكنك في كل هذا لا تعثر على ما تفتقده. ثمة أمر أفلت من يدك بصورة نهائية وتحاول عبثاً استرداده. هناك فراغ في مصفوفة نفسك لا تقدر على ملئه، تشعر بثقل هذا الفراغ الذي لا يملؤه نجاحك الدراسي ولا كل محاولات الشعور بالحرية؛ أخذك السجن وختم على نفسك. خرجتَ منه فهل يخرج هو منك؟

شهادتان

عامر مطر

I

بشار الأسد يضحك على بعد أمتار من بيتي
وكنت أتعرّض للتعذيب في غرفة نومي!

البرزخ، هو التعبير الأنسب لعالم الفروع الأمنية السوريّة... أن أعيش الموت في حيّز ضيّق مغلق؛ بين عالمين. أعيش الموت فيهما.

كان بشار الأسد يضحك على بعد أمتار من بيتي، وكنت أتعرّض للتعذيب في غرفة نومي. وتُبعثر أحذية السجانين ملابسي ودفاتري في 28 آذار 2011. كان الديكتاتور يضحك بصخب في مجلس الشعب السوري، وكان صوت ألمي عالياً في شارع العابد الدمشقي.

رموني في منفردات متعددة، وعرفت أبسط أنواع التعذيب ‹الكرباج›، لأن العمل الصحافي في سورية بمثابة أبشع الجرائم. كان محقق فرع أمن الدولة يقرأ مقالاتي ويشتمني.

حين نقلوني مرّة، من قسم لآخر، سألني ثلاثة سجانين عن جريمتي، فأخبرتهم: ‹صحافي›، وبدأ الضرب العنيف. ضحكوا في نهاية التعذيب وقال أحدهم: ‹عم تصعّبوا علينا الكلمات المتقاطعة يا حيوانات›.

دخلت إلى منفردتي، وبدأت أفكّر بمادة صحافيّة عن كوميديا العتمة، عن حجم المواقف المضحكة لفرط غباء المحقق ورجال التعذيب والسجانين... كانوا أغبياء لدرجة الضحك.

جلدوني مرّة بسبب عملي في جريد ‹النهار› اللبنانية، لأن الأزرق، هو لون اللوغو، ولابد أن تكون اسرائيلية كونها تحمل لون العلم الاسرائيلي، وبالتالي أنا عميل للموساد؛ أكتب للنهار، ولا أعمل مع تلفزيون الدنيا أو جريدة ‹الثورة›.

خرجتُ بعد 16 يوم من العتمة والكوميديا المرافقة للتعذيب، وعدت إلى عملي في تغطية الثورة السوريّة. وكتبت وصيتي إلى أبي: ‹اطلب ديّتي حياتي. قل: أريده حياً هنا. وادهن باب بيتنا بدمي. واغسل جثتي بالغيم الذي أحبه، ثم ادفني في مقبرة واسعة، مزدحمة؛ لأرفع رأسي بين الأموات›.

انتهت الوصيّة، أن ‹أطلب ديّتي حريّتك›. ونزلت إلى الشارع مع الآلاف، لأن العمل الصحافي، قد يساعد في تحقيق الحلم السوري بالحريّة. واسست مع مجموعة من الصحافيين السوريين المستقلين مؤسسة الشارع للإعلام والتنمية.

بدأت ‹الشارع› بتوثيق ما يجري في مواقع الأحداث، من خلال العمل في صناعة أفلام وثائقية، وتأسيس شبكة أخبار منتشرة في كل المدن السورية، والعمل على مواد استقصائية صحافيّة من مواقع الحدث.

وأجرى فريق العمل أكثر من خمسين مقابلة تلفزيونيّة مع أهم الشخصيات المؤثرة في الساحة من المعارضة.

وعملت المؤسسة على إنتاج برنامج: ‹حوارات من الساحة السورية› الذي عرض على قناة العربية، وعرض مجموعة من المقابلات التي صورنها بالسرقة، عن عيون أجهزة الأمن.

كما تم انجاز مجموعة من الأفلام، منها: ‹تهريب 23 دقيقة ثورة›، وهو أول فيلم صوّر عن الثورة السورية، يُقدّم شكل الأحداث في حماة قبل دخول الجيش السوري إليها، وعرض على قناة العربية.

إضافة إلى الوثائقي ‹آزادي› الذي صوّر في آب ‹أغسطس› الماضي في منطقة القامشلي والمناطق الكردية الأخرى الواقعة شمال سورية، وحاز الجائزة الفضية في مهرجان روتردام بعدما جسّد يوميات من الثورة. وعرض على تلفزيون فرانس 24. كما فيلم ‹حماة 1982 حماة 2011› الذي يقارب بين مجزرتين ارتكبهما النظام، ومجموعة من التقارير التي تصوّر قصص من مدن سوريّة مختلفة.

اعتقلت بعدها، في كمين نفذه عناصر الأمن العسكري في دمشق، ليلة 3- 9- 2011، ضربني العناصر ليلتها كثيراً لمعرفة موقع منزلي، وبالتالي مصادرة كل أجهزة العمل. لكن صبري الصغير أنقذ بيتي.
أثناء التحقيق، نفر الدم من رأسي للحصول على اعترافي بقبض مبالغ مالية من قناة العربية مقابل عملي، صبري الصغير أنقذني مجدداً من البوح بأسرار قد تؤذي المؤسسة وتؤذيني.
لكني خرجت من غرفة التحقيق بجرح في رأسي، وآثار كثيرة للسياط وأقدام المحققين. كان المحقق يُصرُّ على انتزاع اعتراف إجباري أن ما نفعله هو تضليل إعلامي، وأن كل ما ينشره الإعلام العالمي كذب. كان يقف على ظهري ويحاول اقناعي بإنسانيتهم.
بعد 54 يوم تحت الأرض في الفرع 215، أرسلوني إلى القضاء العسكري في دمشق، ليشتمني القضاة هناك، ويرددون: ‹تستحقون الموت›، لأنني صحفي يخون وطنه.
في زنزانة المحكمة، سلّموني ورقة صغيرة، كتبوا عليها تهمتي: ‹إذاعة أنباء كاذبة من شأنها أن توهن نفسيّة الأمة›.
وغادرت إلى سجن دمشق المركزي مع مذكرة التوقيف.
وجدت هناك أصدقائي اللذين اعتقلوا قبل شهر من اختطافي، وأخبروني أن فيلمي ‹آزادي› فاز بجائزة.
حاولنا ادخال كاميرا صغيرة إلى السجن، وفشلنا. فكتبت مع أحدهم تحقيقاً صحافياً عن السجن. فلابد من الثورة حتى خلف القضبان.
كانت تصلنا الأخبار كلّ سبت، وهو اليوم الوحيد للزيارات. كانت حبيبتي تهرّب رسائل عشق لي، وكتبت مرّة وسط رسالة حب، مقالا لكاتب سياسي معروف يشرح فيه وضع الثورة.
في الزنزانة، أشفقت على أبي، الذي يحمل وصيّتي كل الوقت في جيبه، فأرسلت إليه: ‹لا يخاف الرجال على الرجال يا أبي، كما لا يخاف الأحرار على الأحرار. أضربت عن الخوف، وكتبت إليك رسالة حياة، ضد الوصايا والموت. فمن مَسّته الثورة، يصير أغنية لا تُكسر›.
أضربت عن اليأس أيضاً حينها، وعملت مع أحد شركائي في الثورة والسجن، على مشروع احتفالية الشارع السوري. فسجونهم أصغر من مساحات أحلامنا.
خرجت في الرابع من كانون الثاني 2012، بعد أن صادر الأمن السوري كل كاميرات المؤسسة وأجهزتها، واعتقلوا أغلب كوادرها. ‹صرنا على الحديدة›، بحسب تعبير السوريين.
حاولنا اعادة تفعيل دور مؤسسة الشارع، وتنظيم احتفالية ‹الشارع السوري..عام من الثورة›. التي امتدت من 15/ 22 آذار، موزّعة على عدّة أماكن وساحات داخل سورية، وساحات في عواصم عالمية. وتعرض فعاليات ثقافية وفنيّة متنوعة؛ سينما ومسرح وموسيقى وتشكيل وتجهيز بالفراغ. لكننا لم ننجح بالقدر الكافي.
تم تصوير عدّة أفلام قيد الإنجاز حالياً، منها فيلم يصوّر معارك الزبداني التي قامت بين الجيش الحر والجيش النظامي. وسيظل عمل المؤسسة مستمرا، في صناعة مواد إعلاميّة تحاول تجاوز إطار الخبر السريع، بحيث تعرض يوميات الناس وتفاصيل صناعتهم للثورة.

أحاول الآن البقاء خارج السجن قدر الإمكان، لكنهم اعتقلوا أبي مدّة عشرة أيام، لأنه انجب صحافياً مجرماً؛ يُحاول تصوير الحقيقة مع مجموعة من زملائه. مثل آلاف السوريين الذين يحملون الكاميرات في هواتفهم الجوالة لتوثيق الحقيقة، والموت اليومي.
ما قدمته، هو أقل بكثير من الثمن الذي قدمه آلاف السوريين، وأقل من حجم الحلم ببناء سورية الحرّة المتطورة.
أكتب شهادتي عن عمل عام من تغطية الأحداث وصناعتها من بيتي الدافئ، في حين يركض العشرات في هذا اللحظة من زملائي بين أزقة حمص وحماة وإدلب. أجلس في بيتي، ويرقد الكثير من زملائي الصحافيين في قبورهم بفعل رصاص النظام السوري؛ لذلك أخجل من بيتي ومن كلماتي.

II

مرثيتان سوريتان محفوفتان بالشوك

1- كنّا نسترق السمع، ندفع آذاننا إلى وجه باب الحديد حين صرخ شاب من المهجع المجاور للسجان. متى أخرج؟ تأفف السجّان وردّ بسخرية: «بعد سنة»، ولا تزال أسماعنا ممجوجة بالحديد، فضحكتَ يا جار الزنزانة وتمتمتَ: «يكون سقط النظام». ضحكّنا بصوت منخفض على ردّ فعل السجان؛ بالاستغفار والركض نحو غرف التحقيق. بعد لحظات توقّف الضحك وظلّ صوتك وحيداً في ممر الفرع مع أصوات شتائمهم وتعذيبك.
اليوم آخر أيام عيد الفطر، قبل عام بالضبط غادرت من بيتي إلى عالم البرزخ، حيث تعرّفت عليك يا أبو زيد، جاري في المهجع.
استيقظت بملل في بيتي البعيد عن برزخهم. قلّبت صفحتي على الفايسبوك، ورأيت صورتك مع صفتك الجديدة المكتوبة فوق ملامحك «شهيد».
قلبي حاكورة صبّار يا صديقي. فكّرتُ منذ أسابيع بكتابة مرثية عن حواكير الصبار التي انتزعتها جرافات النظام خوفاً من صوتك وأصوات شركاء حريتك في بساتين المزّة. أنزع الشوك عن أصابعي، وأستعيد ذاكرتي معك، حين رفعتُ أصابع النصر لك في طريقي إلى الحمامات، ورآني السجّان، ضربوني ونقلوني من المهجع إلى المنفردة السابعة، حيث تعيش مع ستة أحرار آخرين. يدي تؤلمني بشدّة، وأنت تقرأ القرآن على وجعي، ووجعك، وتعدني بنصر قريب... فأترك لك يدي، وأمدّ أنفي من بين قضبان الباب لأتنفسّ لأن الهواء ضيّق في منفردتنا المزدحمة.
في فجر اليوم التالي طلبت منك أن تعلّمني بعض الآيات، هل تتذكر؟ «الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ. يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ».
لم تكن تلاوتك واضحة بما يكفي، فأتعبتك آنذاك بالتكرارات، لأحفظ سوراً أكثر. بعد أيام بدأت بتعليمي سورة الكهف، لكنهم نقلوني إلى مهجع في مبنى آخر قبل إتمام الحفظ.
كنتَ تبحث عن الحسنات داخل المنفردة يا أبو زيد، بينما أحاول اكتشاف مساحات جديدة في قلبي.
بعد شهر ونيف، وجدتك تتمشى في ساحة سجن عدرا، أمسكت بيديك يومها وركضت نحو أصدقائي، وأقول: «هذا البطل اللي حكيتلكم عنّو»، فخجلت مني ومنهم. هل صدقتني الآن يا أبو زيد؟ أنت بطل، وشهيد أيضاً.
نسخت صورتك على كومبيوتري، ودخلت أبحث عن صور أخرى لك على صفحة تنسيقيّة المزّة، أقلّب الصور، فباغتني وجه أبو سعيد مع صفته الجديدة أيضاً، شهيد. بكيت يا أبو زيد، وتوقفت بعد لحظات خجلاً منك.
خرج أبو سعيد من الفرع قبل اعتقالك بأيام، كنّا نخاف من تحويله إلى الجويّة، لكنك طمأنت قلوبنا بحريته، هل تتذكر؟
ذهبتُ إلى المزّة بعد الإفراج عنّي بحثاً عن محل أبو سعيد، لكني فشلت في العثور عليه، وشكره على اتصاله بوالدي فور

إخلاء سبيله، كنت أحمل أثناء بحثي عنه ماء بارداً وكيس سكر، أرسلهما قلب أبي إليه.
نسخت صور أبو سعيد على كومبيوتري أيضاً، في ملف صور الأصدقاء الشهداء، ورميت صورتي فيه، علّي أراكما من جديد.
-2 خرجت القذيفة من المدفع، ودخلت في جسد صديقي، يضحك الجندي، ولا أستطيع فعل شيء. أعود إلى أول ذاكرتي معه، كانت أسنانه تؤلمه وتؤلمنا... ويضحك. تلمّس ضرار ليلتها رأسي المجروح بحذر بالغ، وطلب مني الجلوس. سيبدأ هو بمراقبة السجانين، وسيغفو من ثم لأراقبهم أنا.
القيود «الكلبشات»، في معاصمنا، وجرح في رأسي، وآخر في فمه... ممنوع علينا الجلوس أو النوم، لأن التحقيق لم ينتهِ بعد.
كان ضرار مستو شريكي في الجرح والقيد والزنزانة، لكنه اليوم مات؛ توقف قلبه جراء قذيفة أطلقها جندي ما على بلدة قدسيا.
اعتقل ضرار قبلي، وقبل عيد الفطر بأيام، خطفوه من محل الحديد الذي يديره في بلدته الثائرة، ضربوه يومها وخلعوا أسنانه، وظلّ يرفض ما يطلبه عناصر الأمن منه حينها؛ أن يهتف بحياة سيدهم... اليوم قتلته صواريخهم، وظلّ يرفض.
كان يبدد الوقت في الزنزانة بصنع خيوط تنسج حول المعصم لزوجته، ولنا، ويُغني لشفان والقاشوش، ويهتف لحريته بصوت منخفض، فيشتمه سجان يعبر أمام مهجعنا.
بعد أسابيع من الضيق هناك، صارت لنا ذاكرة مشتركة، صرت أعرف غناء العتابا مثله، وأعرف قصص طفولته، وأفكر مع أصدقاء الزنزانة الآخرين بتسمية طفله الذي سيأتي بعد أشهر.
لا شيء نفعله هناك غير الذاكرة والأحلام... نسرد ما نراه في الليل كلّ النهار؛ نفسّر، ونرسم ملامح أحلام الليالي القادمات.
وعدته برحلة إلى الفرات، ووعدني بغداء شيش برك من طبخ والدته. سأله المحقق مرّة، ماذا تريد غير الحريّة؟ فأجاب: «أريد خالي أيضاً». يا قلب أمك، سرقوك اليوم منها، وسرقوا أخاها عام 1982. كان عمر ضرار مستو 29 سنة حين غادر سورية نحو العراق لمحاربة الاحتلال، ولم يمت هناك رغم الآلاف القذائف، واليوم... اخترقت جسده قذيفة وطنية. وجدت ضرار مجدداً في سجن عدرا، بجرح أصغر، ومع أسماء جديدة لطفله القادم. صرنا نجلس في باحة السجن، أسأله عن أنواع الحديد، لأكتب نصاً عن مساحة الحياة داخل زنزانة. لصديقي الحدّاد قلب غيمة، وجرح لم يتوقف بعد. أحبُّ قدراً يدفعني لأتبع طريقك من دون قصد كلّ مرّة، حتى وإن كان جرحك اليوم أكبر من الحياة، وإن كانت محطتك الأخيرة مقبرة للأحرار.

الأحد ٢٦ اغسطس ٢٠١٢

صحافي من سوريا.

صادف أن كنت في القبر

٣٥ يوما في ضيافة الأمن

■

غسان ياسين

لا يوجد حروف تكفي لوصف ماحدث معي خلال 35 يوما تحت الارض ومهما حاولت وصف ماجرى ستكون الكلمات عاجزة عن ايصال الصورة لكم..لم اكن اتصور ان كل هذا الحقد والبشاعة موجودين وجوه السجانين كانها بلا وجوه تفنن في اختراع اساليب التعذيب واختراع الشتائم والاهانات.
سانزل للشارع واتظاهر في يوم قريب انتظر فقط انتهاء الثورة المصرية..لانريد اسقاط النظام لاننا نحب بلدنا ولا نريد نقطة دم واحدة ان تسيل في شوارعها..هذه بعض من كلمات قلتها على الهواء مباشرة في حلقة عن يوم الغضب السوري على تلفزيون الاورينت بتاريخ 2011/2/10 بعد خمسة ايام داهم عناصر من الامن السياسي منزلي ولحسن حظي لم اكن موجودا قررت بعدها الهرب الى دمشق وبقيت هناك يومين قبل ان يعتقلوني في منطقة باب توما واثناء خروجي من مقهى انترنت
بعد ان وضعوني في سيارة مغلقة (فان) اقتادوني الى جهة ما دخلت مكتب ضابط يبدو انه مهم وبادرت انا بالحديث قائلا مافي داعي تعزبو حالكون وتضربوني كف واحد..انا مو عامل شي غلط مع هيك رح احكي كلشي عندي وماخبي اي معلومة انا بعمري مادخلت نظارة ولا حتى مخفر..ابتسم الضابط وقال ليش لحتى نضربك نحن دولة مؤسسات وفيهاقانون وانت مواطن محترم ولك كل الحقوق!
اخذوني بعدها لغرفة ثانية وبدا التحقيق معي ثم انتظرت ساعتين ليعود المحقق ويخبرني بدك تضل عنا شي يومين.. انزلني الى مكان في الطابق السفلي واعطوني ثياب السجن الزرقاء الشهيرة ثم اخذني السجان الى زنزاتني المنفردة كان رقمها تسعة ومن يومهاصار اسمي عندهم..تسعة
كانت مظلمة جدا وباردة ومخيفة لم استوعب بعدمايحدث لي كنت خائفا حتى من الجلوس وبعد ساعات اصابني التعب وقررت الجلوس..تحسست المكان بيدي لم اجد جرذان او حشرات كما كنت اسمع..اخترق صمتي المرعب صوت الباب الحديدي وهو يفتح بسرعة لم اتحرك جاءني صوت..ولاك حيوان بس ينفتح الباب بتوقف بسرعة وتحط راسك بالارض ياحقير..كلمات صعقتني وبدون تردد قلت له انا لست مجرما حتى تخاطبني بهذه الطريقة..ليش جايبينك لهون يامنيك سياحة..هلق بشوف مين المحقق تبعك وبرجع بعلمك شلون ترد عليي يامفلسف
بقيت ثلاثة ايام لايفتح الباب الا لدخول الطعام الذي لم اتذوقة ابدا وحين الخروج للحمامات مرتين في اليوم فقط..لم اكن استطيع النوم كان الهدوء مخيفا ضاعت مني بوصلة الساعات والايام ولا اعرف الصباح من المساء اللحظات كلها متشابهة كنت اتمنى سماع اي صوت انشالله زمور سيارة حتى اشعر اني لازلت على قيد الحياة.
في اليوم الرابع فتح الباب بسرعة كالعادة..وقف ياكلب وضعوا كلبشات في يدي وشيئ ما على عيوني واقتادوني الى غرفة التحقيق وانهمرت امطار من الاسئلة..مين معك بالتنظيم وكم واحد انتو بالجمعية بدك تكتبلي اسماءهم الثلاثية وتحكيلي عنن واحد واحد؛كان يقصدالجمعية السورية لمكافحة الفساد،قلت له انها ليست جمعية هي فقط مكان للنقاش

على الانترنت..
بدك تعمل ثورة يااخو الشرموطة ماهيك والله لخليك تتمنى الموت وماتلاقيه وصفعني على وجهي..هنا احسست ان الزمن توقف واني انشطرت الى نصفين..لاول مرة يصفعني شخص غير ابي..كان لوقع هذا الكف اثر كبير شعرت بالالم النفسي والقهر والقمع..ومن يومها صار التعذيب يرافق كل جلسة تحقيق واستجوابات..يجلس ثلاثة فوقي واحد عند الكتفين وواحد عند الظهر والثالث عند قدماي ويبدا الضرب المبرح حتى تسيل الدماء من اصابعي..وكل ماارتفع صوت صراخي وصوت الامي كانت تزداد قوة الضربات(عرفت فيما بعد انه يتلذذ بصوت المعذبين) يستمر الضرب حتى افقد الوعي فيحملني الثلاثة ويضعوني عاريا في برميل فارغ ويفتح فوقي الماء الباردوببطء شديد تنزل فوقي قطرات الماء كانها رصاصات قاتلة حتى يمتلئ البرميل اكون حينها قد استيقظت من غيبوبتي فيحملوني مرة اخرى لغرفة التعذيب ليواصل المحقق هوايته المفضلة بسماع صوتي وانا اتالم من شدة ضرباته حتى افقد الوعي مرة ثانية حينها يحملوني الى زنزاتي كما لو انهم يحملون خروفا مسلوخا ويلقون بي في ارضية الزنزانة بعد ان يرشو الماء فيها كنت لا استطيع النوم من شدة الالم والبرد..احاول ان اعزي نفسي قائلا هذا ثمن موقف اتخذته ويجب ان اتحمل كل النتائج كانت الايام متشابهة وكنت امضي ساعات باسترجاع شريط حياتي حتى يمضي الوقت كان يراودني شعور باني لن اخرج من هنا ابدا..ومن كثرة تناولي للخبز فقط كنت اظن ان معدتي اصبحت مرتعا للديدان..مرات قليلة كان ياتي مع وجبة الغذاء نصف برتقالة اصنع صندويشة صغيرة واتناولها وحين انتهي منها احس بجوع اكثر فاصنع صندويشة ثانية من قشر البرتقالة وهكذا كانت تمضي الايام
في اخر عشرة ايام اشتد التعذيب والضرب والاهانات حتى ان جسمي تعود على الضرب ماكان يؤلمني اكثر هي الشتائم المتنوعة واخبار كان ينقلها لي المحقق حتى اضعف واكتب مايريد مني..مثلا كان يقول لي ان والدي معلق في زنزانة ويضرب بسببي وانهم احتجزو اخوتي كلهم ويعذبوهم ولن يتركوهم حتى اعترف واقر بكل شيئ كان هذا العذاب النفسي اشد وقعا من كل الضرب
لم اجد تفسيرا للتغيير الحاصل في طريقة التعذيب في اخر 10ايام (اي من تاريخ3/15) حتى انه في احدى المرات بعد ان ضربني كالعادة حتى فقدت الوعي..بدء بوضع البراز على وجهي ومن ثم يدوس بحذائه ويفرك لي وجهي بقدميه وهو يقول بدي اذلك ياكلب انت وامثالك..ثم عاود الضرب وامر برميي في زنزاتني وبينما انا مستلقي على ظهري ولا استطيع الحركة اسمع كلمة مظاهرة..اهتز كياني لم اصدق مااسمع..احد المعتقلين يستجوب من قبل المحقق ويعيد عليه السؤال:كم واحد كنتو بالمظاهرة ولاك..ياالله انتابني شعور بالفرح والفخر وتمنيت لو استطيع الصراخ..مظاهرة واخيرا في سورية..صرت ابكي من شدة الفرح ونسيت كل الامي والدماء التي تسيل من قدمي
في اليوم التالي كان هناك توافد كبير حتى ان الزنزانات لم تكفي فقرروا ان يضعوا كل 3 في واحدة منفردة فرحت جدا حين سمعت الخبر..واخيرا سياتي من اكلمه ويكلمني..وحين وصل الدور لعندي صرخ السجان تسعة..حاضر..قال لزميله هاد واحد خطير لاتحط معوا حدا خليه لوحدوا هيك التعليمات..عشت نصف ساعة من الفرح والامل بوجدو شخص معي يعيد الي قليلا من انسانيتي التي كادت تختفي في ظلمة القبر
انه يوم 21 آذارعيد الام..آه يامي آه كم بكيت من اجلها في ذاك اليوم لاني اعلم ان قلبها يحترق من الخوف والقلق..ماذا ياكل غسان..هي الوحيدة التي تتحمل مزاجيتي في كل شئ حتى انها كانت غالبا تعد وجبتين للغداء واحدة للعائلة والتانية لغسان(لاني مابياكلها)..بكيت كثيرا وتمنيت لو ان المحقق لا ياتي حتى لا اسمع شتيمة من شتائمه القذرة هذا اليوم للاسف جاء المحقق وهذه المرة كان مبتسما وقال لي تعى لهون ياابن الشرموطة تعى..دبرلتك ثلاث تهم وسارسلك الخميس الى سجن صيدنايا(انشاء جمعية الهدف منها النيل من هيبة الدولة-مراسلة جهات اجنبية معادية بهدف زعزعة الاستقرار- اثارة النعرات الطائفية) من شدة فرحه وثقته بالتهم الموجهة الي لم يضربني كثيرا وقال للسجان خدو للكلب والخميس بدنا نرحلوا
وكان يوم الخميس الموعود3/24 فتح الباب ..تسعة..حاضر..شو اسمك استغربت اول مرة يسالوني عن اسمي حتى كدت انسى ايقاعه الصوتي..غسان ياسين..تعى معي..ذهبت برفقته الى غرفة الامانات وقال لي البس ثيابك..البس ببطئ شديد لاني اعلم انه يوم الترحيل..صرخ مبتسما بسرعة شو ماعندي غيرك يلا اهلك بيستنوك..دهشت من كلامه ليش مو انت بدك تاخدني لصيدنايا..لا اخلاء سبيل ..لم اصدق بالبداية الا حين صعدت لنفس الغرفة التي دخلتها اول يوم وهناك اعطوني البطاقة الشخصية والموبيل وطلبوا مني الانتظار في الممر..ذهبت للمغاسل حتى اغسل وجهي وماان نظرت بالمرآة حتى صعقت من المنظر صدقوني لم اعرف نفسي وجهي كان غريبا عني..
فتحت الموبيل واتصلت لاكلم امي كان الهاتف مشغولا..اتصلت بوالدي..الوو..بابا..مين..غسان..اي بابا انا غسان..انفجر ابي المسكين بالبكاء..قلت له..بابا انا آسف..وعلى ايقاع بكائه بكيت ايضا
جاء المحقق برفقة صحفي واشار الي وهو يكلم الصحفي شوف..شوف شوعملنا فيه كمان هاد صحفي لم انظر في وجه الصحفي لكني بالكاد رايته وهو ينزل الدرج اعتقد انه الاستاذ ياسين حاج صالح
خرجت من ذاك الفرع في كفرسوسة وانا انظر اليه نظرة متوعدة..في طريقي الى حلب كانت اطول رحلة في حياتي..كنت احس ان الرحلة لن تنتهي..حين وصلت للمنزل سالتني امي من شدة دهشتها من شكلي المتغير..وين كنت..اجبتها..كنت ميت.

كاتب من سورية

عنصر الأمن هددني: ستختفي عن وجه الأرض!

غياث الجندي

في الليل المتأخر، وصلت سيارة ومنت في انتظارها لابسا استعدادي للمجهول في زنزانة قريبة. دخل رجال مسلحون ببنادق آلية ورجال آخرون حاوطوا بيتنا من الخارج وعلى سطح البيت. أطفأ الجيران الأضواء وناموا خائفين أو فضوليين لما كان يحدث. أمي وأبي يصارعان دموعهما بينما كنت أعزز استعدادي لما سيحدث. ضربة قوية على رأسي كانت آخر ما رأيت من منزلنا وآخر ما سمعت من أمي كان دعائها.

قضيت بقية الليلة استمع لصراخ شباب كانوا يتعرضون للتعذيب. كنت أحس كل ضربة تخترق جسدي وتدخل مشاعري في حالة اليأس. كان السجان يدخل معتقلا دامي القدمين إلى زنزانات قربي ويخرج آخرين من أجل حفلات التعذيب وبين فترة وأخرى يقف سجان أما باب زنزانتي بعد أن يفتح الفتحة الصغيرة ليقذفني ببضع شتائم ثم ينهي كلمته «جاييك الدور». لم تكن تلسعني كلماته ولا تهديده. ما كان يؤلمني هو أصوات أولئك الشباب قبل وجه الصباح ..لقد غرقت في وحول المجهول.

في الصباح أتى سجان آخر ليفي بوعود زميله. طلب مني خلع ملابسي كلها حتى أني شعرت أنني في طريقي إلى المسلخ وفي المسلخ رأيت عيون الجمر تقدح في وجهي..استقبلني ضابط أسمر كبير ببضعة مفوف على أذني قبل أن ينتبه أنه لم توضع العصابة على عيني. بعدها لم أعد أشعر بالجهات التي تأتي منها الضربات ولا بالوجوه التي تشارك في تلك المعركة. صرير أذني استمر لشهور وصواعق الكهرباء سرت بجسدي لسنين. أكثر الأشياء بدت قاسية أن النوم كان محرما. كلما حاولت الهروب للنوم في الليالي التي تلت، كان السجان يقترب الى الباب ويضرب بقطعة حديدية «ولاك ما خبرتك ما تنام». كان أمل الهروب ذاك حلم يتلاشى في كل دقيقة.

الأسماء التي أعرفها تناسيتها لكي لا تصبح جيرانا في الزنزانات ووحشية المحقق صارت العالم الذي لم أرغبه.. صوته صار جزءا من مئات الأيام التي عشتها هناك ..تهديداته بأن التحقيق سوف لن ينتهي مادام موجودا على قيد الحياة..تهديد أرسل ليعيش معي في مهجع السجن.

بعد ثلاثة أشهر من التحقيق المخيف، نقلت إلى غرفة في السجن...وصلنا في الليل المتأخر..استفاق تسعة رجال ليراقبوا ما كان يحدث بين فترة وأخرى...ضيف جديد. كان الرجال التسعة سكان ذلك المهجع لمدة ثمانية سنوات بدون محاكمة أو لائحة اتهام. ثمانية أعوام والمدى مفتوح إلى ما لا نهاية. كان كل واحد منهم يعرف ذلك. تفقدوني بعد مغادرة ضابط الأمن..حاولوا تضميد الجراح على قدمي وظهري وحاولوا أيضا السؤال عن الحياة في العالم الخارجي. كانت ليلة ممزوجة باليأس والأمل..وجه جديد لهؤلاء السجناء المعتقين ويأس بأن سنين ستأتي وتروح بين تلك الجدران. أطول مشوار كان يمكن القيام به بين الباب الحديدي والحائط الذي يبعد بضعة أمتار عنه..كنا نتقاسم الدور. هناك أحسست فعلا أن الحياة توقفت ولا معنى للأيام أبدا. لم يكن هناك فرق بين الصباح وبين المساء ..الشمس لم تمر من هناك أبدا فالعتمة والضوء سيان.

كانت ظروف الإقامة صعبة جدا وكانت المرضى لا يلقون العناية اللازمة، كما كانت زيارات أهالينا لنا محدودة ومراقبة وفي كثير من الأوقات كان أهالينا يحصلون على رخصة بالزيارة من فرع الأمن ثم يتم منعهم عند باب السجن...كنا نشم

رائحة دموعهم ونلمس حرارة قهرهم. ونعود للمهجع ٨ بدون لمسة أم أو لمسة حبيبة. كانت الزيارة أحد أهم عوامل الضغط علينا..محاولة إغرائنا بزيارة مريحة أو ربما بشيء أكبر من ذلك فقط كل ما يريدونه هو موافقتنا على التعامل معهم..وحين كنا نرفض كانت أولى العقوبات هي قطع الزيارة عن أهالينا. المنفردة هي الحالة الثانية من العقوبات..المنفردة إحدى طرق القتل البطيء...قتل الوحدة. بعد ثلاثة أشهر من العيش بمنفردة حيث كان الشيء الوحيد القادر على الاستماع لك ألا وهو الجدار. في المنفردة الجدار هو الذي يلمسك ويربت على كتفك وهو الذي يستطيع إفشاء معاناتك بحك ظفرك عليه مثلا أو محاولة الكتابة بظفرك الآخر: كم أنت قاس أيها العالم.

مرت الأيام بسرعة كبيرة وهذه إحدى ميزات السجن..لكن حين كنت أجلس وأفكر بها كنت أحس كم كانت تسري ببطء.. كنت أمتهن مهنة العدّ..العد ليو م الزيارة والعد لأم الإفراج..المناسبات التي يحتفل بها النظام كانت فرصة لأن نحلم أنه أي رأس النظام سوف يفرج عنا أو على الأقل يحولنا لمحاكم قد تثبت براءتنا بالرغم من الثقة المطلقة أن الجهاز القضائي هو عبارة عن إحدى فروع الأمن...

بالسجن كان هناك أقلام ودفاتر ولكن هجمات التفتيش غير المتوقعة كانت تصادر كل ما كتبته وفي حال وجد ضباط الأمن أن هناك مايزعجهم في الأوراق التي صادروها كانت مشاهد التعذيب تعود من جديد وجحيم المنفردة يعود. كان القلم أحيانا وسيلة للخربشات التي يجب أن تمحى.

قبل الزيارة الأولى التي سمحوا لأمي أن تزورني لأقل من ثلاثة دقائق، جاء عنصر الأمن السياسي وهددني «بأنني سأختفي عن وجه الدنيا إن خبرت أمي عن التعذيب الذي خضعت له» وحين وصلت أمي حاملة دموعها وقف ثلاثة عناصر بيننا..كان علي أن أقول لأمي أنني كنت بخير بينما كانت تفهم ما يدور في نظراتي..كانت الزيارت كلها مناسبات للألم أكثر منه للفرح...حرس الأمن بين الشبكين ومراقبة للعواطف والكلمات..حتى اللمسة كانت ممنوعة وكانت فرصة لتبادل الألم والاشتياق.

السجن هذا الاختراع الخالي من أية حالة انسانية كان تجربة قاسية بغض النظر عن قصرها أو طولها. الوقت الذي تقضيه تحت أمرة السجان الذي ربيت فيه رغبة القمع والتلذذ بقهر الآخرين لم يكن وقتك وكل ماكنت تمتلكه كان أفكارك واشتياقك للحرية مع ادراكك أنه ستكون لا شك حرية ناقصة.

بعد فترة التعذيب كان الأمن متقدم جدا في حالات القمع الروحي والنفسي. من منع الزيارة للتهديد المتواصل بنقلنا إلى سجن تدمر إلى الانتظار اللانهائي حيث لا حكم ولا محكمة. السجن مرحلة قاسية تكون فيها في نضال دائم من أجل المحافظة على روحك وعقلك. كان السجن عبارة عن رجل قاسي لكنه الرجل القاسي ذاك لم يستطع توقيف دورة الأمل.

قاص وشاعر من سورية يقيم في بريطانيا

سوريا الحرة الوليدة في المعتقلات
شهادة سجن

سلامة كيلة

فوجئت مساء يوم 2012/4/23 بدورية من المخابرات الجوية حضرت إلى منزلي ودخلت بشكل طبيعي ولم تتعامل بوحشية كشأن الاعتقالات السابقة، وبدأ عناصرها في تفتيش البيت وصادروا ثلاثة أجهزة حاسوب تعود لي ولزوجتي، وهواتف وفلاشات تخزين وطابعة وسكانر، والعديد من الأوراق التي لم أعرف محتواها.

طلب مني عناصر الدورية التوجه معهم لمدة يوم، وقلت لهم -وأنا أضحك- إن هذا الكلام غير صحيح، فقد اعتقلت ثماني سنوات في السجن بعد استدعائي للتحقيق لمدة نصف ساعة.

نقلت إلى مكان عرفت فيما بعد أنه آمرية الطيران في ساحة الأمويين، وأن هناك فرع أمن تحتها افتتح من وقت قريب، ونقلت للسجن في غرفة مكتظة بالشبان.

اكتشفت بعد لحظات من الاعتقال أنني في سوريا كلها من إدلب إلى حلب إلى حوران، بسبب تنوع السجناء وانتمائهم إلى شتى مناطق سوريا، فبعضهم عسكريون متهمون بالانشقاق، وهناك متهمون بالتفكير في الانشقاق، ومن بينهم أربعة ضباط وعدد من العناصر من حلب، ومن بينهم كادر في حزب البعث، وكانوا قد تلقوا تعذيبا شديدا في فرع المخابرات الجوية بالمزة، ولم ينته التعذيب إلا بعد أن وقع البعض على اعترافات يلقنها له ضباط تقول بأنهم سرقوا ونهبوا وقتلوا.

استمعت إلى روايات تعذيب مرعبة، والهدف منه تأكيد النظام روايته المسبقة بأن هناك عصابات مسلحة تقتل وتغتصب وتنهب، وعندما تصبح كل الاعترافات نفس النص فهذا يعني أن هناك ملقنا.

غرفة الاعتقال تتسع لعشرين، كنا فيها 36، ولا يوجد فيها أي فرشة، البعض وجد مكانا للنوم والبعض الآخر فضل الجلوس لعدم وجود مكان.

في الصباح نقلت للتحقيق الذي بدأ باتهامي بأنني طبعت نشرة «اليساري» التي يصدرها «ائتلاف اليسار السوري» صدر منها ثلاثة أعداد، وهو من التجمعات الجديدة التي تشكلت أخيرا، وفي النشرة شعار «من أجل تحرير فلسطين.. نريد إسقاط النظام»، وهو الشعار الذي ضربت عليه طويلا حتى من العناصر، ووجدت أنهم مرعوبون منه.

وكان الضابط يريد مني الاعتراف بأنني من يصدر النشرة، نفيت ذلك وأخبرته أن هناك من تواصل معي عبر الإنترنت عن النشرة، وطلبت إيصالها لي وهو ما حدث، وأنني لست مسؤولا عنها.

قابل الضابط أجوبتي بشتائم قاسية، ووصفني بالكلب والحقير، وضربني ضربا مبرحا بكيبل عريض ظهرت آثاره على جسدي بوضوح، وتعرضت لنفس الشيء مرة أخرى دون أن أغير روايتي، وخلال ذلك كان المحققون يشتمون الشعب الفلسطيني بأنهم باعوا وطنهم وخانوا سوريا التي قدمت لهم الكثير.

وانتهى التحقيق بعد الظهر حيث طلب مني كتابة ما أقول.

بقيت حتى يوم الخميس 2012/5/3 حيث نقلت لمكان آخر وأنا مغمض العينين، وعرفت فيما بعد أنه مطار المزة وفيه المقر المركزي للمخابرات الجوية، وعندما شاهدني المسؤول وشاهد آثار التعذيب فوجئ وطلب مني أن أذهب للاستحمام.

عندما خرجت وجدت طبيبا ينتظرني لفحصي، الطبيب فحصني وذهل مما شاهد من تعذيب، ونقلت إلى بناية أخرى وأنا مغمض العينيين، وقابلت ضابطا كبيرا لا أعرف من هو، وتوسع التحقيق معي حول النشرة وغيرها من الأمور.

ثم جاء طبيب واضح أنه أعلى من الأول وقام بكتابة تقرير عن التعذيب الذي حصل معي بالتفصيل، وكان يصف آثار التعذيب، وكان الدكتور يشك في أنني أعاني من اليرقان، فقرر أخذي للمستشفى عرفت فيما بعد أنه مستشفى بالمزة، وأجريت لي صور شعاعية وفحوص دم وغيرها، وقال إن فحص اليرقان غير ممكن إلا صباحا، واقترح بقائي في المستشفى حتى يوم السبت، وهنا كانت الكارثة.

اكتشفت أنني دخلت في جحيم حقيقي أسوأ من كل ما مررت به، الغرفة فيها أمن للمخابرات الجوية، وفيها ستة أسرّة عليها 11 مريضا مقيدين بالسلاسل، حيث وضعت في زاوية وربطوا رجلي ويدي بالجنازير، وكان هناك غطاء على عيوني.

المشكلة بدأت عندما أردت الذهاب إلى الحمام للتبول فسمح لي أول مرة، وفي المرة الثانية رفض وطلب مني التبول في كيس قذر، ولأنني كنت أخذت جليكوز فصرت بحاجة للتبول كثيرا، فرفض بعد ذلك أن أذهب للتبول، وطلب مني التبول على نفسي وهو ما حدث للأسف، وتكرر الأمر في كل مرة بعد ذلك، كنت أبول على نفسي لأيام، لذا قمت بتقليل حجم الماء والطعام الذي أتناوله.

وكانت التعليمات على ما يبدو ألا يتم ضربي، فلم أضرب كما الآخرين الذين كانوا يتعرضون لضرب يومي بلا رحمة، لكنني ضربت ثلاث مرات بوحشية، ظهرت ثارها في الصور التي نشرت. وخلال أسبوع من إقامتي في هذه الغرفة مات اثنان ممن كانوا معنا.

كان معنا مريض نفسي في الغرفة اسمه لؤي يوسف الخطيب، كان يتكلم مع نفسه من شدة التعذيب الذي تعرض له، وكان يتلقى الضرب والتعذيب لأنه يصرخ، وهذا تكرر مع الجميع في الغرفة القذرة التي كنا فيها.

بقيت على هذا الوضع حتى يوم الثلاثاء 2012/5/8 حيث أجريت لي فحوص،

يوم الخميس 2012/5/10 جاءت دورية وأخذتني وفوجئت بأنني في قسم الهجرة والجوازات في المزة وسلموني هناك، وكان الضابط مستعجلا ويقول إن وزير الداخلية يتابع ترحيلي، واستعجل نقلي للقصر العدلي حتى يوقع النائب العام على قرار ترحيلي، حيث نقلت في حافلة، وعندما وصلت للقصر العدلي نزل الضابط وعاد بتوقيع النائب العام، ثم نقلت لمنطقة باب المصلى التي يوجد فيها مكان لاحتجاز المبعدين.

وعندما وصلت لمكان الاحتجاز وجدت شبانا عربا من كل الجنسيات، غالبيتهم من الفلسطينيين ينتظرون دولا لتستقبلهم، وهناك تمكنت من الاستحمام وتم الاتصال بزوجتي لتشتري تذكرة لي، وقبل أن تحضر أخبرت بأنني مطلوب للجنائية ليتبين أنني مطلوب للأمن السياسي.

تمت إعادتي للأمن السياسي، واكتشفت أن أساس اعتقالي يعود لطلب منهم، وهناك وجدت شبانا من كل سوريا أيضا، واحتجزت في غرفة، لكن كانت ظروف الاعتقال أفضل، وفي التحقيق وجدت أن سبب الطلب هو نقاش عبر فيسبوك مع شاب حول الهيئة العامة للثورة السورية التي لي رأي سلبي فيها أصلا.

عدت للهجرة والجوازات، وحضرت زوجتي واشترت لي تذكرة بمعية محامية، وتم ترتيب أمور ترحيلي للأردن، وفي صباح يوم 2012/5/14 دخلت الطائرة ووصلت لعمان.

من التقيته من الشباب في السجن بسيط وطيب جدا، لا توجد لديه ثقافة سياسية، لكنه يعرف أن الأفق مسدود ويجب أن يتكسر،والانسداد هو نتاج السلطة ذاتها، وأن الصراع مع هذه السلطة لا بد منه، وأن المسألة لا طائفية ولا غيرها، هؤلاء شباب من جيل التسعينيات الذي أعتقد أنه سيغير الشرق الأوسط خلال عشر سنوات.

التعذيب الذي تعرض له هؤلاء الشبان وخاصة في المزة كان مرعبا لدرجة لا توصف، لكنه زادهم إصرارا على السير للأمام،

ولم يؤد لخوفهم أو دفعهم نحو التراجع، وهذا ما أذهلني حقيقة.
وما لفت نظري أيضا هو أن هذا الشباب من كل سوريا وعيه واندفاعه وطموحاته متشابهة، ولديه إصرار موحد على تغيير النظام.

‹وكلمة القيت في باريس عن الاعتقال›
تحياتي من عمان حيث لم أستطع القدوم إلى باريس لحضور حفلكم هذا
اعتقلت وعذبت ومن ثم أبعدت إلى الأردن، لكن سوف أقول بأن ما تعرضت له من تعذيب هو جزء ضئيل مما يتعرض له المعتقلون، والشباب خصوصاً، حيث تبدو السلطة ،كما رأيت، في أوج رعبها وتشنجها، وبالتالي ساديتها.
لقد اعتقلني جهاز المخابرات الجوية فرع آمرية الطيران، وهو فرع جديد جداً لم يكن من قبل، مقره في ساحة الأمويين.
وحاول من اعتقلني التمويه باظهار بطاقة جهاز قوى الأمن الداخلي. وكان يبدو أن هناك «حرص» على عدم التعرض لي بالضرب، لكن سقط ذلك لحظة بدء التحقيق، وكأن رجل الأمن لا يعرف من التحقيق سوى العنف لكي يستلّ اعترافاً بالقوة. رغم ذلك لم يستلّ مني ما يريد، وترك آثار ضرب بدا مبرحاً على ساقيّ، إلى حد أن أحد عناصر الأمن اعتقد أن ما يبدو على ساقي هو «وحمة»، وحين قلت له أن ذلك هو نتاج الضرب سألني أين؟ وكأنني في كازينو.
طبعاً حين سمعت حكايات الشباب الذي وضعت معه في غرفة تتسع لعشرين شخصاً لكنها حوت ست وثلاثون معتقلاً، حين سمعت حكاياتهم حول التعذيب في فرع المخابرات الجوية في مطار المزة علمت أن ما تعرّضت له ليس شيئاً أمام تعذيب يومي ولأسابيع، مع الشبح والجلد اليومي على كل أنحاء الجسد من أجل اعتراف يؤكد الرواية الرسمية للسلطة حول المجموعات الارهابية التي تمارس الاغتصاب والقتل والسرقة. فالتعذيب العنيف هو المدخل لكي تتحوّل رواية مزورة إلى «حقيقية»، وهو ما تريده السلطة المستبدة لتبرير كل القتل الذي تمارسه ضد الشعب في كل مدن وبلدات سورية. التعذيب هنا وحشي، ويستحق جهاز المخابرات الجوية أن يتحوّل بكا ضباطه وعناصره إلى محكمة الجنايات الدولية لممارسته أبشع أنواع العنف الذي يمكن أن يودي إلى الموت، ولقد أودى بالمئات.
ما تعرضت له في المستشفى 601 ‹وهو مستشفى عسكري في المزة› ربما أبشع من التعذيب لحظة التحقيق معي، لأن الوضع الإنساني من حيث المبدأ غائب عن غرفة تضم معتقلين مرضى. حيث كل اثنين أو ثلاثة على سرير واحد، وكل مربوط من قدمه ويده في أسفل وأعلى السريع و«مطمش» العينين، وأيضا مغطى حتى آخر شعرة في رأسه بحرام سميك.
يفتقد لأبسط ما هو إنساني: أن يذهب إلى التواليت، حيث يتحكم عنصر الأمن بمتى يمكن لي أن أبول. وهو الأمر الذي جعلني أبول في سروالي ككل المعتقلين قبلي، والذين جعلهم هذا الوضع يجعلون الغرفة تعج براحة البول والبراز. وهو ما كان عناصر الأمن يجهدون ‹وهم ينامون في الغرفة ذاتها› من أجل إزالته بالتنظيف اليومي ورش مختلف الروائح دون جدوى.
لكن كيف يمكن أن يكون شعور شخص ينام في ملابسه المبتلة بالبول أو البراز؟ وما هو شعوره وهو يتعرض للتعذيب لأنه فعل ذلك؟
فعلت ذلك، وتعرضت للتعذيب بطريقة أسوأ مما تعرضت في التحقيق، حيث تعرضت للضرب المبرح ثلاث مرات، لازلت اشعر بآلامها إلى الآن، لأنها كانت ضربات عصي قوية، علّمت على جسدي، وتركت رضوضاً لازلت أعاني منها. طبعاً ضربي كان أقل من الآخرين الذين كانوا يتعرضون للضرب اليومي، خصوصاً شاب اسمه لؤي يوسف الخطيب من عرنة، بدا أنه يهذي ويعيش وضعاً نفسياً سيئاً، لهذا كان يتكلم بشكل مستمر ويتعرض للضرب بشكل مستمر، وحين يصمت يأتي عنصر الأمن لكي يتسلى به «مزحا»» ثم يشبعه ضرباً.

في المستشفى شهدت وفاة شابين ممن هم معي في الغرفة ذاتها. وشهدت التحقيق مع معتقلين جدداً في الغرفة ذاتها.
وشهدت وحشية هائلة من عناصر الأمن يتلمس بعضهم «الفارق الطبقي» مع المسئولين، ويحس بضيق وضعه المعيشي، رغم أنه حين ضربت في المرة الأخيرة حاول بعض هذه العناصر حواري حول مطالبي، فقلت أنني أعمل على ان يتحسن وضع الطبقات الشعبية، أن يستطيعوا العيش بشكل أفضل عبر زيادة الأجور، دون أن يلمسوا أنني أتكلم عن مشاكلهم هم الذين يحسون بالفقر، ربما نتيجة الميل التعصبي الذي يحكمهم، وجعلهم يرون بأن المعركة هي معركة السلطة فقط، وليس معركة الفقر والبطالة وسوء العيش.
هذا المستشفى كان أكثر من حجيم، وأسوأ من سجن، وبدا أنه من أجل تحويل المعتقلين موتى أكثر مما هو من أجل علاج مرضى.
الأسوا بالنسبة لي ليس أنني كنت في السجن بل في طردي من سورية، كنت أتمنى البقاء في السجن مع هؤلاء الشباب الصلب، الذي يريد المعرفة ويسعى إليها. في كل الأحوال أظن أنني سأعود في وقت قريب لأن السلطة في أعلى لحظات ضعفها، انفك عنها الشعب عموماً، ويبدو أن حليفها الدولي يفك عنها.
في الأخير، بعد شهر من ابعادي عن سورية، وبعد اعتقال دام حوالي العشرين يوماً، وبعد أن عدت لنشاطي، اشكر كل الرفاق والأصدقاء الذين دافعوا عني وانا في المعتقل، والذين شعروا بالتضامن معي، والذين طالبوا بخروجي من السجن.
كل الذين أدانوا اعتقالي، وادانوا السلطة. واقول أنني لازلت كما انا، مع الثورات في كل الوطن العربين ومع الثورة السورية، سأكمل الى أن تنتصر قريباً. وانطلاقاً من مواقفي ذاتها، ضد الإمبريالية وكل النظم المافياوية في الوطن العربي، ومن أجل فلسطين محررة وفي إطار دولة عربية موحدة.
شكرا لكل من اهتم بقضيتي سواء من منظور سياسي أو منظور انساني، أو من منظور شخصي. وكل الأحزاب والرفاق في العالم الذين اعتبروا قضيتي هي قضيتهم.
ومعاً من أجل سورية ديمقراطية وتحقق مصالح الطبقات الشعبية.
شكراً لكل الشهداء، وتضامني مع كل المعتقلين، وأقول أنني لازلت مع الثوار في الشارع رغم بعادي القسري.
قريباً سوف ينقلب الوضع وتنتهي سلطة الاستبداد.

•شهادة اعتمدت مقابلة جرت معي مع الجزيرة نت في اليوم الثاني من وصولي إلى عمان.

•مفكر من فلسطين منفي من سوريا ومقيم في الأردن

حول السجن والحرية

مقدمة كتاب

فرج بيرقدار

إذا كان السجن، في أحد وجوهه، حركة في اتجاه الداخل، فإن السفر، في أحد وجوهه، حركة في اتجاه الخارج. إنهما نقيضان لا قابلية بينهما للحب أو الصلح أو المساومة.
جرَّبت الاتجاه الأول أربع عشرة سنة مختومة بالصمت والعتمة والرماد، وحين خرجت عرفت ما معنى صدمة الحرية.
لم أدرك للوهلة الأولى إن كنت أسرِّح بصري أم أكفكفه. كادت الزرقة أن تخنقني. زرقة قدسية لا متناهية انفسحت، وربما انسفحت أمامي، وعليَّ أن أتجرَّعها دفعة واحدة، أنا الخارج إلى الدنيا بشهيق وزفير واهنين إلى حد الأسى والحنين؟!
كان علي أولاً أن أعيد ترميم جسدي المهتوك وبعض جدرانه المتداعية ومن ثم علاقتي بنفسي ومحيطي.
تفاصيل كثيرة تجعلني أشعر بالغربة والحيرة والتردد وعدم التصديق.
لكأني واحد من أهل الكهف!
أجل.. كنت لا أزال أجاهد في ردم تلك الهوة التي خلفتها سنوات السجن بيني وبين العالم.
فجأة تأتيني، من غامض علمه الرهيف، رسالة تدعوني إلى الذهاب في الاتجاه الثاني، أو بصيغة أخرى، فرصة الانتقال من معادلة: (سوريا + سجن) إلى معادلة: (أوروبا + حرية)!
أليس شيئاً مسلياً البحث عن قاسم مشترك، حتى لو كان وهمياً، بين هاتين المعادلتين؟
رسالة صغيرة من مدير مؤسسة ثقافية هولندية تحمل اسم «شعراء من كل الأمم»، يعرض فيها استضافتهم لي كاتباً مقيماً لمدة سنة، مع التزامهم بدفع نفقات السفر، بالإضافة إلى راتب جيد وشقة مفروشة وضمان صحي، ولا يشترطون علي سوى تقديم بعض المحاضرات في قسم اللغة العربية بجامعة ليدن العريقة.
في آخر الرسالة إشارة إلى أن المؤسسة، في حال موافقتي، سترسل على الفور نسخة من الدعوة إلى السفارة الهولندية في دمشق من أجل الموافقة على منحي الفيزا.
يا إلهي كم اضطررت في السجن إلى الكتابة عن الموت، وكم أشتهي أن تتاح لي الآن فرصة الكتابة عن أخته الحياة!
لا أشك في أن السفر يوسِّع حدقة العين وشرايين القلب مجازياً، ويعطي البصيرة ما تحتاج من آفاق وإشرافات لا تتمتع بها تلك الظلمة الراسخة في حكمتها الملعونة، التي عرفتها بما يكفي بالنسبة لي على الأقل.
ولكن هل سيحالفني الحظ في مغادرة هذا البرزخ الذي يزدرد أجزاء من الماضي، ويوشك على أجزاء من المستقبل؟
على جدران الزنازين أخاديد كثيرة، حفرتها عيوننا وهي تحدِّق فيها لسنوات وسنوات.
تُرى هل يمكن لتلك الأخاديد أن تمَّحي أو تتحول إلى بقايا خطوط باهتة من ذكريات قديمة أو غير أكيدة؟!
خبِرتُ جيداً كيف تنتهي الأحلام إلى كوابيس، ولكني ما زلت أتساءل إن كان ممكناً للكوابيس أن تنتهي إلى أحلام!
كان عليَّ الحصول على موافقتين للسفر، واحدة من السلطات الأمنية في بلدي، وثانية من السفارة الهولندية.
أعرف أني ما زلت محروماً من حقوقي المدنية والسياسية، ومن حق السفر أيضاً.

بالطبع لست وحيداً في هذا، ذلك أن السوري تعريفاً هو إما سجين سابق أو سجين راهن أو سجين مؤجل، مع كل ما يترتب على هذا الوضع من ملحقات.
ولكن إذا كان السجن واجباً، ألا ينبغي أن يكون السفر حقاً؟!
من المشروع لكل سوري أن يطرح مثل هذا السؤال، بل من المشروع له حتى الاعتقاد بأن اسم (سوريا) إنما هو مشتق من (سوريالية).

* * *

قلت في آخر دفاعي أمام محكمة أمن الدولة العليا بدمشق:
«الحرية التي في داخلنا أقوى من السجون التي نحن في داخلها».
كنت وما زلت مقتنعاً بذلك، غير أني أشك الآن في أنها أقوى من السجون التي في داخلنا.
ينتهي السجن كمكان ولكنه يستمر كزمن وأشباح ولعنات.
لعنات السجن تغلي وتفور الآن في داخلي، وقد يمكِّنني السفر إلى الخارج من النجاح في طردها أو الاغتسال منها نهائياً.

* * *

لهاث متواصل ما بين حمص ودمشق من أجل موافقة الأمن وموافقة السفارة.
هكذا.. من مكتب إلى مكتب، ومن موظف إلى آخر.
يعاملونك بشكل مهذب ولطيف على السطح، غير أنهم يضمرون شيئاً لا تفهمه. كما لو أنك مشبوه وطنياً ومشبوه عالمياً!
نَصُّ دفاعي ملحق في آخر الكتاب
الموظفة السورية في السفارة الهولندية متشاوِفة ومتذمِّرة باستمرار.
حين وصلني الدور وقرأتْ أوراقي، ردَّتْها إلي بشيء من الامتعاض وهي تقول:
ـ كم مرة يحب أن أشرح لكم. عليك أن توضح سبب الزيارة بالتفصيل.
ـ سيدتي.. هي دعوة للإقامة وليست زيارة.
ـ دعوة ماذا.. أوضحْ التفاصيل.
ـ يا أختي الأمر واضح ونص الدعوة مرفق مع الأوراق.
رن جرس الهاتف القريب منها، فطلبتْ مني أن أبتعد وأنتظر، ثم عادت بعد قليل لتسألني بلطف وربما توجّس:
ـ هل تعرف السيدة السكرتيرة الأولى في السفارة؟
ـ تقصدين بيترا ستينن؟
ـ بالضبط.
ـ أعرفها يا سيدتي.
ـ قالت لي إنها تريد أن تراك في مكتبها بعد انتهائك من تقديم الطلب.
تابعت الموظفة تشاوفها على الآخرين، وبين حين وآخر تعود إلى أوراقي وتسألني على سبيل التودُّد والرغبة الضمنية في الاعتذار عن تعاملها السابق معي:
ـ هل ستدرِّس في جامعة ليدن؟!
ـ نعم.
ـ إذاً عملك في سوريا مدرِّس لغة عربية.
ـ لم تحزري.. وفي الحقيقة ليس لدي عمل في سوريا.

ـ ماذا تعمل إذاً؟!
ـ أعمل عاطلاً عن العمل.
ـ ولكنك لا تبدو كذلك.. أعني أنك مثقف ولطيف و..
ـ تخطئين إذا ظننتِ أن العاطلين عن العمل غير مثقفين أو ينقصهم اللطف.
ـ لم أقصد ذلك ولكن.. آسفة إن كنت فضولية بعض الشيء.
ـ لا تأسفي ولا تقلقي. خذي راحتك، فأنا معتاد على الفضول وما هو أكثر منه.
ارتبكتْ قليلاً وربما ضاقت ذرعاً بأجوبتي المستهترة.
فجأة نهزتْ بكتفيها، ثم ذهبتْ إلى باب جانبي. فتحتْه ونادتني:
ـ أوراقك الآن كاملة وجاهزة. تفضل معي.. سأوصلك إلى مكتب السيدة بيترا.
بيترا ستينن تعرف عني الكثير، إلا أنها لا تستطيع التدخُّل لتسريع الفيزا إلا ضمن ما يتيحه القانون في هولندا.

* * *

أربعة شهور منحوسة وموبوءة بالاتصالات والمواعيد والمقابلات والأسئلة والمراسلات إلى أن ثبتت البراءة والأهلية، واكتملت الأوراق، وصارت بطاقات السفر في جيبي.
مع ذلك فإن الأوراق ليست ضمانة. أوراق كثيرة قبلها احترقت أو عادت بيضاء وفي منتهى السوء.
كان شوك الشكّ يناكفني، وكانت ابنتي تحاول تهدئتي:
ـ بابا.. تجربتكم الطويلة في السجن تدفعكم إلى المبالغة في هواجسكم.
ـ ربما يا صغيرتي.. ولكن ماذا تقولين عن حالات بعض الأصدقاء الذين حصلوا على موافقات مشابهة، ثم أوقفوهم في المحطة الأخيرة التي تسبق باب الطائرة، وأعادوهم من حيث أتوا، هل هي هواجس أم وقائع؟
ـ بابا أنت شاعر.. أعني أن وضعك مختلف.
ـ ولكنه لم يختلف عندما كنا في حضرة «الكرابيج»، فلماذا يختلف الآن؟
ـ يلعن أبو الكرابيج.. بابا أرجوك أترك السجن ومفرداته جانباً.
ـ أنا تركته. قولي له هو أن يتركني.
تصمت ابنتي وهي تغالب دمعاً أستطيع تفهُّمَ أسبابه التي يختلط فيها فرح لم يكتمل وحزن لم يبارح.

* * *

في النهاية رتَّبتُ وزوجتي حقائبنا كما لو أننا ذاهبان بلا عودة، ورتبتُ احتمالاتي كما لو أنهم سيوقفونني عند أول نقطة في المطار.
الأهل والأصدقاء يودعونني بابتسامات تجعلها الدموع غامضة وملتبَسة. لكأنهم يرونني ذاهباً إلى الجنة وعائداً إلى السجن في آن معاً.
أم تُراهم يعتبرون أن الغياب هو الغياب الذي لا يتبدَّل معناه ما بين الداخل والخارج؟
لم يمض على خروجي من السجن ما يكفي لارتشاف أحاديثهم، لقراءة ملامحهم، لتبادل أنخاب الحب والشوق والرحمة والطمأنينة وإعادة اخضرار الوجدان والمساحات الشاسعة التي احترقت في الأعماق.
أشعر أحياناً أني لست مهيأً للسفر، وأن إصراري عليه ليس إلا نوعاً من التحدّي وربما الانتقام لتلك السنوات، حين كان كل شيء يتغرغر بأسيد من الألم والاحتجاج والتطهر واليأس والمقاومة.
من باب المطار إلى باب الطائرة أربع أو خمس محطات.

خطوات من الجمر بين كل محطة وأخرى.
لكأن خُطايَ خَطاياي.
أصبحنا أمام البوابة الفاصلة ما بين المنطقة السورية والمنطقة الحرة.
أدخلَ موظف الكومبيوتر معلومات جواز سفر زوجتي وسرعان ما ختمه ودخلتْ، ثم انتقل إلى جواز سفري.
كان قلبي يخفق تبعاً للرشقات المتتالية التي توقِّعها أصابعه على لوحة الأحرف التي أمامه.
لم يستطع الموظَّف إخفاء انهماكه واختلاجات عينيه. أحسست بنظراته المرتابة. يتفحَّصني خطفاً ويعود إلى كومبيوتره.
كنت أخشى أن لا يستطيع الكومبيوتر هضم المعلومات المتعلقة بي .
أخيراً هدأتْ ملامحه وبدا لي واثقاً وهو يسأل:
ـ هل أحضرت معك كتاباً أو رسالة؟
أبرزت له المغلف الذي تسلَّمتُه من شعبة المخابرات العسكرية، فقال:
ـ إذهب به من تلك البوابة إلى قسم المحفوظات.
ذهبت ركضاً وهناك قدَّمت المغلَّف إلى الموظف المناوِب. كان الوقت فجراً والجميع نياماً باستثنائه. فتح المغلف بتكاسل بدا لي متعمداً، وبعد أن تفحَّصه قال:
ـ هذا لا يكفي. تحتاج إلى كتاب من جهة أعلى.
ـ ولكن اللواء الذي أعطاني الكتاب أكد لي أن لا أحد في المطار سيعترضني، ولكي يطمئنني أعطاني رقم هاتفه لأتصل به في حال حدوث أي عرقلة.
تراخى عبوسه قليلاً ولكنه تابع:
ـ مع ذلك أظن أنه لا يكفي. وضعك يحتاج لموافقة من جهة أعلى.
ـ حدِّد لي بالضبط أي جهة تقصد.
ـ جهة أعلى، أعني فوق... فوق.
ـ هل تعني رئيس الجمهورية؟
ـ لا لم أقل ذلك.
ـ ماذا تعني إذن؟
حرّكَ رأسه ويديه بطريقة مسكينة وخبيثة ولزم الصمت.
شعرت أنه يماطلني من أجل شيء آخر.. ربما يريد رشوة، وأنا لم أفعلها في حياتي.
أخبرته أنني صحفي وأعرف حقوقي، وأنني أريد مقابلة الضابط المسؤول، فتراخى عبوسه أكثر وربما أصبح حيادياً.
ذهب إلى سرير قريب وأيقظ صاحبه. تهامسا قليلاً ثم عاد إلي.
كان نداء إذاعة المطار يعلن:
«على المسافر فرج بيرقدار التوجه إلى الطائرة فوراً».
تناول ورقة ثم مهرها بتوقيعه وقدمها إلي وهو يقول:
ـ مع السلامة أستاذ.. أعط الورقة لموظف الكومبيوتر واختم جواز سفرك عنده وإلى الطائرة بسرعة. إنهم ينادون على اسمك.

كُتِبتْ هذه المقدمة لاحقاً في ستوكهولم 27-10-2005

المتن الاعتقالي السوري: طيورُ الصّمْت والعزلة

محمد حيان السمان

‹ طيورٌ منثورة في رياح الفجر، تُخصب على المدى الأبعد، أيامَنا وملاعبَنا... ›
(طيور: سان جون بيرس)

يحفل المتن السجني السوري بأشكال عديدة للتحويل الأدبي الذي يرتقي بالنصوص السجنية من مستوى الشهادة إلى مستوى الكتابة، ومن مجرد التأريخ والرصد الخارجي لتجربة الاعتقال وأهوال الفضاء السجني، إلى نصوص تتوفر على خصائصها السردية الإبداعية التي تتمحور حول الذات وتمثلاتها الخاصة للمكان والذاكرة والحلم والكتابة. وسوف أختار في نظرة سريعة نموذجين من هذا المتن الغني والواسع لتوضيح ما ذهبت إليه للتو، وذلك من خلال موضوع محدد يتعلق بالطيور وأشكال استدعائها في التمثيل السردي لمحكيّ السجن، وأهمية هذا الاستدعاء على مستوى الشكل والدلالة. والنموذجان هما: شهادة الراحل رضا حداد عن تجربة الاعتقال ‹الحوار المتمدن العدد -532 عام 2003 ›، وكتاب آرام كربيت: الرحيل إلى المجهول ‹ط الاسكندرية دار جدار 2010›.

* * *

يستهل الراحل - رضا حداد - شهادته عن تجربة الاعتقال السياسي بوصفٍ دقيق لتلك اللحظة التي يفتح فيها عينيه عند الفجر على صوت عصافير الدوري، وشغب مئات منها وقد لجأت إلى نوافذ المهجع المرتفعة في سجن عدرا قرب دمشق. وهو استهلال له مغزاه ومعناه، على مستوى الشكل والدلالة.

كانت الكتابة بالنسبة إلى - رضا حداد فعلَ حياة في مواجهة الموت، ليس بالمعنى المجازي فحسب، وإنما بالمعنى المباشر والملموس أيضاً. فهو كتب شهادته تحت وطأة المرض الخبيث الذي اكتشفه بعد خروجه من السجن عام 1995 بأربعين يوماً. من هنا يبدو اللقاء بين انطلاق السرد وانطلاق النهار السجنيّ في نقطة محددة تتعلق بالعصافير في ضجيجها المحبب وشغبها البريء عند الفجر، مؤشراً على ولع أصيل بالحياة والكتابة معاً، زادته حدة ورسوخاً تجربة السجن من جهة، واستبطان الموت أمام مرض قاهر من جهة أخرى.

على مستوى الشكل تنزاح دلالة الشغف بالحياة وتحدي الموت الوشيك من خلال إهمال التسلسل الزمني. فالنهار الذي يتنفّس فجرُه على مشهد العصافير، والذي ينطلق منه السرد؛ لا يتطابق مع بداية الاعتقال في الحقيقة، بل هو واحد من نهارات سجن عدرا الذي نُقل إليه الكاتب بعد اعتقاله بأربع سنوات. إن السارد يؤجل الحكي عن فترة الاعتقال الأولى وأهوال التحقيق إلى نهاية النص ‹لأن ذكراها تؤلمني تشوّشني تحيي في داخلي كل مشاعر الذل والمهانة والألم النفسي ›، كما يقول.

كذلك يؤجل السارد الإعلان عن مرضه إلى نهاية النص. فبعد أن يحكي في القسم الأخير من شهادته، عن فترة الاعتقال الأولى والتحقيق، وما رافقها من تعذيب رهيب على يد الجنرالين الجلاديْن علي دوبا وهشام اختيار ؛ ينتقل مباشرة من زمن السرد إلى زمن الكتابة، ويخبرنا ‹ها أنا أكتشف بعد أربعين يوماً من إطلاق سراحي أني مصاب باللوكيميا...›.

ثمة مسافة إذاً، تستغرق شريط السرد كله، بين بدايةٍ تحتفي بالفجر وعصافيره، وخاتمةٍ تستعيد لحظات الألم والذل والمهانة، وتواجه في نفس الوقت نذرَ الموت القاهر. كأنّ السارد بتوزيع هذين الحدين على جانبي الشريط السردي، أراد

أن يمنح نفسه وقتاً أطول كي يحكي عن شغفه بالحياة وانحيازه للفجر والفرح، وعن مكابدات روحه التي ‹ما زالت تهفو إلى الحرية والكرامة والعدالة›.

في زمن السرد، الذي يحيل إلى تجربة الاعتقال وآلامها التي تغلغلت في الدم كما يقول تحققت مواجهة الموت المجازي ‹السجن وإكراهاته فضاءً وإجراءاتٍ› من خلال طقوس شتى، من بينها تأمل عصافير الفجر والإصغاء إلى ضجيجها المحبب: ‹أبحث عبر الشبك عن تلك الكائنات الطائرة الصغيرة. وهذا يخرجني من دائرة السكون والتكرار ولو لدقائق معدودة ›.

وفي زمن الكتابة واجه رضا حداد الموتَ الحقيقي بكتابة تحتفي بالحياة، وتتمسك بالكرامة الإنسانية التي كرر رضا الإشارة إليها مراراً في شهادته الحارقة.

* * *

أراد رضا حداد تشخيص تلك المفارقة الأليمة التي يعيشها السجين، بين روح تهفو إلى الحرية والحياة، وبين إكراهات السجن بدءاً بـ ‹هندسته غير القابلة للإلفة › وانتهاء بمشاعر الذل والمهانة والألم ‹دولاب العذاب الجهنّميّ›، كما يقول. وهي مشاعر يستبطنها السجين حتى بعد خروجه من السجن. ‹رغم أني غادرت السجن إلا أنه لم يغادرني›. وقد عمّق المرض من إحساس السارد بقدَره كعاشق أبدي للحياة، عليه أن يخوض حرباً مستمرة ضد الموت والسكون والتكرار، داخل السجن وخارجه.

لقد أشار سان جون بيرس في قصيدته العظيمة عن الطيور، إلى ‹الطائر الذي هو بين أقربائنا في الدم، الأكثر تحرقاً للحياة›. إن مشهد عصافير الفجر في مطلع شهادة رضا حداد يأتي بمثابة التشخيص الفني لتحرّقه كذات سجنية وسردية للحياة والكتابة والحرية. عبر طيور الفجر تأتي الطبيعة إلى مهجعه، توقظه وتصل ما انقطع بينه وبين ألوان الحياة والنماء والحركة. وهو انقطاع يبدو أكثر حدة وألماً بالنسبة لعاشق قديم للطبيعة ومظاهر الحياة فيها، اعتاد خلال حياته العادية قبل الاعتقال على ‹التأمل الطويل والصامت لمغيب الشمس ولتفتحها وابتسامها اليومي›.

لكن ابتهاج رضا حداد بعصافير الفجر، يحيل إلى ما هو أكثر من مجرد انفعال شخصي بالحياة والطبيعة. إنه أيضاً التشخيص السردي لحقيقة عامة ثابتة من حقائق السجن ‹الحقيقة التي لمستها خلال خمسة عشر عاماً عند الغالبية العظمى من السجناء، هي تقديرهم بل تقديسهم لكل مظاهر الحياة الطبيعية، شغفهم وتوقهم إلى كل ما هو طبيعي وحي ومتحرك›. وهكذا يبدو مشهد العصافير شكلاً من أشكال التمثلات السجنية الأساسية لمعنى الحرية والطبيعة والحياة.

ينطوي مشهد عصافير الفجر أيضاً على دلالة أخرى تتكامل مع دلالة الاحتفاء بالحالة الطبيعية. ففي المشهد إدانة للحالة الاجتماعية، مؤسساتِها وسلطِها وعلاقات السيطرة والإكراه فيها. إن ضجيج العصافير وشغبها المحبب عند الفجر ‹يشعرني أنّ قوانين الحياة أقوى من قرارات الحكومة والمسؤولين، كما يشير رضا. ويتابع القول: ‹إن قوانين الحياة وناموسها يتغلب لفطرة نمائه واستمراره على كل محاولات تعطيل هذا النماء وهذا الاستمرار›. إن رضا حداد يستبطن الخارجَ الاجتماعي بوصفه ‹أمكنة مكتظة بالبشر الأقوياء›. وبناء عليه يفسر لجوء العصافير إلى نوافذ السجن ‹فهي تعلم أن قاطني السجن بشر مسالمون بعيدون عن الأذى› .

* * *

في كتاب آرام كرابيت ‹الرحيل إلى المجهول› تبدو الطيور تيمة رئيسة يستدعيها السارد مراراً عبر الحلم والذكرى، أو بالوصف الحيّ المباشر. وإذا كانت الطيور في شهادة رضا حداد بمثابة باب نحو الحياة في مواجهة الموت، فإن الطيور في كتاب آرام باب نحو الحرية في مواجهة الاعتقال والعزلة.

ثمة عطش مستمر في كتاب آرام لرؤية الطيور والتأمل في أحوالها، حيث تُستدعى باستمرار في مسار السرد وتمثيلاته،

بوصفها متكأ استعارياً لرفض العزلة وانغلاق الأمكنة، وحاملاً طليقاً لرحلة الذات في بحثها عن الخلاص.
حتى عندما يتاح للسارد/ السجين في مرات نادرة أن يتأمل الفضاء المفتوح؛ فإن الطيور هي من يعطي المدى معناه الحقيقي، ومن دونها تبدو السماء مقفرة مغلقة ،تهذر بهذيان كئيب». كما حدث في الطريق إلى سجن تدمر، حيث يمسح السارد عبر شباك الحافلة التي تقله نحو قاع الجحيم، المدى بنظرات متلهفة، بحثاً عن الطيور دون جدوى. ويقول بما يشبه النشيج ،كنت أتمنى أن أرى طيراً من طيور الله السارحة في هذا الفضاء اللانهائي».
وفي سجن تدمر نفسه ثمة مستويات للعزل والحصار، حيث تشتد العزلة والظلام والضيق في بعض الأماكن التي يُنقل السجناء إليها كعقاب جماعي أو فردي. فتزداد الحاجة لمشاهدة العصافير التي تتعين كوة للحلم والأمل والتواصل مع المدى المفتوح.
،عندما نريد أن نأخذ مساحة فرح نتمدد على الأرض، ننبطح لنرى بعض العصافير من تحت الباب كيف تأكل وتتحرك وتطير». ثمة ما يوحي في كتاب آرام - بابتهاج السرد وازدياد حيويته عندما تتعين الطيور مادة بصرية بمتناول حواس السارد/ السجين، فتتدفق اللغة متحررة من الكوابح النحوية والقوالب الأسلوبية، خالقة فضاءها الخاص للمصالحة بين الحرية والذكرى على حد تعبير بارت . والمثال الأفضل لعرس السرد هذا نجده في الصفحات المخصصة لمشهد العصافير القادمة من البوادي إلى أعشاشها الشتائية في مهجع السجن حيث ،عباءة الليل والسكينة». تجاورٌ مؤقت وعابر، لكنه يكفي لتشخيص عالمين متناقضين في كل شيء: عالم السجن بفضائه المغلق الصامت المعتم المتشكل من آهات ووجع، وعالم العصافير العائدة من الحرية والمدى اللانهائي حيث السماء مفتوحة على السماء.
يشخص السارد/ السجين العالمَ الذي قدِمتْ منه العصافير، فيبدو فضاءً عامراً بالحركة والفرح والضوء، مؤثثاً بعناصر الطبيعة والخصب وألوان الحياة وروائحها المختلفة. ثم يرتد ليشخص فضاء السجن حيث ،الهول والغرابة»، فيتخذ من ،عيون العصافير المترعة بسحر الحياة وبهائها ، موقعاً يرى من خلاله إلى فضاء السجن وأحوال قاطنيه، أعينهم الجميلة لا تملّ من التحديق فينا. مستنكرة كأنها تقول لنا: ما الذي جاء بكم إلى هذه الخرائب المسكونة بروائح الجن والشيطان... ؟ من فعل بكم هذا..؟ من الذي...خرّب لون الحياة الجميلة في أعينكم ؟!».
لكن ثمة ما هو أبعد من المقابلة بين فضاءين هنا. فلجوء العصافير إلى مهجع الصمت والعتمة، يعيدُ الحياةَ إلى جدل الخارج والداخل، بعدما جهد السجن - فضاءً وطقوساً - في إخمادها. لقد أحيت العصافير القادمة من الحرية ذاكرة السارد/ السجين، ورممت وعيه بالخارج، ليسترد ألفة قديمة ضاعت في ظلال الذاكرة، على حد تعبير باشلار. وحتى بعد أن تغادر العصافير مهجع ،الصدى والصديد، نحو الفيافي والحرية، فإن العصفور الوحيد الذي بقي ولم يغادر فضاء المهجع، يحيل إلى تشبث الذات الساردة بنور الألفة المستعادة، بالتدفق الرائع لجدل الخارج والداخل الذي أحيته العصافير اللاجئة.
،هدية من الطبيعة، حضور شهي للحرية، عذوبة الوجود والحياة...». بهذه الجمل التقريرية ترسخ الذات الساردة وعيها بالألفة المستعادة والباقية عبر أجنحة الطائر الذي اتخذ من المهجع عشاً دائماً. تسترد من جديد حضورها داخل الكون والحياة، وتستعيد قدرتها على مواجهة المسافة الوحشية البكماء للزمن، وعدائية المكان وانغلاقه على العزلة والصمت والألم.
،كنا ننتظر مجيئه بفارغ الصبر ساعات طويلة من أجل التواصل معه، مع الطبيعة، مع ذواتنا... بوجوده نحس أننا في هذا الوجود، في هذا الكون المبهر المتألق...نفرح لفرحه، للقائه الماء والصباح والكائنات الأخرى، نفرح للقائه النبض الآخر منا في الحياة».

* * *

تبدو الاسترجاعات الموزعة على طول الشريط السردي في عمل آرام، بمثابة رحلات جانبية متخيلة على هامش الرحلة الجحيمية الرئيسية، وشكلاً للتحويل الأدبي أيضاً يسمح للسرد بالانتقال بين تشخيص اللحظات الأكثر قهراً وألماً فضاء السجن ، وبين استبطان لحظات الحرية والتواصل مع الطبيعة والماضي الذي ،تحول إلى طائر طليق يحلق فوق أجنحة الروح».
تحفل معظم الاسترجاعات في كتاب آرام بذكر الطيور وحالة الطيران التي تقدم معادلاً تعبيرياً للتوق إلى مغادرة الفضاء السجني في أكثر لحظاته قسوة وإكراهاً: ،أكثرت الطيران فوق قمم الجبال العالية المكسوة بالثلوج البيضاء الرحبة لأحرر هذه النفس من القيود التي ترزح تحتها ومن اندفاعات قهرها ، وفي مكان آخر: ،لم يكن لي سوى أن أحلم وحدي بالطيران ...الخ».
إن واحدة من الاسترجاعات تقدم نموذجاً دالاً للكيفية التي انصهر فيها مستويا الكتابة ،كتابة الاعتقال وكتابة الرحلة، في عمل آرام، وتوضح جانباً من استخدام موضوع الطيور في التمثيل السردي كذلك. وهي تتعلق بلحظة ضاغطة عاشها السارد/ السجين بداية عام 1992، بعدما تبين له ،أن السجن العربي سيكون طويلاً ولا يوجد أي أفق مشرق أو بصيص أمل للخروج منه». وكاستسلام محبط يائس لهذه اللحظة يقول السارد ،مددتُ فراشي على السرير وربطت أحزمتي من أجل امتطاء الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر».
توقظ هذه اللحظة ذاكرة السارد/ السجين: تذكرت ! وتنقله مباشرة وبشكل خاطف من فضاء السجن وسياق الرحلة الجحيمية، إلى قلب مشهد الطيور المهاجرة نحو الجنوب، وقد حطت رحالها على شجرة الكينا العملاقة في منزل الطفولة برأس العين.
يقرأ السارد مشهد طيور الزرازير على شجرة الكينا بوعي ومشاعر اللحظة الراهنة، فيبدو المشهد مجالاً لتفاعل الذاكرة والطبيعة والتاريخ، من منظور الذات السجنية الساردة، وهي تواجه جدل المكان المغلق والرحيل المر. إن الأسماء والنعوت المحتشدة في مشهد الطيور، والتي تحيل إلى حقل دلالي واحد يشير إلى السفر المضني: التعب- الإرهاق البرد- الجوع- الغربة- الألم الخ... ليست سوى التشخيص الاستعاري لأحوال الذات السجنية في رحلتها داخل الجحيم.
،أصوات استغاثاتهم المبحوحة في أذني وعقلي وقلبي منذ كنت طفلاً في العاشرة. عيونهم الموجوعة الحزينة تقول: دعني أرحل إلى موطن الدفء والأمان، إلى موطني القادم. دعني أرحل إلى المكان الذي أحط فيه أعشاشي ونسلي وبقائي... كانوا مشبعين بالألم والجراح الطويلة، يصرخون بنبرة مرة... ».
إن الإحالات المتبادلة بين الذات السردية في شرط الاعتقال، وبين الطيور ككائنات طليقة، ملمح بارز في البناء السردي لعمل آرام. وقد سمحت هذه الإحالات في مراوحتها من الذات إلى العصافير وبالعكس، بالتشخيص الفني لكثير من جوانب تجربة الاعتقال السياسي، وساهمت ضمن عناصر فنية ودلالية أخرى- في تنظيم محكي السجن، والارتقاء به من مجرد كتابة التذكر والرصد إلى السرد الفني، أي التحول من سؤال الذاكرة إلى سؤال الإبداع.

27-08-2012

كاتب من سورية

ألف بكامل سوادها

حوار متأخر مع النفس

مفيد نجم

1

هذا الرجل الذي أحببته وكرهته ... الذي حزنت لأجله وحزنت عليه.. والذي حمَّلني وزر أفعاله وعناده كل هذه السنوات الشاقة والطويلة .

هذا الرجل الذي كان يحملني مرات، وأحمله مرات كثيرة، في هذه الحياة المتلاطمة، التي عشناها، لم يصل يوما إلى شاطئ ويلقي بأحمال روحه الثقيلة ليرتاح، كان قلقا ومطعونا بالمسافة التي تفصل الحلم عن الواقع .. والحياة عن الأمل الذي ظل يقوده كراية ممزقة في ريح لا تهدأ . بعد سنوات من التجاهل والنسيان جاء ليوقظني من نسياني فجأة، ويستعيديني من نسيانه . وقف أمامي مرتبكا وراح يذكِّرني ببعض حكايات الالآم المريرة التي عشناها معا لكي يستعيد قرابة الجرح والألم والوجع الإنساني فيما بيننا، فقلت له: أعرف يا شبيهي وآخري ما الذي تريده مني، أنت تحاول أن توقظني من غيابك لكي تستردني من ماضيك دون أن تدرك أن ما تفعله سيجعلني أعيش تجربتي المرة مرتين، مرة لأنك تريد أن توقظني من نسيانك لأدرك مدى الخيبة التي خلفها نسيانك لي، لكي أروي لك حكايتي التي ستصير حكايتك التي ستعيشها خارج الزمن الذي عشتها فيه بكل قسوتها العارمة والطاعنة في المرارة والأسى والقهر، وليست حكايتي أنا، فأصير أنا ظلك ودليلك ليس إلا، ومرة ثانية لأنك ستجعلني أعيش محنة التجربة وفظاعاتها الشاقة مرة أخرى، فلماذا تريدني أن أكون الضحية التي تستعيد دورها في الحكاية من جديد؟؟. لكن هذا الرجل الذي أعد نفسه جيدا للإجابة عن اسئلتي لم ينتظرني لأكمل ما يجب أن أقوله، قاطعني كأنه هو صاحب الكلمة الأخيرة ليقول لي : أنت ماضيّ، وأنا حاضرك ومستقبلك، أليست الكتابة هي استثمار في الآن وفي المستقبل بانتظار قارئ مفترض؟ ثم لماذا تلومني على تخففي من ذلك الإرث الثقيل واندفاعي نحو الحياة... أليس ذلك أولا وقبل أي شيء آخر حق طبيعي لأي إنسان، فما بالك بشخص عاش كل تلك المعاناة الطويلة مع الحرمان من أبسط حقوق الإنسان في الحياة. سأقول لك إن اندفاعي نحو الحياة كان تعبير عن إرادة الكائن المؤمن بالحياة وبضرورة الانتصار على محاولات هزيمته، كما أرادوا لنا أن ننتهي عندما جردونا من كل حق في هذا الوطن الذي اختزلوه فيهم، ليتركونا لمصيرنا وقدرنا البائس غرباء في وطن لانملك منه شيئا، لكننا لم ننكسر ولم نستسلم بل حولنا محاولة هزيمة إرادتنا إلى قوة وعزيمة وإصرار على الإبداع والعمل، لكي نهزم أهدافهم في جعلنا موتى- الأحياء. كنت أتأمله وهو يندفع بكلامه بمزيج من الدهشة والأسى، وأسأل نفسي ألمْ يكن محقا فيما يقوله هذا الرجل، الذي كنت قبل قليل ساخطا عليه... لكن السؤال المقلق والمحير الذي ظل يتردد بقوة هو كيف بعد تلك السنوات الطويلة يمكن أن نروي الحكاية نفسها، كما عشناها عارية من ثياب البلاغة، وساطعة بقوة حضورها الراعف، ووهجها طالما أنها كانت تستمد بلاغتها من عمقها الوجداني والروحي والشعوري كتجربة كانت تعبيرا عن تحول صارخ في ممارسة السلطة الديكتورية لآليات قمعها في تاريخ سوريا الحديث نحو مزيد من القمع المعمم . كيف يمكن لي أن أكون قادرا على استعادة تلك اللحظات الغائرة عميقا في سوادها ورعبها الضاري عندما كانوا يجبروننا على النوم المبكر ، ثم ينقضون في غارات متتالية على « شراقة» الباب ليتأكدوا أننا بتنا في سبات الموتى، بينما كانت جلبة المواسير المعدنية

التي تنصب استعددا لتنفيذ الإعدام بمجموعة جديدة من السجناء تأتينا مع وقع أحذية العسكر السريعة والثقيلة في الممرات؟ فكيف للحكاية ألا تخون نفسها وألا تصبح ظلا للحكاية، وأن لا يصبح كاتب الحكاية هو بطلها الحقيقي الذي اختبر عمق الآمها وقهرها وعنفها المادي والمعنوي، وعاشها كما هو حال الآلاف في تلك السنوات المثقلة برعبها ومواتها، حيث كان الديكتاتور الطاغية يعدُّ البلاد لتكون مزرعة لعائلة الوحش من بعده؟

2

هكذا راح يقودني كاتب الحكاية لكي أدخل ثانية في تفاصيل الحكاية وأعيد روايتها ثانية، فلماذا تريد أن توقظني من حكايتي التي تركتْني لنسيانها، وتحاول أن أوقظ لك تحت رمادها جمر تلك السنوات الطويلة التي كنت احترق بها عندما كانت طاحونة الزمن الثقيل تلوك أعمارنا في أوج سنوات تفتحها وغناها وزهوها. نظر نحوي نظرة أسف وعتاب، وسألني ألم تكن حكايتك هي حكايتي التي سنحاول أن نرويها معا لكي ننقذها من الضياع.؟ أجبته بارتياب : لكنْ لكل حكاية راوٍ وبطل، وقد يتمرد الراوي أو البطل على كاتب الحكاية فيصبح أحدهما أو كليهما معا هما بطل الحكاية ولست أنا.. فهل تكون تلك حكايتي التي تريد أن أرويها لك من جديد؟ وهل سأجدني فيها، أم ستصبح هي حكاية شخص آخر قد يشبهني قليلا وقد لا يشبهني أبدا. أعرف أن كل كتابة هي خيانة لحكاية ما يقوم بها بطل آخر يدَّعي أنها حكايته. ولكي لا يكون هناك من يقول هذه حكايتي وقد سرقت مني وصارت حكاية لرجل لا يشبهني كثيرا يكون أول ما يفعله بطل الحكاية الجديد هو اغتيال صاحب الحكاية!.. فهل تريد أنت من كتابة حكايتي أن تغتالني من جديد؟ صمت قليلا وأجابني: أنا وأنت ضحيتان وليس من المعقول أن تقوم ضحية بقتل ضحية مثلها! قلت له نعم يحدث هذا ، ثمة ضحايا تتحول في حالات وشروط ما إلى قاتلة. إنها عقدة الاضطاد التي تغيّر قوانين اللعبة ، ومواقع اللاعبين فيها. أراد أن ينتهي من هذا الجدل المفتوح ويقدم حلا وسطا فقال لي : سأعترف لك أن كل كتابة هي فعل خيانة من نوع ما، ولكنها خيانة جميلة يمليها منطق الكتابة من الداخل وضروراتها، لكي لا تموت الحكاية مع صاحبها. الحياة مقبرة الصمت، فلا تترك حكايتك للنسيان والصمت، فتصبح أنت ذاكرة للموت. اروِ حكايتك قبل أن يسرقك الوقت، ودع أبطالك يتنفسون هواء الحياة الجديد. عاد يتأملني طويلا كمن يتأسف عن تلك الحياة التي كان أودعني لصمتها، فاقتربت منه وقلت له إذا لنبدأ سرد حكايتنا يا صاحبي !

ناقد سوري مقيم في أبوظبي

المفتاح
(مذكرات الاعتقال)

هيام جميل

الوقت ليل، لم أعد أذكر الساعة بالضبط، أتناول طعام العشاء حينها، في ثالث أيام عيد الفطر، وأذهب للنوم، لقد انتهى العيد، ونام الأطفال، وآن لي أن أنام أنا أيضا فقد ضاع حلمي بالتأرجح في أراجيح هذا العيد!

أسمع صوت جسد يجر في الممر، جسد يركل، أنزل بسرعة، وأتمدد على الأرض لأرى من خلال الثقوب في باب زنزانتي ثلاثة عناصر يجرون رجلا ضخم الجثة ما زالت جراحه تنزف من يديه ورأسه، يفتحون باب الزنزانة 12، في الصف المقابل لي، ويحشرونه فيها ويمضون!

يبدو على جسده أنه منهك من مقاومتهم اعتقاله، أرقب زنزانته لكنه لم يطل من الثقوب، لم أسمع أناته ولا صراخه، كان مغشيا عليه!

ترى هل أتوا به من مظاهرة؟هل أتوا به من فرع آخر؟ ألديه أطفال؟ ماذا سيحصل إن علم أهله؟ وهل يتخلل الاعتقال من التظاهر كل هذا الضرب، هل سيموت هنا؟

ألف سؤال بديهي عصف بعقلي البسيط، لكنها بالطبع أسئلة لا تعني لهؤلاء شيئا، كما لا تعني لهم دماؤه التي عمدت طريقه!

وأعلن الصباح بداية شهر هجري جديد، يوم اعتقال آخر، أنظر للزنزانة 12، الهادئة دوما، صباح آخر، وصباح ثالث، وجبات طعام توضع للمعتقل، معتقلون يذهبون، وآخرون يأتى بهم إلى هذا الجحيم الصغير، دون أن أسمع صوته أو أشعر بحركته، وكدت أستسلم لفكرة موته!

كنت أتحدث إلى المعتقل في الزنزانة 13، زميلي في القضية غفار، أرفع صوتي قليلا لأحدثه عن مجرى التحقيق معي، أرى شبحا يقترب من ثقوب باب الزنزانة 12، أراقبه، أبتسم لبقائه على قيد الحياة، وإبقائي على قيد الأمل!

أشير له ملوّحة، ينتبه لي، يرى وجهي من طاقة الزنزانة، يفاجأ بفتاة هنا!

أكتب له فيرى كتابتي باصبعي حرفا حرفا على الثقوب:

- ش .. و .... (أمسح بيدي بسرعة على الثقوب لأقول له أن الكلمة انتهت) .. ا .. س .. م .. ك؟
- ل .. ؤ .. ي ..
- أ .. ن .. ا .. .... ه .. ي .. ا .. م .. ....
- م .. ن .. .... و .. ي .. ن ..؟
- ا .. ل .. ل .. ا .. ذ .. ق .. ي .. ة ..
- ع .. ل .. و .. ي .. ة ..؟
- ا .. ي ..
- ع .. ل .. و .. ي .. ة ..؟ !

أبتسم، معه حق ألا يصدق، إنها أربعون عاما من عدم فهم الآخر، وعدم الاستماع له، أربعون عاما من تفخيخ الطرق بين

بيوتنا في الحارة الواحدة، ياه كم نحن غرباء عن بعضنا في هذا الوطن!

يستمر الحديث لساعات، يخبرني أنه أب لطفلة كان قد أنزلها لتلعب بالمراجيح في آخر نهار لعيد الفطر، قبل اعتقاله بساعات، تبتلع الثقوب المظلمة معظم ابتسامته وهو يشير مستخدما سبابته اليمنى راسما شعرها المتموج!

في اليوم التالي كانت طاقة زنزانته مفتوحة!

العنصر الذي يوزع الطعام سأله:

- مين فتحلك الطاقة ولاااا؟
- الشب اللي بيوزع الدوا..

فانصرف ممتعضا

العنصر الذي يوزع الدواء سأله:

- مين فتحلك الطاقة ولاااا؟
- الشب اللي عطاني الأكل..

انصرف غاضبا..

أُطِل من طاقتي، أصبح بامكاننا الحديث عبر قراءة حركة الشفاه، كان يبتسم، أشرت له:

- كيف فتحتها؟

أخرج قطعة حديد معقوفة، وقال فخورا:

- طعّجتها بسناني.. مديتها ورفعت القفل.. شوي شوي.. وفتحتها..

من سيقف في طريق حريتك يا رفيق زنزانتي؟ أنت تمتلك مفتاح زنزانتك!

وكان مساء أحد أيام الاعتقال، أنا أتحدث مع لؤي بعد مجيئه من جلسه تحقيق، وجسده مزدان ببعض الصفعات والركلات، يوزعون العشاء فيقطعون حديثنا، لا بأس، فنحن جائعان لطول ما تحدثنا!

العشاء حبة بطاطا فاسدة، لا نأكل، رفضنا أن نأكل، جعنا، قلت له وقد تملكني الغضب:

- فوت لجوا.. ما بيجيبوها غير النسوان.

طرقت باب الزنزانة الحديدي بيدي الضعيفة، أتى عنصر مبتسم، متأنق:

- شو بدك؟
- هلق بدي اسألك بس لو سمحت.. العشا اليوم بطاطا بس مو هيك؟
- ليه عم تسألي؟
- منشان أعرف شو بدي آكل.. يعني آكلها مشوية واللا مسلوقة واللا شو؟ البطاطا بس منزوعة ونحنا جوعانين..
- ليش ما جابولكن جبنة؟
- لأ.. ما جابوا لحدا بالمنفردات.....
- ثواني بس..

يغيب لربع ساعة تقريبا، أخبر لؤي عن الجبنة، نبتسم للجبنة الموعودة، نطبطب على معداتنا الصارخة أن تصمت..

يعود العنصر راميا في يدي الصغيرة بثلاث مثلثات من جبنة أبو الولد، ويمضي!

وماذا أقول الآن لـ لؤي؟ «جابولي جبنة الي أنا بس؟»

لا يرضى لؤي بأن أرمي له مثلث جبنة، يقول لي: انتي بنت.. كليهون.. أنا زلمة.. بتحمل!

لم يتحمل طويلا، يقول لي غاضبا:

- فوتي لجوا.. هلق صار دوري أنا!
يطرق باب زنزانته بقبضته القوية:
- مييييييييييييين؟
- أنا..
- مين أنا..
- أنا مواطن..
- وشو بدك يا مواطن؟
- جوعان!
غاب العنصر المبتسم وأتاه بعد دقائق:
- تفضل يا مواطن.. منشان تشوف قديش نحنا كريمين.. وهي خبزة.. وحلاوة كمان..
ينظر لؤي إليّ منتصرا ويقول: شفتي! سمعتيه؟ أنا مواطن!
وأكل الحلاوة كلها، فتمكنت من التهام مثلثات الجبنة دون أدنى إحساس بتأنيب الضمير!
يتبدّل على الزنزانة 11، المواجهة لي تماما، كثير من المعتقلين، وفي أحد المساءات أرى وجه معتقل «جديد» فيها، فتحوا طاقته لأنه كان مريضا، وكالعادة يسألني لؤي أن أستفسر عن اسم المعتقل الجديد، علّنا نستطيع معرفة بعض المعلومات عما يجري في الخارج..
ويصعق حين أخبره عن اسم نزيل 11، إنه صديقه وابن حارته: مازن!
يخبرني مازن أن هنالك 4 أربعة شهداء.. في س...
- السيدة زينب؟
-لأ.. ب س..
- الصالحية؟
- لأ.. ب س..
ويأخذ السؤال مني ساعة كاملة لأفهم منه أن عدد الشهداء لهذه الجمعة قبل اعتقاله هم أربعة، في سوريـــــة كلها!
آخذ استراحة قبل أن أتابع حديثي المضني معه، ألوّح بصحني ليتحرك الهواء قليلا ويخفف من الحر، أعود لأكمل حديثي، ولؤي يضحك شامتا من معاناتي في الحديث مع مازن..
- قولي لـ لؤي أنه فداء استشهد.. قوصوا عليه..
وبسذاجتي أنقل الخبر لـ لؤي:
- عم يقلك مازن أنه فداء استشهد..
يضع يده اليمنى على فمه، يكاد أن يصرخ، تدمع عيناه كطفل:
- فداء استشهد؟ فداء رفيقي؟ استشهد؟
لم أعرف ماذا أقول له، أرجوك لا تبك، تبا لهذه الأبواب الحديدية، تبا لكل القيود، إن بكيت أنت من سيضحكني بعد اليوم؟
يدخل إلى زنزانته باكيا، وأذهب أنا إلى النوم، لكن الطرق إلى عوالم الأحلام تبقى مقفلة أمامنا، كما جميع السوريين، رغم ثقتي أننا نمتلك مفاتيحها..

وئام عماشة: المعتقلون الفلسطينيون تضامنوا مع الثورة السورية وادارة السجن عاقبتني لأنني اضربت ضد قمع النظام السوري لشعبه

حسان شمس

الجولان المحتل ـ ‹القدس العربي›: قبل إعلانه بيان الإضراب عن الطعام مِن معتقله بالسجون الاسرائيلية تضامنا مع الثورة السورية وإدانة للمجازر التي يرتكبها النظام بحق الشعب المسالم، أرسل وئام عماشة إلى والده يقول:
‹أبي، صديقي الأول في المواجهات الصعبة: هذا النظام الذي خرجت قريتنا عن بكرة أبيها تهتف له ‹بالروح بالدم›، يرتكب المجازر بحقّ أبناء شعبي، ليس لشيء، إلا لأنه يطالب بحرّيته وكرامته الوطنية؛ وانطلاقا مِن قناعتي بأن النضال مِن أجل الحرّية ومعاداة الظلم لا يتجزأ، رأيت أنه مِن واجبي التحرّك بما امتلك مِن أدوات›.
وإضافة إلى صقل لغته العربية، فهو يجيد اللغة العبرية بطلاقة. وئام، تابع تعليمه العالي داخل المعتقل، مُتِمّا سنتين في العلوم السياسية. هو، كان وعد الصديق ياسين الحاج صالح، قبل مدة، خلال إجرائهما ‹تشات›، عبر الإنترنت أنه سيكمل ما بدأه طليقا، وقد عاد وأكد لي ذات الرغبة.
‹طبعا، لا أدري إلى متى تستمر حالة الترقب التي أعيشها، لكني أملك قدرة عالية على التأقلم والانخراط مجدّدا في المجتمع. هناك عدة مشاريع أعدّ لها، أهمها استكمال تعليمي العالي›، يقول وئام.
يحدوه أمل كبير أن تحرير الجولان وعودته إلى أحضان وطنه الأم سوف يكون قاب قوسين أو أدنى، متى تحرّر الوطن مِن قيده؛ ودمشق، هي مكانه المفضل الذي ينوي العمل فيه.
وإذا كان للإعلام الرسمي السوري مِن فضيلة وحيدة، فإنها تمثّلت في تجاهله التام للأسير الجولاني المحرر وئام عماشة، فمن غير المعقول ولا الطبيعي لشاشات مثل فضائيات النظام أن تحتمل جرعة طهارة وطنية بحجم وئام، بعد وضعها الشعب السوري برمّته في مصاف الأعداء.
وئام الآن حرّ كما هو أبدا، وعلى خلاف المرّات السابقة التي كنا نتلقى فيها مواقفه ورؤاه الجريئة، حيث كان يمرّرها عبر رسائل مهرّبة مِن معتقله، التقينا معه هذه المرّة وجها لوجه، وكان بيننا الحوار التالي:
› وئام، عرّف نفسك بالطريقة التي ترتئي:
› ولدت في قرية بقعاثا في الجولان المحتل عام 1981، وعشت حالته النضالية. لكن جذوري تمتد إلى كل الأرض السورية. قلبي دمشقي، ولغتي ساحلية من أوغاريت.
› ماذا تحدّثنا عن أسباب اعتقالك، ظروفها، وحياتك داخل السجن؟
› اعتُقِلت للمرّة الأولى عام 1997 بسبب نشاط ضد الاحتلال ومصالحه، وحُكمت لمدة سنة ونصف. ثم أعيد اعتقالي عام 1999 للأسباب نفسها، وحُكمت خمس سنوات. قبل أن أتحرّر، اتُّهمت مِن داخل المعتقل بالارتباط بأحد الفصائل الفلسطينية والتخطيط لأسر جندي إسرائيلي ومبادلته بأسرى فلسطينيين وعرب، حيث حُكمت 21 عاما.
عادة ما تكون الفترة الأولى مِن الاعتقال هي الأصعب في رحلة الأسر، وهذا نظرا لأساليب التحقيق والضغوطات التي يمارسها المحققون على الأسير لانتزاع المعلومات. الأسرى الفلسطينيون والعرب داخل السجون الإسرائيلية، يعيشون

حياة منظّمة على أساس فصائلي، تحكمها قوانين ولوائح دستورية بما يتناسب مع شروط الاعتقال وظروف المعتقل. ومنذ اليوم الأول للاعتقال، تأخذ العملية النضالية شكلا مختلفا، يهدف إلى الحفاظ على الذات مِن عملية التحطيم المعنوي والقيمي.

‹ لو عادت بك السنين إلى ما قبل اعتقالك، هل كنت ستؤيد الكفاح المسلح كطريقة مثلى لأهالي الجولان ‹محدودي العدد والإمكانات› في مقاومتهم للاحتلال؟

‹ حتى وإن كان الكفاح المسلح هو الوسيلة الأكثر فاعلية لانتزاع الحقوق، لكن في غياب مشروع تحرّري واضح المعالم يتحوّل إلى عبء يستنزف طاقات المجتمع. اليوم، وبعد ما مررت به مِن تجارب واختلاطي بالمقاومين الفلسطينيين، أرفض رفضا قاطعا إطلاق مشروع مقاومة مسلحة مِن دون أن تتوفّر الإمكانيات والعوامل الموضوعية لإنجاحها. وفي الجولان، تحديدا، نظرا لانعدام العمق الإستراتيجي، لا أرى أية إمكانية لإنجاح أي مقاومة مسلحة يمكنها تحقيق أهدافها، في ظل العزل الإسرائيلي المحكم لمجموعة محتلة لا يتجاوز تعدادها اثنين وعشرين ألفا.

‹ العديد مِن الأوساط السورية والعربية، وبضمنها نُخب مثقفة ورسمية، تتّهم أهالي الجولان المحتل بكسر قاعدة: ‹حيث يوجد احتلال توجد مقاومة›. ما هو ردّك؟

‹ إنّ تحرير الجولان مِن مسؤولية النظام السوري، وليس جماهير الجولان! وإذا كانت المقاومة تحتمل تفسيرات عديدة، فلا شك أنّ التجذّر بالأرض ورفض الجنسية الإسرائيلية والتمسك بالهويّة السورية والتمرّد على مضمون قانون ضم الجولان الذي أقرّته ‹الكنيست› الإسرائيلية عام 1981، شكل مِن أشكال النضال ضد الاحتلال. لكن حصار حماة وقصفها بالطيران والمدافع، عمل إجرامي أبعد ما يكون عن مفهوم النضال!

كلمة أخيرة بهذا المجال، لقد حمل أهالي الجولان الهمّ الوطني على أكتافهم، منذ اليوم الأول للاحتلال، ولا فضل لأحد عليهم.

‹ بماذا تصف تخلّي النظام السوري عن اداء أبسط واجباته تجاه أهالي الجولان، وبضمنهم ‹أسرى الحرية›، والذي تجلّى في استثنائهم مِن جميع صفقات التبادل التي تمت سابقا مع ‹حزب الله›، بصورة خاصة، وما هو تفسير ذلك؟

‹ عندما كنا نتحدّث سابقا، مِن داخل السجون الإسرائيلية، منتقدين فساد السلطة في الشام، ومطالبين بالحرية والديموقراطية، كان الأمر مستهجنا وغريبا في نظر العديدين! لكننا أدركنا عمق العلاقة بين قمع الحريات ومصادرة حقوق المواطن مِن جهة، وبين إهمال النظام واجباته إزاء جماهير الجولان وإسقاط هذه القضية الوطنية مِن قاموس المجتمع السوري مِن جهة أخرى.

إنّ إهمال النظام السوري ملفّ أسرى الجولان لم يفاجئنا أبدا! فلا يمكن أن نبني أحلامنا على نظام يستغل حريتنا المفقودة في السجون الإسرائيلية بالمحافل الدولية لرفع رصيده وسعره، بينما يصادر حرّيات أبناء شعبي، ويغيّب المواطن تحت حجّة الضرورات الوطنية!

‹ أنت أطلقت مواقف عديدة ضد النظام السوري منذ سنوات. ما الذي دفعك إلى ذلك؟ وكيف كانت ردّة فعل رفاقك، في المعتقل، ممّن يختلفون معك في توجّهك؟

‹ إنّ مفهومَي الحرية والكرامة، اللذين تبلورا داخل السجون الإسرائيلية، جعلاني أنظر إلى الحكم في سوريا بطريقة مغايرة لما كنت عليه خارج السجن. لكن، تحديدا، بعد استشهاد أحد رفاقي، هايل أبو زيد، أدركت عمق الصلة والارتباط بين فقداننا حريتنا داخل الأسر، وفقدان المواطن السوري حريته في الشام وحلب وحمص وحماة وكل المناطق السورية، ورأيت بوطني سجنا ليس أقلّ مِن سجني! هذا إضافة إلى قناعتي أن أكبر توازن إستراتيجي ممكن أن تحققه سوريا بوجه أعدائها، هو منح المواطن حريته وحقه في ممارسة الديموقراطية.

إنّ خطوة الإضراب عن الطعام التي خضتها احتجاجا على جرائم النظام السوري ومناصرة لمطالب الشعب في الحرية والكرامة الوطنية، كانت غريبة ومفاجِئة للأسرى! لكن معظمهم ساندوني معنويا، ومنهم مِن تضامن معي بشكل فعلي. أما مِن يختلف معي بالرأي حول الموقف مِن النظام هم قلّة، ولم ألحظ أي ردود فعل علنية.

‹ ومنه، انتقل إلى سؤالك: ما الذي يدفع معتقلا يُدعى ‹أسير حريّة›، إلى اكتساب ثقافة جلاده!؟ مِن جهة يطلب الحرّية لنفسه، ومِن الأخرى يستكثرها على نظرائه في الوطن، ممّن لا تقل قضيتهم عدالة ونزاهة عن قضيته؟

‹ اعتقد أنه ليس مِن السهل على أسير مناضل ظلّ يدعم النظام السوري علنا، بحجة مقاومته وممانعته، أن يعترف فجأة بخدعة انطلت عليه سنوات طويلة.

‹ بعد فترة قصيرة مِن انطلاق الثورة السورية، أعلنتَ مِن معتقلك إضرابا عن الطعام، تضامنا معها وإدانة لمجازر النظام. ماذا لديك لتحدّثنا عن ذلك؟

‹ عندما انطلقت الثورة السورية في 15 آذار، اجتاحتني مشاعر زلزلت كياني، وهذا بسبب قناعتي أنّ الحلم صار قاب قوسين أو أدنى مِن أن تصبح سوريا حرة ديموقراطية. فكان أقل ما يمكن فعله، أن استغل موقعي كأسير سوري في سجون الاحتلال لأعلن عن دعمي الكامل لمطالب شعبي المنتفض. فكتبت العديد مِن المقالات، لكني كنت بحاجة ماسّة أمام نفسي بأن اتجاوز كتابة المقالات وأقدم على ما هو صداه أقوى، فكانت فكرة الإضراب. لكن المفاجِئ كان، بردّة فعل إدارة السجن التي أنزلت بحقّي أقصى العقوبات بهدف ثنيي عن الخطوة!

‹ ما هي رؤيتك للدائر على الساحة السورية هذه الأثناء؟ وهل كنت تحلم أن تعيش لترى الشعب السوري يثور على ذلّه؟

‹ منذ بدأ وعيي السياسي بالتبلور، لم أفقد الأمل يوما بالشعوب. ومهما تجبّرت تلك الأنظمة القمعية، لا بد أن يأتي يوم وتثور ضدها فئات الشعب المسلوبة حريتها وكرامتها. إنّ سقوط النظام في سوريا تقرّر منذ نزلت المسيرات في درعا إلى الشوارع. وضمان مستقبل سوريا يكمن في دعم حراك الشارع فقط، وعلى أطراف المعارضة والجيش الحر الانضواء تحت قيادة موحدة.

‹ الشعب السوري يستغيث منذ فترة، طالبا النجدة والعون، وذلك مِن خلال رفعه لكثير من اللافتات وتسميته العديد مِن أيام الجمع التي توحي بذلك. ما هو موقفك مِن طلب الحماية الدولية الذي يتم تداوله؟

‹ إن استخدام طلب الحماية الدولية بشكل فوضوي قد يمس جوهر مطالب الثورة السورية. أنا أؤيد تقديم قادة النظام إلى محكمة الجنايات الدولية وإيقاف تجارة السلاح وتجميد عضوية ‹سوريا الأسد› في المؤسسات الدولية، لكن فسح المجال أمام دول أخرى للتدخل العسكري، يعني أن تلك الدول سوف تتدخل في بناء سوريا المستقبل، وهذا ما لن يقبل به أبناء شعبنا المنتفض. وأرى في الإضراب الذي أعلن مؤخرا تمهيدا للعصيان المدني وسيلة فعالة قد تقرّب أجل النظام. في جميع الأحوال، ليس هناك مِن عاقل يرغب بأي شكل مِن أشكال التدخل الدولي، لكن النظام بتعنّته وإفراطه في غطرسته ودمويته هو مَن يدفع الأمور إلى ذلك الحد، وهو يتحمل المسؤولية عن هذا، إن حصل. وأضيف، أنّ الشعب السوري الذي يدفع هذه الأثمان الباهظة هو الأجدر بتقدير حاجياته وطاقته على التحمّل.

‹ كيف تلخص لنا المشهد الجولاني، بصورة عامة؟ وما هو تقيّمك لموقف الأهالي من الحاصل على ساحتهم السورية منذ انطلاق الحراك الثوري؟

‹ الانقسام بالموقف مِن شكل العلاقة مع السلطة في الشام، هو تاريخي في عمر الحركة الوطنية الجولانية. لكن، ونظرا لأهمية الحدث، يتأثر المجتمع الجولاني كما في كل المناطق السورية، ويتجلى هذا بالانقسام الحاد والتوتر الدائم بين مؤيدي النظام ومعارضيه.

إنّ بعض جماهير الجولان، ورغم بعدهم عن ممارسات النظام وأجهزته الأمنية، إلا أنّ الخوف ينغرس في نفوسهم! كما

أنك ستجد أيضا أناسا يوالون النظام السوري مِن خلال إعلامه الرسمي، وعددا آخر تربطه مصالح وثيقة بمؤسسات الدولة، مثل بيع التفاح وقضايا أخرى. لكن مِن المهم القول، إن موقف الأهالي في الجولان غير ثابت ويتغير وفق تطورات الأحداث. فسلمية الحراك والحفاظ على المطالب تحت سقف دولة مدنية حديثة، يحكمها نظام ديموقراطي ونبذ التفرقة الطائفية والتأكيد الدائم على وحدة سوريا، أرضا وشعبا، يبدّد مِن مخاوف الناس ويعزز الموقف المناصر لمطالب الثورة.

‹ ما هو رأيك بمَن يبررون وقوفهم إلى جانب النظام بأنه يستقبل طلبة الجولان في جامعة دمشق ويسمح للأهالي بتسويق تفاحهم في الأسواق السورية؟ وماذا تقول لأولئك الذين يعرّفون الانتماء الوطني على أنه مثلث متساوي الأضلاع، عماده الأرض، الشعب، والقيادة، بحجّة أن وجودهم تحت الاحتلال الإسرائيلي يحتّم عليهم التعامل وفق هذه الرؤية، تجنبا لما يسمّونه بـ ‹شرخ الموقف الوطني›؟

‹ النظام السوري مقصِّر بحق الجولان، كقضية وجماهير، لهم متطلباتهم واحتياجاتهم الإنسانية، منذ اليوم الأول للاحتلال. ومسألة استقبال طلبة الجولان في جامعة دمشق وتسويق التفاح في الأسواق السورية تبقى دون الحد الأدنى مِن المستوى المطلوب، مقارنة مع حجم المسؤولية التي تقع على عاتق هذا النظام جرّاء خسارته للجولان! ثم أن جميع تلك التقديمات تأتي مِن جيوب دافع الضرائب السوري الذي يُقتَل ظلما على يد النظام، وليس مِن جيوب النظام نفسه!

أنا لست بصدد توجيه الرسائل لأحد، لكني أفهم الانتماء الوطني مِن خلال العلاقة النفسية والاجتماعية التي تربطني بتلك المساحة الجغرافية الغنيّة بتاريخها الحضاري وخصائص مجتمعاتها. وانطلاقا مِن فهمي للمواطَنة، أرفض مبدئيا فكرة موالاة المواطن للسلطة، فهذا ليس دور المواطن! بل على كل فرد مِن المجتمع أن يلعب دور الرقيب على ممارسات السلطة ومحاسبتها في صناديق الاقتراع.

‹ هل يقلقك ما يتم الحديث عنه أو الترويج له عن تنامي دور الإسلاميين أو السلفيين في المرحلة المقبلة؟

‹ إنّ تنامي مشاعر التطرف وظهور تنظيمات إسلامية مسلحة، تنهج الإرهاب الديني والعسكري، تتحمّل مسؤوليته الأنظمة الديكتاتورية والدخول الأميركي إلى أفغانستان والعراق. ومِن منطق الأمور، أن تظهر هذه المجموعات في سوريا لأسباب عديدة، أبرزها هو حاجة النظام السوري استخدام تلك المجموعات في العراق ولبنان، وكسب أوراق لعب ديبلوماسية جديدة، وأسباب أخرى لا مجال لسردها هنا. لكن مِن طبيعة العلاقات التي تربط بين شعوب المنطقة وحالة اليأس التي خيّمت على هذه الشعوب، بدأت التيارات الإسلامية تبحث عن بدائل في أجواء مشحونة بالكراهية للأنظمة التي تدّعي العلمانية والليبرالية. لكن أنا شخصيا، لم أصف الحراك الشعبي في سوريا بالثورة إلا بعد أن اقتنعت أن هذه الثورة ستشمل الانقلاب على التطرف الديني وتنسف مفاهيمه العدائية لقيم الإنسان. لذلك، أدعم مبدأ فصل الدين عن الدولة، وذلك ليس موقفا عدائيا مِن الدين، بل مع الذين ينصّبون أنفسهم آلهة على البشر! ومنعا مِن استغلال الدين لمكاسب سياسية.

‹ ما هي المشاعر التي تنتابك عندما تشاهد إعلام النظام وكيفية تعاطيه مع الثورة؟

‹ الإعلام الرسمي، وتحديدا الفضائية السورية، يمتهن الحماقة، وربّما ليست حماقة؛ قد يكون سبب ضعفهم حالة الارتباك التي يعيشونها نتيجة السيطرة المطلقة لأجهزة الأمن. أقول حماقة، لأنهم وبكذبهم، كثيرا ما ساهموا بدعم الثورة. وباختصار، هو يتصرّف مع الشعب السوري كإعلام عدوّ!

‹ بماذا تردّ على النظام السوري الذي وجّه إعلامه لتجاهلك، وعلى محاولاته، عبر أتباعه في الجولان المحتل، التشويش عليك، لا سيّما يوم تحريرك، والذي تجلّى برفعهم صور بشار الأسد وهتافاتهم الموالية للنظام، والمندّدة بالثورة وبعض رموز المعارضة وتخوينهم؟

‹ الطريقة التي يتّبعها الإعلام السوري في التعامل مع أهالي الجولان المحتل، تزرع بينهم الفتنة وتفرّقهم؛ بالوقت الذي أكثر ما نحتاج إليه هو وحدة صفّنا الوطني، مِن أجل الحفاظ على الهويّة الوطنية.

نعم، إن الإعلام الرسمي تجاهلني، وعندما وصفته بالإعلام الأحمق استندت إلى تجربتي الخاصة. فبتجاهله المتعمّد لإطلاق سراحي، كان يعتقد أنه قد يحجب صوتا معارضا؛ لكنه بهذا السلوك، حرّض الإعلام العربي على الاهتمام بحدَث إطلاق سراحي، وإشهار مواقفي المعارضة له والمناصِرة لمطالب الثورة، لذلك، لا أملك إلا أن اتقدّم منهم بجزيل الشكر!

‹ المرأة السورية، لم تتوقّف عند دورها الفذّ، المتمثل في كونها منبَتا للشهداء وولادة لطالبي الحرية، بل أثبتت حضورها الفاعل على الأرض، حيث غدت المتظاهِرة، الشهيدة، المعتقلة، المهجّرة، الثائرة، المحرِّضة والكاتبة. وقد لمع نجم العديد مِن نساء الوطن، أذكر منهن، على سبيل المثال لا الحصر: رزان زيتونة، سهير الأتاسي، سمر يزبك، مي سكاف، منتهى الأطرش، فدوى سليمان وغيرهن كثيرات. كيف تنظر إلى دور المرأة السورية الثائرة؟ ما تقييمك له؟ وما الذي تتمناه لها؟

‹ اعتقد أن الثورة ستطال العادات والتقاليد التي اضطهدت المرأة على مدار عقود طويلة. وكما نراها اليوم في طليعة الحراك الشعبي المطالب بالحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، اتمنى أن أضع صوتي في صندوق الانتخابات لصالح امرأة ترشّح نفسها لرئاسة جمهوريتنا العتيدة.

‹ ماذا تودّ أن تقول للشعب السوري الثائر الذي أهداك أجمل ما عنده في أحلك أيامه، مِن تسمية أحد الأيام بـ‹اثنين الوفاء لوئام عماشة›، أو عبر لافتاته التي رفعها في العديد مِن التظاهرات في غير منطقة سورية، وكل ما كُتِب على صفحات الثوار والناشطين على ‹الفايسبوك› و‹تويتر›، والجرائد والمواقع الإلكترونية؟

‹ أقول، بعد تحية إجلال وإكبار، إنّ أول وسام شرف وضعتموه على صدورنا كان في 15 آذار، عندما دكّيتم أسوار الطاغوت. أقول لأبناء شعبي، الذين تركوا السفوح ماضين إلى القمم ليسكنوا البرق والرعد، إن ثورتكم هي ثورة كل إنسان حرّ، وإن حرّيتكم مِن حريّتنا، وبإسقاط نظام الظلم والفساد تكونوا خطيتم خطوتكم الأولى على طريق تحرير الجولان. لا أملك ما أقوله لرفع معنوياتكم، بل نحن نشحذ المعنويات منكم. وبالرغم مِن الدماء التي تدفعونها على مذبح الحرية، فإن نار كرامتكم تزداد لهيبا.

كاتب من سورية

ياسين الحاج صالح ومرارة الإعتقال في سوريا:

الكاتب هو الدور الذي اجتذبني منذ وقت مبكر في السجن

في حوار مع الصحفي محمد الحجيري لجريدة الجريدة الكويتية يروي الكاتب السوري ياسين الحاج صالح، الذي أمضى نحو عقد ونصف العقد في السجن البعثي السوري لأسباب سياسيَّة، تجربته خلف القضبان عن المنامات والزمن والمرأة والحياة والآخرين.

كيف تصف الزمن خلف القضبان وعلى أي ساعة يمشي، خصوصاً أنك كنت تمضي وقتك من دون محاكمة أي أنك كنت معلقاً في الأوهام والساعات ولا تعرف مصيرك؟

بلى. مضت أشهر، ربما عام، قبل أن أدخل في زمن السجن. كنت أقول إن شيئاً حدث منذ شهرين أو العام الماضي بينما هو حدث منذ أكثر من عام، أو منذ عامين. كأن زمن السجن غير محسوب. الزمن المعاش في السجن يمرّ بطيئاً، بينما يبدو الزمن المتُذكر سريعاً. تحسّ أن خمس سنوات أو عشر انقضت بسرعة. بعد أن تنقضي. أما أثناء انقضائها فهي طويلة وثقيلة الخطى. وإحدى خصائص تجربة السجن المتصلة بالزمن أن السجين قد يُستحبس، أي يعيش في السجن كأنه في بيته. فيغدو الزمن حليفه بصورة ما بعد أن كان زمن السجن عدوه الألد. أو تغدو العلاقة بينهما مركبة. تريد أن تخرج الآن قبل الغد، لكنك تحلّ مشكلاتك بصورة مرضيَّة، وتستفيد من وقتك في السجن جيداً، فأنت حرّ فيه بصورة ما. حريتك تؤلف قلب الزمن، لكنك سجين، والزمن لا يكفّ عن قضم عمرك. استحبست في النصف الثاني من الثمانينات، ثم بلغت أعلى مراحل الاستحباس بعد عام 1991 (كانت والدتي توفيت، وأفرج عن أخين لي كانا في السجن). وحين اقتربت سنواتي الخمس عشرة في السجن من انتهائها تملكني قلق الحرية، والقرارات الصعبة التي تنتظرني. لكن حصل الأسوأ، وهو النقل إلى سجن تدمر حيث الاستحباس ممتنع.

هل كنت تشعر بطلوع الفجر أو غروب الشمس؟

نعم. دوماً.

ماذا يعني أن تمضي الجزء الأهم والأجمل من حياتك في السجن، وبماذا تحاول التعويض عن ذلك؟

يعني «أكل هوا». شيء لا يمكن إضفاء قيمة نسبيَّة عليه. خسارة مطلقة. لا تتوافر قطع غيار لعشرينات العمر وست سنوات من ثلاثيناتها. لذلك التعويض غير ممكن. لكني أظن أن عملي الكثيف في السنوات الماضية، بين 2004 وبداية الانتفاضة، هو محاولة للتعويض مخفقة حتماً. فثمة فجوة محفورة في «اللحم» لا تقبل الامتلاء. وفجوة في الخيال، لا تمتلئ بأي شيء حقيقي، ولا بنساء العالم كلهن.

هل حاول النظام استمالتك في السجن؟

ليست الاستمالة هي الكلمة المناسبة. تعرضت لعدد من عروض الإذعان، تساومني على حريتي مقابل كرامتي، والإفراج عني مقابل التعاون مع المخابرات.

هل واجهت الموت في السجن؟

لا. أقرب شيء إلى الموت كان حريقاً شبَّ في سجن المسلمية في حلب في صيف 1983، واشتعلت بفعله عشرات مفارش الإسفنج، ونشرت دخاناً كثيفاً جداً، كاد يخنقنا. لكن نجونا جميعا في المحصلة.

ما هي أكثر اللحظات مرارة في ذاكرتك؟

عدم الإفراج عني بعد أن أنهيت 15 عاماً هي الحكم الذي قضت به علي محكمة أمن الدولة، ثم النقل إلى تدمر لمدة عام

تقريباً.

في السجن عادة ما «يتسلى» السجين بصناعة المسابح والتحف والصغيرة وما شابه، أنت في أي اتجاه كنت توظف هذه الأشغال؟ هل كنت تحاول التفنن، أم عبَّرت من خلالها عن مكنوناتك، أم أن اليأس كان المسيطر؟

كنت حالة ميؤوساً منها في هذه المجالات، للأسف. لم أصنع مسابح زيتون، ولا مسابح خرز، ولا تحفاً من أي نوع. حصل أن ساعدت بعض رفاقي في المرحلة الأكثر بدائية وتطلباً للمهارة في صناعة جزادين الخرز. هذا كل شيء. كان وقتي موزعاً على القراءة حين أتيحت الكتب، وبين مشاهدة التلفزيون حين توافر بعد عام 1986، وبين لعب الورق والنوم.

المرأة والمرآة

هل كانت تحضر المرأة في ذهنك وأنت خلف القضبان؟

تحضر فقط؟ قل تجتاح وتحتل وتستوطن. الحرية كانت تعني للسجين الذي هو أنا، وأظن لجميع السجناء الذكور، شيئان: المرأة والحب، وشيئاً خاصاً بكل واحد منا يتعلق بالدراسة أو العمل أو الإنجاز في مجاله. وربما المرأة أكثر إلى درجة أنها تتماهى مع الحرية. ففي النهاية نحن نحب أن ننجز للفوز بالنساء. وكان محور أحلام يقظتي هو المرأة، المثلى طبعاً، الجامعة تمام صفات النساء وأدوارهن كافة. الأجمل والأرق والأذكى، والأشد فتنة... الأم والصديقة والعشيقة.

هل تعرفت الى سجينات في حياتك؟

نعم، طبعاً. زوجتي سجينة سابقة لأربع سنوات، بين 1987 و1991. لكني لم أكن أعرفها قبل السجن. أعرف عدداً من سجينات سابقات قضين في السجن وقتاً وسطياً أقل مما قضى الرجال، ولم يرين الأسوأ من ظروف السجن على العموم، لكن حياتهن بعد السجن أقسى.

هل كنت مرتبط عاطفياً قبل دخولك السجن؟

كنت أخرج من أزمة عاطفية حادة. كانت فتاتي تركتني، وعانيت من آلام الهجر العاطفي إلى درجة ربما تفوق معاناة من هم في عمري حينها.

بعد الخروج الى الحرية، هل وجدت أن السجن انعكس على علاقتك بالجنس اللطيف؟

جعلها أشد عسراً. كنت بشوق لا يحد لنساء، وجهل لا يحد بالنساء. وكنت مثل جميع السجناء السياسيين المزمنين أتوقع مكافأة على شكل نساء يحببنني كثيراً من دون أن يقيدنني. كنت شخصاً منضبطا عموماً، فلم أنسق وراء هذا الميل، وبقيت مع المرأة نفسها لمدة عامين ونصف العام. لكن هذه العلاقة فشلت بفعل ضعف أهليتي النفسية والمادية، وحاجة المرأة الخالدة إلى «الأمان».

تحسن الأمر في ما بعد، وتزوجت، ولا أظنني زوجاً شديد السوء. لكن أظن أن فكرة زوجتي عني أفضل من فكرتي عن نفسي كزوج.

ما المنامات التي كنت تراها في السجن؟

متنوعة. منها منام العري الذي لا أزال أراه بين حين وآخر. أجد نفسي شبه عار في مكان عام. ومنها منام الامتحان. رأيت مرات أن امتحان البكالوريا وشيك وأني لم أحضّر له (كنت نجحت بتفوق في هذا الامتحان). ومنها أحلام عظيمة. أني في قارب ضخم لا حدود له، أظنه المحيط الهادي. لا أعرف كيف تكون البحور الضخمة، لكني أشعر أن هذه هي الكلمة المناسبة. الماء الذي يوحي بالعمق والوفرة الهائلة وزرقته غامقة، والمتحرك، كان هذا شعوري، وليس الخوف. وأحد أحلامي المعاودة الصعود والنزول الشاق، على قلق، لجبال ومنحدرات. ورأيت مرة حلماً يجمع بين فتاة نحيلة قلقة تلبس فستاناً أزرق، وعفريت صغير يتحرك في كل مكان، ثم يجعل من نفسه مروحة ويدور بسرعة كبيرة حول واحد من

عدة أعمدة تسند البهو الذي كنا فيه، ورجل شاب أنيق يوحي شكله بالوقار آنذاك وبتأثير قراءات في التحليل النفسي، قدرت أن ثلاثتهم أنا، منظماتي النفسية الثلاث: الأنا والهو والأنا الأعلى. ورأيت في إحدى الليالي فتاة بفم واسع وشفتين مبرومتين، وثديين صلبين متوسطي الحجم، واسمها فيرا. وهذا اسم تجده في الأدب الروسي، وكنت ألفظه بالياء الممدودة الساكنة، في المنام فحسب لفظته لفظاً صحيحاً للمرة الأولى.

أدب السجون

هل كتبت في السجن وهل كنت تملك أدوات الكتابة؟

كتبت بعد عام 1988 حين توافرت لدينا أقلام، علماً أننا حصلنا على بعضها سراً قبل ذلك. وكتبت أموراً لا أهمية لها. بعد ذلك كتبت أموراً لا أهمية لها أيضاً. لم أكن «فلتة» في الكتابة. تطورت تدريجاً وبجهد، وأظنني صرت كاتباً يتحسن في مطلع التسعينات. وكانت مواضيع كتابتي القضايا الفكرية والسياسية التي أكتب فيها اليوم. كتبت عن السجن وحياتنا ضمنه، لكني لم أحب ما كتبته، وتوقفت عنه بعد كتابة بضع صفحات.

هل كتبت على الجدران؟

في الأيام الأولى للاعتقال، كتبت عبارات متحدية جاهزة على جدران غرفة التوقيف.

بعد خروجك من السجن، هل عدت إلى أدب السجون والمعتقلات؟

ليس بصورة نظامية للأسف. كنت قرأت «شرق المتوسط مرة أخرى» لعبد الرحمن منيف عام 1993 أو 1994 ولم أحبها أبداً. كانت أكثر بطولية وإيديولوجية مما يتحمله سجين كان قضى أكثر من 10 سنوات في السجن. كان تركيزها على التعذيب مزعجاً لي لأن مركز الثقل في تجربة السجن ليس التعذيب، الذي يدوم أياماً أو أسابيع في أقصى الحالات، بل الحياة في السجن. وقرأت «شرق المتوسط» لمنيف بعيد وفاته، ولم أطقها أبداً. وربما هذا ما أثار نفوري من «أدب السجون». كتب زملاء سوريون أموراً عن السجن، أقر أني لم أحب طابعها الحزين. الأشياء التي أحبها من سير السجن هي التجارب الشخصية، واللغة المتقشفة في تناولها. لكني أحببت رواية «القوقعة» لمصطفى خليفة. فهي شهادة خارقة عن سجن تدمر، وأفضل ما كتب عن السجون السورية.

هل لجأت إلى الكتاب كتعويض عن أيام السجن؟

ربما. الكاتب هو الدور الذي اجتذبني منذ وقت مبكر في السجن. كنت أشعر بالانتماء إلى عالم فيه أمثال عبد الله العروي وبرهان غليون وهشام جعيط وسمير أمين وغيرهم، أكثر بكثير من عالم السياسيين والمناضلين.

أول كتاب قرأته قبل دخولك السجن، وآخر كتاب قرأته بعد خروجك؟

أول كتاب هو إما «السأم» لألبرتو مورافيا أو «الأم» لمكسيم غوركي. قرأتهما في صيف 1971، وكنت آنذاك ناجحاً إلى الصف السابع، وأذكر من الأول اسمي دينو وسيسيليا، ولا أذكر من الثاني إلا صعوبة قراءة الأسماء الروسية. راهناً، أقرأ كتاب «مغامرات المغايرة» لأحمد بيضون. وهو مثقف لبناني عظيم، فكراً وأسلوباً وشخصاً. أقول هذا وأنا لم ألتق به شخصياً.

قال صنع الله ابراهيم: السجن صنع مني روائياً، أنت هل صنع منك السجن مفكرًا؟

لست مفكراً. المفكر أنتج شيئاً على مستوى المنهج، وهذا ما لم أفعله. لكن السجن صنع مني كاتباً بالتأكيد. ربما يكون رفع من تقديري لنفسي، فلم يعد يمكن الحفاظ على مستوى التقدير هذا إلا بالتفرغ للكتابة، وهو قرار ما كنت لأجسر على اتخاذه لولا 16 عاماً في السجن. لو لم أسجن، لكنت كتبت أشياء على أرجح تقدير، لكن ربما ما كانت الكتابة لتصير مهنتي.

هل ثمة فعلاً ما يمكن تسميته بمثقفي السجن وأدب السجون؟

كتبت قبل سنوات مقالة عنوانها «عن مثقفي السجن، بالأحرى، لا عن سجن المثقفين»، في ملف حرره الصديق عباس بيضون في السفير الثقافي. مثقفو السجن هم أشخاص تكونوا كمثقفين في السجن، وربما ما كانوا ليصيروا مثقفين لولاه. في سورية، ينطبق ذلك على كثر، من كتاب ومترجمين، منهم بكر صدقي وموفق نيربية وراتب شعبو وحسيبة عبد الرحمن وعماد شيحا وغيرهم... وأنا منهم أيضاً. وليس منهم ميشيل كيلو، مثلاً، الذي كان مثقفاً معروفاً قبل أن يسجن.

والسجن ليس إلا موضوعاً واحداً من مواضيع اهتمام هؤلاء المثقفين. الواقع، أن بعضهم لم يكتب شيئاً البتة عن السجن. وليس بينهم من خصص عمله للسجن أو تفرغ لأدب السجون.

أفترض أن أدب السجون هو الأدب، القصة والرواية خصوصاً، التي تكتب عن السجن، سواء جرب الكتاب السجن بأنفسهم أم لا.

الحرية

جُردت من حقوقك المدنية إلا تعتبر ذلك نوعاً من سجن آخر؟

من المألوف أن يقول معتقلون سوريون أُفرج عنهم إنهم خرجوا من السجن الصغير إلى السجن الكبير. وهو تعبير كان يزعجني دوماً، لأنه، إذ يقلص الفارق بين السجن وخارجه، يظهر غير قليل من قلة الحساسية حيال الحياة في السجن، وهي مريعة دوماً لأغراض وظيفية صغيرة. لذلك أيضاً لا أقبل التقريب الشديد للحرمان من الحقوق المدنية من السجن. هذه إهانة للسجن. والحقيقة، أني لم أشعر بفقداني شيئاً من «الحقوق المدنية» المزعومة. فلا أريد أن أنتخب ولا أن أترشح لمنصب، ولا أن أنال راتباً من الدولة، ولا عقود لي معها، ولا أكاد أملك شيئاً. أما الحق في السفر، فيبدو مستقلاً عن الحقوق المدنية. لقد سافر أناس لا حقوق مدنية لهم، وحُظِر سفر أناس ليسوا محرومين أو انتهى حرمانهم من حقوقهم المدنية. كل شيء اعتباطي في سورية. ووحدهم الأغنياء والمدعومون هم من لهم حقوق ثابتة في سورية الأسدية.

هل فكرت بالرحيل بطريقة ما الى أوروبا أو أي بلد آخر؟

أبداً. منذ تفرغت للكتابة في أواخر عام 2000 (قبلها كنت قد عدت إلى الجامعة)، تبدى لي بوضوح أن تناولي النقدي للشؤون السورية، بينما أنا في البلد قيمة بحد ذاتها. ليست مسألة مكان، ولا عقيدة وطنية، بل شرط للإنتاجية والدور المرغوب. صحيح أنه اقترن بعدم أمان دائم ومؤلم، لكني كنت على وعي بأني لن أستطيع، وأنا في أربعينات عمري، أن أعيش في الغرب.

هل ما زلت تخاف الدخول إلى السجن؟

نعم. انقضى وقت كنت أشعر فيه بالحنين إلى السجن. كان هذا احتفالاً مقنعاً بخروجي منه سالماً، وربما استعادة لتجربة تغيير مهمة في حياتي. لكن في أشهر الانتفاضة، ومع توالي أخبار التعذيب، وأوضاع المعتقلين، شفيت من الحنين، وأبذل اليوم جهداً غير قليل كي لا أعتقل. لكن ليس إلى حد ألا آخذ راحتي في الكتابة عن الشأن السوري.

هل تغيرت القضية التي دخلت السجن لأجلها في بداية الثمانينات من القرن الماضي عن اليوم؟

تغيرت طبعاً. وتغيرتُ أنا أيضاً. منذ أيام السجن تبدى لي أنه إذا شئنا الحفاظ على أهدافنا التحررية، فلا بد من تغيير مناهجنا. تخليت عن الشيوعية في وقت ما من ثمانينات القرن العشرين، لأجل الثبات على أهداف الحرية والمساواة التي أفترض أنها النواة القيمية لكفاحنا. بقيت يسارياً، ولست مستعداً للتخلي عمّا في اليسار من انحيازات نقدية ضد أصحاب الثروة والسلطة، ومن موقف اعتراضي. لكني صرت على نفور عميق من كل مذهبية مغلقة ومن كل منزع يقيني ودوغمائي، ومن انتهازية أصحاب العقائد ولا أخلاقيتهم العميقة. أعتقد أن مشكلة الشيوعية هي التعارض بين انحيازاتها الإنسانية المفتوحة ونظامها العقدي المغلق، وقد ذهب المفتوح ضحية المغلق.

عن جريدة الجريدة الكويتية

المثقفون والثورة

- أنور بدر
- حازم العظمة
- سامر أبو هواش
- طيب تيزيني
- فواز حداد
- معن البياري
- مي سليم
- هالا محمد

بين رمادية سعدي يوسف وشجرة الحياة عند الياس خوري

أنور بدر

حين أحرق البوعزيزي نفسه في تونس اندلعت شرارة الربيع العربي التي كان وقودها الشباب المهمشين في مجتمعاتهم، وشكلت الثورة الرقمية ومواقع التواصل الاجتماعي أدوات التواصل بين تجمعات الشباب الثائرة وزملائهم في العالم أجمع وفي المنطقة العربية بشكل خاص، كبديل للحامل الطبقي أو الأيديولوجي وتعبيراته الحزبية، وجاء التحرك مطلبيا تحت شعار إسقاط النظام كبديل عن الشعارات الأيديولوجية، بهذا المعنى تميز الربيع العربي وتفرد بالنسبة لكل المعايير الثقافية التي درسناها سابقا عن الثورات، إذ عبر هذا الربيع عن مجموع الحالة المجتمعية ولم يكن تعبيرا عن طبقة أو شريحة اجتماعية فقط، كما أنه استغنى عن القيادة السياسية حيث سعت الأحزاب للحاق به أو معاداته حين عجزت عن قيادته.

هذه الخصوصية التي وسمت ثورة الياسمين في تونس والمنطقة العربية استعصت على فهم وتنظيرات مثقفي العربية، فحين عجز سرير بروكست الأيديولوجي عن استيعابها، لم يكتفوا بقص استطالات القدمين، بل طالبوا بوأد هذه الحالة التي لم تستجب لمعاييرهم. وقد سقط في هذا المستنقع أسماء كبيرة كالناقد كمال أبو ديب والشعراء أدونيس ونزيه أبو عفش...ولكن سقوط شاعر آخر من طراز سعدي يوسف ترك دويا أكبر، ربما لأنه «الشيوعي الأخير» كما وصف نفسه، وربما لأن موقفه يشكل خيانة لسريره الأيديولوجي، أو أن ذلك السرير الذي نام وعاش فيه عقودا يشكل خيانة بالأساس لماركس والماركسية التي تقول بأن «شجرة الحياة خضراء دائما». فهذا الشاعر الذي كتب بنبل المثقف العضوي قصيدته الشهيرة «تحت جدارية فائق حسن» لن يتردد في قصيدته الأخيرة التي نشرها في «القدس العربي» بتاريخ 6 . 5 . 2011 أن يتساءل أمام قرائه «أي ربيع عربي هذا؟».

وليست الإشكالية في السؤال الذي يضمر المعرفة بل الإشكالية في السؤال الذي يضمر الاستنكار، واستنكار شاعرنا الكبير يقوم في حقل السياسة لا في حقل المعرفة، فهو لا يتردد في الجواب «أي ربيع عربي هذا؟ نعرف تماماً أن أمراً صدر من دائرة امريكية معينة، جواب يحيل الربيع العربي بكامله إلى مجرد لعبة امريكية، لعبة يولدها وعي خرافي ينوء تحت وطأة وثقل الإحساس بالمؤامرة، هي ليست معلومة بل وهم تشكل في ظلّ الخوف القهري»،وهي ليست اجتهاد الشاعر بل احد مخلفات نظريات التحكم عن بعد و«السبرنيتيك» التي سُحبت قسرا من عالم الفيزياء باتجاه العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع والسياسة وغيرهما، وكان بعض منظري اليسار الديالكتيكي أسرع باتجاه تبنيه، إذ ليس مغالاة أن نقول الآن بأن تاريخ الأحزاب الشيوعية في العالم هو بجزء مهم منه تاريخ مؤامرات، لكننا الآن نرتقي بهذه المؤامرة إلى مصاف كوني، فكل ما يحدث في العالم هو «أمر صدر من دائرة امريكية معينة»، إنه العقل اليساري الموهوم أو الفأري الذي يتغذى على أفلام الخيال العلمي والجاسوسية الامريكية، ليفسر العالم على أساسها، دون الحاجة إلى البرهان على صحة تلك

الاستنتاجات، فالمؤامرة وعالم الجاسوسية و«الأمر الذي صدر» كله يقبع في خانة سرية لا يمكن الوصول إليها، مع ذلك نحن بحاجة ماسة للإيمان بها كي نبرر عجزنا وخيبتنا أمام التاريخ والآخر، وربما أمام ذواتنا أيضا.

المثقف اليساري الذي كان يحلم بإعادة صنع التاريخ فاجأه التاريخ متلبسا بالوهم والمقولات الرمادية، فنكص باتجاه إعادة تفسير العالم على ضوء تلك المؤامرة الامريكية وما تصدره من أوامر لتخريب العالم ومنظوماته المستقرة، متجاهلا أنه بذلك يتخلى عن نظرية تغيير العالم ليصبح مدافعا عن استقراره، رافضا الاعتراف بما أدى إليه ذلك الاستقرار من استنقاع سياسي وأيديولوجي ربما يكون وراء خراب البصرة،والكرملين أيضا.

وهي أيضا المؤامرة ذاتها التي يتحدث عنها الإعلام السوري محاولا تصوير كل ما يبث عبر الفضائيات العربية والدولية بأنه مجرد فبركات وألاعيب أنتجت في استوديوهات الجزيرة القطرية، للتعمية على العصابات السلفية التي تقتل في طول البلاد وعرضها، وتروع السكان الآمنين وتهز عرش استقرار أكبر دولة أمنية في المنطقة. لكن أن يلجأ الإعلام إلى تلك البروباغندا شيء وأن يذهب شاعر بقامة سعدي يوسف في هذه اللعبة شيء آخر، فها هو شاعرنا الذي كتب عن «حثالة البروليتاريا» من العمال المنتظرين «تحت جدارية فائق حسن» يرتد على تاريخه الجميل ليقول لنا هازئا بهذه البروليتاريا: «الفيسبوك يقود الثورة في بلدان لا يملك الناس فيها أن يشتروا خبزهم اليومي!/ هذا المدقع حتى التلاشي، الأمي، التقي.../ هذا الذي لا يستطيع أن يذوق وجبة ساخنة في اليوم/ هذا الذي يعيش على الأعشاب والشاي وخبز الحكومة المغشوش/ هل يعرف الانترنيت؟/ ومن هؤلاء القادة الفتيان؟/ عيبٌ والله»!

إنه سعدي يوسف الذي انتمى في شعره إلى قضايا الشعوب والناس البسطاء في عراقه الجميل وفي كل العالم، تذهله المصيبة التي حلت بالعراق، لم يكبر بها كالسياب في مطره، بل غرق في الوحل الذي أنتجه الاحتلال الأميركي للعراق، وفي هذا الوحل فقد الشاعر بوصلته الذكية، وحسه النقدي، فلا شيء غير المؤامرة التي أنتجت الخراب، حتى أنه لم يجد في الجواب على مصير الثقافة العراقية بعيد الاحتلال إلا القمع والرقابة التي يمارسها ذلك الاحتلال لتدمير كل معطى إبداعي، مؤكدا أن الثقافة العراقية بذلك تعاني أكبر نكسة في تاريخ العراق لم تعرف مثيلا لها منذ هولاكو! مع أن سؤالي له في تلك المقابلة التي نشرتها «القدس العربي» بعيد الاحتلال، كان يتقصى عن مصير الثقافة العراقية التي توزعت قبلا ما بين مثقفي الداخل وهم قلة وبين مثقفي الخارج الذين توزعوا في كل المنافي، وأعتقد أن أي متابع أمي لنشرات الأخبار يدرك حينها أن الاحتلال الأميركي للعراق ورغم كل سيئاته التي لا تغتفر، أخرج البلد من أحادية الإعلام الرسمي وهيمنة الثقافة الحزبية الأحادية أيضا، وكأني بشاعرنا يؤكد أن عين المحب عن كل عيب كليلة، لكن بعد عكس الاتجاه.

رُهاب الحالة العراقية امتد مع الشاعر سعدي يوسف إلى الربيع العربي، وبشكل خاص في قلعة الصمود والتصدي، هو الذي خبر الحالة الفلسطينية واللبنانية وتداخلاتها مع الحالة السورية، وأشك أنه لم يقرأ لصديقه الراحل محمود درويش قصيدته «تل الزعتر» لدرجة انه لم ير في الحراك السوري إلا الرواية الرسمية عن عصابات سلفية، هذه الرؤيا التي دفعته للسؤال «أي ربيع عربي هذا؟» تدفعه مجددا إلى سرير بروكست الذي اغتال ماركسيته، فها هو يعيد إنتاج ذات الموقف الرمادي للنظرية متجاهلا قوة الحياة التي تحدث بها المعلم الأول، بل نراه يسعى على طريقة الأشاعرة المسلمين إذ يحتكر تفسير المعلم الأول وتعاليمه، فيكتب في «القدس العربي» بتاريخ 05-03-2012 تحت عنوان: «يا صديقي إلياس خوري: دعْ ماركس وشأنه»، معترضا على صديقه إلياس خوري، وكلمته التي ألقاها في الاونيسكو لمناسبة منحه جائزة الثقافة، فهو أولا يبخس

تلك الجائزة قيمتها المعنوية حين يقول ‹ربّما قُدِّمتْ بمساعٍ من صديقنا وصديق إلياس، السيد إلياس صنبر مندوب فلسطين الداخلة حديثاً إلى المنظمة الدولية التي تتخذ باريس مقرّاً لها›، بل أعتقد أنه يبخس المنظمة الدولية شأنها بالطريقة التي يفسر فيها آلية منح الجائزة اعتمادا على تقدير بقوله ‹ربما، التي تفتقد اليقين أو المعلومة، إذا لم يذهب الظن بنا إلى كونه يقلل من شأن قبول فلسطين مؤخرا كعضو في الاونيسكو رغم الاعتراض الأميركي - الإسرائيلي الذي وصل حد قطع المساعدات التي تقدمها واشنطن لتلك المنظمة الدولية›. وأعترف أنني لم أجد تفسيرا لتجاهل شاعرنا الكبير ذلك الدور الأمريكي في هذا المقام.

لكن الأهم باعتقادي أن سعدي يوسف يبخس كلمة صديقه حقها أساساً حين يقول: ‹ليس في الكلمة ‹التي يبدو لي أنها مرتجلة›، ما يثير الاهتمام›، ونؤكد على صيغة ‹يبدو لي، التي تفتقد اليقين أو المعلومة أيضاً، لكن الملفت للانتباه أن هذه الكلمة التي ‹ليس فيها ما يثير الاهتمام›، قد أثارت اهتمام شاعرنا الكبير لدرجة دفعته تجشم عناء الرد عليها، كما أثارت استغرابه بنقطة وحيدة هي ‹إقحام ماركس في مستنقع حمص، فكانت بذلك محور الرد، ذلك أن إلياس خوري ذهب في كلمته المعنونة ‹الثقافة ابنة الحرية، إلى ربط الثقافة بالواقع الذي هجره سعدي في هجرته صوب الشمال، ليؤكد في كلمته المنشورة في ‹القدس العربي، بتاريخ 02-03-2012 ‹وأنا لا اطمح أن أكون أكثر من مجرد كلمة تضيف إلى قاموس ثقافتنا فكرة أن يصنع المثقف مرايا جديدة، تسمح للواقع بأن يرى صورته في أفق التغيير›، رابطا هذا التغيير بحدث أول يتعلق بفلسطين، قائلا: ‹لا أجد ما هو أكثر دلالة من أن يتزامن تكريمكم لي مع دخول فلسطين إلى منظمة الاونيسكو كعضو كامل. فنحن نعلم أن علامات الحرية ترتسم أولا في الثقافة، وحرية فلسطين هي جزء من احتمالات الحرية التي تحولت صوتا يهزّ اليوم العالم العربي›. ويتابع إلياس خوري ربط التغيير بنضالات المثقفين العرب من أجل الحرية بقوله: ‹لقد ناضل جيلي طويلا من أجل قيم الحرية والعدالة، وكانت الكلمة التي تواجه السيف هي سلاحنا في مواجهة السلاح. سقط الكثير من الأصدقاء مضرجين بدمائهم، وذهب آخرون إلى المنافي، وعرف البعض ليالي السجن الطويلة. لكننا كنا على وعد الحرية الذي ارتوى بدماء سمير قصير ورفاقه، وانتظرنا هذا الوعد الذي بدأت ملامحه تتجلى في صرخة الحرية التي انطلقت من سيدي ابوزيد ، ووصلت إلى حمص، حيث يقتحم الناس السماء، ويغسلون بدمائهم مياه العاصي، ويعلنون أنهم ينتصرون على الموت بموتهم الذي يصنع حريتنا›، مستعيرا من ماركس صورة اقتحام السماء التي نعت بها رجال كومونة باريس.

هنا مكمن إثارة ‹الشيوعي الأخير›، الذي وجد في تلك الاستعارة تعديا على ممتلكاته النظرية، أو بالأحرى سرقة تلك الصورة من قاموسه الماركسي الذي شكل غطاءً لسرير بروكست وتفسيرات اليساريين من الأشاعرة العرب، فأين كومونة باريس من صمود الناس في بابا عمر، وأين عمال باريس من رجالات حمص، هذه الاستعارات مرفوضة لأنها تضر بالأصل الذي يدعي ملكيته آخر الشيوعيين في تعبير يضمر انقراض السلالة، وقد فعلها إلياس خوري حين اعتبر الثقافة ابنة الحرية، وحين رسم من الدماء التي سالت في بابا عمر مشهدا للشعوب العربية وهي تمزق أغلالها وتستعيد حريتها، وقد قال: ‹الثقافة هي ابنة الحرية ووردتها، لذا لا أجد أمامي في هذا المحفل الثقافي الكبير سوى أن ادعوكم للتضامن مع الدم الذي يراق اليوم في بابا عمرو، وان انحني للمشهد الذي يرتسم امام عيني، مشهد الشعوب العربية وهي تمزق أغلالها، وتستعيد حريتها وتصنع من نسيج ثوراتها أفقاً ثقافياً جديداً›.

هنا يتقدم الحارس في الهيكل ليعيد ترتيب الأمور، ووضع النقاط على الحروف، فيصرخ ‹الشيوعي الأخير› في وجهنا:

‹أحقٌّ أن المرتزقة الفرنسيين الذين أرسلهم ساركوزي إلى حمص، يتصدّون للسماء؟

هؤلاء، يا إلياس، ليسوا أحفاداً لأبناء الكومونة الذين قال عنهم ماركس إنهم يتصدّون للسماء.

ويا صديقي إلياس:

الجهاديّون في حمص يقاتلون باسم سماءٍ تعرفُها، باسمِ دينٍ للتجارة، والدعارة السياسية.

إنهم لا يتصدّون للسماء، أكيداً.

هم يعتبرون أنفسهم جنودَ الله.

ثم ما معنى أن تنصرَ فلسطين، يا إلياس، وتهلل لاحتلال سوريا؟

أو لسقوطها بيد مسلّحي الخليج والجزيرة؟

أتريد لسوريا أن تمسي، مثل لبنان، محْميّةً فرنسيةً؟

أو أن تكون مستعمرةً، شأن مشيخات الخليج، والعراق؟›

يحق لشاعرنا أن يعترض على الثورة السورية أو يسجل ملاحظات انتقادية عليها، لكن ليس من حقه الحديث عن مرتزقة فرنسيين أرسلهم ساركوزي إلى حمص، لأن الجميع يعرف من الذي يستجلب المرتزقة، وأي مرتزقة كانوا في ليبيا التي يسارع شاعرنا للدفاع عن رئيسها القذافي، ونحن لن نرضى أن تؤول مواقف سعدي يوسف على فرضية شعراء السلاطين التي ذهب البعض إليها، لكننا لن نمنحه الحق في أن يصف مقاتلي حمص بالتجارة والدعارة، وبأنهم يعتبرون أنفسهم جنود الله، فحزب الله يا صديقي يقف في الخندق الذي تدافع عنه، ومطلوب منك قليل من الانسجام مع ذاتك وتاريخك. وليس للمقايضة بين حرية فلسطين وحرية سوريا أي منطق›رابط، فأن يكون لأمريكا ولفرنسا ولكل دول الخليج أجندتها في المنطقة، لا يلغي حق الشعب السوري بالحرية وتوقه الأصيل للعيش بكرامة.

لكن الشيوعي الأخير يصرّ على حقه في الدفاع عن إرثه المنتهك، فيسارع للقول أخيرا:

‹اخترْ، يا صديقي، إلياس خوري، موضع قدميكَ كما تشاء.

لكنْ، أرجوك ...

دعْ ماركس وشأنه!›

مع أن صديقنا لو عاد قليلا لملاحظات ماركس حول انتفاضة القوقاز لقرأ عبارة ‹إنهم عشاق للحرية، دون أن تؤثر في حكم ماركس أي من منطلقاتهم القومية والقبلية أيضا، لأن النظرية رمادية ياعزيزي سعدي يوسف فيما شجرة الحياة تبقى خضراء وفق مقولة ماركس المعلم العصي على سرير كل الماركسيين وكل الأحزاب الشيوعية التي تجد نفسها وللأسف الشديد في صف جلادي الشعوب وضد الضحية ‹في بلدان لا يملك الناس فيها أن يشتروا خبزهم اليومي!/ هذا المدقع حتى التلاشي، الأمي، التقي.../ هذا الذي لا يستطيع أن يذوق وجبة ساخنة في اليوم./ هذا الذي يعيش على الأعشاب والشاي وخبز الحكومة المغشوش، ألا يحق له أن ينتفض على حكوماته وحكامه حتى لو لم يمتلك كمبيوتر ولم يفتح صفحة له على الفيس بوك!؟

13-03-2012

كاتب من سوريا

شهادة/حوار

حازم العظمة :
الصمت غير ممكن ولا بد للشاعر أن ينحاز

ما هو برأيك دور الشاعر والشعر اليوم حيال الحدث السوري؟

. سأقول هذا مباشرة هكذا وبدون مقدمات: لا بد للشاعر أن ينحاز هذا طبيعي تماماً، لكن الصمت لا أجده ممكناً أو مقبولاً، ولا الانحياز المضاد... من جهة ثانية أشك بأن للشعر دوراً مباشراً في الثورة، أعتقد أن للشعر والأدب عموماً دورةً أبطأ من أحداث كهذه، سيمر وقت ما قبل أن نجد انعكاساً لهذا في الأدب عموماً... لكن الشعراء يكتبون، وليس بالضرورة قصائد... في التاريخ كان ثمة الشعر ما لعب دورا أكثر التصاقا بالحدث، أتذكر مایاكوفسكي مثلاً... ربما الشعر الشعبي والشعر بالمحكية له دور كبير.

زمن الشعر

ما هي تأثيرات وتداعيات الحدث السوري على النص الشعري الذي نكتبه اليوم ماذا عن الوعي الذي يسهم الشعر، كما في نظرية الأدب الاجتماعي مثلاً، في خلقه لتوضيح الصواب عن الخطأ؟

. أعني أنه أين يتموضع الشعر والثورة قد فرضت علينا إما أن نكون على صواب أو على خطأ؟ الشعر بالأساس، كما أرى، وثيق الصلة من الأصل بنزعة تبديل العالم، تبديل اللغة، رفض الاستبداد، قلب المفاهيم، انتزاع الإنسان من البؤس، انتزاع الإنسان من براثن وحش ما، أو كابوس ما... كثير من الأشياء التي صنعت الشعر، إن كان ثمة ما صنع الشعر، صنعت أيضاً التطور الإنساني نفسه... حتى القصائد التي تتحدث عن الحب فيها لوثة من الثورة أيضاً... الشعر إذ يبدل اللغة فإنه يتابع هذا التغيير الذي لا يتوقف، ابتداء من تغيير اللغة تتبدل المفاهيم...

هل تصح مقولة إن الوقت اليوم وقت ثورة لكن الزمن دائماً هو زمن الشعر؟

. الشعر ربما بدأ منذ نطق الإنسان لأول مرة... هو هكذا كائن معمّر...

ألا تخاف في خضم الثورة من إنشائية الشعر وأن ينجرف نحو الوعظ على الأقل حالياً؟

. هذا إن كنا نتحدث عن الشعر حقاً... لكن إذا عدنا إلى كتابات عديدة لشعراء عديدين لوجدنا أنه كان ثمة ما يمكن أن يقال «مباشرة» وبوضوحٍ تام، ومع ذلك لم يقع في الإنشائية ولا في الشعارات أو الوعظ أو المقال السياسي أو الخطاب، وبقي شعراً... قد يكون «غينسبرغ» و«مایاكوفسكي» ومحمود درويش أمثلة في هذا.

تنوع نبرات

ما هي تأثيرات وتداعيات الحدث السوري على النص الشعري الذي يكُتَب اليوم؟

. لا أعرف... كتبت أشياء قد لا تعجبني غداً أو بعد سنة مثلاً... هناك من «الشعرية» في الحدث أكثر مما أستطيع أن أتمثله أو أكتبه.

هل تستطيع أن تتخيل نفسك تقرأ شعرية اليوم بعد عشر سنوات مثلاً كيف ستبدو؟

. لا بد أن أحداً ما سينظر فيما حدث بعد سنين عديدة... لا بد أن أحداً سيعيد قراءة المرحلة سياسياً وإنسانياً

وشعرياً... بعد نصف قرن ربما، ستتبدل أشياء كثيرة، ستتبدل الذائقة هذا أكيد، من الآن نرى كيف أن ما وجدناه رائعاً منذ بضعة سنين أصبح، في بعض الحالات على الأقل، لا يعنينا في كثيرٍ، سوى في تاريخ الشعر ربما... بما أن من طبيعتي التفاؤل سأقول أن ما سيأتي من الشعر، أيضاً، سيكون أجمل وأعلى وأبعد.

كم صديقاً خسرت بسبب الثورة، كم صديقاً ربحت بسبب الشعر؟

. لم أخسر أحداً... هم الذين خسروا... مؤسف أن يكون ثمة من لا يرى...أو أنه يرى ولكن من وراء نظّاراتٍ سوداء.

كيف تمضي يوماً «عادياً»؟

. بصورة عادية... أنشغل بالورد... ليس هذا مجازاً... أنشغل بالصنوبر أيضاً... كل ما يحدث يشغلني بالتأكيد.

إلى أين تذهب هذه الأيام وما الذي يدفعك إلى الكتابة؟

. «يحدث» الشعر عادة حين أنسى كل شيء عن الشعر

...حقيقة الأمر أن لا شيء محدداً يدفعني للكتابة... أكتب هكذا أحياناً بلا سبب... وأحياناً لأن شيئاً ما أحببته، أو أن شيئاً ما حرضني أو شغلني... أتحرك قليلاً... لابد من سبب ملحّ حتى أقتنع بضرورة أن أغادر مكاني هنا...

سؤال تقليدي لكن ضروري... كيف ترى القصيدة السورية اليوم وما الذي/ومن الذي يلفت انتباهك ولماذا؟

. آخر ما يستحوذ علي الكسل... من يعرفني ربما يقول إني شخص لا يهدأ... أو إني مسكون بقلق لا يهدأ، لا أفضل أن يقال «قصيدة سورية»... أجد أن الحديث أجدى عن «قصيدة عربية» باعتبار اللغة... مع ذلك لا بد أن تكون ثمة ملامح ما مشتركة في ما يكتب في سوريا مثلاً...أو في مصر... إلى آخر ذلك، لكنك تجد أحياناً أن اتجاهاتٍ أو أنماطاً من الكتابة الشعرية العربية تنتشر في بلدان عديدة... وتتشابه حد التطابق أحياناً، القصيدة في سوريا أيضاً تتطور، كما أرى، وهناك تنوع في النبرات... وليس كما قال منذر مصري مرةً إنهم جميعاً، الشعراء السوريون، خرجوا من معطف الماغوط... الكتابات الأشد شباباً هي التي تلفتني، مع أن ثمة الكثير مما يكتب لا تصلني «شعريته».

•شاعر من سوريا، مقيم في دمشق

أجرى الحوار: محمد الحموي

السيد المثقف مخاطباً السيد الرئيس

سامر أبو هواش

بين المآخذ الكثيرة على الرئيس بشار الأسد، حينما أطلّ للمرة الأولى في مجلس الشعب السوري، ليعلّق على الأحداث الدموية التي كانت لا تزال رقعتها محصورة بدرعا، قبل أن تمتد إلى باقي الجغرافيا السورية، ابتسامته العريضة التي عدّها كثيرون جزءاً من الخطاب نفسه. فقد أرادت هذه الابتسامة أن توصل رسائل لا تقلّ دلالة عن الرسائل الأخرى التي تضمّنها الخطاب نفسه، ومنها «الثقة بالنفس»، «الارتياح»، «التحكم»، والأهم من ذلك كلّه أن ما جرى ويجري لم يؤثّر في معنويات «الحكم» والنظام. بذلك، فإن هذه الابتسامة نفت بصورة آلية ما جهد كثيراً الخطاب ليعترف به مواربةً، وهو وجود أزمة حقيقية تستوجب القلق والتفكّر إن لم نقل الحزن والغضب الشديدين، إذا أخذنا في الاعتبار الثمن البشري الباهظ لهذه الأزمة. الشكل مهمّ إذاً، وليس محض تفصيل عابر.

شكلاً، تشبه رسالة أدونيس («السفير»، 14/ 6/ 2011) المفتوحة إلى «السيد الرئيس» ابتسامة السيد الرئيس نفسه. فهي، شأن ابتسامته وخطابه، باردة، متعالية، متثاقفة، والأهم من ذلك كله متأخرة جداً. لا أعرف حقاً لماذا اختار أدونيس، إذ قرّر أن يتكلم ويعلّق، أن يوجّه خطابه إلى السيد الرئيس، متعالياً في ذلك على الشعب السوري نفسه، وقافزاً بكل بساطة فوق الواقع والزمن والأحداث، وكأن هذه الرسالة كُتبت عشية الانتفاضة السورية أو حتى قبل انطلاقها، لا بعد أشهر من انطلاقتها، شهدت سقوط مئات الضحايا من المدنيين، الذين كانوا يستحقون كلمة تعاطف واحدة من «السيد المثقف»، ولو ارتدى خطابه رداء العقلانية والحكمة واتخذ طابع وضع «خريطة الطريق»، التي لا أحسب أن السيد الرئيس كان مفتقداً لها ومتشوقاً إليها ولا مناوئيه كذلك.

أجل، يتوقع المرء من أحد كبار المثقفين العرب أن يتخذ موقفاً واضحاً، لا أن يتخذ لنفسه موقعاً زعاماتياً، مخاطباً بوعي أو من دون وعي، إنما بنرجسية مطلقة، مَن يحسب أنه يساويه شأناً وقامة، أي السيد الرئيس، ومَن في يده الحل والربط والقرار. فإذا صدق ظنّ أدونيس وكان السيد الرئيس هو صاحب القرار حقاً، أفلا يُسأل، بوضوح ودونما مواربة، عن الألف وثلاثمئة ضحية، والعشرة آلاف معتقل سياسي، والسبعة آلاف مهجّر، قبل مناشدته بأن يقود بنفسه الإصلاح والتغيير؟ كأن أدونيس في رسالته هذه قد حوّل نفسه من مثقف وشاعر إلى سفير لإحدى الدول الكبرى، عليه مراعاة كلماته، وسكبها في جرعات محسوبة، لأن الصورة - صورة الخاسر والرابح في المعركة الحالية - غير واضحة المعالم بعد. أو ربما كان يتصرف كزعيم سياسي يدرك أن كل كلمة يقولها سيكون لها أثرها في الشارع. تالياً، وتجنباً للعواقب المريرة التي تترتّب على كلماته، فإنه يحرص على اختيار هذه الكلمات جيداً. ولا أعني بالكلمات المفردات فحسب، بل إيقاع الخطاب ونَفَسه ومؤداه.

يدعو أدونيس في «أطروحته» إلى الفصل الكامل بين ما هو ديني وما هو سياسي واجتماعي وثقافي، منطلقاً في دعواه هذه من أن النظام قد تحول شبه مؤسسة دينية، تالياً لن يكون وصول إلى الديموقراطية من دون

هذا الفصل، وهي الديموقراطية التي يذكّرنا أدونيس بأن العرب لم يعرفوها لا في ماضيهم ولا حاضرهم (نسأل هنا متى عرف الكثير من البلدان الغربية الديموقراطية كنظام سياسي فاعل، وهل هذه الديموقراطية متجذرة حقاً في التاريخ الأوروبي السياسي؟)، وبأن سوريا بعد سقوط النظام لن تصبح ديموقراطية بصورة فورية. ألا يستدعي مثل هذا الفصل، أن يتخلى أدونيس نفسه عن مخاطبة السيد الرئيس على أنه ولّي الأمر الذي، كما قلنا، في يده الحل والربط، والذي يكفي أن يتخذ قراراً شجاعاً وأخلاقياً «خصوصاً بوصفك رئيساً منتخباً»، حتى تجد سوريا الخلاص وتضع قدميها على أول طريق الديموقراطية. لا، أيها السيد المثقف، الحلّ لم يكن يوماً ولن يكون في يد من بات - لا كشخص فحسب بل أيضاً بما يمثله وبالمصالح التي يقف على رأسها - جزءاً أساسياً من المشكلة.

يقسم «السيد المثقف» المحتجين أو «المعارضة» قسمين: «الأصوات» (وهم الكتاب والفنانون ومن شابههم) وهؤلاء لا تأثير لهم في الأحداث الجارية على الأرض، و«الأعمال» مصنّفاً إياها كالآتي: «تظاهرات، اصطدامات، محرّضون، رافعو رايات وشعارات، قتلى، ومقاتلون». لكنه في ذلك كله لا يقول مَن هم هؤلاء حقاً. لا يقول ببساطة إنهم الشعب السوري نفسه أو على الأقل قطاعات مهمة من هذا الشعب، بل يكاد يوحي بما يوحي به النظام نفسه بأن ثمة مواجهة بين طرفين، وبأن الطرف الآخر المعارض «يقاتل» الطرف الأول، أي النظام، ولا يتظاهر سلمياً، ويقتل بكل دم بارد، فاستحق إذاً القتال. يشعر المرء بأن الكلمة التي تردّدت على طرف لسان أدونيس هي «الغوغاء»، لكنه لم يستخدمها حياءً ربما، وربما حذراً، مغفلاً أن من بين المحتجين مثقفين وأدباء علمانيين وناشطين حقوقيين من الجنسين يدفعون ثمن احتجاجاتهم غالياً، وعدد كبير منهم لا يزال قابعاً في سجون السلطة بسبب المواقف التي أبداها منذ اللحظات الأولى للصراع، وأحياناً قبلها بكثير.

لا خلاف على الكثير من الأفكار التي يطرحها أدونيس حول سوريا والعلاقة بين الحزب والمجتمع وبين الديني والدنيوي والمساواة والديموقراطية... إلخ، لكن هذه الأفكار تبقى عامة، تنطبق على معظم المجتمعات والنظم العربية، أو العالم ثالثية. وينطبق على هذه الرسالة ما ينطبق على خطاب السيد الرئيس نفسه: لو أنه قيل قبل سنوات أو حتى قبل أشهر من وقوع الأحداث، لكان له معنى وتأثير، أما اليوم وبعدما سال الدم في الشوارع، وفي جوّ وخطاب سياسي ودعائي لا يوحي إلا بالمزيد من الفوضى والدماء، فإن المطلوب - ما دام المثقف لا يغيّر في واقع الأمر شيئاً - ما يطلبه أدونيس من «قادة حزب البعث» من «أن تكون لهم الجرأة الأخلاقية والتاريخية»، وتسمية القتلة، كما المقتولين، بأسمائهم، لا الوقوف على شرفة شاهقة العلو والقيام بالتوصيفات وإبداء النصح وإسداء «التمنيات الصادقة... لسوريا وشعبها، ولك أيها السيد الرئيس...».

2011/6/19

•شاعر وكاتب من فلسطين مقيم في أبوظبي

الطيب التيزيني لبشار الأسد:

تنحّ..وليرحل نظامك "الفاسد"

الطيب تيزيني

في موقف مفاجئ، طالب المفكر السوري الدكتور طيب تيزيني بتنحي الرئيس بشار الأسد عن السلطة، وتفكيك دولته الأمنية. داعيا إلى انتخابات رئاسية وبرلمانية نزيهة ·للمحافظة على سوريا من التفكيك·.

وفي تصريحات خاصة لـ·الوطن· الكويتية عبر الهاتف من حمص المنكوبة قال د.طيب تيزيني انه لم يعد امام النظام في سورية، الا ان يرحل ويترك الفرصة لغيره من دعاة الاصلاح كي ينقذوا ما يمكن انقاذه حتى لا تنهار سورية وتضيع في حالة من التدخلات الاجنبية او التفكيك.

واضاف د.طيب تيزيني الذي اختارته المانيا ضمن اهم مائة فيلسوف في القرن العشرين انه شارك في منتديات الحوار السابقة وطرح اطروحات اصلاحية ثم فوجئ بهجوم شديد عليه من الاوساط السياسية الحاكمة ·مما يشير الى ان النظام السوري لم يعد يريد الاصلاح ولا هو قادر عليه وانه قد استنفد كل الفرص المتاحة له·.

واكد د.طيب تيزيني في حوار خاص مع «الوطن» تنشره كاملا قريبا انه لا يمكن الحديث عن مفاوضات او حوار مع النظام في ظل القصف بالدبابات والصواريخ والمدافع، وانسداد الطريق امام الاصلاح ·من خلال هؤلاء الذين امتلكوا كل شيء وافسدوا كل شيء·.

واشار الى ان السوريين فقدوا الثقة في إيران وحزب الله، اللذين يقتلان السوريين في الشوارع جنباً الى جنب مع النظام، منوهاً بأن حسن نصرالله وخامنئي يكيلان بمكيالين ·ففي رأيهم ان ما يحدث في مصر ثورة من أجل الحرية أما ما يدور في سورية فهو مؤامرة غربية صهيونية.. وهذا أساء كثيراً الى الشعب السوري وشكك في مصداقيتهما·.

وفيما يتعلق بحمص التي يسكنها قال د. طيب تيزيني ان حمص التي تمثل ·خزاناً· استراتيجياً لإنتاج الثقافة السياسية والوطنية تتعرض لقصف مروع، وانه شاهد بعينيه اقاربه ومعارفه تقصف بيوتهم ويُقتلون ويُعذبون ويُعتقلون.

مفكر وباحث من سوريا

لم ينتسب إلى «اتحاد الكتّاب العرب» وانضم إلى «رابطة الكتّاب السوريين» لتسجيل موقف

فواز حداد: عندما نؤمن بأن هذا البلد بيتنا فلن نقصفه بالمدافع

راشد عيسى

رصدُ وقائع الثورة مهمة معقدة، وسوف تكون عملاً شاقاً بالمقارنة مع ما فعله الأميركي جون ريد في «عشرة أيام هزت العالم»، هذا جزء مما يقوله الروائي السوري فواز حداد في هذا الحوار، هو الذي اهتم بعض رواياته بتاريخ سوريا المعاصر، وصارت مرجعاً للكثيرين لهذه الحقبة أو تلك. هنا يجد المثقف، المبدع نفسه أمام اختبار لا مثيل له في التاريخ. الروائي والمؤرخ والصحافي يجدون أنفسهم محرومين من حق الحصول على المعلومة، والوصول إلى مكان الحدث. لكن حداد يقول إنه يتابع توثيق يوميات الثورة بطريقته الخاصة، ويبدو في حواره هنا أنه يتابع أيضاً أحوال المثقف، كما أحوال دمشق، وأحوال الأجيال الجديدة، التي طالما اتهمناها بالبعد عن السياسة والشأن العام.

ـ قلت إن غالبية الأدباء تسارعوا نحو الاصطفاف وراء الثورات العربية، هل ترى أن الأمر نفسه يسري على الثورة السورية؟ وبالتسارع ذاته؟

ما يسري على الثورات العربية، لا يسري على الثورة السورية، لكل واحدة ظروفها الخاصة، فالسورية بسبب طول أمد حراكها، وضعت المثقفين على المحك، ما أسهم بإبراز خلافاتهم حولها، فخسرت قدراً لا بأس به من التضامن والتأييد، بعدما جرى التسارع إلى الاصطفاف وراءها. بعض المثقفين وقفوا منذ البداية موقفاً رافضاً لها، أو مشككاً فيها متنبئين لها بأنها ستذهب غنيمة إلى الإسلاميين الأصوليين، ما أعفاهم من الوقوف في صفها.

والبعض الآخر، سجل مواقف إيجابية نحوها، ثم ترددوا إزاءها، لتبدأ بعدها سلسلة من التراجعات المحسوبة تحت غطاء اتخاذ مواقف نقدية منها مبطنة بنغمة محايدة، انتقدوا من خلالها النظام وأدانوا سياسته الأمنية في معالجتها. ثم ركزوا على انحراف الثورة عن أهدافها وسلميتها، وعبروا عن مخاوفهم من نتائجها الكارثية على البلد. فهم لا يؤيدون إلا على المضمون.

أغلب من التحقوا بداية بالثورة، أو انتقدوها وغسلوا أيديهم منها، كانت مواقفهم انسجاماً مع أدبياتهم اليسارية، فهم لا يستطيعون إلا أن يكونوا ماركسيين حفاظاً على تاريخهم اليساري، فجهروا بمواقف مراوغة، تحت الشعارات اليسارية نفسها. مع أنهم نادوا بالثورات قبل عقود، وبشروا بها خلاصاً من الدكتاتوريات، ثم تنكروا لها، واشترطوا اشتراطات تعجيزية، مع أن الذين تظاهروا في المدن والبلدات والقرى كانوا من الناس العاديين البسطاء والفقراء، رداً على الظلم الذي أصابهم، واعترفت به الدولة ولم تنصفهم. وكانوا حالة مثالية لكي يساندها المثقفون الذين دأبوا على الترويج لها، لكنهم حسموا أمرهم معها، وعزوها إلى مؤامرة مدبرة

في الخارج.
كان المعول على اتحاد الكتاب، والذي كنا نسمع عن مطالبات أعضائه بالمزيد من الحرية في اجتماعات الهيئة العامة وبانتقاداتهم الجريئة في مناسبات شتى للإجراءات غير الديمقراطية المتخذة في داخله. المستغرب أن هذا الحدث المصيري الذي شمل سوريا منذ أكثر من عام، الآخذ بالتفاعل يومياً، والمهدد بتمزيق الوطن، والذي كلف الشعب آلاف الضحايا من المدنيين والعسكريين!! لم يستلزم منهم اجتماعاً ولا حراكاً تتطلبه الظروف التي يمر بها البلد، واقتصر على إبداء الرأي في المكتب التنفيذي، الذي شهد صراعات في داخله لم تخرج إلى العلن. اكتفي فيها ببيانات ألحت فيه على «تحريم القتل من الأطراف كافة».
لا بد من الاعتراف، بأن موقف الأدباء في اتحاد الكتاب شكل خيبة كبيرة، كان من المتوقع أن نشهد مناقشات مؤثرة، تشكل ضغطاً على النظام بانتقاد تصرفاته التي لا تخفى على أحد، وكيف تهدر حقوق المواطنين في التعبير عن آرائهم بالتظاهر السلمي، وإدانة الأجهزة الأمنية لاستعمالها القوة المفرطة، واعتقال الآلاف من أفراد الشعب، والعمل على تفتيت اللحمة الوطنية.
وللأمانة، هناك عدد من مثقفي الاتحاد وهم ليسوا قلة، أعلنوا مواقفهم المؤيدة للثورة بكل جرأة، غير آبهين لتعرضهم للاعتقال والفصل من الاتحاد وفقدان حقوقهم النقابية.
بالمقابل وقعت حمولة الثورة الفكرية على المثقفين من الناشطين السياسيين مثل ياسين الحاج صالح، ميشيل كيلو، سلامة كيلة، رضوان زيادة، علي العبد الله... وغيرهم كثير، داخل سوريا وخارجها، على الرغم من خلافاتهم السياسية، وهي خلافات ضرورية وصحية. ما شكل من مقالاتهم رصيداً معتبراً للفكر السياسي السوري متقدماً على غيره، بالتصدي لتعقيدات المسألة السورية، التي أعادت من خلال إسهاماتهم تعريف الكثير من القضايا الجوهرية السياسية السورية، على الرغم من اشتباك الأوضاع الداخلية بالإقليمية والدولية.

الثورة والكتابة

هل انعكست الثورة السورية أدباً وإبداعاً عند المبدعين السوريين؟ ألا تجد الكتاب متأخرين في اللحاق بركب الثورة على مستوى الكتابة؟ أين منها كتابات المثقفين في الأزمات الكبيرة السالفة؟

يستحسن عدم التطرق إلى الأدب والإبداع والمبدعين السوريين، حالياً الساحة مفتوحة للكتابات السياسية. أما الكتابة الإبداعية فمقيدة اليدين، والأدباء ليسوا أكثر من مراقبين ومتفرجين، كما أن الحالة نفسها لا تساعد على الكتابة. نعم، الحدث متبلور، لكنه لم يأخذ أبعاده في ذهن الكاتب، الأدب يلهث وراءه، مازال في مرحلة اكتشافه من الداخل. لسنا طبعاً بانتظار النهاية السعيدة، وإنما في اكتمال شيء كي نتمكن من ضبطه داخل إطار ما.
مهما حاول الكاتب فهو متأخر عن اللحاق بركب الثورة، عموماً الكتابة الأدبية لا تسبق الثورة، بل تتأخر عنها. هذا بالنظر أيضاً إلى كتابات المثقفين في العالم، ففي قضية درايفوس، التي استهلها اميل زولا ببيانه «إني اتهم» معلناً كمثقف سياسي اتهامه للعنصرية والتمييز. لم تظهر في الأدب إلا بعد مضي زمن في رواية «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست و«السيد برجيريه في باريس» لأناتول فرانس. كذلك حدث للثورة المصرية عام 1952، برز بعد سنوات في روايات نجيب محفوظ، وتأثيراتها في عشرات المسرحيات لأكثر من جيل كتب للمسرح مثل: يوسف ادريس والفريد فرج ونعمان عاشور ومحمود دياب ولطفي الخولي... ولنتذكر أن الثورة السورية ضد الفرنسيين حظيت بروايات معروفة مثل «لن تسقط المدينة» و«حسن جبل». للكاتب

فارس زرزور. وما زالت تتردد أصداؤها في كتابات كثير من الروائيين السوريين حتى الآن.
÷ هل من خشية على الإبداع الجديد من «أيديولوجيا» الثورات المعاصرة؟
، الخطر يأتي من الأيديولوجيات المغلقة الساعية إلى تجيير الأدب لتسويق مقولاتها النهائية، وعدم الاعتراف به إلا على أنه خادم لسياسة الرأي الواحد. ولذلك يخشى من ابتداع أيديولوجيا تحنط حق التغيير وأهدافه ووسائله إلى برامج تحفل بالممنوعات وتحدد المسموحات.
أكثر ما تظهر الأيديولوجيات المتحجرة في أزمنة الصراع والحروب، وأيضاً الانتصارات، وتنحو إلى إلغاء الآخر، خاصة وان الثورات تُختطف، وبالتالي قد يُستخدم الأدب في الأوقات المضطربة ليعبر عن وجهات نظر صارمة، تدعو للقتل والكراهية والاستئصال، والتحريض على العنف، وهو ما يخشى منه، لاسيما وأن الأدب يصلح تحت مظهره البريء لتسريب فكر يزعم امتلاك الحقيقة المطلقة بتسويق ذرائع تدحض أي اختلاف، وتصفية كل معارضة. غير أن تجليات الأدب العظيم أكثر التصاقاً بالحياة منها بالموت.
يتطلب تصفح تداعيات فصول الثورة السورية من الروائي فهم ما يحدث ليس في سوريا فقط، بل وما له شبيه دموي في العراق أيضاً، وفي لبنان، وما حدث قبل أشهر قليلة في النرويج البلد السعيد؛ القتل بدم بارد، وكأنه فعل إيمان مطلق بقضية لا يأتيها الباطل، على أنه تصحيح لمسيرة العالم، وردها إلى الصواب من خلال قتل البشر بالجملة.
ألا ينبغي فهم هذا التطرف المميت؟ لماذا يتكرر من حين لآخر بهذه الوحشية؟ مع أن من يقوم به صحيح البنية، ويبدو سليم المنطق؟ أليس هذا من انحرافات العقل والأديان معاً المستشرية في العالمين الغربي والشرقي، وكل حسب دعواه القويمة؟ ألا يحرضنا انحطاط النظر هذا على أن نكتب شيئاً لا يمسنا وحدنا أو يمس بلادنا فقط، بل يمس العالم أجمع وفي الصميم. هذا ما يحض الرواية على مقاربة الواقع، لا الخيال، لماذا الخيال في حين الواقع يقتلني ويدمر حياتي؟ إذا كان الخيال بديلاً عن الواقع، فهو تصنع واصطناع.
تنحو الكتابة ليس أن تكون الشاهد فقط، بل في كشف الحقيقة سافرة: الرعب والتعذيب والعمى الأخلاقي وهدر الكرامة البشرية في اشد صورها قسوة. هناك الكثير مما يجب أن نفهمه ونتعلمه ونجتنبه ونزدريه، ونشعر بالخجل والهوان من جرائه، لذلك ليس من العجب أن ندير وجهنا عن عالم لا يستحق العيش، وهذا ليس من الإنسانية، الواجب التصدي له. هذا الوطن سنعيش فيه جميعاً على قدم المساواة، لكن يجب أن يقتنع الآخرون أنه لا شيء يميزهم عنا، ويمنحهم الأفضلية بأن يحكموا ويتحكموا ويتسامحوا ويغفروا، أو يقتلوا. عندما نؤمن أن هذا البلد هو بيتنا، ولا مأوى لنا غيره، فلن نقصفه بالمدافع، وإذا كان هناك من يعتقد أن هذا البلد له وحده، فهذا هو الشر الخالص.

أحوال دمشق

عموماً عبر أي مصادر تتابع يوميات الثورة؟ عبر الصحافة؟ التلفزيون؟ الفايسبوك؟ أم عبر مشاهداتك اليومية؟ هل شاهدت هذه المظاهرات عن قرب؟ ما الذي رأيته؟ كيف أثرت بك؟ وأي صور علقت لديك؟

سمحت لي وسائل الاتصال المتعددة بمتابعة يوميات الثورة عبرها مجتمعة: الصحافة، التلفزيون، المواقع الالكترونية، الفايسبوك، وأيضاً عبر مشاهداتي الشخصية المحدودة جداً، وبالتالي اعتمدت على مشاهدات الغير، وعلى ما أسمعه أيضاً. اعتقد أني مثل الكثيرين أعيش في شبكة تتناول أخبار الأزمة السورية، لا أخرج منها حتى في نومي.

ربما لأننا في دمشق في ظل حصار أمني محكم، لم أتمكن من متابعة المظاهرات إلا بمحض المصادفة البحتة، فلم ألمح من المظاهرات الطيارة إلا الشبان وهم يختفون في الحارات والأسواق، وما تركوه خلفهم أحياناً من قصاصات المنشورات، أو كتابات على الجدران، وما سمعته من شعارات وهتافات. على كل حال عوّض عنها جزئياً أفلام الفيديو المنتشرة على اليوتيوب.

أما الحدث الذي شهدت جزءاً منه، وهزني في الأعماق، فهو مروري إلى جانب جامع زيد بن ثابت في شهر رمضان، بعد حضوري لعزاء في صالة قريبة، لاحظت عندما كنت أتمشى في الشارع ثلاث باصات، وميكروباصين في داخلهم بعض الجنود المسلحين بالكلاشنكوفات والمسدسات يطلون من النوافذ، ما تبقى منهم كانوا يتجولون على الأرصفة الملاصقة بانتظار خروج المصلين من الجامع بعد صلاة التراويح. وكان مع الجنود ورجال الأمن، شبان يعملون في مؤسسات الدولة ومعهم حزبيون يحملون العصي والهراوات. فجأة انطلق من داخل المسجد المغلق الأبواب هتاف كهدير الرعد «الله أكبر»، وفي الوقت نفسه انفتح الباب الجانبي وخرجت منه النسوة المصليات، أخرجهم المتظاهرون لئلا يتعرضون لأذى الشبيحة الذين هرعوا إلى باب الجامع الرئيسي للهجوم على الشبان العزل بأسلحتهم وهراواتهم. في ذلك اليوم تدخل أهالي باب سريجة والمجتهد وقبر عاتكة في الفصل بينهما، كان أبناؤهم في الداخل، نجحت المفاوضات ومضت الواقعة على خير، كان الشبيحة كمن غرق في بحر من البشر، قد يورطهم مع أهالي الأحياء المجاورة باشتباك يؤدي إلى مجزرة.

هذا مشهد صغير، لكنك تدرك أبعاده، وما سوف ينجم عنه، هؤلاء الشبان تظاهروا وهم يعرفون عواقبه، الاعتقال والتعذيب والسجن إلى مدد طويلة، عدا الضرب في لحظة القبض عليهم، ضرباً قد يودي إلى الإعاقة، وربما الموت.

كتبتَ عن أحوال دمشق ولم يكن مضى على الثورة أشهر قليلة، ماذا تقول اليوم في أحوال دمشق في ظل الثورة بعد مضي كل هذا الوقت؟

لاشك أنه طرأت متغيرات كثيرة على دمشق، هذا من موقعي المتواضع كمراقب، فقد أصبح لكل حي ومنطقة شهداؤها وتنسيقياتها، وباتت المظاهرات الطيارة والاعتصامات يومية وفي أكثر من مكان، كذلك حملات البخاخين على الجدران، إضافة إلى اشتباكات تجري في أحياء دمشق كركن الدين والشيخ محي الدين والميدان وكفرسوسة والمهاجرين والمزة. عدا مبادرة شبان وشابات في الشوارع الرئيسة من دمشق إلى رفع لافتات تدعو لوقف القتل على الرغم من خطر الاعتقال.

تفاقم الاحتجاجات السلمية أدى إلى رفع منسوب الاعتقالات ومداهمة البيوت ومراكز عمل الناشطين وتفتيشها، ومحاصرة المساجد في أيام الجمع لمنع خروج المظاهرات، وانتشار الحواجز الاسمنتية وقطع الطرقات الرئيسة والفرعية، وشيوع الاستحكامات وأكياس الرمل والجنود بملابس الميدان، ما انعكس على العملية الانتخابية لمجلس الشعب مؤخراً بخلو خيم مضافات الناخبين من المؤيدين، ولا جدوى الدعايات الانتخابية.

وانعكس على الناس بمظاهر الترقب والتحفز والانقباض النفسي، لاسيما والأخبار ترد من حمص وحماة وادلب ودير الزور ودرعا... ومعها قدوم آلاف اللاجئين من الشيوخ والرجال والنساء والأطفال، وكل منهم يحمل بين جوانحه أكثر من مأساة.

دمشق على غير ما عهدناها، تختزن في داخلها، ما يشق عليها احتماله، تحمل هموم وطن بأسره.. ما الذي يحدث؟ ولماذا؟ هذا ما تراه على وجوه الدمشقيين. أما آن للحياة أن تعود، وللعقل أن يستعاد، وللبصر أن يسترشد بالبصيرة؟

ـ هل تجد أن دمشق تأخرت فعلاً عن ركب الثورة؟ لماذا؟

نعم تأخرت، ومعها حلب، والأسباب معروفة؛ التمركز الأمني الشديد، لا ننسى أن معاقل الأجهزة الأمنية الكبرى في هاتين المدينتين، كذلك مؤسسات الدولة وإداراتها. واحتواء العاصمة على أعداد كبيرة من مؤيدي النظام المتنفعين منه، والذين يعتقدون أنهم مهددون في حال زواله، إضافة إلى جمهور الأحزاب المتعاونة، والكثير ممن يشغلون وظائف في الدولة. ما يسهل عملية قمع أي تحرك بسرعة وشدة. لكننا شهدنا مؤخراً مظاهرات جامعة حلب والمدينة الجامعية، وتشييع شهيد المزة في دمشق، وما انطوت عليه الحادثتان من دلالات عن احتقان الأهالي واستعدادهم للانضمام تلقائياً إلى الحراك.

لا أعتقد أن هناك مدينة أو بلدة في سوريا، لا تشارك في الاحتجاج، أو لا تحس بهذا الانهيار المتدرج من السيئ إلى الأسوأ، وإن اختلف من منطقة لأخرى، الجميع تحت الوطأة نفسها، والخوف نفسه، والرعب من حرب أهلية بدأت تلوح نذرها.

لا، ليس هناك من هو بمعزل عما يجري، ولا خارج هذا العذاب، ولا تلك التساؤلات والمخاوف.

أجيال لا نعرفها

برأيك هل من قيم جديدة أفرزتها هذه الثورة؟ كيف غيرت نظرتنا إلى الأجيال الجديدة؟

لو أن أحداً كتب رواية الآن عن مجريات الانتفاضة وبطولات الشبان الصغار، أولاد المدارس والجامعات، ومواقف آبائهم وأمهاتهم، لاعتقد القراء المخضرمون أنهم يقرأون رواية على غرار «الأم» لمكسيم غوركي، أو لعصور الاستشهاد الإسلامية والمسيحية، من حيث التضحية والنبل والتفاني والتعاون والتآزر، وروح التحدي والفداء في سبيل الحرية. ما أظهره الأهالي من تفوق أخلاقي جعلنا نؤمن بأن البشر في أحلك الظروف، عكس ما نعتقد لا تتضاءل إنسانيتهم، بقدر ما تتجلى بأبهى صورها وهم يتقاسمون الخبز والدفء والكهرباء، ويتضامنون في ليالي الضراء ولحظات السراء النادر.

شبان صغار يتعرضون في الشوارع والجامعات للضرب بالعصي والاهانة والرفس بالأرجل، وللوشاية والتعذيب يمارسه عليهم زملاؤهم الطلاب بحقد أعمى، تحت حماية رجال الأمن. هذا يحيلنا إلى الشبيحة، وهي تقليعة محلية سورية وظاهرة على غرار البلطجية والزعران، أعاد النظام الاعتبار لها، بحيث لم نعد نستهجن رؤية مظاهرات يمشي في مقدمتها المعلمون والمعلمات، تضم صبية المدارس وهم يهتفون: شبيحة دبيحة. بل والأسوأ أنهم باتوا مثالاً منشوداً للشبان المتعاطفين مع النظام، ومنهم طلبة جامعات يتشبهون بهم ويقلدون أفعالهم.

لن ترى أكثر حماسة ولا قسوة ولا غطرسة من الشبيحة، يهرعون بكل قواهم إلى سحق أي احتجاج سلمي بكل أريحية، وكلهم إيمان وجرأة، بأنهم يفعلون الشيء الصحيح، بموجب اعتقاد جازم أن هؤلاء الشبان خونة للوطن لمجرد أنهم يهتفون للحرية، وللشعب السوري الواحد، ولو أن قوات الجيش، لا تنقذهم منهم، وتعتقلهم، لذاقوا الأمرين. هناك من مات تحت أقدام الشبيحة، فيا لعظمة الذود عن النظام بهذا الأسلوب الوحشي!!

طبعاً، ما لمسناه غيّر رأينا بالأجيال الجديدة. كنا ننتقد دائماً غربتهم عن السياسة وافتقادهم إلى حس وطني، وعدم الاهتمام بمشكلات سورية. ما يفعلونه اليوم، نحن عاجزون عن فعله، ويشعرنا بتقصيرنا تجاه البلد

ما معنى عدم انتسابك حتى الآن إلى «اتحاد الكتاب العرب»؟ هل هو موقف مبكر من النظام ومؤسساته؟ وهل يقع ضمن هذا السياق انخراطك الفوري في «رابطة الكتاب السوريين» التي تشكلت أخيراً كمؤسسة بديلة؟

اتخذت قراري بشكل مبكر وعن قناعة مطلقة، بعدم الانتساب إلى اتحاد الكتاب العرب، لم يكن اختياري للكتابة، إلا لأن الكتابة حرية. كان واضحاً من دون تفكير مطول أن ارتباطي بالاتحاد أو غيره، وكل ما له علاقة بالدولة، سيصبح قيداً علي ككاتب، ويضطرني إلى الرضوخ لأشياء لا أرضاها. ببساطة الاتحاد جهاز تابع للدولة ويشرف عليه حزب البعث، ويتدخل في التعيين والإقصاء، وفي الانتخابات يترك للمستقلين أو ما شابه هامشاً صغيراً. هذا إضافة إلى اعتراضي على مفهوم الرقابة في الاتحاد بشكل عام، وعلى إجراءاتها بشكل خاص، حيث يقوم الكتاب أنفسهم بمراقبة ما يكتبه زملاؤهم.

أما السبب الرئيسي والأول، فهو اعتقادي أنه من قصر النظر انضواء الكاتب تحت أي تنظيم، إذ ليس من الضروري أن تجتمع كلمة الكُتاب على شيء، ولا أن يصطبغوا بلون موحد، الأفضل أن يكونوا متفرقين، إذ بقدر ما تتعدد الرؤى وتتناقض الآراء، يغتني الأدب.

أما انضمامي لرابطة الكتاب السوريين، فيقع في سياق آخر، هو تسجيل موقف إزاء ما يحدث في سوريا، وإعلان بتضامني مع شعبي في محنته، وهي مسؤولية لا يجوز التنصل منها. بعد انتهاء الأزمة أو الثورة سأنسحب من الرابطة.

وإذا كان من المستحسن ألا ينضم الكاتب لأي تجمع أو مؤسسة، فهو ليس فوق الناس ولا المؤسسات، ولا يختلف عن غيره، إنما في أن عمله لا يصح إلا إذا كانت اختياراته تتم بعيداً عن أية جهة، ومن دون أفكار مسبقة.

(دمشق)

كاتب صحفي فلسطيني مقيم في سوريا

مقالتان

معن البياري

I

أدونيس.. ماذا تفعل بنفسك؟!

تُراها مجلةُ بروفايل النمساوية اقترفت، على لسان أدونيس، شتمَ الإخوان المسلمين بأنَّهم فاشيون، أَم أَنَّ الشاعر الكبير قصدَ هذه المفردة تحديداً في نقدِه الجماعةَ الإسلامية في مقابلتِه مع المجلة؟

الشتيمةُ ثقيلة، وتُسوِّغ سؤالاً عما يفعله أدونيس بنفسِه، حين يتجاوز فيها النقدَ الذي يدأَبُ عليه منذ عقود تجاه الحركات الإسلامية، وتجاه ذوي الهوى الدينيِّ في الاجتماع والسياسة. والبادي أَنّه في توترٍ وقلقٍ شديدَيْن، قد يجعلانه في رُهابٍ حادٍّ، جراءَ وصول إسلاميين إلى برلمانيْ مصر وتونس أَخيراً، دلَّ على ذلك قولُه للمجلةِ إنّه أُعجِبَ بالثوراتِ العربية في بداياتِها، لكنه تحوَّل إلى انتقادِها مع وصولِ أُولئك إلى الحكمِ في البلدَيْن.

ومع الانحياز الواجبِ لدورٍ للمثقف، اعتراضيٍّ ونقديٍّ واحتجاجيٍّ، ما يعني الانحيازَ إلى حقِّ أدونيس (وغيرِه) في انتقادِ ما يشاءُ من الظواهر قدّامه، أَياً كان منسوبُ الاحتفائيّة بها، فإن قارئَ كلام أدونيس يلحظُ فيه مقادير من حولٍ في نظرِه إلى الثورات العربية المستجدّة، لكي لا نقول «العمى الثقافي»، بحسبِ الناقد عبد الله الغذامي. ببساطةٍ، لأَننا في الحكمِ على حركةِ المجتمعاتِ وتحولاتِها حين لا تُرضينا نتائجُها ومآلاتُها، نكون قد افترضنا أَنفسَنا مخبريين نُجري عملياتٍ كيميائية، نضعُ موادَّ مع بعضِها لتتخلَّقَ موادُّ أُخرى نرومُها.

والبديهيُّ أَنَّ سذاجَتنا شديدةُ الفداحةِ إذا توهَّمنا أَنَّ مساراتِ مجتمعاتِنا العربية تُحدِّدُها نظرياتٌ ومعادلاتٌ في أَفهامِنا، نحن المثقفين، سيما منّا ذوي الهوس بالتنظير في قصيدة النثر، ولا تشغلهم لحظةً حاجةُ الملايين في شعوبنا العربية كرامةً في عيشِهم.

يندرجُ كلام أدونيس للمجلة النمساوية، في مسارٍ من الالتباس والغموض والتوريات بشأن الجاري في المشهدِ العربي منذ أَزيد من عام، وفي بلدِه سوريا. ففي البال أَنّه خاطبَ الرئيس بشار الأَسد في رسالةٍ، نُشرت في يونيو (حزيران) الماضي، واعتبرَه رئيساً منتخباً، وأَوكل إليه نقلَ سوريا إلى الديمقراطية. و

هاجمَ خروجَ المظاهرات في الانتفاضةِ السورية من المساجِد، وألحَّ على أَن سبب الأَزمة أُحادية حزب البعث. وخلت الرسالة من أَيِّ إشارةٍ إلى عمليات القتل والترويع والفتك، ويتحمَّل مسؤوليَّتها نفوذُ أَجهزة الأمن والقوة العسكرية المستحكم في سوريا، ولذلك، بدا تشخيص أدونيس الحالة كلها مغلوطاً، حتى إذا مضى المشهد السوري إلى تفاصيله المعلومة لاحقاً، بادر إلى دعوة الأَسد إلى التنحّي، مع طحٍّ وفيرٍ من جانبِه على المعارضةِ السورية، لا لشيءٍ إلا لأَنَّ الإسلاميين جزءٌ كبير منها.

ودائماً من دون كثيرِ تعليقٍ على أَهوالٍ تحدثُ في سوريا. وفي مقابلتِه مع «الغارديان» البريطانية، قبل أَيام، يُكرِّر الكلام نفسَه، مع مراوغةٍ أكثر شطارةً، سيما في قولِه إنَّ المبدعَ يجبُ أَنْ يكون دائماً مع ما هو ثوري، ولكنْ، يجب أَنْ لا يتحدَّثَ كالثوريين.

نلتقي مع أدونيس في وجوبِ الفصل بين السياسيِّ والدينيِّ في تدبير الشأنِ العام، لكن بعض مجتمعاتِنا

العربية إذ تخوضُ، منذ شهورٍ فقط، تمريناً شجاعاً في نزعِ السلطةِ من غاصبيها، تحتاجُ إلى تجربةٍ عمليةٍ، وتاريخيةٍ بالضرورة.
فيها عثراتٌ وعقباتٌ غيرُ هيّنة، قبل الوصولِ إلى هذا الذي نشتهيه، ما يوجبُ على مثقف كبير في قامة أَدونيس أَنْ يكون أَكثر تبصراً في راهن المجتمعاتِ العربية وأَشواقها وتطلعاتِها، ليس بالفوقيّةِ المدرسيةِ التي يحترفُها، وقبل ذلك وبعدَه، أَنْ يتيَقَّنَ من أَنَّ العالمَ يتغيَّرُ بحسب قوانينِه، وليس بحسبِ ما نتمنّى ونرغب.
ولمّا كانت هذه المنطقةُ من النقاشِ المطروحِ جدليةً، فإِنَّ نصرةَ الثورة السورية وناسِها، بلا تأتأةٍ ولعثمة، لا نظنُّ أَنَّ من اللائق أَنْ يكون مطرحَ خلافٍ مع الشاعر الكبير. أَما مجازفتُه برميِ «الإِخوان المسلمين» بالفاشيّة، ومن دون أَدنى تحرُّزٍ، فالخشيةُ أَنها تصدرُ عن رُهابٍ يُقلقُ عقله، فيجعلُه يفعلُ بنفسِه ما نرى مما لم نُحبُّه له يوماً.

16 فبراير 2012

II

زكريّا تامر... الوِسامُ ثمّ الهجاءُ

يسأل القاص، الكبير حقاً، زكريا تامر: «هل يعرف الرئيس السوري الحالي أنّ الأمهات السوريات لا ينجبن الأبناء إلا من أجل أنْ يتابع أعوانه قتلهم، تأسيساً لجمهورية القبور، المرشحة لأنْ تحلّ محلّ الجمهورية العربية السورية؟ ويكتب: ما يسمى الرئيس السوري، بشار الأسد، كان يرغب في زيارة الجولان محرّراً، لكنّ العين بصيرةٌ واليد قصيرةٌ تجاه الصديق وقت الضيق، والحليف غير المعلن المتمادي في صلفه وإذلاله، فاكتفى بأنْ حمل (...)، مبتسماً ابتسامته... التي أغرت آلاف المحبين بالتخلي عن عقولهم، وزار حي بابا عمرو الحمصي، بوصفه أرضاً سوريةً محرّرةً من أهلها العصاة».
ويكتب: «دمشق التي كانت عاصمة الدولة الأموية، هي اليوم عاصمة الكذب والنفاق والتلفيق والتزوير، وأقبح كذبةٍ هي تلك السائدة الزاعمة أنّ لبشار الأسد محبين في سورية. لا وجود في سورية لمواطنين عاديين يحبون ما يسمى بالرئيس. لا وجود في سورية إلا لمجموعاتٍ من المرتزقة، ارتبطت مصالحها الشخصية ببقاء بشار الأسد رئيساً وحاكماً، وتحاول إخفاء ارتزاقها ورغبتها في الحفاظ على مغانمها وراء التظاهر بأنها عاشقةٌ للرئيس ونهجه المقاوم (المقاوم لشعبه لا لإسرائيل)، بينما الرئيس البائس (...) لا يملك ما يغري الناس بحبّه... أما أفعاله، فهي، باختصارٍ عميقٍ، آلاف الشهداء والمعتقلين والمفقودين والمختفين والمهجرين».
يكتب زكريا تامر سخريته الحارّة هذه، ومثلها الكثير، في صفحته «المهماز» في «الفايسبوك»، والتي يضمّنها تعليقاتٍ موجزةً ذات نباهةٍ حادّةٍ في طعن النظام السوري ورئيسه، وفي الانحياز الرفيع للثورة والانتفاضة. ولأنّه يعلن موقفه هذا بهذه اللغة الصريحة الساخطة، ونحسبها تجربةً جديدة في مدوّنته السردية الطويلة، فإنه يسوّغ دعوةً تتوجّه إليه إلى أنْ يتبرّأ من وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة الذي منحه إياه بشار الأسد قبل عشرة أعوام، وقلّدته إيّاه، (ومعه حنا مينة وعبد الكريم اليافي)، وزيرة الثقافة في حينه، نجوى قصّاب حسن.
ولئن جاز، إلى حدٍّ قليل، في العام 2002 أنْ يفترض زكريا تامر، ومثقفون سوريون وعربٌ كثيرون محبّون لنتاجه البديع، ذلك الوسام تكريماً سورياً لعطائه، يقدمه رئيس الجمهورية باسم الشعب السوري، فإنّه افتراضٌ لم يعد

فيه النزر اليسير من تلك الوجاهة، فالقتل اليوميّ الذي يتمّ للشعب السوري منذ أزيد من عام، لا مسؤول أول عنه سوى ذاك الرئيس نفسه، الذي (كرّم؟) زكريا تامر بالوسام الرفيع، ثم عبدالسلام العجيلي ومحمد الماغوط ووليد إخلاصي وسليمان العيسى. ولا نحمل السّلم بالعرض، ولا نتعالم على زكريا تامر بدروسٍ في المواقف الأوجب للمثقّف أنْ يصطفّ فيها، عندما يكون الدم أوضح من أيّ كلام، وهنا، هو دم السوريين الذين ما انتسب القاص الكبير يوماً إلى غيرهم، وكان من المجيدين في التعبير عنهم، وعن أشواقهم، وآمالهم، وكذا عن قمعٍ وفيرٍ يكابدونه. كتب عن ذلك كله وغيره، تصريحاً وتلميحاً، وفي القصة القصيرة كان الصانع الأمهر.
نخمّن حسن النيّة والطويّة، عندما أقطع الساخر المعلم، زكريا تامر، بعد الوسام، زاويةً في الصفحة الأخيرة في جريدة «الثورة»، البعثية إياها، سمّاها «المهماز»، كتب وأجاد، كما العادة، في التنديد، الساحر أحياناً، بممارسات الاضطهاد المعلومة وغير المعلومة. ربما كان ذلك من وجوه ربيعٍ سوريٍّ قصيرٍ ومغشوش.
نخمّن حسن النيّة والطويّة عند زكريا تامر، لمّا راح يهجو في ذلك المهماز فؤاد السنيورة ووليد جنبلاط ورفاقهما في الضفة اللبنانية المناوئة للحكم السوري، فنذهب إلى أنّ كاتبنا إنما كان يعبر عن موقفه الخاص، والذي تطابق، في لحظةٍ معينةٍ، مع موقف النظام الذي تنطق تلك الجريدة باسمه. نخمّن أنّه عندما جاء على سيرة عبد الحليم هدّام (بحسب تعبيره)، في المهماز في مطرحه ذاك، إنما كان يعلن رأياً في نائب الرئيس السوري السابق، لم يكنْ متاحاً أنْ يحظى به أيّ كاتبٍ في جريدةٍ حكوميةٍ بشأن مسؤولٍ سوري رفيع، مثل خدّام الذي صار هدّاماً بعد خروجه على حكم عائلة الأسد.
ليس ما يشار إليه، هنا، تصيّداً في أرشيف القاص الكبير، وإنما يؤتى عليه لإسناد الاحتفاء الواجب بالجديد المتحقّق في الجميل الحاذق الذي يجهر به «المهماز» في أثير «الفايسبوك»، والذي على مسافةٍ بعيدةٍ من سابقه في الصفحة الأخيرة في تلك «الثورة»، ونتسلّح به حين نطلب من صاحبه أنْ يخلع عن كتفيه ذلك الوسام الذي ابتلّ بدماء أكثر من أحد عشر ألف سوريٍّ قضوا في أتون الحرب المعلنة من نظام الرئيس الذي كان في سجونه، إبان أعطية الوسام تلك، آلاف المظلومين المقهورين السوريين. وتذكّرْنا لحظة تلك الأعطية أنّ زكريا تامر تعامل مع المطرقة والسنديان لمّا عمل حدّاداً في صباه، من أجل أنْ يعيش، قبل أنْ ينعطف إلى احتراف الكتابة، في القصّة خصوصاً. وراعيْنا أنّ كاتب «القنفذ» إنما يتحايل على أمرٍ واقعٍ بكيفيّةٍ فيها بعض حصانةٍ، وبعض مراوغةٍ قد تيسّر له هامشاً، يجعله يصرّح بما يقدر عليه في مهماز تلك الجريدة الحكومية.
أمّا وأنّ اللحظة الراهنة غير تلك، وأنّ الروائي المصري بهاء طاهر فعلها في الأيام الأولى من ثورة شعبه، وجهر بخلع جائزة مبارك في الآداب عن كاهله، وتبرأ منها، قبل خلع الثورة المصرية حسني مبارك، فإنّ بادرةً مثل هذه سيتأخر صاحب «صهيل الجواد الأبيض» كثيراً إذا لم يعلنها. لم يلتفت أكثر من مئتين وخمسين كاتباً عربياً إلى وسام الرئيس الذي حوّل سورية إلى مقبرة، وفق واحدةٍ من المهاميز الموحية، لمّا أجمعوا، في ملتقى القاهرة الأول للقصة القصيرة في 2009، على منح جائزته الأولى إلى الكاتب الأكثر وفاءً لهذا الجنس الأدبي، والمجدّد الكبير فيه، ونظنّها وساماً عربياً أنظف من وشاح بشار الأسد. ونتذكّر أنّ القاص المصري، محمد البساطي، لما تقاسم جائزة العويس مع زكريا تامر، قال إنها شرفٌ كبيرٌ له هذه القسمة.
لا يرضينا أن يجد كاتب «ربيع في الرماد» و«الحصرم» نفسه، لاحقاً عند سقوط النظام الغاصب السلطة في دمشق، في ورطة الناقد (والوزير الأسبق) جابر عصفور الذي أشغل نفسه كثيراً، وهو يبرّر قبوله جائزة معمر القذافي للآداب بعد سقوطه، ثم أعلن أنه سيعيد قيمتها إلى الشعب الليبي. ونظنّه تخميناً في محلّه بعض الشيء أنْ يقال إنّ محمود درويش لو طال عمره قليلاً لربما اعتذر من الشعب التونسي عن الوسام الرفيع

الذي منحه إياه زين العابدين بن علي، وقد ردّ، في حينه، على منتقدي قبوله ذلك الوسام، بأنه كان من شعب تونس إلى شعب فلسطين.

يتحرّر زكريا تامر من عبء وسام بشار الأسد له لو يتدارك الأمر، ويعلن ما يليق به، بالشجاعة التي طالما طالب بها المثقف العربي، وهو الذي قال، مرّةً، إنه يشتاق إلى مهنة الحدادة، لأنّ لإنسان المعمل وجهاً واحداً، الصديق صديق، والعدوّ عدو، لكنّ اضطراره إلى الاختلاط بأوساط المثقفين جعله يكتشف أنّ للشخص الذي يمكن أنْ يعتبر تشي غيفارا في هذه الأوساط مئة وجه على الأقل، ·وأحار بين الوجوه، ويصعب علي الاختيار، ففي مجتمع المثقفين لا صداقات ولا عداوات·. ليس مطلوباً من زكريا تامر أنْ يصير غيفارا، بل، فقط، ألا يجعلنا نحتار في ما يحسن أنْ نتملّى فيه، الوسام الذي صار الاحتفاظ به محرجاً، بل ومدعاة للخجل أيضاً أمام الشعب السوري العظيم، أو المهاميز الرائقة المتواصلة منذ أربعة شهور، والتي نسعد بقراءتها، وفيها ما فيها عن مانح ذلك الوسام، ما يسمى الرئيس السوري، بحسب ما يراه كاتب القصة القصيرة العربية الأجمل منذ خمسين عاماً، زكريا تامر الذي نخاطبه الآن: اخلغ عنك ذلك الوسام.

·كاتب من فلسطين مقيم في الإمارات

مايو 11, 2012

من هو الضابط ممول مجلة أدونيس الجديدة؟!

مي سليم

قرأتم مثلي ما كُتب في الصحافة العربية حول صدور مجلة أدونيس الجديدة ،الآخر،

رأيتم مثلي اسم الشاعر المعروف مجاورا لاسم حارث يوسف غير المعروف.

أظنكم مثلي لم تسمعوا بهذا الاسم من قبل.

من هو حارث يوسف؟

الفضول كان طبيعيا لمحاولة استكشاف هوية هذه الشخصية الثقافية الكبيرة التي يمكن لها أن تكون جنباً إلى جنب مع أدونيس في مشروع ثقافي طليعي.

كان علي أن أعيد بتمعن قراءة ما كُتب للإعلان عن هذا الصدور بحثاً عن معلومة تنير جهلي.لا فائدة. تجاهلت الأكثرية هذا الاسم الجديد وعبرت فوقه وكأنه لم يكن. عبرت فوقه وكأنها تعرف له تاريخاً فكرياً حافلاً، وكأنها قرأت له مجلدات ومجلدات.لا أستبعد ظهور أعماله السرية الكاملة إلى العلن قريباً جداً.

بحثت أكثر إلى أن وقعت على ما كتبه ايلي عبدو في صحيفة ،الأخبار، اللبنانية عندما قال إن هيئة التحرير تضم بالإضافة إلى أدونيس وكمال بلاطة ،رجل الأعمال والكاتب السوري الأوكراني حارث يوسف، قلت في نفسي: لا بد أن هذا الكاتب يكتب باللغة الأوكرانية ولذلك لم أسمع به من قبل.

نقرة واحدة أو نقرتان على غوغول، وها هوذا حارث يوسف أمام عيني. صورته وحياته ومقابلاته واهتماماته وتمويلاته وشركاته واذاعته شام اف ام السورية.

اكتشفت عندها أن الكاتب السوري الأوكراني هو نفسه ممول المجلة و صاحب ،مؤسسة ال40، التي تصدرها.

وفهمت جملة ايلي عبدو:

، لا تعتمد ،الآخر، في تمويلها، كما أشيع، على ،رعاية، الشيخ محمد بن راشد آل المكتوم حاكم إمارة دبي، بل يدعمها أحد المتمولين السوريين المغتربين، وهذا المتمول السوري المغترب هو نفسه الكاتب السوري الأوكراني عضو هيئة التحرير .

الآن توضحت الأمور.

من هو حارث يوسف إذن؟

كان ضابطاً في الجيش السوري، عاد إلى اوكرانيا التي درس في احدى اكاديمياتها العسكرية ضمن بعثة سورية. هو واحد من رجال الأعمال الأغنياء، الذين بدأوا من الصفر، كما يقال، والذين تكاثروا في دول أوروبا الشرقية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

تاجَرَ حارث يوسف في البداية بكل ما يمكن له أن يقع بين يديه قبل أن يتخصص في تجارة الحديد، عندما اكتشف نجاعتها، كما يشرح في مقابلة معه/في شباط/فبراير2006/ نعرف من خلالها أيضاً أن شركته ربحت مناقصة لاستثمار وإدارة مصنع للحديد في مدينة حماة السورية .

تقول المقابلة: ليس حارث يوسف خجولاً عندما يتعلق الأمر بالحديث عن امبراطوريته التجارية أو عن

طائرته الخاصة ،جت فالكون، التي يعيرها إلى الدولة الأوكرانية في بعض المناسبات مثل جنازة ياسر عرفات أودفن الملك فهد.

،أن تملك شركة كبيرة فهذا يعني أن تكون على علاقة حسنة مع السلطة الحاكمة ، وفي هذا لا تختلف أوكرانيا عن أي بلد آخر، يقول عضو هيئة تحرير مجلة ،الآخر، هذه العلاقة الوثيقة مع السلطة ليست كلاماً في الهواء، فقد كان رجل الأعمال مستشاراً للرئيس الأوكراني السابق فيكتور يوشتشنكو وطائرته الخاصة هي التي حملت الرئيس الأوكراني إلى سويسرا للعلاج.

،الآخر، المجلة تتحدث عن الأمراض المعدية التي تتلاقى لتشكل المرض المركب الذي تعاني منه الثقافة العربية. يبدو أن تقديم النصح للرؤساء من الأمراض المعدية. هل فهمتم الآن من أين انبثقت رسالة الشاعر إلى الرئيس؟ من مجاورة المستشار الآخر المعتاد على تقديم النصح للرؤساء.

،السؤال الشائك، الذي يفرض نفسه هو: هل يكفي أن تكون ممول مجلة كي تصبح عضواً في هيئة تحريرها ؟ كنت أظن أن هذا لا علاقة له بذاك، لأننا تعلمنا أن الفصل بين التمويل والتحرير قانون أساسي من قوانين العمل الثقافي ولاسيما عندما تكون الجهة الممولة / ،بالكسر، بعيدةً كل البعد عن الموضوع الممول/،بالفتح،.

إن أحد الأسباب الأولى في الانفجارات البهية، كما وصفتها المجلة، التي تزلزل الآن البلدان العربية، هو المطالبة بفك الارتباط بين السياسة والمال، الذي لا يمكن أن يؤدي إلاّ إلى إفساد الإثنين معاً ، فما بالك بالخلط بين المال والشأن الثقافي على هذه الصورة الآخروية؟

لا يمكن لك، وانت تضع هذا القانون الأساسي الفاصل وراء ظهرك، أن تدعي إصدارَ مجلة تسعى إلى ،تثوير الحياة الثقافية العربية وطرح الأسئلة الشائكة التي يخشى الآخرون طرحها، كما تقول هيئة التحرير نفسها، وإلا عدنا إلى عالم الأفلام الهابطة، كما يسميها النقاد المختصون، التي يريد المنتج الثري، بسلطة ماله، أن يكون بطلها.

باحثة في معهد العلوم الاجتماعية / مونبلييه

نزيه أبو عفش، أن تكون مَسيحاً ولا ترى سوى آلامكَ أنتَ.. يا غشاش

هالا محمد

قلتُ لنفسي: لا بُدّ غيّرتهُ الإنتفاضة كما غيّرتني، ودَفعتنا الضرورة إلى شواطئ الحوار.

الحوار الذي يَجمَعنا ويحمينا من عزلةٍ خائفةٍ على أنّها الاستقرار.

نحن على الأغلب سبقَ وتشاركنا ثقافة الجمود، اختنقنا بها وأَلِفناها.

وساهمتم حضرتكم بثباتها، أنتم بعض «أيقونات» الثقافة المعارضة، التي عارضت كلَّ شيء إلا فرديّتها.

أسّستْ في ضفّة اليَسار لثقافة إقصاء وفرديّة.

كان الحوار في «الفيس بوك» حول ما تكتب ندّياً، لا عدائياً.

لكنّه لم يكن استماعاً ولا طلباً للسَّماح بمخالفة طفيفة في الرأي خوفاً من غضبكَ ومن الخطأ؛ كانت آراء تبحثُ عن الحلول. وأنتَ لم تستطع أن تستوعب كيف تجرّأ مجموعة شباب، ينتمون إلى الشارع الثقافي الجديد، أن يَصِلوا جُسور الحوار بينكَ وبينهم، لا بل أن تصل بهم الوقاحة والتعدّي على سلطان الفردّية بأن ينتقدوا رأيك ويختلفوا معكَ؛ هؤلاء ذاتهم أو قسم منهم يهتف اليوم للحرّية متحدّياً الاستبداد في شوارع الشام العتيقة يا نزيه.

ولو كان الأمر يعود إليهم لمرّ رنينهم في شوارع القُدس العتيقةْ ذاتها في الأغنية التي تضجّ في قلوبنا.

مثقفون وشعراء وشباب تعلّموا في بيوتهم كما علّمتَ أنتَ أبناءكَ وتعبتَ على أن يكونوا مواطنين شُرفاء وكرام النفوس ومبدعين.

الآخرون لهم آراء مُجملها إيقاع ثقافة الآخر المُتَعدِّدَةْ والغنيّةْ. الآخرون الذين لم يُسمح لهم قطّ لفظ أكثر من جملة قبل تخريسهِم ومواجهتهم بحجم الخوف والفراغ الذي ينتظرهُم. صاروا حُرّاس الفراغ. وحين كان يصل بهم الحظّ إلى اللجوء إلى أمثالك كان الإيقاع الإبداعي يحرّكُ ضمائرهم الحيّة وما أن تبدأ ضمائرهم بضخّ القوّة في عروقهم الجريئةْ، حتى تطحن أحلامهم نشوة الشكوى المستمتعة بألمها المُستقرّ وبال «أنا» المتضخمّة المريضةْ. ويكون عليهم الاكتفاء بدور المُريدين؛ فالشعبُ خُلق ليَتْبَعَ لا ليِصنعَ.

أما أنتَ «الشاعر» فما هي حاجتكَ؟

هل تحتاج شتم الديموقراطيّة الآن واعتبارها مؤامرة؟ أم تحتاج أن يبقى العبد عبداً ولا يثور ولا يسعى إلى تحقيق عدالة ، لتستمر بالبكاء على مذبح عبوديته؟!

ثورة العبيد لم تكن لتوجد لولا نظام العبوديّة!

لماذا لا يحقّ للشعوب أن تثور؟!

الشعوبُ تتعلّم وَتُعلِّم.. تُعلمّ الشعراء وتتعلم منهم. هل كنتَ تخشى الخطأ في حوارك مع جريدة السفير؟! لقد هشّمتَ صورة الشارع والمُثقّفْ. وضعتَ الكلّ في خانة العبيد والجهلة، الشبّيح والمُثقف، وأنا لا أخالفك بأن

الجميع ضحايا النظام على مدى زمن طويلٍ، وضحايا السياسة الأميركية والإسرائيلية، لكن الفرق بين قتيل وقتيل موجود بالتأكيد بالقيمة المعنوية لكلّ منهما وبما جنتهُ يدا كلّ منهما وعقله وقلبه. برّأتَ النظام من مسؤولية الظُلمْ إلا من سلوكيات أدّت إلى مظالم في الماضي ثِرتَ أنتَ ضدّها وكان على الشارع أن يتحلّى ببصيرتكَ ولا يثور ويكتفي بدفاعك عنه وبصبرك بانتظار إصلاحٍ حليمٍ جميلٍ مدنيّ قادم!

وهنا وجبَ على سوريا تسمية شارع باسمك وآخر باسمِ توأمكَ «سعدي يوسف» لنضالاتكما ضدّ أميركا، كما طالبتَ. «غالي وطلب رخيص» يا نزيه.

لا أعتقد أن أحداً ضدّ ما لاسميكما من رنينٍ شعريّ في وجدان سوريا، لذا لن يُحمّل تاريخك وتاريخه الشعري وِزْرَ مواقفكما السياسية الراهنة.

أعتقد؛ لأنني أثق بسوريا.

أما الشعب فهو من سيزفّتُ الشارع الذي سَيُسَمَّى باسميكما ولن تُكتبْ الأسماء بالإنكليزية جكراً بأميركا وبلغتها.

أثق ولا أزال بأن القصيدة عادلة وأن الشاعر حين لا يكون شاعر بلاط هو شاعرٌ يحقق عدالة قصيدته. العدالة تُعزّزُ جماليات الـ«أنا» الإنسانيّةْ، فيصير الشاعر رمزاً. لكنني أمام صنف من المعارضة حوّلته الـ«أنا» إلى ديكتاتور.

قل صوتك

أنتَ تحاولُ إعادتَنا إلى جحيم الخوفِ وَمِمّن وممَّ: من الرأي؛ ومنَ الحُرّيةْ!

لِمَ يتحوّل الآخر إلى صغير وقذر وتافه ويستحقّ الكره إذا اختلف عنكَ أو لنقل: إذا خالفك تصميمهُ لعمارةِ جَسارته كبطلٍ رمز خرج من الشعبْ.

تخافُ الإسلاميين المتشدّدين؛ قل صوتك وازرع رأيك الآن. نبّه الشارع إلى ضرورة التمسّك بالدولة الديموقراطيّة التعدّدية وبضرورة فصل الدين عن الدولة كي نؤسس للمواطنة المتساوية.

قل أيها الشاعر كلمة الحق في وجه النظام، قل له لو إنه حاسب مرتكبي جرائم درعا ومنتهكي الكرامات هنا وهناك لما كنا وصلنا إلى ساحات «التكبير» الذي تخافه وتعتبر أن النظام هو الحامي منه، وليس أحد أسباب اشتداده بِسبب تشدّده في العنف واعتقالهِ للمُعارض الديموقراطي وقمعه مؤخّراً المُتظاهر السّلمي. قل لهُ أنّ التشدّد في ترك البلاد عرضة للفقر والحاجة وعدم الوفاء بوعود الإصلاح التي انتظرها الشارعُ المُحتاج والبيوت السوريّة المدنيّة والمتديّنة الشريفة، التي من حقّها أن تحيا بكرامة وعزّة في وطنها، كلّ هذا هو المسؤول عمّا آلتْ إليهِ البلاد.

هل تؤسس للعدالة باللّاعدالة؟

هل تدعو للحقّ بدفاعك عن القمع؟

هكذا فجأة صار التديّن مؤامرة؟ والثورة مؤامرة، والتغيير مؤامرة، وصار الخلط بين المتديّن والمؤمن والمتشدّد والثائر مباح لكي تُمرّر المخاوف من التغيير ولكي نصفع الحُرّية على خدّها الأيسر ونقول لها: من أنتِ؟

ما أوسع الحُرّيةْ، ما أضيقَ الظلمْ.

المواطنة المتساوية أمام القانون العادل هيَ ما نصبو إليه لننجو. وليس التمسّك بجلباب الاستبداد خوفاً من استبداد قادم بجلباب أطول!!

قلْ وأنتَ تنتقد المتظاهرين والمثقفين والحرّية خوفاً من تدميرهم للبلاد والاستقرار، أنّ النّظام خنق ربيع دمشق ومنتدياتهِ وفتح الشاشات على البرامج الدينيّة، وعلى ثقافة مفُرّغة من مضمونها وسدّ منافذ النجاة بالعقائدية والجمود والدفاع عن عروبة لم تربح أي حرب أو قضيّة، لكنها بقدرة قادر تجثم على صدور البلاد العربية مزهوّة بنصرها بالسلطة، النصر الوحيد الذي أنجزتهُ. ثقافة «ممانعة» أحادية اللون تُخرس صوتَ العقل والمنطق، فتحيا العصبيات والولاءات.

قل للنظام إنّ الإصلاح هو صون كرامة الشعب.

هل تعجّل الناس في طلب الإصلاح بعد واحد وأربعين عاماً!

ألم ترَ كيف آمن الناس بالإصلاح بسبب خوفهم مما تخافه أنتَ الآن وتمنّوا وترجّوا وطالبوا ولمْ يأتِ!

قل للنظام أن يحقّق الدولة الديموقراطيّة الموعودة... آه نسيت... فأنت ضد الديموقراطية وأميركا!!

الكليشيه

وهنا بصراحة تسقط في الأيديولوجيا وكليشيه الممانعة، فالشعوب العربية هي التي تعارض سياسات أميركا وإسرائيل، لكن سلطات الممانعات اعتقلت قوّة الشعوب في الدفاع عن ذاتها وقضيّتها ولجمتها في سياسات وأيديولوجياتٍ أنتَ ترى نتائجها الممانِعة على أرضِ الواقع.

الشعب يريد سوريا تتّسع للجميع... وقد كان «أنطون المقدسي» شيخ المفكرين المعاصرين، رحمه الله، سيّد من نادى حديثاً بضرورة أن يكون للإنسان موقعه في الحياة لكي يتوازن.. يا الله ما أجمل التفاتته لـ«التوازن».

الجميع يعمل لينقذ سوريا... والشارع الإسلامي السوري كان صوتك سيخلّصه من تعصّب صوت آخر يحاول جذب ثقافته نحو الإنغلاق لو أنك تنبّهتَ أن الخطر الآن هو على سوريا وليس على شخصك الكريم.

لم يكن «محمود درويش» الذي كنتَ تَحلفُ باسمه إلا بوصلة أخلاق وموقفاً في اللحظة الحاسمة.

أنت الآن ماذا تقول: خافوا، شككوا، واخضعوا أيها السفلة!

مرّة أخرى لو أنك أنتَ المعارض للنظام، حمّلتَ القاتل مسؤوليته وأنصفت القتيل كائناً من كان بقوّة القانون ودعوت لتحقيق العدالة والمحاكمات العادلة وحمّلت المعارضة والمثقفين مسؤوليتهم ولم تضعهم في خانة القاتل لكنتُ قلتُ معه حقّ.

أنت بدّلتَ الأدوار، خلطت القاتل بالقتيل والقتيل بالقاتل لتستمتع بالغضب وتحرد من كليهما.

طيّب، ألا يتحمّل من يملك السلطة والقوّة والمال مسؤولية الحفاظ على أحلام ومنامات الشعب بلا كوابيس ودمّ!

أوافقك، يجب الانتباه إلى كلّ نأمة من نأمات العدالة.

الحرّية ليست سلطة.

بين النديّة والعدائية مساحة لا يعرفها عظماء الثقافة الذين ابتلعوا المنابر المحلّية والعالمية على مدى ثلاثين عاماً من دون أن تتنحّى قاماتهم لبصيص مبدع آخر، إلا من تَدَفّأ بِضوئِهم المُبهر.

نزيه أبو عفش كان ضيف مهرجان «المحبّة» الرسمي على مدى أعوام... هو وشعراء «مقاومة» لبنان... والعروبيون الأشاوس.

كان الشاعر المُكرّس دون أنفة أو تعفّف. وكانَ مُعارضاً. «نوع من أنواعْ المُعارضة».

نحن الجيل الأصغر كنا نرى ونحاول تفسير ذلك.

نزيه.. لم يسمح في حياته لشاعر من الجيل الجديد أن يكون نداً له...

هو الندّ لنفسه وهو المَسيح المُعذّب وهو الخلاص من آلامه.
كانت الشاعرة المقربة بحسب نقد نزيه: «نبيّةُ الشعر والأفضل بين قريناتها اللواتي تقتلهن الغيرة مِنْها» هكذا كان نزيه يعتقد أنه سلطة تُعلي من شأن شاعرٍ وتسحقُ شاعراً! (نقد مُعيب).
وحين يدور الزّمن ويختلف نزيه مع الشاعرة نفسها تُصبح (.....) على مدى سنوات.
وإذا واجهتهُ أنتَ برأيه التأليهي المكتوب فيها وانتقدت عدم مبدئيّتهِ وشخصنة الأمور، يمرض بـ«الشقيقة» لأنكَ لا تفهم عليه كيف هو المعذّب على الأرض، يُواجَه بالنكران والجحود.
قد يكون ما يؤرقه اليوم هو المُساواة والروح الجماعيّة التي تسري في عروق الانتفاضةْ، المساواةْ التي تُبلور شفافية الفرد وتعترف بصوته، تنقذُ ملامح موهبته من التعتيم والموت السريري في الاستقرار الذي يمتدحه شاعرنا.
مُساواةٌ تنزعُ القدسيّة عن الأصنام والأيقونات، لكنها في الحقيقة لا تخلع احترامها عن القيمةِ الإبداعيّة والجمالية.
أجيال الشباب التي تَمَّ التعتيمُ على روحِ إبداعها ومحكومة بالأملْ، انتفضت تؤسّسُ لخلاصها في إصلاحٍ يناسبُ طموحات سوريا وطاقاتها.
أن تكون مَسيحاً ولا ترى سوى آلامكَ أنتَ، فهذا غشّ... وهذا نقّ.
أصدّق نزيه حين يبدي كلّ هذا الكره للمثقف، لأنني أعتقد أنه يسمع صوت ذاته فقط. لم يستطع الشعر والفنّ التشكيلي تطهيره من شروره الصغيرة التي يتحصّن بها خوفاً من شرور الآخرين؛ يعزلُ نفسهُ في قُمقم الـ «أنا» معتقداً أنها خلوة الصوفيّ، ويبدأ كره الآخر مُعتقداً أن في الكره المعلن تعفّفاً عن الحبّ ودنيوية الحبّ وبالتالي تقرّباً من صفات الأنبياء. وما إحياء دورة الأنا هذه الآن، بهذا الضخّ والضجيجْ الإعلامي سوى إمعان في النرجسيّة من أجل إنتاج سلطة نرجسّية جديدة تثور على الثورة فتكون هي البطل وتكون ضحيةُ بطولة الثورةِ في الآنْ.
أن تشتمَ آلام الناس وحاجتها إلى التغيير وثورة كرامتها ضدّ الظلم يا سيّدنا المخلّص الجديد، مخلّص ذاتهِ فقط... فهذا حرام.

كاتبة من سوريا

السفير الثقافي 27 كانون الثاني 2012

***رد على نزيه أبو عفش حول الحوار الذي أجرته معه «السفير» بتاريخ ٢٠١٢/١/٦*

■ ابراهيم اليوسف

شعر

■ ابراهيم اليوسف
■ إسماعيل الرفاعي
■ المثنى الشيخ عطية
■ بشير البكر
■ بول شاؤول
■ جبران سعد
■ جولان حاجي
■ عبد الوهاب العزاوي
■ فواز قادري
■ محمد عيد
■ نوري الجراح
■ ياسر خنجر

■ ابراهيم اليوسف

الطاغية يتوضأ بالدم

-1-

أيّ وضوء
أيّها الأسد الصغير
قمت به في صلاة العيد
حيث صنبورالوطن
يدلق دماء.

كلّ هؤلاء الشهداء
كلّ هؤلاء الجرحى
كلّ أنات المهجرين
كلّ غضب الأهلين
تحت قصف طائراتك
التي لم تعرف أجنحتها
هواء أرضنا المغتصبة
منذ عقود طويلة.

-2-

وطن بكل كيلومتراته
لا أراجيح في شوارع مدنه
هذا الصباح المنكسر
لا بالونات ملونة
لا ألبسة جديدة لأطفاله
لارغيف
لاماء
لاهواء
مادام هديرالدبابات
لايترك الأطفال ينامون
في انتظار قذيفة
بدلاً عن سكاكرالعيد..!

-3-

لافرق في عرف الطائرة
أوالصاروخ
أو الرصاص
بين شجرة أو منزل عامربالوطن
بين نهروشارع
بين جامع ومدرسة
بين مخبز وملعب
بين مدينة ودريئة
حيث كلها تصلح
عناوين
لحرائق
ورماد
وأشلاء....!

-4-

ثمة عيدأكبر..أكبر..
أكبر
هوسيد الأعياد
قادم
يعدُّ السوريُّ أنفاسه
وهوينتظره
عيدٌ من روزنامة جديدة
دون طاغية
ودماء
وجياع
وسجون

-5-

الأمكنة التي مرَّبها الطاغية
الأمكنة التي جلس فيها الطاغية
الأمكنة التي لفظ أسماءها الطاغية
الأمكنة التي رآها الطاغية على الخريطة
ووضع أصبعه عليها في حضرة الطيار
كأهداف حية..!
الأمكنة التي لم تعد تتنفس منذ سنوات
طويلة
تحت أثقال الجرح والأنين
تلك الأمكنة كلها
في حاجة
إلى الاغتسال
من رجس
هذا القاتل
وعسكره..!

-6-

الطاغية الذي وضع الوطن في أحد جيوبه
مثل«كريدت كارت»
كي يضع شعباً من أربعة وعشرين مليوناً
في جيب آخرضيق..!
لن تتحقق نبوءة أبيه
في أن يجلس على كرسي الحكم نفسه
«أسد سادس عشر»
ممهداً الطريق في كل مرّة
إلى أسد تال
على «طريق الأبد»

عيد الفطرالجريح 19-8-2012

شاعر وصحفي من سوريا

إسماعيل الرفاعي

هم من نسل أرضك الطيبة يا أمي ونسلك الطيب

أمي هل سجَرت تنّورك لأخوتي الشهداء..
هناك في الأعلى
وأضأت مصباح قلبك
لضيوف الرحمن
الذين هلّوا كالأقمار
في زفاف الأرض؟
كأنّي أراهم يطوفون حولك الآن،
تمدّين لهم خبزك المعجون بماء عينيك الحزينتين
وقمح السماء..
تشدّهم رائحةُ الفرات إليك،
وعصبة الحرير
على شعرك المحنّى
إهدي لهم كي يناموا،
وهدهدي أرواحهم
على سرير القصيد،
وقصّي عليهم حكاية الحنافيش
في ليل المدينة الأخير..
امسحي جباههم بماء الورد
كما كنت تفعلين بأرواحنا
على عتبة المساء..
كلّ يوم
ولا ترفعي أجنحة الغيم عنهم..
لا توقظيهم أول الفجر
على صوت الدعاء يا أمي،
لا تضعي لهم مائدة الإفطار باكراً..
دعيهم ينامون ملء طفولتهم،
لم يحسبوا أنّ أدراج السماء
عالقة على بوابة العمر.. هكذا
وأنهم سيجنون في طريقهم
كلّ هذه النجوم،
وأنّ الشموس
كل هذه الشموس
ستنزّ من جراحهم.. هكذا
وأنّ الأقمار..
كل هذه الأقمار
ستتقاطر عليهم
كقطر الندى
هم جاووُا من حيّنا..
على بعد قريتين..
من الشمال ومن الجنوب،
هم تقاطروا من باب عمرو وباب السباع..
من حمص العدية
وحماة أبي الفداء..
كلّهم رضعوا حليبك الطاهر يا أمي،
وجاؤوا إليك
من حيث تحسبين
ولا تحسبين،
على غفلة من أغصان الزيتون التي يحملون..
على غفلة من بساتينهم
وزنازينهم
ورفاق طفولتهم..
هم جاؤوا هكذا،
بصدورهم التي اتسعت
لنسيم الحرية العليل،
وضاقت على وابل الرصاص..
هم.. من درعا المحطة
ودرعا البلد..
من اللاذقية، وجبلة، وتلبيسة، وجسر الشغور..
هم من أرضك الطيبة يا أمي
ونسلك الطيب..
يتقاطرون
ويتقاطرون
ويتقاطرون

المثنى الشيخ عطية

أيها الشاعر العابر شوارع حمص.. بنعالٍ من رصاص

أيها الشاعر الرائي بنظارة من غبار
أيها العابر السائر في شوارع حمص
باحثاً دون جدوى وسط القنص والراجمات
عن "وشاحٍ من العشب ترتديه أمهات القتلى"
في زمن المجازر السيريالية واجتراح المعجزات
شارداً إلا عن همّ إشعال غليونه المطفأ
من ريح قذيفة دبابةٍ لم يسأل أين سقطت
أيها الشاعر المستقبليّ المزهوّ بعمامة المهديّ
بارزاً يشير له الناس، شفافاً لا يراه الرصاص
أيها الكبير المتعالي بتواطؤ ديكتاتور صغير
أيها الشاعر المهذّب الذي يلوم "رئيسه المنتخب"
لم لا يضع الزهور على جثث الأطفال الذين ينزع أرواحهم
أيها الشاعر "المفرد.. بصيغة جمع" من الشبيحة
يسجدون لمسخٍ شبّيح رأوا فيه صورتهم
أيها الشجاع الذي لا يعبأ بأشلاء "الرّعاع"
متناثرة حوله في النار والتراب والدخان
يدُ طفل هنا، قدم رجل هناك،
قطعة لحم ما تزال معلقةً في الهواء
كأنها من رأس بنتٍ..
أيها المناغم خطوته على موسيقى فاغنر بين الأشلاء
دون أن يخلخل إيقاعها صوت انفجارات القنابل
أيها المغلق أذنيه عن صوت تكبير المآذن على الجثث..
كي لا يلوّث التكبير موسيقى احتفالها بجائزة نوبل
أيها الشاعر "العابر شوارع حمص بنعالٍ من رصاص"..
ثمة رجل يمشي في شوارع حمص بجانبك
محتاراً ماذا يفعل!
بالطفلة التي يحملها بين يديه
بالطفلة النائمة كما يليق بأميرةٍ حمصية نائمةٍ
لا يعكّر صفو غفوتها سوى
لطخةٍ حمراء على جبهتها
تبدو مثل ثغرةٍ مفتوحةٍ رغم تعميتها
دون جدوى من مقص الرقيب
أيها الشاعر الأريب، العارف..
ثمة رجلٌ تظهره الكاميرات بجانبك
يحمل جثة طفلته ومازالت تأكله المخاوف
على طفلته،
رجل قد لا يعني شيئاً لك
لكنه يحمل طفلته ومحتارٌ أن يسألك
أيها الرائي إن كنت تعرف مشفىً ميدانياً
لم يحوله القصف بعد إلى مقبرة!؟..
أيها الشاعر المتكابر بحجم مجزرة..
ثمة رجلٌ إلى جانبك، في شوارع حمص
يمشي بين أنقاض باب عمرو، البياضة، باب السباع
القصور، الخالدية، الوعْر، وكرْم الزيتون
وما لا تريد أن تسمع من أسماء أحياء
تقاوم الموت صابرة تحت نار القتل
أيها الشاعر المهووس بالأسماء
وليكن من يكن اسمك.. ثمة رجل في شوارع حمص..
يحمل جثة طفلة لا يصدّق أنها جثة طفلته
يمشي ذاهلاً في مدينة محاصرةٍ بالمسوخ
يدقون أكفّها بالراجمات على خشب الصليب
أيها الشاعر الأريب السائر في شوارع حمص
ثمة رجل تظهره الكاميرات بجانبك
يلقي ثياب العار على عراء الشعراء
أيها الشاعر العاري في شوارع حمص
دعني أخاطب الرجل الذي بجانبك
يا أنت يا رجل يا حمصي يا محتار أخاطبك..
أنت ياابن مدينة الشعر، ياابن مسيحة الخلاص
ياابن من ارتضت باسمةً أن تكلّل رأسها
بتاج الشوك تحت الرصاص
أن تسمح لي أنا الرجل الدامع القلب
أن أقف معك مواجهاً دبابات الشبّيحة المسوخ
حارساً نوم أميرتك النائمة..
من قطعان الشبيحة الناهشة للجثث
يا أنت يا رجل يا حمصي يا محتار..
اسمح لي أن أقبّل في جبين طفلتك النهار
أن أقبل الجرح على جبهتها
وأن أرفع بندقيتي في وجههم
وأطلقُ النار.

شاعرمن سوريا

■ **بول شاوول**

أطفال منتصف الشموسِ

(إلى الشهيد حمزة الخطيب ورفاقه)

كانوا يحملون أيامهم الصغيرة بلا أوزان،
وبأوراق كثرى،
(خفة الصبح
هدوء العابرين)
أطفال منتصف الشموس
أطفال كسور النهر
أعمارهم خلفهم ولا من يشير إليها
ولا من يسبق عينيه
إلى أجسامهم،
(خفة الصبح
هدوء العابرين)
أو يراهم خلف أكداس الصمت
أصوات ولا هواء سابقاً إليها
ولا رحمة
ولا نشيج
ولا شهقات تروى

أحزان الموتى ولا موتى يَذَّكرون
ألوان الشتاء ولا شتاء
يعتذرون باكراً من ربيعٍ عائد
من سماء أثقل من الرصاص
أوطأ من عيون الجنود الغابرين
كيف لكل هذه الأحمال،
(خفة الصبح
هدوء العابرين)
كيف لكل هذه الأحمال الشتى
كأنْ كلَّ لحظة قاطعة ما يشبهها عليهم
كأنْ كل نظرة سادرة ما يشبهها
على أديمهم الغامض.
أطفال كسور النهر،
أمهاتهم خلفهم (ومتاع السائبين)
أقوى من صمت الوجوه
أقسى من أيدٍ تلوِّح بالمناديل
أوسع من صرخة تمزج الهواء بالحجارة
تشق الأرض بالدمع

أمهاتهم وراءَهم ومتى للأمهات أن تكون وراءَهم
أطفال الثورات
ومِنْ أرحامٍ خصبة تدّر اللبن والعسل
والسهول
ومياه الجبال
من درعا تكبر الأنامل على الجدران
بألوان الهشاشة،
بألوان مجهولة
«الأطفال يريدون إسقاط النظام»
وبخطوط تختلط ببراءاتهم،
بتلك الألعاب الصغيرة الصغيرة من شتاتٍ
كيف للغرائز الأولى أن تكتب البدايات:
الدم القادم،
الأرض العطشى

(الوحوش وراءَهم يقطعون الأنفاس
بأيدٍ عالية
يُقبلون بأيدٍ عمياء من قتلاهم
عمياء من ضعف الأقمار عليهم
من خفوت الموتى)

من درعا الطبشور القاسي بأناملَ رمقٍ الغيم،
إلى دير الزور، حماة، حمص، جسر الشغور،
تتواكب «الأجسام» نثرةَ اللحظة
البارقة،
خمائر اللحم الهش،
يتهافت الأطفال كأن تنظر إلى السماء
وتتساقط نجومٌ كثيرة،

كل نجمة أرضٌ عائدة،
كل نجمة دم بكر،

(الجنود لا يقتدرون
ولا الطغاة
ولا صُناع الأعمار المسروقة)

طفل فاثنان فعشرة فمئة.. فأكثر
فألف فأكثر،
كيف يعادل الطفل فجأة أجيالاً مديدة
بأجسام مكتملة من طزاجتها
بعيون مفتوحة من الأبد إلى الأبد
بعيون أنضجها الموت،
أرَّقتها الطعناتُ سَمَلَتْها المسامير
بصدور لا تعرف غير الرحمة في بساطة جلدها،
كيف يتساوى الطفل بالشجر القديم
وبكلام الينابيع الذاهبة إلى الينابيع

(الطغاة لا يعتذرون
يدّربون أشجارهم على القطع
هواءَهم على الغبار)

الأطفال كأنما من أزقة سحيقة ومُدْبرة
يتهيأون ولا يدرون لرسائل عالية: من عَلّمهم هذه
الأبجديات الحية،
مَنْ فَتَّح اجسادهم قِبلةَ العواصف،
نِذرَ الخناجر:
صادَقوا أجسادَهم وبوفاء نادر
صادقوها حتى اللحظات الفاصلة،
المضمرة بجمودها،
الفائحة بألوان الرايات،
العامرة بأمهات متنِ الجذور

(الطغاة لا يعتذرون
بلا رؤوس تُمهل
بلا قبضات ترتعش)

الطفل المبتسم بعينين مطفأتين: يا للبسمة الكاملة
كل البسمات الأخيرة كاملة،
كالفجر قبل أن يتلاشى
الطفل عارٍ بجروحه: يا للكسوة الملكية،
الطفل المبقور: يا للهاوية المشعة،
الطفل الممهور بتوقيعات الجنود فجواتٍ
محفرة على ظهور هيأها الطعن لسماءٍ خالصة،

أطفال الربيع غاسلِ الممرات،
مقتحم مجاهل العمياء،
عابر الدَّساكر بأبهة السنوات العالية
ولا ما يُوقِع جريه، من غابة إلى
جبل، إلى مدينة،
المدن كلها كأنْ باتت أسرى ربيع
الأطفال الشائق،

لا أحدَ يعوِّض أياماً سائبة
لا أحد يُرجع الأطفال إلى الوراء،
وراءَهم عسير كأنْ تطبق شفة على
شفة
وراءَهم أمامَهم بهامات كثيرة،
لا أحد يقطع دروبهم عليهم: قطع الهواء
للهواء، الأنفاس للأنفاس،

(كيف تمتزج اللحظة الواحدة بتواريخ سحيقة
(كيف يصير كل شيء أطفالاً يكبرون في مآلاتهم وأحوالهم،
كيف تنعقد الأعمار بالأعمار:
الأطفال يعتمرون أقداراً طويلة
الشيوخ يخلعون سنواتهم ويصيرون أطفالاً:
الأشجار ترمي أوراقَها كلها عليهم دفءَ
فصول اجتمعت في عين واحدة،

النسوة التعبات ينهضن على حواس ابنائهن
يصبحن حواسهم الطالعة المتكاثرة بلا عدد أمامهم

(الطغاة لا يعتذرون
قاماتهم أقصر من رغباتهم
عيونهم أقسى من معادنهم
أيديهم أغبى من أصواتهم)

أطفال الربيع الأول قبل الأوان
هل ولدوا فجأة ومرات على تلك المعابر السائبة
على حافة المنعطفات الخطرة
هل ولدوا ليكبروا من دون ان يموتوا
أو ماتوا ليكبروا من دون أن يموتوا:
أي كفن عارٍ للولادات الآتية
أي كفنٍ يسبقه الأطفال إلى نهاياتهم
ولا أثقال ولا حقائب ولا وداعات ولا عتبات تَذْكر
هل ولدوا لحظة موتهم
أطفال الربيع الأول،
هل ولدوا مرة واحدة ليعيشوا مرات،
في الأول من كل ربيع أول،
في الأول من كل شتاء أول،
في الأول من كل آذار أول
في الأول من كل شهر أول
في الأول من كل عصر أول
في الأول من كل موت أول
في الأول من كل زمن أول فارق فصوله القديمة
بلا أسف،
الزمن الأول يولد مرة لعيش مرات
كيف يقسم الأطفال زمنين بلا رحمة،
ولا ندامة، ولا رجعة، ولا بقية،
زمن الموتى، زمن الولادات الغامضة،
زمن القتلة، زمن الأعناق الموطوءة،
زمن الدمع الغادر
زمن الأصفاد،

زمن الذل الطويل بلا تخوم ولا علامات
زمن القطعان المتدافعة بلا أوصال إلى أقدارها
كيف يقسم الأطفال زمنين بموتٍ واحد
زمن المُوَّلين بلا أسف،
من طغاة وموالٍ وقطاع كلام وطُرُقٍ وأنفاس،
تجلجل صدورهم بالأصفاد
تثقل حناجرهم بالمقاصل
طغاة الأمس

(كيف يقسم الأطفال زمنين بأصابعهم
بطبشور من ألوان عيونهم
بدم الشهقة الأولى
بخطوط البدايات
هكذا وللجدران ان تذوب
تحت غبار طبشور من ألوان عيونهم
وللحراس أن يسقطوا بلا هاوية ولا صلوات
هكذا وصرخوا بالأبيض والأسود وبالقمصان
وما تبقى في جيوبهم من ترابٍ وسماء
وهكذا صرخوا من تلقائهم (كأن ترتطم الجداول
بأكمة)،
من تلقائهم، من تلقاء الطبائع التي اختمرت
في أحشاء أمهاتهم
هكذا صرخوا بما أوتوا من أعمار لا يعرفونها:
«أحياناً لا تقتصر الحياة على العيش»
«أحياناً العيش هو الموت»
«أحياناً بلا خبز ولا لبن ولا بيت ويكون للحياة
أن تكون»

بدأوا ربيعهم في أحشاء امهاتهم
(أجنة تعلَّمت في العتمة كلام الضوء
تعلمت في الصمت لغات الأبدان
وبلا مخاض،
وكيف يقفز الأطفال أحياناً من الأحشاء
إلى الجبل بلا مخاض؛

كانوا في أحشاء أمهاتهم
يُصغون كثيراً إلى الشموس المُحترقة
على وجوه آبائهم وأجدادهم وأخوتهم
يتوجعون على مهانة ما يدور حولهم
وقبلهم، وأبعد وأقرب،
فخرجوا يرتضعون طلاسمَ الهواء، مفردات
الجوع، شيفرات القتل، وسر الأهواء،
ولعبة الشوارع والأرصفة والحيطان
يصرخون «أحياناً لا تقتصر الحياة على الولادة،
ولا على الشباب ولا على العيش، ولا
وراء الجدران...»

بدأ ربيعهم في أحشاء أمهاتهم
خرجوا يوافونه بأسئلة صعبة
قلَّ نظيرها حولهم
خرجوا يشهرون أسرارهم المقبلة
بلا رهائن، ولا مِهن ولا صنائع
خرجوا من جدران صَفيقة
بلا إذن ولا هوية ولا ملامح ولا أوهام
هكذا أحرار بولادتهم المفاجئة
مسافرين للرياح وبلا عتبات
مهملين وراءَهم سنوات يجهلونها
موصولين بوشائج الأرحام من أول درعا إلى
آخر قطرة دم في دمشق.

انهم زوّار الربيع وبلا مقدمات ولا طقوس ولا كراريس
«فلنَعِش الربيعَ هنيهة مطلقة (الربيع المطلق)
«فلنَعِش مكتشفين الأفول،
«أفول الطغاة (في ربيعنا يا للمصادفات)
«زمن الطغاة المتلاشي على رؤوس أصابعنا
«زمن القتلة الغريق في دمائنا....»

لم يسبقهم اباؤهم هذه المرة، (ولا في المرات الآتية)
إلى المدن، والأزقة، والحقول والمتاريس،
لم يسبقهم اباؤهم هذه المرة إلى أحلامهم
لم يسبقهم طيرٌ إلى شجرة
ولا حصان إلى جبل
ولا هواء إلى سهل
ولا نشيد إلى الميادين
حمزة الخطيب ورفاقه الشهداء
أطفال الربيع
يحملون أيامهم الصغيرة بلا أوزان
خفة الصبح
هدوء العابرين

جبران سعد

المسيح يعود إلى طبريا

إلى محمد منصور وحسان عزت وابراهيم الجبين ومعن زكار في الامارات ، إلى صبحي حديدي ولينا شماميان وعائشة ارناؤوط وفارس الحلو وسلافة عويشق في باريس ، إلى ياسين الحاج صالح ونشوان اتاسي وعتاب لباد وعماد حورية ورنا سفكوني وماهر عازار وحمود شنتوت وزهير حسيب وجهاد سعد وراشد عيسى وعبد الاله فرهود وديما الشكر ونبيل عجان وديمتري افجيرينوس وفراس نعناع ومعن عبد السلام ولينا هويان الحسن في الشام ، إلى نوري الجراح وديانا الجابري في لندن، إلى علي فرزات وسومر الياس وكريستين حجل في الكويت، إلى ديما اورشو وبشارة ندروس واكرم قطريب وجانسيت علي وماهر شرف الدين ونضال موسى ولميس ضاشوالي في الولايات المتحدة ، إلى انكيدو اميش وزاريا زرداشت وسعد حاجو وسحر برهان في السويد . إليهم وإلى اصدقاء سوريين كثر اقاموا او اغتربوا في اربع ارجاء الأرض، ولاتزال حيواتهم واصواتهم و ضباب ايامهم و صِبا ارواحهم تَتفقّدُ من مسافاتها بلاداً مَنحَتهم عبيرها وفتّت المسك في شوارع طفولتهم . إليهم جميعاً قصيدة «المسيح يعود إلى طبريا». طبريا التي مشى على مياهها المسيح وكانت مشهد أعماله ومؤمنيه الأوّل. طبريا التي تبعد رمية حجر جنوب دمشق. طبريا التي ارى بأمّ عيني اليوم، موكباً خرافياً من الاف شهداء سوريا يمشون على مياهها حُفاة وعُراة من دمائهم وينادون بأعلى صوتهم : اذهبوا وتلمذوا كلّ الأمم على آلام سوريا .

استوكهولم 14 نيسان 2012

أيتها البحيرة
أيها الصيادون في غروب مراكبها
أخبروا عني الأولاد والنجمتين
ها أنا
الشاهد الإلهي
أقرِّب الأزمنة والرؤيا
على حافة الليل في هذا العالم
وما من أحد
ما من زورقٍ يأخذني في نزهة أخيرة
الأعراسُ المخمورةُ تَصفو إليَّ
في صخبٍ لا يُسمع ولا يُرى
وداعاً يا امرأتي
وداعاً للغيوم في راحتيَّ
وفي صوتي
الأبدية تخطبني
إلى كنائس من مطر
سارقو خشب الآلهة
ونيرانها
يصلبون الورد
على كتف أمي
أيتها البحيرة
كنتُ طفلاً وجبلاً
ثم ركبت الفصول وأحببت
وما من أحد
ما من زورق أخير
أخبري عني الأولاد
والنجمتين
جُنونيَ القديم
صار مساقط الأنهار
وحُبي
إلهةٌ جديدة
بلا غرائز ومؤيِّدين.

شاعر وكاتب من سورية

جولان حاجي

أيّنا القتيل المقبل؟

ابتسامة
أغلقوا الصيدليات والجسور.
سدّوا منافذ المدن ومداخل الساحات،
ثم ناولوه بطرف الحربة عنواناً خاطئاً:
الهاوية أو الجدار.
كان الشارع سريرَه.
حوله مناشف تتدلّى من مقابض الأبواب
لم تمسحْ بعدُ عرقَ أحد.
كانت الكلمة تغادر فمه
فتتدحرج أمامه مقطوعة الرأس.
راقبوه ليروا كيف يكبر حجرٌ زرعوه في جسده
يحفر رصيفاً فيجد نافذةً تلمع تحت البلاط
أو سماء صغيرة لم تثقبها عين.
فما هذه الابتسامة الفادحة؟
ليست رحمةً أُهيلت على أهل الظلّ،
ولا غفران المسدسات في زرقة الليل.
هذه الابتسامة تعبُ الجلاّدين.

أزيز
إلى مي سكاف
نحن وحيدون، في البدء والمنتهى،
مثل مَن سبقونا.
رأينا الألغاز
الوجوه المتخمة بالمدائح
الأعزل، بلا شفيع وبلا سند،
في عراء النظرات.
رأينا في قبح العمارات بذخ المجرمين
ولم يرحْمنا حذرُنا.

*

الأزيز، أيها الخوف،
يمرّغنا في العنف الذي أنضجنا.
الرصاصة تمزّق الهواء ولا تقتله،
فيلتئم كماء النبع
حيث نرى كم نحن جميلون في الخطر
ونسمع الغرقى يتنفّسون في ساحات الفجر.
الدم حولنا كجرّافات الصمت يضيء الليل
والسحاب فوقنا إدانةٌ للأبدية.

*

اطمئنّ.
ما تسمعه ليس الطلقة.
ما تراه ليس السكّين.
ليس لك في ليل الفوضى
نقودُ الحظّ الوسخة
أو زهو الزناة بالنجاح السهل.
اطمئنّ ولا تلتفتْ.
مسلسلات رديئة توالتْ
ليسطع خوف الوضوح كشيخوخة الثمرة.
لن يختزل أحدٌ ما يتّسع:
أنفاسنا تُبدّدُ أعذار القتَلة.

أخاديد
مَن يدري أيّنا القتيل المقبل؟
يعذّبنا الوقت
قبل أن يغفو مثل لعنة الخلود.
الهلوعون لا ينامون
تزمّ جفونهم بروقُ نيسان
ليبصروا الأجنحة داميةً في غبار المنامات:
يعبر الموتى إلى البداية فنستفيق مرتدين قمصانهم
محمولين على زفراتهم.
يترامى البياض كالحزن وتبقى أخاديد
للنجوم وبراءة الحصى وحطام الهالات.
أسير وحدي.
يتقدّمني الشؤم
مكشّراً بعينيه المتبسّمتين في قفار الشوارع.
لم أمتْ.

وبّختني الجدران
فآنستُ مَن ضاعوا ومَن يئسوا.
سُرِقَ صوتي ولم تُسْرَقْ شفتايَ:
دمعةٌ تغرقني
وأخرى تكبر لأطفو إلى نوم الله.

ما عدتُ صغيراً
استُدعيتُ إلى الجيش خادماً.
قبل أن ألوذ بالقطار، فراراً من مدينتي، آمناً للحظاتٍ
فحسب، تخفّيتُ في منزل أختي أياماً طوالاً، أدخّن
في المطبخ وحدي، منتظراً مَن يعيلني ويطعمني. لا
أجسر على الخروج إلى الشرفة، أتأكّد بين سيجارة
وأخرى، من أن كلّ شيء مغلقٌ جيداً: الأبواب،
الحنفيات، الهاتف، عقلي...
أمام الحيرة مرّ سحابٌ كثير وقمرٌ ساهم وريحٌ
جميلة كالمطر، لكنّ نواح أمّي على الهاتف ظلّ
يضعضعني.
مراراً اختلستُ النظر إلى سروةٍ عالية، قريبة لكنها
بعيدة عن يدي، وردّدتُ لنفسي كمتوحّد مأخوذ
بالدوائر، لا يرفع عينه عن عشبة نبتَتْ بالصدفة في
أصيص قرنفل:
"كرات السرو عناقيد من خصى القطط. مجرمون
طلقاء وأنا مطارَد!"
كان وجهي في بلور النافذة أُذنَ رجلٍ عجوز، وظلالُ
كهولتي تتفرّع في غضون عينيّ.

ليلةٌ أخرى في الممرّ
لسان الهرّة الخشن يلحس خدّي.
أُسدِل قلنسوة الصوف على حاجبيّ
وبخار الحساء يتسلّق نظّارتي المهشّمة.
بالأمس قذفوا إلى الممرّ سريري
ثم صاحوا بي: "نَمِ الآن"،
وفراشي وسخٌ لا يلين
وجفوني مضرَّجةٌ بلهو المنام ذاته.
عبر الممرّ الواسع، المُشرع على الجنوب
رأيتُ قفار الشوارع
وبيتيَ البارد البعيد.
ردّدَ الليل سعالي الدامي
ورفع الصداع عينيّ الدامعتين
إلى قمرٍ اكتمل بين غصون الصنوبر
ساطعاً ومؤلماً.
سألتُ حذائي،
هل تذكر هذه الأرض:
الشحّاذون يسوّرون النوافذ بأحداقهم
وأوّل المصلّين يعانق آخر السكارى.

وزنٌ زائد
في عينٍ مغسولة
بعد ظُهرِ الصيف
يُنْشَبُ ظُفرٌ مقصوص
هو هلال الله.
كأنه، حيثما ولجتُ، مهبلٌ،
فمٌ يزيد،
أو قبرٌ ينعسُ في صفحة الرمل،
أو ذاكرةٌ بقيتْ فحسب
لعظام مهرج
وبضعة مفاتيح
وقطرة دم يبستْ.

•

على معدتي شدَدْتُ
في هذه الأرض الكافرة.
خسرْتُ ستة كيلوغرامات في عشرة أيام.
ما انفلقَتْ وجوهٌ مجَصَّصةٌ دقّقْتُها
الحرقةُ في عينيّ، وفي حلقي،
والحافرُ الذهبيّ يضرب جبيني.
ليس لي
هذه الفخذ المشتهاة في كوّة السيّارة.

كالمعاصر
الشتائمُ تدور على لا شيء.
تفاهاتي جمّةٌ:
أنعس في مطلع المأدبة،
أضحك، في السرّ،
من كلّ ما أرى
وطبعي أن أهربَ
من أقدام الليل البيضاء.
أنا وجهٌ حارّ كالدمعة
ذاهلٌ
على شبابيك السيّارات العابرة.
يا حبُّ،
فمي الممضوغ بأسنانك
بُصِقَ على القارعة دماً.
فأيُّ رغبةٍ بالعيش ستبقى؟
ما من عاصفة أخرى لتهبّ نحوي.
لعابي يسيل من أنياب البحر.
الشمس تقرع بعظامي بابَ القمر.
الغوّاصون يلملمون عيوني من قيعان السموات.

•

لَكَم غمغمتُ، وملء فمي بسمةٌ لا تُفْهَم،
في صبحٍ سيّدةُ العار، مسكني ليس الذرى
فلطالما نمتُ على أسرّة الآخرين
ولطالما تسوّلتُ، في استحياءٍ، زادَهم.
الساعة تدقّ الخامسة فجراً.
سيقت عجولٌ
تتقدّم الدلالين إلى سوق الماشية.
ترمّلت النجوم.
محملقاً بالفراغات، متلصّصاً من الزوايا،
بين غروب الشمس وطلوعها،
فشلي يمحو الله.

رسالةٌ لم أُتمِمْها
الجدّةُ التي أمرضَها الريف
فجاءت، للمرة الأولى، إلى هنا
استغربتْ أنهار السيارات
في الضجيج الذي أذبل السواعد.
اختلط اشتباك الشوارع واشتباك عروقنا
وأشاحت هي عن كثرة الرؤوس الحاسرات:
"نسوةٌ كالقطط..."
أبهجتْها الأبواق الممنوعة بعد الثامنة مساءً
فاستفسرتْ: "أزفافٌ كلَّ يوم؟"
ومرّتْ مرآةٌ ضخمة
في عربة صغيرة تباطأتْ ولم نر سائقها
نظرنا فيها، ورأينا السماء غبراء محمرَّة الأطراف.
إنه أرَقُّ السفّاح المرهَق-
بأنامله الرقيقة،
وحيداً كقفل لا تضجره عزلة الأسلحة-
ما يُبقي العاصمة وضّاءةً هذه الليلة.
ثم جاءَ الصدى قويّاً
وحفر في سور القلعة قبلةً سوداء.
أنينٌ يعضّ الظلمة
استقرّ في فم جرو
صدمتْهُ درّاجة ناريّة
سمّره مصباحها في رقعة حتفه الصغيرة.
بأيِّهم، والحشد لا يطاق، أستنجد؟
كيف أصير مدينة نفسي؟
القتلة مرئيّون أينما جالت عيناي.
عليّ بالسعي لأعثر على قتلايَ.
سأبدأ بالمرآة.
النهار.

شاعر من سوريا

عبد الوهاب عزاوي

فم مأكول يعجز عن الصراخ

إلى نوري الجراح

مقبرة
عينٌ عالقة
خلفها سهلٌ شاحب
الريح تجري في المكان
وبين الجثث
يسيل الكلام
الغربان تطير
العيون في المناقير
تَرى
والوقتُ المقتول
منزوعَ الفتيل
يدور.
الظلال تجري
والأصابع تقطر خساراتها
وحدها تنورة خمرية (أو ما بقي منها)
تقطع الرمادي
بين الدماء
وحشيش المقابر ينمو
كوشم بين ضلوع
ترجف
كودع البصّارة.
أمواتٌ مستقرون
وأمواتٌ ينبضون
كقنابلَ
بين أحياء (قد يموتون)
في شوارعَ
تتقاطع بلا هوادة
تتلوّى كأفاعٍ في الطين.
العيون مغمضة
والقمر طلقة تنزف
الشبّيح بعينيه الكامدتين
يرنو إلى ملائكة تتنقل بحذر
بين القتلى وأشباه الجمل
إصبعه المبتورة
تسحب الزناد
عن ظهر
قلب.
رجال المطافئ يغسلون بقايا المجزرة
اللحمَ
والدمع اللزج
الحذر
وتمارينَ الحقد (والحدس)
والسكتات المتوترة
الإيمانَ المثلوم
والترابَ
وحدها الوجوه تعلق بالجدار
ضربات أحمرَ
لا يشيخ.
الجندي المتعب
بعينيه الحسيرتين
وقلبه الضاجّ
يقف عارياً
من سلاحه
وبدلته
(حتى ساعته الرخيصة بعقربيها المترددين)
لم يكن يملك غير بقايا الطريق على القدم
ورصاصةٍ في مؤخرة الرأس.
الملح يرشح في الماء
كدمدمة موتى يفركون ما بقي من الحياة
على أذرعهم المتصلبة
عميقاً
في الصمت
كان الأمل
جثةً يتناهبها السمك
العينان واهيتان
والفم المأكول
يزبد
ويعجز عن الصراخ.

شاعر من سورية

فواز قادري

مراكب الرمال

. طوفان
. مركب تونس
. مركب مصر
. مركب ليبيا
. مركب سوريّة
. مراكب تلحق بالمراكب

طوفان
التاريخ رمل ناعم
والشعوب مراكب راسية
خارج الزمان
الطوفان ذاكرة لا
يقرع أجراسها أحد
مطر جريح مرّ على
كثبانها
بكى نديمته الأرض
ولم تحرّك عزيمته
حجراً صغيراً هنا
أو قلعة موت راسخة
هناك
فكيف لسيله أن يتكوّن؟
وماؤه حبيس
في قوارير صبر ضيّقة
في بلد زنزانة
بلد مخفر
شارع غرفة توقيف
بيت بلا خبز ولا أزهار
بلد يطارد مشيّعي شهدائه
الجند والمخبرون
ويقطع سرّة أحلامه
العسكر
وكان على التاريخ أن
يمشي
كان على التاريخ
قبل أن تنتصب شاهدة قبرعلى
الأنهار
على السواقي
والغدران والمصبّات
على حياة خبيئة في
الأرض.
في هذه الرمال
دُفن تاريخُ شعوب
مات قهراً
وانتثر رفات أيّامه
في العراء.
..
كان لا بدّ للطوفان
من سبيل
ومن مخاض مختلف
وللولادة من قابلة
شعبيّة
ليديها
لون شيب أمّهاتنا
وعروق أياديهن
المفطّرة
وفي عينيها
بقايا سهر قديم على
فراش الحمّى
وفي صدرها
حليب الكرامة والأمل
وعلى شفتيها
زغاريد على قد حالها
تُفزع عاتي الموت
من هاهنا
مزّقت أرواحنا
أكفانها
وتراكضنا في الشوارع
قدماً إثر قدم
هتافاً إثر أخيه

صرخة طاعنة بالسن
وقبضات تُحرّك هواءَ
البلاد
وكان لا بدّ للطوفان
أن يأتي
لابدّ للطوفان.

مركب تونس
هل غيّر«البوعزيزي»
مصائرنا؟
حين تلفّع بالنار
هل كان سائق عربة
خضار القدر؟
أعنّده موازين
وأثقال كافية
يزن بها الغيب ؟
في كفّة خير كثير
وفي الأخرى دم عاصف
ليأتي المطر صاغراً
إليه
وهل كان للخوف نصيب
في حريقه النبوي؟
خوف على خبزالعائلة
زيتها، مازوتها
ارتجاف أضلاع
الطفولة
في زمهريرالبلاد
كيف وازن بين الماء
والحريق؟

ما الذي تبخّر من
لحمه المشويّ؟
أهي الروح؟
وما الذي مكث في
الأرض؟
أهي الأمصال؟
أم صرخة طائر حبيس
في قفصين
الجسد التعب
وزنزانة السجان؟
أمِن غصة كدحه الواقفة
في الحلق؟
حرق تاريخ جوعنا
الطويل
وطوّح عرش ليل
صاحب سطوة ونفوذ؛
من عربة خضار معطوبة
أتى الطوفان
من يدين لا تستريحان
من دَوار ولوعة
«البوعزيزي»
ومن حريقه الداخليّ
السابق للحريق
مشى التاريخ
وفاض على الرمال الزمان.

مركب مصر

يا أمّ الدنيا
يا أمّ الفقراء والمساكين
يا نسيس روحنا الخضراء
انتظرناكِ
انتظرنا يفيض النيل
لننقذ العرائس
والعرسان
هذه الزفّة لكِ
الدفوف ورقصة الدراويش
لتستقيمي على الأرض
التي تدور
زيّناك بحليّ
أفراحنا
وأشعلنا شموع الحسين
لنضيء عقلك الباطن
ونهشُّ عنكِ الخرافة
لتفتتن قناديلكِ بالحارات.
هذه القلوع لكِ
والمراكب
الطيور ونوارس البحر
حوريّات المتوسط
ودلافينه
البيارق والفرسان
أصوات الباعة
الخبز والبرسيم
وطقطقة أحناك الرواة
الفلاحون والعَمَلة
«والحرافيش»
ينظفون سماءكِ من أدخنة الحرائق
وعينيكِ من لازب
الطين
لتسعى البهائم في الأرض
وإزهارالنبات يلمع
كأسنان العجائز
الذهبيّة.
انظري خالد سعيد
انظريه.. مازال في الأزقّة
الشعبيّة
يصرخ في وجدانكِ
يداه عاليتان في
التحرير
وروحه هدير يتوالد
خطواته دروب وشطآن
واسعة
شهوده
عشش الطين وساكنوها
الطيبون
انظريه..
نادل الثورة
وحوذيّها الفصيح
دلّ شهداءك على
صولجان فرعون
وفتّح أعين الموتى
على الحياة

الحياة بتفاصيلها
الناقصة:
مراييل المدارس
والدفاتر
أقلام الرصاص
ومبراتها
كتب التاريخ الموارية
التلاميذ الأشقياء
وشيطناتهم
فزّاعة العصافير
طعم الحليب العالق
بالأسنان اللبنيّة
رِضاعة الهواء
أثداء الأمّهات
الفارغة
جفاف الصبايا في
البيوت
عطالة الدم الخسران
ضحكات النسوة
على «نكتة»
جنسيّة فاضحة
اهتزاز طقم الأسنان

شعر

في فم الشيخ.
يا لكم غنّيناكِ:
مصر يا بهيّة
يا أمّ الشهداء
والغضب الخالق
يا أمّ المقابر
والنجوع
يا حسرة الصيادين
والمراكب والِشباك
انتظرناكِ..انتظرناكِ
انتظرنا رائحة خبزك
الأسمر
حنطة غيطانك البتول
تفرّعتْ أيادينا
التي إليكِ نرفع
تجرّحت ألسنتنا من
الدعاء
و داخت من زغاريد الولادة.

مركب ليبيا
ليبيا مركب وسنان
يطفو
على بحيرة نفط ودم
ليبيا الصبيّة
الأسيرة
شاخت قبل بلوغها
شاخ حلم أطفالها
وتجرثمت القروح.
..
أخيراً..أخيراً
خرق رمح الدم الشعبيّ اللامع
سدّة الليل
ولم يفد الزعيم
انفلات وحوش الموت وسعارها

قضقضة عظام المدن
هروب ساكنيها
سقطت هيبة الزعيم
بين أقدام العصاة
واهتزّتْ نجوم لم
يرها على كتفيه
وتعالت زقزقة عصافيرعظمة
تدور حول رأسه
طار ما تبقى من عقله
إلى سماء سابعة
جُنّ جنونه الأثير
المطليّ بحكمة جوفاء
ضاعت الدعابة من بين
أسنان
سُلْطته المتفارقة
عبوسه حتى يومه
الأخير
ضربة على الرأس
مدوّخة
صحوته المفاجئة ..
هذيانه
غضبه على شعب من ١١١«الجرذان١١١»
يقضمون سروال تمثاله
الِخرقيّ
إيغال قحطه الطويل
في عطش وردة البلاد
قطع مياه الآبارعن
الجذور.
أرض ليبيا واسعة
عليه
(وعلى الذين ١١١«خلّفوه١١١»)
ويصرّ أن يرتديها
كحذاء

وسماؤها أكبر من
غطاء
على جثة السلطان.

مركب اليمن
صنعاء طفلة القبائل
المدلّلة
تاج بلقيس المرصّع
بالأرواح
لم يعد لديها شهيّة
للخدر في مضائف
القات
خنجرها على الخصر
لكنّ صوتها أمضى
من شرر الفولاذ
على صوّان عدن
آهٍ، يا يمن آه
أيّ حليب رضع
أطفالك؟
وأيّ مهد كان أرجوحة
الزمان
أقلّب التاريخ على
وجوهه
ولا أعثرعلى إجابة
تبلّ الريق.
..
ومن ثمّ...
ثمّة فصول بعدُ في
الحكاية
يقضقضها ساهرون على
غيوم
تنسج سلّماً للمطر:
تعكّز تاريخ على عصا
العشب

ومال هيكله
على نفخة من مزمار
راع
في الطوفان
يتماوج الآن مركبه
مجاديفه الأغاني
وقبطانه أسراب طيور
رائية
يصهل مركبك على
المياه
تصهل المدن
ويحمل الزاجل بشراكِ
وترى نساؤك الدنيا
واسعة
من ثقب ضيّق في
النقاب
و١١١«كرمان١١١»
تفتح نافذة
وتصرخ: يا أخواتي
فوق كلّ ظل شمس
وتحت كل ظلّ قناع؛
للكحل مرآة وللعيون
وللمرايا وجوه عديدة
لا تُرى.
يستدلّ الرضيع على
الحليب
من نداء كتوم
هكذا استدل التاريخ عليك يا يمن
من صرخة كشفت ستر
الغيب
وسمّتْكَ باسم مرجان
الخليج
وباسم الطيور والجبال
وباسم الهواء المرسل

فلا خوف عليكَ لا
خوف
جنح مركبك
عن رمال القبائل وثاراتها
يمشي وتلهث خلفه
سطوة الأساطير والعصور.

مركب سورية
يا ويلي..يا ويلي

هذه الحرائق
!!!«بيها ريحت
أهلنا!!!«
رائحة لحم أيّامهم
أعمدة سقوفهم الخشبيّة
سواتر الحمير
والخراف
حبال غسيل لا ترتاح
ثياب عوز لا تفارق
الشمس
حيرة خبز يلوب
في بطون فارغة
انكسار فرح طفل فقير
صبيحة العيد
«يا ويلي
إذا صفقْتُ حكايا الناس
كحجرالأدراج على بعضها
ستصبح السماء قريبة من
يدي،
حرائق تمشي في
البلاد
حوذيّها
لم يعرف الغناء في الصّغر
فأضرم النيران في

القافلة
من هشيم الفرات
دخانها
من مسيله الأزرق
الصافي
من حسرة أضلاع حمص
تباعدت عنوة عن أقفاصها
من بيت مكسور الخاطر
في!!!«البيّاضة!!!«
إلى جدران تنهض
للمرّة الألف
لكي لا تسقط على
أصحابها السقوف
من جسد إلى جسد
من مدينة إلى فلاة
تمشي نيرانهم
وتقذف عقارب الفولاذ
سمومها في جراح العائلة
من مطلع صرخة
الولادة الأولى
إلى غبار طلع أزهار
وبراعم
من أجنّة في الأرحام
من فطام الطفولة
القسري
إلى انعقاد الحليب
في صدور الأمّهات
وتقطّع أنفاس الرضّع
الأخيرة
بفعل قذيفة أو رصاصة
من فجوج حوران
إلى سهول النزيف
الكرديّ في الشمال
من المتوسط

إلى سويداء القلب
تمشي الحرائق
وتتجمّر على إثرها
أرواح
في محارق لا تحصى
ينكسر حلم يافع على
الأهداب
ويسقط أمل رضيع منّي
أتشبّث بصرخة طفل في
شارع
وبملاحم حمص نشوانة
لا تمنح فرصة للقصيدة
لتلملم لحمها الحيّ عن
الأحجار
كلّ فراشة روح
وكلّ لمعة برق
وحمص لا تتعب من عدّ
جنازاتها
كم مرّة يُقتل
الشهيد
كم مرّة يُشيّع
المشيعون في الوداع.
..
أسأل أمّي
أين مهدي الخرقيّ
أرجوحة الهواء إلى النوم
مرور الأغاني إلى
أحلامي
كيف أغفو على هدهدة
القتلى ؟
قولي كيف أغفو؟
أما من حجر رحيم؟
أو تراب صديق
أما من حكاية رخيّة

أهبها رأسي؟
أقف على أشلاء حمص
فتنغزني الجغرافية
أقول حماة
فتذرف إدلب الشهداء
أقول درعا
فتهتزّ أضلاعي من
النشيج
لي قلب وحيد
وسورية أوسع من دمعة
إله
لي قلب
ودمشق أوجع من قذيفة
لي روح ذات أجنحة
كان الفرات سماءها
الوحيدة
كل غيمة بيت
وكلّ ظلّ جدار
و!!!«الدير!!!«عريشة
أقمار ساهرة
نشوانة بالدبكة والأغاني
يتعالى الشهداء
ويتكاثرون
بين رمشة وأخرى
تركض القصيدة خلفهم
ولا تلحق
وتخرّعلى أقدامها
المراثي
من الشمال إلى
الجنوب إلى الجحيم
آلاف الديكة تنادي الصباح:
هلُمّ أيها المستحيل
أمسكناك من قرنيك
ولا فكاك لك

شعر

لأجلكَ
جثى العاصي على
أقدام مغنّيه
وانتحب على حنجرته
المجزوزة النشيد.
..
حرائق حرائق
ويدي لا تطال الغيوم
لو كان لي لعصرتُ السراب
أوجئتكِ بالغيث من
سحب في الأقاصي
وسفحتُ كلّ مائي لو
استطعتُ
لكنّ آبار شوقي
عميقة
وحبالها مقطوعة
دلائي
بحّ قلبي من الصياح
عليكِ
وأورقتْ عيناي لوعة
خجل أنا يا أمّ الشهداء
والله خجل طفلك
الشائب
على كلّ مفازة صرخ
باسمكِ:
شام يا شامة الشامات
يا عالية الجبين
يا رفيف روحي
طائرك تعب من
التحليق
سراب خادع عشّه
وبمنقاره الكليل
يزقّ فراخك
حنطة أحلامه الخضراء

دمه قوّال:
سلاماً عليك يا هواي
سلاماً على المشمش
في أطواره
على الباميا وخبز
التنور
على العرق يتعنقدُ
على الجباه
على بخار ثريد العدس
بركن دافئ يحلم
الصغير
وينتظر أن تأتي
معجزة
بالمازوت والكهرباء
ويقرفص من البرد
كما تفعل الحياة
سلاماً على الخبز
تدور صورته
في أعين الصبيّ الدامعة
من عين إلى عين
تنتقل حالات الدم
من السيولة إلى
الجفاف
سلاماً على الدم في
كلّ أحواله
سلاماً على العطور
أسيرة
في جنوح رائحة الحرائق
على ترابك الأسمر
الحاني
على مركبك يتهادى
من شارع
إلى ساحة دار امرأة
عجوز

تنظر إلى الشهداء
من نافذة مواربة في قلبها
من نظرة جسورة في
أعين الأيتام
من ساحة إلى حارة
ضيّقة
من قرية تنهض من
ركامها
في سَحَر الخلْق
من خفقان قلوب عال
إلى مصائر نمل كادح
لا يتعب
من ارتجاف السنابل
خوفاً
من كوابيس طحن لا
ترحم
إلى جائع يؤلّه الرغيف
كيف يا سيدة الجمال؟
كيف يا سورية؟
يحتمل قلبي
وأنت تبذرين الشهداء
في الأغاني والحكايا
القادمة
غفلة عن الرواة
عن شهود الموت
وعن شهرزاد
أسيرة الطاغية.
مراكب تلحق بالمراكب
على بحر طوّبه قراصنة
وقطّاع بحار ولصوص
مراكب ستلحق بالمراكب
بحارة بأياد خشنة
وحناجر ذهب تهتف
بالغيب:
إرفع سترك يا غيبُ
جَثَمتْ طويلاً
على جماجمنا العروش
إرفع سترك
لكلِّ أرض ماؤها
وللطير حصّة
وللناس أقوات
وللبراعم حبّات طلع
وللنحل الكادح
نصيب أوفر باللقاح
هكذا الحياة
لا تخلّ بموازينها
دع المراكب تسير على
هديها
وهيّئ أنفاسك
الرخيّة.

شاعر من سورية

شعر

■ محمد عيدي

أخبار الموتى

1-

مَضَى الوَقتُ ونَحنُ مُهمَلون على الأرض
مُتنا ولم نَسمُ على أذرعكم .
قَطَعْتُ الحَبل، اجْتَزتُ الحياة .
فكرتُ في سلسلة الاحتضار أمامي ،
قبل تَمكنكم من اصْطياد قَدَمي وجرِّيّ صَوبكم.
رأيتُ أحَدهم يُقتل عدّة مراتٍ
عيناه مفتوحتان على اتساعهما فزعاً
حبذا لو كنت شهيداً لا تغريه لحظاتٌ من الحياة .

2-

أطفؤوا كلَّ العيون ، كل الطرقات حولنا
أجبرونا بالمرور في شارع الموتى
اتخذونا هدفاً يُفجّرُ ضَمائِرَ الأوغاد
أيادٍ مقيدة سَقَطت نحوي
دُمِّرَ كل شيء، عدا صورة القائد،على الحائط بقيت معلقة .
خَافَ الإرهابي من إسقاطها.

3-

لم نَتَوقَّعْ رؤية الدبابات بأبصارنا
دَخلوا المدرسة، دَنَّسوا المكان
كتبوا على جدرانها «كلنا معك يا بشار»
_ «ليس الكل معك يا بشار»
قالها الطفل من درعا
لسنا طلائعك، ولم تنتهي صيحاتنا في العالم بعد .

4-

كانوا يَصرخون ويَركضون
كلٌّ سرّح جِراحَه بأكفانٍ أبدية ومضوا
تَركوا خَلفهم ما تبقى من أعضائهم
طاردَتهم القوارض ، وطردوا الأفق ، أهبطوا بيوتهم في المساء
بقي العالم كما هو خائباً من الإنسان.

٥-

كنتُ في العَاشرة من عمري بجانب إخوتي نائماً ،
هَارباً من الارْتِعاب المَسكون في كلِّ شيء
اقتحموا الدِّفء و اخْتَسوا دِمَائَنَا المَسْمُومَة بالحرّية
مثل حَشراتٍ مصاصة ،لكنها لا تلتفُّ إلى ظَهْرِهَا،لا تَشْبَع .
لم نَشْهَد أنيناً يَشرحُ مَوتنا
ولم نُخدَعْ يوماً في اختيار الحليب .

٦-

أيها الملطّخ بالدِّماء
اختَرْتَ الشَّعب مادةً الاشتعال والعذاب
انتهى كل شيء واقتُرِفَت الجريمة
تُسربِلُ ذهولكَ بالعار
أمامَ شوارعَ تَزدحم بالموت
تدفقّ لجرأة استفاقت،قوةٌ لا تُقهر؛
نَشَرتَ الرُّعبَ المنظّم
دون نورٍ، دون خبزٍ ودون أي شيءٍ .
لا شيء سوى بعضُ القِطط التائهة
تتقيأ الرّصاص في شوارع بابا عمرو.
و أرتال من أطفال الحولة
غرقوا مُمَدَّدين في أقسى أحلام النوم
وفي القبير فقط خمسون طفلاً ذبحاً
ولاشيء آخر يهم .
ماءٌ مُشبعٌ بالدَّم لن ينساه أحدٌ على هذه الأرض؛
الأحمرُ المفضّل في العاصي،في الشَّوارع والأرصفة
على الأشْجَار والتُّراب
على الحَديد والذّهب
على الوَسائِد والأحلام
على الخارطةِ وفي الذاكرة
لتأخذ صورةً للإنسان
الشَّكلُ الأكثرَ تَسامُحاً وَوَداعة .

كاتب من سورية

■ نوري الجراح

الأيامُ السّبعة للوقْت

إلى رامي ورفاقه في الثورة السورية

I

دمُ مَنْ هذا الذي يجري في قصيدتكَ أيها الشاعر؟
عمياءُ قصيدتُك
وصوتُكَ أعمى
لكنَّ الهواءَ يُهَدْهِدُ السَّهلَ والعشبَ يهمسُ للقتيل.

القمحُ يتطاولُ
ليرى
ارتجافَ الهضبةِ.

غُنُقُ الحاصدِ جرحُ المحراثِ.. من خاصرةِ الفراتِ إلى
مغارةِ الدَّمِ في كتف قاسيون
المَرْكَباتُ تفخُّ، وتعبُرُ
المَرْكَباتُ تعوي
الجنازيرُ الضخمةُ تتركُ بصماتِها على إسفلتِ القرى،
المَرْكَباتُ العمياءُ تُرسِلُ الحِمَمَ إلى صورِ العائلة،
الأمهاتُ يُهرعن بالصِّبْيَةِ من حائطٍ إلى حائطٍ،
ويخبِّئن العذراءَ في ركامِ الستائرِ
جدرانُ الطِّينِ تتهاوى وسنابلُ الصيفِ تَتَقَصَّفُ...

صيفٌ مضى وصيفٌ تهيأ،
وصيفٌ وسيمٌ ببياقةٍ داميةٍ حَمَلَتْهُ إلى البيتِ رياحٌ عاتية.

السلكُ في يد المراهق لم يَطُل
والجَدُّ المَقْنُوصُ
في عرضِ الطريقِ
يَنْتَفِضُ
لا مزيدَ منَ الشُّبانِ هنا،
ضِرْسُ الموتِ مَضَغَهم وتَفَلهم إلى ما وراءَ الهضبةِ.

أنا لا أكتبُ قصيدةً لكنني أمزِّقُ يدي في الورق.

II

دَمُ من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر؟
من بقيَ هنا،
لينزُفَ
من بقيَ هنا
ليقرأَ ما كَتَبَ الأُفُقُ في الصحائِفِ
وما تَرَكَ شاعرٌ في القصيدةْ.

غيومُ الأطفالِ تسافِرُ
والهَضَبَةُ ثُلَوِّحُ.

الصُّوَرُ تَرْتَجُّ وتَغْرُبُ في العَين، والفتى الذي شَقَّتِ
القِيعانُ طولَهُ، مستلقياً، دامياً ينتظرُ يَدَ أبيهِ.
الصُّورُ تَغْرُبُ في الصُّور، ابتسامة من مضى ليقطف
التوت في صيف مضى..
لكن الخَدَرَ يحتضنُ الفتى، الآن، الخدرُ يعيدُ الفتى
الضاحك إلى يد أبيه.

الأفقُ هشيمٌ،
والمطرُ يلاعبُ صحونَ الأطفال.

قال الممثِّلُ كنتُ قبل اليوم بلا صوت
ومَسرحي معلق في ستارة؛
ملابسي سرقها الموتى
وصوتي
غاب
في
البئر.

قالتْ طفلةٌ: كنتُ بلا عينين
والآنَ

صِرتُ فراشةً.

الرياضيُّ صَرَخَ: دمي صوتي..
ودحرج في ممر الموت عربةَ الهتاف
والصَّبي بادلَ النهارَ بابتسامته.

وفي البستانِ حيثُ سقطَ كوكبٌ
وتشقَّقتْ تحت خطى دامية أرضُ المسرّات،
قال فلاحٌ لصبيٍّ كُسِرَتْ رأسُهُ على صخرةٍ:
إنني أسمعُ رَجْفةَ الشتاءِ في رُكبتي.

والآنَ،
جسدُه مستريحٌ في طلقة الجندي.

وصلتْ شاحنةٌ كانت بالأمس تحمل البطّيخَ والآن:
عائلاتٌ نائمةٌ في أكفانٍ حمراءَ وفلاحونَ صاروا
حفارينَ، وقبورٌ قبورٌ قبور..

كانتْ وجوه الرجالِ في الأرياف البعيدة مكشوفةً
عن ابتساماتٍ لرجالٍ
والآنَ،
الأطفالُ يقفون في الصُّور
مُقَنَّعينَ
والموتُ يطوفُ بجرابه على الأطفال.

III

دم من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر
وفي المتبقي من الزمن، شقيقي الذي شقَّ الغروبُ
رأسه،
دمُه يقطرُ في ملابسي
دمُ مَن هذا؟
وظهره الذي تقصَّفَ جهةَ الغربِ يقطرُ حمرةً وغروباً.

دَمُ مَنْ هذا؟

دَمُ مَنْ هذا؟

قُلْ للرصاصِ أنْ يهدأَ قليلا
ريثما يكتب الشاعرُ قصيدَتَه ويفتح نوافذَها
ويحمل الآسَ إلى جسدِه المسجَّى.

ريثما تجمعُ امرأةٌ غسيلَها،
ريثما يعودُ طائرٌ من غابةٍ
وتنزِّهُ العينُ نظرتَها في جسدِ النَّهار الحي.

IV

دم من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر؟
دَمُ من هذا الذي ينِزُّ من جثمان النهار
دَمُ من هذا؟ دم من؟
وركبةُ الوقتِ مشطورةٌ،
والهواءُ
عصفٌ وراء عصفٍ وراء عصفٍ
والصُّور شِفارٌ تأكلُ الواقفينَ في الصُّور
الجنود ينحنون على البنادق والموت يتلفت.

قال شهيدٌ أسْلَمَ الترابَ شهيداً
كُنْ دليلي في الطريق إليه
ولا تتأخر كثيراً
وكُنْ سندي في الروايةِ يوم يكذبُ المؤرخون
كُنْ صاحبَ البيتِ
وارْوِ الروايةَ كاملة:
اللصوصُ أضرموا النار في بيت أبي
اللصوصُ سرقوا وجنةَ أختي ويدَي أخي
اللصوصُ قتلوا أبقاري وقادوا حميري إلى بركةِ الدم
اللصوصُ انتهبوا قمرَ الصَّيفِ
وفؤادَ المسافرِ
اللصوصُ ربطوا الأخوات الصغيرات بأمراس الحقل
وكسروا على حجرِ البئرِ جمجمةَ المراهق.

اللصوصُ هتكوا ستارةَ الحلمِ،
ومشّحوا بدمِ الفجرِ قمصانَ نومِ البنات.

ولما تساقطتِ الحجبُ، رأيتُ ما رأيتُ كان وجهكَ
القاتلُ يملأُ وجهي

أهذا أنا
أم عدوي؟

في الحقل صرختُ فيكَ، ونَظَرْنا الأيامَ تُبَدِّلُ ثيابَها
والزمنَ
يتسرَّبُ من الأيدي
في الحقل صرختُ فيكَ وفي الجبلِ صرختُ

وفي المدينة لمَّا نزلنا
عيناكَ رأيتُهما زائغتين.

ها إن يدَك التي كبُرتْ واخشوشنت
تتلطَّخُ بدمي.

أخرجُ من بابٍ وتَخرجُ من بابٍ
لا أكون صورتَكَ ولا تكون صورتي
وأناديكَ:
تعالَ وخذْ ما أخذتَ
وباليد البلهاءِ، أودع البلطةَ في الظهرِ والعتمةَ في
هاويةِ القلب.

تعال يا من تماديتَ حتى تكون ابن أمي
وأبي
وتكونَ أختي
وابنتي
وتكونَ .....
.....
.....

.....
.....جنازتي.

يا صاحب اليد التي لهثتْ
بالالوان
قرب يدي
ومعا رفعنا حجرَ الطفولةِ عن عقربِ الزمن.

V

دم من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الأعمى؟
ولماذا أخرجُ من حكايةٍ وأدخلُ في حكايةٍ؟

قالَ شاعرٌ رأى أمَّهُ في السرير
عاريةً
ومطحونةَ الوجهِ:
أهذه أمي غداً أم شجرةٌ عجفاءُ؟

ومن هؤلاء المشيعون يخرجونَ من بابٍ في مئذنةٍ
ولا يخرجونَ من حانةٍ أو مكتبة!

وشاعرٌ رأى نجمةَ الصبحِ دامية
قال:
لا أذكر إن كانتْ نجمتي!

وشاعرٌ ظلَّ ثلاثينَ حولا يجرُّ صليباً في كتابٍ
ويوهمُ إخوتَه أن المسيح الموجع يسكن رأسَه
الموجع.

اللصوصُ الذين خرجوا من شِقٍّ في حائطِ العدمِ
مزَّقوا صفحةَ الهواءِ وغمروا النوافذَ بالموت.

لمنْ آلتْ قصيدتي قالَ شاعرٌ
ولم يُبق الرصاصُ حياً سوى الصمت؟

تتقصَّفُ المئذنةُ الصائحةُ ويتلو الشهيدُ شهادَته
على أخٍ أَتَمّ شهادتَه
على أمٍّ طوتْ أبناءَها السبعةَ في كتابٍ.. وخبَّأته من
العين.

ما من أحدٍ غيرِكَ
ما من أحدٍ غيرِكَ

في هذه الجمعةِ وفي كلِّ جمعةٍ حتى صارتِ الأيامُ
السبعةُ للوقتِ
درجاتٍ في الترابِ ودرجاتٍ في الهواء
حصَّةُ الشهداءِ من الشهادة:
لا أحدَ غيرَك.

VI

دمُ من هذا الذي يجري في قصيدَتك أيها الشاعر؟
وهو دمٌ ريثما يكتبُ الأعمى وصيَّتَه ويفتحُ نوافذَها
للمطر
ريثما يدخل الشهداءُ ويدخِّنون أمنياتهم الأخيرة
ريثما تخرجُ امرأةٌ من زقاقٍ وفي يديها صبيٌّ تَقَصّفَ
كالسنبلة.

دَمٌ في المدينةِ، دَمٌ في البُليداتِ الصَغيراتِ في ريفِ
الفقراءِ
دَمٌ على ثلم الفلاح، على سكَّةِ المحراث يشقُّ
جمجمةَ الغيبِ، ويقرأُ طالعَ النَّهار.

دَمٌ يصرخ في حَنْجَرةٍ مشطورة والغرابُ بجناحين
متعاظمين يلطمُ الشقيقَ بدمِ الشقيقِ.
دَمٌ على أمنيةِ العابر، على خيبةِ الهاربِ، على عارِ
المتفرِّجِ،
على صمتِ المُفكِّرِ يقلِّب أفكاره ويبلل مقولاته بدم
الصِبية،
وفي يوم غد آخر يقرأ الجثامين في ضوء الفلسفة.

دَمٌ على أمس القاتل ويومه وغده،
دَمٌ على سرير المضاجع زوجته غصبا عن فؤادها
الكسير،
دَمٌ في موعد الحب، دم في اضطراب الخطوة
المضطربة،
دَمٌ في صحون الطعام،
دَمٌ في بلاغة الصوت،
دَمٌ في التفاتة الغريب، في هواء النهار،
دَمٌ في كلمة الحب،
في حزن المسافر،
في هروب القرى وراء تلال أخرى،
في النوافذ مهجورة والشعاع منكسرا..

دمُ الشقيقِ في بلطة الشقيق.

VII

دم من هذا؟ دم من هذا أيها الشاعر؟
وهو دَمٌ في المسافة منظورةً عن قربٍ ومنظورةً عن
بعد
دَمٌ في نظرة العين، وفي حسرة الناظر.

الأم تطبع قبلتها الصباحية في الجبين البارد..
ذهب يكتري العجلة ورجع بلا وجه.

دَمٌ في أسياخِ العجلة، دَمٌ في حليب الصباح،
في ماء الظهيرة، في خيول العربة،
وفي نشرةِ الطقسِ دَمٌ طوال النهار، والسماء التلفزة
الجائعة.

VIII

دمُ من هذا الذي يجري في قصيدتك أيها الشاعر؟
حبالُ الغسيل تَقْطُرُ والغروبُ يَسْفَحُ حمرَته على
البيوتِ
الإخوةُ المولودون في الأوقات يملأون السماءَ

بالهتاف:

ما من أحدٍ غيرِكَ
ما من أحدٍ غيرِكَ

على أيديهم الأصغرُ
عاليا
رفعوه
وكفَّنَهُ صَوْتُه
جسدُهُ الضَّاجُّ أشْعَلَ حنجرةَ المغني:

منكَ وإليكَ
منكَ وإليكَ

دمٌ في غفلةِ المنعطفِ، في نَمَشِ الصَّبي، في
ابتسامتِه المدرسية،
في كتابِ المعلِّمِ، في سؤالِ الصباح،
دَمٌ في بُحَّةِ المراهِقةِ، دمٌ في هسيسِ الماء،
دمٌ على الأشجار نستْ من مرَّ ومن سقطَ ومن صاحَ
من ألم...
دمٌ على رداءِ الشَّمسِ، وخيوطُ النهارِ ممزقةً كما لو
كانتْ جرما تهتّك.

لسعُ دمٍ ولسعُ رصاصٍ لسعُ أصواتٍ جارحةٍ
والكلماتُ مقيدةً بسلاسلِ الكلمات.

العينُ الغريقةُ
في صورةٍ
اغرورقتْ بالدمِ
خذْ هذه الصورةَ من عيني وخذْ جرحَ العينِ.

المئذنةُ تتقصَّفُ وتهوي في سورةِ الفاتحة
وطوالَ النهارِ
طوالَ النهارِ

يداي مبلولتان وخبزي مبلَّلٌ بالدمِ
وكلماتي تنظرني.

دمُ من هذا الذي لطخ يديك وكلماتك أيها الأعمى؟
أنا لا أكتبُ قصيدةً لكنني أشمُّ القميصَ لأبصرَ.

لندن ما بين ابريل -2011وابريل 2012

شاعر من سورية مقيم في لندن

■ ياسر خنجر

بين زنزانتين

«إلى مازن درويش ورفاقي المعتقلين في السجون الأسدية»

أَسمَعُ صوتَكَ يُضيءُ زنزانَةً مُجاوِرَةً،
يَنتابُني السّؤالُ:
أينَ يُبَدّلُ الشّرطيُّ ثيابَهُ
حينَ يَتَنَقّلُ بَينَ زنزانَتَينا؟
كيفَ يُبَدِّلُ الأَحرُفَ في شَفَتَيهِ
وَلا تَتكسَّرُ إحدى اللُّغَتَينِ، «العَدوّتينِ».
لُغَةٌ كَئيبَةُ التكوينِ
قاتِمةُ الطّفولَةِ، عَرجاءُ،
مائِلَةٌ،
ماكِرةٌ،
تُتقِنُ، ما إن تُكمِلُ تَزَيُّنَها،
استِدراجَ جارَتِها المشغولَةُ
بِفَكفكَةِ التّمائِمِ عَن طفولتِها.
- لُغَةٌ طبّعَةُ المَعاني.
مأخوذَةٌ بفِتنَةِ التّأويلِ،
حَافيةٌ، كراقِصَةٍ تَتَثَنّى.
خَلاخِلُها مَشدودَةٌ مِن كاحِلِ النَّصِ
إلى شَهوَةِ السُّلطانِ.
كَيفَ يُبَدّلُ الأحرُفَ في شَفَتيهِ
شرطيٌّ يُخطِئُ في التّهجِئَةِ،
حينَ يَتَنَقّلُ بينَ زنزانتينا؟

أَتُدَخِّن؟؟
مُدّ يَدَكَ عَبرَ فَتحَةِ التّهوِئَةِ
سأُشعِلُ لَكَ السيجارَةَ الأَخيرَةَ
المُتَبَقّيَةَ في علبَةِ التبغِ،
فانفُخ دُخانَها في سِرِّكَ،
كي لا يُصادِرَها الحَرَسُ.

هُنا الضّوءُ خَفيفٌ،
وَما مِن نَجمَةٍ أَلِفَت وُعُورَةَ الأُفُقِ،
فهاتَ من قَلبِكَ بَعض شمسٍ
تفقأ عَينَ العتمِ.
وَجهُ الشّرطِيّ هُنا، جَذرُ موتٍ مُزمِنٍ
وَمِرآةٌ مَجزَرَةٍ هناك.
وَجهُ الشّرطيّ هُناك، مُضَرّجٌ بالهَزائِمِ،
يَحتالُ في توصيفِها
ولا يُتقِنُ دَورَ الضّحيّةِ،
فَيَلبسُ ثوبَهُ الذئبَ
ليصطادَ حَرفاً في قَصيدَةٍ ويُثخِنَها بالجِراحِ.
وَجهُ الشّرطيّ هُناكَ،
ذاكِرَةُ انكِسارٍ مُمعِنَةُ السّردِ
للشّرطيّ هُنا وهُناكَ هَشاشَةُ عُشبٍ يابِسٍ،
لَولا أتكأَا على بُندُقيّةٍ
تَحرسُ كثبانَ خَوفِهِما،
مِن خَفقَةِ البَوحِ في أُغنِيَةٍ.
وَإن تَراشَقا بَعضَ الشتائِمِ
فالقَصدُ واضحٌ،
ليسَ إلاّ امتِثالاً لأَقنِعَةٍ زائِفَةٍ.
هُما التّوأمانِ،
حَبلُ سُرَّتِيهما واحِدٌ،
ظِلّهُما حَيثُ يَسقُطُ على الأَرضِ،
مذبَحَةٌ تُكمِلُ مَذبَحةً.
أسمَعُ صوتكَ، إبَراً مغروسَةً في شَجَرِ الصّنوبَرِ،
يَصعَدُ سُلّمَ الصّلواتِ،
ثم يَهمي في مَهَبّ القَلبِ
خُبزاً ناضِجَ الحريةِ.
للسُّجناءِ هُنا وَهُناكَ
قَلبٌ وَاحِدٌ
يَثمَلُ في وَحيِ الإنعِتاق.

•شاعر من سورية أسير في سجون الاحتلال الاسرائيلي

وثائق الرابطة

البيان التأسيسي

ديباجة

رابطة ثقافية حرة، عضويتها متاحة لكل الكتاب السوريين من مختلف التيارات الأدبية والفكرية الراغبين في أن يكونوا أعضاء فيها. والرابطة مفتوحة لكتاب عرب (بمن فيهم كتاب عربستان) وغير عرب مساندين للشعب السوري كأعضاء شرف.

الكتاب الفلسطينيون ممن يقيمون في سوريا يتمتعون بالعضوية الكاملة في الرابطة، وينطبق عليهم ما ينطبق على إخوتهم من الكتاب السوريين.

***

إن اعتراف الرابطة بالتعددية الثقافية التي ينهض عليها المجتمع السوري يحتم علينا إزالة الأسباب، التي غيبت لأجيال المكونات الثقافية المختلفة، وفتح المجال امام هذه المكونات للتعبير عن ذواتها المبدعة بلغاتها الخاصة، وفي المقدمة منها اللغتان الكردية والآشورية السريانية.

دواعي التأسيس:

بموازاة ثورة شعبنا السوري من أجل الحرية والكرامة والنهوض الوطني، نعتزم، نحن، مثقفون سوريون متنوعو المنابت والمشارب، تأسيس رابطة للكتاب السوريين الأحرار، تعبر عن مشاركتنا في الثورة السورية، داخل الوطن وخارجه ، ووقوفنا الى جانب شعبنا الثائر، وعن شعورنا بالحاجة إلى إطار ديمقراطي ومستقل لعموم الكتاب السوريين، يعبر عن الواقع الجديد لسوريا التي تولد الآن في شوارع الحرية.

***

عبر تأسيس الرابطة اليوم، سنعمل على أن تستعيد الثقافة دورها التغييري والنقدي الريادي والمحرر، ويستعيد المثقفون استقلالهم وقدرتهم على المبادرة والتجديد الفكري والجمالي والأخلاقي، وأن نضع أنفسنا في صف شعبنا للدفاع عن حريات مواطنينا وحقوقهم ووحدتهم.

لقد عملت الثقافة طوال عقود جارية في بلاط النظام، وعمل غير قليل من المثقفين كأبواق وشهود زور.

***

نتطلع إلى أن تكون رابطة الكتاب السوريين حاضنا لتفاعل التيارات الأدبية والفكرية المختلفة التي تزخر بها الحياة السورية، وإلى أن تكون إطارا عمليا لنقد وتفكيك ثقافة اللون الواحد التي كرسها استئثار حزب البعث الحاكم بالسلطات المادية والرمزية وسلوكه الشمولي الإقصائي الذي تجسد في «اتحاد الكتاب العرب» على مدار عقود من حكم التعسف الأمني.

***

من شأن هذه الرابطة أن تشكل إطاراً حرا ومنصة متقدمة للشعراء والكتاب والمفكرين والأدباء السوريين الأحرار المشاركين في صنع سورية الجديدة، والذين يفتشون عن إطار عملي للتفاعل فيما بينهم، بما يساعد على تسريع عملية الانتقال من نظام الاستبداد والقمع والإقصاء إلى نظام ديمقراطي مدني تعددي حر، أساسه المواطنة، يتيح أوسع الفرص للطاقات الإبداعية، الأدبية والفكرية.

***

نتطلع بثقة كبيرة إلى أن تقوم الرابطة الوليدة بتجسير الفجوة المختلقة التي حاول نظام الحزب الواحد أن يقيمها بين أهل القلم، داخل الجغرافيا السورية وخارجها، فالبطش والقمع وتكميم الأفواه طال الجميع دون تفريق. لقد عزلت تلك السياسات المثقفين السوريين بعضهم عن بعض، ولجمت عناصر القوة في الثقافة، وبالتالي شلت المكانة الثقافية والأدبية لسوريا في العالم، ما أدى إلى إضعاف معنى سوريا في أعين السوريين قبل غيرهم، وإفراغها من الفكر المبتكِر الجسور والمخيلة الطليقة والنقد السياسي والاجتماعي الخلاق والروح الحرة المتوثبة

نتطلع، أيضا، إلى المساهمة في إصلاح سلم القيم العام لمصلحة المعرفة والعمل والابتكار، ضدا على سلم القيم الحالي الذي يعلي من السلطة والمال والامتياز.

***

وبالتالي فإن الإنجاز المنتظر لهذا الإطار يتمثل في إعادة بناء ما تهدم من الذات الثقافية السورية في إطار حركة الثقافة العربية، وبالتفاعل مع ما أنجزته وتنجزه اليوم الثورات العربية، وما يتيحه مجال عالمي، يزداد تداخلا واتساعا من فرص وما يطرحه من تحديات.

***

وقفت وراء فكرة تأسيس الرابطة مجموعة صغيرة من الكتاب والشعراء السوريين تنادوا إلى هذا العمل من الداخل والخارج، لشعورهم بالحاجة الملحة لقيام إطار يوحد جهود عموم الكتاب السوريين المبذولة لنصرة شعبهم، والعمل على استعادة الدور الطليعي للثقافة والمثقف في حياة المجتمع. قامت المجموعة بالاتصال، في حدود الممكن، بالكتاب السوريين داخل البلاد وخارجها، وعملت، بداية، بطريقة ثنائية ما كفل نجاح الفكرة وانطلاقها بالاقل من المعوقات.

***

إن الإعلان عن الرابطة، يفتح الباب أمام جملة من التساؤلات حول صفة هذا الكيان، ودوره وبنيته التنظيمية، لكن الإجابة عن كل هذه المتطلبات وغيرها لن تكون ممكنة من الآن، لأن التركيز خلال المرحلة الراهنة للرابطة وأعضائها سيكون على النشاطات التي تدعم التحول الكبير الذي تشهده بلادنا العزيزة سوريا من الوضع الديكتاتوري إلى الوضع الديمقراطي المنشود. السؤال حقيقة سيكون منصبا على الدور المرحلي الذي يمكن لهذه الرابطة أن تلعبه في دعم هذا التحول وتعميقه، وهو في الأساس دور ضميري وأخلاقي ينتظر من الكاتب أن يلعبه في هذه اللحظة التاريخية من حياة شعبنا وبلادنا.

رابطة الكتاب السوريين

2012-1-1

بيان تضامني من شعراء وكتاب عراقيين مع الشعب السوري وثورته:

نحن الشعراء والكتاب والفنانين العراقيين نعلن تضامننا مع الشعب السوري ونخبته المثقفة الحرة المنضوية في الثورة السورية درعاً فكرياً وأدبياً في داخل سوريا وخارجها، مؤكداً انحياز حملة الأقلام السوريين لقضية الحرية، ووقوفهم إلى جانب شعبهم الثائر.

نهنئ في هذا البيان التضامني الحركة الأدبية والفكرية السورية بولادة «رابطة الكتاب السوريين» كإطار ديمقراطي حر يعبر عن الضمير الوطني للمثقفين السوريين، ويأتي وليداً ديمقراطياً يانعاً للثورة السورية، وبديلاً عن «اتحاد الكتاب العرب» الكيان الهرم الفاسد الذي قام بالأصل ليصادر حرية الفكر، ويلحق الثقافة بالحاكمين ويحوّلها إلى تابع ذليل لعقود طوال.

ندين بشدة الأفعال الإجرامية التي يرتكبها حزب البعث السوري والعائلة الحاكمة في سوريا التي أحلت لنفسها سفك دم السوريين الثائرين على الظلم والاستبداد، من دون مراعاة لأدنى الحقوق الإنسانية.

ندين القمع الوحشي لحريات السوريات والسوريين المطالبين بالديمقراطية والحقوق المدنية، ودولة المواطنة، وندين العدوان المستمر على الحريات الفردية والعامة التي يمارسها النظام بأبشع الطرق، ونؤمن أن الشعب السوري سيحقق انتصاره لا محالة على الظلم، وينال حرياته الكاملة وحقوقه المنتهكة.

إننا المثقفون العراقيين الأحرار نشعر بالخزي من صمت الصامتين، ونطالب العالم بإدانة الجرائم المرتكبة يومياً بحق أبناء الشعب السوري في كل بقعة من بقاع البلاد. ونعلن تضامننا الكامل مع آلاف السجناء السياسيين ومعتقلي الرأي الذين يخضعون للتعذيب في سجون النظام، مطالبين العالم بالضغط عليه لإطلاق سراحهم، وتمكين فئات الشعب كافة من ممارسة حقوقها في التظاهر، وإحقاق حقها في اختيار من يحكمها بحرية وبالاقتراع العام الشفاف، دون رقابة ولا وصاية ولا تنكيل.

تحية لكل السوريين الشرفاء الذي رفضوا تمزيق الشعب السوري طائفيا وقومياً، ويحافظون حتى الرمق الأخير على وحدة مكوناتهم المختلفة، وهم يهتفون: «واحد واحد واحد الشعب السوري واحد».

تحية إلى الشباب السوري المناضل ضد الطغيان والطاغية.

تحية إلى النساء السوريات الصادرات عن شجاعة أخلاقية عالية.

تحية للأطفال الشجعان الذين واجهوا الموت لأجل الحياة فاستحقت ثورة السوريين اسمها: «ثورة الحرية والكرامة».

الموقعون:

هاشم حمادي -تشكيلي وشاعر،
شاكر لعيبي -شاعر،
سالم الهنداوي- إعلامي
فاضل السلطاني-شاعر ومترجم
وارد بدر سالم- روائي
علي عبد الستار العزاوي- مثقف
صالح عثمان صالح- صحفي

عطايف رشيد- مسرحية
علي عبد الزهرة - كاتب
كلالة نوري- شاعرة
قاسم حسن- باحث
حذام بدر- ناقدة
علي حيدر- شاعر وقصاص
رقية عبوش- صحفية
ميثم لعيبي- أستاذ جامعي اقتصادي
د. خالد السلطاني- معماري
كريم الموسوي- باحث
د. رياض الأسدي- أستاذ جامعي
نجم البغدادي- نقابي
كاظم غيلان- شاعر شعبي وصحفي
حسام السراي- شاعر
مروان ياسين الدليمي - شاعر
كفاح الألوسي- باحث
شازاد كريم- كاتب
محمد غازي الأخرس- شاعر وكاتب
أحمد عبد الحسين- شاعر
باسم المرعبي- شاعر
إبراهيم العلاف- أستاذ جامعي
قاسم سعودي- صحفي
فاضل نعمة- رسام
عبد اللطيف اطميش- شاعر
حازم كمال الدين- مسرحي
علي جبار-نحات
سلام سرحان-شاعر
عبد الزهرة زكي-شاعر
خالد المعالي-شاعر

أكثر من مائة كاتبة وكاتب من المغرب ينتسبون جماعيا إلى «رابطة الكتاب السوريين» في خطوة مغربية تضامنية قوية مع الكتاب السوريين الأحرار وثورة شعبهم

طلب انتساب شرفي جماعي من الكتاب المغاربة إلى «رابطة الكتاب السوريين»

أرسل أكثر من مائة من الشعراء والكتاب والمفكرين المغاربة تهنئة بقيام «رابطة الكتاب السوريين» وأرفقوها بطلب انتساب إلى الرابطة وذلك في خطوة تضامنية مفتوحة من قبل هذه النخبة من ألمع الكتاب في الغرب معبرين بذلك عن تضامنهم العميق مع الشعب السوري وثورته وشعرائه وكتابه الأحرار.

وقال الشاعر نوري الجراح المنسق المؤقت لأعمال الرابطة، التي تشهد حاليا انتخابات لأمانتها العامة ومكتبها التنفيذي، إن هذا الطلب الجماعي للانتساب إلى رابطتنا العتيدة من قبل إخوتنا المغاربة من حملة القلم؛ شعراء ومفكرين وروائيين ومبدعين في حقول شتى، إنما نقرأه بوصفه إعلاء لصوت الوجدان لشعب بأكمله هو شعب المغرب المكافح وموقف المؤمن بحتمية انتصار ثورة شعبنا السوري التي دخلت عامها الثاني في ظل حملة هي الاشرس في تاريخ حملات الطغاة على شعوبهم.

ونحن إذ نرحب بإخوتنا مبدعي المغرب أعضاء شرفيين في رابطتنا الحرة إنما نؤكد لهم على أن الشعراء والكتاب السوريين إنما اختاروا، في غالبيتهم الساحقة، أن يكونوا صوت الحرية وضمير شعبهم الثائر لأجل حريته وكرامته.

لقد قال أهل القلم من السوريين كلمتهم: سنظل منحازين إلى جانب شعبنا إلى أن يحقق أمنيته الغالية بإسقاط دولة الجريمة وإقامة دولة الحرية على انقاضها، وصولا إلى دستور ديمقراطي تعددي يشرع للسوريين بجميع مكوناتهم قولا وعملا كيانا يمكنهم من اختيار ممثليهم في التداول على السلطة ديمقراطيا، وهو ما من شانه في النهاية أن يعيد سوريا إلى فلكها العربي دولة مؤثرة في قضايا الأمة وفي مقدمها القضية الفلسطينية، والمجتمع الديمقراطي.

والكتاب المغاربة هم:

محمد برادة، كاتب
حسن نجمي، شاعر
نجيب خداري، شاعر
محمد الأشعري
الطائع الحداوي
رشيد المومني، شاعر
عبد الرحيم العلام، ناقد
حسن النفالي، مسرحي
نور الدين الزاهي، باحث
العربي الحارثي، مترجم
محمد الصالحي ، شاعر
مراد القادري، شاعر
عزيز أزغاي، شاعر وفنان تشكيلي

خالد بلقاسم،ناقد
نبيل منصر، ناقد
عبد الحميد جماهري، شاعر
ياسين عدنان، شاعر
بهاء الدين الطود، روائي
عمرو أولقاضي، روائي
يوسف ناوري، ناقد
عبد الرحيم الخصار، شاعر
أحمد العمراوي، شاعر
محمد بشكار، شاعر و صحفي
عبد اللطيف البازي، باحث
عبد النبي دشين، قاص
هشام العلوي، باحث
لطيفة لبصير، جامعية وقاصة
حسن أوزال ، باحث
عبد الصمد الكباص ، باحث
أنيس الرافعي، قاص
عبد العزيز بومسهولي، ناقد
عبد المجيد شكير، باحث مسرحي
بوسلهام الضعيف، مسرحي
عبد الرحمان بوعلي، شاعر
ليلى الشافعي، كاتبة وصحفية
جمال أماش ، شاعر
مصطفى لغتيري، روائي
رشيد منسوم، شاعر
محمد حجي محمد، شاعر
المهدي حاضي الحمياني، شاعر
مصطفى لكليتي، قاص
عبد الحق بن رحمون، شاعر وصحفي
شرف الدين ماجدولين، باحث
محمد بوجبيري، شاعر
أحمد لمسيح، شاعر
سعيد الحنصالي، باحث
محمد زرنين، باحث
محمد الوهابي، جامعي وباحث

وثائق الرابطة

محمد بشكار، شاعر
عبد العزيز الراشدي
أحمد شراك، جامعي وباحث
نور الدين الزويتني،شاعر ومترجم
عبد الفتاح الحجمري، باحث
سعيد منتسب، قاص
رشيد بنحدو، جامعي ومترجم
عبد اللطيف الوراري، شاعر وباحث
عبدالحق ميفراني، شاعر وصحفي
سالم اكويندي، باحث مسرحي
أحمد الفطناسي، مسرحي وروائي
سعيد أحباط، قاص
عبدالرحيم مؤذن، ناقد
جلال الحكماوي، شاعر
عزيز الحاكم،شاعر
محمد بودويك، شاعر
ثريا ماجدولين، شاعرة
عبد السلام الموساوي، شاعر
بوشتى الحياني، فنان تشكيلي
ريم نجمي، شاعرة
محمد مسعاد، شاعر
محمد بهجاجي، مسرحي
الحسين الشعبي،باحث مسرحي وصحفي
أحمد بنسماعيل، فنان تشكيلي
أحمد هاشم الريسوني، شاعر
لطيفة المسكيني، شاعرة
إدريس الملياني، شاعر
مصطفى النحال، باحث ومترجم
سعيد عاهد، شاعر
يحيى عمارة، شاعر
جمال أزراغيد، شاعر
وداد بنموسى، شاعرة
جعفر عاقيل، فنان فوتوغرافي
الرداد الشراطي، مترجم
عبد السلام الموساوي، شاعر

عبد المجيد فنيش، مسرحي
عبد السلام الخلوفي، باحث موسيقي
عبد الرحيم العطري، باحث
جمال الموساوي، شاعر
عبد الرفيع جواهري، شاعر
حسن الوزاني، شاعر
إكرام عبدي، شاعرة
محمد أسليم، باحث
لحسن لعسيبي، شاعرو صحفي
خالد الريسوني، شاعر ومترجم
أحمد زنيبر، شاعر
عائشة البصري، شاعرة
أحمد محمد حافظ، جامعي وشاعر
محمد أيت لعميم، ناقد
حسن بحراوي،جامعي وناقد
بشير قمري، جامعي وناقد
علي أيت أوشن، ناقد
أحمد العاقد، ناقد
نجاة زباير، شاعرة
إدريس الخضراوي، ناقد
حسن مخافي،جامعي وباحث
عبد الدين حمروش ، شاعر
جمال بوطيب ، جامعي وباحث
عبد الرحمان طنكول ، جامعي وباحث
مصطفى الحسناوي، مترجم
محمد عزيز الحصيني، شاعر
كمال أخلاقي، شاعر
أحمد بلحاج أيت وارهام ، شاعر
محمد حمودان، شاعر
أحمد لكبيري، روائي
بوجمعة العوفي، شاعر
شرف الدين مجدولين، ناقد
حسن رياض، روائي
كمال أخلاقي، شاعر.

بيان فلسطيني جماعي
للانتساب إلى رابطة الكتاب السوريين والتضامن مع الشعب السوري

الوجدان الفلسطيني ينتفض لأجل الشعب السوري:
أكثر من مائة شاعر وكاتب من فلسطين يقولون لسفاحي دمشق:
لا ليس باسمنا.. ليس باسم فلسطين ترتكب الجرائم أيها القتلة

يشرفنا نحن الكتاب الفلسطينيين الموقعين على هذا البيان أن نتقدم بطلب انضمام جماعي إلى رابطة الكتاب السوريين التي أعلن عن تأسيسها مؤخراً، من قبل كتاب ومثقفي سوريا الأحرار، أولئك الذين يقفون في صفوف شعبهم وهو يصعد سلم حريته الذي لطخته يد الطاغية بالدم، إن تأسيس رابطة الكتاب السوريين يشكل رافعة أساسية في ثورة سوريا ويضع المثقف الحقيقي في موقعه الى جانب شعبه كشريك فاعل في بناء سوريا الجديدة والخلاص من استبداد حكم العائلة نحو نظام مدني تعددي ديمقراطي قائم على حق المواطنة، يفتح المجال امام حرية التعبير والإبداع ويحرم النظام من تزييف إرادة المثقف السوري الحر عبر أطر فارغة وخاوية استولت على مقدرات الثقافة وصادرت دوره وزيفت إرادته، وكانت دائما أداة بيد الطاغية وأجهزته.

إن سوريا بحاجة اليوم، اكثر من أي وقت مضى، الى هذا الصوت الناضج الصاعد من قلبها، الذي يعزز وحدتها الوطنية ويجعل من تعددية مجتمعها ومكوناته الغنية سببا للقوة وإثراء المضمون وقاعدة للبناء الديمقراطي.

لقد سمعنا، مؤخرا، ممثل النظام السوري في مجلس الأمن يستعمل القضية الفلسطينية ومسيرتها المؤلمة والمشرفة للتغطية على جرائمه المروعة في سوريا. نقول للنظام السوري وممثليه: ليس باسمنا، ليس باسم فلسطين ترتكب الجرائم في سوريا الحبيبة، أيها القتلة. لا تجعلوا من قضيتنا العادلة قناعا لجرائمكم اللانسانية بحق إخوتنا السوريين. إن الشعب السوري هو من تبنى القضية الفلسطينية تاريخيا وقدم لأجلها الشهداء، وليس سياسات نظامكم التي نحتفظ منها بذكريات مؤلمة، ولن ننسى أدوارها في مجازر تل الزعتر في 1976، والعدوان الرهيب على مخيم نهر البارد بطرابلس في 1983، وحصار المخيمات في بيروت 1985، وغيرها من أعمال تسببت مرارا بضرب الوحدة الوطنية الفلسطينية. لا تستعملوا اسم فلسطين فهي لم تعد ورقتكم الرابحة.

إن سوريا موحدة وحرة وديمقراطية هي ما تحتاجه فلسطين، وهي سوريا التي تولد اليوم من رحم ثورة دامية فجرها شعب عظيم. نحن واثقون من أن اسم فلسطين سيظل في القلب من هذا الشعب الشجاع الثائر ونخبته المثقفة.

الموقعون والمنتسبون

حنا ابو حنا (شاعر)، طاهر رياض (شاعر)، غسان زقطان (شاعر) زهير أبو شايب (شاعر)، عزمي بشارة (مفكر)، محمود الريماوي (قاص وروائي)، معن البياري (قاص وصحافي)، يوسف أبو لوز (شاعر)، نجوان درويش (شاعر)، ربعي المدهون (روائي)، عادل بشتاوي (كاتب روائي وباحث)، انطوان شلحت (كاتب وناقد)، فخري صالح (ناقد)، حسين، شاويش (كاتب)، حزامة حبايب (قاصة وروائية)، نصر جميل شعث (شاعر)، أحمد أبو مطر (ناقد أكاديمي وباحث وناشط)، محمد خليل (قاص)، موسى برهومة (كاتب)، عيسى الشعيبي (كاتب)، موسى حوامدة (شاعر)،

نائل بلعاوي (شاعر)، خليل قنديل (قاص)، غازي الذيبة (شاعر)، وسام جبران (شاعر وموسيقي)، عمرشبانة (شاعر)، قصي اللبدي (شاعر)، علي العامري (شاعر)، جهاد هديب (شاعر)، زياد خداش (قاص وكاتب)، ناصر رباح (.شاعر)، باسم النبريص (شاعر وكاتب)، راجي بطحيش (كاتب)، شاهر خضره (شاعر)، رائد وحش (شاعر)، أسماء عزايزة (شاعرة)، محمود ابو هشهش (شاعر)، خضر محجز(روائي وشاعر وباحث وناقد أكاديمي)، باسل أبو حمدة (كاتب)، إيراهيم جابر إبراهيم (قاص)، عبد الله أبو بكر (شاعر). أسامة الرنتيسي (كاتب)، عصام السعدي (شاعر)، خالد جمعه (شاعر)، نعيم الخطيب (كاتب)، أكرم ابو سمره (شاعر)، حنين جمعه (شاعرة)، أحمد يعقوب (شاعر)، طارق العربي (شاعر)، يوسف الديك (شاعر وروائي)، مهند صلاحات (كاتب ومخرج)، محمد مشارقة (شاعر)، توفيق العيسى (كاتب وصحفي)، باسمة تكروري (كاتبة)، نجوى شمعون (شاعرة)، محمد السالمي (شاعر)، هاني السالمي (روائي)، بلال سلامة (شاعر)، اسامة ابو عواد (كاتب)، جبر شعت (شاعر)، يوسف القدرة) شاعر)، نسمة العكلوك (كاتبة)، عثمان حسين (شاعر)، رزق البياري (شاعر)، ياسر الوقاد (شاعر)، صبحي حمدان) كاتب)، عماد محسن (كاتب)، ليلي فيوليت (شاعرة)، تيسير محيسن (قاص وناقد وناشط سياسي)، فايز السرساوي (فنان تشكيلي وشاعر)، رجب أبو سرية (قاص وكاتب مقال سياسي)، فؤاد حمادة (ناقد أكاديمي وباحث وناشط سياسي)، مي نايف (ناقدة أكاديمية وباحثة وناشطة جندر)، يسري الغول (قاص وناقد)، حسين أبو النجا (قاص وباحث أكاديمي)، ناصر عليوة (ر وائي وناقد)، عبد الكريم عليان (كاتب وباحث تربوي)، ولاء تمراز (باحث وكاتب سياسي)، عمر شعبان (كاتب وباحث)، حسن مي (كاتب وناقد أكاديمي)، معن سمارة (شاعر وصحفي)، محمد حسونة (أكاديمي وناقد)، عون أبو صفية (روائي)، عاطف حمادة (شاعر وناقد أكاديمي)، غياث المدهون (شاعر)، رجاء غانم (شاعرة)، طارق الكرمي (شاعر)، أحمد الأشقر، (شاعر)، علي أبو خطاب (شاعر وكاتب)، دنيا الأمل اسماعيل (شاعرة)، اسراء كلش (كاتبة قصصية)، موسى أبو كرش (شاعر وقاص.)، عبد الفتاح شحادة (شاعر وروائي)، ياسر أبو جلالة (شاعر وفنان تشكيلي)، خليل حسونة، (شاعر وروائي)، مهيب البرغوثي (شاعر)، عبد الناصر عامر(شاعر وفنان تشكيلي)، نضال الحمارنة (كاتبة)، أشرف عمرو (كاتب وإعلامي)، أسماء ناصر أبو عياش (كاتبة وصحفية)، مايا أبو الحيات (كاتبة)، زينات أبو شاويش (كاتبة)، سوزان سلامة (شاعرة)، إياد حياتلة (شاعر).

تعليق على الطلب من رابطة الكتاب السوريين

وفي أول رد فعل على هذا الطلب الفلسطيني الجماعي من جانب رابطة الكتاب السوريين، قال الشاعر نوري الجراح من لندن، أحد مؤسسي الرابطة: شكرا لكم يا وجدان فلسطين وضميرها الحي. نحن نؤمن أن دمنا واحد. لقد خاطب شعبنا الثائر حكامه القتلة بكلمات شاعركم العظيم محمود درويش: «خذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا»، فساوى المستبد بالمحتل. إننا نعتبر هذا الطلب استفتاء فلسطينيا على الثورة السورية، وهو صوت جماعي يسحب البساط الفلسطيني من تحت النظام السوري، وينزع ورقة التوت الفلسطينية عن عورة النظام. فالضحية الفلسطينية التي ملأت أوجاعها العالم لايمكن لها أن تقبل الصمت على آلام الضحايا أيا كانت هويتهم فالألم الإنساني واحد والجريمة ضد الإنسان واحدة، فكيف بآلام الشقيق. أقول لهم باسم جميع السوريين: بيتنا الأدبي الحر الوليد يتشرف بهم، لهم صدره ولنا العتبة. إن وجدان فلسطين الممثل بهؤلاء الشعراء والأدباء إنما يؤكد على حقيقة نهائية مفادها إن الاستبداد هو الحاضنة الطبيعية للاستعمار، وإن نهاية الاستبداد هي بداية نهاية الاستعمار.

أكثر من مائة كاتبة وكاتب من المغرب ينتسبون جماعيا إلى «رابطة الكتاب السوريين» في خطوة مغربية تضامنية قوية مع الكتاب السوريين الأحرار وثورة شعبهم

طلب انتساب شرفي جماعي من الكتاب المغاربة إلى «رابطة الكتاب السوريين»

أرسل أكثر من مائة من الشعراء والكتاب والمفكرين المغاربة تهنئة بقيام «رابطة الكتاب السوريين» وأرفقوها بطلب انتساب إلى الرابطة وذلك في خطوة تضامنية مفتوحة من قبل هذه النخبة من ألمع الكتاب في الغرب معبرين بذلك عن تضامنهم العميق مع الشعب السوري وثورته وشعرائه وكتابه الأحرار.

وقال الشاعر نوري الجراح المنسق المؤقت لأعمال الرابطة، التي تشهد حاليا انتخابات لأمانتها العامة ومكتبها التنفيذي، إن هذا الطلب الجماعي للانتساب إلى رابطتنا العتيدة من قبل إخوتنا المغاربة من حملة القلم؛ شعراء ومفكرين وروائيين ومبدعين في حقول شتى، إنما نقرأه بوصفه إعلاء لصوت الوجدان لشعب بأكمله هو شعب المغرب المكافح وموقف المؤمن بحتمية انتصار ثورة شعبنا السوري التي دخلت عامها الثاني في ظل حملة هي الاشرس في تاريخ حملات الطغاة على شعوبهم.

ونحن إذ نرحب بإخوتنا مبدعي المغرب أعضاء شرفيين في رابطتنا الحرة إنما نؤكد لهم على أن الشعراء والكتاب السوريين إنما اختاروا، في غالبيتهم الساحقة، أن يكونوا صوت الحرية وضمير شعبهم الثائر لأجل حريته وكرامته.

لقد قال أهل القلم من السوريين كلمتهم: سنظل منحازين إلى جانب شعبنا إلى أن يحقق أمنيته الغالية بإسقاط دولة الجريمة وإقامة دولة الحرية على انقاضها، وصولا إلى دستور ديمقراطي تعددي يشرع للسوريين بجميع مكوناتهم قولا وعملا كيانا يمكنهم من اختيار ممثليهم في التداول على السلطة ديمقراطيا، وهو ما من شانه في النهاية أن يعيد سوريا إلى فلكها العربي دولة مؤثرة في قضايا الأمة وفي مقدمها القضية الفلسطينية، والمجتمع الديمقراطي.

والكتاب المغاربة هم:

محمد برادة، كاتب
حسن نجمي، شاعر
نجيب خداري، شاعر
محمد الأشعري
الطائع الحداوي
رشيد المومني، شاعر
عبد الرحيم العلام، ناقد
حسن النفالي، مسرحي
نور الدين الزاهي، باحث
العربي الحارثي، مترجم
محمد الصالحي ، شاعر
مراد القادري، شاعر
عزيز أزغاي، شاعر وفنان تشكيلي

خالد بلقاسم،ناقد
نبيل منصر، ناقد
عبد الحميد جماهري، شاعر
ياسين عدنان، شاعر
بهاء الدين الطود، روائي
عمرو أولقاضي، روائي
يوسف ناوري، ناقد
عبد الرحيم الخصار، شاعر
أحمد العمراوي، شاعر
محمد بشكار، شاعر و صحفي
عبد اللطيف البازي، باحث
عبد النبي دشين، قاص
هشام العلوي، باحث
لطيفة لبصير، جامعية وقاصة
حسن أوزال ، باحث
عبد الصمد الكباص ، باحث
أنيس الرافعي، قاص
عبد العزيز بومسهولي، ناقد
عبد المجيد شكير، باحث مسرحي
بوسلهام الضعيف، مسرحي
عبد الرحمان بوعلي، شاعر
ليلى الشافعي، كاتبة وصحفية
جمال أماش ، شاعر
مصطفى لغتيري، روائي
رشيد منسوم، شاعر
محمد حجي محمد، شاعر
المهدي حاضي الحمياني، شاعر
مصطفى لكليتي، قاص
عبد الحق بن رحمون، شاعر وصحفي
شرف الدين ماجدولين، باحث
محمد بوجبيري، شاعر
أحمد لمسيح، شاعر
سعيد الحنصالي، باحث
محمد زرنين، باحث
محمد الوهابي، جامعي وباحث

وثائق الرابطة

محمد بشكار، شاعر
عبد العزيز الراشدي
أحمد شراك، جامعي وباحث
نور الدين الزويتني،شاعر ومترجم
عبد الفتاح الحجمري، باحث
سعيد منتسب، قاص
رشيد بنحدو، جامعي ومترجم
عبد اللطيف الوراري، شاعر وباحث
عبدالحق ميفراني، شاعر وصحفي
سالم اكويندي، باحث مسرحي
أحمد الفطناسي، مسرحي وروائي
سعيد أحباط، قاص
عبدالرحيم مؤذن، ناقد
جلال الحكماوي، شاعر
عزيز الحاكم،شاعر
محمد بودويك، شاعر
ثريا ماجدولين، شاعرة
عبد السلام الموساوي، شاعر
بوشتى الحياني، فنان تشكيلي
ريم نجمي، شاعرة
محمد مسعاد، شاعر
محمد بهجاجي، مسرحي
الحسين الشعبي،باحث مسرحي وصحفي
أحمد بنسماعيل، فنان تشكيلي
أحمد هاشم الريسوني، شاعر
لطيفة المسكيني، شاعرة
إدريس الملياني، شاعر
مصطفى النحال، باحث ومترجم
سعيد عاهد، شاعر
يحيى عمارة، شاعر
جمال أزراغيد، شاعر
وداد بنموسى، شاعرة
جعفر عاقيل، فنان فوتوغرافي
الرداد الشراطي، مترجم
عبد السلام الموساوي، شاعر

عبد المجيد فنيش، مسرحي
عبد السلام الخلوفي، باحث موسيقي
عبد الرحيم العطري، باحث
جمال الموساوي، شاعر
عبد الرفيع جواهري، شاعر
حسن الوزاني، شاعر
إكرام عبدي، شاعرة
محمد أسليم، باحث
لحسن لعسيبي، شاعرو صحفي
خالد الريسوني، شاعر ومترجم
أحمد زنيبر، شاعر
عائشة البصري، شاعرة
أحمد محمد حافظ، جامعي وشاعر
محمد أيت لعميم، ناقد
حسن بحراوي،جامعي وناقد
بشير قمري، جامعي وناقد
علي أيت أوشن، ناقد
أحمد العاقد، ناقد
نجاة زباير، شاعرة
إدريس الخضراوي، ناقد
حسن مخافي،جامعي وباحث
عبد الدين حمروش ، شاعر
جمال بوطيب ، جامعي وباحث
عبد الرحمان طنكول ، جامعي وباحث
مصطفى الحسناوي، مترجم
محمد عزيز الحصيني، شاعر
كمال أخلاقي، شاعر
أحمد بلحاج أيت وارهام ، شاعر
محمد حمودان، شاعر
أحمد لكبيري، روائي
بوجمعة العوفي، شاعر
شرف الدين مجدولين، ناقد
حسن رياض، روائي
كمال أخلاقي، شاعر.

حول بيان الـ ١٠٠ مثقف فلسطيني والخطوة التالية:
سحب الورقة الفلسطينية من قبضة النظام المحتل في دمشق

نائل بلعاوي

هامة، بقدر طاقتها على الايحاء، كانت فكرة اقدام الكتاب الفلسطينيين على توقيع طلب انتساب جماعي لرابطة الكتاب السورييين التي ولدت قبل وقت قصير في في سوريا والمنفى السوري تتجاوز، من ناحية، حدود التضامن التقليدي مع قضية تستحق التضامن وتستدعيه، لتدخل صلب العمل المشترك: الانتساب للرابطة السورية التي أخذت على عاتقها (او هكذا ننتظر) مهمة استرداد ملف الثقافة الكبير من براثن النظام وتحريره مما علق به، على مدار العقود السابقة، من اوهام وهرطقات ورؤىً وضيعة أحطت من القيمة الكلية والعميقة للمنجز الثقافي وأنتجت، في المقابل، مفاهيمها الخاصة (قومجية فارغة واشتراكية كاذبة) التي وظفت بعناية وعنف لتأكيد سلطة الحزب الواحد والقائد الواحد والعائلة المتسيدة لا اكثر.

هكذا تكون فكرة الانتساب للرابطة، وبهذا المعنى تحديداً، هي: استحضار فعلي، مُغيب بصرامة، للخصائص المميزة للثقافة العربية المشتركة والمتداخلة الى مستويات تتعدى الجغرافيا وعوامل التأثر والتأثير العادية وصولا لحالة تلقي فريدة لذات المصادر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي اوجدتها الانظمة العربية المتشابهة ولوثتها. فما يتلاقاه المثقف العربي هنا، مع اعتبار طبائع الامكنة واقتراحاتها الخاصة، هو ما يتلاقاه هناك... في هذا البلد او ذاك.. تحت رحمة هذا النظام الوحشي او ذاك. وما يمكن أن يُقدم عليه ذلك المثقف ، وما يجدر به العمل على تحقيقه في اطار انقاذ ثقافته المشتركة، هو متشابه الجوهر والخطوات بالتالي، ولعل الرابطة السورية الوليدة وبيان الانتساب الفلسطيني اليها (هناك طلبات انتساب جماعية لعديد الكتاب من مصر والمغرب والجزائر ايضاً ولبنان على الطريق)، لعلها تصب مجتمعة في مشروع بديع ورصين لانقاذ الثقافة العربية من غيٍّ وجهالة الانظمة السائدة.

من ناحية ثانية، لا تقل اهمية ابداً عن، الاولى الواردة اعلاه: تجيء فكرة الانتساب الفلسطيني للرابطة السورية في موعدها المنشود بالضبط. انه الوقت المناسب للعمل على سحب الورقة الفلسطينية من قبضة النظام المحتل في دمشق، حيث يتابع القتلة هناك، ومنذ عقود ظلامية اربعة، جلد شعبهم بتلك الورقة وحرمانه، بحجج المقاومة الخرافية، من حقوقه الادمية البسيطة في وقت كان تأثيرهم التدميري على القضية الفلسطينية هو الامر المركزي، وربما الوحيد، الذي تحفظه الذاكرة العامة لهم، وليس هذا الهراء المتواصل حول مقاومة النظام لاسرائيل، وممانعة الصلح معها، ورعاية الملف الفلسطيني.. الى اخر الشعارات الجوفاء التي كابد السوري تحت سياطها ولا يزال. ليكون النظام المقاوم والحال هذه، قد ضرب، أنسجاماً مع منطقه الوحشي، عصفورين بحجر واحد: قمع الشعب السوري وتخريب مسارات تطوره الطبيعي، واللعب على هواه ووفقاً لمصالحه الذاتية الصرفة بالورقة الفلسطينية. ثم،إوأذا ارتضينا التسليم قليلاً بأكذوبة المقاومة تلك، فكيف يفسر لنا النظام وشبيحته المنتشرون بلا خجل أو وجل في وسائل الاعلام: جدلية العلاقة بين المقاومة ومصادرة حريات الناس... بين المقاومة ومجازر العقود الاربعة التي مارسها النظام ضد شعبه.. وبين

المقاومة وتأليه الاب القائد (غير الشرعي) وتأليه الابن الوريث (غير الشرعي) والتأليه الذي كان يمكن ان يتم لوريث الوريث؛ وكيف يقنعنا، استطراداً واستحضاراً، بعض الكتاب الفلسطينيين الذين عارضوا بيان المائة، وعارضوا ويعارضون كل حراك شعبي من اجل التغيير: كيف يقنعوننا بجاهزية الشعب الفلسطيني لقبول قتل واستعباد اخوتهم في الجوار السوري وباسم قضيتهم، في حين لا يمكن للفلسطيني سوى الانتصار لقضايا العدالة والحريات الغائبة، فتلك هي قضاياه وجوهر وجوده العميق !؟

شديد الاهمية، وعلى كافة الاصعدة، كان بيان الانتساب الفلسطيني الذي لم ينل تغطية اعلامية كافية للاسف، وشديدة الاهمية هي فكرة إنشاء رابطة الكتاب السوريين، فقد جاء البيان ليسحب الورقة الفلسطينية من قبضة النظام البدائي، وسبقته الرابطة العاملة على استرداد الثقافة السورية / العربية من ادراج شبيحتها، وإذا كان الفعل الاول يكمل الثاني، كما نحب وننتظر، ويوسع افاقه، وإذا كان لا بد للمثقف من تحقيق حالة تفاعل جدي، منشود وضروري، مع قضايا وهموم شعبه، فإن الاشارة جديرة الان الى اهمية الخطوة القادمة، إذ لا يجوز لهذا البيان الهام ان يواصل سيره الضوئي الى خزائن النسيان العربية الاثيرة، ولا يصح ان يتوقف حدود اهتمامنا بفكرته العالية عند لحظة توقيعه ونشره، فهناك ما يمكن بالضرورة متابعته والعمل على تحقيقه، ولعل العمل على اصدار بيان موسع يتم الحاقه بالاول هو الخطوة الاولى الان، فقد غابت العديد من الاسماء الفلسطينية الراغبة، كما اعلنت هي بنفسها، بالمشاركة، عن البيان الاول. كما يمكن، ومن باب الاقتراح ومواصلة الحوار، الاتصال بأجهزة الاعلام العربية، المرئية تحديداً (صاحبة الجمهور الاوسع عادة) كي تسلط الضوء فعلياً على الورقة الفلسطينية وضرورة استرجاعها من النظام السوري. ناهيك عما يمكن اصداره من اوراق دورية (عن الرابطة السورية) تتابع هذه القضية وتعمق حضورها، وصولا، كما نرجو، للتحضير لمؤتمر ثقافي عربي عام يعيد الثقافة المُصادرة الى نصابها الطبيعي، حيث الحرية هي الاصل والمرجع، وحيث القضية الفلسطينية هي قضية سورية عربية وانسانية وليست مجرد أداة لقمع الشعوب وتدمير مصائرها.

كثيرة هي الافكار القابلة للسجال حول هذا الجانب العضوي من العمل الثقافي، وكثيرة هي الخطوات الممكن تنفيذها في السياق، فالقضية المطروحة اليوم على الشعوب العربية هي قضية مصيرية، بقدر ما هي ريادية ايضاً، وهامة بقدر اهمية الحياة والعيش الكريم، وها هي الفرصة قد حانت اخيراً: فرصة الصعود الجمعي للعرب، الى مراتب الحرية العظيمة، وما على المثقف العربي اليوم سوى التقاط معانيها وتحليل إشاراتها ودعمها، قبل كل شيء، بالكثير مما يمكن للثقافة ان تقدمه، فهناك الكثير والهام... بل الكثير جداً مما يمكن تقديمه فعلاً.

كاتب من فلسطين

كتاب جزائريون يطالبون العالم بالتدخل لوقف حمام الدم في سوريا

أوقفوا الجريمة فورا

(تلقينا في «رابطة الكتاب السوريين» من الجزائر بلد المليون ونصف المليون شهيد هذا البيان التضامني مع ثورة الشعب السوري، من قبل نخبة من الكتاب والشعراء والمفكرين الجزائريين.. وقد ترك الكتاب بيانهم مفتوحا ليوقعه المزيد من حملة الأقلام الجزائريين المتضامنين مع الشعب السوري الثائر)

نحن المثقفين الجزائريين شعراء وكتابا ومفكرين، يؤلمنا ما يجري في سوريا الوطن والتاريخ والذاكرة والبعد الحضاري منذ أحد عشر شهرا، حيث تداس كل هذه القيم، ويتحول الإنسان إلى طعم للموت قتلا وتنكيلا وتشريدا وتدميرا لكيانه وكرامته على أيدي زمر من القتلة الذين انعدمت في نفوسهم كل شفقة وكل رحمة ولم ينج من أعمالهم الشنيعة حتى النساء والأطفال الأبرياء.

نكاد لا نصدق أن سوريا هذا البلد الجميل أصبح اليوم مسرحا للقتل والدمار وشارعا لمواكب الجنازات اليومية حيث يودع الشهداء شهداء سيلحقون بهم بعد حين.

إننا إذ نرفع الصوت متضامنين مع الشعب السوري المطالب بحريته والمناضل من أجل كرامته وعزته والمتشوق إلى بناء نموذج لدولة مدنية حديثة وتعاقد اجتماعي جديد يحترم التعددية القومية والدينية في إطار دولة ديمقراطية برلمانية أساسها المواطنة والمساواة أمام القانون، إنما نطالب بأن تحترم إرادة الشعب السوري في الاختيار.

إن مواجهة طلبات الشعب السوري من قبل النظام الديكتاتوري الحاكم بلغة الرصاص والمدافع والقتل اليومي المريع الذي يبلغ مستوى الإبادة الجماعية كما يحصل في حمص إنما يستنفر فينا نحن الموقعين على هذا البيان عصب الدفاع عن حقوق الإنسان ويجعلنا نستصرخ ضمائر العالم بمنظماته الحقوقية والإنسانية، وعلى رأسها منظمتي الصليب الأحمر والهلال الأحمر الدوليين أن تتدخل لإنقاذ حياة السوريين المهددة في مدن حمص وإدلب ودرعا وحماه وأرياف دمشق وغيرها من البلدات الواقعة تحت وابل القذائف الصاروخية.

نرفع أصواتنا مستصرخين ضمائر العالم أن أوقفوا فورا هذه الجريمة.

الموقعون:

محمد شوقي الزين (كاتب ومفكر)، ابو بكر زمال (شاعر)، بوزيد حرز الله (شاعر)، شرف الدين شكري (روائي)، الخير شوار (روائي)، رابح ظريف (شاعر)، عبد الله الهامل (شاعر)، عبد الحميد إيزة (قاص)، عمار يزلي (كاتب)، أحمد بوعلام دلباني (شاعر)، عمار مرياش (شاعر)، عبد الوهاب بن منصور (روائي)، توفيق عوني (شاعر)، عادل صياد (كاتب)، ربيعة جلطي (شاعرة وروائية)، عبد الوهاب تمهاشت (قاص)، عبد العالي مزغيش (شاعر)، جيلالي نجاري (شاعر)، نوارة لحرش (شاعرة)، حمري بحري (شاعر)، عبد الرزاق بوكبة (روائي)، رشيد فيلالي (كاتب ومترجم)، محمد عاطف بريكي (شاعر ومترجم)، سعيد هادف (شاعر)، الطيب صالح طهواري (شاعر)، محمد الصاح حرز الله (قاص)، مسعود حديبي (شاعر)، أسماء مطر (شاعرة)، عبد الرحمان مزيان (كاتب)، علال سنقوقة (قاص)، بشير ضيف الله (شاعر)، عز الدين جلاوجي (أديب)، جمال الدين طالب (قاص)، قلولي بت ساعد (قاص)، محمد ساري (روائي)، طارق ثابت (شاعر)، ياسمينة فرحات (شاعرة)، مريم معوج (شاعرة)، رابح خدوسي (روائي)، رفيق جلول (شاعر)، وهيبة شاوي (شاعرة)، علاوة حاجي (قاص)، محمد الأمين سعيدي (شاعر)، أحمد عبد الكريم (شاعر)، سلوى مسعي لاميس (شاعرة)، محمد رابحي (قاص)، أبو طالب شبوب (كاتب صحفي)، باديس فوغالي (روائي)، عثمان دلباني (فنان)، محمد شماني (صحفي وكاتب)، مراد بوكرزازة (روائي)، سلمى عبد الوهاب (شاعرة).

عشرات الكتاب اللبنانيين بينهم هاني فحص
يقدمون طلب انتساب جماعي إلى «رابطة الكتاب السوريين»

وصلنا إلى رابطة الكتاب السوريين طلب انتساب جماعي من قبل عشرات من الكتاب اللبنانيين المتضامنين مع ثورة شعبنا السوري، وقد عبر الكتاب في طلبهم عن تهنئتهم بقيام هذه الرابطة كأول هيئة ديمقراطية من هيئات المجتمع المدني السوري قائمة على الانتخاب الحر. من بين طالبي الانتساب الأدب والمفكر اللبناني الشيخ هاني فحص والكتاب الروائيون الياس خوري، حسن داوود، أحمد علي الزين وهدى بركات، ومن الشعراء عباس بيضون وشوقي بزيع وبول شاوول وعناية جابر ويوسف بزي، ومن أهل الفكر الأدبي والسياسي وليد نويهض رضوان السيد وخالد صاغية، وغيرهم من الكاتبات والكتاب ممن سبق لهم أن عبروا في كتاباتهم عن تضامنهم المفتوح مع ثورة الشعب السوري. وقد جاء في مقدمة الطلب:

نحن الكتّاب والمثقفين اللبنانيين نعلن تأييدنا لإنشاء «رابطة الكتّاب السوريين» وما ورد في بيانها التأسيسي، معلنين انتسابنا الشرفي إليها ومشاركتنا الإخوة السوريين رفضهم لسلطة القمع والدكتاتورية. كما نعلن تضامننا مع الثورة السورية ومؤازرتنا لصمود أبنائها - في مواجهة الهجمة الدموية التي يشنها النظام - بشجاعة عز نظيرها، ونشاطرها الطموح نحو إقامة دولة المواطنة، المؤسَسة على مبادىء المساواة والحرية والديموقراطية للشعب السوري بجميع مكوناته وأطيافه.

المنتسبون:

هاني فحص، الياس خوري، إيمان حميدان، أحمد علي الزين بشير هلال، بول شاوول، بيسان الشيخ، حازم الأمين، حازم صاغية، حسام عيتاني، حسن داوود، جاد تابت، جبور الدويهي، جلبير الأشقر، جمانة حداد، جهاد بزي، حنين غدار، خالد صاغية، دلال البزري، ديانا مقلد، رشا الأطرش، رشا الأمير، رضوان السيد، زياد ماجد، سامر فرنجية، سحر مندور، شريف مجدلاني، شوقي بزيع، عباس بيضون، عبده وازن، عقل العويط، علي الأمين، عناية جابر، غسان علم الدين، فادي الطفيلي، فارس ساسين، لقمان سليم، محمد أبي سمرا، محمد سويد، ميشال حجي جورجيو، نجوى بركات، هدى بركات، وسام سعادة، وليد نويهض، يحيى جابر، يوسف بزي.

بيان من الكتاب والمفكرين والفنانين العرب حول مجازر آل الأسد وآخرها مجزرة الحولة:

جواباً على الرسالة التي وجهتها «رابطة الكتاب السوريين» مؤخراً إلى أدباء العرب والعالم ومفكريه وفنانيه مطالبة جميع الأحرار والشرفاء في العالم العمل على مساندة الشعب السوري المكافح لأجل الحرية والكرامة، وهي رسالة حذرت من أن الكتاب والشعراء والمفكرين السوريين باتوا يرون أن الجرائم التي ترتكب تحت سمع وبصر العالم أجمع وآخرها مجزرة الحولة في حمص ولا تلقى سوى الشجب، إنما يشترك في المسؤولية عنها، بطريقة غير مباشرة، كل من يتقاعس وعلى رأس هؤلاء الأمم المتحدة وأمينها العام ولجنة كوفي عنان وهو ما يعطي النظام السوري مهلا متعاقبة تحولت إلى رخصة مستمرة بالقتل.

ولذلك فإننا كمثقفين عربا، شعراء وأدباء ومفكرون وفنانين، وتضامنا منا مع الشعب السوري وشهدائه وجرحاه ومفقوديه ومعتقليه وكتابه ومناضليه نعلن أننا نقف بصورة واضحة وصريحة ومباشرة، لا لبس فيها إلى، جانب هذا الشعب في ثورته الشجاعة ضد النظام الديكتاتوري الشمولي الفاشي وحلوله الأمنية التي شملت قصف المدن بالأسلحة الثقيلة واستباحة المدنيين وتدمير ممتلكاتهم ومصالحهم وأرزاقهم وإحراق محاصيلهم وقتل حتى حيواناتهم وممارسة ارهاب الدولة والقتل الممنهج وتخيير الناس بين القبول بالنظام أو الموت، وقمع الحريات بأساليب قروسطية في التعذيب وامتهان الكرامة. ولم يفتنا ان نلاحظ ما تميزت به حملات الاعتقال التعسفي من طابع همجي ووحشي غير مسبوق وصل حد العقاب الجماعي والجرائم ضد الإنسانية بعض علاماته المذهلة الذبح بالأسلحة البيضاء وإعادة المعتقلين إلى ذويهم جثثاً مشوهة بطريقة شنيعة، وغير ذلك مما لا يخطر على بال من طرق التنكيل والإرهاب والإذلال التي تمارس يومياً فرديا وجماعيا ضد الشعب السوري البطل بهدف إخضاعه.

بدورنا نهيب، نحن الكتاب والمفكرين والمبدعين العرب، بأدباء العالم ومفكريه وفنانيه أن يهبوا إلى مساندة الشعب السوري إخلاصاً منهم لإنسانيتهم وانسجاماً مع مبادئ الحرية والعدالة وحقوق الإنسان التي نسعى إليها جميعاً، ونحثهم على أن يترجموا ذلك من خلال مواقف قوية تدعو المجتمع الدولي إلى ممارسة كل السبل المتاحة في الضغط على النظام السوري لوقف آلة القتل ولجمها عن ارتكاب المزيد من المجازر وهذا لن يتم إلا بسحب الآليات العسكرية من الأحياء المدنية والسماح للمتظاهرين السلميين بممارسة حقهم في التظاهر، والضغط على النظام لتطبيق النقاط الست الواردة في خطة عنان التي تقتضي في نهاية المطاف توفير الأجواء لانتقال سلمي للسلطة في سوريا بما يسمح للشعب بممارسة حقه فى التظاهر السلمي وحقه فى اختيار نظام الحكم الذى يريد. وإن لم يمتثل النظام السوري فإنما نرى أن لا مناص، إذ ذاك، من دعوة مجلس الامن الدولي لاصدار قرار أممي تحت البند السابع يتم بموجبه إرسال قوة دولية لحماية المدنيين من القتل.

أخيرا ولإحقاق العدالة ندعو المجتمع الدولي إلى إرسال لجنة تحقيق دولية على وجه السرعة إلى سوريا لتحقق بصورة مستقلة في مجزرة الحولة وبقية المجازر، ليصار من ثم إلى سوق القتلة ومرتكبي مجزرة الحولة المروعة وبقية المجازر التي وقعت في البلاد إلى محاكمات عادلة.

عاش نضال الشعب السوري البطل لأجل حريته وكرامته والخزي والعار للقتلة الجبناء.

الموقعون:

صلاح فائق (شاعر -العراق)، غياث مدهون (شاعر- فلسطين)، شاكر لعيبي (شاعر -العراق)، بهاء طاهر (كاتب - مصر)، حلمي سالم (شاعر - مصر)، سعد القرش (كاتب - مصر)، نوري الجراح (شاعر - سوريا)، خلدون الشمعة (ناقد - سوريا)، حسام الدين محمد (ناقد وصحافي - سوريا)، جهاد هديب (شاعر - فلسطين)، معن البياري (كاتب - فلسطين)، زهير ابو شايب (شاعر- فلسطين)، بدر الدين عرودكي (كاتب - سوريا)، عبد الوهاب الملوح، وفائي ليلا، ليانة بدر (كاتبة وسينمائية -فلسطين)، طارق العربي (شاعر- فلسطين)، أبو بكر زمال (شاعر - الجزائر)، محمد حيان السمان (كاتب - سوريا)، مروان علي (كاتب - سوريا)، فاديا لاذقاني (كاتبة - سوريا)، آرام (شاعر - سوريا)، نصر جميل شعث (شاعر- فلسطين)، خلدون عبد اللطيف (كاتب - سوريا)، سمر أنور ، محمد إقبال بلو (كاتب -سوريا)، ابراهيم قازو (شاعر - المغرب)، صالح بن عياد (شاعر- تونس)، راجي بطحيش (كاتب - فلسطين)، إسلام أبو شكير (كاتب وصحفي - سوريا)، جبران سعد (شاعر - سوريا)، حسين الشيخ (كاتب- سوريا)، إبراهيم عبد الملك (كاتب - سوريا)، خالد سليمان الناصري (كاتب - سوريا)، سيمون نصار، وارد بدر السالم (كاتب - العراق)، عبد الناصر العايد (كاتب - سوريا)، عبد الكريم العفنان (كاتب - سوريا)، غادة نبيل (شاعرة - مصر)، وحيد الطويلة (كاتب - مصر)، هشام علوان (كاتب - مصر)، نجلاء علام (كاتبة - مصر)، محمد عيد إبراهيم (شاعر - مصر)، زين العابدين فؤاد (شاعر - مصر)، بسمة الحسيني (كاتب - مصر)، عزمي عبد الوهاب (كاتب - مصر)، عزة االبراهيم (كاتب - مصر)، عمرو جمعة، (كاتب - مصر)، محمود عبد الرحيم، (كاتب - مصر)، مدحت صفوت، (كاتب - مصر)، إيناس عثمان، (كاتب - مصر)، السيد فهيم، (كاتب - مصر)، أحمد محمد مليجي،(كاتب - مصر)، رفعت السيد علي، (كاتب - مصر)، عماد علي قطري، (كاتب - مصر)، محمد ثابت (كاتب - مصر)، سيف الخفاجي (لوركا العربي)، طاهر رياض (شاعر- فلسطين)، رشا عمران (شاعرة - سوريا)، جيهان عمر (شاعرة - فلسطين)، أحمد كناني، عبدالغني محفوظ، محمد علاء الدين عبد المولى (شاعر - سوريا)، صالح مشارقة. (كاتب - فلسسطين)، زياد خداش. (كاتب - فلسسطين)، وليد الشيخ. (شاعر- فلسطين)، مهيب البرغوثي. (كاتب - فلسسطين)، اسامة العيسة. (كاتب - فلسسطين)، جميل ضبابات. (كاتب - فلسسطين)، حسين شاويش (كاتب - فلسسطين)، محمد مشارقة (كاتب- فلسسطين)، توفيق العيسى. (شاعر- فلسطين)، نادرة محمود (كاتبة- فلسطين)، موسى حوامدة (شاعر - فلسطين)، جليل حيدر (شاعر -العراق)، فتوح قصار (كاتب - فلسسطين)، حنا حيمو (كاتب - فلسسطين)، فرج بيرقدار (شاعر-سوريا)، معن سمارة (شاعر-فلسطين.)، بهاء طاهر (روائي مصر)، غادة نبيل (شاعرة - مصر)، وحيد الطويلة (كاتب - مصر)، هشام علوان (كاتب - مصر)، محمد عيد ابراهيم (شاعر - مصر)، نجلاء علام (كاتبة -مصر)، قاسم مسعد عليوة (كاتب - مصر)، انتصار عبد المنعم، (كاتبة - مصر)، محمد عشاور هاشم (كاتب - مصر)، عباس منصور (كاتب - مصر)، أسامة البنا (كاتب - مصر)، أشرف حجازي (كاتب - مصر)، حسام الزمبيلي (كاتب - مصر)، محمد عبد القوي حسن (كاتب - مصر)، ، فؤاد نصر الدين (كاتب - مصر)، علاء حليحل (شاعر -سوريا)، مروان خورشيد (شاعر-سوريا)، عثمان حسين (شاعر- فلسطين) ، سلمى إدلبي (كاتب-سوريا)، محمد عريقات (شاعر - الأردن)، عبدالله أبو بكر (شاعر -فلسطين)، فوزي باكير (شاعر - الأردن)، اسلام سمحان (شاعر- الأردن)، بريهان الترك (شاعرة - الأردن)، رشا حلوة (كاتبة - فلسطين.)، مهند صلاحات (كاتب- فلسطين)، آمنة أبو صفط (شاعرة- فلسطين)، غازي الذيبة (شاعر - الأردن)، أحمد عقل (شاعر - فلسطين)، جمال القواسمي (روائي وقاص- فلسطين.)، سليم البيك (كاتب فلسطيني)، محمود الأزهري (كاتب مصر)، رضا العربي (كاتب مصر)، محمود الديداموني(كاتب مصر)، حسين

القباحي (كاتب مصر)، إيهاب خليفة (كاتب مصر)، أحمد الحلواني (كاتب مصر)، أحمد الليثي الشرنوبي (كاتب مصر)، جمال التلاوي (كاتب مصر)، زكي سالم (كاتب مصر)، إيمان سند (كاتب مصر)، سعيد عبد المقصود (كاتب مصر)، عزة راجح (كاتب مصر)، بهاء الدين رمضان (كاتب مصر)، محمد اسامة البهائي (كاتب مصر)، محمود الريماوي (كاتب -فلسطين)، ربعي مدهون (كاتب - فلسطين)، محمد غباري (كاتب - فلسطين)، حسين الموزاني (كاتب عراقي)، باسل أبو حمدة، (كاتب فلسطيني)، حزامة حبايب (كاتبة فلسطيني) ، شاكر نوري، (كاتب عراقي)، فخري صالح (كاتب فلسطيني)، شعيب حليفي (روائي-باحث- المغرب)، الطائع الحداوي (باحث وأكاديمي - المغرب)، حفيظ عبدالرحمن -(شاعروصحفي سوري)، إبراهيم اليوسف (شاعر سوري)، فدوى كيلاني-(شاعرة سوريا)، أيهم اليوسف-(صحفي سوريا)، كرم يوسف -(روائي وصحفي)، وئام القريوتي (صحفي- سوريا) ، سالم الهنداوي (روائي - ليبيا)، اسامة شقير (فنان تشكيلي - فلسطين)، محمد الدروبي(كاتب، سوريا)، سيد محمود (صحفي مصري)، نجاة علي (كاتبة مصرية)، محمد هاشم (كاتب وناشر -مصر)، إبراهيم الجبين (كاتب وإعلامي سوري)، رامي الجراح (ناشط وإعلامي سوري)، ندى منزلجي (شاعرة- سوريا)، فراس سليمان (شاعر-سوريا)، ضياء الدين دغمش (ناشط ومدون سوري)، غسان علم الدين (شاعر - لبنان).

بيان
الحرية للكاتب السوري المعتقل حسان محمد محمود وسائر الأحرار السوريين المعتقلين

في إطار الحملة الشرسة التي يشنها النظام الديكتاتوري الفاشي في سوريا اعتقل مؤخرا الكاتب الساخر حسان محمد محمود من قبل مخابرات القوى الجوية... «رابطة الكتاب السوريين» تحمل النظام الإجرامي المسؤولية الكاملة عن حياة الكاتب وسائر معتقلي الرأي والمعتقلين السوريين المناضلين لأجل سوريا ديمقراطية الذين يعانون من كل انواع التعذيب والتنكيل والإرهاب الجسدي والنفسي في أقبية ومعتقلات الطاغية. وتهيب الرابطة في الوقت نفسه باهل الأدب والفكر والفن في العالم العربي والعالم لرفع أصواتهم ومطالبة النظام الفاشي بالإفراج عن سائر المعتقلين السوريين..والاعتراف بحق السوريين في التظاهر السلمي وحرية التعبير.
ننشر هنا بعض مقالات الكاتب المنشورة على مواقع الانترنت.

رابطة الكتاب السوريين

«رابطة الكتاب السوريين» تدين اعتقال محمد بركة

بلغنا في «رابطة الكتاب السوريين» اليوم 11-7-2012 نبأ اعتقال محمد بركة العضو البارز في ائتلاف إعلان دمشق للتغيير الوطني الديمقراطي من قبل قوات الأمن، في مدينته السويداء وبركة مثقف وطني حر معروف المثقف ومناضل من أجل مجتمع ديمقراطي تعددي، وهو صاحب مكتبة في المدينة ويتجاوز عمره الستين عاماً.
الذين حملوا إلينا خبر اعتقاله قالوا فيه: إنه يحمل همة وجرأة وطموح الشباب وقد شارك في معظم المظاهرات في السويداء وكان مثالاً على التزام المثقف بقضايا شعبه ووطنه .
على صفحته في الفيس بوك كتب ابنه عدنان مخاطبا أبيه: أبي الحبيب، لم أحزن إلا لأنني لم أكن معك، لا لأحمل عنك وزر السجن أو الاعتقال، بل لأشاركك وكل الأحرار هذا الشرف.
وخاطبه ابن أخيه قائلا: عمي الغالي لطالما كنا نستمد منك الإرادة والتصميم وأزلت عن أعيننا الغشاوة من أجل السعي وراء الحرية وبناء دولة مدنية ديمقراطية..لقد كنت من أول الأحرار والمضحين في سبيل تحقيق هذا الحلم. الفخر لنا بك والحرية لك...لتكن نورا يضيئ عتمة معتقلاتهم..ونارا تحرق تاريخهم الدامي.
وكتب يوسف نور، أحد تلامذته: الأستاذ محمد هو احد مناراتنا بوصلته تتجه نحو حرية الوطن ونحن نستدل بها.
وكتب آخر: إنه عنوان عريض من عناوين النضال الوطني في السويداء، رجل ثابت النهج وحرّ الخصال، سيواجههم بابتسامته وهدوئه وسيخرج باسقا كسنديانة معمرة ازدادت صلابة، الحرية له ولجميع الأحرار.
«رابطة الكتاب السوريين» التي تدين اعتقال محمد بركة تدعو المجتمع الدولي وجميع الأحرار في العالم إلى المطالبة بإطلاق سراحه وجميع المعتقلين السوريين بسبب آرائهم ومواقفهم المناصرة لحرية شعبهم ونضاله العادل لأجل الديمقراطية والكرامة.

رابطة الكتاب السوريين

رسالة من ثلاث روابط سورية إلى الشعب العربي حول مجازر النظام الاسدي في سوريا وآخرها مجزرة داريا

رسالة إلى الشعب العربي وقواه الحية
حول مجازر النظام في سورية

بأرواح مفجوعة وغاضبة نتوجه نحن الكتاب والفنانين والصحافيين السوريين المنضوين في «رابطة الكتاب السوريين» و«تجمع فناني ومبدعي سوريا لأجل الحرية»، ورابطة الصحافيين السوريين» برسالتنا المفتوحة هذه مخاطبين القوى الشعبية العربية المعبرة الضمائر الحية الباقية في شعوبنا العربية، من خلال الهيئات والمنظمات المدنية من روابط أهلية وبينها روابط الكتاب والفنانين والصحافيين والمحامين والحقوقيين والأطباء، وغيرهم ممن يعبرون عن روح الشعب العربي، مطالبين أن تتجاوزوا العجز والخذلان العربيين وتنهضوا للقيام بواجبكم الاخلاقي نحو شعبنا السوري المكافح لأجل الحرية الذي يتعرض للإبادة اليومية.

نكتب إليكم مفجوعين وغاضبين، وبينما نحن نكتب تتسارع الأخبار: ويسجل شريط الموت اليومي سقوط 440 روحا بريئة جديدة في سوريا... أكثرهم في مجزرة داريا.

نكتب إليكم متطلعين أن تقوموا بواجبكم في دعوة الشعوب العربية إلى التظاهر في الشوارع نصرة لشعبنا السوري الذبيح على يد الطغمة الحاكمة من آل الأسد وعصاباتهم التي تقوم بجرائم الإبادة على مسمع ومرأى العالم أجمع من دون أن يهتز لأفعالها المزلزلة ضمير عربي أو عالمي.

نتطلع إليكم يا إخوتنا في الفكر والأدب والفن والتعبير لتكونوا سندا لشعبنا المكلوم وقد جاوز الطغاة المدى ولم نعد نجد في قواميس اللغة كلمات تصف جرائمهم المروعة بحق شعبنا الحر.

نخاطب ضمائركم وهممكم أن تقفوا إلى جانب شعبنا الباسل المطالب بالحرية في محنته الكبرى، وقد انزل فيه آل الأسد السفاحين المصائب والكوارث هدما وحرقا وتقتيلا ولم يستثنوا من القتل طفلا رضيعا أو شيخا أو امرأة جوابا على طلبهم الحرية ولم يتركوا آلة تفتك بالبشر لم يستعملوها في لحم شعبنا الأعزل هادفين من وراء ترويعه إخضاعه وإعادته ذليلا مكبلا إلى بيت الطاعة.

ننتظر مساندتكم من خلال عمل مباشر يترجم إلى افعال:

دعم ومساندة بالدواء وإمكانات الصمود المختلفة لأهلنا في الداخل السوري، وبالتواصل مع اللاجئين السوريين الذين بلغ عددهم داخل وخارج سوريا حوالي مليونين ونصف المليون بين نازح ولاجيء ومشرد، يقدر عدد الموجودين منهم في مخيمات دول الجوار وخصوصا الأردن، تركيا، لبنان، العراق حوالي نصف المليون نسمة، وعدد المسجل منهم في قوائم اللجوء حوالي 340 الف نسمة.

كذلك عن طريق دعوة النقابات والجامعات والمدارس ومؤسسات المجتمع المدني المختلفة إلى الإضراب والتظاهر وتوجيه رسائل إلى الحكومات العربية للضغط عليها بهدف دفعها إلى التحرك بصورة جدية لوقف المذبحة في سوريا.

توجيه الرسائل إلى الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والأمم المتحدة ومجلس الأمن ومختلف المنظمات العربية والدولية المعنية ومطالبتها بفتح تحقيق دولي بالمذابح التي يرتكبها النظام وسوق القتلة الى المحاكم الدولية.

استنكار غياب الصليب الأحمر والمنظمات الانسانية والحقوقية الدولية عن الساحة السورية غيابا مريبا، ودعوتها إلى الاضطلاع بدورها والقيام بواجبها الانساني والأخلاقي والعملي نحو المدنيين السوريين.

من جهة أخرى. يهمنا أن نصارح إخوتنا العرب بأن المؤامرة على شعبنا مصدرها كما ثبت بالقطع ليس النظام الأسدي وحده بل ومعه شريكاه في الجريمة إيران التي تساند القتلة والسفاحين بالمال والسلاح والعتاد وكل مستلزمات الموت التي يستعملها النظام السوري وروسيا التي توفر الغطاء السياسي العالمي له.

ففي الوقت الذي استعمل فيه الروس الفيتو ثلاث مرات ضد حماية شعبنا من الموت، مول النظام الايراني الحرب على شعبنا بصورة كاملة، بما في ذلك المبالغ التي يطلبها الروس ثمنا للسلاح والدعم الدبلوماسي، ولم يخف النظام الايراني عزمه على إخضاع الشعب السوري بأي ثمن، كما يفعل مع شعبه نفسه، وكل يوم يصل رسله ومبعوثوه إلى دمشق حاملين رسائل الدعم للنظام والتهديد والوعيد للشعب السوري، وخلاصة الخطاب الإيراني: ممنوع على السوريين الخلاص من نظام الأسد، «لن نسمح بسقوط الأسد».

والواقع ان الحكام الايرانيين الذين يحتلون إرادة ثلاث عواصم عربية هي: بغداد، بيروت، دمشق، إنما باتوا يديرون بأنفسهم آلة القتل في سوريا، ليمنعوا إفلات عاصمتنا العريقة دمشق من منظومة الحلف الإيراني، وهو ما يعني انفراط عقد الاحتلال السياسي لهذه العواصم المشرقية، وهروب ورقة فلسطين، وانكفاء إيران بالتالي إلى جغرافيتها، وخروجها بصورة نهائية من قواعدها المطلة على المتوسط.

هذا ما يفسر شراسة المعركة الإيرانية - الأسدية ضد الشعب السوري، وتجاوز الجريمة كل الحدود، بحث أصبح القتل بالجملة والاعدامات الجماعية في العاصمة دمشق، وصارت اسماء البلدات السورية أسماء لمجازر جماعية مروعة فاقت ببشاعتها مجازر الإسرائيليين بحق شعبنا الفلسطيني، وآخرها مجزرة داريا في نواحي دمشق التي تجاوز عدد شهدائها من الأطفال والنساء والشبان والشيوخ الثلاثمائة نسمة قتلت بالرصاص والسكاكين والبلطات والحرق.

وفي الوقت الذي ندين فيه سياسة إيران الرسمية نحو سوريا لاننسى أن نتوجه نحو ثورة الشباب الإيراني ومعها الحركة الخضراء في إيران، حركة الشعب الإيراني الحرّ مطالبين إخوتنا هؤلاء في النضال من أجل الحرية أن تتحركوا نصرة للشعب السوري وفي ذلك نصرة لمبادئهم النبيلة وإنسانيتكم

نريد مواقف منكم.. على الأرض، مظاهرات في الشوارع تضامنا مع شعبنا وانتصارا لقضيتنا المشتركة. يمكنكم أن تتحركوا داخل إيران وخارجها ضد مشاركة الخامنئية في الجريمة السورية. قولوا لحكومتكم غير الشرعية وللعالم: كف كفى قتلا باسم الايرانيين. ليس باسمنا ترتكب الجرائم في سوريا أيها القتلة.

من قلوبنا المجروحة والمحروقة نقول لكم كفى صمتا وخذلانا أيها العرب، فالصمت والخذلان هما ما جعل الجسد السوري الجماعي طعما للمذابح... في وطن يحترق ويهدم على رؤوس ابنائه النبلاء الثائرين لأجل الحرية ليل نهار منذ سنة ونصف السنة، والموت يتربص بهم في كل وقت وكل مكان، فلم تبق بقعة من سوريا لم ترتو بدم شهيد لأجل الحرية.

كفى صمتا وخذلانا للسوريين الثائرين لأجل الحرية، فهم يقاتلون اليوم في الخندق المتقدم دفاعا عن حريتهم ووجودكم أيها العرب بإزاء عدو لئيم شريك موضوعي للعدو الإسرائيلي هو العدو الإيراني ممثلا بدولة خامنئي الذي يعمل منذ سنوات طويلة على تحويل سوريا إلى دولة ذيلية ملحقة بإيران الدولة الاستبدادية ذات المشروع القومي - الديني المعادي للديمقراطية .

نهيب بكم أيها الأحرار كتابا وشعراء وفنانين وصحافيين وقوى حية؛ منظمات أهلية ومدنية وشخصيات

حرة أن تقوموا بواجبكم العاجل نحو شعبنا الحر، لأن انتصار الثورة السورية شرط لازم لانتصار الديمقراطية في المشرق العربي.
لا لآل الاسد الطغاة السفاحين،
لا لسوريا ذيلا لإيران أو لغيرها،
لا للعجز والصمت العربيين والدوليين،
نعم للحرية ودولة المواطنة التي ثار الشعب العربي ومعه الشعب السوري لأجل تحقيقها.
المجد لشهداء شعبنا الأحرار

التوقيع:
رابطة الكتاب السوريين
تجمع فناني ومبدعي سوريا لأجل الحرية
رابطة الصحافيين السوريين

من بين الشخصيات التي وقعت البيان:
صادق جلال العظم، فارس الحلو، أسامة محمد، نوري الجراح، جودت سعيد، فرج بيرقدار، عصام العطار، سمر يزبك، صبحي حديدي، سلامة كيلة، سميح شقير، لينا الطيبي، عامر مطر، غالية قباني، مفيد نجم، خلدون الشمعة، لويز عبد الكريم، جورج صبرة، رشا عمران، حسام الدين محمد، بشير البكر، عاصم الباشا، عبد الناصر العايد،

بيان تضامني مع معتقلي الرأي في سجون الطاغية المحتل في سوريا

منذ السادس عشر من شباط، حين داهمت دوريات الأمن مقرّ المركز السوري للإعلام وحرّية التعبير، يقبع أصدقاؤنا وزملاؤنا يارا بدر، هنادي زحلوط، رزان غزّاوي، ميّادة الخليل، ثناء زيتاني، جوان فرسو، أيهم غزّول، بسام أحمد، مازن درويش، عبد الرحمن حمادة، حسين غرير، منصور العمري وهاني زيتاني في المعتقل.
بعضهم خرج مجبراً على مراجعة فرع المخابرات الجوّية يومياً قبل أن يُعاد اعتقاله، وبعضهم الآخر دون أيّ اتصال مع ذويهم أو أيّ معلومات رسميّة عن أوضاعهم الصحيّة والقانونيّة. كان عليهم الانتظار أكثر من شهرين قبل أن يعرفوا فحوى الاتهامات القراقوشيّة التي وُجّهت لهم في القضاء العسكري، وحتّى هذا «التشريف» لم يكن عامّاً، حيث ما زال مازن درويش وحسين غرير وعبد الرحمن حمادة وهاني زيتاني ومنصور العمري مجهولي المصير.
إننا، نحنُ مجموعة من الصحفيين والمدوّنين ومن أصدقاء المعتقلين والمتضامنين معهم، نطالب بالإفراج الفوري عن معتقلي المركز السوري للإعلام وحرّية التعبير، وعن كلّ المعتقلين في سجون القمع والاستبداد، كما ندعو الأحرار للتضامن مع قضيّة حجز الحقوق والحرّيات في سوريا ورفع الصوت عالياً ضدّ الاستبداد وضد المتواطئين معه.

ملحوظة:
ينشر هذا البيان بالتزامن في العديد من المدوّنات والصفحات، نرجو من الموافقين عليه إعادة نشره في مدوناتهم وصفحاتهم

ثلاثة من أعضاء «رابطة الكتاب السوريين» اضطهدهم النظام يلجأؤون إلى تركيا ورابع مايزال في السجن

علن «رابطة الكتاب السوريين» أن ثلاثة شخصيات أدبية سورية اضطهدها النظام وصلت مؤخرا إلى مناطق اللجوء في تركيا هربا من الممارسات الفاشية للعصابة الحاكمة في سوريا، وشخصية رابعة ماتزال في السجن.
والشخصيات الاربع أعضاء في «رابطة الكتاب السوريين» وقد جرى سجن هذه الشخصيات واضطهادها في الشهور الأخير بسبب نشاطهما الإبداعي والنضالي في ميادين الكفاح الثوري لأجل الديمقراطية وضد استبداد النظام الأسدي الفاشي، وهم على التوالي:
الشخصية الأولى: حفيظ عبدالرحمن ‹شاعر وكاتب›، وهو مدرب دولي لحقوق الإنسان ومراقبة الانتخابات، ومعيل لاسرة من 14 فردا. اعتقل من قبل الأمن العسكري، واختفى قسريا لمدة ستة أشهر وحوكم طليقا بمدة ستة أشهر أخرى، لكنه لجأ مؤخرا إلى تركيا، وقد تمت مصادرة كل ارشيفه ومكتبته ومن بينها ألبوماته الأسرية ومخطوطات في الترجمة من العربية والكردية وبالعكس، وأعماله الشعرية والقصصية ولم يتم إعادتها له إلى لآن، وتمثل هذه الأعمال المصادرة من قبل الأجهزة الأمنية الفاشية عصارة تجربته وروحه. وقد أصيب بأمراض نتيجة ظروف الاعتقال في الزنزانة الانفرادية. تخرج على يديه المئات من المثقفين الذين تعلموا منه قواعد لغتهم في العديد من المناطق السورية وذلك منذ ثمانينيات القرن الماضي، وأصدر بالاشتراك مع آخرين كتابين عن اللغة الكوردية وتعليمها.
الشخصية الثانية: هي الكاتبة الروائية المعروفة ابتسام شاكوش وهي من أهل الحفة المدينة ذات الأغلبية السنية التي جرى حصارها وإفراغها من السكان. وقد هدم منزل الكاتبة ومنازل اهل الحي الذي تقيم فيه فوق رؤوس سكانه وقتل 3 من افراد أسرتها.
كانت الكاتبة عضوا في «اتحاد الكتاب العرب» قبل ان تنضم إلى «رابطة الكتاب السوريين» وتنخرط في الحراك الثوري للشعبي السوري.
مؤلفاتها في مجال القصة القصيرة: «اشراقة أمل»، «الخروج من المجال المغناطيسي» ‹مترجم الى اللغة الصينية›، «بعض من تخيلنا»، «الشمس في كفي»، «الحلم الأزرق»، «انتظرني حتى أكبر»، «كان حصانا». ومن رواياتها المنشورة: «الوجه المكسور» ‹ حاصلة على جائزة أفضل رواية عام 2001›، «يا حرام» ‹حاصلة على جائزة دار الفكر 2002›، «اليتيمان» ‹جائزة موقع لها أونلاين الالكتروني في السعودية2009›. ونالت الكاتبة العديد من الجوائز السورية والعربية عن أعمالها القصصية. وهي تعمل في مجال التعليم والخدمة المدنية.
الشخصية الثالثة: ميرآل بروردا، كاتب وحقوقي من مواليد مدينة الحسكة 1979، وهو ناشط وحقوقي عمل منذ بداية الثورة مع التنسيقيات الاولى في المدينة إلى جانب الكاتب المعتقل حسين عيسو ‹حسين عيسو عضو رابطة الكتاب السوريين، وهو معتقل لدى الأجهزة الأمنية السرية منذ حوالي السنة مجهول المصير، علما أنه أجرى عملية جراحية في قلبه قبيل اعتقاله وقد رشحت أنباء عبر «رابطة الكتاب والصحفيين الكرد في سوريا» أنه أصيب بشلل نصفي وهناك قلق كبير على حياته›. والكاتب الكاتب ميرال نفسه أيضاً أجرى عملية قلب مفتوح قبل أن يعتقل لشهور بسبب نشاطه الوطني والحقوقي في الثورة السورية وقد أطلق سراحه مؤخرا.
وإلى جانب عضويته في «رابطة الكتاب السوريين» آل بروردا عضو «رابطة الكتاب والصحفيين الكرد في سوريا» و«عضو في منظمة العفو الدولية».
له دراسات في تاريخ الكورد وكوردستان ومقالات في الشأن السوري العام والشأن الكوردي الخاص. ومن أعماله

قيد الطبع ديوان «قصائد يتيمة» وديوان «حنين الموت» ومجموعة نصوص أدبية ونقدية «قراءات لزمن الضباب».
أخيرا، فإن رابطة الكتاب السوريين التي تتابع عن كثب الوضع الحقوقي ليس لكتابها وحسب وإنما لجميع السوريين الذين يتعرضون لاشرس حرب علة كيانهم ووجودهم من قبل العصابة الحاكمة في سوريا، إنما تطالب المنظمات الحقوقية والإنسانية في العالم العربي والعالم وكذلك وكذلك جمعيات الإغاثة العر بي والدولية وروابط الأدب والفكر والفن العربية والعالمية التدخل لتخفيف الآلام التي يتعرض لها شعبنا. في مخيمات اللجوء في تركيا والاردن ولبنان حيث تتفاقم أوضاع هؤلاء اللاجئين، ويتعرضون لظروف من الإهمال واللانسانية أحيانا كثيرة، ونوه هنا أن الحال يزداد سوءا بالنسبة إلى إخوتنا من اللاجئين الفلسطينيين الذي طالهم إرهاب النظام السوري لهم في مخيماتهم ولجأوا إلى الاردن، وقد وردتنا أنباء نحاول التحقق منها عن تعرضهم لمعاملة سيئة.

رابطة الكتاب السوريين

«رابطة الكتاب السوريين» تستنكر اعتداء عصابات الأمن السوري على عضوي الرابطة خالد خليفة وحسان عباس

تدين «رابطة الكتاب السوريين» بأشد العبارات النظام السوري وأجهزته الأمنية وعصابات شبيحته على اعمالهم الشنيعة وانتهاكاتهم المتواصلة لحريات السوريين، وتخص ببيانها هذا الوقائع المتعلقة بضرب المشيعين في جنازة الموسيقي الشاب ربيع الغزي يوم 25 أيار/ مايو الجاري والذي قتل قبل يوم واحد خلال واحدة من المجازر الأخيرة على أيدي عصابات الشبيحة.
وتعلن رابطة الكتاب أن من بين جملة من اعتدي عليهم بالضرب خلال التشييع عضوي الرابطة الروائي خالد خليفة والناقد المعروف حسان عباس، وأن الواقعة شهدت توقيف خليفة وكسر يده قبل أن يقوم النظام بالإفراج عنه في وقت لاحق.
إننا في رابطة الكتاب السوريين إذ نستنكر هذه الأعمال الإجرامية بحق شعبنا السوري ونخبته المثقفة والمفكرة، ونحمل النظام المسؤولية الجنائية عن كل أذى يصيب الكتاب السوريين في حراكهم السلمي إلى جانب شعبهم المطالب بالحرية والكرامة والمجتمع الديمقراطي، إنما نهيب بكتاب العالم ومفكريه وسائر مبدعيه مساندة كتابنا ومفكرينا في مواجهتهم السلمية للنظام الجائر وأعماله الشيطانية بحق شعبنا السوري الأعزل.
إن اعتقال الكاتب خليفة، وهو روائي عربي مرموق وأعماله مترجمة إلى العديد من اللغات، وضربه مع الناقد المعروف حسان عباس وذلك بالتزامن مع انكشاف المذبحة المروعة للأطفال في الحولة لهو دليل إضافي على فاشية هذا النظام الذي يضيق بالكلمات والرموز كما يضيق بالبشر ويلجأ في قمع حراكهم السلمي إلى أكثر الطرق الوحشية وانتهاكا لحياة البشر.
أيها الكتاب العرب
يا كتاب العالم الاحرار
ارفعوا أصواتكم وتضامنوا مع الكتاب السوريين المطالبين بالحرية والكرامة والحق بالحياة لشعبهم المهدد بالقتل يوميا.
لا تجعلوا صمتكم شريكا في الجريمة.

رابطة الكتاب السوريين
26مايو/ايار 2012

رابطة الكتاب السوريين تمنح عضويتها للاب باولو دالوليو وتطالب له بحقه في الجنسية السورية

أعلنت رابطة الكتاب السوريين»عن منحها عضوية الرابطة للأب باولو بالوليو بوصفه مثقفا من مثقفي الثورة السورية، ومدافعا عن حقوق الإنسان، ومناصرا كبيرا للكرامة الإنسانية.

وجاء في بيان الرابطة الذي اذيع خلال مؤتمر المعارضة السورية في القاهرة عن «تشرفنا نحن الكتاب السوريين الأحرار باسم الأب باولو وما يمثله من مواقف شجاعة ونبيلة عبر عنها في سلوكه اليومي الجامع لكلمة الإنسان السوري المنادية بالحق والحرية من دون تمييز بين مكوناته القومية والدينية. ودفع الأب الشجاع ثمنها من حريته وأمنه وحياته الشخصية فقامت الأجهزة الأمنية للنظام بطرده من وطنه الثاني وحرمانه من كنيسته المحبومبة وديره المضيء. وذلك بسبب ما يمثله شخصه من إلهام لجميع السوريين مسيحيين ومسلمين في ثورتهم الشعبية العارمة لاسنعادة حريتهم وكرامتهم. إن ما يمثله شخص الأب باولو لنا نحن السوريين يشكل علامة ملهمة لنموذج انتصر للمثل العليا في أصعب الظروف واخطرها»

وقد اوصت «رابطة الكتاب السوريين» مؤتمر المعارضة السورية المنعقد في القاهرة لأجل توحيد كلمة السوريين حول الخلاص من دولة الاستبداد والطغيان وإقامة دولة العدل والحرية، أن يعتبر الأب باولو مواطنا سوريا ويكفل له الحصول على كامل حقوق المواطنة في الجمهورية السورية الثانية.

رابطة الكتاب السوريين

«رابطة الكتاب السوريين» تحيي «نادي قضاة سوريا» الأحرار

تلقت رابطةُ الكتاب السوريين نبأ تشكيل «نادي قضاة سورية» بكثير من الغبطة والسرور، إذ لا شك أن تشكيل النادي سيكون الخطوة الأولى باتجاه استقلال القضاء السوري، بعد أكثر من أربعين عاماً من استماتة السلطة المستبدة لتعطيل المؤسسة القضائية، وإلحاقها، ليس فقط بالسلطة التنفيذية، وإنما بالمنظومة الأمنية..

وإن كان يوجد، في كل مكان، وكل زمان، قضاة نزيهون شرفاء، عادلون، فإن وجودهم لم يكن يشكل ظاهرة، ولم يكن يعني استقلال القضاء، ولا احتراماً لسلطة القانون وحس العدالة، ويكفي وجود قانون الطوارىء والأحكام العرفية لتعطيل أية حالة، أو فرصة، أو مبادرة يمكن أن تؤدي لإقامة العدل بين أبناء الشعب السوري.

إن ما رأينا، ولمسناه، وعايشناه، خلال الثورة المصرية، وما تلاها، من ارتفاع ميزان العدل عالياً، ووقوف سلطة القضاء في وجه كافة التجاوزات، ومحاولات إفساد الثورة، ليدفعنا نحو الاعتقاد، بل نحو اليقين، بأن استقلال القضاء هو الحصن الحصين لأي مجتمع في العالم، وحماية له من الفوضى، ومن سيطرة العسكر والمخابرات.

إن القضاة البالغ عددهم مئة وخمسة وأربعين الذين أعلنوا عن تأسيس نادي قضاة سورية، ووضعوا نظامه الداخلي، إنما هم شجعان، ويتمتعون بالحس الوطني العالي، ومؤكد أنهم يعرفون قوة السلطة التي يمتلكونها، ويريدون وضعها في خدمة تطلعات الشعب السوري نحو التحرر والانعتاق من ربقة القوانين الاستثنائية الجائرة.. دون خوف من انتقام السلطة المستبدة التي تستمد سلطتها- أساساً- من غياب المؤسسات الدستورية، والقضائية، وغيرها.

نادي قضاة سورية خطوة صحيحة، وقوية، على طريق تشكيل مؤسسات المجتمع المدني في سوريا.. وكان منها، على سبيل المثال، نداء حلب من أجل الوطن، وتجمع المهندسين من أجل الوطن، وتجمع المحامين الأحرار، ورابطتنا، رابطة الكتاب السوريين..

لنتعاون، ونتعاضد، ونضحي، جميعاً، في سبيل بناء سورية الحرة، المدنية، الديمقراطية.

رابطة الكتاب السوريين

تهنئة وشكر لـ«رابطة الكتاب السوريين»

الى الزملاء في رابطة الكتاب السوريين:

تحية ومحبة

أولاً، أحني رأسي إجلالا وإحتراماً للشعب السوري الذي ينزف دما منذ اكثر من عشرة أشهر ويقدم القرابين تلو القرابين على مذبح الحرية. فهذا الشعب الصامد كجبل قاسيون، لم يتزعزع رغم بحور الدماء؛ وانا على يقين من أنه سينتصر، عاجلا أم آجلا، على آلة الاستبداد ويقيم مجتمعه الديمقراطي المنشود.

ثانيا، أهنئكم بتأسيس «رابطة الكتاب السوريين»، كرابطة مستقلة عن السلطة القمعية وأزلامها ، وأي سلطة في المستقبل، وأرجو ان تضم جميع حملة القلم من كل الاطياف الفكرية والسياسية والإثنية في المجتمع السوري، كما عبر البيان التأسيسي لرابطتكم. ويماثل شعاركم «حرية التعبير دون قيد أو شرط» شعارنا في اتحاد الكتاب الايرانيين منذ تأسيسه عام 1968؛ وقد دفع اتحادنا ثمنا باهظا من أجل الالتزام بهذا الشعار في عهدي الملكية والجمهورية الاسلامية على حد سواء، وواجه الاغتيالات التي طالت العديد من زملائنا الكتاب في الثمانينات والتسعينات من القرن المنصرم.

إني لعلى يقين من أن رابطتكم التي تضم، منذ لحظة تأسيسها، أعلام الأدب والفكر السوري ستكون نبراساً للفكر المستنيروالأدب الرفيع ومدافعا صلباً عن حرية الفكر والتعبير امام كل القوى التي تحاول أن تقيد هذه الحرية بأي صفة كانت وتحت أي ذريعة. وماعانيناه نحن في إيران من كبت وقمع، يعد تجربة مريرة لاضرورة لتكرارها. إذ وبعد أن شاركت الشعوب الايرانية في الثورة عام 1979 تحت شعار «حرية، استقلال وعدالة اجتماعية» وأزاحت النظام الشاهنشاهي الديكتاتوري، ابتليت، بعد عامين فقط، بنظام استبدادي ديني حوّل إيران إلى « أكبر سجن للصحفين في العالم» (وفقا لمنظمة مراسلون بلاحدود). فقد منع هذا النظام اي نشاط ثقافي وأدبي وتنظيمي لإتحاد كتاب ايران، وقد اضطر أعضاء الاتحاد إلى إقامة اجتماعاتهم في بيوتهم، بين الحين والآخر، في ظل قمع وإرهاب السلطة وأزلامها وعناصرها الامنية. ناهيك عن منع الإيرانيين التام من تأسيس أي رابطة لكتاب وشعراء الشعوب غير الفارسية التي تشكل نحو 60 في المئة من سكان إيران، وهو ما أدى ببعض حملة القلم من هذا الشعوب إلى تأسيس جمعياتها الثقافية والفكرية والفنية الخاصة بها خارج البلاد، ومنها «رابطة القلم في أذربيجان الجنوبية» المتعلقة بشعراء وكتاب الشعب الآذري في ايران. إن تفادي مثل هذه الأمور في سوريا الجديدة لا يمكن أن يتم إلا عبر تخصيص «رابطة الكتاب السوريين» مساحة مناسبة لثقافة القومية الكردية ولغتها وآدابها في سورية، وهو ما نلاحظ بوادره الاولية من خلال القسم الكردي في الموقع الإلكتروني في الرابطة. إنه تأكيد مبكر على وجاهة الرابطة وعلى السلوك الديمقراطي للكتاب السوريين.

لقد أثلج صدورنا وجود موقع مشابه للموقعين العربي والكردي في الرابطة، باللغة الفارسية. إن مثل هذا الموقع، حقيقة، ضرورة لتربط الصلات الثقافية ونصرة الثورة السورية على المستوى الثقافي.

ثالثا، اشكركم على إدراج اسمي عضوا كاملا في رابطتكم، وأفيدكم علما باننا كمثقفين وكتاب عرب أهوازيين أصبحنا ومنذ سنوات نعمل كجسر ورابط بين ثقافتين عظيمتين - العربية والفارسية - واخذنا نلعب دورنا في كسر حاجز اللغة بين الشعوب الايرانية والعربية، والعمل على تعميق التقارب الثقافي والأدبي بينهم. وهذا ما سعيت من أجله خلال العقود الاربعة الماضية ويقوم به زملائي الاهوازيون وغيرهم داخل ايران وخارجها

بالكتابة والترجمة وماشابه ذلك. وسوف اواصله مع زملائي الكتاب الإيرانيين بعد الان.

وفي هذه اللحظة التاريخية يمكن لنا أن نكشف بجهودنا المشتركة عن الوجه القبيح والدامي للنظامين الاستبداديين المتحالفين في طهران ودمشق، من خلال رابطتكم أو غيرها من الأطر الاخرى. وانا على يقين من أن جميع الأحرار والطامحين الى الحرية والديمقراطية في إيران إنما يساندون نضالكم الشجاع من أجل حرية الكلمة والفكر والمعتقد ويبجلون نضال شعبكم السوري البطل.

لندن في 03/02/2012 الكاتب والصحفي يوسف عزيزي

عضو اتحاد الكتاب الايرانيين،العضو الفخري لرابطة القلم البريطانية وعضو رابطة الكتاب السوريين

دلالات أول انتخابات ديموقراطية لرابطة كتّاب سورية مستقلة

بول شاوول

الانتخابات التي تمت بالتصويت الالكتروني للهيئة الجديدة لرابطة الكتّاب السوريين، واعلنت نتائجها الأربعاء الماضي، تشكل الإطلالة الديموقراطية الجامعة الأولى للمجتمع المدني، من البوابة الثقافية. فالثورة المستمرة منذ أكثر من عام والتي خلفت آلاف القتلى والمفقودين والجرحى والمعتقلين ودماراً أحدثته الآلة العسكرية للنظام ها هي تتنفس في مكان كان مصادراً، في المكان الثقافي، من خلال اتحادات لكتّاب معينة ومرتهنة للنظام. 40 عاماً من الاتحادات بلا كتاب، 40 عاماً من الكتّاب ولا اتحادات تشبههم وتعبر عن أحلامهم في الحرية، والكتابة الحرة، والكرامة، شأنها في ذلك شأن مختلف أدوات المجتمع المدني من نقابات وأحزاب وإعلام «مؤممة» ومصادرة ومسجلة بهويّة النظام. الرابطة الجديدة التي انتخبت تُعبّر بشكل كبير عن استقلالية تامة للأطر الثقافية (وسواها). استقلالية في التمويل وفي التعبير، وفي المواقف، فاتحاد كتاب أحادي بأعضائه هو ابن نظام أحادي بحكامه. والمهم أن الإطلالة الثورية لجامعة تتمثل بالثقافة. وهذا ليس قليلاً. البشائر في هيئة مبدعين ومفكرين قبل ان نلمسها مثلاً في السياسة وتحديداً في المجلس الوطني. سبقت الثقافة السياسة وانقساماتها والحسابات والمخاوف والحساسيات التي لمسناها في توجهات المجموعات التي تشكل المعارضة الثورية، بل ونجد في الأسماء التي انتخبت في الرابطة علامات تميز عن البنيات الأخرى التي إلى انجازاتها الكبرى في الثورة تعاني ما تعاني من عدم تبلور إطار لقيادتها التعددية.

وان تكون الثقافة في ثورة اجتماعية وتحريرية وسياسية وفكرية في الطليعة، يعطيها الصفة الطليعية الشعبية التي تختلف عن مصطلح «الطليعية» الغربية التي اقتصرت أحياناً على اثبات أهمية التقنيات والشكل والبيانات والمدارس والاتجاهات. مصطلح طليعية القرن العشرين «الأيديولوجي» بأفكار مسبقة وبنظريات جاهزة. الطليعية العربية الثقافية اليوم المتورطة تورطاً عميقاً في وجهات الثورة، تستمد طليعيتها من الناس، ومن الميادين ومن الواقع ومن المتحولات والاعتمالات والهواجس المتفجرة. ومن كل هذا تغرف أفكارها ومساراتها. أي التجربة هي التي تصنع الأسئلة، وليس التجريد فحسب. التجربة اليومية في كل الميادين، هي التي تجعل المنظور الديموقراطي غير ثابت في قواعد وشعارات أبدية. فاذا كانت الثورة لا تصنع مرة واحدة. ولا الديمقراطية تصنع مرة واحدة وكفى! فإن ذلك يعني أن الحرية غير محدودة والديموقراطية محددة، وان الحرية واسعة والديموقراطية ولأنها «ضيقة» بالنسبة للحرية فعليها ان تتوسع وتتحول باستمرار لتنضم إلى حرية الحركة عابرة التخوم والحدود. وهذا بالذات ما يقود إلى التعددية. الأحادية الفكرية قتل للحرية. وللديموقراطية. لأن هاتين الأخيرتين، لا تعيشان الا في فضاءات متغيرة، انطلاقاً من الواقع ومن المخيلات الخصبة.

هذا ما لم تعرفه اتحادات الكتّاب العرب (إلاّ عند بعضها وبشكل نسبي) الثورة السورية واسعة جداً ومتعددة ومفتوحة ومختلفة تضم الشرائح السياسية والأثنية والدينية، والفكرية والجغرافية وما كان لها ان تبقى أسيرة اتحاد كتاب عرب حزبي ومرتبط بالأجهزة الأمنية والسياسية الأحادية. اتحاد كتاب عرب من دون كتابه السوريين الكبار. اتحاد كتاب عرب من موظفين معينين من الأجهزة. فأي اتحاد هذا يسلم كتابه أنفسهم للسلطة، ليكونوا بوقها، وذراعها. وأصداءها وعيونها، يساندون قمع الثقافة وسجن المثقفين او حتى قتلهم.

أي اتحاد هذا يتواطأ مع النظام في ما يرتكبه من فساد ودمار وقصف وتهجير! انه النموذج المثالي لاتحادات عربية وشمولية، تحول فيها الكاتب إلى لا شيء. إلى خرقة. إلى رهينة. إلى سلعة تباع وتشترى، فالاتحاد لا يتمتع باستقلالية ما، هو اتحاد نافل، والذي لا يعبر عن تعددية فكرية حرة هو اتحاد ميت واتحاد لا يضع الثقافة في خدمة الانسان وقيمه، وفي فضاء الثقافة وحرياتها غير المحدودة هو اتحاد هجين، ليس أكثر من عدو نفسه، وعدو ابداعه وعدو المجتمع. والتطور.. والتقدم.. انه اتحاد ينفي دور الثقافة والمثقف ازاء سطوة الطغيان والأوليغارشية والقمع وينفي دور الثقافة في بناء الحياة.

ونظن ان نجاح عملية التصويت التي اسفرت عن تشكيل الأمانة العامة والمكتب التنفيذي والتي ضمت كبار الكتاب والكاتبات والمفكرين والملتزمين هي مفتتح جديد لنظام جديد ولمناخ جديد تستعيد فيه الثقافة دورها الأمامي الاستكشافي، التفاعلي، والمؤثر في بنيان المجتمع والمؤسسات والفضاءات الملائمة للعطاء والانتاج.

ونظن ان البيان الذي صدر بعد اعلان النتائج والتحاليل التي رافقته، واستنتاجاتها عن العملية الانتخابية الأولى لرابطة اتحاد كتّاب سوريين مستقلة توضح كثيراً من رأينا، ومقاربتنا باعتبار اننا مع الزملاء الكتاب نوري الجراح، ومحمود الريماوي، وزهير الشايب، تشاركنا في وضع هذا البيان.

ولهذا نورده هنا كاملاً.

... والبيان والوقائع والدلالات

اجتمعت في القاهرة على مدار الأيام الثلاثة 17-18-19 اللجنة المشرفة على انتخابات الأمانة العامة لرابطة الكتاب السوريين المؤلفة من الاساتذة الشاعر بول شاوول (لبنان)، الكاتب القصصي محمود الريماوي (الاردن)، الشاعر زهير ابو شايب (فلسطين)، الشاعر نوري الجراح (سوريا)، وبغياب الشاعر حسن نجمي (المغرب) لأسباب قاهرة.

وقد قامت اللجنة بفتح صندوقي الاقتراع الالكتروني الأول المتمثل بموقع الرابطة والثاني المتمثل بصندوق بريد vote@syrianswa.com

وبعد ان تأكدت من تطابق النسخ المستخرجة عن أصلها الالكتروني المرسل مباشرة من المقترعين، وبنتيجة فرز الأصوات واحصائها، وبعد ان استبعدت اللجنة التكرار وكذلك استبعدت الأصوات التي ادلى بها مصوتون غير مسجلين في الرابطة.

تعلن اللجنة النتائج النهائية التي اسفرت عنها عملية التصويت، وجاءت على النحو التالي:

نال كل من الكاتبات والكتاب المرشحين المدرجين في الجدول المنشور هنا النتائج المبينة:

صادق جلال العظم (99 صوتا)

روزا ياسين حسن (96)

فرج بيرقدار (92)

فواز حداد (92)

رشا عمران (92)

لينا الطيبي (90)

ريم الجباعي (89)

جورج صبرا (89)
حسين العودات (89)
خطيب بدلة (88)
خلدون الشمعة (82)
عبد الرزاق عيد (79)
حسام الدين محمد (79)
محمد شحرور (78)
إسلام أبو شكير (77)
عبد الناصر العايد (77)
مفيد نجم (49)
حليم يوسف(74)
ابراهيم اليوسف (73)
منذر المصري (71)
فاروق مردم بك (71)
طالب. ك. ابرهيم (71)
ياسر خنجر (68)
بشير البكر (66)
عادل بشتاوي (63)
أحمد الحسيني (62)
عائشة ارناؤوط (62)
فايز سارة (59)
أكرم البني (52)
خليل النعيمي (52)
عمر إدلبي (51)
عماد الدين موسى (45)
عبد الرحمن حلاق (43)
مطاع صفدي (43).

وبعد فرز الأصوات وظهور النتائج النهائية اجتمعت اللجنة المشرفة على الانتخابات وحللت النتائج وناقشت الاحتمالات المختلفة لطريقة تأليف المكتب التنفيذي. وبعد مناقشات معمقة لمختلف الجوانب واستناداً الى مراجعة اعلانات الرابطة المنشورة وكذلك الاعلان الأول للتأسيس والأدبيات التي تلت، توصلت اللجنة بالاجماع الى ان الفائزين الثلاثة عشر الأوائل الذين حازوا اعلى نسبة من الأصوات هم الذين يؤلفون تلقائياً هيئة المكتب التنفيذي على ان يتفقوا في ما بينهم على طريقة توزيع المناصب. اما بالتوافق، او بالتصويت.

يهمنا ان نسجل هنا بعض المعطيات الاساسية التي نتجت عن هذه الانتخابات وهي:

اولاً: عدد المسجلين بالرابطة: 207 أعضاء

ثانياً: بلغ عدد المرشحين 60 مرشحاً.

ثالثاً: بلغ عدد الذين أدلوا بأصواتهم 107

وعليه تجاوزت نسبة التصويت الـ 50 بالمئة.

ورأت اللجنة ان هذه النتيجة تسجل نجاحاً مهماً لأول انتخابات ديموقراطية لهيئة مدنية سورية منذ نصف قرن، وعلى الرغم من كل الظروف التي أحاطت بهذه العملية سواء بالنسبة للأعضاء الموجودين في داخل سوريا أو في المنافي وأماكن اللجوء، وتسجل ايضاً ربما للمرة الأولى الدور الطليعي للثقافة في الثورة وفي استعادة دورها في بناء المجتمع المدني بعدما كانت مهمشة ومصادرة ومرتهنة.

ولاحظت اللجنة ان من اهم ما في عملية التصويت هذه ونتائجها هذه التعددية الخصبة التي ضمتها الهيئة المنتخبة والتي تشكل علامات المكونات الأساسية للمجتمع السوري من عناصر فكرية واثنية ودينية وحزبية بحيث تجاوزت وللمرة الأولى ربما أحادية الاتحادات الحزبية ذات الصوت الواحد، وهذا رد مباشر على ما يروجه النظام الاستبدادي من اتهامات للثورة السورية تمس بمدنيتها وسمليتها، لأن اللجنة ارتأت ان سلمية الثورة السورية كما انطلقت تجسدت في هذه الانتخابات الديموقراطية وهذا ما يوحي عن تطلعات الشعب السوري على بناء مجتمع واحد لا احادي متعدد ومتلاقح ومتواصل وبناء.

وازاء ما يروح تشويهاً لمكانة المرأة من تفاسير مختلفة لتكون ذرائع لتهميش دورها ومصادرة ارادتها وحقوقها المدنية ومشاركتها الكاملة الحرة في المجتمع، فان هذه الانتخابات الاتحادية والروابطية قد تكون الأولى في العالم العربي التي تتصدر فيها المرأة حضوراً معنوياً وثقلاً عددياً في الترشح والتصويت والنتائج.

وقد عبرت الانتخابات هذه عن روح الثورة السورية وموقفها الايجابي من المرأة ككائن خلاق ومبدع وغير منتقص من دوره في بناء المجتمع المدني والوطني والثقافي.

وتؤكد هذه النتائج عدم الفصل بين المرأة مثقفة وكاتبة وبينها مناضلة واماً ومربية وصامدة في الداخل السوري في وجه الطغيان وفي امكنة اللجوء بحيث من الطبيعي ان تتقاسم المرأة كل الأدوار التي تفرضها عليها التحديات.

ان طليعية الظاهرة الانتخابية للرابطة ما هي إلا علامة وطريق يمكن ان تهتديه الروابط وادوات المجتمع المدني سبيلاً لها من تجاوزها الارتباطات الرسمية المباشرة وارتهانها المادي والمعنوي والسياسي والاجتماعي بالسلطة الديكتاتورية.

فاذا كانت الأنظمة الشمولية تفرض اتحاداً واحداً ونقابة واحدة فان هذه الانتخابات توحي بوجوب ان تتجاوز هذه الاتحادات احادية التمثيل لتلبية تعددية المجتمع.

وقد بدأت تباشير هذه الخطوات المتحررة في بعض الروابط التي بدأت فعلاً تتشكل على اساس ديموقراطي وحر وغير موجه ومنفصل عن ارادة الأجهزة الأمنية والسياسية الرسمية وهذا ما يجعلها تعبر عن تطلعات الناس وهمومهم ومشاكلهم وليس عن هواجس السلطة.

من هنا علينا وعلى الروابط السائدة أن تسأل السؤال الشرطي والأساسي والوجودي: لماذا يجب ان يكون هناك في بلداننا نقابة واحدة او اتحاد واحد أو رابطة واحدة أو هيئة واحدة سواء كانت سينمائية أو أدبية أو فكرية أو فنية أو فلسفية أو عمالية أو فلاحية.

ب.ش.

الكاتب السوري واستعادة الروح الجماعية

حليم يوسف

لاشك أن الكتابة الأدبية عمل فردي بالأساس، يتحدد مستواها الابداعي وفق امكانيات شخصية تختلف من كاتب الى آخر. الا أن التأثير في الوعي الجمالي العام لدى المتلقي من خلال قيام الأدب بدوره الاجتماعي في تحقيق التغيير، بالمعنى المعرفي للكلمة، يخضع لعوامل خارجة عن ارادة الكاتب- الفرد ليمتد الى المحيط العام في بعده السياسي والاجتماعي والثقافي . من هنا يأخذ الحديث عن دور المؤسسة في نقل الكتابة من حيزها الفردي المنغلق على الذات الى حيزجماعي أرحب يكون فيه للكتابة امتدادا اجتماعيا وللكاتب احتكاكا مباشرا بالشأن العام في بلده وبين ناسه، أهمية خاصة. ويمكن النظر الى هذا الدور على أنه بمثابة محاولة بناء جسورالتواصل بين الكاتب وبين مجتمعه، والحد من تعمق حالة الاغتراب التي ترافق الكاتب في مسعاه الدونكيشوتي نحو اعلاء مكانة الحق والخيروالجمال، في ظل سلطة تلغي الحق لصالح الاستبداد وتستبدل الخير بالفساد وتساهم في ترسيخ قيم القبح والجريمة»المقوننة»لصالح الغاء الجمال كقيمة وكذائقة. كما هوالحال في سوريا الرازحة منذ أكثر من أربعين عام تحت نير نظام حكم انقلابي يديره العسكر المنحدرين من حزب يحمل ايديولوجية هي خليط من النازية والفاشية. وسرعان ما تم الغاء دور الحزب ومؤسسات الدولة كلها لصالح بناء جيش القائد المفدى ونسج شبكة من الأجهزة الأمنية الخاضعة لسلطة القائد المطلقة ومنحها كافة الصلاحيات التي تمنح عادة لمؤسسات تدير شؤون المجتمع والدولة، وتجنيد مئات الآلاف من المخبرين لأداء المهمة الموكلة اليهم وبكل أمانة، وهي التخريب التدريجي للروح الانسانية لدى السوريين وتحويلهم الى قطعان من الصامتين والمسبحين بحمد وبركة قائد الأمة الاستثنائي وانجازاته التاريخية والى الأبد. فتحولت سوريا بذلك الى بلاد العجائب والمفارقات. فمن ناحية باتت هناك هياكل أحزاب تدير شؤون البلاد، وفي الوقت نفسه لاوجودلأي حزب, خاصة بعد ابعاد الناس عن السياسة من خلال قتل واخفاء المعارضين في زنازين لاتعرف أماكنها. ثمة وجود لهياكل أحزاب وما من سياسة. بني في كل مدينة هيكلا لمركزثقافي، وفي الوقت نفسه لاحول ولاقوة لمدير ذلك المركز أمام الرقابة المشددة لمخبرصغيرمسؤول عن ادارة شؤون المركز، هذا ان لم يقم مدير المركز نفسه بذلك الدور. فصارت لدينا مراكز ثقافية بلا ثقافة. وقس على ذلك، النقابات ومنظمات المجتمع المدني التي حملت أسماء لهياكل بائسة تدار من قبل الأجهزة الأمنية. وبذلك تمكن هذا الثالوث المتداخل، الحزب - العسكر - المخابرات، من التغلغل في جميع جوانب حياة السوريين وأمعن في قتل الروح المعرفية لديهم ليسهل اقتيادهم واخضاعهم الى سلطة الأمر الواقع التي كانت تتطلع أن تستمر الى الأبد. ولم يشذ اتحاد الكتاب العرب عن مثيله من الاتحادات والمنظمات الشعبية السالفة الذكر. وتكاد المفارقة تبلغ ذروتها في هذا المنحى، عندما نتذكر بأن الكتابة الابداعية تميل بطبيعتها الى الحركة والتجديد والتغيير،وهي تتناقض بشكل صارخ مع السلطة التي تميل الى الثبات والسكون وبقاء الأمور على ما هي عليه.

لقد نجحت السلطة في تفريغ الشيئ من معناه واستبدال الشيئ بنقيضه. وقد رفعت الثورة السورية المشتعلة منذ آذار 2011 الغطاء عن الكثير من حقائق لا تتعلق بالسلطة فحسب, بل بنا أيضا و بمدى ضخامة الأوهام التي تحيط بنظرتنا الى الأمور. وفجرت معها الكثير من الأسئلة التي تشبه في جوانب كثيرة منها أسئلة الأطفال الأولى. فهل نحن أمام مشهد دولة لها مؤسساتها ومرافقها وهيئاتها ونظاما حاكما يدير شؤونها السياسية، أم أننا أمام مشهد عصابة مدججة بالعسكر والأسلحة؟

اذا كان المشهد الثاني هو الأقرب الى المشهد السوري، فمن العبث الحديث عن وضع مؤسسة مدنية تمثل الكتاب السوريين في بلاد يكون فيها وجود ما يسمى بالدولة محلا للشبهة والالتباس. الا أن خصوصية الكتابة الأدبية في بعدها الفردي يحيلنا للاشارة الى ضرورة الفصل بين اتحاد الكتاب العرب كهيكل ملحق بالسلطة التي قدمت نفسها كعصابة محترفة القتل مؤخرا وبين الدور الذي لعبه بعض الكتاب السوريين المرموقين في منحى خدمة الثقافة السورية، والذين كانوا أعضاء في هذا الاتحاد. وقد أدى هذا الوضع الى انكفاء الكاتب السوري على ذاته أكثر فأكثر، مبتعدا عن العمل الجماعي لانعدام العمل المؤسساتي. وقاد هذا الوضع الى انعدام الروح الجماعية لدى الكاتب السوري الذي لايزال يخوض تجربته الكتابية دون أية التفاتة تذكر من مؤسسة أو»جماعة» تمثله أو تساهم في فتح القنوات أمام انتشار أوترجمة نتاجاته الابداعية. وهنا أستثني الكتاب الذين أنتجتهم السلطة وكذلك موظفيها. ولازلت أتذكر اجابة أحد أعضاء وفد اتحاد كتاب روسيا في فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب في حوالي العام 1995لدى السؤال عن معلوماته عن الأدب السوري، فقال بأنهم يعرفون الأدب السوري من خلال روايات قائد الجيش الشعبي السوري آنذاك، المترجمة الى الروسية. وهناك قسم من الكتاب السوريين يمكن العثور على أسمائهم في سجلات هذا الاتحاد دون أن يعني ذلك لهم شيئا. وهنا لست بصدد تقييم هذه التجربة، بقدر ما أود لفت الانتباه الى الآثار الناجمة عن غياب الروح الجماعية التي تعتبر تحصيلا حاصلا لغياب المؤسسات والافتقاد الى امتلاك تقاليد العمل المؤسساتي. وهذا هو التحدي الأكبر الذي يواجه تأسيس رابطة الكتاب السوريين وتفعيل آلية عملها في المستقبل القريب.

ان انشاء الرابطة في هذا الوقت السوري العصيب وفي وقت الثورة والسقوط اليومي لعشرات الشهداء في سبيل الحرية، يكسبها بعدا وجدانيا وأخلاقيا خاصا، بالاضافة الى بعديها الثقافي والسياسي. الا أن ذلك لايحول دون الوقوع في الارباك أيضا. ويمكننا اعتباربروز بعض الأسماء المعروفة بانخراطها في العمل السياسي لصالح الثورة في رابطة الكتاب لصالح غياب وتراجع بعض الأسماء الأدبية، أحد وجوه انعكاسات هذا المناخ السياسي المشحون.

ان تجاوز مرحلة وضع اللبنة الأساسية لانشاء رابطة للكتاب السوريين والانتهاء من انتخابات الأمانة العامة, رغم الأخطاء التي رافقتها، والتي تتطلب وقفة خاصة لدراستها وازالة أسبابها، يعتبر انجازا للعمل الجماعي للكتاب السوريين ولابد من تقديم الشكر لكل من ساهم في انجاح هذه الخطوة. ان هذه الخطوة تفتح الباب على تحديات جدية أمام الكتاب السوريين الذين التفوا حول هذه الرابطة وأصبحوا أعضاء فيها بشكل عام وعلى الكتاب المنتخبين كأعضاء أمانة عامة بشكل خاص. والتحدي الأكبر يتجسد في امكانية ايجاد آلية عملية تستطيع الرابطة من خلالها احتضان جميع الكتاب السوريين بمختلف انتماءاتهم السياسية والفكرية والدينية والقومية، مع مراعاة الخصوصية اللغوية, خاصة للكتاب الأكراد الذين يكتبون بلغتهم الأم، لتصبح الرابطة نموذجا جميلا لسورية المستقبل التي نتمناها أن تكون لكل السوريين. ان الثورة السورية هي ثورة منحازة للطبيعة وقد أعادت السوريين الى طبيعتهم المحبة للحرية والعيش بكرامة. وعدا عن أنها أيقظت في نفوسهم الاحساس بالانتماء، فانها كشفت أيضا عن جوانب مضيئة من انسانيتهم المهدورة منذ حوالي نصف قرن. وكذلك التساؤل عما اذا كانت الثورة قد أعادت الى الكتاب السوريين الروح الجماعية يظل تساؤلا مشروعا في ضوء المستجدات الحالية، التي يعتبر انشاء رابطة الكتاب السوريين تجليا ملفتا من تجلياتها الملموسة. هذه الروح التي غطتها أعمدة الغبار المتصاعدة منذ نصف قرن من اتحادات الكتاب، ومن المنافي، ومن المسافات الهائلة التي لاتزال تفصل بعضهم عن بعضهم الآخر؟

ان مستقبل رابطة الكتاب السوريين والمصير الذي سيؤول اليه هذا «المولود الجديد»، سيكشف عن جوانب هامة من الاجابة على هذا السؤال.

صادق جلال العظم : رابطة الكتّاب السوريين اتحاداً مستقلاً

اكّد المفكّر السوري صادق جلال العظم، الذي شارك في تأسيس رابطة «رابطة الكتّاب السوريين» انه مؤمن بقدرتها على أداء دور في اللحظة التاريخيّة الراهنة.

واشار العظم لصحيفة «الاخبار» الى انه «تهدف الرابطة في الدرجة الأولى إلى التخلّص من الاتحادات والنقابات الصفراء».

ويعدّ المفكّر السوري الذي كان من بين الساعين إلى تأسيس الرابطة، «اتحاداً مستقلاً يريد تخطّي حقبة الاتحادات المرتبطة بالأنظمة».

ويأمل أن تمهّد هذه الخطوة لتشجيع المهندسين والمحامين على تأليف «اتحادات حرة تمثلهم في سوريا الديموقراطية».

وعن كيفية دعم «الثورة السورية» كما ذكر البيان التأسيسي، يرى العظم أنّ ذلك يتأسس «عبر مشاركة بعض أعضائها في الحراك الميداني، وعبر ترسيخ القواعد الثقافية للانتقال من النظام الشمولي إلى النظام الديموقراطي التعددي».

ورأى أنّ الإمكانيات المتاحة أمام «رابطة الكتّاب السوريين» تتبلور في المراهنة الجدية على التغيير. وعن عدم تحديد الرابطة لموقفها من العلمانية، أكّد أنّ «الرابطة لا تسعى إلى تبنّي مواقف جاهزة كتلك المواقف التي كانت تطرحها عادة النقابات والاتحادات الأدبية، كالموقف من محاربة الإمبريالية. والهدف من وراء ذلك الخروج من الشعارات الفضفاضة التي لم تجدِ. وهذا لا يعني أنّنا ضدّ العلمانية، بل على العكس، فإنّ غالبية أعضاء الرابطة تتبنى مواقف تقدميّة بشأن هذه القضية الجوهرية بالنسبة إلى كثيرين. وبرأيي، فإنّ المأسسة المدنية للمجتمع السوري ستقود تلقائياً إلى العلمانية».

ولكن لماذا استُبعد أدونيس؟ يؤكّد العظم أنّه لا أحد يستبعد الشاعر السوري، وأنّ مجال الانتساب إلى الرابطة مفتوح لكل الكتّاب السوريين. لكنّه يستدرك: «أعتقد أنّ بعض الجهات في باريس اتصلت به، ولم يتجاوب معها ربما. وبرأيي، فإنّ المواقف التي اتخذها أدونيس من الثورة السورية تتّصف بالغموض وعدم الوضوح، وقد تكون أسهمت في عدم وجوده بين أعضاء الرابطة».

أهمّ القضايا التي تطرق إليها بيان الرابطة التأسيسي، بحسب العظم، تتعلّق باستقلاليتها، ويشير إلى أنّ الرابطة «ليس لها جهات ممولة، والتمويل يعتمد على الجهد الفردي واشتراكات الأعضاء».

رابطة الكتّاب السوريين... صوت سورية الحر

طالب الرفاعي

في بيانها التأسيسي، لخصت رابطة الكتّاب السوريين الأسباب وراء تأسيسها: «بموازاة ثورة شعبنا السوري من أجل الحرية والكرامة والنهوض الوطني، نعتزم، نحن، مثقفون سوريون متنوعو المنابت والمشارب، تأسيس رابطة للكتاب السوريين الأحرار، تعبّر عن مشاركتنا في الثورة السورية، داخل الوطن وخارجه، ووقوفنا إلى جانب شعبنا الثائر، وعن شعورنا بالحاجة إلى إطار ديمقراطي ومستقل لعموم الكتاب السوريين، يعبر عن الواقع الجديد لسورية التي تولد الآن في شوارع الحرية».

إن ما يجري اليوم على أرض سورية العروبة الأبية من قتل وحشي لا يميّز بين طفل أو شيخ أو امرأة أو رجل، لهو جريمة كبرى بحق الإنسانية، وحيال ذلك، ولأن الكلمة هي سلاح المبدع في كل الأزمان، ولأن العالم يعيش عصر الفضاء المفتوح، والوصل الإنساني عبر مواقع شبكة الإنترنت، فلقد لجأت مجموعة من كتّاب ومثقفي سورية إلى تأسيس «رابطة الكتّاب السوريين»، وجعلوا لها موقعاً إلكترونياً (syrinanswa.com)، لتكون تأييداً وعوناً ووثيقةً لما يجري على أرض الوطن، وتساهم في فضح جرائم النظام المفضوحة أصلاً، وتنقل للعالم صورة ناطقة عن سلوك الدكتاتور في لحظات جنونه بسقوطه، وعن البطش والدمار الذي لحق ويلحق بالشعب السوري بشراً وحجراً.

يعيش العالم عصر الإعلام والقنوات الفضائية ومواقع الإنترنت وصور وأفلام الهواتف النقالة، ويجتمع في اللحظة ذاتها لمتابعة حدث بعينه والوقوف على الحقيقة، وبما يؤكد أن الكلمة والصورة تستطيعان أن تقفا في وجه الطلقة وفي وجه الدكتاتور وآلة بطشه، وأنهما قادرتان على تحريك مشاعر العالم الحر والإنساني. وهذا يُظهر أن دور المبدع والمثقف أصبح في القرن الواحد والعشرين أهم وأكبر، وأنه بات في إمكانه أن يناصر ويشارك في ثورة بلاده بأشكال سلمية متعددة وفاعلة، ومن أنسبها مخاطبة العالم باللغة التي يفهم.

إن مبادرة مجموعة من الكتّاب والفنانين والمثقفين السوريين لتأسيس رابطة للكتّاب في هذا الوقت تحديداً، لتكون صوتاً حراً وضميراً ناطقاً باسم الشعب السوري، ليظهر الوعي الكبير بالدور المناط بكل كاتب وفنان حر وشريف، مثلما يظهر أهمية ووظيفة الفن الاجتماعية، وخاصة في أوقات الحروب والثورات. وأخيراً فإن هذه المبادرة تشير إلى ضرورة تكاتف كل الجهود الخيرة للوقوف في وجه الدكتاتورية والبطش والقتل. فما يجري على الشعب السوري لا يمسّ ويصيب الشعب السوري وحده، بقدر ما يمسّ ويصيب كل أحرار العالم، الذين يؤمنون بالحرية ويؤمنون بحق الإنسان في العيش الكريم.

لقد جاءت ثورات الكرامة العربية، ولم تكن أبداً ربيعاً، بل كانت شتاءً قاسياً تملأ سماءه الرعود والبروق والعواصف. وكانت صداماً مجنوناً بين شعوب تؤمن بالسلم والحرية وحقها المشروع في العيش الكريم، وبين دكتاتور مدجج بآلة القتل لا يرى إلا سطوته المطلقة في السيطرة على كل شيء والاستيلاء الأعمى على مقدرات الشعب، وعشقه وتعيشه على ذل ودماء شعبه. جاء شتاء الرعود العربي ليعبر عن انفجار الإنسان العربي بوجعه نتيجة عقود من الظلم والدكتاتورية، وليظهر للعالم أجمع عشقه للحرية، مما ساهم في تغيير صورة العربي لدى الآخر، وقدم للعالم صورة مشرفة عن إنسان يؤمن بالسلام، ويتظاهر عاري الصدر ليواجه

آلة القتل، ولا يزيده العنف الوحشي إلا تصميماً على المضي في طريق الحرية والعدالة والديمقراطية.
موقع «رابطة الكتّاب السوريين» إلى جانب تقديمه جميع أنواع الإبداع، يقدم حوارات ودراسات وترجمات وأدب طفل، واقفاً إلى جانب ثورة شعبه المطالب بالحرية والكرامة. وإذا كانت الرابطة قد تأسست بمبادرة سورية، فهي بالتأكيد رابطة كل الكتّاب العرب المؤمنين بالحرية والسلام، وكم يشرفني أن أكون أحد الكتّاب المنتسبين إليها.

كاتب من الكويت.

talrefai@hotmail.com

March 2012

احتفاء بإنجاز انتخابات رابطة الكتاب السوريين: كتّاب سوريون أحرار

عبده وازن

ليس المهمّ من سيكون رئيس «رابطة الكتّاب السوريين» بعدما تمّ انتخاب هيئتها الرئيسية، المهمّ أنّ الرابطة انطلقت رسمّياً وفي حال من الشفافية التامّة، لا سيّما أن فتح «صناديق» الاقتراع شهدته القاهرة وأشرفت عليه لجنة من أسماء عربية معروفة بنزاهتها السياسية، ومنها بول شاوول، محمود الريماوي، سعد القرش، زهير أبو شايب ونوري الجراح أحد روّاد هذه المبادرة المهمّة، وتغيّب لأسباب قاهرة حسن نجمي. ومع أنّ اسم الكاتب والمفكر صادق جلال العظم الذي حلّ في طليعة قائمة الفائزين جرّاء حصوله على تسعة وتسعين صوتاً هو المرشح للحلول في موقع الرئاسة، فالأسماء المنتخبة التي حصلت على أعلى نسبة في الأصوات ستتولى الاقتراع مجدّداً لاختيار الأسماء في مواقعها أو مراكزها. ومن بينها أسماء مهمة، مخضرمة وشابّة وفي مقدّمها: الروائية روزا ياسين حسن التي رفضت الخروج من سورية على رغم مقالاتها الجريئة التي لا توارب فيها ولا تخشى عواقبها، الشاعر فرج بيرقدار الذي عانى في السجون السورية أشد أحوال القهر والعذاب، الروائي فواز حدّاد والشاعرة رشا عمران وخلدون الشمعة وعبد الرزاق عيد وسواهم... واللافت أنّ الهيئة المنتخبة نجحت في إرساء التوازن المفترض بين كتّاب الداخل والخارج، وبين أجيال عدّة، تلتقي وتختلف في الرأي ، بل لعلها تلتقي حول اختلافها. وهذا مظهر من مظاهر الديموقراطية الحقيقية.
ولئن بلغ عدد المقترعين مئة وسبعة أصوات من أصل مئتين وسبعة انضمّوا مبدئياً الى الرابطة، فالرقم هذا يرسّخ شرعية هذا الانتخاب في تجاوزه النصف. أمّا تلكؤ الآخرين عن الاقتراع، فهو قد يرجع الى الطريقة الإلكترونية في التصويت أو ما يمكن أن نسمّيه الطابع الافتراضي، ناهيك عن الأمزجة التي تتحكّم عادة ببعض المنضوين الى الرابطة، وهم تلكأوا ليقينهم أنّ الأسماء المهمّة ستحلّ في أمكنتها الملائمة. والجميل أن الاقتراع تمّ في جوّ من التوافق، فلا معركة ولا حملات ولا تزوير، بل شفافية واطمئنان الى النتائج، أياً تكن. فهؤلاء الكتّاب يدركون جيداً أنّ «الرابطة» هذه، التي تعاني حالاً من الفقر والقائمة على مبادرات فردية، هي بعيدة عن أيّ سلطة أو جهة، داخلية أو خارجية. ويعلم جميع الأعضاء المنتسبين الى «الرابطة» أنّ أمام «الهيئة» المنتخبة جملة من التحدّيات والمواجهات غير السهلة، وسيكون عمل «الهيئة» عملاً «تطوّعياً»، فلا مكاسب فردية هنا، ولا مصالح بل نضال وكفاح وسهر..
إنّها المرّة الأولى تتشكل رابطة للكتّاب في سورية ديموقراطياً ومن خلال انتخاب حرّ، وبعيداً عن أعين رجال الاستخبارات، وقبضة السلطة. وتذكّر هذه الرابطة برابطة العام 1954 التي كانت الأولى في سورية، وكان من أعضائها حينذاك حنا مينة وسعيد حوارنية وشوقي بغدادي وسواهم، وكانت تتقاطعها تيارات فكرية شيوعية وقومية عربية... وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر حُلّت هذه الرابطة وانطلق على أنقاضها عام 1969 «اتحاد الكتّاب السوريين» وهو الأول في حمل هذا اللقب، وضمّ أسماء مهمّة انتسبت إليه ومنها زكريا تامر وحنا مينة وسعدالله ونّوس وصدقي اسماعيل وعلي الجندي، ومن ثمّ أدونيس ومحمد الماغوط وسواهما...
ليس الهدف هنا رسم «مخطط» لتاريخ اتحاد الكتّاب في سورية، هذا شأن الكتّاب السوريين أنفسهم، بل إلقاء

ضوء على مسار هذا الاتحاد، كيف انطلق وسار، وكيف استحال، في أوج الهيمنة البعثية عليه مع علي عقلة عرسان بدءاً من العام 1977، اتحاداً حزبياً يحكمه كاتب بعثي متسلّط، هو أداة من أدوات السلطة، تحرّكه كيف تشاء وتأمره فيأتمر... وليت علي عقلة البعثي حمل خصلة ولو صغيرة من خصال الرئيس السابق صدقي اسماعيل الذي كان من أنقى البعثيين. أما «الوريث» الأخير لعرسان، حسين جمعة، الذي يترأس اتحاد الكتّاب، فهو يمثل نموذج «الكاتب» البعثي أو «المحازب» غير القمين بحمل صفة الكاتب أو الأديب بحسب سيرته. وليته يبادر الى إعلان استقالته مع رفاقه الحزبيين، تحاشياً للفضائح التي بدأت تحاصرهم والتهم التي تكال لهم. لكنّه لن يجرؤ، أو لعله يرفض أن يفكّر في مثل هذه البادرة، ما دام لم يتلقّ أمراً من فوق. وهو على يقين أن رفاقه البعثيين في الاتحاد، ينتظرون مثل هذه الاستقالة، ليحتلوا كرسيه ويتنعّموا بما تبقى من هذا الاتحاد البعثي... مع أنّهم يعلمون جيداً أنّ اتحادهم فقد شرعيته وانتهى.

سيكون لافتاً جداً ومدعاة للأمل، حلول المفكر جلال صادق العظم رئيساً للرابطة السورية الحرّة. إنها لحظة تاريخية تعيد الى اتحاد الكتّاب السوريين الوهج الذي أفقده إياه حزب البعث، وتحرره من عزلته العربية، وتعيده الى مساره الحقيقي بصفته اتحاداً سورياً وعربياً، عريقاً وطليعي.

23 أبريل 2012

مع رابطة الكتاب السوريين

معن البياري

خطوةٌ شديدةُ الأهمية، بادر إليها مثقفون سوريون لتأسيس "رابطة الكتاب السوريين"، والتي يحسنُ أنْ يستقبلَها كل كاتبٍ عربي منحاز، حقاً، إلى قيم الحرية والعدالة والجمال بغبطة، ليس، فقط، لأنها تعبيرٌ عن رفضٍ مسوَّغٍ للكيان البائس "اتحاد الكتاب العرب" السوري، والملتحق بذيْليّةٍ مكشوفةٍ بالسلطةِ المستبدَّة هناك، بل، أيضاً، لأنَّ من شأن الرابطة المستجدّة، واندفاعةُ الأصدقاءِ والزملاءِ فيها على ما نعرفُ من حيويَّةٍ، أنْ تكون منصَّةً مضافةً لصوتِ الثورة الظافرة، وتشكيلاً ديمقراطيّاً عن الجسمِ الثقافي العريض في سورية، سيكونُ في طليعةِ الفاعلين وقوى التنوير في سوريّة الجديدة، المتحررة من الاختناق الطويل، عندما ستُتاح لكل تنويعاتِ الشعب هناك وشرائِحِه القنوات اللازمة لإشهار سوريّة حرة وقوية، بعد عقودٍ من الشمولية الكاذبة، والاستبداد المريع، والبعثيّة النفعية، والهيمنة الأمنية على النقابات والجمعيات والاتحادات والتشكيلات المجتمعية المدنية. ولا حاجة، هنا، للتأشير إلى المؤكد والبديهيّ عن القدراتِ والكفاءاتِ الإبداعيةِ والفنيةِ والثقافيةِ الخلاقة التي تتوفَّر عليها سورية، البلد الذي لا يمكن إلا أنْ يظلَّ دائماً في الموقع الثقافي الأول في الخريطة الفكرية والإبداعية العربية.

هي تحيةٌ واجبةٌ هنا تشدُّ أزر أصدقائنا وزملائنا ومعارفنا، مؤسسي رابطةِ الكتاب السوريين، وهم المهجوسون دائماً بآمال شعبِهم وآلامه، سيما وقد جاء جهدهم المبارك في لحظةٍ يخوضُ شعبهم فيها واحدةً من أشجعِ الملاحم الإنسانية في مواجهة قوى الفتك والقتل، وينشدُ ببسالةٍ الحريةَ واستعادتَه سلطتَه من سارقيها. وكلنا، نحن العرب، على ثقةٍ مؤكدةٍ بقدرةِ نخب هذا الشعب، وقواه الحيّة وأدمغتِه، على أنْ يُعلمنا الكثير من منجزاتِه الرائقة. ولمّا كان اتحاد الكتاب العرب السوري على تبعيّتِه وتخشُّبِه المديدين، وعلى تنكُّرِه لشعبه الجريح، لم يحتمل جمهرة من مثقفي سوريا النبلاء أنْ يتواطأوا مع هذا الحال، فكانت مبادرتُهم التي أشهروها الأسبوع الماضي، بعد أسابيعَ من العمل والاتصالات في الداخل والمنافي. وكان جميلاً منهم تأكيدُهم إجراءاتٍ ديمقراطيةً في بناءِ الرابطة، والمضي فيها لتكتملَ كينونتُها ولتتَّسعَ تمثيلُها مختلف الحساسيّات الفكرية والثقافيةِ السوريةِ المتنوعة. والمأمولُ أنْ ينجحوا في مسارِهم لتتحقَّقَ للرابطة مكانتُها وشرعيَّتُها البديلةُ عن الاتحاد المتآكلِ والرثّ، وليصيرَ لها موقعُها الفاعل في الإطار العربي الجامع، اتحاد الأُدباء والكتاب العرب.

نتمنى على القيادةِ النافذةِ في رابطةِ الكتاب الأُردنيين أنْ تشق قناةَ حوارٍ مطلوبةٍ مع الرابطة السورية، لنكون إسناداً ومعيناً لها، ما يوجِب، ابتداءً، على القيادة المذكورة أنْ تتخفَّفَ من تعاميها عن التنكيل المريع الذي لا تتوقف السلطةُ في دمشق عن اقترافِه يوميّاً، فتنصتَ، ما أمكن، إلى الأشواق التي يتطلع إليها أكثرُ من مائةٍ وعشرين كاتباً سورياً باتوا أعضاءَ في الرابطةِ الشقيقة. وهؤلاء جهروا بانشغالِهم بقيمة الحرية، ويتوخون المشاركةَ في صنع سوريا الجديدة، ونظُنُّنا، كتاباً ومثقفين أُردنيين، مدعوين، أكثر من غيرِنا، إلى أنْ نكون دفئاً لهم، صدوراً عن المسلَّمةِ الغائبةِ عن مداركِ بعضِنا، وهي أنَّ سورية جديدة، حرَّة ديمقراطية لا مطرحَ فيها للعسفِ والتجبُّر، أقدرُ من سورية يتحكَّمُ فيها الطغيان والدجل، في الإسهام في بناءِ فضاءٍ عربي واسعٍ، يتطلعُ إلى تحصينِ مقاومةِ الشعوب العربية ضد كلِّ تخلفٍ ورجعية، ويتطلعُ إلى تحرير فلسطين والجولان، على ما ليس منسياً، ولا ينفردُ بالتذكيرِ به مُشايعيون للنظام السوري، والذي تُشكلُ رابطةُ الكتاب السوريين واجهةً ثقافيةً جديدةً في مناهضتِه، ولذلك، تستحقُّ نُصرتَنا وبهجتَنا بها.

التاريخ : 09-01-201

رابطة الكتّاب السوريين تعيد الاعتبار الى كرامة الكاتب السوري ؛ للمشاركة في الثورة لأن الواقع الثقافي الجديد يولد في شوارع الحرية

عمر الشيخ

تقلص دور المؤسسة الثقافية الرسمية، ممثلةً في "اتحاد الكتّاب العرب"، منذ اندلاع الاحتجاجات وأصبحت محصورة في تبني مواقف جاهزة، الأمر الذي جعل الكثير من أفرادها يتخلون عن انتمائهم الهزلي ويشعرون باستياء واضح جراء تهميشهم الواقعي عن المشهد. من هنا جاءت فكرة إنشاء "رابطة الكتاب السوريين" لدعم حركة التغيير، بالتوازي مع اقتراح تشكيل هيئات خلاّقة ضمن الرابطة تختلف كلياً عن البنية الروتينية التي طبعت نماذج الهياكل الإدارية المعهودة.

تشدد الرابطة في بيانها التأسيسي الذي أصدرته قبل فترة وجيزة، على أنها ثقافية حرة، عضويتها متاحة لكل الكتّاب السوريين من مختلف التيارات الأدبية والفكرية الراغبين في أن يكونوا أعضاء فيها. وهي مفتوحة لكتّاب عرب بمن فيهم كتاب عربستان، وغير عرب مساندين للشعب السوري كأعضاء شرف. الكتّاب الفلسطينيون ممن يقيمون في سوريا يتمتعون بالعضوية الكاملة في الرابطة، وينطبق عليهم ما ينطبق على زملائهم من الكتّاب السوريين. وتتطلع "رابطة الكتّاب السوريين" الى أن تكون "حاضناً لتفاعل التيارات الأدبية والفكرية المختلفة التي تزخر بها الحياة السورية، وإلى أن تكون إطارا عمليا لنقد وتفكيك ثقافة اللون الواحد التي كرّسها استئثار حزب البعث الحاكم بالسلطات المادية والرمزية وسلوكه الشمولي الإقصائي الذي تجسد في "اتحاد الكتاب العرب" كما جاء في البيان التأسيسي على موقع الرابطة.

أفق حقيقي

الشارع السوري، الغالبية الساحقة منه مشغولة بتأمين لقمة العيش والتدفئة والتأمين على حياة الأبناء. لكن هذا لا يجعل القائمين على الرابطة في حلٍّ من دورهم الثقافي الطليعي في هذه المرحلة الفاصلة، حيث تعتقد الكاتبة السورية ريما فليحان أن ظهور هذا البديل الثقافي كان حتمياً، بغض النظر عن حال الشارع: "إن رابطة الكتاب السوريين هي البديل من الاتحاد القائم المقيّد بحدود النظام، الذي لا يوفر أفقاً حقيقياً للكتّاب السوريين، ولا يمثل الروح الفكرية الضرورية لرعاية الإبداع والمبدعين لأنه مقيّد بفكر النظام وخطوطه وسياساته". تضيف: "الرابطة هي النواة الثقافية الحقيقية لعمل حقيقي نحتاجه في سوريا الجديدة".

يعتقد الباحث والناقد السوري حسان عباس أن كل شكل من أشكال التنظيم المدني الحر جيّد ومرحّب به. كل وقت يظهر فيه هو وقته لأننا تأخرنا كثيراً في بناء الروابط والتنظيمات الحرة: "لا يُنتظر من أي تنظيم مدني يظهر في سوريا أن يأتي مولوداً كامل البنية، فغياب فضاء المواطنة وتشوّه المجتمع المدني لا يسمحان بولادة تنظيمات صحيحة. ما يهم الآن هو تشكيل أكبر عدد من التنظيمات المدنية ولو كانت متعثرة، أما عن فائدتها للكتّاب والأدباء فهي مفيدة بقدر ما تكون ديموقراطية في بنيانها وفي آليات عملها. وحدهم أعضاؤها سيكونون قادرين على جعلها ديموقراطية". ربما هي علاقة جدلية بين المؤسسة وأعضائها، في اعتقاد حسان عباس، فهم يعطونها روحها وهي تعطيهم قوتها.

رفض التبعية

من جهة أخرى، يعتبر الشاعر السوري طه خليل أن أساسية هذه الرابطة يجب أن ترتكز على رفض كل أشكال التبعية السياسية، وهذا ربما كان شبه مستحيل قبل عقود من الآن، وذلك بسبب ما تجذَّر من تركيبة سياسية تعمّقت في صلب الحياة الثقافية، فالرقيب والخوف والانتقاد جوانب لا تفارق مخيلة الكاتب السوري في الداخل: "ليس المهم أن تحقق رابطة الكتاب السوريين نقلة للكاتب أو مكانة. المسألة كلها عبارة عن رفض لأدوات السلطة القائمة، كما أعتقد، فهي وجدت كسبيل لاتحاد كتاب العرب الذي تناوبت عليه وفيه مجموعات من السلاطين والديناصورات الأمية". يضيف على سبيل النكتة: "هذه الرابطة مثلاً لا تطالب العضو الذي يود الانتساب إليها بورقة "لا حكم عليه". وهذا جيد، ثم ما هذه المكانة التي ستحققها الرابطة للكاتب؟ هذه ذهنية تسولية، الكاتب هو من يرتقي بالروابط وبالاتحادات وليس العكس".

ترى الشاعرة السورية قمر صبري الجاسم، وهي عضو في "اتحاد الكتّاب العرب"، أن الاتحادات والنقابات والروابط التي تتوالد وتنشأ غير مهمة إذا كان الكتّاب في الأصل غير مترابطين ومتحدين في دواخلهم، "فقد يكون أحدنا ضد نفسه في حالات كثيرة فيثنيها عن السعي والمحاولة والمبادرة والكتابة والقراءة والمتابعة بسبب الكسل أو الخوف أو الاتكالية". تضيف: "عندما لم أجد رابطة أو اتحاداً يقبلني أسست عام 2004 أول نقابة شعرية من نوعها في العالم عبر ديواني "للعاطلين عن الأمل"، وكتبت فيه كل ما يمليه عليَّ ضمير قلمي. تعرضتُ حينها لانتقادات كثيرة ليس أولها أنني كتبت في موضوعات تهم الرجل. كأن هناك تصنيفاً للموضوعات بين الرجل والمرأة". تؤكد الجاسم أن هناك العديد من المشكلات علينا التخلص منها لنقتنع بأن أي مجموعة ولو من شخصين يمكن أن تكون فاعلة ومنفعلة وتؤدي إلى التطور الطولاني وتساهم في الوقوف أمام الغزو الثقافي الذي تحدثنا عنه مراراً وتكراراً، على أن يقتنع الاثنان أن أحدهما مكمّل للآخر ولا ينجح أحدهما عندما يلغي الآخر أو يُقصيه: "لست ضد أي مبادرة لأي تكافل ثقافي وتكتل ثقافي لأننا جميعاً ننتمي إلى مجتمع الكلمات. ليتساعد الجميع، كلٌّ من مكانه، لتفعيل دور المثقفين على ألا تتحول تلك المجموعات التي تنشأ هنا وهناك معسكرات لحروب ثقافية من نوع مختلف".

يرى الشاعر والناقد السوري أديب حسن محمد أن مكانة الكاتب تتعلق بطبيعة المؤسسة التي ينتمي إليها لا العكس، فهي تصدر له دعماً معيناً للفضاء الفكري حتى يكون ما يريد في إنتاجه الخلاّق: "يمكن أي رابطة تقام على أسس وطنية أن تحقق للكاتب السوري أشياء وأشياء، لعل من أهمها استرداد كرامته المهدورة، وإعطاء المنسيين منهم والمغضوب عليهم والضالين مكانتهم التي يستحقونها نتيجة أعمالهم من دون النظر إلى مواقفهم السياسية، أو قربهم من المؤسسات الثقافية الغارقة في الفساد أو بعدهم عنها. ولأن أي رابطة للكتاب السوريين ستقارَن في الضرورة باتحاد الكتاب العرب، فإن المقارنة ستكون في غير صالح اتحاد حسين جمعة بكل تأكيد، لأسباب يعرفها كل الكتاب السوريين". أما عن سؤال التوقيت والبنية، فيرى أن الديباجة التي طبعت البيان التأسيسي لهذه الرابطة يدل على مضمونها وهي في حاجة لفرصة حتى تظهر ملامحها: "من المبكر الحديث عن بنية الرابطة ببساطة لأنها رابطة حديثة التأسيس وقابلة للتحول والتبدل إذا كانت ديموقراطية ومنفتحة كما تدعي".

"مآثر" اتحاد الكتّاب

الكاتب والصحافي السوري محيي الدين عيسو، يحمّل "اتحاد الكتّاب العرب" تبعات الهبوط في البحث عن

مؤسسة بديلة تضمن حضور الكاتب السوري بجدية من دون منغصات محيطة يمكن أن تؤثر عليه لمجرد خروجه عن منطق القطيع في التعامل مع المؤسسة الرسمية، فيؤكد أن الاتحاد اعتمد كثيراً على مبدأ ·الخيار والفقوس· مع الكتاب والمثقفين، وبقي يسكت على كل المظالم التي تعرض ويتعرض لها منتسبوه: ·لا جدل حول بنية رابطة الكتاب السوريين وتوقيتها، فهذه الرابطة جاءت كأحد المشاريع التي يمكن في المستقبل أن تضم كل الكتاب والمثقفين السوريين ومن مختلف الألوان والأطياف، وهي أحد إنجازات الثورة السورية، التي ولدت وستولد الكثير من المشاريع الهادفة إلى إعادة الثقافة والصوت السوري الخلاّق إلى مكانه الطبيعي·.

يتفاءل بعض الكتّاب السوريين ممن لم يرتبطوا بـ·اتحاد الكتّاب العرب·، بوجود مؤسسة جدية كهذه، تواكب التغييرات التي تعيشها البلاد، تلحق بركب الشارع ، وهي الآن في واجهة الحدث تبحث عن بوصلة جغرافية وثقافية ترتبط بغاية تحرير بنية المجتمع الفكرية المصادَرة.

·*كاتب من سوريا*

موقع *رابطة الكتاب السوريين على الإنترنت*:

http://www.syrianswa.com» http://www.syrianswa.com

تحية إلى رابطة الكتاب السوريين

عيسى الشعيبي

استقبل إعلان أكثر من مائة مثقف سوري، مؤخراً، عن تأسيس رابطة تخصهم، بترحاب لافت من جانب كتاب أردنيين مرموقين، واصلوا على مدى الأيام القليلة الماضية، وعبر منابر صحافية متنوعة، تقديم التحيات الطيبة، وإبداء مظاهر الحفاوة الرصينة، بهذا الكائن الثقافي الوليد من رحم ثورة الكرامة، التي كان من أعظم انجازاتها كسر قوقعة الخوف، وإنهاء كذبة الممانعة، على وقع انتصارات ربيع عربي ديمقراطي لا يزال بعد يتلو بيانه الاستهلالي الأول من على منصة الحرية.

وأحسب أن مرد هذه الحفاوة الأردنية الثقافية الواسعة، التي لا نظير لها في لبنان أو مصر أو العراق، على سبيل المثال، يعود إلى جملة عوامل زمانية ومكانية واعتبارات سياسية اجتماعية أخلاقية متنوعة، في طليعتها درجة التماثل الشديد والانفعال البالغ من جانب الرأي العام هنا بمجريات الأوضاع السورية الدامية في الجوار الشمالي، ناهيك عن أن هذه الحفاوة هي تعبير احتجاجي ناقد، غير مباشر، يبعث به كتاب أردنيون ساخطون على موقف رابطتهم الممالئ لنظام يقارف المجازر اليومية المروعة بحق الأطفال والشيوخ والنساء.

على أن هناك سلسلة طويلة من الدوافع الموضوعية وراء كل هذه الحفاوة التي يواصل إبداءها مثقفون أردنيون وعرب، بهذا الجسم الثقافي المعبر عن أشواق السوريين إلى الحرية، كونه دليل عافية إضافي يبرهن على نقاء ضمير ثورة الكرامة، التي حاول بعض الشبيحة من المثقفين، هنا وهنالك، وصمها بالسلفية والأصولية، ووضعها في سياق المؤامرة الكونية التي تستهدف نظام الممانعة، تسويقاً لزعم افتقار هذه الثورة لضمير ثقافي وازن، يمنح الفعاليات الشعبية مشروعية وطنية أعمق، ووجهاً حضارياً أصيلاً، وقيمة أخلاقية عظيمة.

ولم يكن من الصعوبة تلّمس مشاعر ضجر مفعمة بالغضب، في مداخلات المرحبين بهذا البديل الديمقراطي لاتحاد كتاب كان بمثابة أداة ترهيب وترغيب بيد النظام البوليسي، وشكلاً فظاً من أشكال الاستبداد الثقافي، حيث بدت هذه المداخلات كتنديد معلن على شيوع حالة ثقافية هنا تكاد في ميولها الأحادية تحاكي تلك الحالة السورية المديدة، وتتماهى مع تقاليدها الشمولية البائسة.

وبالعودة إلى جوهر هذه المساهمة، فإنه لا يفوتنا التنويه إلى أن تداعي عدد من المبدعين السوريين، وهم من ذوي قامات ثقافية وفكرية سامقة، لتأسيس رابطة كتاب موازية، وربما بديلاً، لاتحاد كتابهم المكرس كآلة قمع فكرية شائخة، يعتبر أحد تجليات روح الانشقاق الصحية السارية بقوة في جسد النظام المغلق على نفسه، بدءاً من الجيش والحزب، مروراً ببعض الإدارات الرسمية، وصولاً إلى الجسم الثقافي، الأمر الذي يؤشر على فقدان النظام لمزيد من عناصر شرعيته السياسية والأخلاقية.

وفيما يشكل قيام هذه الرابطة بحد ذاته، هزة أرضية في هياكل المؤسسة الثقافية الرسمية المتهالكة للنظام الغارق في دماء شعبه، فإنه يشكل في الوقت ذاته تعبيراً ثقافياً تجديدياً مرهفاً، أنتجه حراك شعبي واسع، كمفردة ناصعة البياض من مفردات الضمير الأخلاقي السوري الصميم، وطوبه بجدارة كتنسيقية أدبية مناضلة، لا تقل أهمية عن غيرها من التنسيقات الميدانية المحركة لكل هذه الفعاليات الجماهيرية المتدفقة

عبر الشاشات والتقارير الإخبارية، على امتداد أكثر من عشرة أشهر مجيدة في حياة السوريين البواسل.

على هذه الخلفية التحليلية الموجزة، يجد المرء نفسه مفعمة بمشاعر التقدير والاحترام لهذه البادرة الثقافية الملهمة لمبدعين سوريين ذوي حضور بالغ وضمير وطني ديمقراطي تقدمي حر دون مراء، كما يجد لديه فرصة متاحة لإعلاء الصوت ضد سلوكيات، تُحسب على الثقافة والكتاب والمبدعين الأردنيين، وهي تحاول تجيير أصواتهم، وإماتة ضمائرهم، لحساب نظام ذي باع طويل في قمع الحريات بكل تنويعاتها، بما في ذلك حرية الكلمة التي هي المقدمة الأولى لكل الحريات، وذلك بذريعة الوقوف إلى جانب قلعة الممانعة المزيفة، ومناهضة المؤامرة الخارجية اللعينة.

Issa.alshuibi@alghad.jo

نوري الجراح لـدوتشه فيله: «رابطة الكتاب السوريين» أول مولود ديمقراطي للثورة السورية

دويتشه فيله: ما نوع الدعم الذي من الممكن أن تقدموه ككتاب سوريين للثورة في سوريا؟

نوري الجراح: هذا الدعم له أكثر من مستوى. فعمل الرابطة، في صيغتها المؤقتة، يقوم على مجموعة من اللجان واحدة منها اللجنة الحقوقية. وهو ما فرضته الضرورة الملحة، لأن سوريا بأسرها اليوم حالة حقوقية، بمعنى أن هناك تنكيل وتعذيب وقتل شمل من جملة من شمل الكتاب والصحفيين والمدونين المساندين للثورة. بعض هؤلاء خرج من الاعتقال والبعض الآخر مازال موجودا في السجن. وإحدى مهمات اللجنة الحقوقية توثيق حالات الاعتقال والاضطهاد وتسمية المعتقلين وإسماع صوتهم وصوت ذويهم والضغط على النظام السوري لإطلاق سراحهم.

هل هناك لجان أخرى؟

نوري الجراح: هناك لجنة إعلامية ستناط بها مهام شتى كجمع تراث الثورة السورية وأدبياتها، بما في ذلك البيانات واليوميات والشعارات والأشعار والفيديوهات وشتى النصوص التي عبرت عن الشارع السوري في انتفاضته العارمة ضد النظام الاستبدادي. وستستعمل هذه الوثائق مستقبلا في المحاكم، محلية كانت أو دولية، لتجريم القتلة ومحاسبتهم على الجرائم التي ارتكبوها بحق شعبنا. وستكون للجنة الإعلامية أدوار أخرى منها صياغة ونشر بيانات الكُتاب ومواقفهم وآرائهم في إطار المساندة الشاملة لثورة شعبهم، وإيصال أصواتهم التي ستشكل قوة ضميرية وأخلاقية هائلة موجهة ليس فقط ضد السلطة الغاشمة وحدها، ولكن أيضا، ضد كل محاولة انحراف عن أهداف الثورة أيا كان مصدرها بما في ذلك المجلس الوطني السوري المعارض نفسه.

نحن لا نريد للسياسيين أن يستأثروا بمفردهم بالعمل الوطني في هذه اللحظة الفارقة والخطرة من حياة شعبنا. على الشعراء والكتاب والفلاسفة السوريين أن يكونوا في طليعة النضال للخلاص من الديكتاتورية البشعة التي استباحت شرف السوريين وأجسادهم وأرواحهم وحرياتهم وأعملت فيهم آلات القتل الوحشي. هذه الرابطة تريد أن تقول أن لا مجال بعد اليوم لأي موقف أو منطقة رمادية يقف فيها الشاعر والكاتب والمفكر السوري، إما نحن مع شعبنا، الآن، وعلى الفور ومن دون أي تأخير، في جبهة الحرية أو نحن في جبهة القتلة، لابد من الاختيار. إن مصير الشعب السوري بأسره ومستقبل جميع السوريين ستحدده نتائج هذه المعركة. علينا نحن أهل القلم والفكر أن نكون حاسمين في موقفنا من السلطة القاتلة، نقديين بإزاء السياسيين المعارضين الذين اخذوا على عاتقهم قيادة الانتقال من الديكتاتورية إلى الديمقراطية. سنملك بامتياز أن نكون رقابة الضمير عليهم. فلا حياد عن الأهداف التي قررها شعبنا في شوارع الشهادة لأجل الحرية.

يعني تريدون لعب دور المراقب للسياسيين؟

نوري الجراح: المراقب والناقد والمرجع الأخلاقي والضميري للشعب السوري. والرابطة من الآن ضمت أسماء من أكبر مفكري سوريا وكتابها وشعرائها كالطيب التيزيني وصادق جلال العظم، وسليم بركات، وعلي كنعان،

ومحمد شحرور، ورفيق شامي، ومفيد نجم، وعائشة أرناؤوط، وعبد الرزاق عيد، وياسين الحاج صالح، وشوقي بغدادي ومها حسن، وفؤاد كحل، وبرهان غليون، وفرج بيرقدار، وعبد الباسط سيدا، وخلدون الشمعة وجودت سعيد، وفواز حداد، ومنذر مصري وفاروق مردم بك، وخليل نعيمي، وروزا ياسين حسن، وميسيل كيلو، ومصطفى خليفة، وكثيرين غيرهم ممن طالما كانوا كتابا أحرارا وممن نالهم الاعتقال والاضطهاد والنفي، وكانوا في طليعة الكتاب المناضلين لأجل الحرية والديمقراطية والمجتمع المدني.

كيف استطعتم جمع كل هذه الأسماء الأدبية والفكرية؟

نوري الجراح: دم السوريين في الشارع هو الذي ناداهم، وليست كلماتي أنا أو كلمات زملائي الذين بادروا إلى التأسيس. الدم السوري فاض وصار نهرا، وصار لا يمكن التغاضي عن هذا النهر المراق في شوارع سوريا وفي كل بلدة ومدينة من أقصى بلادنا العزيزة إلى أقصاها. هذا الدم هز ضمائرنا، وإذا لم يكن لهذه الضمائر دور اليوم، فمتى سيكون؟

من أين أخذتم الشرعية في تأسيس الرابطة نيابة عن الكتاب السوريين؟

كما عبرنا في أدبيات الرابطة خلال الأيام القليلة الماضية، تعتبر الرابطة نفسها استمرارا لتقاليد الحياة الثقافية السورية التي حاول الاستبداد أن يئدها، كما تعتبر نفسها تعبيرا ضروريا عن الحراك الثوري الراهن في سورية، وهي تستمد شرعيتها من الاستجابة الكبيرة من جانب بعض أبرز الكتاب السوريين في تلبية الانضمام إلى الرابطة. لكننا مع ذلك نطرح هذه المشروعية التي نمثلها كإطار مفهومي يمكن، ويجب مناقشته، في إطار ديمقراطي يختلف عن مشروعية اتحاد الكتاب العرب المستمدة من أجهزة استبدادية غير ديمقراطية.

إذا كان اتحاد الكتاب الرسمي يمول من طرف الدولة، كيف ستمولون أنتم رابطتكم؟

نوري الجراح: نحن نمول رابطتنا من جيوبنا الخاصة. ولا نريد من أي أحد، وهذا أقوله باسم جميع أعضاء الرابطة، لن نقبل بأي دعم حكومي من أي جهة كانت. ثانيا لن نقبل من أي جهة كانت أي دعم يمكن أن يكون مشروطا، حتى لو كانت هذه الجهة مستقلة. من شروط العضوية في الرابطة دفع الاشتراك. فهي رابطة أهلية وليست رسمية. وبالتالي سنعمل من خلال ما يتوفر لنا من قروش قليلة على تسيير الرابطة وفق أخلاقيات الماضي القريب حيث كانت تبرعات الأعضاء كافلة لنزاهة النادي الأهلي أو المؤسسة الأهلية. وبعد أن تضع هذه المذبحة أوزارها، ونحن على ثقة من أن شعبنا سينتصر في النهاية، سيجري تنظيم عمل الرابطة كجمعية نفع عام أهلية في سوريا الجديدة.

هل تعتقد أن هذا تمويل كاف؟

نوري الجراح: لا، لا يكفي، لذلك يمكن أن نقبل مساعدات عينية أو غير عينية من أبناء المجتمع السوري ممن هم ميسورين ويوجدون في أوروبا وفي العالم العربي، هؤلاء سيكونون مطالبين ليس فقط بدعم رابطة الأدباء، لكن بدعم كل الأطر الديمقراطية التي تمهد لإقامة مجتمع مدني في سوريا. وفي هذا السياق، أنا أدعو النساء السوريات أن يحذين حذونا وينهضن إلى تشكيل رابطة حرة للنساء السوريات، وأدعو الصحفيين إلى تشكيل رابطة للصحفيين الأحرار على شاكلة رابطتنا، وكذلك أدعو الفنانين السوريين، ونحن نعرف أن العديد منهم انشقوا عن البنية الثقافية للنظام، وهناك عدد من الأسماء التي نعتز بها لكونها انحازت إلى الثورة.

جاء في بيانكم التأسيسي أن «نظام الحزب الواحد شل المكانة الثقافية والأدبية لسورية». لكن سوريا كانت لها دائما مكانة أدبية رفيعة بفضل مثقفيها وأدبائها الذين انضم الكثيرمنهم إلى رابطتكم.

نوري الجراح: هناك فرق بين الحياة الأدبية والفكرية المشلولة والمكبلة والمعوقة عن العمل في داخل سوريا وبين نشاط المفكرين والأدباء الذين يعيشون في المنفى الأوروبي والعربي. نحن موجودون، وبعضنا في مواقع مهمة، ليس بفضل إمكانيات بلدنا أو دعم مؤسساته الثقافية لنا (هي مؤسسات طالما حاربت وجودنا المستقل، ولكن بفضل إمكاناتنا الفكرية والإبداعية الخاصة ونشاطنا الشخصي، وبفضل الإمكانات المتاحة لنا في الأماكن التي نوجد فيها. هؤلاء الكتاب بإمكانياتهم الخاصة أعطوا لبلادهم في العالم حضورا مميزا. لكن عندما تتحرر سوريا من الوضع الأليم الذي كبلها به الاستبداد سترين الطاقات السورية الكبيرة، وسوف تتجاوز بجمالها وخبراتها وقدرتها على الابتكار كل ما عرف عن سوريا المبدعة حتى الآن.

إلى جانب دور الرابطة في دعم «الثورة السورية»، هل لديكم مشروع أدبي وثقافي معين؟

نوري الجراح: نحن اعتبرنا من البديهيات أن ما ينشر وما يتداول، وما يُعتبر كتابة تستحق الظهور على موقع الرابطة وفي منشوراتها التي سنعمل على إصدارها، هي الكتابة التي حازت على مستوى أدبي مهم. نحن لن ننشر شعرا أو أدبا أو فكرا دون المستوى، لمجرد أنه كتابة مساندة للثورة. طبعا هناك حالة طارئة يمكن أن نقبل فيها بعض النصوص الفائضة بحرارة وألم الوضع الراهن في بلادنا، لكن هذا لا يعني أن يكون هناك إخلال بالمستوى. مشروعنا هو مشروع ديمقراطي أي إحياء البعد الديمقراطي في الثقافة السورية. إحياء قيم التواصل والشعور بالغنى، بسبب الاختلاف وإعادة الاعتبار إلى لغات غيبت كالكردية والآشورية والسريانية وهي جزء لا يتجزأ من تكويننا الثقافي، ومن ثرائنا الإبداعي والروحي.

نريد كذلك أن نلعب دورا في إعادة المجتمع المدني المخطوف والمغيب لعقود إلى أهله في سوريا بعدما غيبته زنازين القهر وسياسات الإقصاء، والغرف السرية التي مارست على السوريين أبشع ما عرفه العرب من قمع وإذلال.. نحن إذن مع الفكر التحرري ضد الفكر الواحدي و مع رؤى الفكر المتعددة. الرابطة ستكون أول وليد ديمقراطي للثورة السورية لأن الدخول إليها والممارسة من داخلها ستكون عبر الانتخاب، هناك انتخابات داخل الرابطة على مرحلتين من المرجح أن تبدأ في النصف الثاني من الشهر الجاري. هذا ما نريده وهذا ما سنقوم به، وفاء لشوارع الحرية ولنهر الدم المبدع الذي خلق فرصة المستقبل لسوريا التي طالما حلمنا بها.. وسكنت خواطرنا جميعا.

أجرت الحوار: ريم نجمي

مراجعة: أحمد حسو

نتائج انتخابات رابطة الكتاب السوريين - تقرير لجنة الإشراف على الانتخابات (إعلان وبيان)

اجتمعت في القاهرة على مدار الأيام الثلاثة 17-18-19 اللجنة المشرفة على انتخابات الأمانة العامة لرابطة الكتاب السوريين المؤلفة من الأساتذة الشاعر بول شاوول (لبنان)، الكاتب القصصي محمود الريماوي (الأردن)، الروائي سعد القرش (مصر)، الشاعر زهير أبو شايب (فلسطين)، الشاعر نوري الجراح (سوريا) وبغياب الشاعر حسن نجمي (المغرب) لاسباب قاهرة.

وقد قامت اللجنة بفتح صندوقي الاقتراع الإلكتروني. الأول المتمثل بموقع الرابطة. والثاني المتمثل بصندوق بريد vote@syrianswa.com>

وبعد ان تأكدت من تطابق النسخ المستخرجة عن أصلها الإلكتروني المرسل مباشرة من المقترعين، وبنتيجة فرز الأصوات وإحصائها، وبعد ان استبعدت اللجنة التكرار وكذلك استبعدت الأصوات التي أدلى بها مصوتون غير مسجلين في الرابطة.

تعلن اللجنة النتائج النهائية التي اسفرت عنها عملية التصويت، وجاءت على النحو التالي:

نال كل من الكاتبات والكتاب المرشحين المدرجين في الجدول المنشور هنا النتائج المبينة:

الاسم	عدد الأصوات
صادق جلال العظم	(99 صوتا)
روزا ياسين حسن	(96)
فرج بيرقدار	(92)
فواز حداد	(92)
رشا عمران	(92)
لينا الطيبي	(90)
ريم الجباعي	(89)
جورج صبرا	(89)
حسين العودات	(89)
خطيب بدلة	(88)
خلدون الشمعة	(82)
عبد الرزاق عيد	(79) (منسحب)
حسام الدين محمد	(79)
محمد شحرور	(78)
إسلام أبو شكير	(77) (منسحب)
عبد الناصر العايد	(77)
مفيد نجم	(74)
حليم يوسف	(74)
ابراهيم اليوسف	(73)
منذر المصري	(71)
فاروق مردم بك	(71)
طالب. ك. ابرهيم	(71)
ياسر خنجر	(68)
بشير البكر	(66)
عادل بشتاوي	(63)
أحمد الحسيني	(62)
عائشة ارناؤوط	(62)
فايز سارة	(59)
أكرم البني	(52)
خليل النعيمي	(52)
عمر إدلبي	(51)
عماد الدين موسى	(45)
عبد الرحمن حلاق	(43)
مطاع صفدي	(43).

وبعد فرز الأصوات وظهور النتائج النهائية اجتمعت اللجنة المشرفة على الانتخابات وحللت النتائج وناقشت الاحتمالات المختلفة لطريقة تأليف المكتب التنفيذي بما في ذلك منصب رئيس الرابطة وسكرتير عام الرابطة.

وبعد مناقشات معمقة لمختلف الجوانب واستنادا إلى مراجعة إعلانات الرابطة المنشورة وكذلك الإعلان الأول للتأسيس والأدبيات المنشورة التي تلت، توصلت اللجنة بالإجماع إلى أن الفائزين الثلاثة عشر الأوائل الذي حازوا أعلى نسبة في الاصوات هم الذين يؤلفون تلقائيا هيئة المكتب التنفيذي على أن يتفقوا فيما بينهم على طريقة توزيع المناصب بما في ذلك منصب رئيس الرابطة ومنصب سكرتير عام الرابطة. على أن يتم ذلك إما بالتوافق، او بالتصويت.

ويهمنا كلجنة مشرفة على الانتخابات أن نسجل هنا بعض المعطيات الاساسية التي رافقت العملية الانتخابية وتلك التي نتجت عنها:

وهي:

أولا: بلغ عدد المسجلين بالرابطة: 207 أعضاء.

ثانيا: بلغ عدد المرشحين إلى الأمانة العامة 60 مرشحا.

ثالثا: بلغ عدد الذين ادلو بأصواتهم للمرشحين 107 مقترعين.

وعليه تجازت نسبة التصويت الـ50 بالمائة.

ورأت اللجنة أن هذه النتيجة تسجل نجاحا مهما لأول انتخابات حرة وديمقراطة لهيئة مدنية سورية منذ نحو نصف قرن، وعلى الرغم من كل الظروف الصعبة التي أحاطت بهذه العملية سواء بالنسبة إلى الأعضاء الموجودين في داخل سوريا أو في المنافي وأماكن اللجوء، فإن اللجنة تسجل ربما للمرة الأولى الدور الطليعي للثقافة في التغيير الديمقراطي وفي استعادة دورها في بناء المجتمع المدني بعدما كانت مهمشة

ومصادرة ومرتهنة.
ولاحظت اللجنة أن من أهم ما اتسمت به عملية التصويت وما نجم عنها هي تلك التعددية الخصبة التي ضمتها الهيئة المنتخبة والتي تشكل علامة تعكس المكونات الاساسية للمجتمع السوري من عناصر فكرية وإثنية ودينية وحزبية بحيث تجاوزت وللمرة الأولى ربما أحادية الاتحادات الحزبية ذات الصوت الواحد، وهذا بمثابة رد مباشر من المجتمع المدني السوري على ما يروجه النظام الاستبدادي من اتهامات للثورة السورية تمس بمدنيتها وسلميتها، لأن اللجنة ارتأت ان سلمية الثورة السورية كما انطلقت تجسدت في هذه الانتخابات الديمقراطية. وهذا ما يعكس بجلاء تطلعات الشعب السوري وسعيه الجاد إلى بناء مجتمع واحد لا أحادي متعدد ومتلاقح ومتواصل وبناء.
وإزاء ما ما يروج من تقولات ومزاعم وتفاسير مختلفة تحاول كلها أن تشوه مكانة في المجتمع السوري وتقدم ذرائع لتهميش دورها ومصادرة إرادتها وحقوقها المدنية وحقها بالمشاركة الكاملة الحرة في المجتمع، فإن هذه الانتخابات الاتحادية والروابطية قد تكون الأولى في العالم العربي التي تصدرت فيها المرأة حضورا وثقلا عدديا في الترشح والتصويت والنتائج. وبالتالي فوقد عبرت الانتخابات هذه عن روح الثورة السورية وموقفها الإيجابي من المرأة ككائن خلاق ومبدع وغير منتقص من دوره في بناء المجتمع المدني والوطني والثقافي.
إن ما شكلته الظاهرة الإنتخابية لرابطة الكتاب السوريين من سلوك طليعي هو بمثابة علامة ساطعة عوطريقا لابد أنها انها ستحتذى من جانب الهيئات الأخرى للمجتمع المدني السوري التي أخذت تتشكل اليوم في ظلال هذا الحراك السوري العارم وبصورة أهلية وطوعية وحرة تسعى إلى تحرير المجتمع السوري بمختلف مكوناته وعلى كل صعيد ثقافي واجتماعي وسياسي من ربقة النظام الشمولي الذي صارد الحياة السورية لنصف قرن وعمل على شل القوى الحية والمبدعة للمجتمع، وباتالي خروجا من نفق الدم والعبودية إلى فضاء الحرية والنشاط الخلاق للسوريين.
إننا واثقون من أن جمهرة المثقفين والمبدعين السوريين سوف يجدون في نهوض رابطة الكتاب السوريين أفضل تعبير عن حيويتهم الفكرية والإبداعية، بمشا يشكله هذا الجسم التمثيلي من مرونة واتساع يستوعب مختلف التيارات الفكرية والأدبية التي يؤمن اصحابها بحرية الفكر والإبداع دون قيد أو شرط والحق غير المنتقص في الاجتماع والتأطير
وقد بدأت تباشير هذه الخطوات المتحررة في بعض الروابط السورية التي تأسست فعلا بعد إعلان تأسيس رابطة الكتاب السوريين على اساس ديمقراطي حر، لتشكل هذه الروابط تعبيرا عن غنى المجتمع الثقافي السوري وحيويته بعيداعن كل مصادرة أو قسر أو ارتهان من قبل المدني والثقافي للرسمي والعسكري والأمني كما ظل سائدا.
أخيرا إن واحدا من أهم الأسئلة التي تطرحها تجربة الكتاب السوريين علينا وعلى الروابط العربية الأخرى هو السؤال الشرطي والاساسي والوجودي : لماذا يجب ان يكون هناك في بلداننا نقابة واحدة أو اتحاد واحد أو رابطة واحدة أو هيئة واحدة سواء كانت سينمائية او أدبية أو فكرية أو فنية او فلسفية. او عمالية أو فلاحية؟
تجربتكم أيها المثقفون والمبدعون السوريون الأحرار إنجاز وإجابة مختلفة نقدم لها التحية.

إشارة أولى:
تجدر الإشارة إلى أن رابطة الكتاب السوريين دعا إلى تأسيسها كل من نوري الجراح، صادق جلال العظم، ياسين الحاج صالح، حسام الدين محمد، فرج بيرقدار، مفيد نجم، خلدون الشمعة، واعتبر كل الأعضاء الذين انتسبوا إليها قبل الانتخابات وبلغ عددهم حوالي المائتين أعضاء مؤسسين.
ولم يترشح إلى انتخاباتها من بين المؤسيين لا نوري الجراح ولا ياسين الحاج صالح.
وقد انضم إلى الرابطة التي أعلن عن تاسيسها في 1--1 2012 أكثر من ثلاثمائة كاتب عربي من فلسطين ولبنان ومصر والمغرب، اعضاء فخريين في خطوة تضامنية مفتوحة من الكتاب العرب مع الرابطة الحرة الوليدة.
وقد اعتبرها نوري الجراح في بيان الإعلان عن تأسيسها في 1-1-2012 «أول مولود ديمقراطي للثورة السورية، وتنسيقية أدبية من تنسيقيات الثورة السورية».

إشارة ثانية:
من المنتظر أن تقوم الأمانة العامة بإنجاز مهمة التوافق على صيغة المكتب التنفيذي للرابطة خلال أيام قليلة، وتبلغ اللجنة المشرفة على الانتخابات بالصيغة، وتقوم هي بالإعلان عنها. وبعد ذلك يجري تشكيل لجان العمل المختلفة كما هو منصوص عليه في إعلان التأسيس والنظام الأساسي المقترح للرابطة.

التوقيع
الشاعر بول شاوول (لبنان)، القاص والروائي محمود الريماوي (الأردن)، الكاتب الروائي سعد القرش (مصر)، الشاعر زهير ابو شايب (فلسطين)، الشاعر نوري الجراح (سوريا).